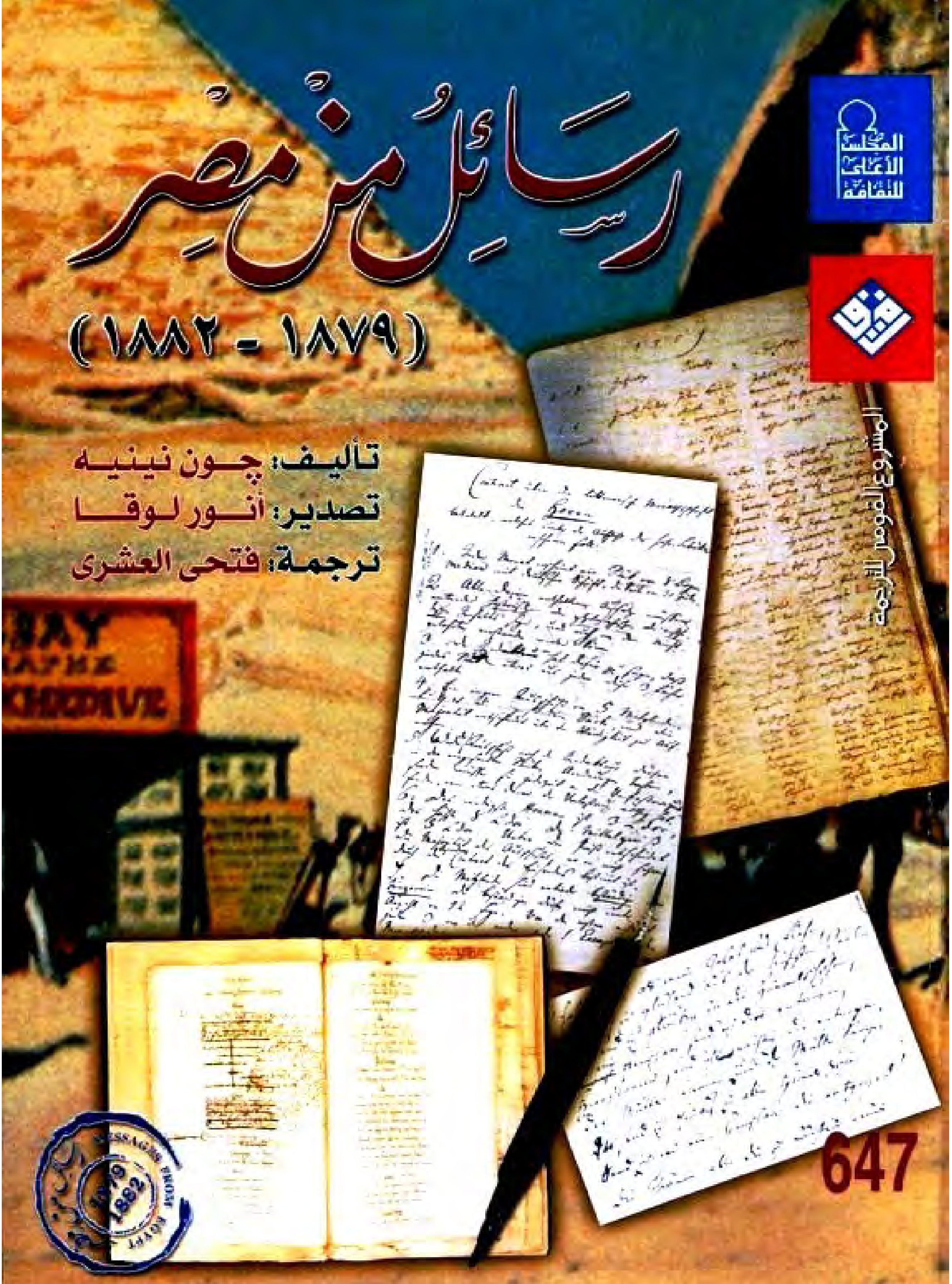


المجلس الأعلى للثقافة
رسائل من مصر
(١٨٧٩ - ١٨٨٢)
تأليف: چون نينيه
تصدير: أنور لوقا
ترجمة: فتحى العشرى
المشروع القومي للترجمة
647


منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET

المشروع القومى للترجمة

رسائل من مصر

(١٨٧٩ - ١٨٨٢)

تأليف : چون نينيه

إعداد وتصدير : أنور لوقا

ترجمة : فتحى العشرى



٢٠٠٥

المشروع القومى للترجمة

إشراف : جابر عصفور

- العدد : ٦٤٧

- رسائل من مصر (١٨٧٩ - ١٨٨٢)

- چون نينيه

- أنور لوقا

- فتحى العشرى

- الطبعة الأولى ٢٠٠٥

هذه هى الترجمة الكاملة لكتاب

Les Lettres d'Egypte

1879 - 1882

de John Ninet

Présenteés par

Anouar Louca

ISBN : 2-222-02 5 36 - 2

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St., Opera House, El Gezira, Cairo

Tel. : 7352396 **Fax :** 7358084.

المحتويات

١٨٨٠

حيث طالبه أعضاء الحزب الوطنى بتنصيب "حليم" . شركة "لاند مورتجاج كامبانى" تنزع ملكية الفلاحين لأراضيهم . الجيش يتولى بنفسه طلب تنفيذ الإصلاحات التى وعدت بها أوروبا . المسئولون عن الإتلاف . انطلاق تجارة الرقيق . السودان : "نائب رياض" يحمى النخاسين ، مروجو النقود المزيفة . بعض العاملين الإنجليز يستأثرون باحتكار الملاحة البخارية . القلق بسبب تناقص مياه النيل .

٦٠ – **الإسكندرية ، فى ٣١ أغسطس (لوسييكل ، ١١ سبتمبر ١٨٨١)** 326

إعادة الأنباء التى غالت فيها الصحافة والسياسة الإنجليزية إلى حجمها الصحيح . غضب لا جدوى منه للمراقب الفرنسى "دى بلينيير" ضد "على مبارك" والوزير "رياض" الذى يسانده "ماليت" . من أجل استتباب النظام فى مصر ؛ غير مضطرة ، سوف تضم فرنسا فرقًا إلى فرق إنجلترا ، ولكن بسمارك والسلطان يعارضان مثل هذا الإجراء . فى مواجهة الهياج ، الجيش المصرى ، من باب الوطنية ، يسوف أحداث تونس والجزائر التى استغلها الإنجليز لدى توفيق الأكثر تعصبًا عن أسلافه . آمال تعلق بالمجلس الجديد المنتخب فى باريس : إعادة دراسة قضية دى رانج وتأكيد فكر الاستمرار فى تمثيل الجانب الفرنسى على غرار استقرار العنصر الدبلوماسى الإنجليزى .

٦١ – **الإسكندرية ، ٩ سبتمبر (لوسييكل ، ١٩ سبتمبر ١٨٨١)** 328

يوم مجيد ، الشعب المصرى أكد حقوقه : تغيير الوزارة ، النداء بالبرلمان ، المساواه أمام الإصلاح القضائى "عرابى بيه" أخطر الخديو رسميا ، بينما الآلايات كانت تحتل جميع المواقع فى القاهرة . أمن الأوروبيين مضمون . قيام ثورة سلمية بالرغم من تدخل "توكشون" الملحق البريطانى بالنيابة . استبعاد "رياض" ، استدعاء "شريف" . التشكيل الوزارى : التعسف ضد الحق سيصبح فضيحة دامية ! المصرى استرد اعتباره . مواطن عظيم : عرابى .

٦٢ – **القاهرة ، ٨ سبتمبر (لوسييكل ، ٢٩ سبتمبر ١٨٨١)** 330

ضغينة النظام القديم للجيش المصرى ، تجسيد مباشر للفلاح الذى حرم طويلاً من العدالة . التزامن وأصول الحركة ، لا يماثل مفهوم الانضباط فى جيش أوروبى قتل عرابى وصحبه ؟ إن الأفكار خالدة والبشر فانون . هؤلاء الذين يقللون من أهمية الأعمال السياسية لأمة فى الخارج : دبلوماسى لا ضمير له أو على علم خاطئ ، المراقب والماليون الجشعون ، بعض المتزمتين وقليل من الإنجيليين ، التبصر الإنجليزى . الخديو غير كفء للتحكم فى الموقف . درس لأوروبا . هدوء البلد . سياق دولى وأهداف بريطانية . اتقاء خطأ إرسال فرق تركية . تفاهم مع شريف ، تعسكر الآلايات خارج العاصمة . أخلاق شريف . حديث تاريخى من عرابى إلى الخديو. عهد جديد .

٦٣ – **القاهرة ، ١٩ سبتمبر (لوسييكل ، ٣٠ سبتمبر ١٨٨١)** 333

الوزارة المشكلة : انتقال وردود فعل . هروب رياض . عرابى يواجه إجراءات دفاع : احتلال تقاطع الخط الحديدى عند بولاق ، إغلاق المكاتب التلغرافية ، قطع جسور النيل. مفاوضاته مع شريف : الاحتفاظ بالرقابة مع عدم التدخل السياسى . نحو مجلس للنواب . أوروبا ليبرالية كان لزاما عليها أن تغتبط لذلك . موقف خاطئ للخديو الذى كان يشجع أعضاء الحزب الوطنى . مواقف كوكسون كوليفان وسينكيوتش أثناء المظاهرة العسكرية فى ٩ سبتمبر . مصر تظهر لأوروبا . بدون حجاب – الوسطاء المهتمين ؛ سياسيين أو ماليين . إصلاحات إدارية . فشل النفوذ الإنجليزى . ماليت سوف يعود ومعه مفتش من طرف الباب العالى .

٦٤ – **القاهرة ، ٢١ سبتمبر (لوسييكل ، ٤ أكتوبر١٨٨١)** 337

عودة إلى القاهرة ، ماليت محبطًا يستكشف المجال ، فطنته تتعارض مع رومانسية كوكسون . حكمة الوطنيين متهمون بإثارة الفتنة . أين الأوروبيون الذين يفهمون الفلاح ؟ استبداد محمد على خليفة المماليك ، تغلب عليهم بذكائه : لا وقت للعدالة .. تذكار شخصى عن ١٨٣٩ عن طاقة الفلاح : كيف أن قرية إبان حرب سوريا أخليت من سكانها فى مدى ليلة عند اقتراب محترفى التجنيد ، أعلن عنهم المؤلف . استدعاء موسى العقاد الذى نفاه رياض إلى السودان بسبب الاعتراض بتحريض من نوبار ضد نظام المقابلة ، وعن تعاطفه مع حليم ذات مساء عندما وجه دعوة لأعضاء الحزب الوطنى إلى القصر ، فوجئ الخديو بزيارة ماليت .

٦٥ – **القاهرة ، ٢٦ سبتمبر (لوسييكل ، ٦ أكتوبر ١٨٨١)** 341

عندما رشا رياض الخديو . أنفق على أعضاء الحزب الوطنى أموالاً سرية لا تعرفها الرقابة . رد عرابى على تهديدات كوكسون . فضائح رياض المكتشفة . أعمال شاهين باشا وحافظ باشا . بيع فى الخارج عن طريق وسيط نورسون بك لجزء من أرض مصر . عرابى وشريف يوقفان الأعمال الفاسدة . استمرار التطهير . المؤلف أبلغ وزير المالية . أحد أعضاء الحزب الوطنى يطالب بالذهب الذى وهبه إسماعيل للقسطنطينية من أجل تعديل نظام الوراثة فى الحكومة المصرية . نشرت صحيفة لوستاندرا برقية خطأ تعلن عن مظاهرة عسكرية جديدة . عريضة من الأعيان تطالب بالإصلاحات : تأسيس مجلس نواب وإبعاد الموظفين المشبوهين .

٦٦ – القاهرة ، ١٠ أكتوبر (لوسييكل ، ٢٠ أكتوبر ١٨٨١) 345

مقالات لا جدوى منها نشرها دى بلينيير . الرقابة أصبحت دولة داخل دولة، لزامًا عليها أن تغير الموقف. الإصلاحات الإدارية من الآن فصاعداً تخص المصريين ، وهم أهل لذلك تمامًا مع مساعدة استشارية من الرقابة . الجيش والوزارة يتفاهمان من أجل صالح الأمة . ازدراء للصحافة الإنجليزية التى تغتاب الفلاح ، وترفض لمصر استقلالها . ماليت حامل وسام بالرغم من فشله . ماذا يعنى إرسال السلطان لنظامى باشا إلى مصر ؟

٦٧ – القاهرة ، ٢١ أكتوبر (لوسييكل ، ٢ نوفمبر ١٨٨١) 348

عودة البعثة العثمانية . هدفها ليس ما نسبه إليها ماليت احتمالاً للرؤى البريطانية ، بل مطالبة الخديو – بمثابة دليل على ولائه – بقرض شخصى للسلطان . سخاء توفيق أقنع نظامى باشا وفؤاد بيه أن يوصيا السلطان بالصبر . الأزمة المصرية تتعقد . هدوء عام مضمون ، طالما أن لندن وباريس توقفتا عن اللعب بـ البوارج . استبدال دوبينى بمونج سيكون مهمة ماليت . الدبلوماسيون الذين يروجون أنباء خطأ .

٦٨ – الإسكندرية ، ٣ نوفمبر (لوسييكل ، ١٨ نوفمبر ١٨٨١) 350

أعضاء الحزب الوطنى يحتجون على القروض التى منحتها الرقابة إلى للراقصات بالأوبرا . فسق كبار الموظفين الأجانب ، منذ عهد القنصل فيفيان المحب للملذات . مناصب اقتصاد موصى عليها : الموظفون الأوروبيون فى النواحى المالية ، وفى الداخل ، وفى المساحة ، وفى السكة الحديد وفى الجمرك ، متطفلون تتعارض رفاهيتهم مع بؤس شعب كادح . هل سيمثل دى رانج فرنسا فى لجنة الإصلاح القضائى حيث يهيمن الإنجليز ؟

١٨٨٢

٧١ - القاهرة ، ٢٤ يناير (لوسييكل ، ٤ فبراير ١٨٨٢) 360

مجلس النواب يدافع عن امتيازاته . عقبة المسألة المالية ، وإصرار المندوب البريطانى على التدخل إثر المذكرة الجماعية التى انتزعتها لندن من باريس . الصحافة تشجب المذكرة . شائعات حول حل مجلس النواب. مراسل التايمز ينادى بحملات عسكرية . تحقيقات النواب فى الإدارات أدت إلى اكتشاف المفاسد . عاملون غير أكفاء ، يفرضهم الأجنبى .

٧٢ - القاهرة ، ٣ أبريل (لوسييكل ، ١٢ أبريل ١٨٨٢) 363

قومية الحكومة ثابتة . تكدر بين العاملين الأجانب وفى الطبقة التركية ، تأثروا ببعض إجراءات اقتصادية واستقلالية . ضعف توفيق المؤذى ، الذى كان من حق "حليم" شرعًا ودستورًا أن يحل محله . مشروعات مشئومة من إنجلترا . نوبار منهوك القوى . عرابى . برنامج معتدل للإصلاحات . مجلس النواب - مؤجل إلى نوفمبر - سوف يناقش الميزانية ، بالرغم من لهجة المذكرة الأنجلو - فرنسية . هدوء الجيش . الحكومة تعلن معارضتها لحفر قناة سويس جديدة .

٧٣ - القاهرة ، ٢٩ أبريل (لوسيكل ، ٤ مايو ١٨٨٢) 366

حملة تزييفات جديدة . مصادرها السياسة - الاجتماعية . انعكاساتها على البورصة . الجيش يحقق مع المتهمين الشراكسة . لماذا اضطراب عملية السلام ، وهى تجديد حياة مصر ؟ من نابولى ، إسماعيل يؤلب ضد الثورة . نفى عملية "لافيزون" . عرابى يقارن بين مصر وأيرلندا . رسالته إلى التايمز : توضيح موقف هيجان رجال البنوك وشائعات بتدخل تركى أو مشترك يتعارض مع جدية الحكومة .

٧٨ – الإسكندرية ، ١٢ يونيو (لوسييكل ، ١٩ يونيو ١٨٨٢) 383

مذبحة ١١ يونيو : مشاجرة بين أحد المالطيين وبين حمَّار تحولت إلى مذبحة – المؤلف شاهد عيان . قنصلاً كل من اليونان وإنجلترا أصابهما الهلع . الأميرال الإنجليزى هدد بطاريات المدافع المصرية . إثارة الهلع بعد الإنذار : رحيل جماعى للأجانب .

٧٩ – كفر الدوار ، القيادة المركزية للجيش المصرى ، ١٥ يوليو (لوسييكل ، ٢٨ يوليو ١٨٨٢) 384

إخلاء الإسكندرية . على أبواب المدينة يوم ٢١ يوليو ، استقبل الجيش المؤلف . قضاء الليل على ظهر حصان . وصوله إلى معسكر عرابى . حكاية قصف الأسطول الإنجليزى للإسكندرية فى الحادى عشر من شهر يوليو : إنذار الأميرال بوشامب سمور ، ورفض مصرى ، وحوار غير متكافئ بالمدافع . وضحايا مدنيون ، الإسكندرية تحترق . جولة بالإسكندرية يوم ١٣ : فوضى بين السكان المهاجرين ، سلابون ونهابون فى وسط الأطلال التى يتصاعد منها الدخان ، الخديو صاح ساخرا ، وغيَّر عودته إلى قصره ، بعد أن قضى اليوم على متن سفينة إنجليزية . عنف بعض الرجال الذين نزلوا لمكافحة الخديو . احتلوا مركز الحراسة . رجال الخديو لحقوا بالجيش . هدف الحماس وكرم البلد . رسالة توفيق إلى عرابى يدعوه للحضور للتفاوض حول ترتيب مقترح من جانب الأميرال الإنجليزى . الرد : "عرابى" يوضح العدوان الإنجليزى ، موقف قانونى للجيش ، استحالة التفاوض تحت ضغط الأساطيل .

الوطنى . انضمام "حليم" . الفارون من مراكزهم . الخديو مراقب ، وطلبة الأزهر يتطوعون للدفاع عن المقطم . جيوش سودانية فى الطريق . انضم المهدى عبد الله المزيف إلى الحركة . آخر اشتباك : استولى المصريون على قطار مدرع للإنجليز . قليل من الضباط الإنجليز ، يعاملون معاملة حسنة . "عرابى" يتفقد الخطوط ، و "طلبة" يتلقى التحية فى القاهرة .

ذريعة القوات البريطانية فى مصر : إخماد ثورة . انتفاضة وطنية أسفر عنها قصف الإسكندرية . الشعب ، من مجلس نيابى ذى سيادة ، يرفض الخديو ، أداة الحماية الإنجليزية ، على غرار حماية تونس ، ويعهد بالدفاع عن البلد إلى "عرابى" . المقاومة تبدأ جنوب الإسكندرية . القوة العسكرية . صحوة إسلامية أفرو – آسيوية وشيكة الوقوع سوف تزعزع إنجلترا وتضع نهاية للإمبراطورية العثمانية .

استدعاء كتيبتين برقيا من كنج عثمان من أجل معركة رأس الوادى . فى الزقازيق كانت الهزيمة ."سلطان باشا" باعتباره ممثلاً للخديو ، يصطحب أركان الحرب الإنجليزى إلى شرق الدلتا . قدم رشوة للبدو ؛ من أجل خداع "عرابى" وأرشد الغزاة إلى طريق الصحراء . معسكر التل الكبير هوجم بغتة . وقعت معركة فى نيفيشة . استشهاد بعض كبار الضباط . المصريون لا يريدون تصديق الكارثة ولم يعارضوا "عرابى" . القاهرة ، مدينة مفتوحة : آخر محادثة بين المؤلف "وعرابى" . منصاعًا لنصيحة "عرابى" و "طلبة" استسلموا إلى الجنرال "ولزلى" ليفلتوا من جلادى الخديو .

(وثائق وملاحظات)

كلمة المترجم

أهدانى الدكتور أنور لوقا هذا الكتاب "رسائل من مصر" منذ عشر سنوات تقريبًا ، وأخبرنى أنه اختارنى لترجمته ، رغم معرفته المحدودة بى .. واستمر فى الاتصال بى من فرنسا - موطنه - عدة مرات ، فصارحته بأن لغة المؤلف "چون نينيه" صعبة للغاية وتحتاج إلى جهد ووقت ، بينما مكافآت الترجمة فى مصر لا زالت ضعيفة ، كما أن التقدير الأدبى يكاد يكون معدومًا .. وإزاء رغبته فى ترجمة هذا الكتاب التى تصل إلى درجة الأمنية والحلم ، وعدته بترجمة الكتاب رغم كل شىء .

وفوجئت بالدكتور حسين مؤنس - رحمه الله - يتصل بى رغم معرفته الحديثة بى ، يطلب منى القيام بالترجمة على أن يتولى نشرها فى دار المعارف التى كان يرأسها فى ذلك الوقت .. ولكنه لم يستطع أن يحطم الروتين أو يكسر القواعد ، فصارحته بأن المكافأة المتاحة قليلة ، بينما لدى أعمال أخرى لا أستطيع التخلى عنها والتفرغ لهذه الترجمة .. فأخبرنى بأنه سيقوم بمحاولات لإقناع أمانة الحزب الوطنى بإصدار الكتاب فى طباعة فاخرة وتخصيص مكافأة سخية للترجمة .. ومرض الدكتور حسين مؤنس ورحل دون أن يتم المشروع .. وأمام وعدى للدكتور أنور لوقا والدكتور حسين مؤنس ، لجأت للدكتور سمير سرحان الذى تحمس للمشروع ولكنه لم يتمكن فى ذلك الوقت من زيادة مكافأة الترجمة ، وإن طلب منى الانتظار حتى يجد حلا لتلك القيود ، خاصة وأن مشروعًا لزيادة مكافآت الترجمة بشكل عام كان مطروحًا على وزير الثقافة فاروق حسنى لعرضه على مجلس الشعب .

ولكن وقتًا طويلاً مر دون أن يتم المشروع .. فنسيت الموضوع تمامًا لدرجة أن النسخة الأصلية الفرنسية فقدت ، ولا أدرى أين ، فآثرت الصمت . . واتصل بى الدكتور أنور لوقا من جديد ، فأخبرته بفقدان النسخة وبصعوبة المشروع ، فأرسل إلىَّ نسخة أخرى ، وأخبرنى بأنه سيتصل بالسيد وزير الثقافة فاروق حسنى ..

وفوجئت فى أثناء انشغالى بمهرجان الإسكندرية السينمائى الدولى فى دورته السابعة عشرة فى سبتمبر عام ٢٠٠١، بالزميل عاصم حنفى الصحفى والكاتب بمجلة روزاليوسف، وكان اللقاء الأول بيننا ، يخبرنى بأنه التقى الدكتور أنور لوقا فى باريس وعلم منه تفاصيل الموضوع وأخبره بأنه سيعرض الأمر على وزير الثقافة ، وبالفعل التقى بوزير الثقافة الذى طلب منه أن يخبرنى بموافقته ووعده بتذليل كل العقبات .. ومر وقت آخر ، لم ألتق فيه بالسيد الوزير ، ولكننى فى أحد لقاءاتى بالدكتور جابر عصفور أمين عام المجلس الأعلى للثقافة ، تذكرت المشروع وكان يقف بيننا الراحل الدكتور عبد القادر القط ، فعرضته عليه فطلب منى البدء فى الترجمة فوراً مع وعد منه بتذليل كل العقبات .. وتم ذلك بالفعل .. فشكراً له وشكراً لكل من أبدى استعداداً ، وشكرا للدكتور أنور لوقا وشكراً لكل من تعاون معى بالشرح والتفسير ..

فتحى العشرى

تصدير

- چون نينيه : (١٨١٥ - ١٨٩٥) عودة رجل وعمل ، كأن علاقة برزت فى تيار تاريخ كان حتى الآن مجهولاً ، وهو تاريخ التنمية الذى يتيح التقاط الخيوط الأولى فى الواقع الخاص الذى شكلته مصر فى القرن التاسع عشر.

- نشأ نينيه فى مدينة جنيف التى عرفها غداة الثورة الصناعية عندما بدأ فى اقتفاء أثر "ملك القطن" من ميناء هافر وحتى جورجيا. وهناك تعلم نينيه كيفية إنتاج أفضل أنواع هذا المحصول الثمين . وعند عودته إلى العالم القديم استقر نينيه فى دلتا النيل كمزارع ومصدر وصحفى ، فى الوقت الذى كانت فيه قناة السويس - التى تم حفرها على حدود مزرعته - تعيد تشكيل العلاقة بين الشرق والغرب . اختلج صدر نينيه بحداثة القرن الذى كان يعيش فيه ، وبملتقى هذه التأثيرات ووسط هذا الجمع من الفلاحين الذين كانوا يتلقونها راح يتابع عملية التطور الأولى ويدين بكل ما أوتى من ضراوة جميع الخفايا التى تتعارض مع حقوق الإنسان .

- وقد قمنا فى جزء خاص بتعقب ترجمة هذا الشاهد الحاذق على المواجهة العالمية والذى يقوم بتجسيد عصرنا بكل وعى وإدراك . أما الجزء الحالى فيترك له الكلمة.

- ويعتمد هذا العمل المزدوج بصفة رئيسية على الأرشيف الدبلوماسى والمدنى ، وفى بعض الأحيان الخاص فى جنيف وبرن ولندن ولشبونة وواشنطن ، بالإضافة إلى مصادر دار الوثائق بالقاهرة والمطبوعات والمجلدات التى صدرت فى ذلك الوقت.

- وها هى مجموعة من الرسائل التى لم تنشر من قبل كانت فى طى النسيان . وكان چون نينيه قد أرسلها من مصر فى الفترة الحرجة بين ١٨٧٩ و ١٨٨٢ لصحف فرنسية وإنجليزية وسويسرية (لوسييكل - لانترانزجينس - التايمز).

- والرسائل مزودة بمقدمة وبها تعليقات لم يسبق نشرها تحدد البعد التاريخى ، إلى جانب فهرس يقوم بتسهيل عملية البحث.

- وهذه الرسائل تعتبر تحقيقًا مهما حول الثورة المصرية التى تبعت الاحتلال البريطانى فى عام ١٨٨٢ ، إلى جانب أنها تعتبر وثيقة مباشرة حول ظاهرة ما قبل الاحتلال فى التاريخ الحديث . وتخضع مادة الرسائل لعملية تحليل نظامى يتيح للباحثين فى العلوم السياسية والاقتصادية والاجتماعية أن يخضعوا افتراضاتهم ونظرياتهم لتجربة ملموسة خالية من أية أيديولوجية ذات خلفية.

- وإذا كنا قد نجحنا فى تنفيذ ونشر هذا العمل الضخم الذى كنا قد بدأناه فى أثناء دراساتنا بالسوربون وعملنا بجامعة عين شمس بالقاهرة فالفضل فى المقام الأول يرجع إلى مساندة الصندوق الوطنى السويسرى للبحث العلمى ثم إلى مجموعة أبحاث ودراسات الشرق الأوسط بجامعة بروفنس . ونتوجه أخيراً بالشكر والعرفان إلى كل من أيد مجهودنا سواء باستخدام سلطته أو علمه أو صداقته فى أى مكان قادتنا إليه أبحاثنا .

أنور لوقا

رموز

A.E. أرشيف وزارة الخارجية بباريس .

B.B الكتب الزرقاء ، وثائق دبلوماسية عامة – وزارة الخارجية – لندن – سلسلة أحوال مصر.

CHE ملفات التاريخ المصرى ، القاهرة – دار المعارف ١٩٤٨ – ١٩٥٦ .

D-N وثائق ونبذات .

E-T موسوعة الإسلام – الطبعة الأولى فى ليدريل ١٩١٣ – ١٩٣٨ ، الطبعة الثانية عام ١٩٦٠

F.O وثائق وزارة الخارجية – محفوظة لمكتب السجلات العامة بلندن .

L J كتب صفراء ، وثائق دبلوماسية عامة تصدر عن وزارة الخارجية بباريس ، سلسلة أحوال مصر.

* تدل النجمة على جزء غير وارد .

التوجيه المرجعى

تم ذكر الوثائق والدوريات والمؤلفات التى يجب الرجوع إليها فى نقاط منفصلة ، أما بالنسبة للمؤلفين فهم موضوع فهرس خاص يعطى فكرة كاملة عن أعمالهم المذكورة.

وبالنسبة للمراجع العامة للموضوع انظر:

روبير تيجور : نبذة عن تاريخ الثورة العرابية ، مسح مرجعى .

جريدة الشرق الأوسط (١٩٦٢)

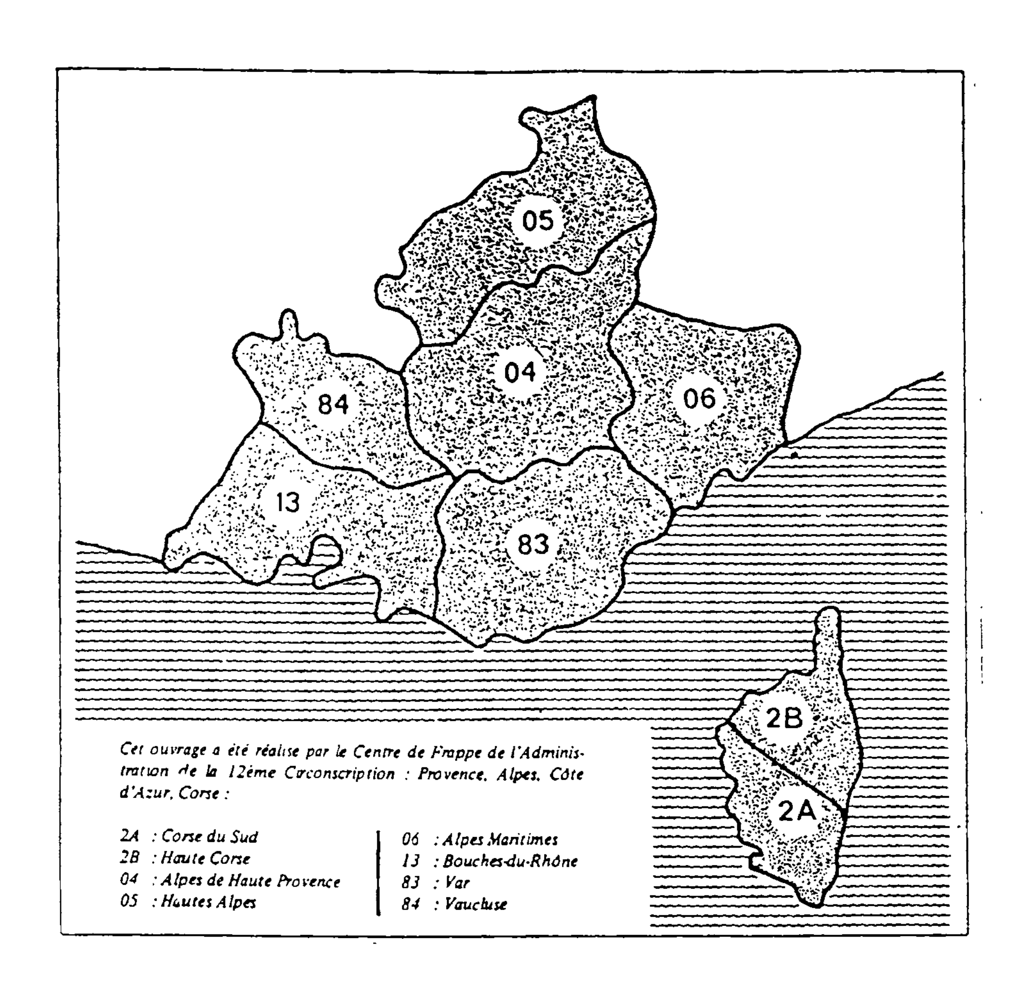
أنور لوقا : رسالة مرجع منهجى ، رحالة ومؤلفون مصريون فى فرنسا .

فى القرن التاسع عشر - باريس - ديدييه فى عام ١٩٧٠

سكوتش ألكسندر : مصر المصريين ١٨٧٨ - ١٨٨٢ فى مصر - أطلنطس ١٩٧٢

تدوين المصطلحات الشرقية

حافظنا لأسماء الأعلام العربية والتركية على شكلها المألوف للقارئ الغربى . مثل "عرابى" باشا الذى بقى "عربى" وعلى هذا فإن التنويه البيليوجرافى العربى رصد بأسلوب مبسط مستوحى من مضبطة الموسوعة الإسلامية ، على الرغم من أننا نميل إلى استخدام العلامات الأخرى.



هذه الخريطة أعدها مركز فراب للدائرة الثانية عشرة
بروفونس جبال الألب ، كوت دازور ، كورسيكا .

2 A · كورسيكا الجنوبية
2 B : كورسيكا العليا
O 4 : جبال الألب ببروفونس العليا
O 5 · جبال الألب العليا

O 6 : جبال الألب البحرية
B · بوش دى رون
83 : فار
84 : فوكلوز

مقدمة

مواطن من جنيف

جون نينيه مواطن من جنيف قضى طفولته مثل روسو فى حى سان جارفيه . . وكان جده – وهو النجار القديم – يمتلك طاحونة على ضفاف نهر الرون قام بتحويلها إلى طاحونة لعجينة التبغ ، وهو الاختراع الذى عاد عليه بالربح . وإلى جانب روح المبادرة تلك أخذ جون نينيه عن أبيه – تاجر الحديد المتمرس الذى تنبأ بسيطرة الآلة – إرادة جريئة لا يجمحها جامح . غير أنه ورث عن أمه لويز روبينون صرامة التربية على مذهب الكالفينية الذى يضع العواطف والأعمال فى مكانها الصحيح ، وكانت تلك الأم هى نفسها ابنة "لصانع صناديق وعاملة صقل الصلب" فقامت بتربيته فى جو المصنع حيث إنها تنتمى من ناحية الأم لعائلة تمتد لعدة أجيال فى صناعة الساعات ، بالإضافة إلى عائلة روبينون التى كان يعمل أبناؤها بالزراعة فى القرن الثامن عشر .

روبينون شونى، أنور لوقا، مدام نينيه، روبينون، متحف جنيف رقم ١١٥ مايو ١٩٧١ ص٩-١١ .

لا غرابة فى أن يصبح جون نينيه مزارعًا للقطن ومهندسًا بالنسبة للبعض . ونشأ نينيه وسط "المهنيين" فى سان جارفيه وذلك انتظارا لما سيتلقاه من تدريب فنى فى الولايات المتحدة، ولا تخفى على أحد عقلية صانعى الساعات وثقتهم العمياء بتفوقهم ؛ فهم بفضل أصابعهم الماهرة يقومون بتحويل الدقة إلى عمل أخلاقى بحت ، وسيكون عملهم هذا – المبنى على المهارة الفردية – بمثابة ضمان لاستقلالهم أمام أصحاب العمل ولحفظ كرامتهم الإنسانية وسط هذا الخضم الساحق للثورة الصناعية ، فهم يقرءون كثيراً ويناقشون الأفكار ويتكلمون بجرأة ، كما أن لديهم شجاعة الدفاع عن حريتهم .

ظلت هذه الروح فى سان جارفيه لم يطرأ عليها أى تغيير منذ عهد صانع الساعات المشهور إسحاق روسو وولده جان جاك . ولهذا نرى أن هذه الضاحية شهدت انطلاق مظاهرات التعاطف الجماعى وحركات المعارضة والإصرار الوطنى طوال القرن التاسع عشر فى جنيف .

التحق جون نينيه بمدرسة كالفان فى عام ١٨٢٤ حيث لم يتعلم الكثير باستثناء الحياة الجمهورية ، كما سيقر فيما بعد جنرال دوفور رجل الدولة السويسرى المشهور . فقد كانت هذه المدرسة – التى أسست منذ ثلاثة قرون للحفاظ على الاستقلال الدينى لجنيف ، الذى كان مرادفًا لاستقلالها السياسى – تقوم بتخليد تقليد الوطنية فى مفهوم التعليم ، لقد كانت هذه المدرسة مدرسة مساواة بالنسبة لجميع أطفال هذه الجمهورية الصغيرة ، وكان العمل الشخصى هو الذى ينمى إحساسهم بالمسئولية بحيث كان النشاط وبذل الجهد مألوفا لجون نينيه فى فترة طفولته ، وكانت هناك إرادة قوية عامة تسيطر على سكان جنيف المتلهفين على إعادة بناء جمهوريتهم بعد خمسة عشر عامًا من السيطرة الفرنسية . وسيظل جون نينيه الذى جاء إلى الدنيا فى فجر عودة النظام الملكى مطبوعًا على بعض المفاهيم التى غرست مبكرًا فى أعماق حساسيته ؛ وهو واقع التحرر الوطنى والتضامن مع الحلفاء وتفانى كل شخص من أجل الصالح العام .

كانت الحكومة المحلية تتسم بالرحمة و "الأبوة" بفضل الإدارة الحذرة الخالية من أية منغصات أو عبء ضريبى ، إلى جانب قيامها بأعمال ذات نفع وأعمال مدنية مما ساعد على حدوث رفاهية مادية وفكرية . ونستطيع القول بأن سكان جنيف كانوا سعداء فى بيوتهم ، وهو ما جهر به كل من رجال القضاء والخاصة بكل امتنان .

[**فيليب مونييه ، جنيف توبفير ، جنيف – أ. جوليان ١٩١٤**]

ومع ذلك وغداة ثورة يوليو رأى جون نينيه المراهق حدوث موجة من الاستياء الشعبى عمت سويسرا كلها ، وانتفضت عدة مقاطعات أو كانتونات ضد المؤسسات الأرستقراطية التى كان طابعها الرجعى قد اختفى إبان عودة النظام الملكى بفضل الحماس المشترك للتحرر الوطنى، وتحدت الصحفُ والمنشوراتُ السلطةَ وأعلنت المطالب

التحررية وحثت على العمل . وأدى الهياج الشعبى إلى مراجعة الدستور المعروفة باسم "التجديد" [نيوشاتل ١٩٣٤ ص ٤٢٠ - ٤٢٣] "الإصلاحات المطلوبة تهدف جميعها إلى الديمقراطية وتقوم كلها على نفس مبدأ سيادة الشعب والمساواة فى الحقوق" .

[**جون شارل بيوديه ١٩٤١**]

وبينما ظهرت جمعيات تأسيسية فى أغلب الدول الكونفيدرالية لإرساء فصل السلطات وحق الالتماس وحرية الصحافة والتجارة والصناعة أفلتت جنيف من هذه الهزة بفضل اعتدال السنديك الأول ريجو الذى انتهج طريق التقدم التدريجى ، وأدت تنازلاته الحكيمة إلى إتقاء المصادمات ، على الرغم من المجادلات البرلمانية العنيفة التى أثيرت فى ذلك الوقت . " السر فى طمأنينتنا - كما يؤكد إعلان ٣١ ديسمبر لعام ١٨٣٠ - يكمن فى أشكالنا النموذجية ، وفى تلك الأشكال التى تسمح للرأى العام بأن يُسمع رأيه عندما تقتضى الحاجة الاجتماعية صدور قوانين جديدة" .

[**فرانسوا روشون ، التاريخ السياسى لجنيف ١٨١٣ - ١٩٠٧**]

فى هذا "المعمل السياسى" ، مسقط رأسه ، عاش چون نينيه محاطًا بجو من الرومانسية تلك الأعوام التى أطلق عليها مؤرخ الدستور السويسرى ويليام رابارداسم "ظهور الديمقراطية الحديثة فى جنيف" . وقبل مغادرته سان جارفيه إلى العالم الفسيح يكون چون نينيه قد شارك فى صعود اليسار واختراق الأفكار الراديكالية.

وفى عام ١٨٤١ يكون قد استقر فى مصر عندما يقوم اليسار بانتزاع تصويت الجمعية التأسيسية الذى سيعطى سكان جنيف حق الاقتراع العام ومجلس أعلى منتخب والحكم الذاتى المحلى وفصل السلطات . غير أن جنيف ستبقى دائما بالنسبة له المكان الذى يهتز له مع اندلاع الصراع ، وسيحمل بلا شك فى مجمع ذكرياته عن هذه المدينة صورة " للمجتمع الوطنى " الذى استدعى فى عام ١٨٣٣ للعمل فى المصنع وفى البرجوازية الصغيرة لكى يحاول "تزويد جنيف بالمؤسسات التى كانت تنقصها" ، كما سيتذكر أيضا دوى الصحيفة العنيفة التى يصدرها جيمس فازى "أوروبا الوسطى" التى كانت تعد جهاز المعارضة الوطنية والدولية. وكانت طبيعة المدينة العالمية واستعدادها كمدينة لجوء منذ حركة الإصلاح تدفعها لاستقبال الوطنيين الأجانب

والمتمردين ودعمهم ضد أنظمتهم القديمة . وعلى الرغم من معارضات وتهديداتها الحكومات القوية استطاع اللاجئون السياسيون الحصول على حق اللجوء بعد تدفقهم من كل صوب إلى سويسرا بعد قيام ثورة يوليو . ويكفى ذكر ماتزينى والبولنديين والألمان أو لويس بونابرت . وفى الماضى كانت الجمعيات السرية تتصل من جنيف بإيطاليا أو ببلجيكا وذلك بالتواطؤ مع فازى وأصدقائه وتحت ستار الماسونية . وكان فى جنيف متآمرون مؤمنون ونشطون أمثال بويناروتى .

[مارك فييوميه – **مستندات لم تنشر ١٨١٥ – ١٨٢٤**]

وهو ما سيشير إليه چون نينيه بعد فترة طويلة فى صفحاته ضد نوبار باشا وضد الخديويين . ولكنه الآن وإن لم يكن يكتب فهو يستمع ويتابع من مدينته مرافعات حركة التحرر الأوروبى فجعل ينظر إلى ما وراء الحدود خاصة وأنه يتفقد الوقائع الاقتصادية والجغرافية التى تمس عمله "مندوباً تجارياً" .

إلى الولايات المتحدة

فى عام ١٨٣٤ أرسل نينيه إلى مدينة هافر حيث تولى مهمة استيراد القطن لصالح شركة تجارية ، فى هذا العام تضاعفت كميات القطن التى وصلت إلى المنطقة الجمركية فى جنيف . ولا يخفى علينا الدور الذى تلعبه المنسوجات فى دفع عجلة الثورة الصناعية ، وكيف كانت الأقمشة القطنية والهندية السويسرية تنافسان الأقمشة الفرنسية بل الإنجليزية خارج أوروبا فى القرن التاسع عشر ، ثم وصل القطن كسلعة أمريكية إلى فرنسا عن طريق الهافر ليشق طريقه نحو سويسرا . وأظهرت البالات التى كانت تتراكم فوق الأرصفة فى الميناء النورمندى بكميات مذهلة والمناقشات التى دارت بين التاجر الشاب وقائدى المراكب العائدين من نيوأورلينز أو من نيويورك ، وأخيرا الاستنتاجات الرياضية التى استخلصها من العمليات المبرحة ، عن مدى سطوة هذه المادة الأولية فى الاقتصاد الدولى ، كما وضح له جليا فيما يتعلق بمستقبله الخاص مدى الفائدة التى يمكن أن تعود عليه من دراسة أنماط إنتاج الذهب الأبيض . وبعد مرور عامين قرر نينيه عبور الأطلنطى.

يذهب نينيه إلى المنبع حيث اختـار جورجيا من بين ولايات جنـوب الولايات المتحـدة كافة . وهنـاك كان ويتنى قبل أربعـين عامًا قد اخترع أول آلة لحلج القطن ، التى كان لها الفضل الأول فى وضع القطن الأمريكى على عرش الصادرات الأمريكية ، وهو الابتكار الفنى الذى أدى إلى تغيير حجم الإنتاج ومعدلاته ؛ وذلك بعد أن أنقذ كميات من القطن كانت تبدد فيما قبل وبعد تحويل عملية التنقية من يدوية إلى ميكانيكية .

ويشترك نينيه حينئذ فى مزرعة من المزارع الكبيرة وهى المعروفة برافن سورس فى موسمين متتالين فى زراعة القطن المعروف بالسى آيلاند وهو القطن طويل التيلة ذو الملمس الحريرى الذى يتربع على عرش السوق الأوروبى والذى يعتبر بلا شك من أفضل الأصناف إن لم يكن أفضلها التى توصل إليها المزارعون المتخصصون . وتحت السماء الاستوائية تتطلب العناية بشجرة القطن مجهودا جبارا فى ظروف شاقة وفى بعض الأحيان مفاجئة تم التغلب عليها بوضع أساليب منهجية للعناية بها ، ويقوم مئات من العبيد السود بتنفيذها . وتمكن نينيه – الذى كان على دراية كاملة بظروف مختلف المراحل من دورة الحياة النباتية – من تعلم كل شىء فى هذا المجال حتى إنه استطاع إعداد الحبوب لبذرها فى الموسم التالى .

وبالإضافة إلى المعرفة الزراعية التى اكتسبها نينيه – التى ستحدد مسار مهنته – تمكن فى الوقت نفسه من فك رموز طور خاص من أطوار النظام الاقتصادى والاجتماعى ، حيث أدرك أن هناك أيدى عاملة ضخمة يتم تجريدها هنا لحساب ملك القطن ليس فقط من أجورها ، بل من الحرية ذاتها ولمصلحة الأسياد العاجزين – رغم ذلك – عن السيطرة على تقلبات السوق . يا له من تناقض بين استقرار عالم مصنع سان جارفيه وفرديته . ألا يمكن التوفيق – بالوثوق بالتقدم ووعوده – بين زراعة القطن وحقوق الإنسان ؟

نحو مصر . زراعة أحادية واقتصاد تحويلى

وتسنح الفرصة فى مصر ، ذلك الإقليم التركى الذى انفصل عن الإمبراطورية العثمانية إن لم يكن من الناحية القانونية فعلى الأقل من ناحية التنمية الحديثة بعد التفاف محمد على نحو أوروبا الصناعية وتفضيله لهذا التيار التجارى الجديد الذى يشق طريقه بين مراكز استهلاك الأقطان ومجال إنتاجها يكون أقرب من المناطق الاستوائية . وأجريت تجارب للتأقلم البيئى على ضفاف النيل حيث استطاع النوع الذى انتقاه الفرنسى جيميل أن يحل محل الأقطان قصيرة التيلة التى كانت تزرع منذ قرون وكان ذلك فى عام ١٨٢٠ ، ودفع الربح المحقق محمد على باشا إلى تحسين تلك النوعية ؛ فاستجاب لنصيحة المهندسين الزراعيين الغربيين الذين كانوا يحيطون به ، ولجأ إلى زراعة النوع المعروف بالسى آيلاند الذى يتميز بطول التيلة وبالنعومة والمرونة والبريق الجذاب للزغب ، فبدأ بين عامى ١٨٢٦ و ١٨٢٩ بإنتاج كميات محدودة جذبت إعجاب مصانع ليفربول التى أطلقت عليها "النوع المصرى الأول" .

[عن القطن المصرى ، لندن ١٩٤١]

وانشغل محمد على للأسف بحروبه ضد السلطان فلم يقم بشراء آلة الحلج من طراز ويتنى التى عرضت عليه فى عام ١٨٣٢ ، وإذا كان البحث العلمى قد نجح فى إلهام الخبراء الذين قام محمد على بتكليفهم نجد أن والى مصر قد فضل البحث عن الربح السريع ، فأمر باستبدال الجهود الجسمانية لطبقة الفلاحين التى كان يملكها كما كان يملك الأرض بالميكنة المكلفة ؛ وذلك للحصول على حد أدنى لسعر التكلفة ، وهكذا ضاع عنصر المثابرة الذى كان بإمكانه أن يشجع العاملين بأشهر مزارع القطن فى أمريكا الجنوبية على البقاء لمدة أطول فى مصر. والنتيجة حدوث انخفاض تدريجى فى المحصول العام بين عامى ١٨٣٦ و١٨٣٨ بعد ارتفاع الأرقام ، وفى هذا الوقت استنفد تماما السى آيلاند الذى كان يحوز الإعجاب قبل عشر سنوات .

فى هذه الفترة من تطور تاريخ القطن فى مصر وصل نينيه . غادر جنيف فى أكتوبر ١٨٣٩ ليتجه إلى مرسيليا حيث أبحر إلى مصر، وأغلب الظن أن اختياره تم بناء على علاقاته الأمريكية . غير أننا لا يجب أن ننسى أن صناعة المنسوجات السويسرية

كانت تستمد أيضا فى الإسكندرية وأن الصادرات السويسرية من أقطان وهندى كانت قد غزت لتوها السوق المصرية التى كانت تحارب للاحتفاظ به ، وكانت تتفق أكثر من السلعة الفرنسية مع أذواق السكان .

وسواء كان مهندسًا أو تاجرًا لم يلق نينيه نفسه فى الماء ، فوصوله يفسر عنصر الصدفة فى تاريخ مصر الحديث التى حدثت بين الاتجاه إلى الزراعة الأحادية وتوغل المنتجات المصنعة فى أوروبا وهما عنصرا الثورة الصناعية . ولم يكن هذا العصر مناسبا لتحقيق الاكتفاء الذاتى الذى كان محمد على مصمما على تحقيقه زهاء ربع قرن ، حيث أنه على المستوى العالمى أصبح التبادل هو أساس الاقتصاد التحويلى الذى لا رجعة فيه ، وبالنسبة لنينيه - الذى كان فى الرابعة والعشرين من عمره - اتسعت الآفاق وأنباء هذا التحويل الجوهرى فى العلاقات الاقتصادية بين دول حوض البحر المتوسط بقدوم عصر من التعاون العظيم يعود بالفائدة على جميع الشركاء.

اكتشاف الفلاح

فى القاهرة اجتمع چون نينيه بمحمد على مرتين ، حيث سأله عن تخصصه تحديدا لأن الباشا كان يمسك بزمام الإنتاج التجارى ويدير مصر كما لو كانت ملكية خاصة يقوم بنفسه بتحديد أدق التفاصيل ، وعهد محمد على إلى نينيه بزراعة ألفى فدان بالدلتا بنوع الـ "سى آيلند" وقام بتعيينه فى الوقت نفسه ناظرا لمخزون الحكومة فى المنصورة الذى كانت تصب فيه ثمار العمل بالمنطقة جميعها.

وكان المناخ أجمل منه على ضفاف نهر السافانا غير أن الاسترقاق كان يبدو مماثلا . وللعناية بتلك الشجيرات كان نينيه يجد نفسه مضطرا للتنقل بين مالك ذى سلطان مهيب وفلاحين مثقلين بالسخرة والمصانع التى كان ينقصها الكثير . ورأى نينيه بالمحصول بعض الأعراض النباتية التى أقلقته وجعلته يحرص على عرض عينة من هذا المحصول على مندوبى شركات الغزل الإنجليزية وسماسرة القطن فى ليفربول ومانشستر واكتشف هؤلاء فى السنة الأولى عيبا فى التيلة الأصلية ثم لاحظوا أنه نوع الـ "لنت" شكّل فى مجمله صنفا جيدا من الـ "سى آيلند" ولكن تيلته أقل طولا وأغلى ثمنا على أية حال من صنف الجوميل .

وكان على نينيه أن يخوض حربا شرسة ضد أية إشارة إلى تدهور محصول القطن ، ولم تستطع التقارير الإنجليزية أن تقنع الباشا بالعيوب التى كان يمكن تفادى أغلبها فى أثناء مرحلتى جنى وحلج القطن ، بل الأدهى من ذلك أن حرمت الإدارة على نينيه نفسه أن يتحدث عن ذلك مع شيوخ البلد . ولكن لم لا يتم تبسيط تعليمات بهذه القيمة بترجمة عربية و"تشجيع جهود الفلاح ببريق الجوائز؟" لأن نائب الملك - كما يجيب نينيه فى عام ١٨٨٧ - وخلفاءه كانوا يتفادون بكل قوة أن يرتفع الفلاح فى نظر نفسه ، وحرصوا على فعل أى شىء من شأنه إبقاء الفلاح فى طور الآلة المنتجة فقط ، وقد فطنوا إلى خطورة تعريف المجتمعات الزراعية بمزايا وأسرار تلك الزراعة الذكية التى يمكن أن تفتح الباب لأفكار لا تتفق وطبيعة العبودية السياسية والاجتماعية التى كانت مفروضة على الفلاحين .

وقد أرَّقته هذه المشكلة منذ خطواته الأولى . وكان محمد أفندى المترجم الذى عهد به إليه عائدا لتوه من باريس ، وهو ابن الفلاح ، حيث تميز بين زملائه أعضاء البعثة الدراسية المصرية ، حتى إنه أتم دراسته فى مدرسة المعلمين العليا . وتعرف نينيه على رمز مصر الناهضة فى هذا الشاب المفكر الذى انحدر لسوء حظه إلى عمل متواضع بدلا من أن يسهم بكل ما أوتى من قدرات فى إعادة تكوين البلاد . فقام نينيه بترشيحه لمحمد على ، وراح دون أن يفكر فى أى عمل سياسى بتأييد هذه الصفوة الشابة لنراه يشكل مساعدين أكفاء من هؤلاء الشباب الذين وضعوا تحت قيادته أو "كوادر" كما يطلق عليهم اليوم ، وساعده تعلمه للغة العربية فى الوقت نفسه على الاستفادة من أساس عملى فى المعرفة التقليدية التى كانت لديهم بتقلبات تربتهم وفقا للمواسم .

وكشفت له نشاطاته المهنية على سعتها وتنوعها التكوينَ العرقى والاجتماعى لمصر محمد على ، حيث يأتى الفلاح فى المقدمة لأن زراعة القطن تعنى الحياة من جهد وعرق الفلاح اليومى ، وكذلك اكتشف مهندسنا الزراعى فى معرض بحثه عن الإنتاجية وجودا إنسانيا وهو الذى يختفى ليتشبث بأقوى جذور الوجود.

وترد على لسان نينيه كلمات مثل "دافع وبلد نيلى وشعب نيلى" لكى تعبر عن انبهاره أمام إخلاص ذلك النهر العجوز الذى لا يفتأ يطرح تربة تحتوى على المصير الحقيقى للإنسان منذ منشأ حضارته . وكان هيرودوت قد عرف مصر بأنها هبة النيل

ولكن فى الواقع اندمج نينيه فى الطبيعة الريفية وحقول القطن ، حيث تلتقى القيم الاقتصادية والعلاقات الاجتماعية والجهود والآلام والتقاليد الزراعية والأخلاقية وحتى الفكرية . وساعد ذلك نينيه على لمس أغوار شخصية الفلاح . كان هناك دوام تاريخى فعند الإعلان عن وصول ملتزمى الباشا لقرية فى أثناء الحرب السورية عام ١٨٣٩ كانت القرية تختفى بكاملها سواء الرجال أو الماشية أو المؤمنات فى ليلة واحدة وهى علامة على نشاط لا يعيه سوى عارف به . إذ إن الفلاح مثله مثل النيل ينطوى على حيويته الخاصة (الرسالة ٦٤).

وتوثقت عرى الصداقة بين جون نينيه وهؤلاء القوم بما كان يعجب بصلابتهم وبكثير من مزاياهم الخفية التى أظهرتها ثقتهم به . فقد قام بدور الوسيط بين هؤلاء الفلاحين وبين سلطة نائب الملك للتخفيف عنهم ، وتطوع طبيبا لمعالجة آلامهم باستخدام الطرق البديلة ، فاستمع إلى شكواهم واستنتج ردود أفعالهم وتفاعل مع منطقهم بحيث بات هذا المواطن السويسرى يطلق على مصر وطنه الثانى ، وكيف لا وقد قضى ثلاثة وأربعين عاما على ضفاف النيل ، بل سنراه يذهب بعد ذلك إلى تقديم نفسه للعالم على أنه : "فلاح سويسرى".

الازدهار المفاجئ للقطن

كان وصول چون نينيه إلى مصر مبكرا بحيث لم يستطع التعرف على مركزية السلطة فى الدولة كما كانت تتجسد فى محمد على الذى كان يمثل تركيبة استبدادية للإقطاع والرأسمالية ، فوجد نفسه مندمجا فى هذا النظام فى القطاع الأول الذى كانت تمثله الزراعة فى غياب الملكية الخاصة للأراضى التى لم تترك له الخيار .

ولكن محمد على قاوم بعد أن لجأ لذرائع مختلفة لتجاهل مبدأ "حرية التجارة" التى كانت تنص عليها المعاهدات الإنجليزية التركية فى عام ١٨١٨ - ١٨٣٨ وانتهى به الأمر للخضوع لملاحق معاهدة لندن ١٨٤٠ التى كسرت الاحتكار . ولكنه ظل يماطل فيما يتعلق بالقطن - وهو مصدره الرئيسى - وراح يحاول الحفاظ على سعر مجزٍ عن طريق المزايدات الوهمية حتى عام ١٨٤٥ عندما أصبح محصول القطن حرا بعد طول

انتظار ، وهكذا شاءت الأقدار أن تصبح السنوات الخمس التى قضاها نينيه فى خدمة محمد على هى المعركة الاقتصادية الأخيرة للباشا العجوز .

وفور الإعلان عن حرية الأسواق نزل نينيه إلى الحلبة عندما اقترب من الجالية اليونانية القوية فى الإسكندرية وذلك بعد اقترانه بفتاة يونانية من سميرنا . وفى الإسكندرية كان التجار الأثرياء من أمثال توسيتزا وزيزينيا يقومون بعمل رجال البنوك لمحمد على، حيث كان لديهم ملحقون فى كل من مارسيليا ولندن . وكانوا يمدونه فى بعض الأحيان مقابل محصول القطن بالجزية السنوية التى كان عليه إرسالها إلى القسطنطينية . وكان توسيتزا يقوم بدور القنصل لليونان بينما كان زيزينيا يقوم بالدور نفسه لصالح بلجيكا . وكان نينيه يتعاون مع هذا الأخير بصفته سكرتير مستشار، وأسوة بهؤلاء الذين كانوا من الأجانب الأول الذين حصلوا من الباشا على امتياز استغلال أراض شاسعة (١٨٣٩) حصل نينيه على حق الانتفاع بالسليمانية فى محافظة الشرقية وقام بزراعتها لحسابه الخاص من عام ١٨٤٣ وحتى عام ١٨٥٤ .

ازدادت أدواته بفضل ترسيخ وجوده فى دلتا النيل ، وقام بمراسلة رجال الصناعة الإنجليز وعمل انتماؤه لعالم القنصلية على تسهيل صفقاته ، وعهد له نائب الملك الجديد عباس باشا (١٨٤٨ – ١٨٥٤) بدوره بتوريد بذور القطن لقطاع الوادى (وهو الموقع ذاته الذى ستسحق فيه القوات البريطانية الجيش المصرى بعد ثلاثين عامًا) .

ونمت البنية التحتية للبلاد فى الوقت نفسه فى عهد محمد على ؛ سواء بالنسبة لقنوات الرى أو أنشطة جماعات السيمفونية إضافة إلى طريق السكك الحديدية الذى ربط بين الإسكندرية والقاهرة (١٨٥١) . وأدت القيود التى فرضها عباس باشا إلى وجود هوة ضد التدفق الأوروبى خارج حدود هاتين المدينتين؛ أى الإسكندرية والقاهرة. ثم جاء بعده سعيد باشا ذو القلب الطيب ليفتح الأبواب على مصاريعها ، ويكفى أن نذكر الامتياز التى أعطاه عند توليه الحكم (١٨٥٤) لصديق طفولته فرديناند دليسبس لحفر قناة السويس . وأصبح الاقتصاد أكثر توجيها وباتت ملكية الأراضى مسموحا بها ، بينما ألغيت بعض الرسوم التى كانت تعوق حركة بيع ونقل المنتجات الزراعية . وفى هذا المناخ الحر سيلجأ نينيه "لترشيد" زراعاته ولن تستطيع الإدارة المتراخية أن

تنال من حماسه . ويعود نينيه إلى سافانا فى عام ١٨٥٥ ليستورد آلة الحلج الحديثة ماركة ماك آرتى وقام بتعديلها لتتفق مع احتياجات الشرق التركى وهو ما استحق عليه وسام السلطان .

واندلعت حرب الانفصال (١٨٥٦ - ١٨٦١) وحرمت مصانع الغزل الأوروبية وعلى رأسها لانكشاير من القطن الأمريكى فجأة . وبخبرة عشرين عاما تنبأ نينيه بالأفق وفطن إلى تخطيط الاستهلاك وفقا للإنتاج المتاح فى القارات الأخرى . وتنبأت أولى دراساته بالأزمة التى نشرت فى مجلة "الدوموند" (العالمين) فى عام ١٨٦١ بـ "قحط القطن" الذى لم تتخوف منه على ما يبدو الصحافة الإنجليزية بالغة التفاؤل ولا الصحافة الفرنسية التى التزمت الصمت . وتم عرض جميع أنواع القطن وتقدمت جميع البلاد بدون أى تحيز من الساحل الأفريقى والجزائر وحتى الأناضول وسوريا والهند والصين وأستراليا ، كل وفقا لقدراته وصلاحياته . ولمسنا توجه مونتسيكو فى كتابات نينيه غير أنه أكد على الحق فى التنمية وهو حق طبيعى للأرض والإنسان ، وتنبأ اعتراضه على صحفى إنجليزى بارز قبل واحد وعشرين عاما من هذا التاريخ بالاحتلال البريطانى الذى سيحول مصر إلى حقل قطن .

« وأوردت صحيفة التايمز فى عددها الصادر فى ٢١ يناير ١٨٦١ مقالا عن الإيكونومست وضع فيه الكاتب يده على المحصول المصرى ، ولكن لِمَ تستأثر إنجلترا وحدها بمنتجات ضفاف النيل ؟ هل ستكون الغلبة للنظرية الجديدة المعروفة بـ "التجارة الحرة" بالنسبة لمدافع أرمسترونج أو الريالات الفرنسية الجميلة ؟ هذه العقلية الأنانية تنتمى للعهد البائد ويكون من السخف أن نحاول إحياءها من جديد ، خاصة إذا كنا نتشدق بإلغاء الاحتكارات. فهل هناك احتكار أقسى من هذا الذى يستأثر بالسلطة المطلقة أيا كانت هويتها ؟ » .

وعلى أية حال وفى وجود الجو الملائم فى مصر قفزت الأحوال الاقتصادية وجاوزت الصادرات القطنية خلال أربع سنوات حد المليون ونصف المليون جنيه إسترلينى لتصبح أربعة عشر مليونًا (قفز سعر القنطار من ١٥ إلى ٥٤ تالارى) . وعلى عكس المؤرخين الذين بهرتهم هذه الأرقام ، ذهب نينيه إلى التفكير فى الكارثة

التى تمثلها هذه القفزة لمصر ، ليس فقط على المدى الطويل لكونها أصبحت موقوفة على المحصول الواحد الذى يتبع المصانع الأجنبية والذى يخضع الزراع لأسعار البورصات الأجنبية ، ولكن – وهو الأهم – لأن سنوات "الازدهار" بدت فى حد ذاتها محنة قاسية . ولنقرأ نينيه الذى عاش هذه المحنة لمزارع نشطة : «أدى هذا المنتج الإجبارى وغير العادى الذى ضحى بكل شىء من أجله إلى جذب العديد من الآفات بدلا من إثراء البلاد ، فقد تهددتنا المجاعة أولا ثم حدث ما لا يصدقه عقل عندما وجد الفلاحون أنفسهم وهم فى وادى النيل الخصيب مضطرين لطلب الحبوب والأعلاف من الأجانب لإطعام المواشى والإنسان (...) ونفقت الحيوانات ولم يأبه أحد بخفض حجم أعمال هذه المخلوقات البائسة بل أضيف لأعمال الحرث ربطها فى السواقى التى كانت تجلب مياه الرى (...) وتفشت الأوبئة ولجأ الفلاحون لتعويض نقص الحيوانات للآلات البخارية وأسرعت إنجلترا بإرسال الناقلات والمضخات على مختلف أنواعها (...) ولم يكن لدينا ميكانيكيين أو سائقين أو ورش إصلاح ، فجاء الميكانيكيون من كل صوب وكانت الغالبية العظمى منهم لا تفقه شيئًا فى هذه المهنة ، وهكذا يمكننا تصور حالة الآلات (...) يضاف إلى ذلك عدم قدرتنا الدائمة على الحصول على الوقود حتى مع دفع أسعاره الباهظة (...) وعلى الرغم من ذلك ، لم ييأس الفلاح ولم يكن من النادر أن تراه مربوطا إلى محراث أو إلى ساقية ليقوم بعمل الحيوانات النافقة، ولم تنل من عزيمة هؤلاء العمال الباسلين مجاعة أو أوبئة أو آلات بخارية أو فيضانان مدمران للنيل أغرق الأول منهما وأتلف الأراضى وتركها الثانى عطشى لنقطة ماء».

وكانت الأموال تتبخر بنفس سرعة الحصول عليها ، فبدلا من تشجيع الاستثمارات فى المعدات والتقنيات الصالحة للتنمية ضاعت تلك الأموال بميول نائب الملك لاكتنازها من ناحية وبانتشار البضائع الرخيصة والمضاربات الأوروبية من ناحية أخرى . وكان الفلاح يجد نفسه "بعد إشباع بعض النزوات الصبيانية والمدمرة أفقر من ذى قبل فى وقت تضاعفت فيه الأسعار جميعها".

ووصلت آفة جديدة وهى الربا الذى يحرمه الإسلام ليستولى على الريف الذى اجتاحه تجار الشرق وأوروبا بحثا عن بالات القطن ، وارتفع سعر الفائدة إلى ٦٠٪ فتوقف الفلاح عن السداد ، وهى الدائرة الاستعمارية الشيطانية المعروفة بـ "التجارة

العشرية" . وجاء إسماعيل باشا خلفا لعمه سعيد وسط هذا الخضم المتأجج (١٨٦٣) لينال قسطه من هذا النظام ففرض - كما يذكر نينيه - أن "يقوم بدفع مجمل الديون التى تغطيها رهونات جيدة وبالتالى يصبح صاحب الأملاك الجديد بدون أية إجراءات، وتخلص الفلاح المدين البائس بعد هذه الكارثة من ديونه ومن أرضه فى ضربة واحدة . وكانت هذه هى النتيجة النهائية والواضحة التى استخلصها أغلب الفلاحين من هذه الحملات القطنية المبهرة" .

خفايا المعاملات المالية

شكلت الديون التى كانت ترزح على كاهل كثير من المستويات سير التاريخ المصرى . ولن يخفى ذلك على نينيه حيث كان معنيا بهذه المشكلة على المستوى المحلى كما رأينا بصفته مزارعا وعلى المستوى الدولى بصفته مصدرا ومستوردا يحمل "تفويض خاص" من شركة إخوان بوبولانى .

وكان أندريه بوبولانى قنصل البرتغال منذ عام ١٨٣٨ وواحداً من أكثر التجار اليونانيين الجديرين بالاحترام فى الإسكندرية ، وكان محمد على يتعامل معه بصفة ودية . وجاء بعده أخوه الأصغر ونائبه فى الوقت نفسه ليتزوج الابنة الكبرى لچون نينيه (١٨٦٢) ويضع بين يدى هذا الأخير تجارة العائلة والقنصلية البرتغالية .

وبطبعه المغامر ، فضل نينيه العمل على مضايقات الألقاب الرسمية فجعل يتنقل بين الريف والإسكندرية وأوروبا ، وأصبح عليما بالأمور ولديه الكثير من المعلومات السرية التى كان من شأنها أن تذود عن مشروعاته فخاخ المنتفعين الأقوياء.

وتضاعفت استنتاجاته بالأرقام والتواريخ بفضل ارتياده للأوساط المختلفة، وتجاوزت هذه الاستنتاجات شركة بوبولانى لتشمل تاريخا بأسره ، فعلم على سبيل المثال من أندريه بوبولانى - وهو "صديق الطفولة الحميم لسعيد باشا" لدرجة لا تقل عن فرديناند دليسبس ولكنها أكثر اعتدالا - أسرارَ أول قرض كان نائب الملك ينوى أن يعقده باسم مصر ؛ إذ إن بوبولانى - وهو وسيط البنك الإنجليزى لهذه العملية -

كان قد أقصى عنها بعد تآمر اثنين من رجال البلاط الملكى وهما نوبار ودرانيت ، وستؤدى مبادرات نينيه مع تصادمها بتجاوزات الباشا إلى أكثر من قضية أمام المحاكم من بينها تلك التى رفعها نينيه ضد الخديو إسماعيل شخصيا والتى دامت بضع سنين ، ومع بطء الإجراءات الذى يشبه بطء السلحفاة انتفخت الملفات بما يسمح بتغذية مجموعة من الكتيبات : ألف ثقب فى ماليات الخديو وبنوك مصر كتبه سيدى لقمان الحكيم (١٨٧٣) ، دائنو الخديو والإصلاح القضائى فى مصر كتبه عضو قديم بالسلك القنصلى فى الشرق (١٨٧٤) ، خطاب إلى صاحب الرفعة ج. جوشن المفوض غير الرسمى لبعض دائنى الازدواجية الخديوية لدى صاحب السمو إسماعيل باشا كتبها شخص ما (١٨٧٧) ، ثانى خطاب للمدعو ذاته (١٨٧٨) ، السيد نوبار اكتشافات متاحة حول المعضلة المصرية (١٨٧٩) ، الكوبون والدائنون المصريون فى مؤتمر لندن القادم ، الكوميديا الدبلوماسية من فصل واحد (١٨٨٦) ...، إلخ .

وثائق عديدة انكب عليها المؤرخ بنهم بحثا عن ثغرة مالية لأوروبا فى الشرق الأوسط فى القرن التاسع عشر . وكلها مطبوعات تقوم بتوفيق وتغذية وتصحيح المراسلات بين وزارات الخارجية الأوروبية وبالتالى تعتبر تكملة لا تقدر بثمن لهذا الأرشيف ؛ إذ إن كاتبها كان يستمد مصادره المحلية التى لم يكن يقدر لقنصل عادى الوصول إليها ، فكان يعرض الوقائع والمحصلات والمقارنات من زاوية تجربته وغالبا ما كان يستفيد من سرية الأسماء .

ولدينا هنا لوحة واقعية لما كانت عليه الحياة الاقتصادية فى مصر منذ دخولها فى المجال الدولى . فنستطيع إدراك اللعبة المعقدة التى يقوم بها مضاربو التجارة ورجال الصناعة والمال المعنيون بعامل الزراعة الإقليمية ، وبوضع بنية تحتية قومية جنبا إلى جنب مع الحاجة إلى توسع الرأسمال الأوروبى . ونرصد عدداً من المغامرين التى دفعت بهم إلى هذا الجانب من البحر المتوسط ديموجرافية أوروبية فائضة إلى جانب قروض البنك الوطنى تحت حماية الامتيازات والقانون القنصلى . وكانت المصالح الخاصة تتستر وراء العقود والمعاهدات والفرمانات ومشروعات الإصلاح ، وكانت تلك المصالح – سواء المالية منها أو السياسية – تطوق إسماعيل وتحكم قبضتها حوله . وأدت طموحات إسماعيل وتجاوزات الدائنين إلى وهن موارد البلاد بل واستقلاله أيضا .

قصة على الخلفية : الديون

لنذكر سريعا هذه الديون التى تبلورت حولها "المسألة المصرية" التى تتناولها خطابات نينيه كثيرا . أولها : كان عن طريق بوبولانى ويعود لعام ١٨٦٢ عندما وافق سعيد باشا على عرض قدمه أوبنهايم (٣ مليون جنيه إسترلينى بفائدة ٨٪) لتسديد عجز ما لبث أن تفاقم بالجزء الضخم الذى آخذه سعيد باشا تحت إلحاح فرديناند دليسبس لتمويل عمليات حفر القناة "كان تحميل نائب ملك مصر بنسبة ٤٤٪ من رأس مال شركة تدعى يونيفرسال كان المفروض تكوينها برءوس أموال حرة من أوروبا – يعنى دفع سعيد فوق منزلق الديون الحتمى" .

واستفاد إسماعيل من سعيد باشا عندما تمسك بذريعة إنسانية وهى إنهاء السخرة ، وسحب من دليسبس الأيدى العاملة الوفيرة التى كان يحتاجها لزيادة محاصيله بصفته المالك الأكبر للأراضى الزراعية ، بعد أن سال لعابه بسبب "الانفجار القطنى"

والواقع أنه كانت هناك كتائب يتراوح عددها بين ٥٠ و ٨٠ ألفا من العمال يحفرون القناة سنويا . كما عارض إسماعيل أيضا التنازل عن الأراضى ، وفرض تحكيم نابليون الثالث (١٨٦٤) على الحكومة المصرية عددا من البنود من بينها دفع تعويض يقدر بثلاثة ملايين جنيه إسترلينى للشركة . وجاء قرض جديد (٥ مليون جنيه إسترلينى بفائدة ٧٪) وقعه مع أوبنهايم لضمان عائد ثلاثة أقاليم بالدلتا .

وانهالت القروض كالشلال خلال بضع سنين حتى أثقلت الخزانة . وأسباب الديون ؟ الأشغال العامة قطعا ، والإرساليات العسكرية ، وزيادة الجزية السنوية التى تدفع للسلطان الذى رفع إسماعيل إلى مرتبة الخديو (١٨٦٧) ، وشراء إسماعيل لمتلكات عمه حليم وأخيه توفيق مقابل سعر باهظ بفرمان خاص بإلغاء الولاية (١٨٦٦). كانت هذه هى الأسباب ، مرورا بالفساد اللازم لكبار الموظفين الأتراك والوكلاء والصحفيين فى العديد من العواصم ، والبند الدائم "للملذات الصغيرة" .

ومعروف أن الديون تكون هى نفسها مصدرا للديون : فقد أوجدت القروض طويلة الأجل شريحة من القروض أو "دفعات مقدمة" خاصة بخدمة القروض ، ويشار إليها تحت

اسم الديون "العائمة" قصيرة الأجل (من شهر إلى ١٨ شهراً وفائدة من ١٢٪ إلى ٢٥٪) ولتدعيم هذا الدين العائم (الذى يصل إلى ما يقــرب من ١٠ ملايين جنيه إسترلينى) تم فى عـام ١٨٦٨ الاتفاق مع أوبنهايم على قرض جديد يقرب من ١٢ مليون جنيه إسترلينى ولكن بناتج حقيقى يبلغ ٧ ملايين ! ولكن تبدد هذا القرض وبلا اكتراث فى مصروفات كمالية منها الاحتفالات الخيالية لافتتاح قناة السويس (١٨٦٩) .

وفـشل السلطان فى منع الخديو من عـقـد القـروض مع دولة أجنبـيـة (١٨٦٩) واستطاع هذا الأخير كسب عطف السلطان عن طريق الذهب ، وعقد فى عام ١٨٧٣ أكثر القروض تدميرا (قيمته الاسمية ٣٢ مليون جنيه إسترلينى حصل منها الخديو على ٢٩ مليونا) . . وفى هذه الأثناء استنزف الخديـو إسـمـاعيل مصر حتى النخاع فى السنوات العجاف ، والشاهد على ذلك قانون المقابلة (١٨٧١) الذى وضع تصوره الوزير إسماعيل صدِّيق المعروف بالمفتش عن طريق الدفع الجزافى لدفعات ست سنوية مبكرة للضريبة العقارية يحصل المالك بموجبها مدى الحياة على خصم ٥٠٪ من هذه الضـرائب . . وفى خلال ثمانية قروض أصبحت مصر فى عام ١٨٧٣ – وهو العام العاشر فى حكم إسماعيل – مثقلة برهـونات تبلغ ٦٨ مليـون جنيـه إسـترلينى (بناتج حقيقى يبلغ ٤٦ مليونا ودفعات سنوية تبلغ ستة ملايين).

وأمام استحالة الحصول على أية قروض أخرى من أى نوع ؛ حيث انهارت أسعار الأسهم الشرقية فى بورصات أوروبا بعد الإفلاس العثمانى (أكتوبر ١٨٧٥) مما دفع الخديو الذى كان يعانى من ضيق ذات اليد إلى عـرض حصة مصر فى أسهم قناة السويس للبيع ، ونحن نعلم كيف فاز بالغنيمة ديزرائيلى رئيس وزراء الملكة فيكتوريا (نوفمبر ١٨٧٥) بدون أن ينتظر عرض الأمر على البرلمان . ودفع دزرائيلى فى هذه الصفقة مبلغا زهيدا لم يتجاوز أربعة ملايين جنيه إسترلينى وفَّرتها له أسرة روتشيلد ، وكانت هذه الخطوة حاسمة إذ إن الحكومات الأوروبية أبدت رسميا اهتمامها بالأوضاع المالية الخديوية وهو ما كان مقصورا على رجال البنوك بصفة خاصة .

ونذكر من هؤلاء درفيو وأوبنهايم وفرولنج وجـوش وعنـاصر شبكة دولية قوية ، وما لبث أن انضم إليهم بعد فتح الطريق إلى الشرق الأوسط بنوك أعمال وبنوك ودائع تخصصت فى امتيازات القروض فى الخارج . وقد ظهرت هذه المنشآت فى عام ١٨٦٥

تقريبا عندما قام المودعون الأوروبيون بعمليات مضاربة دفعتهم إليها دعاية صاخبة قدمت لهم طعم الفوائد الضخمة (البنك الأنجلو - إجيبشيان ، البنك الأوسترو - إجيبسيان ، البنك الفرانكو - إجيبسيان، إلخ) وكوّن العديد من هذه المنشآت نقابة لتقديم قرض واحد ، وتكالبت تلك المجموعات المالية على الودائع المصرية، إذ إنها كانت فى آن واحد " وسطاء لبيع السندات للأوروبيين ، يوفرون المال قصير الأجل ويمسكون بزمام مخزون سندات الدولة" ، وكان الضغط الذى يمارسونه على حكوماتهم فى تزايد مستمر وكانت السياسة العليا من جانبها تأخذ طواعية بالذريعة المالية ، كما كان الدين المصرى فى طريقه إلى التحول لمؤسسة دولية . حقيقة كان يختلط بداخلها مندوبو الدائنين ومندوبو القوى .

الرهن المزدوج

فى عام ١٨٧٦ ، حدث ما كان متوقعا ، فبعد "بعثة التعرف" بكاف التى أرسلها دزرائيلى والبعثة التى أرسلها الفرنسى أوترى توقف الخديو إسماعيل عن تسديد فوائد السندات المالية ؛ مما أدى إلى سرعة إنشاء الرقابة المالية الأوروبية فى صورة صندوق دين عام يديره مفوضون من : فرنسا وإنجلترا وإيطاليا والنمسا وبعد ذلك من روسيا وألمانيا ، وبالنسبة للنقابة الكبرى أصر كل من جوش وجوبار - وهما من كبار المتعاملين - على عمل دين "موحد" بقيمة ٥٩ مليون جنيه إسترلينى ودين "متميز" بقيمة ١٧ مليون جنيه إسترلينى يتم تسديده خلال ٦٥ عاما (أى دائم حتى عام ١٩٤١) على دفعات سنوية قيمتها ٦ ملايين جنيه إسترلينى . وأرسى نظام السيادة الثنائية تعيين مراقبين عامين تباعا : الأول إنجليزى مختص بدخل مصر ، والآخر فرنسى يشرف على المصروفات . وهكذا ، أصبحت السكك الحديدية وميناء الإسكندرية فى أيد أجنبية .

ولم تكف موارد هاتين الشركتين لتسديد خدمة الدين ، على الرغم من إضافة موارد الاستقلال التعسفى لدافعى الضرائب . وهكذا ، ورد تقرير لجنة التحقيق الدولية برئاسة فرديناند دليسبس ليدين الإدارة الخديوية ويمهد لـ "الوزارة الأوروبية" التى كونها نوبار باشا (٢٨ أغسطس ١٨٧٨) وكانت السلطة الحقيقية بين يدى الإنجليزى

ريفرز ويلسون – الذى تم تعيينه وزيرا للمالية – والفرنسى دى بلنيير – الذى تم تعيينه وزيرا للأشغال العامة . وتحول التدخل المالى إلى تدخل سياسى وكان خطوة نحو تصعيد الإمبريالية .

ويشعر نينيه مثله مثل الفلاح بهذا الرهن المزدوج الذى وقعت مصر فى براثنه ، فالحقيقة أن الفلاح هو المعنى الأول بصفته المنتج الحقيقى الذى فرض عليه تسديد هذه الديون اللانهائية ، فكانوا يلقون ألوانا من العذاب على أيدى مندوبى الضرائب، ولكن وصل الأمر إلى رهن الأقاليم نفسها وأضيف تعسف أوروبا لبطش الخديو بحيث بدا الظلم مؤسسيا على جميع المستويات وفضح نينيه الآلية أمام عيون مواطنيه فى الغرب .

«أنتم يا من قمتم بالثورة الحمراء فى فرنسا وإنجلترا وفى كل مكان لمجرد فكرة الضريبة الظالمة وغير المرضية أى أنكم لم تكونوا لتصوتوا جماعيا (...) هل لديكم فكرة عن الطريقة المصرية فى سنِّ القوانين والتقسيم ورفع الضريبة الذى لا يعلم دافعوها متى حلت أو باسم من أو نصابها ؟ فالخديو يطلب ويأمر وكفى ، لينطلق الكرباج ويشق الهواء محدثا صفيره . الدفع أو الضرب حتى تسيل الدماء ليجيء بعد ذلك السجن وتوقيع الحجز على "ما يوجد" – بدون أية إجراءات – من ماشية وكل شيء . وتباع البقرة الوحيدة بثمن بخس والجاموسة والماشية البائسة التى يقوم بشرائها المضاربون الجشعون ويبكى الأطفال وتئن العائلات . . ولكن ما لها تلك الآلام الأجنبية وعائدات لذيذة وضخمة ! تلك آلام لا تعبر البحار بل إنها لا تسمع على ضفاف النيل حيث يحرص الموظفون الأغنياء على عدم تسجيلها . ألا يرفع التعامل مع نائب الملك الذى يعتبر الناهب التاريخى لمصر الحديثة أحط الجرائم إلى مرتبة الفضائل السياسية ؟ (...) لِمَ إذًا هذه الدهشة من ظهور مؤسف لكنوز من الحقد المتراكم فى قلوب هؤلاء البؤساء المحبوسين فى قاع المجتمع» !

أصل الحركة القومية

واستيقظ الريف الذى لم يعهد نينيه فيه سوى الحياة الهادئة ، وارتجت جوانبه بالجيل الثانى من أبنائه الذين تلقوا التعليم فى أوروبا – مثل محمد أفندى – أو فى مدارس الأمة الذين تضاعف عددهم .

وأدرك شباب المفكرين – الذين شبوا على أعمال أو ترجمات الطهطاوى : شيخ شاب من شيوخ الأزهر تحول إلى الحداثة فى باريس حيث استطاع مشاهدة ثورة ١٨٣٠ – هويتهم ومكانهم فى الماضى وفى المستقبل . كان من بينهم المدرسون والمهندسون والأطباء والموظفون وفى بعض الأحيان محافظو أقاليم . وشكل هذا الشباب طبقة بورجوازية مدنية مستنيرة ، ولكن أدنى من الأرستقراطية التركية الشركسية التى كانت تساند الخديو . كانت لديهم الصحف والجمعيات العلمية التى شكلت إطارا من التطور الثقافى والاجتماعى لفكرهم السياسى التحررى .

والتف إسماعيل حول آمالهم بتكوين مجلس نواب مسالم (١٨٦٦) فيه ٧٥ عضوا لا ينتمون للجيش أو لوظيفة حكومية واختير أغلبهم من بين كبار القرى . وكان إسماعيل يريد به مجلسا استعراضيا ليبرهن لأوروبا على صلاحيات أمير معاصر وكسب ثقة الجهات المانحة وتضليل السلطان . ولكن هذا المجلس أصبح على علته وعلى ضآلة تفويضه كمجلس شورى خطوة أولى على طريق الحياة النيابية . وبعد الأزمة السياسية المالية فى عام ١٨٧٦ تحرر المجلس من عجزه ، ليوفر كل التأييد المطلوب للحركة القومية التى حققت نضجها وأصبح هو رهانها .

ورأى نينيه قوة جديدة تخرج فى الوقت نفسه من طبقة الفلاحين ؛ وهى الجيش . وكان سعيد باشا قد فتح فى غفلة منه لأبناء الفلاحين الباب للوصول للرتب العالية – وهى الترقيات التى أوقفها إسماعيل بقصر القيادة والامتيازات على الضباط الأتراك والشراكسة ، فنجد مثلا أن العقيد عرابى ، وهو قروى شجاع من الشرقية التى يألفها نينيه جيدا قضى ١٦ عاما فى رتبة عقيد فى عهد إسماعيل وأن زملاءه أمثال على فهمى وعبد العال والروبى ... إلخ ، كانوا يشاركونه المرارة نفسها ، فقام هؤلاء بتكوين مجموعة سرية غداة حملة العباسية المأساوية (١٨٧٦) عندما أدى فساد واستهتار الجنرالات الأتراك إلى التضحية بكتائب كاملة من المصريين ، وكان نتيجة القهر الذى شعر به الضباط المصريون أن تولى عرابى رئاسة الجيش المصرى بعد على الروبى .

وتفاقم شعور الاستياء واجتاح أنحاء البلاد فى ظل الجمعيات السرية التى تنوعت قبل أن تتصل ببعضها وتندمج . فماذا كان إذًا دور نينيه فى إذكاء هذا الاستياء ، وإلى أى مدى كان يقوم بدور الوسيط ؟ لاشك أنه كان منضما للخلايا الأولى منذ عهد سعيد .

ولم يسبق لأى مسيحى قبل نينيه أن دخل فى هذا المعبد العتيق للماسونية ، الذى سيقوم بوصفه فيما بعد وهو معبد إسلامى صرف مستمد من آسيا . وهناك التقى بالشيخ السنوسى الذى سيقدر له فيما بعد أن يكون مبشر القومية الدينية فى شمال أفريقيا . وجاء رد فعل خيانات السلطات السياسية تجاه الأمة - أمة المؤمنين - فنودى بالإسلام الأول المثالى وهو مصدر الاشتراكية والأخوة العالمية ، وسيكون طابع هذه الحركة هو الوفاء لهذه الأصول الروحية التى تميز الإصلاحيين السُمحاء ، وهى الأصول التى دعى إليها منذ البداية . وقد كان من نتيجة هذا الوفاء أن اشتهر عرابى بالضعف كما تحمل الشيخ محمد عبده - هذا الفلاح الثائر هو الآخر - تقريع العلامة جمال الدين المعروف بالأفغانى ، الذى أثار رأى المجتمعات الإسلامية فى الشرق أجمع . واستمع نينيه لجمال الدين الأفغانى وهو يخطب ليس فقط فى الأزهريين فى القاهرة ولكن أيضا فى أهالى المنصورة وكان يدعوه "صديقى جمال الدين" ، وبين جدران السجن الذى سيذهب إليه فى عام ١٨٨٢ مع "المتمردين" التقى نينيه بمحمد عبده.

وملخص القول إن نينيه كان جزءا لا يتجزأ من مصر السرية فى ذروة تحولها وذلك من خلال الشبكة الضخمة لصداقاته مع السكان .

ثورة أم تحول

نحن الآن فى عام ١٨٧٩ الذى ارتفع فيه طنين المعارضة . فكان نينيه يقوم حيثما يذهب بتوزيع المجلة النقدية المحظورة "أبو نضارة" التى كان يحررها الصحفى صنوع بالعربية الدارجة فى منفاه بباريس ، والتى كانت تصور رسوم الكاريكاتير التى تناسب ذوق الفلاحين . وفى حلوان - ضاحية من ضواحى القاهرة الهادئة - كانت هناك جماعة سرية من الأعيان وملاك الأراضى من بينهم شريف باشا وسلطان باشا وعمر لطفى باشا وراغب باشا ، قامت هذه الجماعة بمقابلة أعيان من أعضاء مجلس النواب وعرابى وبعض الضباط وفى بعض الأحيان محمد عبده أو مريدين من مريدى جمال الدين . وتشاور الجميع حول الأوضاع المتردية وبرنامج العمل . وبدت مصالحهم تصب فى نهر واحد ، وشرح لهم نينيه الآلية المؤسسية للجمهورية وعرض فى كل لقاء صياغة ديمقراطية لمطالبهم .

ورغب إسماعيل فى ذلك الوقت فى الانتقام من وزيره الإنجليزى ريفرز ويلسون الذى أجبره على التخلى عن أملاكه لصالح دين جديد لروتشيلد ، فلجأ إلى أداة قومية لإقصاء "الوزير الأوروبى" الذى كان محط كراهية الجميع . وكان نينيه من بين التحالف السرى الذى تكون . ووعد الخديو الأعيان بالاعتراف الرسمى بالحزب الوطنى كما وعد بإعلان دستور بعد أن وقف مجلس النواب إلى جانبه خلال الأزمة المالية . وأوعز للعسكريين وكان من بينهم ٢٥٠٠ قد تم فصلهم للتوفير بدون أن يحصلوا على مستحقاتهم لـ ١٢ شهرا بتأديب الوزراء بأنفسهم . وكانت اضطرابات ١٨ فبراير ١٨٧٩ (التى لم ينج فيها نوبار باشا وويلسون وبلينير من غضب الضباط إلا بفضل وصول الخديو) هى الشرارة التى أسقطت الوزارة وتنازل إسماعيل لابنه توفيق عن رئاسة مجلس النواب بعد أن منعته الحكومتان الإنجليزية والفرنسية من توليها ، وعادت الوزارتان الأوروبيتان اللتان لم تلبثا أن أرسلتا الزميل رياض وزير الداخلية لإنهاء الدورة البرلمانية قبل موعدها المقرر ، فاعترض المندوبون واجتمعوا فى منزل الشيخ البكرى الأرستقراطى ثم فى منزل إسماعيل راغب باشا . فماذا يهم أن يقوم الخديو بشد الخيوط؟ وصدرت فى الثانى من أبريل وثيقة إيجابية قام بتوقيعها جمع من العلماء والضباط والموظفين والتجار بالإضافة للزعماء الروحيين الثلاثة ، وهم : شيخ الأزهر وبطريرك الأقباط وكبير الحاخامات . . وطلب هذا الالتماس من الخديو القيام بإصلاح لوائح مجلس النواب وإرساء مبدأ المسئولية الوزارية ومراقبة الإدارة المالية للدولة . وتذرع الخديو عندئذ بـ "الفتنة القومية" ليكلف شريف باشا فى السابع من أبريل عام ١٨٧٩ بتشكيل وزارة مصرية مائة بالمائة ، وأصدر بعد أسبوعين مرسوما بتسوية المشكلة المالية ، وهو المرسوم الذى أكد إسماعيل أنه صدر عن "الأعيان وكبار رجال الدولة ورجال الدين والمدنيين والعسكريين بمصر" .

وإذا كان تعيين وزيرين أوروبيين قد أحدث انقلابا وسلب مصر حكمها الذاتى فقد تجاوز إرسالهما مجرد عودة النظام الخديوىٍ وشكل منعطفا جديدا فى تاريخ هذه الأمة "بدأ عهد الحزب القومى" كما نشرت التايمز (٢٦ أبريل ١٨٧٩) وبزغ فجر التحول التاريخى الذى سبر نينيه أغواره منذ جيلين .

وخرج نينيه من طابع السرية وكان فىَ طليعة القوميين ، وجاءت مقالته عن نوبار فى بداية العام تحمل اسمه بوضوح كما حملت هـذا القسم "العـلم هو القوة" .. وهكذا انتهى عصر حجب الهوية وجاءت كلمة مقتضبة لبوينااروتى لتعلن صراحة عن الثورة الوشيكة .

نينيه . مراسلاً صحفيًّا

حانت ساعة الحسم وتفرغ نينيه للعمل ، وبدلا من الانتهاء من كتابة مذكراته التى كانت تنتظرها المكتبات اقتحم نينيه مجال المراسلة الصحفية ووضع قلمه تحت تصرف قضية عادلة لا تملك مدافعين عنها فى أوروبا . ووجد فى صحيفة "لوسييكل" الفرنسية الجمهورية واسعة الانتشار منبرا متميزا . وانتظمت مقالاته فى هذه الصحيفة اليومية تحت عنوان "رسائل من الخارج" . كما بعث نينيه بمقالات أخرى إلى هنرى روشفور "المتعنت" وللصحف السويسرية "لو جورنال دى جنيف" و "لونوفوليست فودوا" وبعض الصحف الإنجليزية كالتايمز . وحرص نينيه على ألا يوقع أيا من هذه الرسائل المكتوبة فى مصر .

وأظهرت ورقتـه الأولى التى أرسلها نينيـه من الإسكندرية (٢٢ مايو ١٨٧٩) أنه لم يكن حديث العهد بالفن الصحفى . وكان يبلغ الرابعة والستين من عمره عندما تابع عن كثب انطلاق الدورية خلال نصف القرن الذهبى الذى تحولت فيه الطباعة إلى الميكنة ، وأقيمت السكك الحديدية وظهر اختراع البرق إلى جانب تأسيس المدرسة الإلزامية والاقتراع العام . وكأى من سكان جنيف الذين يتميزون بطابع العالمية ، أعجب نينيه بـ "مجلة العالمين" المعروفة بجديتها وسعة انتشارها الدولى مما جعلها مناسبة لنوعية وحجم المشاكل التى كان يعالجها . وكان مع ذلك يملك من المرونة ما سمح له بتأليف مسلسل روائى لمجلة لو جورنال دى جنيف فى العصر الذى كان هذا النمط الأدبى الجديد يسهم فى نجاح الجرائد اليومية . ولكنه كان ما يزال يؤمن بالمهمة العظيمة التى تقوم بها الصحافة لدى الرأى العام فى البلاد الديمقراطية ، ويكفى فى هذا الصدد

الإشـارة إلى الصـفـحـة الأولى من مـقـاله الأول الذى أصـدره فى بـرن عـام ١٨٦١ ، وكان مـقالاً ذا طابع سويسرى مائة بالمائة ، ويصور الرجل ومعتقداته التى يؤكدها فى كل مكان :

« لقد أفردت الصـحـافة السويسرية أعمدتها لصوت رسمى وصل إلى الجمهور فى صورة شديدة الإيجـاز لملخص نشرة دورية فيدرالية موجهة للدول ، وتتناول معاهدة التجارة بين اليابان والكونفيدرالية السويسرية . ولم تستجب الصحافة لهذا النداء غير المباشر للدعاية وقامت بالكاد بتسجيل الواقعة أو الفكرة كما لو كانت غير منوطة بحق - إن لم يكن بواجب - توجيـه النقد الأول ؛ وذلك لاعتـبـارات مـاليـة ولأخـرى دبلوماسية أكثر أهمية لحكومتنا !

وأدهش هذا الصمت كل من كان يرى فى الصحافة شيئا يختلف عن مجرد الدفاع عن بعض المصالح الدينية أو مدح رجل ما من رجال الدولة أو تمجيد حزب من الأحزاب . وأدى هذا التجاهل الإجرامى إلى مفاجأة انتخاب ، بل فوز "الأغلبيات" البغيضة لدى الرأى العام الذى اكتسب وعيه متأخرا بفضل المناقشة غير الكاملة التى حدثت داخل المجالس . وربما تستطيع بعض كلمات من قلم متواضع ، ولكن مفعم بالإرادة ، تعويض السقطة المؤسفة التى وقعت فيها الصحافة السويسرية فى تصديها لواجباتها » .

وكما تجاوز نينيه الرأى العام بتوجيه مقاله لـ "السادة أعضاء المجلس الفيدرالى" سيقوم بعد ثمانية عشر عاما بنشر رسائله المصرية للمسئولين فى الحكومات الأوروبية التى تخشى مساءلة شعوبها الواعية ، فالكتابة بالنسبة لهذا الكاتب تعنى التحرك ، فيقول : « مراسلو الصحف الجادة التى تحـترم نفسهـا لا يكتبون قصصـا قصـيرة ولا روايات . ولكنهـم يتوجهون للحكام ؛ لأن خطـاباتهم تحتـوى فى أغـلب الأحيان على معلومات سرية لم يستطع العملاء السياسيون التوصل إليها . ثم تتوجه بعد ذلك للرأى العـام الذى يمتلك هو الآخـر وسـائل إسـمـاع صـوته فى بلد يتـحلى بنظام دستورى » .

تحقيق اجتماعى

قام نينيه بتصوير مجتمع بأكمله من خلال حرصه على شرح حركة سياسية، وأدرك حجم التحولات ؛ لاعتياده الممتد على الأوساط المختلفة فنراه تارة بعد أخرى يكتب قائلا :

"لم يكن ظلم الشعب المصرى خيارا مرضيا لكل الطبقة الظالمة فبعض هؤلاء الظالمين كانوا يتحدثون عن جهل فأين هذا الأوروبى الذى يستطيع ادعاء معرفته بالفلاح"؟

"وقد سمعت مناقشات جادة فى الحوانيت التى جبتها (فى القاهرة)".

"وفى حوانيت ووكالات الإسكندرية حيث يقيم كبار التجار ، رأيت تعبيرات قلقة وعصبية ترتسم على وجوه هذه الصفوة البورجوازية (...) ، وهو الحال فى الميادين العامة والأسواق والمجتمعات المدنية والريفية".

"وكان أحد كبار ملاكنا المسلمين يظهر لى ... (إلخ)".

"رأيت صباحا بعض اللواءات بالطريقة التى يرى بها ... (إلخ)".

"ذهبت صباحا لزيارة نائب الملك بمناسبة الاحتفال بعيد ميلاده".

وكان للعلاقات الدائمة التى تربط نينيه بحكام الأقاليم ومندوبى الشرطة والمستعمرات الأوروبية وقضاتهم لدى المحاكم المختلطة - أكبرُ الأثر فى استكمال وإنهاء الصورة . وأورد نينيه إحصائيات حول التطور الديموجرافى بعناصره المختلفة والجمارك وقناة السويس وصعوبات التجارة المحلية ، وأضاف إلى هذه الإحصائيات ملحوظاته الشخصية التى كشفت عن أعراض السُّكْر والجريمة فى القرى أو عن الدعارة السافرة التى يمارسها أصحاب الملاهى اليونانيون فى القاهرة . وتظهر لنا دراسة حول "الاستعباد فى الشرق" نينيه عالما فى الاجتماع وممارسا:

«وهذه المحصلة للاستعباد الأسود صحيحة ولكنها لا تستند إلى أية إحصاءات رسمية : جزافية كانت أو خاطئة ، فالسلطات تعتبرها عملية غير قابلة للرفض . وقد زودنا التجار والمشترون أو بمعنى آخر المهربون بمعلومات شديدة الدقة فى هذا الشأن».

وسيأتى العنوان "لمحة نيلية مستمدة من الطبيعة" الذى أعطاه نينيه لمقالاته الأربع مناسبا تماما لمجموع رسائله .

اتصالات غير معروفة

لم يبذل نينيه أى مجهود فى كواليس العمل السياسى والعسكرى الذى كان يتشكل واحترم للأسف بالسر إلى درجة أن مؤرخى الشرق الأوسط المعاصر ما زالوا يجهلون حقيقة دوره حتى يومنا هذا ، واستند الحاذقون منهم لكتابه "عرابى باشا" (برن ١٨٨٤) لتقديمه ككاتب لسيرة الزعيم الوطنى ، وذلك على الرغم من اشتراكه شخصيا فى الأحداث المرتبطة بهذا الزعيم . وبعد أن عثرنا على الآثار الضائعة لهذه الشخصية لم يعد لدينا أدنى شك فى بعض أدواره أثناء المرحلة الحرجة للحركة . . وقد كان لمبادرات نينيه المستوحاة من مثله الجمهورى الأعلى أثر خفى ولكن عميق فى الوقت نفسه على الأحداث والعقول . ولنذكر الآن بعض الوقائع التى لا تنفصل زمنيا فى رسائله :

فى ٢٥ يونيو ١٨٧٩ وبعد أن عزلت القوى الخديو إسماعيل لصالح ابنه توفيق ، أثبت شاب ضعيف يدعى نينيه خلال اجتماعات للوطنيين المصريين وفى رسائله للصحافة الأوروبية عدم شرعية هذه الخلافة وطالب بإرساء مبدأ وراثة العرش وفقا لحق السيادة الذى كان إسماعيل قد قام بتعديله . وفى الواقع فإن ترشيح الأمير الأكبر حليم عم إسماعيل لم يكن يخلو من سند قانونى ، ولكن كان نينيه هو الذى يقوم سريا بنفسه بمساومة هذا الأمير على وصوله للعرش شريطة أن يمنح للدولة حق الدستور . ألم يكن من شأن هذا المطلب تغيير طبيعة النظام وبالتالى أقدار مصر ؟

وبعد عدة أشهر وفى ٤ نوفمبر ١٨٧٩ بالتحديد ، وعلى الرغم من فرض الرقابة الصارمة ، ظهر إعلان الحزب الوطنى المصرى . ولا جدوى من محاولة العثور على النص الأصلى فشهادة ميلاد أول حزب وطنى فى المنطقة ، الذى سيستمر الحديث عنه طويلا لا يبقى منها اليوم سوى الترجمة الفرنسية حيث نقرأ هذه الفقرة التمهيدية : "لأسباب قهرية تأخر نشر الطبعة العربية لبضعة أيام" . ويسمح لنا التحليل اللغوى للوثيقة بإسناده لنينيه الذى قام بالفعل بتوقيعه باسم "على" أحد أسمائه المستعارة.

ولنذكر فى النهاية أن نينيه كان قد ارتبط فى وقت مبكر بأحمد عرابى فى مسقط رأسه ، بل رآه مستبعدا من هذه الأرض التى كان يزرعها بالقرب من الزقازيق .

هذا الفلاح الذى ولد فى عام ١٨٤٢ (بعد ثلاث سنوات من استقرار مهندسنا الزراعى فى الدلتا) والذى سيتولى رئاسة الجيش ثم الوزارة فى عام ١٨٨٢ التى سيحارب الخديو توفيق لقيادتها . ومن السهل إدراك الطابع الحاسم للنصائح التى سيقوم بتقديمها مثل هذا الكاتم للأسرار النشط اللواء - وزير . ولهذا ستساعد رسائل نينيه المستمدة من الأحداث والتى تتوقف عند حد فى توفير المعلومة بإعادة تكوين الوقائع .

"ما يلى يجهله عالم الدبلوماسية والقائد" عبارة ذكرها نينيه دون مراوغة عند تناوله مصادر معلوماته :

"بعض كبار الضباط ممن تربطنى بهم سنوات طويلة من الصداقة".

وأعلن فى نبأ خاص :

"صدر مرسوم جديد بتاريخ ٦ أبريل ١٨٨١ ، ولكن فى الخفاء هذه المرة بدون جلبة وبدون صوت . ولم يعلم به سوى الخاصة وبعض الأصدقاء بالجاليات بسبب الرقابة الصارمة التى فرضها رياض على الصحافة وهى سرية وقد تكون مستحيلة فى أوروبا".

وكتب فى مكان آخر :

"لقد كرر لى عرابى عشرين مرة ... (إلخ)".

أو :

"لقد رفع لى شخص يعمل فى أحد الوزارات الرئيسية الستار الذى كان قد أسدله حزب رياض على المؤامرات التى أدت إلى الأزمة".

وفى فقرة تالية :

"فى حديث لى أمس مع كولونيل كتيبة تم استدعاؤها توصلت إلى الحقيقة الكاملة حول حجم الجيش المصرى".

أما بالنسبة للحدث التاريخى فى ٩ سبتمبر ١٨٨١ عندما طلب عرابى وهو محاط بجيشه من الخديو النزول على مطالب الشعب ، فقد تنبأ نينيه به منذ شهر مايو وهو ما اعترف به فى مساء اليوم نفسه عندما تناول هذا الحدث قائلا:

"كنت أعلم منذ عشرة أيام بالخطة المتفق عليها ولكن طلب منى ألا أقول شيئا".

وبفضل مصدر معلوماته استطاع نينيه أن يستقرئ المستقبل وحامت تنبؤاته كالنذير وهو يتحدث بكل ثقة قائلا ، فى ٢١ أكتوبر ١٨٨١ بعد عودة الهدوء إلى البلاد: «لا تصدقوا أن الأزمة المصرية قد انتهت ، ولكننا ندخل فيها ، وأنا أقول لكم – ليس كنبى ولكن كمراسل حريص على الحصول على المعلومات الصحيحة – إن الأمور ستسير على ما يرام إذا لم تلعب حكومتا باريس ولندن لعبة "الأقوياء" . ولا أضمن الهدوء العام إذا جاءت أحداث جديدة من هذا النوع مع ما تثيره من هياج واستفزاز».

ولاتصاله الوثيق بالجبهة الداخلية استطاع نينيه أن يتلمس النوايا الأوروبية والعثمانية. ففى بداية رسالة من رسائله نجد هذه العبارة : "كنت عائدا أمس من القصر بصحبة القنصل". وأورد أيضا : "أسمع ما أخبرنى به هذا الصباح السيد .. القنصل العام والعميل الدبلوماسى لواحدة من أكبر القوى".

وكان يستمد معلوماته من مراسلين خاصين من الخارج بالإضافة إلى قناصل الإسكندرية ، ففى لندن كان يعتمد بصفة خاصة على صداقة سير ويلفريد سكافن بلونت الذى كان دبلوماسيا سابقا ورحالة فى الشرق وكان يتقمص بطريقته الرومانسية القديمة دور بطل حرية الشعوب العربية والهندية والأيرلندية، وكما يذكر نينيه كان بلونت يقوم بـ "محاولة ترقى لبايرون" الذى اقترن بابنته الصغرى . وفى القسطنطينية لم تكن مصادر معلومات نينيه بأقل من هذا المستوى ، فقد كان أبناء الأمير مصطفى فاضل والأمير حليم شخصيا يأملون فى الاستفادة من مساعى نينيه لدى ...

وبعد فشل المحادثات (التى لم يشر إليها المؤرخ) لمنع الأسطول الإنجليزى من قصف الإسكندرية (١١ يوليو ١٨٨٢) لم يتردد نينيه فى مقابلة عرابى باشا فى كفر الدوار ومكث فى معسكره ستة وستين يوما . وهناك عمل نينيه مترجما لعرابى باشا واضطلع بمراسلات القائد الأعلى مع الأوروبيين ومن بينهم فرديناند دليسبس الذى كان قلقا على مصير قناة السويس ، ولتبرير وجوده بين "الثوار المصريين" يمكن لمواطن جنيف أن يذكر نشاطه الصحفى بالطبع ولكن يمكنه أيضا ذكر صفته كمنظم لجمعية الهلال الأحمر . والواقع أن نينيه كان يعتبر فى كل مكان هو الأوروبى الوحيد الذى استمر يختلط بالثوار المصريين.

وهذا ما أشار إليه سير و.س. بلونت عندما نشر مؤلفه "قصة سر الاستعمار الإنجليزى لمصر" (١٩٠٧) . وهكذا اعتمد على نفوذ جون نينيه "والأوروبى الوحيد الموجود فى الجيش كان چون نينيه هذا المواطن السويسرى الممتاز وصديق الحرية المصرية . هو چون نينيه الذى كان فى وضع مكنه من التعرف على الكثير مما كان يجرى من أحداث حيث قضى الشهر الأول للحرب مع عرابى فى كفر الدوار يعاونه فى مراسلاته الأجنبية ، وقد تحدثت كثيرا مع نينيه".

ونذكر أن كتاب بلونت الذى أعيد إصداره بالإنجليزية والمترجم إلى العربية أصبح المرجع الأكثر استخداما فى دراسة هذه الفترة ، فلاشك فى أن علاقات هذا المؤلف بالوطنيين المصريين والمسئولين البريطانيين قد أعطت لكتاباته قيمة المرجعية التاريخية ، غير أن الباحثين الذين دأبوا على مطالعة هذا الكتاب أهملوا كثيرا الرجوع إلى مصادره .

بزوغ العالم الثالث

وسط مراسلات نينيه ، حيث لا تظهر السيرة الذاتية إلا فى النهاية عندما ظهر الصحفى فى ساحة الأحداث ، نلاحظ عنصرين يرتبطان ببعضهما بطريقة تبعث على الدهشة ، وهما : النهضة القومية والإمبريالية ، وهما يكونان آلية مزدوجة تتحدد تفاعلاتها مع سير الأحداث .

تناوبت العوامل الدولية والعوامل المحلية فى نسج الريبورتاج حيث يلتقى المجالان دون هوادة . فعلى سبيل المثال ، نجد أن الديون تذكر كما يتصورها رجال البنوك الأوروبيون ويتم تدوينها فى شهادات وإجراءات قانونية وعمولات خبراء ومضاربات رجال البورصة وحملات صحفية ومنافسات دبلوماسية ، ولكن هذه الديون نفسها تذكر أيضا من منظور آثارها على موارد بلد فى طور النمو ، من معدات وطرق ونظم رى وملاحة داخلية وتعليم عام وجيش ، وبالطبع بالنسبة لأثرها على ظروف معيشة الفلاح وهو الفريسة الحية لمحصِّلى الضرائب .

وعلى الرغم من أن مصر كانت فى عام ١٨٨٢ قد دفعت بالفعل فائدة تساوى فى مقدارها مجمل رأس المال الذى كانت قد اقترضته بالإضافة إلى فائدة ٦٪ ، فقد تعهدت الحكومة الوطنية المتسامحة بإرضاء الدائنين وأضيف للحجة المالية وهى "خيال" بالنسبة لنينيه ، مفهومُ القوة البريطانية : "زيادة الأملاك الهندية الخاصة بالإمبراطورة فيكتوريا الجديدة حتى تصل إلى شواطئ البحر المتوسط" .

وظهرت ملامح الفكر الإمبريالى الذى كان يؤكد على المكانة بعد دمج الاقتصاد فعليا بالدولة فى الوزارات التحررية والبرلمانات . وقد وجه نينيه اللوم إلى تلك البرلمانات لتناقضها ، خاصة بالنسبة لمعارضتهم القاصمة لظهور حياة ديمقراطية فى شعب "يريد أن ينمو" :

«تعارض الحكومة البريطانية – الوفية لمهمتها الوطنية – بكل الوسائل الممكنة إنشاءَ برلمان مصرى ، الأمر الذى تتطلع إليه الشعوب . ولا تتكلف تلك الحكومة شيئا لسحق أو إسكات الحزب الوطنى. كما تتبعها بلا أدنى شك الحكومات الأخرى فى خوض تلك الحملة الصليبية التى يقودها خفية العميل الدبلوماسى الإنجليزى فى القاهرة ، ألا يعنى هذا وجود نظام بأكمله ؟ لم إذاً هذا النفور الذى يبديه رؤساء التيار البرلمانى البريطانى إزاء الجهود البرلمانية الأولى التى يبذلها شعب صغير ينشد النمو عن طريق التحرر النزيه من التزاماته ؟ هل هناك حاجة للتفسير؟ فمصر التى بزغت كوطن قد تصيب العمل البريطانى بالشلل وظهورها بتأكيد وجودها . إذن من الأفضل سواء بالنسبة للتوريز أو للويجز أن يرزح خمسة ملايين فلاح تحت عبودية فكرية تامة بدلا من شعب من العمال الأحرار».

وفى غمرة حماسه لتوعية الرأى العام الدولى ، اصطدم هذا الصحفى المستقل بالأنباء المغلوطة التى تطيِّرها وكالات الأنباء ، ونهض من فوره تدفعه بصيرته المذهلة ضد انفراد نظام البرق لاحتكار الإعلام وكتب نينيه فى ١٨٨٠ :

«وهنا لا تتوقف التأثيرات السرية لإنجلترا ، وهى تأثيرات كبيرة وعظيمة تصيب كل شىء وتمتد إلى كل شىء . فمن لندن إلى المحطات الشرقية النائية وإلى شرق وجنوب عالمنا كان ٢٤ كابلا بحريا تربط جميع خطوط الهند الصينية وأستراليا بمركز الإمبراطورية

البريطانية ، ويتحكم فيها مالكها الأوحد وهو اتحاد ذو غالبية إنجليزية . فلا تستطيع فكرة واحدة أو كلمة واحدة تجارية كانت أو سياسية عبور هذه المسافات الكبيرة بدون الاعتماد على هذه الأسلاك المعدنية التى تحتكرها بريطانيا بلا منازع . بيد أننا إذا ما وضعنا هذه الهيمنة المغناطيسية إلى جانب الريادة البحرية للدولة ذاتها أى بريطانيا ، نستطيع أن نلمس بلا حاجة لوضع أية مقارنات ما يشكله هذا التأثير البريطانى من خطر على هذه المنطقة» .

وهذا هو إجراء "النظام" الذى كان يشك فيه ، فهناك الآن منظمة عقلانية كرست التقنيات الحديثة لخدمة سياسة القوة ، وكان نينيه شاهدا على تكوين حلقات السلسلة، وهناك مثال ديس رجل الدعاية والصناعة التى تبرهن على ذلك ، وشركة إيسترن تلجراف كومبانى المربوطة بالأسطول الإنجليزى . وقام تعاون وثيق بين دوائر الأعمال ومراكز الدعاية والحكومات بدبلوماسييها وأساطيلها وجيوشها :

"تقوم بوارج الحكم الثنائى بدور الحامية الموكلة بالدفاع عن النظام المالى الدولى".

"لو تمكنت من قراءة البرقيات الكاذبة التى يرسلها كل يوم المراسلون (...) لشعرت بالسخط ، كل هذا من أجل البورصة ، حيث أصبح الانخفاض ضرورة للارتفاع مقابل حرية الأمة ذاتها ودماء الملايين من الأفراد".

إذ إن العنف هو المرحلة الأخيرة من العملية . . عملية جرى تعميمها بخطورة.

"كان يبدو أن إسبانيا فى المغرب وإيطاليا فى تونس تتصرفان نحو سياسة الضم من أجل السلام وهى تعقيدات لاحقة ستتشابك وفقا للمسألة المالية المصرية ونهايتها المفاجئة".

وكان نينيه أول من تنبأ بشلال الآثار وذلك لإدراكه لطبيعة الأسباب :

"لقد كان لأحداث تونس دوى عظيم هنا".

وها هو يشاهد الصدام العسكرى الذى حدث فى عام ١٨٨٢ عند ملتقى قارتى أفريقيا وآسيا بعد نزول القوات الإنجليزية فى منطقة قناة السويس ، وستحكم هذه الخطوة السيادية على أوروبا المنتصرة بعدم التشكك فى ردود الأفعال التى أثارتها . ويؤكد نينيه من جانبه – ووفقا لبعض المؤشرات – أن التحدى سيمكن مواجهته :

لقد هبت قوات سودانية لنصرة عرابى ومن التريبوليتان ، إذ أرسل "محمد السنوسى زعيم رابطة الزاوية الأفريقية" تعزيزات . يظهر الإسلام "يقظة عامة ستزعزع إنجلترا"، "الهند البريطانية لن تظل بريطانية" . وفى عبارة المتنبئ الذى يعلن "إمبراطورية إسلامية واسعة من ٢٠٠ مليون نفس فى أفريقيا وآسيا".

وسيرى قارئ چون نينيه أن العالم الثالث ليس سوى تسمية حديثة لمشكلة ساء تناولها منذ فترة طويلة.

البحث عن رسائل نينيه

ويشتد التوتر من رسالة لأخرى وفى كل مرحلة يكتشف نينيه الحيلة وتتصاعد صرخاته للتحذير من تزايد الأخطار ، وسخط عليه "النظام" بعد تعريته ، وأصبح نينيه العدو اللدود ليس للخديو فقط ولكن أيضا بالنسبة لـ "القوى" .

وقد وصفه العميد البحرى كونراد لدى البحرية بالإسكندرية للوزارة فى باريس على أنه "هجائى" يقود "حركة مشئومة" وتردد اسمه فى مخاطبات دبلوماسية "سرية" وكانت الرغبة هى إسكاته. وحاول قنصلا فرنسا فى الإسكندرية وبورسعيد ومديرو البريد ومبعوثو الخديو جاهدين اعتراض مراسلاته، وكتب دوبينى قنصل بورسعيد فى ١١ سبتمبر ١٨٨٢ إلى وزارته فى باريس :

«سعادة السفير دوفورج [قنصل فرنسا فى الإسكندرية] طلب منى البحث عن كيفية وصول رسائل نينيه مراسل جريدة لو سييكل وسكرتير قيادات عرابى وعن الطريق التى كانت توجه منه هذه الرسائل . لقد بحثت طويلا دون أن أجد أى أثر عندما قادتنى الصدفة إلى دليل مادى على أن الرسائل كان يتسلمها السيد بوكارد نائب قنصل إيطاليا الذى يقوم بإرسالها إلى أوروبا» .

«استدعى السيد بوكارد فجأة إلى إيطاليا واستبدل به زميله فى السويس ، وقبل مغادرته لم ير بوكارد ضرورة تنبيه خليفته لعلاقاته ، ولهذا اندهش السيد فيتو من هذه الرسائل التى تخلو من التوقيع ولكن تعرف عليها فى مكتبه أحد أصدقائى ، فرنسى القلب والفكر ومقيم فى مصر منذ عشرين عاما وكانت تربطه علاقة بچون نينيه فى القاهرة بمناسبة مقالات صحفية نسبت له وكانت بقلم نينيه (...)» .

«نينيه ، هذا الهجائى التعس الذى أعرفه منذ ثمانية عشر عاما والقادر على كل عمل سيئ يبحث منذ الآن عن دليل براءة ، وكان يطلب من السيد بوكارد أن يشهد بأنه كان بالإسكندرية فى أثناء القصف وأنه يعرف إن كان قادرا على تأمين فراره إلى سوريا . وكان السيد نينيه يرسل أيضا رسائل عن طريق السيد جيبس صديقه ومدير التلغراف الإنجليزى والذى استدعى لإنجلترا بسبب علاقته بهذه الشخصية التعسة البائسة» .

وستتلقى لو سييكل مع ذلك "بطريق ملتو" خطابه المؤرخ بـ ١٦ سبتمبر ١٨٨٢ . وفى التل الكبير فى ١٣ سبتمبر كانت الهزيمة تحيق بالجيش المصرى وخرقت إنجلترا حياد قناة السويس التى حرص عرابى على احترامه والذى وثق بوعود فرديناند دليسبس على الرغم من اعتراض نينيه .

البرلمان الإنجليزى يناقش رسائل نينيه فى التايمز

شاهد نينيه دخول القوات البريطانية القاهرة وتم القبض عليه فى ١٩ سبتمبر . وكما يروى : «فى قاعات السجن الكبيرة الخمس ، كنت أجد صفوة مصر مبعثرين أو ممددين أو جالسين على حصر : أعيان وعلماء ورؤساء قرى ومفتى القاهرة ووزراء سابقين وصحفيين وقضاة وأكبر الشخصيات النيلية وجمهور من الأصدقاء أدهشهم ظهورى مبتسما بينهم (...) محمود باشا سامى برحابته المعهودة أعطانى مكانا بالقرب منه وشد الشيخ عبده على يدى» .

وكتب للسلطات أكثر من رسالة أملاها عليه غياب الأمن الذى كان يهدد حياة المعتقلين والظروف الصحية المتدهورة والحمى التى أصابته . وطلب مقابلة قنصل فرنسا الذى يتبعه من الناحية القانونية أو مساعدة قنصل إنجلترا سيد مصر الجديد ، عبثا كان إدوارد ماليه قاطعا فى رده الذى بعثه للكولونيل ويلسون فى برقية ذات رموز : يجب أن يبقى نينيه فى السجن "إنه رجل خطر" وسيتقاسم طوال أسبوعين انحطاط "أهل البلد" . وتم ترحيله بعد ذلك بأمر غامض فى برج حصن كئيب بالإسكندرية تعج به تأوهات المساجين تحت وطأة التعذيب ، ثم طرد فجأة ورحل إلى سميرن على متن باخرة من البحرية المصرية . وفى مكتب الجمرك ، أعطى له جواز سفر تركى مزور جرده من حصانته السويسرية وعرضه لانتقام نهائى بلا شك .

وعند نزوله ترانزيت فى بيريه ، نجح نينيه - كما يحدث فى روايات المغامرات - فى الهروب والتقطته سفينة متجهة إلى نابولى . وفى ١٦ أكتوبر ١٨٨٢ أعلنت وكالة رويتر على العالم وصول نينيه لبيرن ولكن استأنف رحلته إلى لندن ليتدخل فورا لدى الوزراء المسئولين عن الاحتلال العسكرى لمصر ومنهم إيرل جرانفيل ولورد السستر اللذان رفضا استقباله بالطبع.

وأحدثت رسالتان بعثهما للتايمز صدى واسعا وأعطاهما المحررون عنوان "تجارب السيد نينيه" و"المساجين المصريون" (٢٥ و ٣١ أكتوبر ١٨٨٢) . وأيقظت الوقائع التى كشفتها جريدة السويس جنتلمان الرأى العام وكلفت الحكومة استجوابين أمام مجلس العموم ، وطلب كل من سير ويلفريد ويلسون ولورد إيلكو إيضاحا من نائب وكيل وزارة الخارجية شارلز ديلك الذى وعد بتقديم تقارير ، وأسرعت وزارة الخارجية بطلب تقارير من ماليه والكولونيل ويلسون لن تلبث أن مالت عن الاتهامات التى وجهها نينيه .

وسنعود للتحقيق بالتفصيل فى معرض سيرة چون نينيه التى نقوم الآن بإعدادها . وإذا كان هناك شبه إجابة عن الأسئلة التى أثيرت فى البرلمان الإنجليزى حول طرده من مصر وخلافاته الشخصية والمصير المأساوى لزملائه فى السجن فقد بقيت المشكلة الأساسية وهى الاحتلال العسكرى لبلد مشكلة كاملة ، تناولها نينيه بعد فترة هدوء استمرت شهرين . وجاءت رسالته الأخيرة للتايمز التى نشرت فى ٢٣ ديسمبر ١٨٨٢ تحت عنوان " رؤى السيد نينيه فى مصر" لتعطى النهاية لتجربته فى مطلع عهد جديد .

بعد معرفة الموضوع كاملا ، حدد چون نينيه بدقة الخط السياسى الذى يتبعه المحتل ، فيفترض تضامنا بالقسمة ، لكن النموذج الذى يتصوره لهذا التضامن استند بغرابة إلى القيم الجوهرية لشعب مهزوم وفى طريقه لاكتساب ثورته . وطالما أن شيئا لا يتم خارج الحقيقة الوطنية ، فإن الكاتب يحيل جلادستون إلى الشيخ محمد عبده . وهو دحض خالص لحقوق الغازى .

إنها بعض الرؤى المطابقة للديمقراطية السويسرية تظهر فى هذا البحث المبسط عن موقف معقد ، وعلى سبيل المثال تجنيد الجيش . لكن نينيه كان يغط فى الصحراء : وكان النظام الاستعمارى فى بريطانيا العظمى قد وصل إلى ذروته . فالتفاوض مع

الوطنيين كان فكرة شاذة. وحتى عام ١٩٥٦ ، عام إخلاء مصر من القوات البريطانية ، فإن التاريخ الإنجليزى - المصرى سيغلفه سوء الفهم الممتد والمضنى . ونعلم أى منعطف يشكله هذا التاريخ فى العلاقات الدولية . وهو سبب أقوى لتحديد وضوح المصطلحات التى أطلقها نينيه على المشكلة برمتها منذ عام ١٨٨٢ .

چون نينيه والتاريخ المعاصر

ودفع نينيه ببراءته حيث كان مسجوناً فى القاهرة بدون أية أحكام ، وأكد للقنصل البريطانى أنه ليس سوى مؤرخ وأنه يريد تحمل هذه المسئولية كاملة .

أما كونه مؤرخا فلاشك فى أن مجمل مؤلفاته تؤكد هذا الطابع لديه ، فقد أضاف لكتيباته ومقالاته عملين صدرا فى شيخوخته فى جنيف وفى برن ، وهما عملان يسهب فيهما نينيه فى موضوعه المفضل وهو تطور مصر القومى والدولى ، ونحن نعلم ما ستشكله هذه المنطقة من معنى بالنسبة للتاريخ المعاصر وحتى بالنسبة لـ "تطور الإنسانية" ، إذا ما ذهبنا إلى تصديق عنوان المجموعة الشهيرة التى تتضمن مجلد چورچ هارديز : "السياسة الاستعمارية وتقسيم الأرض فى القرنين التاسع عشر والعشرين" .

ومن مكانه كشاهد من شهود العيان الذين قدر لهم الوجود فى هذه الزاوية من العالم فى القرن التاسع عشر وأتيح لهم مراقبة الخطوط الجديدة الفاصلة بين الإنسان وأخيه ، كان نينيه يتميز عن الآخرين بعظمة قدراته ، فكم يندر حقا العثور على كُتَّاب استطاعوا تسخير ذكرياتهم فى الربط بين عصر المماليك وعصر الاحتلال الإنجليزى . وبالنسبة لمصر فقد كان الأمر يتعلق بالمرحلة الفاصلة بين احتضار العصور الوسطى والحياة الحديثة . وكان نينيه من ناحية أخرى رحالة ، مما مكنه من التعرف على بزوغ أمريكا وأفول تركيا . وقاده ارتحاله إلى منطقة البحر الأحمر ثم الخليج الفارسى ، حيث استطاع بفضل طول إقامته ومجموع نشاطاته أن يضيف إلى تناوله للتطور الزمنى للأحداث تناولا متزامنا وعميقا بحيث ظهر التطور العام لهذه الفترة الزمنية واضح الأبعاد بفضل رؤيته الواعية للمكان والزمان .

ولاحت فى قلب شهادة نينيه الظاهرة التى لن تلبث أن تتفاقم وتزلزل عصرنا وهى ثورة العالم الثالث . واستطاع نينيه أن يلتقط تكوينها داخل المجتمع المصرى ، الذى كانت تظهر فى أفقه علامات مبكرة لهذه الثورة والذى تشابكت فيه الأحداث لتكون حالة نمطية . وكان الأمر فى حقيقته يشكل بعدا من أبعاد تاريخ الإمبريالية الذى يتجاهله إلى حد ما مؤرخو الغرب الذين كانوا يختلون بساحة التأريخ فى ذاك الوقت . وكما يقول جان بول سارتر ، كان سكان العالم يتكونون حينذاك من الرجال وثلاثة أرباع من السكان الأصليين ليضيف :"ويمتلك النوع الأول حق الكلمة ويستعيرها النوع الثانى" . وغرق نينيه فى محاولة فريدة لرفع صوت السكان الأصليين وبناء الحوار الأساسى الذى كان غائبا ، وذلك بعد أن تحول من الزراعة إلى التاريخ وبعد أن بات يصف نفسه طواعية بـ "الفلاح السويسرى" .

وكان هذا الموقف سببا مباشرا فى ثورة الغضب على نينيه التى ستؤثر على حياته ومجمل أعماله ، وليشعر قارئ اليوم بأنه أمام شىء جديد .

ولإبراز ما أضافه جون نينيه للمؤرخين المتخصصين فى التاريخ المعاصر ، يمكن ذكر هذه الملحوظة الشاملة لبيير رينوفان ، حيث يقول : " فى العلاقات الدولية تتداخل وتتكامل تأثيرات الظروف الاقتصادية والمالية مع ظروف التيارات النفسية الجماعية والسلوك الشخصى لرجال الدولة"، وهكذا تبدو اللوحة التى رسمها نينيه بكل ثرائها تحت هذه الأضواء ثلاثية الأبعاد.

وقد ساعده كما لاحظنا طابعه كرجل أعمال وتجربته فى المحيط الدولى للمواد الأولية ورءوس الأموال على إدراك خطورة الدور المالى كمحرك وأداة لحركة القوى الكبرى السياسية . وإذا كانت "الاتصالات بين رجال الأعمال وقادة السياسة الخارجية لا تترك وراءها آثارا مدونة فى السجلات العامة ، التى غالبا ما تكون الجهة الوحيدة التى يمكن للباحثين الاطلاع عليها"، فعن طريق "الإيحاءات الثاقبة" لمثل هذا المراقب يمكن سد الفجوات فى هذا المضمار ؛ لأن مؤلفات نينيه توفر لمؤرخ الإمبريالية كشفا نوعيا يمكن عن طريقه إلقاء الضوء على هذه المنطقة "الخافية" التى يشير إليها فيليكس بونتوى فى ختامه لـ "المتوسط والقوى منذ فتح قناة السويس وحتى تأميمها" ، كما أنه يزيل الشكوك التى ما تزال تساور الباحثين الذين يتسمون فى بعض الأحيان بالتشدد كـ : دى . سى . إم بلات ، وكروبوت إل تينجور .

وقد غطت العوامل الاقتصادية – من وجهة النظر الغربية – على تأريخ الإمبريالية عند القيام بأية دراسات للتيارات النفسية الجماعية التى اهتمت بها العلوم الإنسانية . ويذكر جاك بارك أن : «مشكلة العالم الثالث تبدو اليوم فى الأساس كأنها مشكلة الفرد الجماعى . غير أن المشكلة الأساسية فى مصر – وهى منطقة من أكثر مناطق العالم الثالث ذات الدلالة – كانت تبدو أولا وقبل كل شىء مشكلة اقتصادية ومالية وذلك طوال ثلاثة أرباع قرن من الزمان . وإذا كانت تلك المشكلة ستبدأ بالدين فستنتهى بتأميم القناة (...) ولم يتساءل أحد عن العلاقة بين الواقع الخصب لمصر والتجريد المفروض عليها قهرا» .

أما چون نينيه ، فلم يكفّ عن إثارة هذا السؤال وأدخلنا فى هذا المجتمع "النيلى" الذى قام بتبنيه ، وبفضله استطعنا كسب ثقة حركة قومية جبلت بطبيعتها السرية على رفض أى محقق دخيل . ووضعت تحت تصرفنا الوثائق والوقائع المادية ، بل ذهب الأمر إلى أبعد من هذا عندما استطعنا الاطلاع على الخفايا التى لا يصل إليها إلا أعضاء الحركة ، وأفادتنا المعطيات الواقعية حول انتفاضة عام ١٨٨٢ كما أوردتها مراسلات نينيه بتصحيح النظرة التى طالما جردت هذه الحركة من أسانيدها وإلصاق طابع التمرد العسكرى بها . وذلك بدون صلة لأيديولوجية مرتدة . وتستحق تلك المراسلات وصفا لآليتها ؛ لأنها تسجل الوقائع طوال سنوات أربع من المرحلة الحرجة . ويمكن وفقا لهذا التحقيق حول ثورة منذرة من طرح الصورة التالية :

أولا : القاعدة الريفية وهى قوة مقاومة كامنة لدى كتلة الفلاحين والتى تختفى عند طغيان الباشا ، ثم جمعيات سرية حيث يلجأ الألم غير المحتمل . ووضعت التطلعات للعدالة تركيبة مبهمة بين الإسلام الداعى والديمقراطية الحديثة والمتأقلمة . ووضعت خطة للإصلاح تعبر عن دفعة التحرر بمتطلبات دستورية جاءت ضد انتهازية الغريمين – الخديو والحكم الثنائى – الذى يساعد تحديدهما بوضوح على بلورة المفهوم . وانتعش مشروع الحركة فى الوقت الملائم لجبهة موحدة ، ما لبثت أن خانتها طبقة اجتماعية وقعت فى شراك إغراء كبار الملاك والحماية الإمبراطورية .

وتضافرت العوامل حول الصراع المركزى من مؤامرات والتقاء المصالح والتحالفات المؤقتة أو تلك المترابطة إلى جانب التحديات والسخط والخيانات ، وكان هذا الصراع يدور بين المجتمع الزراعى العجوز وأوروبا الصناعية المنتصرة . ونستطيع فى هذا الخضم الواسع تقييم المعرفة التى لا تضاهيها معرفة والتى كان يتمتع بها چون نينيه إزاء "السلوك الشخصى لرجال الدولة" كما يقول بيير رينوفان . ويضيف جاك بيرك قائلا :"لقد تمسك التاريخ المصرى فى عصر التدخل الأجنبى فى كثير من الأحيان بمنشورات سرية لا يستطيع توضيحها سوى ترتيب السجلات الحديثة . خاصة فيما يتعلق بالأوراق الشخصية (...) إلى جانب أن الحركة القومية تنطوى على كثير من الجوانب أو المراحل التى ما زالت مجهولة أو افتراضية ؛ خاصة فيما يتعلق بالدور الذى لعبته هذه الشخصية أو تلك" ، وتجاوز دور نينيه نفسه مجرد المراسل الصحفى كونه استخدم دراية عميقة بطبيعة جيلين للحديث عن الواقع ، وكانت درايته دراية بالأفراد والجماعات والمنتجات والتقنيات والنظم والقوى الموجودة ، واستطاع بفضل وجوده فى هذه المنظومة أن يسبر الإيماءات الأساسية ومراحل نضوج وسمك الهياكل . وساعده دائما فكره الجمهورى كمواطن من مدينة جنيف إلى جانب استقلاله كسويسرى إزاء أوروبا المتورطة فى الحركة الاستعمارية على التمييز بين الجوانب الإيجابية والسلبية لازدواجية عصره .

وقد يمكننا لوم چون نينيه للهجته العاطفية ولكن مع تفهم طابعه الثائر وتعليمه الكالفينى . وغاية الاجتماعى السياسى أنه لا يمكن أن ننكر عليه أمانته كمؤرخ . ويجب الإشارة هنا إلى نزاهته الشخصية التى تظهر جلية فى الوثائق الخاصة بعلاقته العائلية أو العملية . وفى عصر مضطرب عصفت به الثورة الصناعية سيبقى سلوكه المقدام والمحب للآخرين فى خلاف دائم مع عيوب الواقع .

ويمكن بفضل ابتعاد جيلنا الزمنى عن هذا العصر الشعور بالعرفان لهذا الأوروبى الذى عكس بوضوح طابعا كان مجهولا من الإشكالية الاستعمارية . وقد وضع نينيه تحت نظر الغرب عرضا مزيدا استطاع بموهبته فك رموزه . وكانت رسائله المفعمة بالرقة تظهر افتراضات لحل إيجابى قبل أن يصبح سوء التفاهم أمرا واقعا . وكانت تلك الرسائل توفر للغزاة أداة التفكير والنقد الذاتى . وكان على نينيه أن يصر

إذ إن حاجزى اللغة والثقافة كانا يفصلان الطرفين . وكان عليه أن يثور عندما شوهت الحملات الإعلامية لغة الفلاح الذى كان يبذل جهده لجعلها مفهومة .

وهكذا ، نجد أن هذا المؤرخ يتمتع بمهارة الكاتب الحقيقى على الرغم من أنه لا يذهب إلى هذا الادعاء . وأراد نينيه الذى عاصر تيار الطبيعية إعطاء "صور تاريخية" وتأقلمت واقعيته - بلاشك - التى كان يحركها نشاطه الصحفى باللفظ المباشر أو المألوف .

ولم تكن عبارته بالطبع عبارة منقحة (فلم يكن لديه أبدا الوقت لإعادة قراءة كتاباته وكان فى بعض الأحيان يبعث بأكثر من رسالة فى اليوم الواحد) . ولكن تنبثق غبطة عبارته من تلك التلقائية التى يضاف إليها تنوع وحركة الواقع الحقيقى ، فنجد الحوادث ووصف الشخصيات والحوارات والاستفسارات والنداءات والإيحاءات الساخرة وهى كلها أدوات لازمة للنقد الذى يتطلبه الوضع بلا شك ، ولكنها ترجع كذلك إلى تقليد مدينة جنيف المائلة للاعتراض والعراك . وعلى الرغم من هذه القوالب الأدبية التى ترفع من قدر رسائل نينيه فإنها لا تشكل الهدف الأساسى لمؤلفها ولا تنتقص شيئا من حقيقة الوثيقة . وهكذا نجد أن رسائل جون نينيه التى سيستخرج منها مؤرخ العالم المعاصر مجموعة ضخمة من المعلومات لا تخلو من بهجة للقارئ العادى .

الأحداث طبقًا لتسلسلها التاريخى

١٨١٣	٣١ ديسمبر	إعادة إرساء جمهورية جنيف . نهاية الاحتلال الفرنسى .
١٨١٥	١٩ مايو	جنيف تنضم للاتحاد الكونفدرالى الروسى .
	٤ أكتوبر	ولادة " چون نينيه" فى جنيف .
١٨٢٠		إدخال زراعة القطن طويل التيلة إلى مصر من خلال "جوميل" .
١٨٢١	٢٥ مارس	الثورة اليونانية ضد الاحتلال التركى (–١٨٢٩) .
١٨٣٠	٥ يوليو	استيلاء الفرنسيين على الجزائر .
	٢٧–٢٩ يوليو	عايش الشيخ رفاعة الطهطاوى (١٨٠١–١٨٧٣) ثورة يوليو فى أثناء فترة دراسته بباريس (١٨٢٦–١٨٧٣) .
		"نهضة" تشريعية فى سويسرا .
١٨٣١		انتشار ميكنة غزل القطن فى إنجلترا .
١٨٣٣		التاج البريطانى يحل محل شركة الهند ويضم جزيرة سيلان .
		حرب محمد على ضد السلطان : إبراهيم يحتل سوريا .
١٨٣٤		تعيين "نينيه" شيخ التجار بمدينة الـ "هافر" الفرنسية.
١٨٣٥		بدايات وكالة الأنباء "**Havas**" .
	•	إنشاء "مدرسة اللغات" بالقاهرة .

١٨٣٦	١ يوليو	ظهور الصحف الفرنسية اقتصادية السعر : "الصحافة" وأصدرها "إميل جيراردان" ، و "القرن" وأصدرها "دوتاك" .
١٨٣٧	٢٠ يونيو	صعود الملكة "فيكتوريا" إلى سدة الحكم .
		"نينيه" فى "جورجيا"(الولايات المتحدة) حيث يتعلم كيفية زراعة القطن (١٨٣٨) .
١٨٣٨	فبراير	احتلال الإنجليز لـ "عدن" .
١٨٣٩	١٨ أكتوبر	تسليم جواز السفر لـ "ج. نينيه" بصفته "تاجر يعيش فى جنيف و مقيم بمصر أحيانا" – فى خدمة محمد على ، ووظيفته الإشراف على زراعة القطن .
١٨٤٠	٦ فبراير	ضم "نيو زيلاندا" إلى إنجلترا .
	١٩ مارس	حرب الأفيون (١٨٤٢) .
	١٥ يوليو	معاهدة لندن (ما بين إنجلترا ، والنمسا، وبروسيا، وروسيا وتركيا) تؤدى إلى خضوع محمد على للسلطان والتزام الأخير بتعهداته السابقة بإلغاء الاحتكارات .
١٨٤١	٣١ مارس	ولادة "أحمد عرابى" (عرابى) بالقرب من الزقازيق (محافظة الشرقية) .
	١ يونيو	فرمان من السلطان يعطى حق التوارث لأسرة محمد على بالنسبة للأراضى المصرية، حيث يرث الحكمَ الأكبرُ من الأبناء الذكور .
	٢٢ نوفمبر	ثورة فى جنيف مطالبة بحق سيادة الشعب .
		فشل الحملة الإنجليزية فى أفغانستان .
١٨٤٢	٢٩ أغسطس	معاهدة "نانكن" : إنجلترا تدخل الصين وتضم "هونج كونج" .

١٨٤٣		"نينيه"، مزارعاً للقطن فى "السليمانية" (الشرقية) .
١٨٤٤	١ أغسطس	الحرب الفرنسية المغربية : قصف مدينة طنجة .
	سبتمبر	معاهدة طنجة : إنجلترا توقف غزواً فرنسياً للمغرب (نصر "اسلى" ، ١٤ أغسطس) .
١٨٤٦	٧ أكتوبر	ثورة راديكالية بجنيف .
١٨٤٧	٢٤ مايو	شعب جنيف يصوت على الدستور .
	٢٣ ديسمبر	هزيمة الأمير عبد القادر فى الجزائر بعد ١٧ عاماً من المقاومة .
١٨٤٨	يوليو – نوفمبر	تولى إبراهيم باشا الحكم أثناء حياة والده محمد على باشا كهلا ، والذى توفى ٢ أغسطس .
١٨٤٩	١٠ نوفمبر	وفاة إبراهيم باشا الذى خلفه ابن عمه عباس باشا (١٨٥٤) .
١٨٥١		إنشاء وكالة رويتر فى لندن .
	١٨ يوليو	عباس باشا يوقع على عقد يعطى الحق لـ "ستفنسون" فى إنشاء أول خط سكة حديد يربط الإسكندرية بالقاهرة .
١٨٥٣	٢٣ أكتوبر	الحرب الروسية التركية . الخديو عباس يرسل فرقاً عسكرية مصرية لمساندة الجيش التركى .
١٨٥٤	٢٧ مارس	إعلان الحرب الفرنسية الإنجليزية ضد روسيا : حرب القرم (١٧ يناير ١٨٥٦) .
	٣١ مارس	اليابان تحت تهديد القوة تقتحم ميناءين بأمريكا .
	١٣ يوليو	وفاة عباس باشا الذى خلفه عمه سعيد باشا (-١٨٦٣) .
	٣٠ نوفمبر	سعيد باشا يعطى حق حفر قناة السويس لفرديناند دليسبس .

١٨٥٥		"نينيه" يُدخل ماكينة حصد الغلة "ماكارتى" فى الإمبراطورية العثمانية .
١٨٥٦		إرساء التجنيد الإجبارى لفترة وجيزة .
١٨٥٧	٩ مايو	قمع ثورة جماعة الـ "سبايس" بالهند (٢٠ سبتمبر ١٨٥٧، والاستيلاء على دلهى ، صمود "نانا صاحب" حتى ١٨٥٩) .
١٨٥٨	٢٩ يوليو ٩ أكتوبر	إبرام معاهدات لفتح السوق اليابانى أمام التجارة الوافدة من : أمريكا ، وروسيا، وهولندا، وإنجلترا، وفرنسا .
	٥ أغسطس	(٢٤ ذو الحجة ١٢٧٤) إصلاح فى نظام تملك الأراضى : إرساء حق تملك الأراضى ، وإلغاء احتكار الأراضى للدولة .
١٨٥٩	١٨ فبراير	احتلال فرنسى لـ "سايجون" .
	٢٥ أبريل	البدايات لأعمال حفر قناة السويس. تشغيل خط السكة الحديد القاهرة - السويس .
١٨٦٠	يونيو - يوليو	قيام الدروز والأتراك بمذبحة للمسيحيين بلبنان وسوريا . تدخل فرنسى (- يونيو ١٨٦١) .
	٢٥ أكتوبر	تحت ضغط مشترك من الجيوش الإنجليزية - الفرنسية ، معاهدة بكين تعيد تقرير الامتيازات الممنوحة للأوروبيين فى الصين .
١٨٦١	١٢ أبريل	بداية حرب الانفصال. ارتفاع أسعار القطن (-٩ أبريل ١٨٦٥) .
١٨٦٢	٥ يونيو	معاهدة تفرض على الباب العالى خضوع بعض أراضى الإمبراطورية العثمانية للحماية الفرنسية .

١٨٦٣	١٨ يناير	إسماعيل باشا يخلف عمه سعيد باشا (-١٨٧٩) .
	١١ أغسطس	خضوع "كامبوديا" للحماية الفرنسية .
١٨٦٤	٦ يوليو	حكم نابليون الثالث لصالح قناة السويس .
	٢٢ أغسطس	معاهدة جنيف . إنشاء الصليب الأحمر .
١٨٦٥	٩ أبريل	نهاية حرب الانفصال . انهيار أسعار القطن .
١٨٦٦	٢٧ مايو	فرمان للسلطان يقصر على خلفاء إسماعيل باشا الحق فى توارث الحكم أبا عن جد .
	٢٥ نوفمبر	افتتاح مجلس النواب ، وهو أول برلمان مصرى (- ٢٤ يناير ١٨٦٧) .
١٨٦٧	٨ يونيو	بفرمان من السلطان يُمنح إسماعيل باشا لقب خديو .
١٨٦٩	١٧ نوفمبر	افتتاح قناة السويس .
	٢٩ نوفمبر	فرمان من السلطان يتيح مراقبة التعاملات المالية للخديو ويشترط موافقة الباب العالى على أى قرض من الخارج .
١٨٧٠	١٩ يوليو	الحرب الفرنسية - البروسية (١٠ مايو ١٨٧١ ، معاهدة فرانكفورت) .
	٤ سبتمبر	انهيار حكم نابليون الثالث .
١٨٧١	مارس	إقامة جمال الدين الأفغانى بمصر (تم طرده منها فى عام ١٨٧٩) .
	٣٠ أغسطس	قانون المقابلة .
١٨٧٢	١٠ ، ٢٥ سبتمبر	فرمانات تلغى القيود المالية لعام ١٨٦٩ وتتيح للخديو الحصول على قروض من الخارج .
١٨٧٣	٨ يونيو	فرمان يوسع من صلاحيات الخديو .
١٨٧٥		توسع فرنسى لأراضيها المحتلة بأفريقيا عن طريق ضم "برازا" بالكونغو .

١٢ أبريل	قيام "ديزرائيلى" بضم الـ "ترانسفال" للأراضى المحتلة بالـ "كاب" .
٦ أكتوبر	إفلاس تركيا . انهيار قيمة الأسهم الشرقية ببورصات أوروبا .
٢٥ نوفمبر	"ديزرائيلى" الذى يقوم بتموين نفسه من آل "روتشيلد" و بدون استشارة البرلمان يشترى بمبلغ ٤ مليون جنيه إسترلينى حصة مصر من الأسهم فى قناة السويس (٤٤٪ من قيمة رأسمال شركة قناة السويس) .
١٦ ديسمبر	بعثة إنجليزية تحت مسمى "كاف" تقوم باستقصاء الأحوال المالية المصرية (-٢١ فبراير ١٨٧٦) .

١٨٧٦

١ يناير	بدايات المحاكم المختلطة .
٧ مارس	هزيمة الحملة العسكرية فى بلاد الحبشة .
٧ إبريل	نظراً لاستحالة الاقتراض من الخارج ، قام الخديو بتعليق دفع فوائد أذون الخزانة (الديون العائمة) .
١ مايو	إعلان "ديزرائيلى" فكتوريا إمبراطورة على الهند .
٢ مايو	الجيش التركى يقوم بقمع تمرد بلغارى .
٢ مايو	قرار من الخديو بإنشاء "صندوق الدين العام" : مندوبون من الخارج يسيطرون على عوائد الضرائب لصالح خدمة الدين العام .
٧ مايو	قرار يحدد شروط تحويل و توحيد الديون .
٢١ أغسطس	"ديزرائيلى" يحصل على لقب "نبيل" بيكونسفيلد **Beaconsfield**" من الملكة فيكتوريا .
١٢ سبتمبر	مؤتمر بروكسل : إنشاء الرابطة الأفريقية الدولية ، بغرض علمى وإنسانى (ستانلى) .

	أكتوبر – نوفمبر	"بعثة مالية" جوشن – جوبرت .
	١٨ نوفمبر	قرار من الخديو بإرساء حق "الحماية" المشتركة لفرنسا و إنجلترا على المالية المصرية .
١٨٧٧		
	٢٤ إبريل	إعلان روسيا الحرب على تركيا .
	١١ يونيو	انطلاق حملة عسكرية مصرية لنجدة تركيا (– فبراير ١٨٧٨) .
		إصدار عدة صحف سياسية منها "الوطن" لميخائيل عبد السيد ، و"مصر" لأديب إسحاق ، و"أبو نظارة" لـ صنوع Sanua .
	٤ أغسطس	معاهدة ما بين إنجلترا والخديو لإلغاء استعباد السود ونظام العبودية .
	١٣ ديسمبر	تعيين وادنجتون "Waddington" وزيرا للخارجية بباريس .
١٨٧٨		
	فبراير	هزيمة تركيا .
	٣ مارس	معاهدة "سان ستفانو" تفرض حماية روسيا على أمم البلطيق .
	٣٠ مارس	قرار من الخديو بإنشاء لجنة عليا للتحقيقات (فى المالية) . ويدين التقرير المنبثق عنها الخديو وذلك بتاريخ ١٣ أغسطس .
	٢ إبريل	تعيين الماركيز سالیسبری "Salisbury" فى وزارة الخارجية .
	مايو	أزمة القطن . مجاعة فى مصر . الحكومتان الإنجليزية والفرنسية تطالبان بدفع كوبونات الديون .
	٤ يونيو	احتلال إنجلترا لقبرص .

١٣ يونيو	تحت رئاسة "بسمارك" مؤتمر برلين يغير معاهدة "سان ستفانو" (-١٤ يوليو) .
٢٨ أغسطس	قيام "نوبار" بتشكيل وزارة سميت بالوزارة الأوروبية تضمنت الإنجليزى ريفرز ويلسون "Rivers Wilson" للمالية (٢١ سبتمبر) ، والفرنسى دى بلينيير "de Blignieres" فى الأشغال العامة (١٦ نوفمبر) . تم إلغاء وظائف المراقبين العموميين (٨ ديسمبر) .
٣١ أكتوبر	ريفرز ويلسون"Rivers Wilson" يفرض على الخديو أن يحصل على قرض جديد من الـ روتشيلد "Rothschild"لتصفية العجز فى الميزانية عن طريق عوائد "دائرة ثنية" (ملكية خاصة) .
نوفمبر	بيكونسفيلد "Beaconsfield" يشرع فى حرب خطيرة ضد أفغانستان .

١٨٧٩

٢ يناير	اجتماع مجلس النواب (- ٦ يوليو ١٨٧٩)
١٨ فبراير	مظاهرة الضباط المصريين ضد "نوبار" وويلسون "Rivers Wilson" .
١٩ فبراير	الخديو إسماعيل يقيل وزارة "نوبار" ويرأس مجلس الوزراء .
١٠ مارس	تعيين الأمير توفيق لرئاسة المجلس ، وتحت ضغط إنجليزى فرنسى مشترك تم تعيين وزيرين أوروبيين .
٢٧ مارس	النواب يرفضون حل البرلمان ويعترضون عند وزير الداخلية "رياض" الذى كان يريد إنهاء الدورة النيابية .

٧ أبريل	الخديو يكلف شريف باشا بتشكيل وزارة مكونة بأكملها من المصريين "نزولاً على رغبة الشعب" . مشروع للنبلاء فى اجتماعهم يوم ٢ أبريل عند سعيد البكرى .
٢٢ أبريل	قرار من الخديو يختلف عن مشروع التصفية المالية المعد من قبل اللجنة الدولية للتحقيق .
١٧ مايو	شريف يعرض على مجلس النواب مشروع قانون تنظيمى وقانون انتخابى .
١٨ مايو	"بسمارك" يعترض على قرار إسماعيل الذى اتخذه الأخير يوم ٢٢ أبريل .
١٩ يونيو	ممثلا إنجلترا وفرنسا يقرآن على الخديو منشوراً جماعيا يدعوه باسم حكوماتهما إلى التنازل عن الحكم لصالح توفيق وترك مصر .
٢٥ يونيو	تلجرام من السلطان للخديو السابق إسماعيل يؤكد إقصاءه عن الحكم .
٣٠ يونيو	إسماعيل يترك مصر باتجاه مدينة "نابولى" الإيطالية .
٣ يوليو	شريف يكون وزارة مصرية جديدة .
٧ أغسطس	فرمان بتنصيب توفيق الحكم .
١٧ أغسطس	استقالة وزارة شريف بعد رفض الخديو توفيق تحت ضغط القناصل لنشر القرار الضامن لإقرار دستور للبلاد .
١٨ أغسطس	الخديو توفيق يكون تحت رئاسته وزارة جديدة توجهاتها عكس التوجهات الليبرالية .
٢٦ أغسطس	قرار وزارى بطرد جمال الدين الملقب بالأفغانى ، الذى تم إلقاء القبض عليه ٢٤ أغسطس بعد منتصف الليل .

	٤ سبتمبر	قرار بإعادة إقرار السيطرة الفرنسية الإنجليزية على المالية (تم ذلك بتاريخ ١٨ نوفمبر ١٨٧٦) ، بالتعاون ما بين "Baring" و "Blignieres" .
	٢١ سبتمبر	تكوين وزارة رياض باشا (-٩ سبتمبر ١٨٨١) .
	٤ نوفمبر	مانفستو الحزب الوطنى المصرى .
	١٥ نوفمبر	قرار بإعادة إقرار المراجعة المزدوجة الفرنسية الإنجليزية للشئون المالية : المراجعون العموميون لهم مكانهم فى مجلس الوزراء ولهم الصفة الاستشارية .
	ديسمبر	"Freycinet" يخلف "Waddington" .
١٨٨٠		الوزارة الليبرالية لـ "Gladstone" و "Granville" فى وزارة الخارجية الإنجليزية تخلف الوزارة المحافظة لـ لبيكونسفيلد "Beaconsfield" (ديزرائيلى) وساليسبرى "Salisbury" .
	١٧ يوليو	قانون التصفية ، نتاج عمل لجنة دولية : لمدة ٦١ عامًا يتم تخصيص دخل مصر لخدمة الدين ودفع الضريبة للسلطان .
	٣١ يوليو	تعيين عثمان رفقى باشا ، الشركسى وزير الحربية ينشر قانونا للترقيات العسكرية فى غير صالح التقدم فى الترقيات للضباط المصريين .
	أغسطس	حملة الجنرال "روبرتس" تنتهى بخضوع أفغانستان للسلطة الإنجليزية .
	ديسمبر	تمرد الـ Boers ضد القوات الإنجليزية .
١٨٨١		
	١٧ يناير	عريضة مرفوعة من العقداء : عرابى، وعلى فهمى، وعبد العال ، لرئيس الوزراء رياض ضد عثمان رفقى .

١ فبراير	القبض على عرابى ورفاقه، قواتهم تقوم بتسليمهم. وزير الوقف ، محمود سامى البارودى يخلف عثمان رفقى فى وزارة الحربية .
٢٢ فبراير	باريس تستدعى قنصلها ، البارون دى رانج "de Ring" ، واتهم بمساندة القوميين .
٦ أبريل	"انقلاب" جديد .
٢ مايو	نزول القوات الفرنسية على شواطئ بير زيت .
١٢ مايو	معاهدة "برادو" ترسى حماية فرنسا على ولاية تونس .
يوليو	ثورة المهدى فى السودان .
١٤ أغسطس	داود فتحى باشا صهر الخديو، يخلف البارودى وزيراً للحربية .
٩ سبتمبر	عرابى وبمساندة الجيش يملى على الخديو المطالب الشعبية : تغيير الوزارة ، واستدعاء البرلمان ، والمساواة أمام العدالة .
١٤ سبتمبر	تشكيل وزارة شريف بعد تردد فى تعيين محمود سامى البارودى فى وزارة الحربية حسب رغبة الضباط .
٢ أكتوبر	نظامى باشا وفؤاد بك مندوبين عن السلطان يذهبان من القسطنطينية إلى مصر ، وإعلان حالة التأهب على ظهر سفينتين حربيتين ترسوان فى ميناء الإسكندرية .
١٩ أكتوبر	البعثة العثمانية تذهب بحراً إلى القسطنطينية .
٢٠ أكتوبر	السفينة الحربية الـ "Alma" تترك مياه الإسكندرية ، بينما السفينة الحربية "l'Invincible" أو القاهر تبقى فى المياه الإقليمية بالإسكندرية لحماية المستعمرات بالخارج .

١٠ نوفمبر — وزارة "Gambetta" تؤيد التدخل الفرنسى فى مصر .

٢٦ ديسمبر — مجلس النواب يجتمع (-٢٦ مارس ١٨٨٢) .

١٨٨٢

٢ يناير — مشروع قانون تنظيمى مقدم من مجلس النواب .

٤ يناير — تعيين عرابى وكيلاً أول لوزارة الحربية .

٧ يناير — مذكرة فرنسية - إنجليزية مرفوعة للحكومة المصرية لصالح الإبقاء على الخديو .

٢٦ يناير — عريضة قام بإعدادها القناصل وتم تسليمها للخديو حتى لا يعطى الحق لمجلس النواب لإقرار الميزانية .

١ فبراير — إقالة "Gambetta" ويخلفه "De Freycinet" الذى يعترض على التدخل الفرنسى فى الشئون المصرية .

٢ فبراير — المجلس الذى له الحق فى التصويت على الميزانية يرفض مشروع غير كاف للقانون العضوى المقدم من شريف ويجبر الخديو على إقالة الوزارة .

٤ فبراير — تشكيل وزارة محمود سامى البارودى وتتضمن عرابى وزيرا للحربية .

٧ فبراير — الخديو يوقع على قرار لضمان الدستور .

٨ فبراير — البارودى يقدم القانون العضوى الذى يعطى الحق لمجلس النواب للتصويت على الميزانية فى جلسة حضرها جميع النواب .

٢٦ مارس — انتهاء أعمال دورة مجلس النواب .

١١ أبريل — اكتشاف مؤامرة شركسية - تركية تستهدف عرابى والقوميين .

٣٠ أبريل	إدانة المتآمرين الأتراك - الشركس . الخديو يرفض إقرار العقوبات عليهم .
٩ مايو	الخديو فى حضور القناصل يقرر تعديل العقوبات .
١٠ مايو	مجلس الوزراء يقرر استدعاء مجلس النواب للبت فى أمر إبعاد الخديو توفيق عن الحكم .
١٣ مايو	اجتماع غير رسمى للنواب عند سلطان باشا رئيس المجلس ، الذى يعرض التدخل لتقريب وجهات النظر بين الخديو والحكومة : البارودى يبقى فى الحكم . الحكم على الشركسيين يخفف طبقا لرغبة الخديو توفيق .
١٥ مايو	الحكومات الإنجليزية والفرنسية تقرر إرسال وحدة بحرية للإسكندرية ، وتدعو تركيا أن تتوقف عن التدخل فى الشئون الداخلية لمصر .
٢٠ مايو	عرض بحرى فرنسى - إنجليزى فى الإسكندرية : ٦ قطع بحرية إنجليزية و ٦ قطع بحرية فرنسية تدخل الميناء .
٢٥ مايو	مذكرة مشتركة فرنسية - إنجليزية تم تسليمها للخديو بغرض إقالة الوزارة ونفى عرابى .
٢٦ مايو	حكومة محمود سامى البارودى ترفض الإنذار الفرنسى-الإنجليزى الذى قبله الخديو ويستقيل .
٢٧ مايو	اجتماع عند سلطان باشا الذى يدعو إلى الإذعان ولكن يتم المطالبة بعودة عرابى والمقاومة .
٢٨ مايو	الخديو - تحت ضغط الرأى العام - يعيد تعيين عرابى فى وزارة الحربية ، من قبل تشكيل البارودى للحكومة الجديدة .

٤ يونيو	رحيل درويش باشا مندوب السلطان للإسكندرية التى يصل إليها يوم ٧ وإلى القاهرة يوم ٨ .
١١ يونيو	مذبحة فى الإسكندرية ما بين الأوروبيين والمصريين .
١٣ يونيو	الخديو يترك القاهرة للإسكندرية ليكون فى حماية الوحدة البحرية الفرنسية الإنجليزية .
١٥ يونيو	بيان عرابى الذى يطمئن فيه المصريين على أمنهم . أعضاء الحملة العسكرية للجنرال "Wolseley" فى وضع الاستعداد .
١٧ يونيو	تشكيل وزارة إسماعيل راغب باشا ، عرابى يحتفظ بحقيبة الحربية .
٢٣ يونيو	افتتاح مؤتمر القسطنطينية عن الأوضاع فى مصر بدون مشاركة تركيا .
٢٥ يونيو	بروتوكول لعدم التدخل فى شئون مصر تم التوقيع عليه فى القسطنطينية من القوى الدولية فى الجلسة الثانية للمؤتمر الذى عقدوه .
٢٧ يونيو	القنصل الإنجليزى "E. Malet" ، يمرض فجأة ويرحل لأوروبا ، تاركًا رئاسة الوكالة البريطانية لسكرتير السفارة "Cartwright" ويستقر بفنيسيا حتى بداية العمليات العسكرية وإلا تعرضت التحصينات لمرمى النيران .
٧ يوليو	طلبة ، القائد العسكرى للإسكندرية ، يرفض تصريحات الأميرال الإنجليزى ويناشد فيه أحاسيسه الإنسانية .
٩ يوليو	الأميرال سيمور "Seymour" يضع قطعه البحرية الحربية فى وضع الاستعداد للحرب مجدداً .

مـدير القنصلية الإنجليـزية يدعـو القناصل إلى ترحيل مواطنيهم .

١٠ يوليو — إنذار مـوجـه من الأمـيـرال "Seymour" للقـائد العـسكرى للإسكندرية : لو لم يتم تسليم التحصينات له خلال ٢٤ ساعة سيقوم بتدميرها .

الخديو يترك قصر رأس التين ، المعرض لإطلاق النيران من البحرية ويلجأ إلى قصر الرملة .

العقيد البحرى "Conrad" يبلغ الحكومة الفرنسية من ميناء الإسكندرية بأنه لم يلاحظ وجود أعمال لإنشاء تحصينات من القوى الدولية، وبالرغم من حلول موعد نهاية الإنذار الإنجليزى ، لم يُبذل أى مجهود ولو لمد المهلة المتاحة أمامهم .

١١ يوليو — بدءاً من الساعة السابعة البحرية الإنجليزية تقوم بتدمير الإسكندرية . الوحدة البحرية الفرنسية تتجه إلى بورسعيد .

١٢ يوليو — الأميرال "Seymour" يستأنف القصف ، بالرغم من الشروع فى بدء مفاوضات ورفع الأعلام البيضاء على الحصون .

الإسكندرية تحترق .

أحمد عرابى ينسحب إلى كفر الدوار .

"نينيه" يصل إلى الإسكندرية .

١٣ يوليو — "نينيه" يقوم بجولة فى الإسكندرية .

١٤ يوليو — رسالة من الخديو تدعو عرابى للعودة إلى المفاوضة على اتفاق معروض من الأميرال الإنجليزى .

١٥ يوليو	القوات الإنجليزية تنزل على شواطئ الإسكندرية . مؤتمر القسطنطينية يدعو تركيا إلى إرسال قواتها لمصر .
١٧ يوليو	تجمع للنبلاء بالقاهرة . إرسال وفد إلى الخديو يدعوه إلى العودة إلى القاهرة للإشراف على الحرب .
١٨ يوليو	"درويش باشا" يترك مصر .
١٩ يوليو	الخديو يطلب من كولفن المراقب العام الإنجليزى للشئون المالية بالإسراع فى التدخل العسكرى .
٢٠ يوليو	إقصاء عرابى وإعلانه متمرداً من جانب الخديو وذلك عقب رفضه التوقف عن المقاومة .
يوليو	الاجتماع الثانى بالقاهرة لمجلس النبلاء الذى يعلن التمرد على الخديو ويعلن المقاومة تحت لواء عرابى .
٢٤ يوليو	المفوضون الأتراك يشاركون فى مؤتمر القسطنطينية .
٢٥ يوليو	الخديو يعين عمر لطفى باشا وزيراً للحربية .
٢٧ يوليو	جلادستون Gladston يخضع للتصويت فى مجلس النواب بعد مداولات لأربعة أيام نفقات الحملة العسكرية .
٢٩ يوليو	مجلس النواب يقيل وزارة Freycinet التى رفضت اعتماد المبالغ اللازمة لقوة مسلحة تتحمل مسئولية حماية قناة السويس . Duclerc يخلفه .
٢ أغسطس	إنزال القوات البحرية الإنجليزية والقوات الهندية وذلك بالرغم من كون القناة تعتبر منطقة محايدة كما سبق وأعلن دليسبس لعرابى .

٤ أغسطس	أمر من الحكومة الإنجليزية للأميرال "Seymour" بمواجهة الإنزال البحرى لأية قوات تركية قبل إبرام أية معاهدة عسكرية إنجليزية – تركية .
١٤ أغسطس	الجلسة الأخيرة لمؤتمر القسطنطينية ، المؤجل إلى أجل غير مسمى .
١٥ أغسطس	الجنرال "Wolseley" يصل إلى الإسكندرية ولكنه يقوم بإنزال معظم قواته بالإسماعيلية .
١٩ أغسطس	القوات البحرية الإنجليزية تقوم بعمل ثغرة فى أبى قير وتسبح ليلاً باتجاه بورسعيد .
٢٨ أغسطس	شريف باشا يشكل حكومة جديدة ويعين رياض وزيراً للداخلية .
٦ سبتمبر	تحت ضغط من الإنجليز ، السلطان يعلن عرابى متمرداً .
١٣ سبتمبر	معركة التل الكبير . الإنجليز يدخلون القاهرة .
١٤ سبتمبر	استسلام عرابى .
١٥ سبتمبر	دخول الجنرال "Wolseley" إلى القاهرة .
١٨ سبتمبر	قطع المحادثات الإنجليزية – التركية بشأن إرسال قوات عثمانية إلى مصر .
١٩ سبتمبر	حل الجيش المصرى بأمر من الخديو . القبض فى القاهرة على "چون نينيه" .
٢٤ سبتمبر	دخول الخديو القاهرة .
٢ أكتوبر	نقل "نينيه" من سجن بلدية القاهرة إلى سجن البرج بالإسكندرية .
٤ أكتوبر	بفضل جواز سفر مزور ، نينيه يرحل إلى "Smyrne" .

	٧ أكتوبر	فى "Pirée" "نينيه" يهرب ويرحل إلى نابولى .
	١٦ أكتوبر	وكالة رويتر تعلن عن وصول "نينيه" إلى مدينة برن .
	٢٧ أكتوبر	استجواب فى مجلس العموم بشأن "نينيه" الذى وصل إلى لندن وكذلك بشأن القوميين المقبوض عليهم فى مصر .
	٢ نوفمبر	نهاية التحقيق لل "متمردين" : إحدى المحاكم العسكرية بالقاهرة تحكم على عرابى بالإعدام الذى خفف إلى المؤبد من الخديو .
١٨٨٣		
	١٠ يناير	وصول عرابى ورفاقه لـ "Colombo" . فى ١٩٠١ منح عفواً عاماً وعاد من سيلان إلى مصر ليقضى بها آخر عشرة أعوام من عمره (توفى فى ٢١ سبتمبر ١٩١١) .
	١٦ يناير	الخديو توفيق يعين "Evelyn Wood" مشرفًا عامًا على الجيش المصرى .
	٣٠ مايو	تعيين Evelyn Baring (lord Cromer=) قنصلاً عاماً لإنجلترا فى مصر (–١٩٠٧) .
	٨ يونيو	معاهدة "Marsa" توسع من نطاق سيطرة فرنسا على ولاية تونس .
١٨٨٤		
	١٣ مارس	ظهور "العروة الوثقى" الجريدة التابعة للتنظيم الإسلامى لجمال الدين الأفغانى ويقوم بتحريرها محمد عبده .
	٣٠ مارس	"نينيه" ينتهى من كتابه "عرابى باشا" الذى تم نشره بمدينة "برن" .

	١٥ مارس	مؤتمر برلين (-٢٣ فبراير ١٨٨٥) القوى الأوروبية تقتسم أفريقيا .
١٨٨٥	٢٦ يناير	المهديون يقتلون جوردون بالخرطوم .
١٨٩٣		
	٨ - ٢١ مارس	قضية بنما ، إدانة فرديناند دليسبس .
١٨٩٥		
	٣ فبراير	وفاة "چون نينيه" فى جنيف .
١٩٠٤		
	٨ أبريل	التفاهم الودى الفرنسى - البريطانى : فى مقابل حرية الحركة داخل الأراضى المغربية تتعهد فرنسا بعدم إعاقة حرية حركة إنجلترا فى القطر المصرى .
١٩٥٢	٢٣ يوليو	تنظيم الضباط الأحرار يقلب نظام الحكم .
	٢٦ يوليو	فاروق ، حفيد الخديو إسماعيل يضطر للتنازل عن الحكم وترك مصر .
١٩٥٣		
	١٨ يونيو	إعلان مصر جمهورية .
١٩٥٤		
	١٩ أكتوبر	اتفاق بريطانى - مصرى ينص على إخلاء القاعدة العسكرية لقناة السويس فى ظرف ٢٠ شهراً ولكنه ينص على حق إنجلترا فى إعادة احتلال هذه المنطقة فى حالة ما إذا كان أحد أطراف الاتفاق مهدداً ، أو فى حالة وجود تهديد يستهدف تركيا .
١٩٥٥		
	١٧ - ٢٦ أبريل	مؤتمر باندونج الأفرو-آسيوى .

١٩٥٦

٢٦ يوليو	تأميم شركة قناة السويس .
٢٩ أكتوبر	إنجلترا وفرنسا تتركان لإسرائيل حرية مهاجمة مصر . رفض مصر للإنذار الفرنسى الإنجليزى المعلن فى اليوم التالى ، الذى ينص على الاحتلال المؤقت للقوات الفرنسية الإنجليزية للمواقع المهمة ببورسعيد والإسماعيلية والسويس .
٥ – ٦ نوفمبر	قوات المظلات والبحرية الإنجليزية والفرنسية تحتل بورسعيد . إنذار سوفييتى يلوح بمهاجمة إنجلترا وفرنسا . فى الأمم المتحدة ، الولايات المتحدة تشجب الاعتداء الثلاثى .

١٩٥٧

١ يناير	مصر تندد باتفاق ١٩ أكتوبر ١٩٥٤ الذى أصبح غير ذى صفة بعد الاعتداء الإنجليزى يوم ٣١ أكتوبر ١٩٥٦ . نهاية الاحتلال الذى استمر منذ عام ١٨٨٢ .

مراسلات چون نينيه
مصر (١٨٧٩ - ١٨٨٢)

رسالة رقم (١)

الإسكندرية فى ٢٤ مايو ١٨٧٩

غادر نوبار باشا وعائلته مصر يوم الثلاثاء الماضى على الباخرة موريس التابعة لوكالة التسفير البحرى . ويقال إن الخديو عجل برحيل هذه الشخصية الأرمنية بإصدار أمر نفى. غير أن الحقيقة فى مصر تعانى ، فلا أؤمن - ولست الوحيد الذى لا يؤمن - بأن مرسوما رسميا يكون قد صدر بشأن نفى نوبار باشا ، إلا إنه يمكننى التأكيد على أن الوزير السابق تلقى بطريقة شبه رسمية إخطارا يفيده برغبة الخديو فى هذا الأمر ؛ فبقاء هذا الموظف بالبلاد فى ظل الظروف السائدة والمخاوف الوطنية يشكل من وجهة نظر نائب الملك خطرا .

وقد تم هذا الرحيل وسط شعور تام باللامبالاة من جانب الأهالى والأوروبيين ، فلم يشعر أحد بأدنى أسف على رحيل الوزير السابق الذى ازدادت الأوضاع سوءا بعودته إلى مصر . وخلف قناع الابتهاج المزيف كان سموه يخفى مخاوف بالغة .

وفى حفلات الاستقبال اليومية ، الخاصة إلى حد ما ، تصنع الناس الحديث باستخفاف عن النظام الذى مات فى مهده والذى يطلق عليه نائب الملك المحب للدعابة تعبير وزارة السقطات أو الوزارة المخلوعة أو ما كان يطلق عليها "الإدارة المدنة الأنجلو فرنسية" ، وكان على الجميع ، فرنسيين وإنجليز وغيرهم ، أن يضحكوا بملء فيهم أمام هذه الدعابات . ولكن ما إن تخبو نوبات المرح الصاخب المصطنعة حتى يجد نائب الملك - الذى تستبد به أفكار من نوع آخر - صعوبة فى إخفاء ما تصفه لغتنا بتعبير "القلق الحاد" وهذا الأمر له ما يبرره . ويغادر الضحك شفتيه وتغمض عيناه نصف إغماضة وتعلو وجهه - الدءوب على فحص النفس - ملامح القلق التى لا يستطيع أن يقهرها أى تعبير من تلك التى يصطنعها المجتمع الرسمى .

وقبل وصول المحققين "يطلب" من الخديو ، وبلا أدنى رغبة فى أن يحكم لصالح هذا الطلب الشكلى الذى أملته الظروف . كانت خزانة الدولة تسارع إلى التخلص من الأموال التى لم تكد تستقر لديها بهدف فرض الأمر الواقع أمام فضول المبعوثين الأوروبيين .

ففى عهد (نوبار – وولسن – وبلينير) درجت الخزانة الخاصة على سرعة التخلص مما لديها من أموال ، على الرغم مما كانت تصدره الوزارة الجديدة من أوامر لم تكن تصل على النحو الذى سأقوم بشرحه فيما بعد .

وبعد رحيل الموظفين المذكورين أو استقالة الوزراء استؤنفت تلك العملية على نحو يمكن وصفه بالجنون ، كما لو كانت اليد الحاكمة تخشى حدوث مانع قهرى أو تشعر بقرب وقوع كارثة. وترجع هذه الأوضاع إلى ما رأيته بالداخل وما سمعته من الأهالى ، وما يرويه من يعلمون ومن يعانون ، بل ومن يتولون الإدارة تحت رحمة رجال الخديو المخلصين من المديرين . وأكرر إننى لا أستقى انطباعاتى على نحو ما يفعل بعض المراسلين الخصوصيين من حاشية سموه أو صيارفته أو متملقيه أو مغتابيه أو من دبلوماسى أو آخر عليم إلى درجة ما بالأمور . ولا أذهب إلى السراى وإنما مصدرى هذه الوقائع ذاتها .

لم تكن القاهرة مرحة منذ فوضى عام ١٨٧٥ وقد جعلها النظام الأنجلو فرنسى أكثر كآبة . لم يعد أحد يحصل على أجر، وظهرت فورات قوية وجذرية فى كل مكان ، ولم تعد نساء الحرملك يسددن لمورديهن . وباع أبناء العائلات جيادهم وعرباتهم بعد أن أعوزهم المال ، بينما كان الائتمان يحتضر ونائب الملك يوجه نصائح إلى كبار رجال الدولة كى يصل الوضع إلى هذا الحد . سعد بأن يفرض الحداد على المدينة حتى قبل أن تولى الأزمنة الطيبة التى أصبحت تبكيها . وكانت الوزارة الساقطة تستقيل من كل جانب بقدر من الذكاء متسببة فى زيادة عدد الساخطين الذين تحولوا عندئذ ضدها . وقد كان هذا أبعد ما يكون بلا شك عن السلوك السياسى على أقل تقدير ، فقد نبذت الوزارة الخديو الذى لم يعد له وجود فى نظرها وعاملته كما لو كان قد تنازل عن العرش بين أيديها بمقتضى اتفاق دولى أملته الفطنة والتنفيذ السليم لمشروع تم الاتفاق عليه شفهيا ، وهو الأمر الذى لم يكن قائما .

وانتشى القادمون الجدد بالسلوك النبيل للشرقى الذى تجرى فى عروقه دماء ألبانية (ولا يقصد هنا دماء الشجاعة) حتى إنهم أغفلوا تماما نظام التجسس المحكم الذى أقامه حولهم نائب الملك منذ وصولهم، سواء داخل حياتهم الخاصة أو فى وزاراتهم .

فعند منتصف كل ليلة كان الخديو يتلقى فى مجالس الأصدقاء تقارير خطية أو شفهية يرفعها له "البصاصون" أو "الجواسيس" الذين يساهمون فى بداية اليوم فى صورة مترجمين أو كتاب فى إصدار أمر أو تنفيذ إجراء ضريبى أو غيره من الإجراءات . ومساء كل يوم كان أمر خديوى مضاد يصدر بتعليمات لمن يعنيهم الأمر بالامتناع عن الدفع أو عن تقديم المعلومات المطلوبة . وحيث إنه لم يكن لمصر فى أى وقت من الأوقات إلا سيد واحد وهو السيد القائم اليوم فإنه يمكننا أن نفهم بسهولة تلك العقبات التى كانت تزرعها يوميا قوة خفية لا تقهر تحت أقدام الوزارة الغريبة التى تتحسس طريقها .

وخدع نوبار بالمظاهر ظنا منه أن الأمور تسير على النحو السليم ، وكان خديويا أكثر من الخديو نفسه . وليس هناك مجال للشك فى ذلك الشأن، وجرت محاباة الأقارب من الجهتين ، فأنشئت مؤسسات عجيبة يترأسها أشخاص يدّعون القدرة على الانتهاء فى ثلاث سنوات من أعمال يعجز المهندسون المهرة من الفرنسيين وغيرهم من المقيمين منذ زمن طويل فى مصر عن إنجازها فى أقل من ست سنوات ، وكذلك كانت الحال بالنسبة للمساحة التى استدعى ولسن من أجلها أصدقاء حميمين له من لندن والهند ليحصلوا على أجور ضخمة يضيفون بها إلى الأعباء الثقيلة للدولة أعباءً جديدة . وسارت الأمور كلها على هذا النحو ، بينما كان الخديو يراقب فريسته انتظارا للحظة الانقضاض عليها ، والتى سرعان ما حانت .

وعند دراسة موازنة الجيش قامت الوزارة بتسريح ثمانية آلاف شخص بعد منحهم أجر ثلاثة أشهر .. وترك هؤلاء الخدمة فى سعادة وفى انتظار الحصول فيما بعد على ما تبقى لهم من مبالغ . وقام هؤلاء السادة بغير حكمة بتسريح ما يقرب من ألفى ضابط بدون تعويضهم ظنا منهم بأن قرض روتشيلد سيسدد إلى الخزانة كما وعدهم نائب الملك بذلك . وبدت الأمور حتى هذه اللحظة وكأنها تسير بسهولة ،

لقد تغير اليوم كل شيء ، فمتنزه شبرا الجميل أصبح تجوبه بعد ظهر كل يوم عربات يحرسها فرسان يمتطون أجمل الجياد ، وعربات الحريم تقوم بنزهة الأميرات وعائلات أصحاب المقام . وتوقف نشاط العاهرات الدخيلات ، وإذا كان نظام الإفلاس قد خلف وراءه بعض الضحايا فإن الحكومة هى التى خلفته ، أما الخديو فقد انتشل الكثيرين منهم ، فأعاد الغالبية من كبار الموظفين الذين كانوا قد أعفوا من مناصبهم .

واستبشر الجميع وردد المفلسون المحتجبون من قرابة عام قائلين : "لقد رحل فولسن (ولسن كما ينطقه العرب) ونوبار .. فلنتنفس" ، يا الله إن هؤلاء الأهالى يتمتعون بالذكاء ، فإذا كانوا يرتضون بأن يساقوا كالماشية إلا أن أحدا لا يستطيع خداعهم ، وتغلب على تعليقاتهم نكهة يحسدهم عليها الأوروبى .

ولا يعنى هذا أن النقود قد أغرقت الشوارع ، إلا أن الخديو - حماية لمصالحه الخاصة - قد أمر بدفع بعض المتأخرات لتهدئة الجوع والشكاوى ملقيا بمسئولية ما وصلت إليه الأوضاع من شناعة على الوزراء المستقيلين .

ولو كانت الحكومات الأوروبية أكثر دراية بالشئون والعادات المشتركة لما ارتكبت الكثير من الأخطاء التى يتعذر إصلاحها ، فطالما لم تكن هناك أية نية لفرض النظام الجديد على الخديو . كان ينبغى عدم التورط لا من قريب ولا من بعيد فى إقامة هذا النظام غير الشرعى الذى لا أصول ولا أركان له ، والذى سرعان ما تلت بدايته الحزينة نهايته الحزينة .

ارتضت كل من إنجلترا وفرنسا تلك التركيبة الوزارية سريعة الزوال مما شجع المنتفعين وأتاح للخديو - بدافع من رغبته فى الانتقام وبإيعاز من بعض القوى المعادية والمتصلبة - الفرصة لكى يوجه لهاتين القوتين فى السابع من أبريل الماضى إهانة أسماها المصريون باللطمة .

وقبل تسجيل الحقيقة بشأن الأسباب التى أدت إلى تلك الواقعة ودفعت بوزارة نوبار - ولسن إلى ذلك الوضع المؤسف ، فلنعد قليلا إلى الوراء ؛ أى إلى بداية النظام كى تبدو أخطاؤه وعدم حكمته أكثر وضوحا أمامنا .

ركع الخديو لأسباب باتت واضحة اليوم أمام الترياق الغربى ، أو تظاهر بذلك على أقل تقدير ، مطلقا اليد للغرب .

ولكن عند هذه اللحظة أيضا كان لابد للتقلبات البشرية من أن تتوقف وأن ترتد فجأة ، فقد قام راتب باشا وزير الحرب السابق وأحد القادة الذين هزموا بالحبشة بعد الاتفاق مع الأمير حسن - وهو بطل من الفئة نفسها - بوضع رجاله على أهبة الاستعداد للقتال ، وكان الخديو قد تأهب بالفعل لذلك . وأعد بعض الدبلوماسيين الأصدقاء أنفسهم لدى سماعهم للنبأ لإبداء الدهشة وعرض وساطتهم . واندلع التمرد ، واتجه نائب الملك الذى يخشى ظله بشجاعة إلى الوزارة حيث خطب فى المتمردين مخاطرا بحياته . وبقية الأحداث نعرفها . الاستقالة التى أرغم عليها الوزراء ، وتبدل مفاجئ فى الوقت ، عودة تلقائية شبه قانونية إلى النظام القديم بكل ما ينطوى عليه من همجية واستبداد ، فأين مجال الدهشة إذًا؟

إن أى رجل دولة منصف ليقر اليوم بأن التساهل وعدم التبصر والغيرة على السلطة هى العوامل التى جعلت من نائب ملك مصر الطاغية الجشع الذى يقف أمامهم ، وبأن هذا الأمير لا يستمد قوته النسبية إلا من النقود التى مكنته العوامل سالفة الذكر من الحصول عليها ، ويقر إذًا أن إرغام المدين على السلوك الشريف والتمسك بتعهداته، إنما هو الوسيلة الوحيدة لإعادة التوازن داخل البلد الذى يعنى بأمره جميع الأوروبيين بالدرجة نفسها .

ولا يعنى ذلك على الإطلاق أن تشن الحرب من أجل الدائنين ، وإنما يتعلق الأمر بقضية سياسية ينبغى معالجتها داخل الإطار الذى حددته الاتفاقيات وبما تقتضيه حقوق الناس .

لقد ذكرت لكم أن الخديو يحاول الحصول على المبالغ اللازمة للإفراج عن المبانى المرهونة لدى عائلة دى روتشيلد التى فرض أصحاب الدين الجارى الحراسة عليها ، ويتولى جمع توقيعات أصحاب المقام على قائمة للاكتتاب ضخمة المبالغ ، ولكنه لم يسدد مليما واحدا بعد . والذين سيقومون بالدفع إنما هم الفلاحون : "إن أكياس الدقيق هذه - كما يسميهم نائب الملك - مليئة كانت أم فارغة لابد أن يخرج منها شيء ما عند ضربها " ، لمحة قاسية دأب هذا الرجل على تكرارها . ووقعت على كل فدان من الأراضى ضريبة وقتية مقدارها فرنكان ونصف فرنك سيضاعف منها ابتزاز المحصلين .

وسيذهب ثلاثة أرباعها إلى الخزائن الخاصة . ولن تنتهى تلك الأمور ما دامت الموازنة المصرية قد عادت إلى سيرتها القديمة ومادام عهد الملذات قد بدأ من جديد ، فسوف تبتلع النفقاتُ المتوقعة وغير المتوقعة الإيراداتِ العادية وغير العادية للبلاد وتفوقها .

وعائلة روتشيلد غير راضية . ويقال إنها تزمع إيفاد اثنين من رجال القانون إلى مصر ، ولكنهما لن يتمكنا بالتأكيد من حل العقدة الخديوية ؛ فمشكلة الدين الأميرى مشكلة معقدة . فإذا مات الأمير ومات نظامه معه فهناك احتمال كبير بأن يطالب مالكو المبانى المرهونة القدامى بأموالهم التى ترجع حجتها إلى تاريخ حديث . وتبدو لنا الفوضى من بعيد آخذة فى النمو .

إن التعليم العام الذى كان فيما مضى موضع اهتمام نائب الملك ونوبار سعيا إلى تمويه أوروبا فى تدهور تام . وكان ذلك متوقعا ، وسقط القناع واستقال "دور" السويسرى صديق الوزير الأرمينى الحميم وصنيعته الذى عهد إليه الوزير منذ عام ١٨٧٣ بإدارة المدارس . وذهب "دور" إلى لوزان لينتظر نوبار باشا وعائلته كى يستقروا مؤقتا فى سويسرا .

استقبلت الجاليات جميعها نبأ إحلال "تريكو" محل القنصل العام لفرنسا بفرح ، وهى مجاملة طيبة خصت بها حكومة فرنسا . إن رجلا حازما ومتمرسا فى دهاء وتسويف الخديو لأفضل كثيرا من لابسى الدروع ، وإن كان لهؤلاء قيمتهم فى أوقات معينة .

ويرى الرجال الجادون الأكثر اطلاعا على الموقف أن التحرك سوف يأتى من القسطنطينية حيث الاستعداد لذلك على الرغم من أكياس الذهب التى تنتزع من "الكلفية" المصريين . أما فى مصر فينتظر وقوع حدث كبير خلال شهرين ، وهذا ما يراه أيضا الوزراء المستقيلون الذين رحلوا عن مصر .

رسالة رقم (٢)

الإسكندرية فى ٣١ مايو ١٨٧٩

قامت الإدارة المالية مؤخرا بتقديم أرقام تفسيرية إلى الجمهور ، ولكنها لم تزوده بالنقود. ولن أخوض فى تلك التفاصيل المضللة كالوعود التى تصاحبها عادة . ويتمثل السؤال الملح اليوم فى معرفة ما إذا كانت المشاكل المصرية سوف تحل أم لا ؟ نظرا لأن طبيعة وأسلوب المعالجة قد ترك أمرهما فى الوقت الحاضر ، وسئم الناس كل شىء حتى التمنى .

وبعد استبعاد التزييف المطلق من الحقيقة النسبية التى تحتوى عليها البرقيات الخمس أو الست المهمة التى تأتى بها يوميا وكالتا رويتر وهافاس من مصادر غامضة تماما ، فإنه يمكن أن نتبين أن هناك إلى حد ما خطط عمل جماعية مع وجود قدر من المراوغة من جانب القوى المرتبطة بتلك الخطط .

من المؤكد أن الحكومات تعنى بمسألة غاية فى التعقيد ، إلا أنه من المؤكد أيضا أن شيئا إيجابيا لم يتقرر بعد ؛ بسبب غياب الاتفاق ، وذلك على الرغم من الضمانات التى قدمتها شركة الكهرباء .

وقد علمتُ من مصدر مباشر أنه فيما يتعلق بالمسألة المصرية فإن السلطان يقوم منذ وقت بالاستماع ، بطيب خاطر ولكن بدون استسلام للإقناع ، إلى الغازى عثمان باشا ، ونتيجة لذلك انتصر الخديو ذو الحجج القوية التى تصعب مقاومتها والذى اعتنق الفكرة الروسية منذ أسره انطلاقا من كراهيته لخير الدين . وتلك هى الحقيقة . واليوم فى القاهرة ، حيث السطحية والنفاق ، ارتفعت مرة أخرى الرءوس التى كانت منكسة بالأمس . وكان نائب الملك يقول لأحد أتباعه الذى يقوم بدور المؤتمن على الأسرار فى الكوميديا القديمة :

أتعرف يا عزيزى أ . المثل القائل : الوقت مناسب دائما للدفع والموت . عندما تتفق كل من روسيا وإنجلترا ، وحينما تتخلص فرنسا وألمانيا والنمسا من إيطاليا التى لا تساوى شيئا بدون الآخرين ، سوف أقوم بالدفع . وعندما تفكر القوى كافة ،

من وجهة نظر مصر ، كقوة واحدة ، سأموت . ففيم إذًا العجلة ؟ فلن تجرؤ أية حكومة على أخذ المبادرة الأولى .

وهكذا يفكر نائب الملك الذى تناقلت الألسن فى القاهرة أفكاره السياسية والفلسفية. هل سينجح ؟ إن من واجبى أن أقول لكم نعم، وهو ما يخشاه الجميع هنا . إن السلطان - كما ذكرت لكم - لن يسلم ، فهو يرغب فى استعادة نفوذه المفقود على مصر التى تمثل أجمل ماسة فى تاجه ، والتى يمكن أن تصبح عاصمتها فى وقت ما عاصمة له .

وهذا أمر خطير ، إذ يهدف السلطان إلى التخلص من عائلة محمد على ، إلا أنه لما كان نائب الملك الذى يتغنى بالفقر عند مطالبته بسداد ديونه ومع ذلك يجد الكثير من الذهب لكسب الوسط الإمبريالى الجشع الذى يحيط به ، فإنه يمكن الاستنتاج أن الوالى العاصى سينجح فى مد أجل الموقف الآخذ فى الانهيار ، إن النقود والوقت المكتسب هما عصب الحرب .

ينتظر وصول طلعت باشا فى أى وقت إلى القسطنطينية بينما قام خير الدين باشا بإرسال عدة برقيات مرموزة ومطولة إلى الخديو . وفى خضم الحركة الكامنة - التى يجرى إعدادها بلا أدنى شك - يسود التردد والتمزق . فاستدعاء - أو دعوة - فيفيان الجديدة إلى لندن وقرب وصول تريكوو إلى مصر لهما دليلان على حركة مرئية لن تتأخر حكومة برلين عن الانضمام إليها ، لو لم تبد حكومة لندن تشددا .

أصدر بسمارك تعليمات إلى ممثله فى القاهرة بالمطالبة بتسوية المطالب المالية للرعايا الألمان الذين يضمون شرقيين أثرياء متمتعين بالحماية وليسوا بالرعايا من حاملى الأوراق المالية التى لم تسدد التزاماتها ، وسيكون من المؤسف أن ينفذ الإجراء الذى أمر به الأمير المستشار وحده والذى لن يكون من شأنه الاتفاق الأوروبى أو بالأحرى الأغلبية الدولية وحدها تحقيق الحل العادل والمنتظر .

وإحقاقا للحق فإن الفلاحين الذين بدأوا يفهمون الآن فقط مسرحية نوبار - ولسن يأسفون لرحيل هذا الأخير الذى نجح ، من الناحية النظرية - وهو أمر ليس باليسير - فى إرساء أسس نظام أكثر إنسانية وقربا من القواعد . ومنذ العودة إلى النهج القديم

يجوب الأقاليم ملتزمان من أشد الملتزمين عنفا وإخلاصا لنائب الملك لجباية النقود . ويكل القلم من ترديد القصة ذاتها مرة أخرى ، ففى المديريات كان المزارعون المساكين الذين يسلبهم السيد كل شىء يضربون كل يوم على ظهورهم وبطون أقدامهم من أجل النقود . وآذاننا نحن الأوروبيين لا تستطيع أن تعتاد توجعات دافعى النقود ، ولكننا نعود أنفسنا . وأنا إنما أروى ذلك عن خبرة ، وقد أكد لى أمس الأول أحد المسيحيين من الأهالى - ويشغل منصبا كبيرا فى الإدارة الداخلية وكان يعمل بها فى إدارة ولسن، استنادا إلى نفوذه القوى - حادثة لم أكن لأشك فى صحتها ، غير أن تفاصيلها المثيرة لم ترد لى فى المرة الأولى .

كان الوزير الإنجليزى قد سمع بأن أملاك العائلة الخديوية لا تسدد الضرائب ، وأن كبار الملاك من أصحاب المقام سيحذون حذو سادتهم . غير أن تلك الإجراءات الأكثر من إقطاعية لم تكن لتظهرها السجلات . وراح الوزير يستعلم . ولما كان كل موظف فى هذا البلد يخشى على نفسه فإن الحقيقة لم تتضح إلا ببطء شديد . وإليكم ما علمه ولسن وما كان أمرا معروفا جيدا لدى عدد كبير من أفراد الجالية الأوروبية ذات الصلة بالأعمال الزراعية : كان الباشوات من أنساب عائلة الخديو أو كبار الأعيان .. كما يسمون فى اللغة الرسمية ذوو النفوذ والمناصب الرفيعة يأمرون المحصلين بإضافة أملاكهم الخاصة إلى تلك المساحة العامة من الأراضى الخاضعة للضرائب على الأوراق المنفصلة من السجل الذى يستخدمه هؤلاء المحصلون فى عملياتهم المالية وذلك على النحو الذى يجعل الفلاحين ، مزارعين أو ملاكًا ، هم الذين يدفعون الضريبة العقارية بالكامل .

قام ولسن بمقتضى السلطات المخولة إلى أعضاء لجنة التحقيق باستدعاء عمر لطفى باشا أكثر وكلاء نائب الملك مهارة وهو نفسه مالك لمزارع كثيرة .

غير أن الوزير قد أساء الاختيار ، فعمر باشا معروف بتعصبه وبجفائه للعنصر الأوروبى . وبعد تبادل التحيات التقليدية جاء دور الأسئلة ، ولم يتمالك الباشا نفسه أمام أسئلة الموظف الإنجليزى الكافر ، وهما مأخذان عظيمان .

ورد عمر باشا باستنكار قائلا : "ماذا يعنيك إن كنت أقوم بالدفع أو لا أقوم به" ؟ وأضاف : "نعم إننى لا أسدد الضرائب ولن أسددها أبدا بالرغم منك ومن كافة لجانك ؛ إذ إنك لن تفهم أبدا فى جهاز إدارتنا وسوف تظل سلطتك غير معترف بها دائما " . وكان عمر لطفى يكرر بالطبع درس سيده .

وأسقط فى يد ولسن الذى أجاب بعنف وباللغة الإنجليزية بداهة ، إنه لم ير قط رجلا بمثل هذه الوقاحة الفظة ، غير أن عمر لطفى كان قد اختفى قبل أن تترجم تلك الملاحظة عديمة الجدوى .

وتوضح تلك السطور القليلة مفتاح اللغز الذى توصلت أوروبا إليه . فالمجتمع المصرى الفلاحى مستعبد وسيده هو الخديو الذى انتقل جانب من سلطته التنفيذية إلى أيدى أصحاب المقام الأتراك أو المنحدرين عن العثمانيين الآسيويين الجشعين المتعصبين. ويستحوذ هؤلاء على الإدارة بأكملها بدءا من أكبر الموظفين إلى أصغرهم . والأقباط - الفلاحون المسيحيون - هم محاسبو هذه المزرعة الضخمة المقامة على النيل، وتحتوى سجلاتهم المعدة بمهارة على كتابات غامضة لا يستطيع الخديو نفسه حل رموزها . فأية لجنة أوروبية إذًا ، بافتراض أنها تتكون من عناصر شديدة التنوع والنزاهة ، لن تستطيع بأية حال من الأحوال أن تتغلب على المقاومة السلبية من جانب الإدارة بدون الاستناد إلى ميثاق دبلوماسى دولى . إن الاعتقاد فى ذلك ضرب من الخيال الذى يثير الأسف .

وقرر روتشيلد - بعد أن سئم الإدارة المصرية - إيفاد محامين إلى القاهرة لمحاولة تبين حقيقة الارتباك المالى الذى لن يكون الخروج منه أمرا يسيرا . وفى تلك الأثناء عين الخديو بدلا من المستقيلين رجالا شديدى الإخلاص يتمتعون بالمرونة ، فقام بتعيين خليفة لجوليوس بلوم الذى ترك منصبه بتهمة الولاء الزائد للنظام الذى سقط ، وهو سبب غريب، حيث كان هذا الموظف معروفًا بإخلاصه المطلق لرغبات السيد . وأعتقد أن الأمر لا يعدو أن يكون تمويها للناس ، وأن جوليوس بلوم قد ادخر شيئا للمستقبل . أما سادة الموقف الحقيقيون - فيما يتعلق بالوظائف التى يجب شغلها لسد الفراغ فى

وزارة المالية – فهم رجال البنوك فى القاهرة الذين هم فى حاجة إلى رجال يصنعونهم كى يتمكنوا من العمل بثقة ، والتفرغ مع المحيطين بنائب الملك لأكثر عمليات السمسرة جرأة ، واجتاح تجارة مصر الحقيقية نشاط شبيه بنشاط شارع " كانكامبوا" وهو نشاط يتعاظم بمرور الأيام .

ارتفع النيل أكثر مما تحتمله هذه الفترة من السنة ، واستبق فيضانه موسمه . ورغم أنه ليس هناك من تنبؤ مؤكد يمكن استخلاصه من هذا الوضع إلا أن هناك تخوفا كبيرا أجد مبرره فى احتمال عدم قدرة السدود المقامة على النيل – التى بللتها بالفعل مياه الفيضان السابق الغزيرة – على تحمل هجوم جديد للنهر الذى تكاد فيضاناته المتقطعة والفجائية تفوق أية مقاومة .

جاءت المحاصيل رائعة ، ونبت القطن على نحو مدهش بالرغم مما ادعاه المضاربون اليونانيون من وجود يرقات ، وهو ما قام بتكراره الأمريكيون ، أكثر التجاريين إثارة للمخاوف التى لا مبرر لها فى العصر الحديث .

ملحوظة : أعلن أن "السادة" روتشيلد رفضوا سداد قسيمة الدفع والتزامات أخرى لصاحب القرض الحكومى ، فإذا صح ذلك – كما أكد ولسن أن تكون فرنسا وإنجلترا قد قامتا بضمان هذا الترتيب الخطر – فسرعان ما ستبرز صعوبات بالغة . وأعلم أن هناك هجوما يتم إعداده ضد الاتفاق المالى الذى عقده "السادة" روتشيلد مع الحكومة المصرية ، وأن هذا الترتيب لا أساس قانونى له وفقا لما يرى الفقهاء المعتدون ومن ثم سيتعين مراجعته .

ما أكثر الحماقات التى ارتكبت أو التى سُمح بارتكابها فى مصر . إنه أمر يكاد لا يصدق.

رسالة رقم (٣)

الإسكندرية فى ١٥ يونيو ١٨٧٩

منذ رسالتى الأخيرة قمت بجولة فى الداخل ومررت بأفضل أقاليم الوجه البحرى ، فى كل مكان وهبت هذه الأرض الغنية بالطمى – والتى لا يمكنها أن تفصح عما ارتوت به من عرق مضن – محصولا وفيرا من كل الحبوب ووعدت بمحصول لا يقل جودة عن القطن .

وفى كل مكان أيضا – وهنا يكمن الوجه السيئ للأمور – لاحت على وجه الفلاح قسمات أنهكها الاستياء والبؤس . غير أن المصرى ليس نَكِد المزاج ؛ إذ تحمله الفلسفة التى يلقنها إياه القرآن على أخذ مسائل هذا العالم بحمية هادئة يمكن لنا نحن الغربيين أن نحسده عليها فى مثل تلك المواقف .

إن أسرة من الفلاحين بإمكانها الاعتماد على خبز يومى يابس أسود وبعض فتات الجبن الحامض رمادى اللون إلى جانب بصلة كبيرة مملحة – ليست بالأسرة الفقيرة . مثل هذه الأسرة التى لا تملك أثاثا حيث يقوم الحصير مقام السرير وتتكون أدوات المطبخ من أوان مشقوقة ومتناثرة حول كوخ من الطين يتكدس فيه الأب والأم والأبناء بلا نظام مع حلول الليل تحت حراسة كلب مفترس ينبح بلا هدف . فما الذى يمكن للصوص سرقته يا ترى ؟ فالنقود لا يترك منها الخديو شيئا . أما فيما يتعلق بالملابس فإن الزى الواحد لا يتبدل من العيد إلى العيد الذى يليه .

وبالرغم من عناصر الحياة اليومية هذه التى يمكن للفلاح الأوروبى – الذى لابد من أن يفكر فى كأس جعة وزجاجة النبيذ وأخشاب التدفئة وملابس الشتاء ... إلخ – أن يعدها بمثابة علامات مؤكدة على الفقر المدقع ، يجد مثيله على ضفاف النيل ما يضحكه كما يجد الوقت للعن قضاته والسخرية من مضطهديه . فالعادة إنما هى طبيعة ثانية .

- لم تعد الأمور اليوم كما كانت عليه بالأمس . إذ غادرت البشاشة الهادئة الوجوه ، وسقط طفل السهول النيلية الغامض تحت وطأة نظام لم يترك له سوى عينين للبكاء .

إلا إن الدموع لا تعرفها هذه البقرة الحلوب الصابرة التى تقاسى منذ ألفى عام بدون شكوى فتلوذ بقناعة مثيرة للإعجاب ، ضحية وضرورية فى آن واحد ، ينتزع الكرباج صرخاته عندما يلقى المسكين نظرة إلى أقدامه الدامية . لقد كان أجداده يعاملون فيما مضى بالطريقة نفسها من جانب فلاحى العشور والكتبة . وأراد القدر والخديو تخليد هذا النظام الكريه ، ويحدث ذلك فى بلد يكاد يكون مجاورا للمستعمرات الفرنسية فى أفريقيا ويبعد مسافة بضعة أيام من أوروبا حيث تحتفظ الدول المتمدينة مقابل مبالغ ضخمة بعملاء دبلوماسيين يرون - ويمكن تصديق ذلك - أن كلمتى التقدم والإنسانية ليستا بالكلمتين العبثيتين .

إن وضع الفلاح المصرى غير محتمل ، فعما قريب لن يستطيع هذا الفلاح أن يقترب من محاصيله . وإننى لجاد فى ذكر الله . فمن ناحية هناك المديرون ومحصلو الأموال الذين يطالبونه مسبقا بالرسوم والضرائب ، ومن ناحية أخرى هناك المرابون اليونانيون والسوريون، مسيحيون ويهود ، الذين يقرضونه المال الذى يحتاجه بشدة لإرضاء خزانة الدولة وزراعة حقوله .

وسوف نرى كم هى مربحة تلك العملية المالية والتجارية التى يسببها هذا الاستغلال الشنيع ، والتى تقصر الكلمات عن تسميتها .

يدفع المقترض - الذى يقوم بتقديم ضمان رهنى بمعدل تسعة أشهر من عشرة - فائدة تتراوح بين ٢,٥ و ١٠٪ شهريا ! أما فترة السداد فهى ثابتة نوعا ما ، وعادة ما يتفق أجل السداد مع موعد جنى المحاصيل . وفى بعض الأحيان يطالب المرابى الذى عادة ما يكون تاجرا جسورا ، بالإضافة إلى الفائدة بأن يسلم إليه المحصول بثمن أقل من الثمن السائد فى التاريخ المتفق عليه .

وليس أمام المزارع حق الاختيار ، فحين يطلب نائب الملك لا يكون هناك مجال للتأجيل ؛ إذ تنهال ضربات الكرباج وتفتح سجون المديرين وتبكى النساء والأطفال . وتلك هى النتيجة النهائية للعمليات المالية الجليلة التى تغنى بها يوما ما عاليا وبالإجماع المشاهير من النقابيين فى أوروبا المقرضة .

وهذا ما ينبغى ذكره والاعتراف به ! فالشر يُرتكب والجروح بشعة وغائرة ! وممولونا مرهفو الحس الخيرون لا يرون هذا الأمر، فذلك من شأنه أن يصدم أحاسيسهم وأعصابهم .

ومن الأفضل المطالبة بطريقة دبلوماسية بحصص وقسائم دفع ، وعلى كل فالفلاحون قد ولدوا كى يملأوا خزائن فرعون .

وقد يحدث ، وقريبا لن يصبح هذا الأمر بمثابة استثناء ، ألا ينفذ الفلاح تعهداته ؛ إما لنقص النقود أو لنقص المنتجات . فالأعوام ليست دائما خصبة ، وعندئذ تتضخم الأرقام بجداول المقرض فتصبح المائة من الجنيهات الإسترلينية مائتين وثلاثمائة وأربعمائة وخمسمائة ، بل وألف جنيه .

ويترتب على ذلك استدعاء قانون . وتتم الإجراءات القضائية ، والخديو غائب عن الساحة، وبسرعة شديدة يجد المزارع المسكين نفسه وعائلته وقد ألقى بهم على الطريق. ونائب الملك لا يشغله الأمر فلديه مشاغله الخاصة وهى القبض والمطالبة والقبض دائما !

فإذا ما استمرت تلك الأوضاع ولم يحدث علاج سريع لذلك خلال السنوات الخمس القادمة فإن نصف عدد المزارعين أو ما يزيد على ذلك - وفقا لما أرى يوميا وما يحدث أمام أعين الجميع - سيجدون محاصيلهم وقد أجرى الحجز عليها قبل جمعها .

وأسوأ ما فى الأمر أن غالبية هؤلاء المرابين هم من أفراد الرعية السابقين (مواطنو الدولة العثمانية من غير المسلمين) المتمتعين بالحماية الأوروبية ، وأن أصحاب هذه المهنة قد أثروا بشكل هائل . وقد أصبح العديد منهم من الرعايا الألمان الذين سيستفيدون بالطبع من احتجاجات مستشار الأمير الثاقبة . ويا لها من مصادفة !

لقد كان أحد الفلاحين البؤساء يقوم بالأمس - فى مديرية ما - بدفع مبلغ ٥٢١٠٠ جنيه إسترلينى سدادا لقرض تبلغ قيمته الأصلية ٥٠٠ جنيه .

كان قد وقع على ورقة بمبلغ اثنى عشر جنيها للحصول عليه . ولم يتطلب الأمر سوى ثمانية عشر شهرا بالإضافة إلى أحكام القانون كى تتضاعف القطع الخمس

الذهبية الأولى على هذا النحو القدرى . وقد حصلت على الأوراق وجداول الحساب التى احتفظت بنسخة منها .

إن الأرض هى كل شىء بالنسبة للفلاح ، وجاموسه وقطعة أرضه وعائلته يعدون فى نظره أقصى ما يمكن أن تبلغه السعادة الإنسانية . فما الذى سيتبقى لديه ؟ إن الأحداث سرعان ما ستأتى بإجابة لهذا السؤال .

تجوب القرى الآن عصابات من الفقراء الذين وقع المديرون عليهم عقوبات قاسية . ويثير هؤلاء أكثر ما يثيرون قلق تجار النقود . أما فى القاهرة فقد اضطر نائب الملك إلى تغيير مواقع فيلقين من الجيش بسبب إهانة أفرادهما لبعض الأوروبيين .

يهيمن الجيش الآن ، ولا أستطيع أن أؤكد لكم - كما تم التأكيد لى مؤخرا - على أن قوامه قد عاد إلى ستين ألف رجل ، ودعونى أكون محقا فى التقدير وأفترض أن العدد هو أربعون ألفًا ، فإن المصروفات الإجمالية - بواقع أربعة فرنكات يوميا تمثل حدا أدنى لنفقات كافة العناصر (فيما عدا الأسلحة والمدافع ومعدات الحرب) تبلغ ١٦٠,٠٠٠ فرنك يوميا أو ما يعادل ٦,٤٠٠ جنيه إسترلينى يوميا أى ٢,٣٠٠,٠٠٠ جنيه إسترلينى سنويا .

وهو بمعايير الاقتصاد ما يزيد على ثلثى موازنة النفقات الوطنية التى أعدها الخديو مؤخرا . فما هو الهدف من وراء ذلك ؟ لا أحد يعرف . وانظروا من زاوية إلى ما أدى إليه الابتزاز الربوى الذى سيعد وصفه من نتائج مشئومة ، فهؤلاء السادة المقرضون الذين قاموا بتوظيف نقودهم التعسة بفائدة تبلغ خمسين فى المائة - إن لم تكن ٨٠ فى المائة - يحصِّلون مبالغهم فى صورة منتجات تثمَّن دائما بأقل من قيمتها فى السوق ، ويستطيعون بيع أقطانهم فى الأسواق الأوروبية بأسعار تقل عن تلك التى يحق أن يطالب بها المشترون النزهاء الذين لا يمارسون تلك الصناعة المذمومة ، ومن هنا تصبح الخسارة مؤكدة بالنسبة للبائع ذى الضمير الحى .

فهل يعنى ذلك أن هناك نقصا فى البنوك ورجال البنوك فى مصر ؟.. بالطبع لا .. فالعكس للأسف هو السائد، ويقوم الآن البلد الذى جعله حاكمه بمنتهى السهولة مدينا، بدفع ثمن ذلك . غير أن البنوك أمامها فرص لتحقيق مكاسب طائلة عن طريق المضاربة

مع الحكومة ، كما أن الوكلاء من المنزهين والمرغوب فيهم الذين يمكن إرسالهم إلى الداخل هم من الندرة فى مصر ، حتى إن المنشآت الكبرى التى لن تكون بلا شك فى نهاية الأمر أكثر نزاهة، تقوم بترك الفلاح للمرابين القائمين بالعمليات الأكثر دقة والأقل أهمية .

علمنا من مجلة المحاكم أن تريكوو (ابن شقيق الجنرال تروشو) لم يتمكن من زيارة الخديو رسميا بسبب ضياع زيه فيما يبدو فى مكان ما أثناء السفر . وأنه من المؤسف أن يكون مثل ذلك السبب التافه فى الشكل والمزعج فى المضمون قد منع أحد ممثلى الجمهورية الفرنسية من حضور المقابلة الرسمية التى جرى العرف عليها فى الموعد المحدد لها . وقال الخديو الذى لا تفوته فائتة لصديقه الحميم فلان . . : "فى أوروبا ، يؤخذ الناس بالمظاهر ، وفى الشرق ينبغى ألا يكون الأمر على هذا النحو ؛ ذلك أن معظم نواب جاليات القاهرة والإسكندرية المرموقين قد حضروا إلى هذه الأماكن بلا قمصان . إن إسماعيل باشا يهوى كثيرا تقليد الوزير الكبير فؤاد باشا فيقوم بصنع الكلمات" .

تعالج مشكلة الدين السائر بجدية ، ويقال صباح كل يوم إن هذا الدين يسدد بالكامل فى وقت لاحق من النهار ، إن شاء الله ! وكم نحن فى حاجة إلى الرؤية الواضحة .

علمت الآن أن نسبة من الدين المذكور ، وعلى الأخص الأرباح ، سيتم سدادها خلال أيام قليلة .

مازال فيفيان متأهبا للرحيل ، ويقال إن تعيين خليفته آدمز أمر مختلق أو هو مؤجل ... وما فائدة كل هذه التغييرات فى الأشخاص التى لا تغير شيئًا من واقع الأمر الذى لا يطرأ عليه بدوره أى تحسن . تقوم الحكومات بإصدار توجيهات عن طريق البرق والرسائل المكتوبة. فهل توجد صعوبة فى اتباعها ؟ وسواء أكان الأمر يتعلق بجان أم بول فإن الرد المقدم لا يتغير ... وكم هى ضرورية تلك العادات !

وهناك نقطة لن يتم أبدا لفت نظر أوروبا إليها بالقدر الكافى ، فيما يتعلق بالمسألة المصرية ، ألا وهى الجانب البشرى والإنسانى للمشكلة . فبدون الراحة وبغير العدالة

فى توزيع الرسوم والضرائب لن يدفع البلد ديونه المتعاقد عليها ولا الفوائد المنصوص عليها ، وتلك استحالة تامة . فكل ما هو ظلم ووحشية فى باريس أو لندن ، هو كذلك على ضفاف النيل .

وعلى كل فليست الفائدة البالغة ٦,٥ أو ٧ فى المائة هى فقط التى ينبغى التطلع إليها ، وإنما أيضا ضمان سدادها بانتظام . فمصر - حتى لو كانت محكومة برفق وأبوة - لا تستطيع خدمة فائدة تبلغ ٧ فى المائة ، فإذا أمكن ضمان معدل الـ ٥ فى المائة بموجب ميثاق دولى حكيم ، فإن المستويات التى ستبلغها أسعار السندات بعد فترة قصيرة من شأنها تعويض الفارق بوفرة ، وهذه حقيقة أولية .

رسالة رقم (٤)

الإسكندرية فى ١٦ يونيو ١٨٧٩ (عبر نابولى)

ما كادت الباخرة الإنجليزية ترحل حتى شعرت بالحاجة إلى إضافة بعض فقرات مثيرة للاهتمام إلى رسالتى التى أرسلتها عبر بريينديزى .

عزم الخديو - كما ذكرت - تحت ضغط المطالب الدبلوماسية وإلحاح الظرف الراهن - وهو الذى لا يحب الدفع ، وهى مسألة مبدأ - على الوعد بسداد الديون الجارية ، فأصدر أحكاما وقام بتصفية حسابات الموردين ، وهذا ما يهم العنصر الأوروبى ، وهو العنصر الوحيد الذى يتمتع بامتياز التظلم أمام محاكم الإصلاح ، أما الدائنون من الأهالى فبوسعهم الانتظار !

وألحق بهذا الوعد شرطًا مهما ، ففى مذكرة تعميم وجهت إلى السلك الدبلوماسى ، أعرب نائب الملك عن رغبته فى صدور حكم - بمتقضى اتفاق دولى - يقضى بإعلان الأبنية والأراضى ، التى آلت كرهن حيازى إلى السادة روتشيلد المتعاقدين على (القرض الأميرى) - أبنية وأراض غير قابلة للحجز - وبعودة هذه العقارات بعد استرداد سندات القرض وبمتقضى القانون والأمر الواقع ، إلى ملاكها الشرعيين الحاليين ، أى إلى أفراد الأسرة الخديوية الذين ارتضوا تحمل هذا التدبير المالى لصالح البلد ، على أن يتم ذلك بمجرد الوفاء بالمطالب الخاصة بما يسمى بالدين الجارى .

كـان الخـديو يقـصـد بذلك – وهو مـرغم شـأنه فى ذلك شـأن البـخيل الشـرير هارباجـون حين ضـيـقـوا عليـه الخنـاق – وببـسـاطة شـديدة أن يؤمن نفسـه بالطريق الرسمى والدبلوماسى ضد أية مطالبة أو مصادرة أيا كان نوعهما لأبنية وأراض قد تصبح ملكيتها الثابتة موضع جدل فى وقت من الأوقات . ولا يعدو الأمر أن يكون أكثر من ذلك ولا أقل وهو يصدر عن رب أسرة يرغب فى عدم ترك أية مسألة متنازع عليها إلى ورثته ، إلا أن الوسيلة غائبة .

ولنعد إلى ما انطوت عليه المذكرة الألمانية ، التى كانت تستهدف التخفيض الذى ألحقه نائب الملك بالقسيمة الأخيرة للدين الموحد . أعلن الخديو أنه غير مختص وحوَّل بسمارك إلى السلطان، وهو الأمر الذى يبدو شبيها بعض الشىء بتلك الطرق الرومانية التى كانت تتبع فى عصر بيلاط Pilate .

وفى نهاية الأمر وعند التمعن فى النظر إلى المسائل بخلاف ما يحدث عادة حينما يتـعلق الأمـر بالبـورصـة ، يتـبين لنا أن نائب الملك إنما يلتـزم بروح ونص الاتفـاقـات الرسمية التى أبرمت بين الباب العالى والدول الأوروبية الكبرى فى عام ١٨٤١ بعد جلاء القوات المصرية عن سورية .

فإذا كانت مصر قد شهدت العديد من الأمور الغريبة على الصعيد السياسى منذ وفاة محمد على ، فمما لا شك فيه أن المذكرات الرسمية الصادرة عن مؤتمر لندن وغيرها من المذكرات والمعاهدات المتبادلة والموقعة والمضمونة باقية حتى الآن بكامل شكلها ومضمونها. وطالما بقيت هذه الوسائل فلابد أن تحترم .

وجـاء فى المذكـرة التى صـيـغـت فى لندن فى الثـلاثين من ينـاير عـام ١٨٤١ والتى وقعها كل من استرحازى وبولو وبالمرستون وبرونو : "أن التعميم الذى صيغ فى لندن فى الخامس عشر من أكتوبر وأكدته المذكرة الصادرة فى الرابع عشر من نوفمبر يقضى رسميا بأنه فى حالة انتهاك محمد على أو أحد خلفائه للشروط التى أسند إليهم بموجبها الحكم الوراثى لمصر فإنه سوف يصبح عرضة للعزل" .

كما جاء فى مذكرة مؤتمر لندن التى أرسلت إلى شريف أفندى سفير تركيا ردا على فـرمـان التـولية الذى كـان هذا الموظـف الكبـيـر قد أبلغـه إياه : "وباختـصـار فـإنه [محمد على] يتمتع قانونا بالنسبة للباب العالى بصفة التابع الحاكم المفوض الوريث لإقليم هو جزء لا يتجزأ من الإمبراطورية العثمانية" .

وجاء أخيرا وبالتحديد فى فرمان (حاتى شريف) نفسه الذى أصدره السلطان لمحمد على فى ١٣ فبراير ١٨٤١ : "إن فرمان حاتى شريف هذا قد وجه إليكم كى تعملوا أنتم وذريتكم – وقد اعترفتم بالخطوة الإمبراطورية التى اختصتكم بها – على حماية سكان مصر ضد أى عنف وعلى توفير رفاهيتهم بدون الإثقال عليهم بالرسوم والضرائب ، إلخ" .

وحين اعتزم الخديو الالتزام بالأوامر الصادرة من القسطنطينية بشأن مذكرة بسمارك – الذى لن ينفى دور بروسيا فى صياغة الوثائق المذكورة – كان ذلك بعد إعادة قراءة نصوص هذه الوثائق الدبلوماسية ، أما فيما يتعلق بتأثير عثمان باشا على السلطان والذى جاء فى صالح الخديو ، فقد كان هذا التأثير من الضخامة وعدم الملاءمة حتى إن خير الدين باشا قد رأى ضرورة التذمر لدى الجلالة الإمبراطورية . وسوف نرى قريبا ما سيسفر عنه هذا الأمر .

فعثمان باشا يدين لوالى مصر – السخى عند الضرورة – بجميل قيامه بإرسال راتب شهرى يبلغ ١٨٠٠ فرنك إلى والدته من "بلونيا" .

قام تريكوو بزيارته الرسمية وسارت الأمور على ما يرام . فقد عثر على الزى فى الوقت المناسب . وأعلنت (مجلة المحاكم) النبأ ، ومنذ ذلك الحين لم تثر هذه المسألة مرة ثانية ، فهل كان الأمر مجرد حجة ؟ ! وعلى أية حال فإنه لم يكن موفقا ، وقد أسف له الكثيرون وخاصة بعد رد الخديو المهين .

سافر فيفيان قاصدا أوروبا بعد أن ترك مهام إدارة القنصلية العامة للاسيل . ويبدو أن الوكيل الدبلوماسى قد أرسل قبل سفره بمذكرة مريرة إلى الخديو تفيد بأن حكومة الجلالة البريطانية قد تركت والى مصر لشأنه وتحت كامل مسئوليته بعد رفضه الإصغاء إلى النصائح المفيدة التى وجهت إليه .

وقد بلغ نائب الملك من التأثر إزاء هذا الأمر ما جعله يقضى الليل ساهرا ، ويبدو لى ، وهذا هو رأى أصدقاء مصر المخلصين ، أنه مادام جلالته يطالب بتدخل الدول الكبرى للحفاظ على وضع المبانى المرهونة من ناحية ويشير من ناحية أخرى بالرجوع إلى الباب العالى من أجل تسوية فوائد الدين فإن الوقت يكون قد حان لإنهاء هذه

المسألة المالية بعقد مؤتمر دولى يسير فى اتجاه عادل ويأخذ فى الاعتبار تحقيق عائد حقيقى ومرضٍ لهذا البلد .

وتكمن قوة الخديو السياسية فى ثروته الوفيرة والهائلة من الذهب ، فهو شمشون الذى سيجد دليلته فى مؤتمر دولى مسلح بمصل قوى .

[على الرغم من أننا قد بلغنا برقيا بنزول الخديو عن العرش إلا أننا نرى ضرورة نشر خطاب مراسلنا الخاص فى مصر وهو خطاب يتضمن تفاصيل مثيرة للاهتمام حول ما سبق القرار الذى أفادتنا به البرقية من أحداث] .

رسالة رقم (٥)

الإسكندرية فى ٢٤ يونيو ١٨٧٩

كان بورك الذى رفض فى الأسبوع الماضى تقديم وثائق جديدة عن مصر إلى البرلمان يريد عدم تعريض المفاوضات للخطر بإفشاءٍ للأسرار قد ينتج عن هذا الأمر . ولا يقل الدبلوماسيون المكلفون هنا بإخضاع الخديو وإعادته إلى الشعور بواجبه غموضا فى مسلكهم . ولذا فإن الغموض المطلق يسود كل مكان فى هذا البلد الذى يجهل فيه المرء معنى الأسرار فى الأوقات العادية . ولا يعنى هذا أن الأخبار شحيحة بل هى تفيض . ولكن أين هى الحقيقة ؟ فالسائد فى الوقت الراهن ، المضاربة والميسر والبورصة . والجانبان موجودان : الارتفاع والهبوط .

ففى الجانب الأول أغلق الخديو حقائبه الفارغة ، إذ إن كل شىء قد أخذ منه ، أو أنه قد أعاد كل شىء ، ليرحل فقيرا كالعامل الأجير . أما فى الجانب الآخر فإن نائب الملك صامد ، يسخر دبلوماسيا من تريكوو ذى النبرة الأكثر صحة والأشد ارتفاعا ويلوذ بالفرمان الذى سلم إلى جده عام ١٨٤١ وبمواد ميثاق لندن ويجيب قائلا : "إننى لا أستطيع التنازل عن العرش ، ولكن يمكن عزلى ويملك السلطان ، سيدى ، هذا الحق ، فارجعوا إليه".

هناك اختلاف بين ألمانيا وفرنسا فيما يتعلق بالمذكرات المتبادلة ، فقد اكتفى بسمارك بالاحتجاج ضد رفض الأحكام الصادرة من محاكم الإصلاح وضد التباطؤ فى سداد الدين الجارى. وانضمت النمسا وإيطاليا إلى هذا البرنامج الذى لا يهدد بأية عقوبة قصوى ، وقالت روسيا شيئا شبيها بذلك إلى حد ما ، ولم تقل إنجلترا- على غير عادتها - شيئا يذكر فى عباراتها الطويلة مقتفية فى ذلك أثر فرنسا .

يبدو أن الموقف شديد التوتر قد دخل مرحلة حرجة ، إذ سافر أمس ، الأحد ، القناصل العموميون إلى القاهرة حيث اتفق المنشقون الذين أعوزتهم التعليمات النهائية الصادرة مؤخرا، حول النقطة الأساسية ، ألا وهى عزل الخديو ، ولا أقول تنازله عن العرش ، إذ إن القانون الإسلامى لا يعترف بمثل هذا الأسلوب ولا يقبله فيما يتعلق بترك منصب رفيع .

ويبدو أن فرنسا تتبعها إنجلترا ، قد قامتا منذ بداية الأزمة بدعوة نائب الملك إلى الانسحاب ونصحه بالقيام بذلك عن طيب خاطر ؛ حتى لا تضطر الدولتان الكبريان إلى طلب عزله من الباب العالى الذى من المحتمل أن يعين فى هذه الحالة حليم باشا لإعادة خط الوراثة الحقيقى إلى نصابه ، ويبدو أن نائب الملك صمم على الحصول على ضمان مكتوب يقضى بأن يخلفه ابنه توفيق بعد رحيله . ولم يكن من الممكن وعده بأى شيء من هذا القبيل .

وبعد تردد ومناقشات قام الخديو فى نهاية الأمر بتحويل الدبلوماسية إلى القسطنطينية فكان تصرفه هذا معقولا وقانونيا ، ولذا سافر طلعت باشا ومعه مبالغ ضخمة إلى البوسفور بهدف تحويل الأنظار سواء لصالح نائب الملك نفسه أو لصالح ابنه .

وذهبت الهيئة القنصلية التى أجهدها الانتظار فى هذه الأثناء إلى القاهرة لإخطار إسماعيل باشا رسميا بضرورة الانسحاب .

نحن الآن فى منتصف الليل . ومساء الإثنين ، لم تكن هناك أية إجابة . وقد تتضح لنا الأمور غدا .

أرى فى هذه التصرفات قدرا كبيرا من المستحيل واللامحتمل وعدم الشرعية ، إذ لم تتمكن الدول الكبرى التى تحدثت نيابة عن نفسها من التصرف سوى بطريقة

شبه رسمية . والسلطان ليس مجردا من حقوقه وإنما يمارسها في اتجاه أو آخر . وعزل الباشا وطرده بدون أن يدفع الدين الجارى أثناء ولايته - وسواء خلفه الأمير حليم أو توفيق باشا أو لم يخلفاه - فسوف يكون أمرا ، إذا ما تم ، غير منطقى وخطأ جسيما يؤدى بالبلاد إلى الغوص فى تعقيدات بالغة الخطورة .

إن الخديو هو أساس الموقف المالى فيما يتعلق بالدين الجارى ، فهو الذى يعلم أين تختبئ النقود، أما أراضيه وقصوره ومنقولاته فليست سوى وسائل قصيرة الأجل ، ينبغى تصفيتها . فإذا ما رحل نائب الملك ، وأصبح مثير الفتن والمختلس الأكبر بمنأى عن العقوبة ، فإنه من المحتمل أن يثير الملاك القدامى المغتصبين وأن يحدثوا تأخيرات بلا نهاية عند التصفية المباشرة للمنقولات التى لن يصبح من الممكن استخدامها فورا .

ولكن علينا ألا نسبق الأحداث ، فالموقف اليوم قد أصابه الشلل وهو موعد تصدير البريد . وأضيف أنه على أية حال فإن اللجنة الرسمية الدولية المسئولة التى ستعينها الدول الكبرى لمراقبة المالية المصرية تعد أمرا واقعا فى برنامج الشروط التى ستعرض على الحكومة الجديدة لمصر .

رسالة رقم (٦)

القاهرة فى أول يوليو ١٨٧٩

أردت من هنا الاقتراب من الحقيقة . فالتناقضات المبلبلة ومئات الأخبار التى يأتى بها رجال البورصة فى الإسكندرية ليس بالوسط الذى يستطيع فيه مراسل صحيفة جادة أن يجد - وخاصة فى هذه الأوقات الحرجة - ما ينبغى عليه تسجيله من معلومات دقيقة .

كان يوم ٢٥ يومًا هادئًا ، إلا أن نائب الملك لم يكن ليستجم ، وإنما كان ينتظر فى قلق بالغ . فبعد أن علم بعزله الذى تقرر بالفعل فى القسطنطينية وبأن خليفة له سيفد بالتالى ، قام - كما جاء فى رسالتى السابقة - بإرسال مبلغ ضخم من النقود

إلى السلطان ووزرائه ؛ ليأتى بابنه توفيق إلى حكم مصر ؛ ولكى يؤكد بطريقة علنية ورسمية إحدى مظالمه الصارخة التى يصدم بها الفطنة الشعبية ، والتى لا تأتى بأية فائدة لهؤلاء الذين ينصحون بها ويقررونها .

والقاهرة مدينة مصرية وشرقية من حيث مظهرها وسكانها . يسكنها عدد قليل نسبيا من الأوروبيين الذين يتعيشون جميعهم إلى حد ما من سفه (البلاط) وهو تعبير جد حديث وخديوى . ولهذا كانت الجاليات فى العاصمة تميل إلى تعيين توفيق لافتراض أنه على استعداد لترك نظام والده يستمر كما هو . وكان مرابو البنوك الكبرى يفكرون بالطريقة نفسها وبقدر من الدراية جعلهم يعتقدون أن مجىء الأمير حليم سوف يضع حدا لعمليات السمسرة الكريهة والمخربة التى - ويا لخجل أوروبا - ستجد المالية المصرية صعوبة كبرى فى النهوض من بعدها .

ولذا كان بالإمكان أن نقرأ على الوجوه المتقلبة لهاتين الفئتين من الناس علامات الخوف من خيبة أمل ناتجة عن أنانية معيبة . وعلى العكس من ذلك لم يُظهر الأهالى الهادئون دائما مخاوف أو انفعالات . فقد كان هؤلاء المسلمون المخلصون يعتقدون اعتقادا راسخا أن السلطان سوف يغتنم هذه الفرصة لمعالجة هذا الظلم الزمنى الذى سمح بوقوعه فى عهد عبد العزيز ، وبأنه سوف يعيد إلى حكومة الأقاليم النيلية الأمير الذى ما كانت قوانين الإسلام والوثائق الدبلوماسية لعامى ١٨٤٠ و١٨٤١ لتسمح أبدا لمؤامرات والى مصر المستبد بانتزاعه منهم .

وفى الداخل (مصر الوسطى والوجه البحرى) حيث كنت دائم الزيارة وحيث أحتفظ بعلاقات يرجع تاريخها إلى أربعين عاما مضت ، ما يزال يسود الشعور نفسه الذى كان ، ليس بسبب التعصب وإنما على نحو طبيعى وكأنه أمر بديهى . وقد ذكرنى زعيم شهير تركته يوم الأربعاء الماضى فى طريقى إلى القاهرة بما تنساه بسرعة العقولُ الساذجة والمستقيمة معا، ألا وهو تأثير المال على أسمى المشاعر، فقد قال لى : "إننا لا نستغل وإنه من شبه المؤكد إذا لم يبق الخديو فإن سبائك الذهب التى أرسلت إلى إسطنبول منذ بضعة أيام سيفوق وزنها - فى مثل هذا الظرف البالغ الخطورة -

وزن العدالة والقانون ، إن الأذى الذى نتحمله بهذا القدر من الصبر لا يرجع فقط إليكم أنتم النصارى (المسيحيون) وإنما أيضا إلى جشع وحاجة السلطان ووزرائه ، وإذا كنتم قد استطعتم عد المبالغ التى ابتلعها الخديو فى سعيه الذى لا رادع له نحو هدفه ، وهى المبالغ التى سلبها منا أو التى أقرضتموه إياها ، لكانت دهشتكم إزاء الاختفاء الغامض للملايين التى بحث عنها ولسن أقل بكثير" .

يبدو أن الجزء غير الفلاح أو المسيحى من السكان الذى ظهر أكثر قلقا بشأن الخليفة الذى سيعينه الباب العالى ، هو ذلك الجزء الذى سمى على نحو غير سليم بالشرقى وهو مكون فى غالبيته من السوريين الأصل أو بالنسب المباشر . ويبلغ هذا الجنس - المناهض للأتراك والمخادع الذى يتمتع فضلا عن الذكاء الفائق بكافة عيوب الشعوب المستغلة - من حب الكسب درجة غير معقولة ويفوق بكثير الجنس اليهودى الذى يرقى فى بعض الأحيان عما اشتهر به هؤلاء الشرقيون من سلوك - ولغتهم هى العربية ولذا يتمتعون فى معاملاتهم مع الفلاح بوضع أفضل من منافسيهم اليونانيين وغيرهم - أقول إن هؤلاء الشرقيين المنصرفين حاليا إلى نهب مصر عن طريق قروضهم التى تتراوح بين ٢٤ و ١٢٠ فى المائة سنويا ، هم أكثر الناس خوفا من تعيين الأمير حليم المعروف بتعاطفه العظيم مع المزارعين والعدو اللدود للاستغلال الذى يشكل السبب الثانى فى إفلاس الفلاحين المجدين .

وفى الصعيد (الوجه القبلى) حيث يرتعد الناس أمام ابتزاز أسوأ ملتزمى الخديو ويعانون حتى الآن من آثار مجاعة لم تشهد أوروبا مثلها أبدا ، تتجه الأمانى نحو طرد الخديو وعائلته بأكملها . ولا نذهب أبعد من ذلك ، فالبؤس يصيب الناس بالبلاهة ، والسكان المنهارون المفلسون بسبب الضرائب والجوع والحاجة الدائمة إلى النقود لم تعد لديهم القوة التى تمكنهم من التفكير ولا القدرة على تبنى رأى ما أو إبدائه .

هذا هو التفكير العام فى مصر . أما فى الإسكندرية الأكثر تقدما وحشدا للجنسيات المختلفة والأكثر فسقا وفسادا حيث المقامرة حتى النخاع ، فلا وجود للرأى الحاسم خارج العنصر المسلم . وكل ما من شأنه حماية اللعبة ومياه الربا العكرة

سيحظى بتعاطف النواب الأثرياء ، رعايا الأمس المتفرنجون الآن ، الذين ما كادوا يغتسلون فى الذهب الذى جاءت به عمليات الخصم العجيبة والمتململون فى مراكزهم الحديثة .

وبهذا يصبح الأمير حليم – وهو ابن لأب ما كان يسمح أبدا بالانحطاط الحالى – بمثابة خيال المآتة أمام تجار المال والمرابين ، ولكنه هو بالقطع المنتخب سرا من جانب السكان، وإن كان الباب العالى وكذلك الدبلوماسية قد يجدان فيما بعد ضرورة للرجوع عن هذا الترتيب فى اللحظة الأخيرة .

لقد رأيت من الضرورى أن أضع قراء العصر فى وضع يمكنهم من أن يتصوروا بأنفسهم ما يفكر فيه بضعة ملايين من الأفراد الذين يعيشون على ضفاف النيل فى اللحظة التى يوشك فيها السفيه الذى أساء حكمهم على السقوط .

وعند منتصف اليوم (الخميس) تردد فى كل مكان أن السلطان قام بعزل إسماعيل باشا لصالح ابنه توفيق . وما يثير الدهشة أن هذا النبأ الذى سرعان ما تأكد رسميا ، قد قوبل فى كل مكان بصمت شديد الكآبة رغم ما أدى جزؤه الأول من شفاء لغليل مصر كلها . وتشير التقارير التى جاءتنى إلى انتشار خيبة الأمل . فالفلاحون ليسوا بالبلاهة حتى لا يشعروا بالمظالم التى راحوا ضحيتها ، أو تلك التى توقعها الدبلوماسية بهم بدعوى إنقاذهم . وهم يدركون أن السياسة الإنجليزية ، التى تؤيد شابا بلا خبرة لمجرد أنه تربى فى مدرسة أبيه لحكم مصر على الطريقة الإنجليزية ، لن تأتى لهم بأى انفراج ، ويرون أن النفوذ الفرنسى سيضعف من جراء ذلك ، وأن ذهب الخديو قد انتصر فى القسطنطينية على الحق الذى لم يستطع شراء حقه .

والصحيح أن الأهالى لا يعتقدون فى مثل هذا الترتيب ويقولون بصوت مرتفع وبذكاء : "شالوا الكبير ، يروح الصغير بسرعة" .

وقد علقت بعد ظهر اليوم مجموعة من الإعلانات على أبواب مقاهى الأزبكية تفيد بأن "الخديو تنازل طواعية عن العرش لابنه الأكبر برضاء من الباب العالى وبضغط من الأجانب" ! وبعد فترة قصيرة أعلنت مدافع القلعة عن الحدث الكبير ، كما صدر الأمر للإسكندرية بعمل الشىء نفسه .

لم يحدث أكثر من ذلك . ولم ينطق أحـد بحـرف واحد حول ما سيتركه الخـديو أو يدفعه أو يأخذه أو ما يجب أن يفعل أو لا يفعل . أما قصوره وأراضيه فسوف تباع جميعها . فمن يا ترى سيكون أول المشترين ؟! . . سوف تأتى الجنيهات الإسترلينية التى تم استبدالها على الأكثر بفرنكات ، فذلك هو حجم الأرباح التى حققها الموردون ، وبعضـهم من دائنى الدين الجارى . وعلينا ألا نسبق الأحداث ، فإن وقت التسـوية وشيك .

وقد سعى إسماعيل ، وحتى اللحظة الأخيرة من المفاوضات المطولة التى انتهت بعزله، فى طلب الحصول على ضمان بتوريث ابنه ، وهو الضمان الذى سعى لايار وفورينيه للحصول عليه فى القسطنطينية . ولم يكن نائب الملك ليعتقد أن إجراءات قصوى ستتخذ ، وبعث بالقناصل إلى الباب العالى ، بل ذهب إلى حد الاتصال البرقى المباشر بالحكومات الرئيسية فى أوروبا . ولم يتوقف إلا بعد وصول برقيات القسطنطينية . وسقطت الغشاوة وزال تشكك لا يشرف فى شيء استقامة الهيئة القنصلية الدبلوماسية التى كان من شأن هذيانها العجيب حماية نائب الملك من أن ينال جزاء أعمال القرصنة التى أداها لفترة طويلة بمهارة .

وتأثر الخديو أكثر ما تأثر بعد عزله لقيام الباب العالى بإلغاء "الإيراد" المقرر فى عام ١٨٧٣ والذى حصلت عليه سلطات نوبار بثمن باهظ ، بعد أن تمكن نوبار ، بما يتصف به من استهتار وسطحية أرمينيين ، من إقناع الوزير الأكبر بمنح الخديو حق إبرام بعض المعاهدات وامتلاك جيش برى وبحرى غير محدود . ويؤكد هذا المرسوم الإمبراطورى أن السلطان قد أدرك مؤخرا الخطر الذى يتهدد حقوقه فى مصر ، ويعيد فى الوقت نفسه هذا البلد إلى وضعه السياسى الحقيقى ألا وهو وضع الإقليم الذى لا يتجزأ عن الإمبراطورية العثمانية ، وذلك بالحفاظ على قوة ومضمون حاتى شريف الصادر فى عام ١٨٤١ والذى سبق وذكرت لكم فقرات منه فى رسالةٍ سابقة ، فهو الوثيقة التى قبلتها الدول الكبرى التى تنظم حتى الآن طريقة الوراثة التى أخل بها الباب العالى مؤخرا ، إخلالا يصعب تبريره .

وسوف أحدثكم فى رسالتى القادمة عن الدوافع التى تقف وراء انتهاك الفرمانات والمعاهدات وسأعيد تناول نقطة أكثر خطورة مما تبدو عليه ، خاصة وأن ذهول الشعب قد يتحول إلى غضب فعلى .

ما إن تلقى الخديو النبأ المفجع حتى صدرت عنه صرخات وأتى بحركات غاضبة تغفر له ، ثم تحصن بنوع من الكرامة مكنته من توجيه حديث آمر أكثر منه أبوى إلى ابنه توفيق .

ولم تعد المالية مثار حديث . فإذا كانت قد ارتكبت حماقة ترك الخديو يرحل بدون تصفية الحساب معه ، فوداعا للطائر ووداعا لملايين الجبهات الإسترلينية المسروقة . أما ما يخشى منه فهو أن يغفل الدبلوماسيون ، وهم ليسوا برجال أعمال ، المثل القائل "عصفور فى اليد خير من ألف على الشجرة" . فما إن يصبح إسماعيل باشا خارج مصر حتى ينفض يديه من البقية . لقد حظر عليه الباب العالى فى التو واللحظة دخول القسطنطينية . وسوف يجد الأمير المعزول فى سيو رسالة مختومة تتضمن أوامر ! إنها الفوضى . وكل شىء معلق . فكيف سيعاد البناء الذى ساهم فى إقامته كل فرد ، والذى شن كل فرد ضده فيما بعد هجوما مفاجئا ؟ لا لزوم إلى أمثال نوبار أو ولسن اللذين لا يستسيغهما أحد هنا ، ولنتمعن جيدا ، فلسوف تثور ثائرة السكان جميعهم ضد تلك الأسماء التى ثبت عجزها .

روع الحريم، وإذ بعائلة نائب الملك والدوائر العليا والطفيليين والطحالب والفطريات السامة التى نمت فى ظل التملق الحقير والحاشية ورجال البلاط من كل جنس وبلد أو البلاط باختصار الذى وجد نفسه وقد طرح أرضا بدون أن يشعر بالسقوط وبعدم جدواه القاتلة !

أوتعلمون ماذا كان يفعل هؤلاء السادة فى أثناء احتضار سيدهم ، وحول فراش المنية المدنية ؟ كانوا يقامرون فى البورصة أو يبيعون علمهم الضار لكبار المتآمرين بالقاهرة والإسكندرية . ويا له من درس لفراعنة المستقبل !

رسالة رقم (٧)

الإسكندرية فى أول يوليو ١٨٧٩

فى الرابعة من بعد ظهر أمس أبحر إسماعيل باشا الوالى الخديو السابق وحريمه على ظهر يخته البخارى المحروسة، وهو عبارة عن فرقاطة بديعة عظيمة القوة والسرعة. وترافق هؤلاء سفينتان تجاريتان مصريتان تحملان الخدم وملابس وأمتعة نائب الملك السابق فضلا عن الموظفين الذين قام الباب بنفيهم خارج مصر ومن بينهم أربعة أو خمسة تم تحديدهم بالاسم ، ومن أهمهم شاهين باشا وعمر لطفى باشا وحسين باشا الذين اشتهروا بقسوتهم الواعية كمحصلين للرسوم والضرائب . وكانوا جميعهم موضع كراهية الشعب . وكان الأوروبيون المراءون يوبخونهم على الوسائل التى يستخدمونها ولكنهم يقبلون بسعادة إيرادات عمليات الابتزاز البغيضة التى كانوا يقومون بها ، وهى الإيرادات التى كانت تأتى فى صورة قسائم ربح وخلافه . ..

لم يعبر إسماعيل باشا الإسكندرية وإنما استقل البحر من محطة القبارى إلى الميناء على ظهر الفرقاطة هاربا بذلك من نظر سكان تسبب فى إفلاسهم وجعلهم يرتعدون على مدى ستة عشر عاما ، وجاء العديد من رجال المال اليهود والمسيحيين - الذين ساهموا بإثرائهم فى حالة شبه الإفلاس التى بلغتها مصر وفى سقوط الخديو إسماعيل - يودعون الأمير المعزول الذى أحزنه ولا شك ألا يرى من بين رجال متملقى الأوقات السعيدة الذين جعل منهم أثرياء بعد فقر والذين تنكروا لجميله ما إن بدأ نهر سخائه فى الانحسار .

وذهب أعضاء الإصلاح القضائى الذين أقعدتهم مكافآتهم الضخمة وإجازاتهم السنوية التى تبلغ أربعة أشهر عن الهجرة إلى أوروبا للانحناء مرة أخيرة أمام السيد، الذى هو بحاجة إلى خدمات وليس إلى اتفاقات، حينما يكون شخصه هو المعنى بالخطر . ولوحظ أن الهيئة القضائية قد جاءت بأعداد قليلة وظهرت فى ملبس غير معتنى به مبتعدة كثيرا عن المظهر الرسمى المبالغ فيه الذى درجت على الظهور به فى بداية عهد التولية التى جاءت نتيجة لمثابرة نائب الملك الذى ندم ولاشك كثيرا على ذلك . ولو كان نائب الملك قد أصبح - أو كان حاله دائما - فيلسوفا لكان التعبير عن مظاهر

الإخلاص النسبى قد دفعه إلى الابتسام بقدر ما تتيح له ذلك انفعالات الحزن التى تصاحب أشد آلام النفس الإنسانية قوة . إن فقد مركز أعلى مجده فيه أصدقاء وحماة يعنيهم إلى حد ما عدم مشاهدة أو سماع شىء وترك بلد بعد حكمه سعيدا إلى المنفى كهارب وبدون إثارة أية مشاعر بالأسف لهو فى اعتقادى أشد عقوبة إلهية يمكن أن توقع بمرتكب كل تلك الآثام خارج عدالة الإنسان . لقد رأيت جلالته ينزل من عربته شاحبا حزين الوجه وإن قوى حضور الأوروبيين الذين كانوا فى انتظاره من رباطة جأشه . ولكنه فوجئ بغياب الأهالى الكامل ، وكان هناك عدد من أعضاء الهيئة القنصلية . مر أمام الفرقة وحيا العلم ليدخل بعد ذلك زورق الإنقاذ مع العديد من الأشخاص ، وكان المراسل المؤقت للتايمز الذى كان بوق دعاية له فى الأوقات العادية أحد أكثر الأشخاص حظوة بالملاطفة حتى آخر لحظة . لقد وجهت هذه الصحيفة لطمات عنيفة إلى نائب الملك الذى لم يكن يسدد لدائنيه البريطانيين ، ولكنها تولت الدفاع عن قضية الخلافة الملكية لصديق إنجلترا .

إلى أين ستتجه قافلة الأمير ، هذا ما لا دراية لنا به . يقول البعض إن (رودس)- حيث وصلت بالفعل والدة إسماعيل باشا - هى المقصد الذى احتفظ بسريته ، وادعى البعض الآخر العلم بأن الخديو السابق سيذهب إلى (سييو) لانتظار أوامر الباب العالى ، وترسل رواية ثالثة بالعائلة بأسرها إلى أوروبا على شواطئ البحر المتوسط للهرب فى مكان آمن من المساءلة التى يعتزم السلطان توجيهها إليها !

وكل شىء ممكن ومحتمل .

دعونى أصف لكم انطباعاتى الرئيسية التى كانت أشد إثارة للدهشة أثناء إقامتى فى القاهرة وجولتى فى اثنين من أكبر أقاليم الوجه البحرى ، وهى الانطباعات التى سبق وأن أخبرتكم بها فى رسالتى الأخيرة .

إن الشعور بالارتياح الذى أثاره عزل إسماعيل ، كان شعوراً عاما وكان أقل منه كثيرا ذلك الارتياح الذى شعر به بعض الأشخاص غير الواعين الذين كانوا ينتظرون تعيين توفيق . وتذمر رجال السوق والملاك والأثرياء ورؤساء المدن والفلاحون - أى البازار وهو السوق اليومية الكبيرة التى يلتقى فيها الجميع بالجميع - من الظلم الذى أوقع على الأمير حليم بن محمد على .

وإليكم ما تقوله الصحف الأكثر حظوة باحترام الرأى العام المسلم ولديها فى الوقت نفسه منطقا قويا ، ولن يكون من الإنصاف عدم التوقف أمام ذلك لبحث شكاوى ورغبات سكان لا يملكون أية وسيلة لتوصيلها إلى السلطان وإلى الدول الكبرى . فنحن بصدد تاريخ . تنسب معاهدة عام ١٨٤١ التى ضمنتها الدول الكبرى والإرادة الإمبراطورية الصادرة فى ١٣ فبراير من العام نفسه والتى تنظم ترتيب الخلافة فى مصر صفة الخليفة الشرعى لحكومة أقاليم النيل إلى الأمير حليم بن محمد على .

وتقول مذكرة اجتماعات لندن الصادرة فى ١٠ مايو ١٨٤١ التى تؤكد حاتى شريف سالف الذكر وتلخص هذه الوثيقة نهائيا : "سيخلف إبراهيم باشا محمد على وسيخلفه أكبر العائلة ، وهكذا . وتلك هى القاعدة التى تعتبرها الدول الكبرى المتحالفة أفضل القواعد بالنسبة لمصالح الباب العالى وأكثرها التزاما بتقاليد الإمبراطورية العثمانية" . وقد روعى نص المواثيق بأمانة منذ وفاة إبراهيم باشا .

ومنذ توليه العرش حرص إسماعيل أول ما حرص على استفزاز أشقائه وأشقاء والده وأبناء أشقائه وعلى اضطهاد هؤلاء فى ممتلكاتهم وأشخاصهم لينفيهم فيما بعد . وتخلص بذلك من الجميع . مات شقيقه مصطفى فاضل فى المنفى ، وكان عمه حليم ثريا فاستولى إسماعيل على كل أملاكه التى لم يعدها إليه إلا بعد تدخل السلطان عبد المجيد شبه الرسمى ليقوم بشرائها معه بشرط قبول حليم نوعا من التنازل السرى عن حقه كأكبر أفراد الأسرة سنا وقبوله بالنفى الأبدى . فكانت القوة والحاجة هما عاملا العقد الملغى بسببهما أيضا . ولم يستمر إسماعيل من جانبه طويلا فى الوفاء بكلمته وتعهداته حتى إنه توقف منذ زمن طويل عن دفع الأقساط السنوية التى يستحقها عمه .

إلا أن هذا التنازل – وهذه هى النقطة التى يسجلها الرأى المعروض من جانبى – جاء فى عهد لم يكن فيه حاتى شريف قد ضعف بأية إرادة إمبراطورية تم الحصول عليها بثمن باهظ ، وكان السلطان فيه هو السلطة الوحيدة التى يحق لها الاعتراف به ، أى السماح به أو منعه ، قد تم فى الخفاء ومن يد إلى يد بين العم وابن شقيقه بدون الحصول على أى تصديق دبلوماسى أيا كان نوعه .

وبهذا المعنى يكون التنازل لا وجود له ، وبما أن إرادة عام ١٨٧٣ قد ألغيت الآن وأن نظام عام ١٨٤١ - النظام الصالح الوحيد ؛ لأنه الوحيد الذى قبلته وضمنته الدول الكبرى المتحالفة - هو النظام الذى يحكم منذ الآن قانون أقاليم مصر ، فإن خليفة إسماعيل باشا الحقيقى يكون هو الأمير حليم . وقد وجدت هذا المنطق الذى تتناقله جميع الأفواه من القوة ما يجعلنى أجرى بشأنه اتصالاً على درجة بالغة من الأهمية والذى لابد من أنه سيكتسب مزيدا منها .

تأكد لى - فى القاهرة - أن نائب الملك كان قد أعد وسائل هائلة للمقاومة ، وأن القوات التى زيد عددها ومنحت أجورا كانت متأهبة للتحرك ، إلا أن إسماعيل قام بتغيير خططه بعد أن ردته الهيئة القنصلية المسئولة مسئولية شخصية عن كل النتائج . وقيل إن هذه الاستعدادات العدوانية التى بلغت القسطنطينية بها برقيا قد دفعت السلطان إلى تبنى أسلوب ملتو لعدم إثارة معركة وفى الوقت نفسه إلى معاونة الإنجليز بدون قصد ، وهم الذين يعرفون ميول الخديو الجديد المعادية للفرنسيين .

ويسود غضب شديد بين أبناء الطبقات العليا والمتعلمة من السكان الذين يتألمون لمشاهدة الأوروبيين يحكمون ، يربطون ويحلون ويحتلون مراكز السادة ، بينما الخراب والمصائب تحيط بهم من فعل هذه العناصر الأجنبية . وتستحق هذه المشاعر النبيلة الأخذ فى الاعتبار ، فمن الخطأ الشديد تجاهل هذه الحساسيات وهى الحساسيات التى نطالب - نحن الأوروبيين - فى أوروبا باحترامها قبل أى شىء آخر .

رسالة رقم (٨)

الإسكندرية فى ٦ يوليو ١٨٧٩

تتضح الحقائق ببطء حول الظروف التى سبقت سقوط أمير ، سقط لعدم إيمانه بالخيانة التى تأتى متأخرة ، ولكن لا يمكن تفاديها من جانب الرجال والعناصر السياسية التى استخدمها فى بناء حكم خاطئ من أساسه ومجرد بالتالى من الصلابة .

وكان ياما كان الشعب المصرى الذى شكله استبداد سادته العريق والمثقل بالضرائب والديون . خلد فى الوقت نفسه تحت العبودية لو أن الخديو المعزول قام بدلاً من حكم أربعة ملايين من الأرواح بقيادة عدد من السكان يفوق هذا العدد عشر مرات . إن استبداد أمير تمس أعماله الاقتصادية المصالح الدولية يتطلب مساندة قوة عنيفة وعلى درجة من العظمة تمكنها من تجاهل الحق أو التغلب عليه دونما عقاب كما هى الحال فى روسيا ، على سبيل المثال ، وإلا فإنه يسقط إن آجلاً أو عاجلاً حينما تشبع الأطماع المادية وينقص المال ويتعاون - على سبيل الثواب النهائى - المتآمرون أنفسهم الذين ساهموا فى تعزيزه . تلك هى حال إسماعيل باشا خديو مصر الممجد فى المركز الأعلى الذى شغله بجشع مبتذل ولا حدود له ، استطاع به خلال خمسة أعوام لا يمكن مقاومتها ، أضافت إلى تاريخ أوربا الدولى صفحة من أكثر صفحاته إظلاما . وانهارت قوة الخديو المستندة إلى الذهب والنهب ، وهما الوسيلتان اللتان رفع بهما إلى مستوى النظام الذى نال من الإعجاب بقدر ما أتاح للعديدين الإثراء على حساب الآخرين . انهارت قوته تحت وطأة دين جعل من الأمير المخلوع فى وقت هدفا لأوروبا المالية المشبوهة .

ليس من الغريب القول بأن مدينة الإسكندرية الحديثة هى من أعماله ؛ إذ إنها قد شيدت بملايين الجنيهات الإسترلينية التى سمح لنفسه بالحصول عليها عن طريق الربا والتى كان يروق له تركها لنهم لا يمكن إشباعه ويسهم فى هدفه غير الأخلاقى ، إن الشوارع التى ما زالت تخط والمبانى العظيمة التى ترتفع فى مدينة بلد النيل الثانية مثل إحياء القاهرة الحديثة تنبع من الكنز الخديوى وتساوى مبالغ هى فى وقتنا هذا جزء لا يتجزأ من الدين الجارى والمجمد !

ويمكن القول بالمثل بالنسبة للمنشآت المالية الكبرى والنقابات الأوروبية الثرية التى نتجت منذ حرب القرم من العمليات غير الصحية - حتى لا نقول غير الأخلاقية - التى سمحت بها كل من تركيا ومصر والتى أخطأت الحكومات الأوروبية حينما أغمضت أعينها عنها بعد أن توقفت عن المساهمة فيها .

إن العامل الثانى وراء الكارثة التى اكتملت فى التو هو الوسط المحيط بنائب الملك الذى كان شأنه فى ذلك شأن نائب الملك ، وسواء كان رسميا أو خاصا من أعلاه إلى أدناه هو الفساد نفسه . لقد احتلت كل الجنسيات رائدة التقدم والمدنية الغربيين التى يضرب بها المثل مكانا فعالاً إلى حد ما فى هذه البؤرة الهائلة من الفسق الاجتماعى والإدارى الذى لا يمكن وصفه والذى يقترب فى تفننه ، صعب الوصف ، من أظلم العهود الشهيرة فى التاريخ القديم. إن الفضيحة التى استمرت طويلاً هى ملك للتاريخ، ولنأمل ألا تسمح اليقظة المتأخرة للدول الأوربية الكبرى بعودتها .

شكل توفيق وزارة سميث بالوزارة الانتقالية ، وهى وزارة لا معنى لها ولا لون ويرأسها شريف باشا الرجل النزيه . وبدأت عمليات التطهير وإعادة النظام ولكن ظل هنا وهناك – ولا سيما فى وزارة المالية – بعض البكوات الأوروبيين الملوثين الذين يرفضون الرأى العام . وسوف يحاكم هؤلاء رغم أن جوليوس بروم الشهير – كما تردد وكما سيوضح ذلك اتجاهات أخرى – هو على وشك أن يستدعى إلى مصر . ونحن نعلم الدور الذى لعبته هذه الشخصية المتورطة فى عمليات السمسرة المالية لهذا العهد مع مصطفى فهمى باشا أحد الوزراء الجدد فى إلغاء وظيفة المفتش .

حل نائب الملك مارتينو (من نابولى) محل بارو (الفرنسى) السكرتير الخاص للخديو السابق . ومارتينو – هو رجل شديد الالتصاق بشخص نائب الملك – هو صهر الموظف السابق ابن شقيق الوكيل الدبلوماسى لملك إيطاليا . ويعنى ذلك أن هذا المنصب قد ظل لحسن الحظ فى العائلة نفسها .

جاءنا هذا المساء نبأ إلقاء القبض فى القاهرة على اثنين من أهم ملتزمى نائب الملك السابق . وأغلب الظن أنهما قد رحلا ، وهما : شاهين باشا وعمر لطفى باشا اللذين تمت باسميهما وبمساعدتهما عمليات تهريب لصالح إسماعيل ، وهى تلك العمليات التى اشترك فيها – كوكلاء للأمير المخلوع – مصرفيون ذوو شهرة ينتمون إلى الأهالى إلى حد ما ولكنهم يتمتعون بحماية أوروبية ، وذلك أمر خطير ولم يكن معروفًا على نحو دقيق ، كما اتهم الموظفان بأنهما أرسلا خلال الأسابيع الخمس عشرة الأخيرة من حكم إسماعيل إلى سيدهم المبالغ النقدية التى قاموا بتحصيلها من دافعى الضرائب بوصفهما محصلين عموميين للوجهين القبلى والبحرى .

وتوجد وقائع مثيرة للفضول والأسف سرعان ما سيتم الكشف عنها ، وهى وقائع قريبة الصلة بالحدث الكبير الذى وقع فى التو . ولم يعد الانقلاب الآن باللغز شديد الغموض . وبينما كان بكاء نساء الخديو يدوى فى محال إقامتهن الفاخرة التى كان عليهن التسلل خارجها ، كان إسماعيل يوبخ - بعيون محتقنة اغرورقت بالدموع فى حديث تكسوه المرارة - بارو بك على نصائحه التى أدت إلى الانقلاب . ودافع السكرتير عن نفسه بتأثر وأكد للأمير أنه لو كان قد أخرج بعض النقود من خزينته لكان الإجراء العنيف الذى اتخذه قد مر بدون أن يشعر به أحد ؛ إذ إن نوبار كان مكروها من الجميع . وهذا قول صادق . ويبدو أن هذا الحديث وهذه المؤاخذات التى يتبادلها ممثلا المأساة التى ما كادت تنتهى وفى أحرج وقت من المحنة قد مست أوتارا فى قلب وذاكرة نائب الملك المخلوع . وتعقب الأمور الغريبة دائمًا الأمور المستبعدة التى تخفى هى نفسها بذلك الحقيقة . فبارو بك الذى أبعد وصول نوبار قد أعيد إلى منصبه تحت تأثير إنجليزى مارسه فيفيان الذى كان وعدد آخر من القناصل لا يجهلون بالتالى الانقلاب الذى أغضب لورد بيكونسفيلد وحمله وهو الرجل الهادئ فى مظهره على أن يكون أول من يطلب بغضب وفى اليوم نفسه من السلطان برقيا عزل الخديو .

لم يدرك الفلاحون بعد الظلم الذى أُوقع بحليم باشا ظنا منهم وبخيالهم الشرقى أنه يتستر داخل مصر فى ملابس حجة فقير (عالم) . إلا أن جمهور الإسكندرية ومصر قد قرأ ببالغ الدهشة البرقية التى أرسلها إلى التايمز مراسلها الذى كان يقوم ومازال بدور رسول الخديو ، وهى البرقية التى نشرت فى عدد هذه الصحيفة الصادر فى ٢٥ يونيو والتى جاء بها الآتى : "إن الأمير حليم مبعد هنا من الرأى العام ، فخلف طلاء خفيف من المدنية الأوروبية يخفى أنانية عميقة ومثالب المدرسة التركية القديمة ، وأصدقاؤه من الطبقة الدنيا ، بينما الأمير توفيق الشاب المجد العادل الذى أحسن اختيار المحيطين به هو مسلم صالح تمكن من إثبات ذكائه" .

وهكذا يُكتب التاريخ ! أليس من المؤسف أن تنقل صحيفة مدينة لندن الرئيسية ذلك المثل الهندى إلى جمهور جاهل محمَّل من ناحية بالنميمة ومن ناحية أخرى بالتملق الأجوف .

وإليكم ما كان الأمير حليم ينوى عمله لو لم تكن الفكرة السليمة التى تدعوه لحكم أقاليم النيل المجهولة : كان سيدخل مصر بدون رفقة عبيد رجالاً كانوا أو نساء ، معتزماً إلغاء استخدام هؤلاء بما فى ذلك الحريم فى جميع أرجاء البلاد . وقد لا يعلم الناس فى فرنسا أن جلالة الأمير حليم تقبل دعوات العالم الدبلوماسى بالقسطنطينية وأنه يشغل مكانة مرموقة فى صالونات هذا العالم . ولسوف تحدثكم رسالتى القادمة التى سأرسلها بالسفينة الفرنسية عن المالية .

رسالة رقم (٩)

المنصورة فى ١١ يوليو ١٨٧٩

أحب بقدر المستطاع أن أتأكد بنفسى من الوقائع التى أقدمها ، وحينما كنت أحدثكم عن الرأى العام بصدد تعيين توفيق باشا لم أكن قد سمعت سوى ما يقال فى القاهرة والإسكندرية ، أما فيما يتعلق بالأقاليم فقد كنت أسترشد بعض الشىء بعلاقاتى اليومية مع اثنتين من هذه الأقاليم .

ويزين للنفس الابتسام عند عقد مقارنة بين كلمة "حرية" وتورية "فلاح" وهما لفظان أحدهما كان يمثل للآخر قديماً طباقاً مطلقاً ، ومازالت العلاقة بينهما حتى الآن على هذا النحو ، ولكن بدرجة خفف من حدتها كثيراً سقوط الطاغية الذى كان مجرد ظله ملكًا للتخويف بالنسبة للأهالى . فالواقع أن الكلمة أو التلميح أو المعارضة الظاهرية لاستبداد غير محتمل كانت لتكلف كبار القوم غوصًا نهائيا فى النيل وتكلف صغارهم السجن والكرباج .

استعاد الفلاح أنفاسه منذ الانقلاب ، وأدرك بعد ذلك أن الخطأ الذى ارتكب ولم يعقبه تدبير مالى كان آخر الأخطاء التى سُمح للخديو بارتكابها لمدة طويلة للغاية .

ومنذ ذلك الحين خبا الخوف كما خبت الهيبة، وأصبح الفلاح الآن فى المقاهى وعلى ضفاف النهر وفى أحاديث المساء فى جميع أنحاء القرى والحقول يتحدث بحرية كما لو كان فى البندقية ، حيث يتكلم الناس ولكنهم لا يفعلون كل ما يريدون . وهذه خطوة

كبيرة بالرغم من ذلك . إن المصرى إنسان ذكى وسيتحول بأسرع مما نتصور . وتدور الأحداث حول موضوعىْ : المالية وتولية توفيق باشا التى لم يؤكدها فرمان بعد . وفيما يتعلق بالنقطة الأولى فقد أخذ الفلاحون على أنفسهم عهداً بألا يتركوا أنفسهم للنهب بدون صراخ ، وسيكون من الأصلح للإدارة - فى اعتقادى - التصرف بحذر خاصة وأن الماسونية المسلمة لها فى مصر مولعون . لقد أذهلتنى بالأمس - وأنا عند المدير - الحجج القوية والصائبة التى كان ينطق بها مأمور (وكيل والى) مازال فى منصبه لتأييد حقوق المزارعين فى تمثيل وطنى حقيقى . خلَّف الحزب المسمى بالحزب الوطنى - الذى أنشأه الخديو فى اللحظة الأخيرة متلاعباً بالجميع وبكل شىء لصرف أنظار أوروبا عن نواياه - ذريةً بخلاف ما كان ينتظر نائب الملك ، ولذا فإن أية حكومة مصرية ينبغى لها منذ الآن التعايش مع عنصر جديد يعيش على ضفاف النيل ، ولكنه هذه المرة عنصر ممتلئ بالنشاط .

إننى مقتنع بأن الزعماء النزهاء الذين سيمسكون بمقاليد الإدارة التى سيغلب عليها طابع الأفكار التحررية التى تولدت عن سقوط الخديو ، لن يجدوا الباعث على الشكوى ، وقد أعدت الأرض لبذر البذور . وفى عواصم الأقاليم حيث يرغب الناس بالإجماع - كما هى الحال بالنسبة لمناطق أخرى - فى تولية حليم ومناقشة فرصه فى الحكم بحرية وبدون اختلاف فى الآراء . وألاحظ مما أرى أن الدول الكبرى الليبرالية فى الغرب - التى يعد التصرف فيها ضد الإرادة الجماهيرية أمراً خطيراً ومتهوراً - قد ارتكبت خطأ جسيماً بمعاملة الأمة التى ادعت أنها تعمل على تمدينها وتحريرها كسكان من العبيد الجهلاء غير القادرين على اختيار الرئيس الإدارى الذى يناسبهم . ويهتم الدبلوماسيون اهتماماً بالغاً بالشكل ، فهم ليسوا أناساً عمليين ولا يعرفون سوى المدنية والبلاط ؛ أى إنهم يجهلون تماماً البلد بطباعه وأمانيه .

لن أدهش إذا ما قامت الإرادة الوطنية بالتعبير عن نفسها إن عاجلاً أو آجلاً ، ومطالبة السلطان - وهو السيد - بنوع من الاستفتاء الشعبى لحسم المسألة محل النزاع ؛ حيث إن شيئاً لم يتقرر بعد حسبما يرى الأهالى .

لم تعد هذه الفكرة المبتدعة التى تبدو لكم غاية فى الغرابة ، بالفكرة الغريبة بالنسبة لى ؛ حيث يتحدث عنها الناس وأتحدث أنا عنها . وتنقل الأذن إلى العقل ما تستقبله من ألفاظ ويألف كل منهما تدريجيا قيمة هذه الألفاظ وقوتها ، فالحاجة والظروف تمهد أسوأ الطرق ، وتنتصر الحقيقة .

وأتساءل عما ستفعله القوى الدستورية الكبرى التى ارتكبت خطأ إغفال مشورة الأمة المصرية أمام مثل ذلك التعبير عن الإرادة الشعبية . ويخيل إلىَّ أنها لن تقمع التمرد ، الأمر الذى لو تحقق لكان له أسوأ الأثر داخل بلادها . فهل تقوم هذه القوى بإرغام الباب العالى على استخدام البنادق لقهر الآمال الشابة والنبيلة لشعب حوَّله الخديو - الذى لقى تسامحًا من جانب الحكومات الأوروبية - إلى قطيع ؟ وما لم تتم معالجة هذه المسألة فإنها قد تفرض نفسها سريعًا .

استمعت أنا وبعض الأفندية صباح اليوم إلى قراءة نسخة (عن أصل باللغة العربية) لإرادة عام ١٨٧٣ الشهيرة والتى عادة ما تكون ترجمتها التى تنشرها صحف أوروبا خاطئة ، وتتضمن الوثيقة المعروضة حاليًا بمقارنتها بتلك التى فى حيازتى منذ العهد المذكور اختلافات ملحوظة تمس الجوهر .

وأيًا كان التنوع والضخامة اللذان كانت عليهما الصلاحيات الممنوحة والتى كلفت الخديو السفيه الذى يقوده نوبار مبلغ المليون وخمسمائة ألف جنيه إسترلينى الزهيد فإن خلاصة الإرادة ظلت كما هى ، ألا وهى أن كل ما سبق صدوره من حاتى شريف سيظل مؤكدًا بنصوصه التى لم تلغَ ؛ بما فى ذلك عزل نائب الملك وإلغاء كافة الامتيازات الممنوحة لمحمد على وخلفائه بموجب عفو إمبراطورى صدر فى فبراير ١٨٤١ .

ولما كانت إرادة عام ١٨٧٣ لا تتضمن سوى موت نائب الملك كحد أقصى للاحتمالات وليس نهايته عن طريق العزل ، ولما كان سقوط الخديو قد نتج عن الأخطاء والجرائم التى نص عليها حاتى شريف الصادر عام ١٨٤١ الذى تضمن العزل وسحب الامتيازات ... إلخ ، فإنه من البديهى أن الباب العالى بعد قيامه بخلع إسماعيل باشا قد أصبح من حقه إنهاء الامتيازات الممنوحة لعائلة محمد على ، ومن حقه المؤكد رفض الظلم الذى فرضته عليه السياسة الأنجلوفرنسية .

يشعر المصريون المتعلمون : مسلمون وأقباط ، بالمهانة إزاء الوضع الذى ثمة رغبة فى فرضه عليهم ، ويطالبون - ولهم الحق فى ذلك - بما تعنيه كلمتى التقدم والمدنية التى تتداولهما ألسنة الدبلوماسيين ، فى الوقت الذى تريد فيه الحكومات الغربية أن يخلد على عرش مصر ابن نائب ملك ألحق الخراب بالبلاد بما قام به من تبديد للأموال ونشر للذعر ولا تزال يداه مخضبتين بالدماء .

سيلقى أحد الشبان الأفغان اليوم - وهو شاب مثقف على درجة كبيرة من العلم وخطيب بارع ينتظره مستقبل عظيم ، وهو عدو لدود للسياسة الإنجليزية - محاضرةً باللغة العربية حول أحداث وسياسة الساعة .

كنت قد استمعت إليه فى القاهرة قبل السقوط وكان أسلوبه مقيداً ؛ تنفيذاً لأوامر عليا . نحن هنا فى المنصورة حيث انهزم أحد ملوك فرنسا . وسوف نرى ما إذا كان بوليس توفيق على الدرجة نفسها من القسوة التى كان عليها بوليس والده .

رسالة رقم (١٠)

الإسكندرية فى ١٥ يوليو ١٨٧٩

عدت إلى هنا من أجل اللحاق برسالة البريد عن طريق "برنديزى" ، وتسجيل أحداث مهمة وفورية . سأرسل إذن على الباخرة الفرنسية المتجهة عن طريق نابولى ، المحاضرةَ السياسية والاجتماعية التى كنت قد أرسلت بها فى رسالتى الأخيرة والتى ألقاها جمال الدين الأفغانى .

لقد فاجأت الأحداث التى وقعت فى القسطنطينية - وجاءت عن طريق مصدر موثوق به - المناطق المختلفة والبلد بأكمله ، بطريقة غير مرضية ، بعد أن فاض الكيل من الدور الذى تلعبه إنجلترا فى تلك المأساة . فنجد أن فرنسا مستعدة تماما للمؤامرات الغامضة ، التى نراها بوضوح فى مصر . وأنا صادق فى قولى إنه يوجد الآن فى الرأى العام تيار قوى ضد الإنجليز ، وسواء كان هذا خطأ أو صوابا ، فإن الجميع مستاءون ، وليس بدون أسباب قوية ، وخاصة من رؤية الإدارات الأكثر

أهميـــة ، كمـا أعتقد ، وهـى تدار عن طريق البـريطانيين الذين يخـتارون من جانبـهم وبتوافق شديد صغار الموظفين من بين مواطنيهم الذين يمارسون ، فى أكثر من حالة ، عادة البراندى بنجاح أكبر من واجباتهم .

ولا يمكننا أن نفسر أيضا كيف كانت تتفاخر إدارة من الإدارات بالتوفير فى ميزانياتها الضخمة المعلنة ، فى الوقت الذى كانت ترفت فيه وتسرح بغير مكافآت قدامى الموظفين المصريين محدودى الأجر ، الذين يجيدون أعمالهم ؛ لتستبدل بهم الوافدين الجدد من الإنجليز، الغرباء تماما عن تلك الخبرات ، الذين يتقاضون رغم هذا أجورا مرتفعة . ذلك كان أسلوب نوبار – ويلسن – بلينبير الذى لم يطرأ عليه أى تعديل .

لقد رأينا مدير عام أحد الدواوين الإنجليزية ، السيد سيرفنور ، وهو رجل نابه لا شك ولكنه لا يزيد عن مستوى حاضنة محدودة ، يحصل على مائة ألف فرانك فى العام الواحد من عدد ضخم من الموظفين الذين يعملون تحت رئاسته ؛ ومدير عام السكك الحديدية السيد الجنرال ماريوت ، يحصل على المبالغ نفسها ؛ ثم مدير عام البريد السيد كيبار ، الموظف الصغير السابق فى إدارته بإنجلترا ، يتصرف كما لو كان أرفع شأنا من مرءوسيه . والميناء والترسانة والمنارات أيضا فى أيدى الإنجليز . كل هذه الإدارات تعيش ، على حسب التعبير الإنجليزى ، وتحاط بقدر المستطاع برؤساء ونواب رؤساء إنجليز ، وهو وضع جارح لكرامة الجموع المصرية الغفيرة ، ولا يؤكد أى تطوير يذكر كان قد وعد به الإنجليز والأوروبيون عموما . بل على العكس ، ظل الديوان أبعد ما يكون – وكل شىء على ما هو عليه – عن تنفيذ وعد النظام الإنجليزى بالزيادة ؛ فالوظائف ظلت على حالها رغم التأكيدات المتفائلة ، بل خفضت أجور العاملين فى السكك الحديدية . واستحدثت مؤامرة نوبار – ويلسن الرائعة نظريا ، وظائف بدون عمل ، مثل التى تكاد تعرف فى الدول المتحضرة والمعلنة فى مناطق الحماية الإنجليزية فى أركان الكرة الأرضية الأربعة ، والتى تتقاضى مرتبات مرتفعة ووظائف جديدة أكثر جدة من المناطق التى اكتشفت داخل القمر.

من ناحيته ، كان السيد ريفرز ويلسن يملك وحده مجموعة من الأوسمة الحقيقية ، حوالى مائة ، وكان أصدقاؤه الموزعون فى المحافظات ، يطالبون بإلحاح بمثلها : برج بابل حقيقى غالى الثمن . أما الرجال ذوو الخبرة ، قدامى المدنية ، أقل بريطانية

وعنها أرمينية ، فقد تم التخلص منهم . وقد استخدمت الحكومات الأوروبية النظام نفسه أو تقريبا فى اختيار وتعيين خبراء المال ، وأعضاء البحث وعدد آخر من كبار الموظفين الموكل إليهم إحياء مصر . وكان كل هؤلاء من المتمتعين بحماية شخصية أو أخرى من الشخصيات ذات المركز أو حزب من الأحزاب التى دخلت فى الظل أو أصدقاء من الأثرياء السابقين الذين أفلسوا فى البورصة هنا وهناك أو عاطلين من السلك القنصلى أو عدد قليل من الإداريين الضعفاء ماليا .

وأخيرا بعض الجنود وعدد من رجال القانون المبعدين وعدد آخر من الرجال المسئولين الأكفاء الذين يتميزون فقط بالحصول على مبلغ يتراوح بين ٤٠ و ٨٠ ألف فرانك سنويا ، بعقد منتظم ومحدد لمدة خمس سنوات على الأقل ، هؤلاء المكلفون المحترمون لنفقات خزينة خاوية .

هذه هى المدخرات التى كان النظام يمجدها ! لقد رأينا حقيقتها . أما الفلاحون المساكين فقد كان الأطباء الجشعون يستنزفونهم لكى ينقذوا حياتهم ! وما أكتبه هو نصف الحقيقة ، ولنتكلم برلمانيا ، إن حقائق قاسية سترى النور قبل إعادة البناء الذى تدفعه الدبلوماسية حتى النهاية لكى تمسك بالزمن الضائع وهى تقوضه بالعصا . ولا ينبغى أن تخدم الأخطاء نفسها حجر الأساس فى بناء سفينة الخلاص .

فمصر لن يتم السيطرة عليها سوى عن طريق إضافة بضعة أوروبيين مؤهلين بحق إلى الموظفين المحليين الجيدين الموجودين أصلا ، وليس بأية حال من الأحوال من الأشخاص الذين تسبق الألقاب أسماءهم، دون أن يكون لذلك أى أثر على صفاتهم. وبالإضافة إلى ذلك فالعنصر المسيحى لا يجب إهماله أو تهميشه ؛ فسيكون هذا خطأ يضاف إلى سلسلة الأخطاء التى تم ارتكابها. ومن ناحية أخرى لو كان لابد من فرض ضرائب على المستعمرات فإنه يجب على الدول المعنية أن تتمتع بنظام يتيح لها التحكم فى كيفية إعادة إنفاق ما تم تحصيله. فليس معنى أن مصر تخضع للاحتلال أنه يجب أن يُقرر فى باريس و لندن وبدون أن تتم استشارة الجهات السياسية والإدارية المعنية.

ولكن عملية إعادة البناء لن تتم إلا بفضل الترتيب مسبقا للمسائل المالية التى يجب حسمها فى أقرب وقت. فهذا أكثر ما هو عاجل . فمصر إن لم تكن فى حالة انهيار مالى فهى مهددة بذلك. التصرف الصحيح فى هذه الحالة هو العمل بأسرع ما يمكن لتجنب ذلك.الأشخاص المعنيون بإطالة أمد الأوضاع الراهنة والأشخاص غير المدركين لطبيعة الأوضاع المصرية قد يجدون الحل صعبا ، فالحل ليس صعبا. الخديو تمت تنحيته لأخطائه العديدة. فقد خان الشرف والواجب ، الباب العالى أزاحه من السلطة، وبإزاحته تم القضاء على العلاقات المشبوهة التى كان يقيمها وعلى رأسها معاهدة (٢٨) Goschen Joubert بالرغم من البلبلة التى كان يحيط بها إسماعيل تحركاته لخداع الرأسماليين بالنسبة لما هو عام وما هو خاص . لا يمكن بأية فلسفة دبلوماسية إنكار أنه منذ عام ١٨٦٣ – وقت وصول الخديو السابق إلى سدة الحكم – لم يكن سوى مدين واحد هو مصر . الشيء الذى يعنى أنه لم يكن مسموحا بأى ترف ، فمن خلال سرد تلك الأحداث و التصريح العلنى للورد Clarendon بصرف النظر عن المسمى ديون أو مستحقات لدائرة ما أو للحكومة المصرية ، فإن حكومة جلالتها لا تعترف سوى بمدين واحد هو الحكومة المصرية ، فهناك حل واحد:

١ – عودة كل الأملاك الثابتة والمتحركة للدوائر لنواب الملك والعائلة المالكة إلى الدولة باستثناء الممتلكات الموروثة فعليا .

٢ – سداد جميع الديون المستحقة على الدولة المصرية ونائب الملك : العائمة وغير العائمة وبفائدة ٥٪ .

فبعد مراجعة الخزانة ، الدين العام باستثناء مستقطعات بيت المال وغيرها من صور الجباية الإجبارية لصالح اليتامى والأرامل تبلغ ٩٣ مليون جنيه إسترلينى بما فيها عملية "روتشيلد" و بذلك يكون المستحق ٩٨ مليون جنيه إسترلينى يتم خصم أمانات للديون تقدر بـ ٤٨٠ ٥٠٣ ٢ لأعوام ١٨٦٤ ، و١٨٦٦ ، و١٨٦٧ (مصطفى كامل باشا) وبذلك يكون المستحق بصفة نهائية مبلغ ٠٠٠ ٥٠٠ ٩٥ تقريبا .

ومن أجل التخفيف عن كاهل الحكومة والمواطنين وفى الوقت نفسه دفع الأموال المستحقة فى مواعيدها لن يكون هناك حساب إهلاك للديون قبل ست سنوات .

كما سيصدر قرار بمنع مصر من الاقتراض بدون موافقة الباب العالى والبرلمان وليس قبل ٢٠ عاما .

بعد الانتهاء من هذا العمل الذى يمكن إنجازه فى شهرين ، يمكن الشروع فى الإصلاح الإدارى . و أفضل أنواع الإصلاح فى هذا المجال هو الذى لا يتضمن الزج بالأوروبيين فى حكم البلاد . وينبغى ترك ألمانيا للألمانيين .

رسالة رقم (١١)

الإسكندرية ، ١٩ يوليو ١٨٧٩

الخميس صباحا ، الساعة العاشرة ، صوت المدافع القادم من البر ومن البحر يعلن عن قدوم سموه الملكى توفيق باشا إلى الإسكندرية ، مما أدهش السكان المحليين؛ نظرا إلى أن الوالى الجديد قد تجرأ وذهب إلى ثانى أكبر المدن فى القطر المصرى قبل صدور الفرمان الإمبراطورى بتنصيبه . ففى مثل هذا التصرف نوع من التحدى للباب العالى .

السيد "De Lascelles" الموظف القنصلى البريطانى هو العضو الهادئ فى المجموعة القنصلية التى تسيِّر مؤقتا شئون البلاد ، ولكن القوة التى يمثلها والتى تعلن أنها تساند تركيا تسعى ليس فقط لتقليل نفوذ السلطان ولكن أيضا التحضير لتفكيك الإمبراطورية. ما كان يهمه فى شأن عدم المساس بوحدة الإمبراطورية العثمانية هو : الحفاظ على البحر الأسود ممرًّا مائيا يتمتع بحرية الملاحة والحفاظ على القسطنطينية بمنأى عن الاحتلال الروسى ، وهو ما يتطلب تدخل الحكومة البريطانية بطريقة مباشرة ، الشىء الذى تقوم به ولكن بشىء من التردد. وهذا هو جانب واحد من المسألة الإنجليزية – الشرقية. الجانب الآخر هو كالتالى : آسيا الصغرى محمية من إنجلترا تجاور سوريا وتعتبر جزءا من آسيا الصغرى ولكنها فى توجهاتها أقرب لفرنسا . ولكن سوريا قريبة من مصر التى تمر بها قناة السويس المحتكرة من جانب لورد بيكونسفيلد **Beaconsfield** والماركيز دى ساليسبرى **de Salisbury** فى الغرب وعلى ساحل البحر المتوسط

وبجوار الإسكندرية ، توجد طرابلس وتونس اللتان تخضعان للنفوذ العثمانى ولكنهما مثار طمع إيطاليا ويحدهما غربا الغرب الأفريقى الواقع تحت النفوذ الفرنسى. ويمكن تخمين أنه بالرغم من حلم السيد نوبار فى تحويل أرض الفراعنة إلى بلجيكا أفريقية ، فإن وادى النيل الذى صار جزءا من الطريق إلى بلاد الهند الإنجليزية لن يخضع سوى للمارد الإنجليزى المتعطش لا محالة .

الأحاديث المستمرة فى حفلات اللورد ماجور والأحاديث الأخرى غير التقليدية فى أروقة الوزارة تظهر اتجاهًا نحو ضم المزيد من الأراضى ، وهى سياسة تحاول الجرائد الإنجليزية و المراسلات الدبلوماسية الدولية نفيها - بلا فائدة - فالمسألة برمتها يمكن اختزالها فى عنصرى الوقت والمال . العنصر الأول كان فى مرة من المرات الوتر الذى يلعب عليه الروس ، أما العنصر الثانى فكان الوتر الذى يلعب عليه الإنجليز دوما .

نحن نعلم أن فرمان التنصيب سيأتى وقد تم إقراره ، ولكن غير مشمول بقانون ١٨٧٣ ، وبالتالى يتم منح حق التوريث المباشر فى حالة إقصاء الخديو السابق .

وتسعى الحكومة الإيطالية لتعطيل بسط نفوذ السلطان على الساحل الأفريقى ، وفرنسا على الجانب الآخر تشجع هذا التوجه ؛ والسبب فى ذلك هو أن ممثلها هو الذى يقع عليه عبء تطبيق الإجراءات العقابية المقررة من جانب الباب العالى فيما يخص والى مصر القديم. أرباب البنوك وأصحاب المحال التجارية الموجودون فى حى البورصة يقرضون الأموال بالربا .

كان هناك قوس قزح منصوب فى مدخل شارع شريف باشا ، وبهذا الشارع الكريديه ليونيه وكذلك مكاتب بعض البنوك ومحلات الموضة وبائعو الحلويات ، وفى ميدان القناصل كان يوجد المبنى القنصلى للجمهورية الفرنسية تحيطه عواميد الإنارة وفى مقابله فندق أوروبا الذى أنشأه الخديو ، وبالقرب منه نادى محمد على حيث يجتمع كل ليلة أغنياء المجتمع السكندرى .

فى هذه المدينة لا يوجد عمود إنارة واحد : عواميد الإنارة الخاصة بالسكان المحليين الذين لا ينامون كانت نارها موقدة على أن يتم دفع ثمن إيقادها بالشكك.

وكان عدد السكان حوالى ١٥٠٠٠٠ ساكن ، الذين امتنعوا عن الكلام فى أثناء وصول نائب الملك وأثناء زيارته لقوس القزح فى نهاية اليوم. فالإنارة تعنى فى أوروبا إظهاراً للفرحة العامة : الجميع يشارك فى ذلك . أما هنا فالوضع يختلف ؛ ففى وسط الزحام للجموع المحتشدة فى دستة البيوت المزينة بمشاعل الإنارة والتى لم تكن تضم سوى الأوروبيين لم تصدر أية أصوات للتحية . كل ما تم فى أثناء مرور موكب الخديو فى شارع شريف باشا هو إشعال الشموع بغزارة. الشىء الذى لم يكن يتماشى مع الفقر الذى تعانى منه البلاد.

هناك حدث حزين أحاط بوصول الأمير الشاب إلى الإسكندرية أثر أيضا فى الروح الغامضة التى أحاطت بهذا الوصول. ففى الساعة الثالثة والنصف من بعد الظهر : أحد الخدم الموالين لإسماعيل باشا - ويدعى إسكندر دحلان وهو سورى ومحامى الدوائر والمجلس الخاص - وقع ميتا من رصاصة أطلقت عليه واخترقت جسمه من وراء أذنه حتى وصلت إلى جبهته فوق عينيه بمسافة قليلة. الفاعل لعملية القتل هذه هو أرمنى كاثوليكى يتمتع بالجنسية الأمريكية وعاش مدة طويلة بالولايات المتحدة وتطبع بعاداتها . أصل هذه المأساة بها العديد من العبر . وأنا أرويها عليكم لأنها مثال للنظام القبيح الذى سقط . السيد م . الذى كان الوكيل المالى لوزير المالية (المفتش سابقا) كتب نشرة مالية كانت طبقا لرغبات الخديو تتحدث عما يدور فى الساحة المصرية.

وقد تم إبرام اتفاق بين حكومة نائب الملك ومحرر النشرة المالية وينص الاتفاق على أنه لفترة معينة لن تتضمن النشرة المشار إليها سوى مقالات فى صالح الأرصدة المصرية وذلك مقابل مبلغ خمسين جنيها إسترلينيا تدفع كل شهر. وسارت الأمور بصعوبة حتى موعد وصول السيد ويلسون "R. Wilson" الذى تشكك فيما كان ينشر بتلك النشرة . السيد جوليوس بلوم "Julius Blum" الذى تعرض لمعاملة سيئة فى النشرة المشار إليها قام بالإبلاغ عن الاتفاق المشار إليه وتم تعليق دفع المبلغ الشهرى. السيد م. لجأ إلى سموه فأعطاه الخديو مبلغًا من المال . ونشبت معركة بالأسلحة بين السيد م. والسيد دحلان انتهت بموت الأخير .

رسالة رقم (١٢)

الإسكندرية فى ٣١ يوليو ١٨٧٩

رويدا رويدا بدأت السياسة الإنجليزية التى تعانى منها مصر فى الانفصال عن الواقع المرير. الـ "Blue Book" لا يبغى سوى إبراز النقاط الفنية . ففى حين أجمع الجميع على حتمية تنحية الخديو فإن القوى المؤيدة لذلك لم تتحد.

١ - هل اتفقت هذه القوى على التحسينات الإدارية اللازمة ؟

٢ - هل توجد خطة لإعادة التنظيم ؟

الإجابة تكون بالنفى على كل ما سبق . نحن نريد شيئا ما ، ولكن لا نعرف ما هو . التجربة معلم كبير. نتمنى ألا تكون الأمور كما يصفها المثل الإيطالى : "الأمور العائمة تصبح مثل الثعابين".

ولكن بجوار المجموعات المالية التى تتخيل أن الخديو قد تمت تنحيته طبقا لرغباتهم ولصالحهم فيعتقدون أن إسماعيل قد سقط ، فمن هو الشخص الذى سيحكم مصر ، وما هى توجهات الحكم ؟ فمن البديهى أن يكون للحكم توجه يكون أقوى من غيره من التوجهات ويحكم هذا التوجه الخديو الحالى ، وهو رجل ليس عنده طموح أو خبرة ولن يستطيع الإعلان عن نفسه مثل سلفه محمد على.

القوى لا ولن تستطيع أن تكون موافقة على كل هذا . فبعض هذه القوى يتحرك بحسن نية حسب الاهتمام الفورى فيما يخص مسألة ما ، ولكن لا توجد قوة من هذه القوى تطالب بتفسيرات معينة ؛ لأنه بالطبع توجد أفكار مسبقة . هكذا الأمر فى الدبلوماسية. ولكن الشيء الذى لا يحتمل أية شكوك هو أن إحدى هذه القوى تعمل لخداع القوى الأخرى ، وتفسير ذلك هو ربما الاعتياد على مثل هذه الأمور ، حيث إن إنجلترا هى التى تتبوأ المركز الأول فى هذا المضمار. المعلومات نصف الأسبوعية التى يتم تحصيلها من القسطنطينية وخاصة التى تصل فى اللحظة نفسها تؤكد فحوى رسالتى الأخيرة.

يمكننا أن نرى فى الأفق فرنسا ، تتقدمها أو تتأخر عنها بقليل إنجلترا التى تدرس خطواتها جيدا. فالهدف التالى لاحتلال قبرص هو السيطرة على قناة السويس أو بمعنى أصح احتلال مصر. الصحف البريطانية كلها تعلن عن ذلك : "أصدقاؤنا الفرنسيون يساندوننا ، أى شىء آخر لا يهم" . الذى يحكم الهند يجب أن يحكم مصر، المصالح البريطانية تفرض ذلك وسيحدث ذلك.

فماذا تفعل النداءات الأخرى أمام نداء صوت الجماهير؟ للن يدوم التوجه التوسعى . فمثلا سياسة اللورد بيكونسفيلد Beaconsfield المعادية لتركيا ومصر بالإضافة إلى عناصر أخرى أثارت النزعة الإسلامية من التبت حتى المحيط الهندى ، الحكومات الأوروبية لن تستطيع أن تصم آذانها أمام نداءات العدالة ومصالحها الخاصة .

وبالإضافة إلى ذلك فإن فرنسا لن تنسى التزاماتها تجاه مصر وتجاه محمد على ، وتجاه الأمير الذى دفعت به إلى التهلكة فى عام ١٨٣٩ . الآراء قد تغيرت بعض الشىء ولكن حقوق السلطان كما هى .

وقد سبق لى أن أبلغتكم – فى رسالة سابقة – بأن الباب العالى لم يعط للخديو الحق فى إبرام الاتفاقيات الدولية . وليس هناك بعد ١٨٤١ أى قانون يتناول هذا الأمر. فقانون ١٨٧٣ الذى تتمسك به إنجلترا وفرنسا لا يسمح سوى بالاتفاقيات الإدارية الداخلية ولا شىء سواها ويترك الحق للسلطان فى إبرام الاتفاقيات الدولية التى – بالموافقة الكتابية للحكومات الأوروبية – يجب أن تطبق على مصر باعتبارها جزءًا من الإمبراطورية . وليس هناك شىء من الأحداث التى وقعت خلال الثمانية والثلاثين عامًا يمكن أن يؤدى إلى تغيير الوضع السياسى لمصر بالنسبة لتركيا ؛ فلم يطرأ جديد منذ مؤتمر لندن وإصدار فرمانات ١٨٤١ .

الفرق الوحيد الذى يمكن إيضاحه هو أنه ما بين عامى ١٨٤١ و ١٨٧٩ أثقلت مصر بديون بلغت أكثر من ١٠٠ مليون جنيه إسترلينى نتيجة سرقات وجرائم ارتكبها الخديو الأخير. هذه هى الحقائق السياسية والمادية بكل صراحة . فالابن وقد أثاره سفه الأب وتبذيره، يجلس على كرسى أبيه ضد رغبة الأمة المصرية بالرغم من أن الوريث الشرعى ابن محمد على قد تملكته الرغبة فى تحرير مصر من قيودها المالية .

والجماهير الموجودة على ضفاف نهر النيل لم تفقد الأمل بعد فى رشاد السلطان والحكومات الصديقة ، وهى واثقة بأن حقوقها ورغباتها لن يتم تجاهلها.

ففى ظل عدم وجود حكومة وعدم وجود خديو يحكم تستمر الديكتاتورية القنصلية . ورغم وجود بعض الموظفين الذين يسعون لزرع أشخاص موالين لهم الشىء الذى لم يكن ليكون له عواقب لو لم يتم السماح للعناصر السورية والأرمنية - التى نجح الخديو السابق فى استخدامها للحصول على ممتلكات كانت فى الأصل ممتلكات عامة - بالإعلان عن نفسها.

فقد قام لتوه بإبرام صفقة أطاحت بالعلاقة ما بين الحكومة وما بين المحور "نوبار - إليوت - جرين فيلد" متعهدى الأعمال الخاصة بميناء الإسكندرية و التى بلغت أرباحهم من جراء ذلك قرابة الـ ٣٥ مليون فرنك . وبخصوص المناقصة الخاصة بإنشاء مبان معدنية خاصة بالجمرك فقد فاز بها مقاول إيطالى اسمه السيد "Storari" .

رسالة رقم (١٣)

الإسكندرية فى ٢ أغسطس ١٨٧٩

إذا ما صدقنا الروايات التى يتم تداولها فى الأوساط المسلمة والمسيحية ، فالعائلات التركية التى تم جلبها فى أثناء حكم محمد على تختلف تماما عن تلك التى أتت إثر تولى الخديو توفيق الحكم . فجميع تلك العائلات تمتلك أراض شاسعة وتم معاملتها بطريقة سيئة من جانب الخديو إسماعيل الذى قام بنفى العديد منهم للاستيلاء على ممتلكاتهم ؛ لذلك فالغضب المشروع لهذه الفئة يشاركهم فيه غضب الفلاحين الذين كانوا يعملون بتلك الأراضى.

الآراء الغامضة منتشرة فى المقاطعات ، وتسيطر حالة من الوجوم فى أوساط الأمراء ما بين السادة والخدم ، وينتقد الجميع ضعف السلطان وخضوعه لضغوط القوى الأجنبية.

وأخيراً فإن توفيق الهادئ ، المتدين ، الذى يبدو مستكينا قد ورث عداوات والده وسوف يعاقب أى شخص يعاديه. والخديو الشاب - وقد تم إجباره على الخضوع لديكتاتورية القناصل - أبدى رغبته فى التنحى عن الحكم. لست ساذجا ، فبحسب المعلومات التى حصلت عليها هناك جانب كبير من الحقيقة فيما أقول . فماذا كانت ستفعل أوروبا لو أن الخديو الشاب المطيع قد تنحى .

سأسرد تفصيلا ذا مغزى . البرنس الذى تم انتخابه مؤخرا كان يقول لأحد المحليين المتمردين الذى تم استقطابه بعد سقوط إسماعيل والذى كان ينهاه : " كفى، كفى، فصعودى للحكم على كتف هؤلاء المسيحيين ، هؤلاء الأوروبيين الذين أكرههم أمر لا أُحسد عليه . أتمنى التخلص من الجميع...".

نائب الملك السابق لم يغير تنحيه إلى الخمول و الحصول على المال بدون عمل، فوراءه العديد من الأعمال . ابنه وخليفته أرسل إليه بأفضل كاتبَىْ قصر. حقيقة التنحى الإجبارى ظاهرى فقط. فمن نابلس أو من رودس أو من أى مكان يمكن - مثلما هو الحال - اعتبار قصر عابدين قد انتقل على ظهر"المحروسة".

حاشية الطاغية الذى سقط تعيد بناء نفسها مرة أخرى . رجل الشرطة الأوروبى توجه إلى مدينة نابولى الإيطالية .

ومن هنا سوف يحكم ، بلا وظيفة فعلية ، الأب بواسطة الابن ، إلى جانب القناصل العموميين الذين - حسب التعبير الذى استخدمه بحزم أحد الأشخاص المرموقين - يجب أن يكونوا من الآن فصاعدا حكاما لمصر . وأضاف هذا الموظف نفسه : يا إلهى ، ما هذا إذًا ، إن فلاحيكم المصريين أغبياء ، خلقوا ليدفعوا ، ونحن سوف نبتزهم حتى انقضاء الدين . وهذا بالنسبة لأى أوروبى ليس بالأسوأ . أنا لا أشك فى ذلك . أنا سمعت الأقاويل ، كانت بتاريخ حديث وتنبؤية .

ينضم الجنود يوميا إلى قصر الحاكم المخلوع . أحد رجال الشرطة (أوروبى) معروف بالقاهرة ، من مدرسة "لافيزون" الشهير ، توجه إلى نابولى حيث جاءت حسب الأوامر شخصية تعتبر قمة كبيرة معروفة ، ومتعددة الاختصاصات . من منا لم يسمع عن القبرصى "درانيحت باشا" تارة يكون إخصائى حمامات بخار ، أو طبيب أسنان

وصيدلى "محمد على" الخصوصى القيم على المنزل ، الوسيط والسكرتير (بدون ريشة) لأوامر "سعيد باشا" ثم رئيس أعلى للنفقات على اللهو ، ومدير فنى للمسرحين بالقاهرة فى عهد إسماعيل باشا ، تلاعب باسم عائلة بدون أى حياء باعتباره شخصا إمعة، هذا الاسم هو اسم البارون الشهير "ثينارد" . لم تتلاق قبل هذه الظواهر التى تبحث فى أصل الإنسان إلا فى مصر - القاهرة ، منذ ١٨٦٣ ، كان بها النوعية ، لأن الخديو السابق كان يهتم بصفة خاصة بمساعدة عائلات "جوزمان- الفراش" و"الفيجارو" بأى شكل من الأشكال التى يمثلونها: محاسيب، وقناصل ، مفوضون ، رجال مال ، ووزراء ، وأطباء . مصباح علاء الدين - ملكى استعاد "الكوتيون الأوربية" لوقت وجيز إلى شبه الحكومة وأكثر من زوج أحس بقوة إشعاعاته السحرية .

وباعتباره تباينًا مستحبًا وسائغًا وصحيا ، دعونى أمتعكم بما حكاه لى شاهد عيان وصل من مدينة "تفليس" عن طريق القسطنطينية . فى التاسع عشر من شهر يوليو أقامت السيدة "لايارد" زوجة السفير البريطانى فى إسطمبول ، عشاء فاخرًا لأميرات "حليم باشا" ونازلى ابنة المرحوم صاحب العظمة "مصطفى فاضل باشا" (أخو إسماعيل ، توفى فى المنفى) . بعد العشاء أقيم حفل فى أحضان الطبيعة الريفية تم إعداده ببراعة فى حدائق السفارة، يضم العديد من المدعوين ، من بينهم فى المرتبة الأولى طاقم موظفى السفارة الفرنسية . ويؤدى بحارة إحدى السفن الحربية للإس.إم.بى رقصات قومية ويغنون أغان وطنية ، وتتولى السيدة "لايارد" ترجمتها إلى الفرنسية من أجل السيدتين المرموقتين المميزتين بزيهما الأنيق . انتهت السهرة بالنشيد الوطنى الإنجليزى . وقف جميع المدعوين ، والرجال خلعوا قبعاتهم . وبعد أن تعرفت الأميرات على هذا التقليد الجديد بالنسبة إليهن ، رغبن فى أن يقفن فى زهو البذخ والمضيفين باسم الملكة يتسابقن لإثبات محبتهن الصادقة . وفيما خلا التعليم الذى ينبثق من الواقع نفسه من الأميرات المسلمات الكاملات من كل الوجوه واللائى انفصمن بإرادتهن عن حياة الحريم الخانقة حيث نشأن فيها . . ماذا تعنى هذه الاهتمامات المتكررة حيال عائلة "حليم باشا" من طرف السفيرين اللذين فى القسطنطينية ؟ وبأمر حكومتيهما الخاصة هما أهم من تسبب فى الظلم الجائر الذى تكبده آخر أبناء "محمد على" بدون مقابل . إذا قارنت بين ما قصصته عليك الآن وبين

أحاديث الأستاذ "فورنييه" التى فسرتها فى رسالتى الأخيرة سوف تجد أن المسرحية المصرية المعقدة سوف يتفاقم حجمها .

وهنا توجد أكثر من ظروف اجتماعية عادية ذلك إما من السياسة العليا المخصصة لذر الرماد فى العيون ، وإما نموذج جديد لهذا التكنيك الدبلوماسى الذى لا يفهم منه عامة الناس شيئا ، بل من حيث تصل إليهم أقوى المفاجآت دهشة وتعجبا . . وسوف نرى .

الأمير توفيق الذى لا أستطيع أن أقول عنه شيئا سافر إلى طنطا لزيارة السيد البدوى ، حيث كان يقام حتى الأمس السوق الكبير بهذا الاسم وعلى كل مسلم متدين أن يسافر إلى هناك لأداء الصلاة ، يوجد هناك مشايخ فى الدين لديهم فضيلة أن يساعدوا الزوجات العقيمات على الإنجاب ، ولولا الحر القائظ لازداد عدد النساء اللائى يرغبن فى أن يصبحن أمهات . اليوم سوف يحضر نائب الملك إقامة سد النيل وافتتاح الخليج ، قناة داخلية تروى القاهرة .

ثم بعد أن أدى الصلاة فى المسجد الكبير ليعود إلى الإسكندرية ينتظر فرمان تنصيبه حيث سيمكث حتى شهر رمضان ، وسوف يقضى أيام الصوم والعيد فى القاهرة .

ها هو البرنامج الحكومى ، كل ما هو موجود وأكثر صوابا وفقا للقرآن الكريم : الأمير لديه قصره ، والمقربون إليه وهؤلاء الذين يمتدحونه . حاشيته لا تسمح بوصول أى شىء إليه . إن توفيق لن يعرف ولن يقرأ إلا ما يريدون أن يعرفه . وذلك أقل مما كان موجودا فى عهد والده مع تعقيدات قنصلية . وبصدد اللجان المعلنة ارتسمت روح الشعب فى عريضة قدمها وغطتها التوقيعات تعارض العودة المحتملة لكل من د. ويلسون و دى بلينير ... إلخ ، وغير مرغوب فيهما هنا لأنهما كما قلت سالفًا قاما بأعمال قليلة طيبة ، ولكن السياسة فى غاية السوء ، وسوف يحدد لقاء فى هذا الصدد ولابد طوعا أو كرها من أن ندرك من الآن فصاعدا أنه بالمستعمرات وسكان ضفاف النيل تتظاهر الدول العظمى بأنها تجهل كل ما تسببت فيه من إسفاف فى العمل فى مصر بداية بالإصلاح القضائى وحتى الانتهاء بانتخاب توفيق باشا .

الشك البريطانى بالنسبة إلى بعض الحقوق السياسية خارج جزرهم الضيقة تجلت بصرامة فى المفاوضات الجماعية التى سبقت وأعقبت عزل إسماعيل . ذلك يعتبر تحدياً دبلوماسيا موجها للمبدأ الثابت للعدالة الذى لا يبرره حتى المتطلبات الاستثنائية لحق الإخضاع فى بلد عدو خاضع بقوة السلاح . كانت الهند الشرقية فى هذا الصدد مدرسة سيئة بالنسبة إلى العدل الإنجليزى الذى فقد ألوانه الجميلة تحت شمس المدارين . علينا أن ننتظر فالكلمة الأخيرة لم تُقل بعد .

رسالة رقم (١٤)

الإسكندرية فى ٩ أغسطس ١٨٧٩

مسألة الفرمان التى ثارت بسببها العديد من المعوقات بالنسبة إلى الدبلوماسية والتى فاجأت العقول الجادة والصحيحة ، هل لابد من معالجتها بشكل استبدادى وتهديدى كالذى تستخدمه الدول العظمى ؟ من الملائم دراسة الحدث من وجهة النظر هذه ووفقا لما يقال بأن الدول الكبرى تتدخل فى الشرق من أجل تحسين وإعادة بناء ما دمره الاستبداد والتبذير . إذن لابد للعدالة الملائمة والمنطقية من أن تسود عملهم قبل كل شيء ، فليس من الولاء التصريح بأن الباب العالى غير مسئول مطلقا عن العقبات التى تسببت فى تعطيل إصدار الفرمان المصرى كما يوجه إليه الاتهام بذلك .

الباب العالى قوى بحقه - الذى لا يناقش - فى أن يعين الأمير حليم فى حكومة بلاد النيل ، وكان قد عين الوريث وأعد الفرمان الخاص بالتنصيب عندما تدخلت كل من إنجلترا وفرنسا متشددين فى الظلم الواضح الذى وقع على توفيق باشا .

ومن هنا فإن المناقشات والمفاوضات التى دعت إليها كل من الحكومتين الفرنسية والبريطانية حيث دبلوماسيتهما التى يلعباها دائما لأى فرد كرها له أن يشكو منها .

والسلطان لم يستخدم سوى صلاحياته ، ولم يفعل سوى أنه كان يطبق لعائلة الأمير المخلوع نص وروح معاهدات ١٨٤١ ، مع حرمان الماكر إسماعيل باشا من حصاناته الممنوحة له منذ اعتلاء الخديو السابق للعرش .

ولا يتسنى للسيدين سالسبيرى و وادينجتون أن ينكرا مقاومات الباب العالى وأنه غير مسموح لهما بأن يجهلا عدم شرعية سياسة الادعاءات المعلنة وفقا لتعليماتهما عن طريق مندوبيهم الدبلوماسيين . لا يمكن للمرء على الأقل أن ينكر ضوء النهار ، فمن أول الواجبات لوزير الخارجية دراسة المعاهدات بنفسه .

وللأسف فإن الواجبات البرلمانية تمتص جميع أوقات هؤلاء الذين يحكمون وتحرمهم من وقت القراءة ... تحيا الأمم بنمط سريع وهى غير قادرة على أن تسمع شيئا مهما كانت تحررية ، فذلك يجعلها مستبدة ومتسلطة على مجموعة موظفى الحكومات التابعة لها ، سواء داخليا أو فى علاقاتها الخارجية . إذًا فالشرعية كانت من جانب وضع السلطان القوتين العظميين تغاضيا بحذق عما يسميه الأقوياء فى مواجهة الضعفاء تفصيلات تافهة عفا عليها الزمن ، طالبا بتعيين توفيق بالرغم من حقوق الباب العالى واستبدلا إرادتهما التعسفية والاستبدادية بإرادة السلطان عبد الحميد المؤيدة . هكذا يغمدان سيفيهما على التوالى فى ميزان العدالة .

ومن أجل التصرف هكذا هل تعطفت الدبلوماسية بأن تقول بصراحة للمعنيين وإلى الشعب المصرى إلى المستعمرات التى أسهمت بقدر كبير فى تطوير الثروة العامة فى عالم المكلفين أخيرا أسباب تفضيله من أجل طفل نشأ فى أسوأ المدارس ؟ هل الفساد الخديوى الذى أدخل شرط الوريث المباشر فى فرمان ١٨٧٣ الشاهانى له الحقوق فى الحماية الخاصة من الماركيز سالسبيرى و وادينجتون ؟ وهنا ستكون ظاهرة شرعية لن تظل قائمة أمام أصغر قضاة القرية . أما فى إنجلترا ، فالأمور بألفاظها وليست بمقاصدها . هل الحال فى فرنسا سوف يكون هكذا ؟

ها هى حال الدول المعنية عند بداية المفاوضات التى تتعلق بالفرمان . القانون النزيه مكتوب ، مقبول ومعتمد من جهة ، ومن جهة أخرى الظلم السياسى متشحا من أخمص قدميه حتى شعر رأسه بهذا القماش بنسيج جديد لخيوط خشنة من نبات هجين ينتج المصالح البريطانية التى طعَّمها السيد وادينجتون بالمؤازرة السياسية من الجمهورية الفرنسية .

وقد قلت سالفا لماذا يفضل الماركيز سالسبيرى توفيق على حليم . كل فرد يعرف ذلك لأن كل فرد يراه . ولكن ما هو أكثر صعوبة فى التعبير عنه هو : كيف أن الفكر المنير لرئيس الحكومة الفرنسية عن هذا الموضوع استطاع أن يقتنع بنظيره فى لندن ؟

وهنا يحكى ليست حكايات بل حقائق معاصرة ، التى - كما يقال - قد تجبر الحكومة الإنجليزية . سوف أذكرها لك كما هى . أمير الغال الذى يتسم بحبه لملذات العيش ورغده كان دائما مضيف الخديو السابق الذى كان يعامله دائما بطريقة أقل حرصا وأكثر عظمة ، وفى آخر رحلة للأمير فى مصر حيث قابل صاحب الفخامة أليكسبس أرشيدوق روسيا لم يتوان إسماعيل عن تقديم شتى أنواع الملذات المرهفة التى أغدق بها على هذا المسافر المرموق برا وبحرا . كانت اهتمامات الحاكم المصرى ترمى إلى بعيد . درانيحت باشا الرئيس الأعلى للإنفاق على اللهو لنائب الملك كان المنظم للحفلات . هذا كل ما يمكن أن يقال .

المعروف أن الأمراء جاحدون ولكنهم لا ينسون وعودهم ، وأمير الغال مفعم بالرقة والمحبة ، ويقال إنه سوف يتعهد بأن يحافظ لصالح توفيق - مهما يمكن أن يحدث - على شرط الإرث المباشر.

إننى أؤمن بالأعياد وقد عشتها عن كثب وأؤمن بالوعود التى لم أفهمها ، ولكن صلاة المضيف الميثولوجى هى أيضا منطقية وإن استجابة مضيفها النبيل كانت طبيعية ، بيد أنه من هنا تتعقد الحكومة أى الأمة الإنجليزية حتى اقترفت ظلما صارخا ، ظلما تاريخيا ، هناك فرق كبير.

تلك هى الحقوق والامتياز بغير وجه حق ، ولننظر الآن إلى الصفة التمويهية والمقبولة ظاهريا للجاجة الحكومتين بصدد فرمان ١٨٧٣ الذى لم تكن فيه المسألة مطلقا مسألة معاهدات دولية . هذه هى الأداة ترمى إلى اتفاقات للمصلحة الداخلية محلية وإدارية ، وتخول إلى نائب الملك الماكر اقتراض المال اللازم للمسيرة الحميدة لشئون البلد . لا شىء أكثر من ذلك عن هذا الرئيس . كيف استخدم الخديو السابق هذه الامتيازات المنتزعة مقابل دفع مبلغ كبير عن طريق دسائس السيد نوبار؟

مصر تجيب : أكثر من مائة مليون جنيه إسترلينى دين ، فدية لأمة من الطراز الأول ! إفلاس بلد غنى ، وحروب مدمرة فى الأفق ، واستعباد أهال كادحة ، وحوادث السرقة ، وحوادث القتل ، والاختلاسات والفساد ، يرتكبها المستفيد غير الجدير بمثل هذه الحصانات والذى تدينه الدول الكبرى باستدعاء الابن إلى منصب الأب .

عندئذ يتيسر إدراك أنه بدون التوسع فى امتيازات فرمان ١٨٤١ يبدو أنه قد لا يكون إسماعيل باشا هو الذى تسبب فى خراب مصر التى لم تكن سعيدة جدا إلا فى عهد حكم محمد على بمزاياه الخاصة . هذا إذًا عن دراية تامة أن الباب العالى رفض تجديدها بين أيد عديمة الخبرة يوجهها سالفا فكر الخديو المخلوع ، بل كان ذلك أيضا بوعى كامل لأعماله وآرائه عن مصر . إن إنجلترا مدفوعة بفرنسا فرضت على السلطان ظلما جائرا وشروطا لا يمكن لأية دولة أوروبية تغار على كرامتها وعلى استقلالها أن تخضع لها ، إن ما تطلبه الحكومتان المذكورتان سالفا أساسا على عكس السياسة الثابتة لكل من فرنسا وإنجلترا ، كانت تساوى بتر أوصال الإمبراطورية العثمانية بتحرر مصر وفيما بعد تنتقل إلى وساطة الملكة . من حسن الطالع أن الباب العالى ثابت وأن مديريات النيل لا تزال أكثر من أى وقت مضى مديريات متممة ومكملة للإمبراطورية العثمانية .

ويمكن حينئذ استنتاج أن هذه المرحلة لتدخُّل الدول العظمى فى المشكلة المصرية كانت مزعجة ، فحتى هذا اليوم لم يسفر التدخل إلا عن تكدر عام ورفض شديد بين أفراد شعب النيل ، الذين قرروا بجدية أن يطالبوا بتواضع بحقوقهم من السلطان .

إن الجمهور يجهل أن الشريعة المحمدية تعطى للشعب حق اختيار رؤسائه بينما هذا العرف قد يكون قد سقط فى طيات النسيان ، فهو ليس مسجلا وسوف يكون من السهل التمسك به. مجلة التايمز فى أحد أعدادها الأخيرة (يوليو ١٨٧٩) نشرت رسالة كتبها السيد آر ، سلطة شرقية فى هذه المادة المعروفة ، وصحيفة المدينة كما هو معروف تتباهى بالصلابة وبالمعرفة.

رسالة رقم (١٥)

الإسكندرية فى ٧ أغسطس ١٨٧٩

علم وحيد عرف على ضفاف النيل : تحقيق الثراء بجميع الوسائل الممكنة ، وارتداء ملابس آخر موضة ، وما بقى لا طائل منه فى مدينتى الإسكندرية والقاهرة ؛ حيث لا توجد لا أعياد ولا أيام أحد حيث التسامر كل يوم وحيث البورصة التى تعتبر بركانا للطموحات المنحرفة لا تخمد أبدا .

ظهرت دودة أيا كانت فى بعض الزراعات التى أصابتها فى تكتم شديد بل سببت ضرراً كبيراً .. إنها الرطوبة - يقول بذلك البعض (من غير الفلاحين) - التى سببت وجود هذه الآفة ، ووفقًا للبعض الآخر يقولون إن رياح البحر هى التى حملت هذه الحشرة على أوراق الشجيرة ! ولم تتطرق الآراء إلى حدود أخرى ، والحكومة التى تضطلع بما يكفيها من عمل تنحّت جانبا كما لو كانت المسألة تافهة ولا تهمها . يوجد طبيب أو طبيبان بيطريان وزوج من الأطباء الأليوباثيون وجناينى رسام للطبيعة الذين يهتمون من وقت لآخر عندما تجمعهم الصدفة تقريبا بصدد مسائل زراعية بالاشتراك مع الجمعيات الجغرافية الشهيرة فى القاهرة والمعهد المصرى للمبحث الخديوى !

ولكن بعض الديدان يمكنها أن تدمر محصول قطن يبلغ مليونين من القناطير تساوى قيمتها على الأقل ٤١ مليون إسترلينى ولم تجد هذه المسألة أى اهتمام . "ماذا صنعتم فى أوروبا بصدد حشرة الفيلوكسيرا (حشرة قمل النبات)"؟ سألنى أحد علمائنا أساتذة مدرسة مؤسسة التعليم العام الذى سلمت إليه ملاحظاتى : "أنتم لاحظتم الضرر وكتبتم كثيراً ولا شيء أكثر من ذلك لأنه لا يوجد دواء هنا فالأمر نفسه ، ملاحظات وملاحظات والباقى يسير من تلقاء نفسه" . ما هى الإجابة ؟ هل سيكون على حقٍ هذا الأستاذ الذى يضع نظارة ! إننى متخوف منه.

ومنذ رسالتى الأخيرة قمت بزيارة المراكز المنتشرة حيث تظهر هذه الدودة ، ووجدت هناك معلومة قديمة تؤثر فى شجرة القطن ، ولكن مناخ الوجه البحرى غير مناسب لها تماماً.

إنها حشرة تسمى بومبيكس (قزية من فصيلة القزيات) حجمها متوسط ، تشبه تلك التى توجد فى جورجيا (بومبيكس ميكروسيفالوس جوسيبى) (الولايات المتحدة) والتى تولدت عن فراشة ليلية لونها رمادى باهت . ونظرا إلى أنه لم يرها أحد تطير - ما وراء الطبيعة والرطوبة والرياح - أصبحت هذه العناصر محملة بالضرر . ومن بعض النباتات من هنا وهناك تم التهام ما تبلغ مساحته أكرًا أو أكرين ، أوراق وزهور وجذور (الأكر مقياس يساوى حوالى ٤٠٠٠ متر مربع). وإلى جانب هذا الخط المستقيم كأنه مسطور بحبل ولا توجد أى شجيرة مصابة ، يقول الفلاحون إنهم بذلوا ما فى وسعهم وذلك يعنى القليل . المتيقظون منهم قاموا بهز النبات بعد رى الأرض ، ورطوبة التربة مع حرارة الشمس قضيا على الدودة . لم يكن الضرر كبيرا ، ولكن كانت هناك ربما آفة تهدد ، ومن حسن الحظ أن يكون وزراء الداخلية والزراعة والتجارة (إن مصر لديها كل سلوكيات اللياقة مثل العالم المتحضر يزخرفون أحيانا بعض القوارير الفارغة) يتولون دراسة هذه المشكلة بأكبر قدر ممكن من الاهتمام . وحرصت على التحقق من ذلك بنفسى ، حيث إنه من الأمور التى تمثل أهمية كبيرة لأوروبا التى سوف تحاول - بدون شك - أن تعمل على الاستفادة منها وأن تخبركم بأفضل ما يمكن.

فى مناطق شرق الدلتا والنيل لم يكن للدودة أى أثر يذكر . أما بالنسبة إلى المحصول إذا لم يحدث شيء فسوف يكون محصولا وفيرا يثير الإعجاب، ويقدر بحوالى مليونين ومائتى ألف قنطار وفقا للأراضى المنزرعة التى أزهرت بوفرة .

إن المسألة تتعلق بامتيازين لمصرف عقارى تم تنفيذهما فى آخر لحظة لإسماعيل باشا - دون أن يستطيع هذا الأمير أن يطلب من أصحاب الامتيازات ضمانات يجب أن تقدمها مثل هذه العمليات - الأمر يتعلق بعمليات مالية لها أهمية حيوية للبلد الذى يفترسه الربا الكريه .

من جهة أخرى من المؤكد أن الصناعيين الذين حصلوا - والله يعلم كيف - على تصاريح نواب الملك باستغلال النفوذ حسب العرف مع عمال البرق بالشركات التى يهتم مساهموها بتحقيق أرباح كبيرة أكثر من اهتمامهم بأخلاقية القروض وبمصير الفلاح ،

إذاً أهمية ملحة لرفاهية البلد ، إن الامتيازات القديمة تخضع من جديد لسلطة الحكومة الحالية وإلى الانتقاد الصارم لرقابة دولية يُجرى تجهيزها وزير الخديو السابق ، الذى قام بدور الوسيط بين الطالبين واللذين أريد أن أخفى أسماءهما ، قام هنا بعمل سيئ .

عاد نائب الوزير إلى الإسكندرية فى يوم الإثنين الرابع من أغسطس إلى النغمة المزعجة باهظة التكاليف بقصف لا جدوى منه البتة ، والذى يذكر بقليل مناقشات قصر "سولوق" (إمبراطور هاييتى من ١٨٤٩ إلى ١٨٥٩ تحت اسم فوستان الأول وقد أدى حكمه الاستبدادى إلى سقوطه) إن الأهالى هم أول من يلاحظ أن أموالهم يجب أن تنفق فى وجوهها الصحيحة .

توجد علامات واضحة على تكدر القصر ، بطانة الخديو والمستعمرات بصفة عامة تشكو من تصرفات ، ماذا أقول ... يشوبها العنف قليلا من السيد تريكو فى سياسة التدخل فى شئون الغير التى ينتهجها .

إن الشعب الذى لا يملك كتابة ما يفكر فيه وما يعتقده يعبر عن نفسه أقل برلمانيا ويستعمل كلمات أكثر قوة ، هذا التدخل الجديد فى بلد الروعة سريع وزائد عن حده وجديد حتى يستمرئه شعب متحضر وعريق وله أفكاره التحررية والعالمية . إن السوء هو أن السيد لاسيل ظل فى المستوى الثانى ، ذلك تحفظ بريطانى قد يكون نتيجة لتعليمات وزارية ، ولكن لهذا التحفظ جانبه الطيب وهو التخلص من مسئولية بعض الإجراءات التى تنتقد القنصل .

يقال إن السيد تريكو ربما قد طلب من الخديو استبعاد واصف بك أحد مساعدى الأمير ؛ لأن هذا الضابط قد يبدو فاترا فى المسارعة بالمجاملة المعروضة عن طريق الحجاب عند وصول أى قنصل إلى القصر (نحن لسنا جمهوريين بعد) وإنه قد ينتمى إلى الحزب التقدمى ؛ بمعنى أنه معارض لشريف باشا الذى تحميه الدولتان العظميان الحاكمتان . . حقا هذا أمر هين ، الوطنيون يشفقون على الخديو الصغير ، على أقل فرض يحترمونه ولا يحبون فيه العنصر الأوروبى على العكس من ذلك ، من المخطئ ؟

رسالة رقم (١٦)

القاهرة فى ١٨ أغسطس ١٨٧٩

إن التلغراف عبارة عن آلة تشبه الببغاء غير العاقل ، الذى أحيانا ينقل أنباء ليس لها معنى بل تدعو للضحك ، على سبيل المثال ذات صباح جميل على الكون علم أن ذا الفقار باشا قد تم تعيينه رئيسا لمحكمة الاستئناف بالإسكندرية ! ها هو اسم جميل وبيان عظيم لم يفهم منه أحد شيئا . اسمحوا لى بأن أجعله بقدر الإمكان معقولا فى نظر قرائكم . هذا التكليف الرئاسى يشكل جزءا باهظا وتشوهات عديدة للإصلاح القضائى الذى يزدحم بها . الرئيس المعنى لم يترأس أبدا . هو تعويض عن خسارة حية سلبية وأهلية منحها اللئيم نوبار للعنصر المصرى الذى حتى اليوم لم يعرف أية أعمال طيبة من المؤسسة سوى الابتزازات التى يطالب بها - بغير وجه حق - المحامون ومحضرو الجلسات .

ذو الفقار همش أجره الباهظ والكماليات بالنسبة إلى النفقات ، فهو يتقلد الشريط الأحمر الشهير ، عريضًا ومتموجا ، الذى يضفى بهجة على صدر القاضى المستقر فى مصر وهو صدر يعلوه رأس يغطيه قلنسوة حمراء قاتمة اللون . ويظهر فى أيام الاحتفالات ، ومن أجل الختام لا يوجد رسميا إلا من أجل المظهر كما يقول الأطفال فى محاكاتهم للأمور الكبيرة والجادة فى الحياة .

الرئيس الحقيقى لمحكمة الاستئناف وهيئة القضاء قائمة وقاعدة هو الأستاذ لابينا نائب الرئيس ، تم انتخابه ثلاث مرات ليحوز إعجاب إسماعيل الذى لم يكن يريد فرنسيا أو إيطاليا يرأس هذه المحكمة ، وله نائب أو احتياطى : الأستاذ الكونت مارونيا حاكم سابق ألمانى فى مولهوز ، وبناء على ذلك نجد النمسا وألمانيا هما اللذان يديران فى بلد يغلب فيه العنصر الإيطالى والهيللينى والفرنسى وأكثر من ذلك .

وفى إحدى رسائلى المقبلة سوف أكتب بتفصيل أكثر عن الإصلاح القضائى الذى تقترب فترة اختياره الخمسية من نهايتها . إقامتى القصيرة فى هذه العاصمة

كانت مستغلة بطرق مختلفة . بعد الاحتفال الدينى صافحنى بعض الأصدقاء السابقين : موظفين فى النظام القديم الذى يمكن أن يعود غدا من جديد والذين لا يزال لهم نصف مقعد من مجالس اليوم .

وقد بدا لى ممتعا أن أحصل من الأفواه الرسمية والمخلصة (جميع العاملين التابعين لإسماعيل لم يكونوا محتالين) على تفاصيل واضحة عن بعض الرجال الذين كانت أسماؤهم حيث كانوا تنطق دائما فى برلمانات أوروبا . إذن توجهت نحو هدفى ، نحو مصر القديمة حيث أبواب مقر أثرى يرجع إلى عهد المماليك ، فتحت من أجلى وكان ينتظرنى ، استقبلنى صديقى فى السلاملك الخاص به يطل على حديقة واسعة لا تصل إليها ضوضاء الشارع ، وحيث شمس أغسطس تتسلل بصعوبة من خلال أوراق الشجر الكثيفة ، أيكة شاسعة من أشجار الأقاقيا النيلية (شجر السنط) العريقة .

وصلت وعلى وجه التحديد حيث كان رب البيت يحاول أن يترجم بعض مقالات منشورة فى مجلة التايمز التى صدرت فى أول هذا الشهر بخصوص خطاب السيد وادينجتون، وسوف أسرد عليكم شفهيا المحادثة بأصلها – عن طريق القلم – التى جرت بينى وبين شخصية لا يمكننى أن أسميها إلا هكذا والتى تتسم بالقوة والأهمية ، حيث إن كلماتها مختصرة ولكنها تحمل سمات الخبرة المحنكة التى يمكن أن تعتبر بمثابة الحقيقة ذاتها ، وبعد المجاملات التى جرى عليها العرف واحتساء القهوة خاطبنى مضيفى بدون تكليف : "ماذا يقول وادينجتون عن نوبار وإسماعيل وأمور عن مصر ؟" تناولت جريدة التايمز وترجمت بتدفق رسالة باريس والليدر صحيفة المدينة الكبيرة وكذلك رجوت عميدى المبجل أن يفسر لى سر مجىء نوبار إلى مصر . أجاب : "إسماعيل مثل أبى الهول الذى تستطيع أن تراه من هنا عند سفح الهرم ولكنه لا يخبر عنا نحن أبدا أبدا" ، فهو لم يدعُ هذا الأرمينى الذى لا يستطيع أن يسمع اسمه بدون أن يجدف. فى هذه القضية التى أجبره عليها اليهودى الإنجليزى (هكذا) عن طريق الدبلوماسية .. ليس كل ... مرتبطة بإلحاح ويلسون ومن كابو ... كيكياريا من القسطنطينية (إبراهيم باشا) الخديو السابق ، يعمل مثل الجمل الذى يحمله صاحبه أكثر من طاقته ، والحيوان يئن فى صمت ، ينهض بقدر استطاعته وهو يتألم من أجل أن يعقر صاحبه الجمَّال بقسوة

فى الوقت المناسب للانتقام .. وهنا لمس متحدثى رأسه الجميل بإصبعه فوق حاجب كثيف .. هنا اقتنعت تماماً : إسماعيل كان يعرف أن نوبار معروف ويمقته كل مصرى ولم يعمل إلا السوء ليس لأنه غير قادر .. بل على العكس . إنها الشراهة الحيوانية الجشعة التى أدت به إلى هذه العقبات. هل صوت الغراب أو غناؤه مثل البلبل الصداح؟ لا يستويان !

إن كراهية هذا الأرمينى لنا نحن المسلمين وكبرياء الفرد الذى لا حد ... له لابد من أن يتمسكوا به ، فأنثى الذئب لا تحمل كلابا . نائب الملك تركهم يعملون هو والأصدقاء الذين ينضمون إليه : هل يستطيع إسماعيل أن يرفض ما كان يطلبه منه فيفيان ولا مراء بعد الوعود الكثيرة التى يعدها شيئا فشيئا مثله هو تماما رغما عنه ؟ أنت تعرف ذلك أنت المصرى القديم .

إما كانت الحكومات متواطئة فى الخدعة السياسية وإما تعرضوا للخديعة عن طريق جواسيسهم . أنا أصدق الفرض الأول ، نعم أصدقه ، إذن كيف والحال هكذا أن لورد بيكونسفيلد والسيد وادينجتون الوزراء فى النهاية الذين يعرفون جيدا غاية بولونيا أو روتن – رو أفضل من معرفتهم لمصر ونوبار... إننى أعرف ما أقول لأننى زرت البلدين .. هل يسمح لهم حياؤهم بأن يصرحوا رسميا إلى هؤلاء الذين يلقن إليهم أن يشكُّوا فينا دائما ، وإنه باستبعاد الوزير المصلح وجه إليهم إسماعيل إهانة شخصية ؟ إن ذلك يعتبر انعداماً للشعور والإحساس وشيئًا لا يحتمل . وتلك الإهانة الصارخة التى سببها نوبار لفرنسا التى يريد أن يمشى على جثتها ، فالسيد وادينجتون هل هو فرنسى حقا لينساه سريعا هكذا ؟

الأوروبيون الغربيون ربما يعتبرون عظماء فى بلدهم ، يوجد بعضهم ولكنهم يظهرون عندنا صغارا حيث إنهم يحضرون إلى بلدنا ليفعلوا ما لم يجرءوا على أن يفعلوه فى بلدهم . إنهم يختلسون أموالنا . انظر إلى بلدهم وأخرى كثيرة ، أنتم الآخرون قد استغرقتم قرونا عديدة لتصبحوا ما أنتم عليه الآن بعد عناء ، بمعنى أنكم أصبحتم متأدبين ومتألقين علماء ورجال صناعة ، مع أنهم دائما على استعداد لأن يذبحوكم من أجل عقيدة أو فكرة .

أنتم تطلبون منا ، الهمجيين ، أن نواكبكم فى بضع سنين ، وجدونا متمردين نرتدى الملابس على الطريقة الإفرنجية التى علمتمونا إياها ونضرب عقابا لنا أو لإسكاتنا . هل هذا من العدل حقا ومن الصواب ، ومنطقى ؟ أنا أسألكم هذا بدون أى رغبة فى التخفيف من حدته مهما كانت الاختلاسات المشينة للطاغية الجشع الذى سقط . سوف نرى ما يمكن عمله ... ما سوف يعملونه بالابن .. كنت أعرف نوبار معرفة جيدة صدقنى فى ذلك ، لقد ابتلع مصر ليسلمها مهضومة إلى إنجلترا ، وفرنسا لم تحصل منها إلا شذاها (ترجمة صحيحة بقدر الإمكان من التركية) . لا يوجد أحد فى هذا البلد لم يؤله إسماعيل ولم يسمح للأرمينى بأن يتم وليمته . لم يكن نوبار الطموح الوحيد الذى وجه اهتمامه نحو مصر . خير الدين أيضا كان يريد أن يأكل منها. إذن كيف علم السيد وادينجتون ليقول إلى برلمانه : الخديو إسماعيل كان يريد أن يعين على رأس وزارته رجل معروف بذكائه الشديد ... إلخ ، نوبار باشا ! (تضامن الإنجليزية) . هذا غير حقيقى بأى حال من الأحوال أين تعرف على نوبار ؟ أحاديث الوزير الفرنسى كانت مقتطفات من ألف ليلة وليلة .

كانت صحيفة التايمز أكثر صدقا فى مقالها الأساسى . لا ترى بوضوح من خلال التدخل الإنجليزى - الفرنسى . عشيقتان جميلتان لعاشق واحد . الازدواجية التى تولدت فيه لها عواقب وخيمة . ذلك مؤكد - نراه الآن . الاختيار الإجبارى لتوفيق، سوف يحمل ثمارا مرة . هل هذه وصاية مع مستشارين متعارضين مع بعضهما ؟ ماذا فعل السلطان حاكمنا ! آه ! لم يسمح لى بأن أقول لك كل شىء . التايمز تسلم بوضوح بأنه لا فرنسا ولا إنجلترا - أصغ إلى جيدا - تعرفان ما تريدان ؛ بسبب الخطأ فى تقدير مدى قرارهما . الاثنتان تجهلان ، أو إذا كانتا تعرفان ذلك ، لا تريدان أيضا ما يجب لنا بناء على تصريحاته العكسية ، وتدخلت فرنسا من أجل مركز مربح ، المال والائتمان العقارى والنقابة . يجب أن تعرف كيف تكتسب شعبية ، وزراؤنا يجهلون هذا الفن . إذا كان بيكونسفيلد يتظاهر بأن يتبع فرنسا ليحصل على إعجاب الدائنين الإنجليز ، فى الحقيقة إن السياسة البريطانية هى التى تدفع بالقارب.

هذه السياسة معروفة ؛ إن اللورد بيكونسفيلد من أنصار الدول الصغرى والكبرى وحسب هواه رويدا رويدا . ومع ذلك فإن البحر الأحمر لا يعتبر حدوداً علمية !

ربما ينتمى إلى التوراة. السيد وادينجتون بدون الانضمام إلى ذلك، استسلم لرغبة القبول. القوتان العظميان كل منهما تخفى خداعها ، نحن لسنا فى حاجة إلى عصا ولا إلى رجال دولة أوروبيين مهرة أو ممتازين من أجل أن يصلحونا ولكى نمنحهم مرتبات أعلى من مرتب بسمارك ، وما يتعلق بمن يحكمنا أمر سهل ولكنه قضيتنا نحن ونحن مصريون مسلمون ولا نسمح بغير ذلك ، نحن نسوس أنفسنا بأنفسنا . أوروبا تريد أن تسترد مالها بغواية أو بخصومات أو استقطاعات ، النصف الكبير ، بينما النصف الآخر يوضع فى بورصة إسماعيل التى أفلتتها الدول الكبرى بعلمها مع الحقيبة . هذا صحيح سوف تحصل عليه وسوف تمتد رقابتها إلى ذلك وسوف تتوقف عنده .

وبالتوغل أبعد من ذلك أصابت بعض الحريات وبعض الحقوق التى أعلنت عنها فى وطنها أنها مقدسة وحصينة ، لماذا لا تكون كذلك فى وطننا ؟ والقفازات اللامعة والسيارات والملابس واللوكس الباريسى والأحذية اللامعة والسيدات الصغيرات ... إلخ ، التى أعطيتموها لنا من أجل أن تجعلونا متحضرين ! هل كل ذلك سوف يضيع ؟ يجب أن يكون المرء منصفا ، ومن أجل ذلك يعيش فى بيت من زجاج .

فى هذه الحقائق البسيطة والحاسمة فى الوقت نفسه نشرت بإسهاب بدون أدنى تحيز ، علما كان لابد لبعض الأحياء من استغلاله . وفى مستقبل قريب سوف يتضح الجزء الأكبر من هذه الأحاديث . استرحت من هذا الحديث من متاعب حفل الفرمان فيما عدا حرارة لا تحتمل لم تقدم أى شىء ملفت للنظر . يجب أن نذكر فى هذا الصدد أن التوبيخ العنيف من الجهاز القنصلى إلى الخديو صدر بشكل خطاب مجاملة ، هكذا يمكن للمدرسين أن يتحدثوا إلى طالب متمرد حصل على درجة رديئة وقع الجزاء على الأب فى صورة ابنه ، يعامل معاملة طفل قاصر .

وكان السيد دى مارتينو المندوب الإيطالى وعميد الجهاز القنصلى هو لسان حالهم . تحدث توفيق باعتباره طفلاً خاضعًا ، السيد تريكو يرحل غدا الثلاثاء إلى أوروبا فى إجازة ، يقال من أجل استغلال شهر رمضان الذى يقل فيه العمل . السيد لاسيل لن يرحل . سوف يحاول أن يسترد الأرض المفقودة . نائب الملك الذى كان ينوى الذهاب لزيارة السلطان قبل شهر رمضان طلب من إسماعيل أن يرسل له المحروسة ، اليخت الخديوى

الذى كان الحاكم السابق لمصر يرغب فى الاحتفاظ به كالبقية . تبادل كل من الأب والابن رسائل غير مناسبة ، وكان على إسماعيل أن يتنازل لابنه توفيق، مولاه العظيم ، الذى أرسل إليه حينئذ سفينة بخارية كبيرة بدلا من المحروسة .

الثلاثاء صباحا ، الإسكندرية ، تغيير وزارة شريف باشا ونائب الخديو شخصيا سوف يرأس المجلس . ها هو من جديد بين الشعب ، كما فى القصر إجماع الغالبية العظمى ضد الثالوث "ولسون - ونوبار - بلينير" لا يزيدهم أى أحد ، لا فى قليل ولا فى كثير .

رسالة رقم (١٧)

الإسكندرية فى ٢٧ أغسطس ١٨٧٩

إن الأحداث التى تعاقبت سريعا على ضفاف النيل تمخضت عن حالات جديدة ، كان لابد من إعطائها أسماء جديدة . كان لزاما على كل من اللورد بيكونسفيلد والماركيز دى سالسبيرى أن يبررا سياستهما الجائرة حيال ابن محمد على عن طريق بعض هذه الأسماء من القنصلية التى علا رنينها فى الخطاب الوزارى : "المصالح البريطانية" ، أمن أسرة إسماعيل باشا !

الخديو السابق شخصيا الذى لا تنطلى عليه هذه الشعوذة الحكومية التى تتكيف مع المواقف الخطيرة ومن أجل أن يزخرف انقلابه السياسى ، ابتكر الحزب الوطنى فى ذلك الوقت بمثابة نواة تشكُّل أولىّ عند شعب لم يستشر هذا الأمير أبدا إلا بسخرية شديدة من المؤسسات النيابية الغربية .

بعد عزل إسماعيل بعض العقول الشابة طموحة أكثر من خبيرة ، حاولوا أن يطعموا فكرة الحزب الوطنى الموجود حاليا فى الحقيقة ، بفكرة حزب مصر الفتاة الذى لا يوجد مقره إلا فى تصور رؤسائه شديدى الندرة . الكلمات يطرب لها السمع ، لم يدركها الفكر دائما ، حيث لا تصل بالطرق المختلفة للنقد والتفكير .

لكنه أكثر خطورة كذلك أن نترك نظريات متطفلة تتأقلم فى أحضان بلد يجرى فيه التجديد ، خادعة أو لم تعرف بطريقة صحيحة ولم تذعن لها الجماهير إلا بسهولة كبيرة لكتاب التورية الاجتماعية ، متألقة وخاوية من المعنى فيما عدا الخطأ ، عدم وجود إحصاء جديد ، تعتبر مصر شعبا إسلاميا زراعيا متجانسا ، يبلغ عدده خمسة ملايين نسمة على الأكثر . بعض قرى قبطية تتلاقى فى الصعيد (مصر العليا) من حيث خرج أفضل كتبة حسابات فى الحكومة المصرية . مع احترام الدين ، الأقباط مثل الفلاحين لم يكونوا سوى أهل البلد الأصليين . الإسلام لم يصل إليهم . وفيما عدا ذلك الأصل هو نفسه والعادات هى العادات نفسها .

مدينة القاهرة ومدينة الإسكندرية بهما مستعمرات مكونة من الرعايا الأوروبيين من اليونانيين ، الهيللينيين أو رعايا عثمانيين جاءوا من الأرخبيل أو من آسيا الصغرى ، ومن السوريين المسيحيين من الذين جذبتهم ضفاف النيل بأعداد كبيرة ليدخروا فيها ثروة .

هذا الجنس الأخير قاس ، كادح ، مرن ، لين ، ذكى ، لكنه مجرد من الدقة والتدقيق ، تزايد هذا الجنس وتضاعف بإفراط منذ الانفتاح للتجارة الداخلية . اللغة العربية هى لغته وكان ذلك بالنسبة إلى السوريين أحد الأسباب الرئيسية لنجاحهم ، هذا النجاح كان العنصر اليونانى ينازعهم فيه بحرارة ؛ لأنه هو المنافس العنيد الذى لا يهدأ فى جميع المجالات .

واعتبارا للوطنية - مصرية - هذان الجنسان لا يتوسل ولا يتضرع ولا يستشهد كل منهما بالآخر ، بل على العكس . أما السورى فلا يعرف سوى الربح ، حالما ببلده مسقط رأسه. وأما اليونانى العثمانى فيهيمن عليه الهيللينى - إذا تسنى لحمى الكسب إتاحة الفرصة له - الاثنان مثل الأرمنْ ومسيحيين شرقيين آخرين ، يكرهون المسلمين الذين يودونهم. إلى جانب هذا الخليط الملغم والمرائى المتظاهر بالتقوى من الحواريين ، يا للأسف ! متدينون عن المسيح بحق ، يستغلون أهالى مصر المزارعين ، وتوجد فئة قوية من الرعايا اليهود ، مكرسين لنفس الأعمال .. بل من المؤكد مساوين لهم ، إن لم يكونوا قد تجاوزوهم فى قدراتهم المتنوعة عن طريق منافسيهم عباقرة الصليب .

بعض العائلات الشرقية – يهود وسوريون – يحتلون حاليا فى مصر مركزًا مرموقًا نسبيًا ، يقوم على قاعدة متينة أساسها هذه الثروات المدهشة (الأثرياء وأمراء المال) ثمرة فاسدة للعمليات – مصرية – التى أدت إلى فقر الفلاحين المدقع بسبب الربا الفاحش ، واستنزاف الخزانة المصرية .

إذا كان معظم هؤلاء محدثو النعمة الأقوياء، من الجيل الأول ، من الأميين تماما ، فهم يمتلكون أجمل دواب الجر ، وأمهر الخدم ، والعربات الفاخرة التى تجرها الخيل ، المزخرفة بالشعارات . جميع وسائل الرفاهية البرية المألوفة لديهم . زوجاتهم يرتدين القبعات الأنيقة ، والفساتين اللصيقة بأجسادهن وتجر أذيالهن على الأرض . فى بيوتهن ، من أجل إبراز ثرواتهن ، يقتنين جميع وسائل الترف والأبهة حسب آخر موضة ، بإفراط وزيادة عن الحاجة ، بدون الذوق السليم ، رغد العيش ، عجبا ! شىء ما غير محدد فى عالم لائق يصعب الحصول عليه بالمحاكاة .

أخيرا البعض من هؤلاء أمراء المال حصلوا على ألقاب نبلاء إيطاليين ونمساويين ، جميعهم فى حماية أو متجنسين أوروبيا . يمكنك أن تحصل على أى شىء مقابل مبلغ كبير من المال الكثير ، كذلك بعض اليونانيين نجحوا فى أن يقدموا فى داخل القنصليات الأجنبية ، والهدف الأصلى لأصغر هؤلاء القوارض هو الحصول على الحماية السياسية من أية دولة أجنبية مهما كانت . إذن فليس عندهم أى إحساس بالوطنية المصرية .

إن أبناء هؤلاء الأثرياء أكثر ثقافة من آبائهم ، ذلك لا يعنى الكثير . زوج أو اثنان من بينهم درسوا بطريقة ما فى باريس أو فى أى بلد آخر ، واثنان أو ثلاثة حصلوا على ليسانس الحقوق . عندما كان إسماعيل باشا يستعد لتهريب – من دائنى مصر على رأس أعضاء عائلته الكثيرة العدد – الأموال التى حصل عليها بغير وجه حق والتى تشكل أمواله الخاصة استدعى إلى جانبه اثنين من ذوى الخبرة المتمرسين مستخلصين من العنصر الآنف الذكر ، من أكفأ الذين يصدرون سندات الملكية القانونية ، وفيما بعد قدمهما إلى الوزراء المصلحين باعتبارهما مراقبين مقربين للحضارة الأوروبية .

هذا النوع من التحرر يلفت الانتباه إلى الأعضاء الجدد، الخديو السابق الذى كان يعرفهما جيدا ، لم يتركهما لينتشيا؛ لأنه بعد الانقلاب السياسى أقال من موظفيه هؤلاء الذين كانوا يبالغون فى المناورات السياسية من وزارة نوبار - ويلسون وشركاه ، وجد توفيق الأمور فى هذه الحالة عند تنصيبه . الأمير الصغير عديم الخبرة متردد وبدون وصاية لم يهتم مطلقا بهذه الغيبيات التى لم يكن يريدها أى شخص فى مكانة عالية ، ولكن الذين يتسللون إلى صفوف بعض الزملاء المسلمين هم شخصيا تقريبا مرتبطون بصفة خاصة بورثة الأثرياء الحاكمين .

هذه النواة الهزيلة للحكام الذين لم ينضجوا بعد ، ترى أن أوروبا لن تسارع بإقامة حكومة فى مصر ، ومن جهة أخرى لا تحظى بأى تعاطف فى البلد ، فاتخذت هذه النواة لنفسها اسم "مصر الفتاة" ، وهددت بالتشهير بمزاياها عن طريق إحدى الصحف بالإسكندرية التى استنكفها بعنف المعتمد الدبلوماسى الفرنسى .

وها هو بإيجاز بقدر الإمكان ، المهد ، والطبيعة ، والحالة والعناصر لحزب سلبى دعته الصحيفة المعنية بوقاحة مصر الفتاة ، والتى يرتبط بها نوع من الماسونية جاهلة ومضللة على عدم المساواة والتى لحسن الحظ لم تقم بأى تبشير فى الصفوف الشعبية الزراعية الطاهرة لأى عدو من هذا النوع .

إن الخطر الذى يمكن أن يهدد مصر معروف فى الظروف الحالية ، من أمثال هؤلاء المذهبيين (الأيديولوجيون) إذا كان بوسعهم أن يصلوا إلى خطة مقررة وخاصة إذا توصلوا إلى تجنيد مسلم واحد جاد وقادر . ولكن السكان النيليين يعرفون أصدقاءهم وأعداءهم فهم لا يعهدون بمهمة حكمهم إلى بارونات ، أو إلى كونتات يهود أو مسيحيين ولا إلى من هم تختلف جنسياتهم وألوانهم مثل الأرمن أو الأوروبيين والشرقيين من غير المحمديين أو إلى القليل جدا من الوطنيين والمصريين . ولما كان جوهر الفلاحين هو الإسلام فهم لا يريدون أن يحكمهم ويسوسهم إلا من هم من أترابهم ويدينون بدينهم . هذا هو حقهم القدوس وهم لهم تنظيمات مختلطة إلى حد ما فرضت عليهم بصفة تجربة . بالإضافة إلى ذلك ، عندهم نموذج محاكم الإصلاح التى يتطوع أعضاؤها فى جميع بقاع الأرض ، مشكلين جهازا مكونا من صفات لأجناس متباينة تماماً ، مدعوين لتحقيق العدالة الحقيقية لا غيرها ، التى تكون دون حياديتهم وطبيعتهم .

العنصر النيابى المكون من الجنسيات التى تقدم ذكرها والذى سبق وأن التهم بعض الآلاف من الأكرات (أكر : مقياس للأراضى الزراعية يبلغ حوالى ٤٠٠٠ متر مربع) عن طريق الربا الفاحش ، سوف ينتهى بامتصاص مصر قاطبة إذا لم تتحرك الحكومة المصرية وتفرض نظاما حاسما يحميها - الأهالى المسلمون الذين لو كانوا قد اعتقدوا فى مصر الفتاة لكانوا بلهاء ، والتى أميط عنها اللثام اليوم فلن يتوانوا عن إدراك أن مؤازرتهم لم تسفر إلا عن أن كدهم وعناءهم كان لمنفعة الغير ، هذا الغير أنانى وجشع ومناهض للمصريين .

لم تكن المسألة على ضفاف النيل مسألة مصر الفتاة أو مصر العجوز . لابد للبلد من أن يكوِّن حزبا وطنيا قويا ويكون أعضاؤه كالبنيان المرصوص يشدون من أزر مستأجر مزرعة فى بقعة من أثرى بقاع العالم - هذا المزارع - الخديو ، لابد أن يكون من اختيار العاملين فى هذا الحزب نزيها وجديرا كما هو حال الأمير حليم ، الذى عند الاقتضاء كان أول واجب عليه أن يمحق الربا الفاحش وأن يقضى على استغلال جهود الفلاحين الكادحين .

إن السفراء والقناصل العموميين ليسوا جمهوريين بطبيعتهم . أبعد من ذلك ، الملبس المزركش والقبعة المثلثة بالريش توصل إلى الأرستقراطية بل غالبا إلى الإقطاع . نائب الملك السابق ، الشهير بجاذبيته للدبلوماسيين وللقلوب كان فى احتفالات العصر الذهبى الخليعة قد وافق على إعفاء السكك الحديدية للعاهرات المعروفات والمقيمين الدبلوماسيين ، وعائلاتهم وملحقيهم ، بحيث أن البعض والبعض الآخر كانوا يتوجهون من أجل شعب طيب من القاهرة إلى الإسكندرية وبالعكس ، بكل صراحة وبدون أى إخفاء .

وإلى جانب من لهم الحظوة فى النهار وحلاقون فى مقر المراسلين كثير من رجال البنوك الأحماء والدساسين ومرابين يقرضون بفوائد أسبوعية تدفع دفعة واحدة أو يوم بيوم (ويطلق عليها الأسبوع الكبير والأسبوع الصغير) يتمتعون بالامتيازات نفسها ، وفيما بعد عندما يتطلب سر الملهاة أن يظهر أمر الخديو فوقعت كلمة الاقتصاد كوقع

الصاعقة فى وسط النسور الشبعانة التى كانت واثبة على جثة مصر الهالكة . إسماعيل – إذعانا للرأى العام – حذف بعض امتيازات النقل ولكن القناصل العموميين تم إعفاؤهم ، وفى الوقت الذى كانت فيه تخصيصات السفر ممنوحة بسخاء للدبلوماسيين عن طريق حكوماتهم المختصة ، هؤلاء الموظفون سعداء الحظ عملوا بصلف وبوقاحة على أن يحجزوا لأنفسهم مقصورات بأكملها لكل منهم (وفقا للإعفاء) عندما يقوم أصحاب السعادة بالتنزه بين العاصمتين ، بحيث إنه إذا رغب فى نصف دستة من بينهن أن يرحلوا فى اليوم نفسه ، وفى الساعة نفسها ، لتجنب أية مواجهة تكون أحيانا مكدرة ومضايقة من أجل وسائد متشابهة ، ألفت المصلحة نفسها مضطرة إلى أن تزيد من عربات القطارات حتى ترضى الجماهير ، هذا ما حدث لخادمك بينما نجد أن مقصورتين لا يشغلهما سوى مسافر واحد مرموق.

رسالة رقم (١٨)

الإسكندرية فى ٣١ أغسطس ١٨٧٩

تشير آخر الأنباء التى وردت من المدعو "مصووا" رغبة صاحب السعادة "جون كرا" فى إنهاء الخلاف بين مصر والحبشة بإرجاع الإقليم المتنازع عليه إلى الحظيرة الملكية . وهنا حديث المنتصر وجيش الخديو هزم ودمر . هذه البرقيات قد وضعت توفيق فى حالة ارتباك ، وجورديون باشا كان قد عاد من دارفور بعد أن فشل فى مهمته ، أرسل إلى مصووا ليتفاوض حول تسوية مرضية للطرفين إذا تسنى ذلك .

وبوسعى أن أنبئكم أن نائب الملك الصغير سوف يرحل إلى القسطنطينية ثالث أيام العيد الكبير ؛ أى تقريبا ٢٠ سبتمبر مع العائلة جميعها : نساء ، خدم ، إلخ . ونؤكد أن صاحب الجلالة لن ينسى هدايا السلطان وأفراد عائلة حاشيته ، القهوجى باشى (الذى يعد قهوة السلطان وهو موظف له مكانة قوية عند البادى شاه!) ذلك كان ضروريًا ، توفيق لم يستطع مقاومة رغبة زوجته ، ألحق بالحريم فى السفر مصففة الشعر ، فتاة كانت بغيا فيما مضى فى القاهرة ألمانية الجنسية ومتزوجة من فرنسى يسمى

جينييه وكان يتمتع بمكانة مماثلة . هذه الموظفة لها حظوتها عند الأميرات ، وأضيف على وجه السرعة : لم تعمل من قبل عند أية عائلة من العائلات الكبيرة . النظام القديم مستمر !

إذا كان من الضرورى إثبات - بدليل قانونى كما يقال فى القصر - الفراغ الفعلى الذى سبق وأعقب الطامة الإسماعيلية قد توجد فى الخطب التى ألقيت حديثا بين جدران البرلمانات الفرنسية والإنجليزية . لن أعود إلى تناول المناقشات التى جرت فى قصر فرساى ثانية والمرافعة الغريبة للأستاذ وادينجتون بصدد مساندة السياسة الفرنسية - المصرية ، لقد حدثتكم عن الأثر الذى أسفر عنها هنا ، حيث إن الشعب قد أصابته الدهشة لإدراك القليل من الأهمية التى أبداها مجلس النواب الفرنسى فى مناقشة تدور حول موضوعات ربما فرنسا شخصيا تعلنها بصفة أكثر خطورة . ولا يمكن أبدا - وذلك حقيقى - أن يطلب من وزير خارجية ديبلوما فى علم موحى به فى هذا الزمن ، زمن السياسة المتعجلة ، متقلبة ، تتناول كل شىء فى توازن مع المعرفة المطلقة التى من متطلباتها الصلاحيات لثلاثة من الرجال ذوى المكانة الرفيعة لهم رأى واحد لن يكفى مستقبلا .

العيب الوحيد فى هذه المسائل الخارجية هو الضعف الذى يتعلق بالكفاءات العليا المحملة فوق طاقاتها بالعمل المنتخب الذى يعاملهم بوجهة نظر الأفراد والأشياء ، لعالم غريب، مجهول تقريبا .

إن الهدف الرئيسى لأحد الوزراء خاصة حيال السياسة يبدو أنه ما سيقوله على المنصة وليس ما سوف يعمله أو يقرره فى حكومته . كل شىء يتحول إلى خطاب . الأساس هو تقديم أى شىء مموه . الشعب وفقا لرأى لورد بروجان يذعن لبلاغة الخطيب مثلما يذعن للمال . إفساد طبقات الشعب بالخطب أقوى من إفسادهم بالذهب .

كتب السعدى يقول : أعطنى عشر مغالطات منطقية وسوف أصنع منها مائة حقيقة ، شريطة أن تتناقل فى كل مكان . البرلمان الإنجليزى بفضل استجوابات قوية قدم رأيا جادا ، إذا لم يكشف عن تبحر فى المعرفة أكثر منه فى قصر فرساى متناولا

المسألة المصرية من حيث مجرى الأحداث تدل على الأقل على رغبة صادقة فى الوصول إلى الحقيقة . السير "ج. جولد سميث"ينتقد بشدة سياسة إنجلترا المرقعة والمتكتمة . فهو يثور ضد زعم القوتين العظميين "الصديقتين"بفرض وزراء أو عاملين حكوميين أجانب على مصر .

إن الثالوث "نوبار - وويلسون - ودى بلينير" الذى لم يحقق أبدا أى إصلاح أظهر حججه ، استنكر بصفة خاصة أخيرا عملية حدثتكم عنها من الأساس ، إنها غير قانونية وغير أخلاقية : قرض روتشيلد - أميرى (والذى مات أميره قبل الموعد) ، الذى يصفه هكذا : "تصرف لا مثيل له ويتعذر تبريره" . دين ليفى به دين آخر .

فى الواقع ، السادة : "كاف" و "ويلسون" كانا يعرفان منذ ثلاث سنوات أن الثروة التى يمتلكها الخديو وأفراد عائلته من أموال ثابتة ومنقولة ، بخلاف الأموال الموروثة المعروفة ، كانت ثمرة الابتزازات والاغتصابات التى كان يمارسها . وكانوا يعرفون ، مثل أى أحد آخر ، أن الناتج الصافى للقروض المحولة بأسماء مزورة كانت قد دخلت خزانة إسماعيل المزدوجة بدون أى استثناء . يعرفون كل ذلك وأموراً أخرى ، هل يمكن أن يجهلوا هم والحكومات التى كانت مكلفة بإعلام أن صورية الدائرة وقعت فى المحظور ، لتفسح المكان لحقيقة واضحة كالشمس ، معرفة أن : خزانة عامة لأموال شائعة تكونت عن طريق الاحتيال مكونةً أصل مجموع الديون المتفق عليها عن طريق ازدواجية الخديو باسمه الخاص وباسم عائلته وباسم مصر أصبحت قانونيا معلقة تجاريا وماليا .

لا توجد بعد حصانة لأمير أو لحاكم . أوروبا أمام مفلس بسيط ، أو أمام مفلس ، الذى ماله ، طبقًا للقانون العام ، لا يمكن لا إجمالا ولا مجزءا أن يختلس ، فيما خلا بعض الامتيازات القابلة للمجادلة ، لأن أصلها تعسفى . دائنو الخديو والدولة يصبحون دائنى مصر ، وهم على قدم المساواة . إذن ، بأى حق ضمن السيد د. ويلسون لقرض لا أمل منه ، بالأموال التى تسمى أموال الدائرة ، للرئيس روتشيلد ، وبأى زيف للفكر السياسى توصلت فرنسا وإنجلترا إلى ضمان فائدة لما يسمى قرض غير شرعى وغير أخلاقى ؟

هذا هو ما فاته أن يسأل عنه الرجل الشريف "ج.جولد سميث" ، والذى لا شك فيه أن صاحب النزوات والمحتقر اللورد "بيكونسفيلد" لم يفسره له .

هذا الوزير الكبير الذى من المحتمل جدا أنه قرأ "السعدى" ، يكتفى بتبرير حبه "لنوبار" ، ليس بسبب الصفات المتنوعة لهذا الأرمينى الشهير ، الذى يجهل اقتراحه الأول ، بل لأنه وجد فى هذا الشخص شديد الطموح والمكر صديقًا مدفوعًا من إنجلترا ، ومستعدا لأى شىء . وذلك يعنى – إذا لم أكن مخطئا – أنه عدو لفرنسا . والآن سوف تنبثق المشاكل بسبب السياسة الحمقاء التى ازدرت حقوق حليم فى العرش من أجل أن يستبدلوا به دمية الأسرة للتنصيب ، والذى بذلت من أجله الكثير من التوصيات السياسية ولكنها راحت سدى . توفيق بالرغم من اللقاءات العجيبة التى نشرتها "التايمز" وبذل فيها عبقرى الجريدة "مراسل خاص" جهدا كبيرا ولكن هباء ، لا يدرى بمن يلوذ مختفيا بين حريمه ، ينـدب حاله ، يبكى ، أجـل يبكى بحرقة لأنه لا يشعر فى قرارة نفسه بأنه كفء لمنصب رجل دولة وأن استبدادية الدول الكبيرة الصديقة ورغبات والده تثقل كاهله ويرزح تحت وطأتها فكرة الوجل .

إن المعلومات التى فى حوزتى عن حياة الأمير الخاصة تسمح لى بأن أحدثكم عن مخاوفه المستديمة بصدد المسألة المالية . ماذا سيقول الناس – يتساءل هكذا بحسرة شديدة عدة مرات فى كل يوم – عندما يعرفون أن والدى اقتطع واستولى على موارد مصر العادية لمدة عامين ! عن المسألة المحلية التى أثيرت بين مدير الجمرك ، السيد "اسكريفينور" ، ومراقب الجمرك السيد "أرشيه شى" ، "توفيق" بفضل التدخل المباغت فى شئون الغير من طرف القنصلين. توفيق ، يعنى الحكومة المصرية التى تدفع ، والذى فى مقره يمثل فى نهاية المطاف السلطة المختصة ، أصابه الهوان لرؤية أن الحل هو لجنة أوروبية مؤلفة من قسمين متساويين .

هل يمكن تصور فوضى أكثر وأخطاء دبلوماسية متراكمة ! الخديو المسكين سوف يحسن صنعا بطلب نشر – بجريدة لوستاندار – أنه عندما يضطلع بالرئاسة لمجلس الوزراء تأكد باعتباره حاكما لمصر من كفاية البلد الذى – وفقا للمراسل الرومانسى للصحيفة السالفة الذكر – قد يرسل إليه على وجه السرعة أكثر من مائة من المشايخ المهنئين . لا شىء يفيد .

الحذلقة التلغرافية قد خدعت الجماهير وأسفرت عن نتيجة عكسية . الخطر المتفاقم للحالة الراهنة فاجأ أكثر المتفائلين . فهو يكمن فى استبعاد أحد الأمراء الناضجين ، جاد وعملى ؛ حليم الذى لم ترغب فيه إنجلترا وأنه نكاية فى الجميع إذا استطاعت الحكومات أن تبدو عادلة بتغلبها على أنانية غيورة واضحة إلى درجة كبيرة وكان يجب التذكير قبيل ذلك .

إن الوقت الضائع فى هذا المقال عن الجود يعتبر تضحية غالية الثمن لأنانية السياسة البريطانية حتى إن إحدى الصحف الكبيرة ، لسان حال هذه السياسة وهى التايمز ، لم تتمالك نفسها عن أن تعترف كما سبق بأنها تمخضت عن نتائج تدعو للأسف . وترى صحيفة "لاسينيه" أن هناك ضرورة ملحة إلى رقابة بدون أى تجديد حكومى .

ولم تذكر أية كلمة لصالح "اللعبة" التى عود النفوذُ الإنجليزى الخديوية عليها ، والذى أوى إلى المؤازرة الفرنسية . وبالنسبة إلى من يفهم خطوات "التايمز" المتعرجة ، فإن الكلمات القليلة التى ذكرتها فى مقالها الرئيسى بتاريخ ٢١ من الشهر الجارى وغير اللائقة للأمير حليم – من السهل أن ندرك أنه ليس فقط الإمكانية بل أيضا الاحتمالية ، لعودة صاحب الفخامة إلى القاهرة ، فى غضون مستقبل ليس ببعيد .

وهذا الاعتراف النصفى نجم كذلك عن المعارضة الهائلة التى أثارتها السياسة الإنجليزية فى مصر ، أنه عن الاقتناع بكراهية الوطنيين النيليين باستمراء تفاهم يقوم على أساس هش ، ولا شىء مطلقًا حدد تطوراته ، وحله الوحيد المشرف ، والذى غاب عن إنجلترا ، ظل بين يدى السيد وادينجتون ، بمؤازرة سبق الحصول عليها من قوتين عظميين أخريين .

وكان من الممكن اتهام الحكومتين النشيطتين بمساعدة الخديو على الإفلات بمبلغ خمسة عشر مليونًا إسترلينيا (بدون احتساب الملحقات) التى استبقاها لتوفر له الوسائل التى تساعده على مساندة السياسة بالذهب الذى بحوزته ، سواء فى القسطنطينية أو غيرها ، من حيث خرج توفيق فى القاهرة لا تتكدروا من الحديث عن ذلك ، أنا سمعت ذلك أكثر من مرة .

وهنا تعريض من أهم التعريضات التى تقتضى عدم الثقة بالأحداث :

دار الحديث كثيرا منذ بضعة أيام عن احتمال استبدال السيد "كوتون" ، محام ، بالسيد "تريكو" ، نتعشم أن تكون هذه الشائعة لا أساس لها من الصحة . المحامون لا ينالون قسطا كبيرا من الحب هنا حيث يكثرون مثل البعوض . فى سويسرا وفى الولايات المتحدة بأمريكا الشمالية أحس الأهالى بضعف إلى حد كبير بأنهم أصبحوا فى الحكومة . إذا كان التمثيل الوطنى فى الخارج لابد أن يمر بأيديهم فكان لابد من توقع حدث طارئ لا تحب الشعوب الحرة أن تتحين فرصته .

وهنا يوجه اللوم إلى بعض الشخصيات الكبيرة فى باريس أو فى فرساى بالإصغاء أكثر من اللازم فيما يتعلق بمصر لأصدقاء السيد ف. دى ليسبس ، الذى لا تزال تصرفاته فى أثناء حفر قناة السويس فى ذاكرة الشعب . وجه التوبيخ ، بوجه حق ، إلى السيد د. ويلسون لأنه لم يجر تحقيقا إجباريا مع المحرك الشهير الذى أثقل كاهل مصر ، بلا جدوى ، بمبلغ ٣٠٠,٠٠٠,٠٠٠ (ثلاثمائة مليون فرنك).

أخيرا نتساءل فى حينه ، لماذا لم يستأنف التحقيق المالى - الذى لم يقم المكلفون به على خير ما يرام - مرة أخرى . لابد من التوصل إلى الحقيقة على عجل ، هل هذه ملهاة أخرى سوف تُضم إلى سابقاتها ؟ إن مصلحة المساحة المشهورة التى بدونها لا يتم أى شىء صحيح، ولا يسرى أبدا . وإليك إلى أين وصلت : رئيسها ، الجنرال الأمريكى ستون الذى لا حاجة لنا به ، ولكنه لا يريد أن يرحل ، ويقتصر على أن يسأل موظفيه عن خط سير العمل . مرءوسوه العاملون ، جنرال أمريكى باشا ، السيد بورى ، مهندس معمارى إنجليزى ، ومثله كذلك يونانى ، أجابوه بأنهم يروون ظمأهم بالصودا والبراندى ، أثناء انتظارهم الآلات الدقيقة التى تنقصهم ، وكذلك الكثير من نواقص أخرى ! بمثل هذه الوسائل ، سوف تتمكن المساحة من إنهاء العمل فى غضون أربعين عاما . ولكن الجو حار جدا ! إذن علينا أن نصبر .

رسـالـة رقـم (١٩)

الإسكندرية فى ٩ سبتمبر ١٨٧٩

كنت قد اقترحت أن أرسل إليكم نبأ على قدر كبير من الأهمية الدبلوماسية ، ولكن المعلومات الصحيحة التى أعمل دائما على الإحاطة بها ، لم تصلنى بعد . لا شك أنكم تتذكرون أنه فى إحدى رسائلى فى شهر يوليو ، أعتقد ، قمت بإعلامكم أن باروبيه المستبعد لوصول نوبار كان قد أعيد إلى منصبه مع زيادة فى الرتبة حسب طلب السيد فيفيان ، وأضيف : "ما يثبت أن العميل الإنجليزى لم يكن معارضا للانقلاب السياسى الذى كان على علم به" . وهو كذلك ، ومن المؤكد أن باروبيه فى حوزته رسالة من السيد فيفيان مؤيدة تماما للحدث الكبير الذى يقرر مصير إسماعيل ! إذن ، أين هم المذنبون وما عددهم؟

فقد أميرنا نائب الملك الشاب علبة أثناء سفره الأخير من الإسكندرية إلى القاهرة . وكان ما تحتويه العلبة له أهمية مزدوجة : أزرار لامعة غالية الثمن، وذلك لا يهم كثيرا ، وأوراق خاصة على جانب كبير من الأهمية ، مثل رسائل أبوية مرسلة من نابولى ! كانت هناك حادثة سرقة . أخطرت الشرطة بعد مرور وقت طويل ، وبالرغم من الإجراءات التى قام بها مفتش المباحث على نطاق واسع ، لكنه لم يتوصل لشىء . تأثر الأمير تأثرًا شديداً بذلك .

كما أن المسألة المصرية تتضخم وتتفاقم ، ثمرة فاسدة لتسامح آثم للحكومات الأوروبية لمدة خمسة عشر عاما من المناورات الخديوية الواضحة كضوء الشمس !

وجه السيد جوليان جولد سميث رسالة إلى جريدة التايمز نشرتها فى عددها الصادر يوم ٢٣ من الشهر المنصرم . الكاتب شخص جاد : علم من مصادر وثيقة ، ويمكن تصديقه عندما قال ، مكررا التصريحات الساذجة للسيد ستافورد نورث كوت : وجب علينا أن نتبع فرنسا ، عندما وجدت هذه القوى العظمى أنه من الملائم اعتناق السياسة الغريبة التى تؤدى إلى عزل الخديو ... من أجل إنقاذ الدائنين ، وإلا ، فسوف نجد أنفسنا فى عزلة . ورويدا رويدا تتضح المعالم . عندئذ ينتهى السوق الأسرى ،

إليك أنت: إسماعيل كالراوند (دواء من أعشاب طبية يساعد على الهضم)، ولنا توفيق ، السنا (نبات تستعمل ثماره للإسهال) . دواءان لكل منهما تأثير مختلف ، سوف نراه قريبا . فى هذه الرسالة الهادئة والرزينة ، لابد أنهم فى باريس سيجدون أفضل الأعذار لتغليب السيد تريكو على تعيين السيد بلينير . ها هو ما يقدمه عضو البرلمان النزيه بصدد السيد ريفرز ويلسون ، وما ينطبق طبيعيا على زميله سالف الذكر : الوزير ويلسون – دى بلينير كان مكروها شعبيا فى مصر ، وأن الشعب الثائر ضد إسماعيل ، امتن لعزل هذا الطاغية الذى كان رغبة الجميع . قال الشعب حينئذ : لماذا يفرض علينا فرنسيون وإنجليز مع دفع مبالغ طائلة ، من عرقنا ، بينما نحن نموت جوعًا ، وترهقنا الضرائب بسببهم ومن أجلهم !

ومن جهته ، السيد ديساى ، ناشر جريدة "الأوبزيرفر" ، فى رسالة إلى جريدة "التايمز" ، يهاجم بمزاج متكدر واضح ، براهين النزيه ج . جولد سميث ، الكاتب العنيف ، بعد أن قدس حميمه "نوبار" ، أله السيد ريفرز ويلسون ، اللذان معه شخصيا "جيزون" جديد كانا فى طريقهما للوصول إلى الجزة الذهبية (جيزون بطل أسطورى ميثولوجى ، مغامر ، يواجه المخاطر للحصول على الجزة الذهبية) ، الجديرة بهؤلاء المغامرين المشهورين .

تستفيد إنجلترا بمهارة من أولادها المزعجين ، والمسئولين تقريبا . ذات مرة منذ فترة، يقولون الحقيقة ، وهم متجردون دائما من ثوب الكهنوتية الضيق ، ثوب الدقة والشرف السياسى. لم يتضايق السيد إى ديساى . كان يريد أن تحتل إنجلترا مصر . نظرا إلى أن السيد بلينير قد أعيد إلى مصر ، سوف يتعلم الشعب الفرنسى بدهشة أن هذا الموظف – جمهورى بقدر ضئيل على ما أظن – سوف يهتم بصفة خاصة بترفيع الجيزويت على أرض الفراعنة .

وكان نائب الملك السابق منزعجًا دائمًا بسبب إلحاح الوزير الفرنسى لملاحقته بكثرة الأسئلة ، فقد قال ذات يوم فى دائرته الحميمة :"هل السيد بلينير وكيل للجيزويت ، أم موظف مصرى ، ليحاصرنى مساء وصباحا من أجل امتيازات أراض يجريها فى هذا النظام !" .

لست أدرى ما إذا كان ما أرسله إليك ، وكذلك موضوعات أخرى لا تعتبر هنا سرية بالنسبة لأى شخص ، كانت أو لم تكن معروفة فى باريس . الحقيقة المادية تظل : تعيين رجل مكروه لدى المستعمرات والشعب النيلى ، يقترن اسمه بأسوأ أيام تاريخ البلد المعاصر ، أخيرا عنف ، وذلك من أخطر ما يمكن ، حدث لشعور وكرامة توفيق . يجب على فرنسا ألا تهتم بمثل هذه الانتصارات التى مهما كانت يسيرة ، لا تتمخض عن أى شىء طيب . وفى هذه الحالة ، جميع المستعمرات مع السيد تريكو والبلد .

كيف سيدفع كوبون شهر نوفمبر ؟ هذا هو السؤال الذى يطرحه المهتمون لأنفسهم . ويمكن إعادة السؤال بصيغة أخرى : سوف ندفعه ؟ أعتقد أننى قد أعلمتكم بأن بعثة جوش - جوبير الشهيرة ، بظلمها الجائر ، أعلنت أن خزانة الدين الموحد سوف تمول الدين الممتاز فى حالة عجز دخل السكك الحديدية ، بالتكملة اللازمة . حسنا وبعد ! تبعا للمظاهر هذه هى قائمة المهنة (وهو السمك الصغير الذى لا يحتاجه الصياد ويلقيه من الشبكة إلى الماء ثانية) حاملة الدين الموحد ، الذى سوف يدفع الفروق ؛ حيث لا يوجد إلا القليل جدا فى خزائن الدين الممتاز . أجرب حظى فى التكرار لأن ذلك فى الحقيقة أهل للتقدير . فى فرنسا ، غير معروف أبدا بما فيه الكفاية ، بلد الشرعية بجدارة ، إلى أية درجة من العنت القاهر أدى اتفاق جوش - جوبير . إسماعيل مقترضا من جميع الجهات - وبأسماء وبأعذار متنوعة - ملأ خزانته الخاصة ، بعد أن زود بالكثير أو بالقليل إنشاء السكك الحديدية وأعمالاً أخرى عمومية.

وبسبب أقسى ارتباك من الارتباكات التى تسبب فيها ، اغترف من خزانة الدولة لزيادة دائرة أملاكه الخاصة وكذلك أملاك عائلته . ومن ثم - كما يحدث دائما بالإفراط فى سوء النية - تعاقد على ديون ؛ تهربا من دائنى مصر ، اجتهد فى تسميتها عامة أو خاصة . ولكن من حقيقة هذه البلبلة المعدة انبثقت حقيقة شرعية كل شىء كان بصفة عامة معلوم أو مجهول . حيث يوجد غش ، يسقط الامتياز المنصوص عليه . سكك حديدية ، ضرائب ، أملاك خاصة وأملاك دولة ، كانت الضمانات الحقيقية المقدمة حسب القانون للدائنين ، إلى الجميع ، سواء ديون سائرة أم لا .

عظيم ! يأتى بعد ذلك دور السادة :"جوش" و"جوبير" اللذان ينظران إلى الموضوع بنظرة مختلفة . كان الموضوع بالنسبة لهما يتعلق بحماية مصالح الحزبين ، الفرنسى والإنجليزى . وتم توقيع اتفاق يبعد الجميع لصالح حملة قرض السكة الحديد ، أنشئ - بجرة قلم - الدينُ الممتاز بالامتيازات التى سبق إيضاحها . إذن فلا تندهشوا إذا كانت أسماء هذين المفاوضين المتحكمين - وأكرر - هما أيضا مكروهان شعبيا هنا ، وهذا ينطبق كذلك على هذا الثالوث : نوبار - ولسون - دى بلينير .

الأهالى المصريون لهم منقذ مرموق وهو توحيد جميع الديون وتحويلها إلى دين واحد بفائدة مقدارها ٥٪ مع عودة جميع أموال الدولة الخديوية (فيما عدا القنية "وهى الأموال القاصرة على كسب الزوجين" والأموال الثابتة أو المنقولة والموروثة) . وأية محاولة تصفية أخرى ستفشل ؛ إما ظالمة وإما يصعب تنفيذها . والبلد قد فاض به الكيل . وتقهقر إلى الوراء عامين ، وإسماعيل يقتطع منه بقدر ما يستطيع .

وتتفاقم الحالة العامة للسياسة الأفريقية - البحر أوسطية ، إسبانيا فى مراكش (المغرب) ، وإيطاليا فى تونس ، يبدو التحرك فى اتجاه تحقيق الضم (أى ضم الدول الصغيرة إلى الدول الكبيرة) الذى يعتبر خطيرا على السلام .

هذه التعقيدات المستقبلية سوف تكون تقريبا متجنبة تبعا للمسألة المالية المصرية ، سوف تكون منتهية تقريبا ، إعادة - وعلى الوجه السرعة - المزرعة النيلية إلى أعمالها الزراعية نفسها، مع إبعاد الكأس المر عنها، كأس الذرائع والحمايات الإدارية الدولية ، ذئاب حقيقيون فى المرعى ، لابد أن تكون الهدف الوحيد الدول الكبيرة ، إذا كانت أهدافهم شريفة حقا . الخديو الصغير يشكو من الضغط الذى يمارسه عليه العنصر الأجنبى .

قبرص هل هى ملكية بريطانية ؟ إجابة : حكومة جلالة الملكة أمرت حديثًا بإصدار عملة خاصة لهذا الضم التهجينى .

رسالة رقم (٢٠)

القاهرة فى ١٢ يوليو ١٨٨٠

يعتبر لغوا بل يكون ظلما إذا نحن أنكرنا التغيير الكامل الذى حدث فى الوضع العام للبلد منذ عزل إسماعيل . تحررت الزراعة من سوء استخدام السلطة والابتزازات من كل نوع ، والتى كدست خزانة الخديو الخاصة بضعف الأموال التى كان يجب أن تذهب إلى الخزائن العمومية ، بدون أن يعلم المكلف ضريبة النصاب أو الوقت المحدد لجمعها .

وهنا ، بلا مراء ، خطوة كبيرة نحو النظام الذى كان من حق مصر أن ترنو إليه . للأسف ، يبدو أن شبه المحمية الإنجليزية الفرنسية توقفت لأنه وفقا للقوى العظمى التى ترعاها مصلحة الدائنين التى سببت التدخل الأجنبى ، يقال إنها لن تطلب شيئا آخر . إن مثل هذه النتيجة غير قابلة للتسليم بها ، ولابد من أن نتعشم خيرا من أوروبا التقدمية ، إذا كانت إنجلترا حقا تريد أن توفق بين أقوالها وأفعالها .

ذات مرة ، قال رجال السياسة فى هذه الأمة ، وكانت الجمهورية الفرنسية تحاكيهم : إن التدخل الأوروبى على ضفاف النيل سوف يقتصر على تنظيم وإيجاد حل للعقبات المالية التى خلفتها سياسة إسماعيل ، وتزويد البلد بنظام إدارى جيد ، جدير بأن يحول دون عودة أى نظام ممقوت .

بهذه الكلمات التى وثق بها أهالى ضفتى النيل المصريون ، واعتبروها بمثابة تعهد مهم ، لم تدرك الأمة أى شىء آخر سوى المعنى الواضح ، ولكنه محدود .

وكذلك روح الشعب ، هل هى متخوفة اليوم بدرجة كبيرة من التصرفات التى تعنى أن الحكم الذاتى الإدارى لمصر - سياسى فيما بعد - يتجه إلى أن يصبح تبعية بريطانية ، بالرغم من تطلعات الوطنيين للكلمة الشعبية : مصر للمصريين .

وفى هذا الصدد، سوف أدخل فى لب المسألة ، مصورا الموقف الحالى فى شقين . الخديو يوقع على ما يطلب منه أن يوقعه . فهو لا يملك ولا يحكم ، التصور الدستورى

البريطانى مجهول هنا . وبالأمر ، يجوب ولاياته من شرقها إلى غربها ومن شمالها إلى جنوبها. نزهاته الميثولوجية تكبد الوطنيين مبالغ باهظة ، وكانوا مجبرين أن يعبروا عن ضيقهم ، الخزانة ، لابد من أن تدفع نسبة من المصروفات .

فى الحال بعد نائب الملك يأتى رئيس لمجلس الوزراء ، الذى يمثل السلطة التنفيذية بلا وظيفة واقعية مع نظراء له لا يسألون إلا شكليا . إلى جانب ذلك ، قد يكون من الأفضل القول بأن فوق هـذه السلطة التنفيذية ، توجد الحكومة الحقيقية لمصر ، فى شخص المندوب الدبلوماسى للملكة ، مع مساعد قلّما يسمع صوته فى حالة الرغبة فى بذل ما فى وسعه ، وهو يمثل فرنسا .

وبشكل تبعى - فى بعض الحالات - توضع الرقابة ، التى عنصرها الإنجليزى ليس له أن يشكو ، وإليه ترجع الفروع الملحقة لصالح الدين ، كالجمارك ، ومكاتب البريد ، والسكك الحديدية وفقًا للمرام لزمن طويل ، ومهما كانت تضم بعض الوطنيين بمثابة تعويض عن الخسارة المتفق عليها على مضض بروح الهيمنة . نقول عن ذلك : رياض باشا لا يكن أى تعاطف نحو فرنسا ، ولكنه ربما قد يحس ببعضه نحو إنجلترا ، ولما كان يستمد مكانته كخيال مآتة من هذه الدولة الكبرى ، وأنها هى التى حفظته من مزاحمة نوبار المهمل حاليا فى لندن ، فإن رياض يخشى ألا ينال إعجاب ورضا رؤسائه ، فاكتفى بأن يرهب الوطنيين أهل البلد بصدد كل ما هو بعيد كل البعد عن الحماية البريطانية وعملها ، حتى تهتم به .

وكان للأسف يوجد قانون يسمى قانون "المقابلة" - قانون شهير كان قد أصدره إسماعيل - يضمن فيما عدا بعض الامتيازات ، إعفاء إلى الأبد من نصف الضريبة العقارية للملاك الذين يدفعون ضرائب ست سنوات مقبلة ، وتعهد رياض برقابتها .

المكلفون الذين بموجب هذا الاتفاق الملزم للطرفين دفعوا للخزينة ١٢ مليونًا إسترلينيا، احتجوا على هذا الظلم ، وطالبوا بمثابة السبيل الوحيد الباقى ، بأن يتقاضوا ما دفعوه مقدما ، سواء نقدا أو بسندات لها ريع . [جاء فى موسوعة تاريخ مصر للدكتور أحمد حسين الجزء ٣ ص ١٠٢٣ ، ١٠٢٤ : "دين المقابلة" : يتلخص مشروع المقابلة الذى أصبح بعد أن تحقق يعرف بدين المقابلة فى أن تصدر الحكومة

المصرية قانونا تعد فيه ملاك الأراضى الزراعية بأنهم إذا دفعوا ضرائب ست سنوات مقبلة دفعة واحدة أو على أقساط متتابعة "وهو ما يساوى ديون مصر" فإنهم يعفون إلى الأبد من نصف ضرائب الأطيان . وتتعهد الحكومة بألا تزيد سعر الضريبة على أطيانهم فى المستقبل وألا تطالبهم بأى سلفة مؤقتة ولا يجوز للحكومة أن تصدر على الخزانة سندات للقروض أو تقترض ديوناً جديدة ولو تحت ظروف قاهرة إلا بعد التصديق على ذلك من مجلس شورى النواب وأن تخصص المبالغ المتحصلة من دين المقابلة لتسديد ديون الحكومة] .

وقد انتهزت الحكومة فرصة انفضاض مجلس شورى النواب لتصدر هذا القانون : وكانت هذه كلها وعود وعهود كاذبة يعرف إسماعيل المفتش ومن ورائه إسماعيل باشا أنه لا يمكن التقيد بها ولو لعام واحد ... واستطاعت الحكومة بهذا الأسلوب حتى آخر السنة (١٨٧١) أن تجنى خمسة ملايين من الجنيهات ... إلخ .

لم يهتم رياض بشكواهم وأمر بحبس العديد من الذين وقعوا على شكاوى مقدمة إلى السيد ريفرز ويلسون ، رئيس لجنة التصفية نفسها ، دولة داخل القوتين أو القوى الثلاث التى تحكم مصر .

العديد من هؤلاء المواطنين المساكين تم إيداعهم سجن القلعة بالقاهرة ؛ لأنهم تجرءوا ذات مرة وقاموا بما يعتبر فى باريس ولندن شرعياً ، ويحدث يومياً . ما هى إذن هذه الحماية المختلطة ، التقدمية ، الأوروبية ؟

منذ بضعة أسابيع ، كان هناك اجتماع للأعضاء الرئيسيين للحزب الوطنى فى القاهرة . وكان الاهتمام فيه ينصب على دين المقابلة ، وتكوين مجلس نيابى معتدل ومستقل ، وعن رى الأراضى بالمبادرة الأهلية ، وعن كل شىء ، وهنا تكمن مسألة اليوم : وتمثيل الفلاحين والرعايا الأوروبيين أمام محاكم الإصلاح القضائى ، لأن هذا الطغيان غير العادى قائم فى مصر بتسامح، إن لم يكن بإرادة ، القوى العظمى الحامية . على العنصر الوطنى أن يطالب بالعدالة أمام محاكم تابعة لرياض ، والتى لا تعرف معنى العدالة والتى عند الضرورة لا تجرؤ على أن تحكم بها .

جدول الأعمال سالف الذكر لم يعجب السيد ماليت المعتمد البريطاني الذى يسخر منه علنا ، ولكنه لم يتوان عن تحريض رئيس المجلس على أن يتخذ إجراءات لازمة إنجليزية تقريبا من وجهة نظر الماجنا كارتا التى تلقاها رياض بحماس . الذين يعتنقون هذه الأفكار الشرعية حقا تم نفيهم إلى النيل الأبيض فى الداخل مشتتين أو محددة إقامتهم فى قصورهم ومقار إقامتهم الصيفية ، أخيرا جواسيس من الأهالى والأوروبيين – إنى أخجل من كتابته – يأخذون معلومة ، عند باب هذه المقار سيئة العلامات ، زائرون نادرون لديهم ما يكفى إلى حد ما من الشجاعة لمصافحة أصدقاء قدماء .

سعادة شريف باشا صهر المرحوم سليمان باشا (الفرنسى سيف) وترعرع هو شخصيا فى فرنسا ، الوزير السابق ، يلزم فيلته فى المحمودية تحت رقابة مشددة ، بالقرب من الإسكندرية. راغب باشا وزير سابق ، رجل يقدره الجميع ، فى الهم سواء ، فى القاهرة .

وإنه ليس منهجيا أن أبلغ عن حكم الإدارة الإنجليزية فى مصر ، حيث يسود إحساس المصرى بمصريته أكثر مما كان يسود الاعتقاد . السيد ماليت يحكم ويدير ضمنا وفقًا للتعليمات التى يتلقاها ، التى حسب وجهة النظر البريطانية لا تختلف مطلقًا عن تعليمات حكومة بيكونسفيلد . البارون دى رانج الذى لا نستطيع أن نمتدحه كثيرا ، يعترض من ناحيته على العمل المستغرق ، مضاعفا بقوة سلبية كبيرة ، لنظيره . أحيانا رياض يوضع بين هذين القطبين لا يعرف إلى من منهما يخضع . فرنسا تخالف إنجلترا التى لا تحتاج إلى الرجوع إليها فى لندن والتى غالبا ما تغضبها ، بعد أن تقر بعجزها عندما تطلب إرشادات من باريس. بالإضافة إلى ذلك ، ماذا يكون رد هذه العاصمة عادة ؟ "دع الأمور تسير ، مسائل التفاصيل لا تهمنا" .

وها هنا يكمن الخطر ، هذه المسائل المزعوم أنها تفاصيل وأن البارون دى رانج يعرفها ويميزها جيدا ، وهى على وجه التحديد تلك التى بمساعدتها مصر ، مفككة ومقسمة إلى قطع من الأراضى الزراعية ، يستغلها العنصر الإنجليزى ، سوف تسقط شيئا فشيئا بين براثن الأسد البريطانى .

رسالتى القادمة سوف تتناول هذه المسألة المهمة .

رسالة رقم (٢١)

الإسكندرية فى ٥ أغسطس ١٨٨٠

بعض الاستثناءات اليسيرة ، المندوبون الرئيسيون لأجهزة الصحافة الفرنسية فى مصر يجمعون على انتقادهم لعمل ريفرز ويلسون ، رئيس لجنة التصفية . لن أتحدث عن الصحف المخالفة فى الرأى ، والتى صنع مراسلوها من أنفسهم ، منذ البداية ، أبطالا ، ليس للدولة الفرنسية ، بل للذاتيات التى تنتمى إلى الجنسيتين المديرتين أو الحاكمتين ، وتشغل مركزا فى مراقبة الدين العام وتنظيمه . وهؤلاء لا يقدمون سوى آراء شخصية ، تكون تقريبا متعارضة دائما مع الحقيقة الملزمة ، والمصالح التى تتعلق بتنظيمها والدفاع عنها .

أوضحت لكم كذلك منذ قليل ، أن قانون التصفية هو ، من ناحية ، نتيجة لتقارير حررت مسبقا خرجت من مكتب المراقبين ، ومن جهة أخرى ، تعليمات خاصة أصدرها جوش إلى ريفرز ويلسون بخصوص التضحية بكل شىء من أجل الدين الممتاز ، هذا السفير الموافق للمقام ، يعتبر مع أصدقائه ، أكبر واضع يد . هكذا يفسر الاتفاق المسمى "جوش – جوبير" الذى فيه الاسم الأخير يمكن حقا أن يسحب ، لأن فى هذه الحالة ، قام المندوب الفرنسى بمنح امتياز لزميله الإنجليزى ، الذى طالما وعده بذلك ، مع احتمال العثور على وسيلة ليتملص من وعده ؛ حتى ولو أن حاملى هذا القرض تسلموا ثورا بدون أن يقدموا فى المقابل حتى ولو بيضة لترضية ضحايا الاتفاق المشئوم [أى أنهم تسلموا الكثير جدا ويجب عليهم بالمقابل أن يقدموا ولو القليل ترضية لضحايا الاتفاق]. صحيفة "دى ديبا" و "الأوبزيرفاتور" اللندنيتان ، عندما يمجدون الرجال ، لابد منطقيا من تمجيد العمل .

لسوء الحظ ، وكما فى أى قرار متخذ أصدروه بدون أى اعتبار للبلد أو للمصالح التى تم التضحية بها . ويسفر عن ذلك أن تقييماتهم المديحية لعمل لجنة التصفية ، تغفل المضمون من أجل الشكل ، يمكن أيضا أن يطبق فى اليابان كما يطبق فى مصر.

كل فرد يعرف أن صحيفة السيد إى ديساى تنتمى إلى زمرة لطيفة لاحتياطى النقد وإلى رجال ذوى شأن فى أمور المال المشبوه من الإنجليز . ولكن ما كنا ننتظر أبدا أن نرى صحيفة كبيرة فى باريس تكون تابعة لزميل بريطانى يسلك الدرب نفسه .

إن إثبات عقائد أى نظام مهما كان ، يتطلب قبل كل شىء دراسة وافية للأجهزة الحكومية التى تتعلق بها إيرادات الميزانية .

المعروف أنه بالرغم من قوانين اللباقة الدولية والرشاد وعن الضغط الذى يمارسه جوش فإن الجمرك والبريد والسكك الحديدية واستدراكا النشاط المالى ، كل ذلك وضع تحت أيد كلها تقريبا إنجليزية تماما .

كان ذلك ضروريا لهذا الرجل المالى الحذر؛ من أجل أن يحافظ على سلامة مصالح عشيرته . رأينا فعلا رؤساء هذه المصالح المتنوعة ، البعض جاء من مصلحة صينية أو هندية، والبعض الآخر جاء من عمل غامض إدارى فى إنجلترا جميعهم بكل تأكيد فوجئوا بأنهم رأوا أنفسهم ارتقوا – ولا نعلم كيف – بدون أى استحقاق خاص – إلى قمة السلم الوظيفى ، ولكن إجماعا مبتهجين باستبدال رواتب الموظفين المرءوسين برواتب وزراء على حساب رجال متواضعين وأكفاء من الذين تزخر بهم القاهرة والإسكندرية .

والآن سوف أترك الحديث عن الجمرك ومكاتب البريد ، ولن أهتم إلا بتناول خطوط السكك الحديدية المصرية بالحديث ، والمغطاة بعناية بحجاب سنحت لى الفرصة برفعه جزئيا . بادئ ذى بدء ، تفهمون جيدا الوضع العام الذى خلقه نظام الحماية ، كما كان يسميه باختيال السيد إى ديساى ، فى القرن التاسع عشر "حمايتنا الإنجليزية على مصر". وزارات يزينها وزراء مصريون ، وطنيون ، يحكمهم رياض شكليا ، أما بالنسبة إلى فروع الدخل العام الأربع الرئيسية ، تستقبل سريا الإرشادات من الحكومة البريطانية ، موحيات ، وا حسرتاه ! نادرا ما يكون لديها الوقت لتقف على ضفة نهر السين ! وبعبارة أخرى دولة إنجليزية هجينة ، كل ما هو موجود قليل ما يصطبغ بالصبغة الفرنسية ، فى الدولة المصرية ، التى قليلا ما يحترم فيها الشعور الوطنى . ذلك بالنسبة إلى النظام .

وصلت بذلك إلى العمل ضمان خطوط السكك الحديدية مخصص للدين الممتاز ، يستتبع طبيعيا - نظرا إلى العنصر الأجنبى الذى يحكم - الذكاء ، الاقتصاد ، توريدات تمت فى أفضل الظروف الممكنة ، سرعة ، تحسينات ، وكذلك أعتقد انخفاضًا كبيرًا فى عدد حوادث الطريق .

عن النقطة الأخيرة ، يجب أن نكتب "صفر" ، لأن كل يوم يقع حادث . فى شهر يونيو وقع ٢٦ حادثا ، مسلم بها بتقرير رسمى . سرقات البضائع تحدث كثيرا فى الخطوط الجنوبية ، أما بالنسبة إلى التحسينات ، فلا تحسب ، بالرغم من جهود رئيس مصلحة المعدات واللوازم ، مهندس إنجليزى رجل خبير وحقيقة فى قمة مهمته .

وفيما يتعلق بالاقتصاديات ، ها هو المدير الإنجليزى ، يتركه زميلاه يعمل ، فرنسى ومصرى ، هذا الأخير لا يجرؤ على أن يفتح فمه ، اشترى فحم نيو كاسل فى باريس من أحد الوكلاء كانت عليه التزامات قديمة له ، وتزود من لندن بزيت للتشحيم ، عند أحد أقارب الوسيط سالف الذكر، سلم بضاعة مجهولة وسيئة . إذن ، فحم سيئ ، وشحم غير صالح للاستخدام وبأسعار باهظة ، استقلالا عن النتائج المخربة لهذه الدسائس التى تسمى فى إنجلترا "مضاربة مشبوهة" .

البقية تأتى .

مزيد من المناقصات التى توفر أفضل الإمدادات وعملا على إحياء التجارة المصرية؛ مواد ولوازم فى المرتبة الثانية أو الثالثة، وتوفيرات زهيدة فى جميع المجالات . لماذا ؟ من أجل ذر الرماد فى العيون ، لدفع الكوبونات بكل دقة لئلا يكشف عن قصده عندما يضحى بالضمان ، أى خطوط السكك الحديدية ، التى بفضل تطور الملاحة بالبحر الأحمر ببرزخ السويس وكذلك تطور الملاحة إن آجلا أو عاجلا فى نهر النيل ، سوف ينتهون برؤية دخولهم تتناقص بدرجة كبيرة . مجموعة إليوت ، وإيستون ، وسويزلاند وشركاهم ، كانت تتحرك بتبصر عندما طالبت بامتيازات السكك الحديدية ومياه الشرب فى مصر ، امتياز الملاحة النهرية بطول مجراه ! يا له من احتكار يحتوى على تبر ! بإيجاز اقتصاد بل تقتير رحيم وتوجيه بإرادة أحد العاملين العائدين من الهند والتصرفات الغريبة ، ولا يستطيع زميلاه معارضته فى أى شىء ، وذلك لا يقل غرابة .

على العكس المديران الأوروبيان ، أحدهما فرنسي والآخر إنجليزى ، يتقاضى كل منهما ٨٠,٠٠٠ فرنك (٣٢٠٠ جنيه إسترلينى) سنويا بينما نظيره المصرى الذى - باعتراف الجميع هنا - يتمتع بخبرة أكبر منهما ، لا يتقاضى سوى أقل من الثلث بقليل فى هذا البلد الجميل . ولكن التوفيرات قبل كل شىء !

ماذا بوسع الوزراء أن يفعلوا فى هذا الصدد ، لا أقول الخديو ، الذى لا يُعتمد عليه مطلقا . لا أقل منك أو منى أنا ؟ فى لندن وباريس يبغونه هكذا . قال جوش ذلك وكتبه . نتيجة مباشرة : محاباة تعيين الأقارب و "الحبايب" ، فى الرقابة ، وفى المالية ؛ تعسفات وإهمال عام عن طريق الصحف المدعومة ، بدون عمل أى اعتبار لموضوع الطوارئ . حاملو الدين الممتاز من الفرنسيين أو الإنجليز ، يجب أن يطالبوا به بدون تأخير ، مع مهندس خاص ليديره .

رسالة رقم (٢٢)

المنصورة فى ٤ سبتمبر ١٨٨٠

تحريت لتوى عن وسائل الرى الرئيسية فى الوجه البحرى ، بداية بالنهر نفسه الذى يجرى ويروى فى جميع الجهات ، بأمواجه الحمراء الباهتة ، حتى قنوات لها أهمية محدودة ، وقد أدركت الصلابة النسبية لجروف النهر ، بعضها حصن متأخرا ؛ سيكون من الصعب مقاومته للفيضان إذا تعدى خطه العادى .

فى مدينة زفتى يوجد تشقق غير خطير حوالى ٢٠٠٠ أكر (الأكر يبلغ حوالى ٤٠٠٠ متر مربع) مزروعة قطنا وذرة ، كانت قد غمرتها المياه . بصفة عامة ، تم اتخاذ الاحتياطات اللازمة ، ولكن يبدو لى أن هذه الاحتياطات غير كافية إلا من أجل نيل متوسط الفيضان . إنه حساب خاطئ أن يقوم الدفاع هكذا ضد أقوى الأعداء المجهولين الذى لا يقاوم . فى الواقع الرياح الصيفية الموسمية تحت خط الاستواء وبين المدارين ، تتابع بنظام ولكن لا تتشابه .

إذا هطلت الأمطار غزيرة وبدون توقف تمتلئ البحيرات والنهر ، فى هذه الحالة ، تتزايد بانتظام حتى إنها ربما تتفاقم ، بدون أن تسبب خسائر كبيرة . وإذا كان

العكس يهطل ماء السماء فى نوبات متقطعة ، بواكير ، متأخرات ، حينئذ الفيضان ، بعد أن يتزايد بقوة ، يتوقف بقوة ، المستوى الذى وصل إليه الماء ينحسر ثانية ، لكى يرتفع فيما بعد بغتة ، تجرى فى جروف سائلة تقاومها السدود التى لم تختبر ، بطريقة غير آمنة. تلك هى الكارثة، لأن محاصيل القطن، والذرة، وقصب السكر لم تُحصد بعد .

أحيانا يتوقف النيل بدون سبب ظاهر فى منتصف الفيضان المناسب كثيرا ، يظل منخفضا ، ولا يغذى قنوات الرى إلا بكميات غير كافية . إن النكبة لا تظهر الآن ، لأنها تمتد إلى محاصيل الصيف التى تحتاج إلى مياه كثيرة والسنة ليست فقط سيئة ، بل التالية ، حتى ولو كان النيل غزيرا ، فسوف يتأثر بجفاف السنة التالية . نظام النهر معروف ؛ الإعداد له معيب . كانت مصر القديمة مغطاة بقنوات طمرتها الآن التقلبات التى وقعت على مر العصور ، لماض تعرض لصروف الدهر التى أدت إلى انحسار الرقعة المزروعة ، وقلت الأعمال .

وحتى مع الفيضان المتوسط ، فإن نظام السدود الموفق ، يغذى بحيرات وقنوات المخزون ، كان قائما اعتبارا من الشلالات ، كانت مساحة السهل النيلى كلها يمكن ريها بدون أن تؤثر على منسوب مياه النهر . آنذاك كانت هناك وسيلة لإضافة على الأقل مليون أكر للخمسة ملايين (تقريبا) المزروعة حاليا جيدا .

وتبعا للتراث الزراعى فإن الفيضان الجيد يسجل على مقياس النيل ٢٥ ذراعا بالنسبة إلى الوجه القبلى ، و ٢١ بالنسبة إلى مصر الوسطى ، و ٢٠ بالنسبة إلى الوجه البحرى مع ثبات المستوى لمدة ٢٥ يوما . منسوب الماء فى القاهرة ، أثناء أقوى الفيضانات يبلغ ٧٠٦,٠٠٠,٠٠٠ (سبعمائة وستة ملايين) متر مكعب (عدد كامل بدون كسور) كل ٢٤ ساعة.

هذه الأرقام – وذلك مفهوم – تتعرض لتغييرات ترجع إلى درجة التبخر والامتصاص . ومن المحتمل كذلك أن الكميات الموضحة أعلاه ، سوف تصبح تدريجيا ، أدنى حد للفيضان بالارتفاع الحساس الذى يتعرض له مجرى النيل ، الارتفاع المستمر لحبيبات الطمى الأكثر ثقلا، التى تتخلص بثقلها من الموجات المنصبة فى القنوات ، أو بأية وسيلة أخرى لرى الأراضى الواقعة على ضفتى النهر .

بصدد هذه التطمية والإخصاب الواضح والطبيعى لمجرى النيل ، ينبغى علىَّ أن أذكر رأى أحد الرحالة المخالف وهو السيد لاموت ، وصل إلى مصر منذ بضعة أيام لا أعرف كيف جاء لنا بنظرية غير قابلة للتسليم بها، أو بتطبيقها ، فى بلد نيلى . هذا العالم يدعى أن الأنهار الكبيرة تصرف فى المناطق التى تجرى فيها ويستنتج أنه على المدى الطويل ، سوف يجفف الأراضى التى يخصبها صناعيا اليوم .

ولكن على وجه التحديد أنه مما لا يقبل المناقشة فى بعض جهات الكرة الأرضية ، حيث يتناسب الشكل الخارجى للبلد مع نظام السيد لاموت ، لا يحتمل حتى المناقشة هنا ، حيث انحدارات السهول الغرينية تدحض ادعاء العالم السالف الذكر ، الذى لا شك أنه لم يقرأ أعمال "لينانت دى بيلليفوند باشا" ، أفضل القدرات فى هذه المادة .

إن آخر الفلاحين يعلم أن الانحدار الذى يؤدى بالنيل إلى البحر المتوسط تظهر فى الاتجاه الجانبى لمجراه ، انحرافات كثيرة بقدر الزاوية المستقيمة . أقول لكم إنه فى كل مكان ، منذ أن زرعت هذه السهول ، حيث حفرت آبار السواقى ، على أبعد مسافة من أراضى النهر المزروعة ، على عمق نسبى ، تصل ماء النيل من خلال طبقة الرمال الأصلية ، بكمية متماثلة ، وبسرعة معلومة.

إذاً أين صرف مصر عن طريق النهر ؟ تلك هى على الأرجح النظرية العكسية التى سوف تستدرك ، وإن ملاحظتى أقل من متباينة . الآن يبدو لنا أنه من الضرورى تقسيم مياه النيل من حيث إنها ستدفع مستقبلا ينبغى أن نتعشم فى رفاهية البلد وتحرير الكنز من أجل أن تكون مصر لمصر .

اسمحوا لى أن أحدثكم عن نباتين نسيجيين ، موطنهما الشرق الأقصى ، حيث هناك محاولة لأقلمة زراعتهما فى مصر . هما الجوت وقنب سيام ، "العشب الصينى" الذى تحتل خيوطه منذ زمن طويل الزراعة والصناعة الأوروبية .

الجوت باعتباره نسيجاً أكثر خشونة ، منتج أكثر من القنب السيامى، ويصنع منه الصينيون والهنود التوسة ، وهو عبارة عن حرير خشن ومعظم هذه الأقمشة نسيج خام أبيض وأصفر باهت ، يباع إلى غير المتخصصين مقابل حرير غير مغلى أو قماش حريرى . ما كادت هذه الأقمشة تلبس حتى أصبحت شبيهة بالصوف فى مظهرها الخارجى وأضرت بأصلها ، ولكنها ظلت متينة واستخدامها جيداً .

الأســاس ، لا ندع أنفسنا نخطئ ، وللأسف التقدم الصناعى الأوروبى سوف يستخدم تقريبا خيط القنب السيامى اللامع ليقدمه إلى الجمهور باسم حرير حيوانى ، والمقلد بطريقة جيدة إلى حد ما .

من وجهة نظر المنفعة الزراعية ، بما أن التأقلم قد تم فأنا لست مقتنعا تماما ، وإن المقالات التى كتبتها أنا شخصيا ليس من طبيعتها تغيير رأى فى هذا الصدد ، بالنسبة إلى القنب السيامى على الأقل . هذا النبات ينمو فى كل مكان ، إذاً سوف ينمو فى مصر ، حيث بكثير من الماء والسماد المكلف سوف يجنى ثلاثة الجنيهات الخاصة به سنويا .

ولكن لما كان ينمو متزامنا بريا وبلديا فى المواطن التالية : الصين ، واليابان، والفلبين ، وجاوا ، وسومطرة ، وجزر لا سوند (جزر إندونيسيا) ، وسيام ، وبورما ، وسينغافورة ، وبينانج ، وأبام ، ونيبال ، والبنغال ...، إلخ ، ومما لا يقبل المناقشة أنه عندما تتوفر الوسائل لتقشير الألياف الخضراء ، فإن مصر حيث المحصول بالمقارنة بمناطقه سالفة الذكر سيكون مرتفع التكلفة، وسيحقق ربحا ضئيلا فى مجال المنافسة الشاسع. قدمت الحكومة الإنجليزية مبلغ ٥٠٠٠ (خمسة آلاف) جنيه إسترلينى مكافأة منذ عشر سنوات ، إلى مخترع أفضل آلة لتفكيك الألياف الخضراء . لذلك فإن المسألة تستحق الدراسة .

إن هذا النبات ليس جديداً لا فى فرنسا ، ولا فى إيطاليا ، حيث كما فى الولايات المتحدة بأمريكا الشمالية تمت محاولات متكررة للزراعة ، تجهيز الألياف تعتبر المشكلة التى تحتاج للتغلب عليها ، أكثر من الإنتاج نفسه . فى مصر ، حيث الظل والرطوبة الطبيعيين غير متوافرين ، بسبب عدم وجود الجبال ، والغابات ، والأمطار ، فنجاحه يشكل مشكلة ، لأن القنب ينجح فى ارتفاع معين ، ويحتاج إلى الأرض الظليلة والنضرة .

وها هو إنتاج القطن للمحصول الاستثنائى ١٨٧٩ - ١٨٨٠ : فى مصر (قناطير) ٣,١٢٣,٥١٥ مقابل ١,٦٨٠,٥٩٥ قنطارا ، ١٨٧٨ - ١٨٧٩ ، سيىء جداً . الفرق ١,٤٤٢,٩٢٠ قنطارا . القيمة المتوسطة لمحصول القطن فى عام ١٨٧٩ - ١٨٨٠ يبلغ ٨,٠٠٠,٠٠٠ جنيه إسترلينى .

رسالة رقم (٢٣)

الإسكندرية فى ١٧ نوفمبر ١٨٨٠

إذا كتبت إليكم أخبركم بأن من يحمى مصر ، ويراقبها ، ويحكمها ، ويسوسها ، هم جوقة دولية من الأفراد الذين يتمتعون بأنانية مفرطة ، شديدة الاختلاط بالنسبة لإمكانياتهم الاقتصادية ، ممكن أن نصفها يكون ملغيا ، لم تكن ضروريات أحد الأنظمة المزدوج الأهداف ، الذى يفرض على البلد النيلى العبء اللاأخلاقى للمكافآت التى تمنح للأمراء ، إذا قلت لكم إن هذا الموطن ، أصبح مشهورا بتبذير فراعنته المحدثين والشهية المشئومة للمرابين السفهاء ، فهو لا يملك حتى هذه الساعة طريقًا صالحًا للمركبات ، يختص باحتياجات الزراعة - سوف تصدقونى بصعوبة عندئذ . لا شىء حقيقى على الإطلاق .

لماذا يستمر حتى الآن مثل هذا الصدع المزعج ؟ ها هم نواب الملك الذين تعاقبوا منذ مذبحة المماليك ، حكموا سلاليا واستبداديا ، يدفعون بسخاء من أجل التغاضى والصمت الاتفاقى مع السلاطين وكبار وزرائهم، ويسفكون أنقى دماء السكان النيليين ، ويتأصلون كثيرا على أرض كان ينبغى أن تكون الآن مرضعة لحوض البحر المتوسط .

كان النيل هنا ، يبسط طرقه المائية ، أصبحت متعددة عن طريق القنوات التى يغذيها . وكان القدماء ينقلون منتجات البلد عن طريق القوارب . ولم يكن بوسع المحدثين إلا أن يقلدوهم . هذا التفكير كان يمكن التسليم به إذا كانت القنوات المحفورة سلفًا قد تلقت الصيانة والعناية اللازمة ، وأن شرايين أخرى للملاحة والرى ممهدة للجميع كانت قد أنشئت . ولكن إسماعيل باشا على سبيل المثال ، يريد الماء من أجل أراضيه فقط ، التى كانت منتشرة فى كل مكان ، وكما أنه يستخدم السكك الحديدية بدون مقابل . وبأولوية عن الشعب لا يهمه ذلك ؛ حاكم ومنتج ، يطالبه البلد بطرق ممهدة ، أو طرق مائية متكاملة وبأسعار رخيصة . وفضلا عن ذلك ، من هو الذى يجب عليه أن ينصح هذا الأمير الذى يمكن أن يصبح حكمه حكم رجل عظيم بكل ما تحتوى عليه الكلمة من معان ؟

الجهاز المركزى الذى يدعمه بسخاء لئلا يفتح فمه ! رجال المال الذين يتبعونه ، الذين أثروا ثراء فاحشا نتيجة لإسرافه الأحمق ؟ بالنسبة إلى الخزان الذى يتخيله موغل به فى عهد محمد على الذى لم يتمكن من الوفاء بالوعود العملية للنظرية ، فقد أصبح عقبة بسبب البلاهة المجتمعة مع اللامبالاة لخلفاء المغامر رئيس السلالة التى اكتشفها الماركيز دى سالسبيرى .

وأخيرا ، من أجل الختام أصبحت شبكة السكك الحديدية الكاملة تقريبا ضمانا لرهن عقارى ، منح ببلاهة إلى المناورات الهامة التى قامت بها مجموعة سياسية مالية إنجليزية يترأسها جوش ، تشكل بين يدى هذا العنصر المخزى امتيازا حاولت هذه السلطة الجديدة – حيث أن سبعة أثمانها (٨/٧) من البريطانيين – بشتى الوسائل الممكنة أن تغيره إلى احتكار متناقض تماما ، ذلك يؤخذ على أنه فكرة مبتدعة فى مجال نقل منتجات البلد بتكاليف رخيصة .

بهذه النظرة القصيرة لماض لم يزل صغيرا ، أتعشم أن أكون قد نجحت ووفقت فى أن أعرض أمام الشعب الفرنسى والقارئ الفجوة الشاسعة التى تعانى منها مصر الزراعية والتجارية، محرومة كما هى من جهة بعض الطرق الممهدة بين المديريات بسير المركبات ، ومن جهة أخرى ملاحة نهرية فى نهر النيل وفى القنوات الموجودة والتى تحفر، ولكن مستقلة ، هذا أمر طبيعى ، من كل عنصر محتكر مهما كان ، وليس إنجليزيا . انتهى الأمر، لن يكون من الصعب على أن أوضح أصل الإلحاح بلجاجة متكررة ولا تتوقف ، بالرغم من الإخفاقات المتكررة ، من الثلاثة : إيستون ، ونوبار ، وديساى برئاسة صاحب الفضل دوق سوزرلاند بهدف الحصول – بمؤازرة الملحق الدبلوماسى البريطانى ، السيد ماليت ، والسيد ريفرز ويلسون – على الامتياز المطلق للملاحة النيلية .

بعد الشمس ، يعتبر النيل هو المخصب العام للبلد الذى تولى أمره ونظامه شرذمة من المرتزقة الجشعين لمجموعة من رجال الصناعة الأجانب ، خاصة لو كانت جنسيته تلبى سياسة إلحاقية ؛ أى إلحاق وضم البلاد الصغيرة إلى الدول الكبيرة ، سوف يتم ذلك فى أى وقت محدد عن الحرية والمبادرة حيث الزراعة على سطح الكرة الأرضية فى حاجة إلى عناصر جوهرية لتندفع فى طريق التقدم .

إن أسوأ ما يكدر مصر ويدمر حكمها الذاتى لاقتصادها ، هو امتياز الملاحة النيلية وقنواته للمجموعة آنفة الذكر . كذلك إن ما سوف يعتبر طامة كبرى لها وأكثر إضرارا بالمصالح العامة التى صنعت من بلد النيل ما هو عليه الآن ، وأن نؤخر - زمنا أطول - تحويل مجرى نهر النيل إلى طريق نقل فى ظروف مواتية لنقل المنتجات الزراعية إلى موانئ التصدير بأرخص التكاليف الممكنة .

لم يصل إلى سمعى هنا فرص إلزام على حكومة الخديو بالاستسلام لتكوين شركة ملاحة بالنيل ، ولكن باستعراض الموقف على حالته الراهنة أعتقد أننى توصلت إلى إيضاح أكثر للواجبات المفروضة عليه . الكفاح الذى تولته حديثا الولايات المتحدة بأمريكا الشمالية مع الزراعة الأجنبية هو رأى جدير بالعناية به فى كل مكان فى الغرب كما فى الشرق ، وأجرؤ على أن أؤكد بصفة خاصة فى مصر حيث إن التكلفة الحقيقية لكل منتج من الأرض لم تزل أحجية أو سراً بالنسبة إلى ٩٩٪ من المزارعين ، ومن المهندسين الزراعيين المستعارين ومن الشعب، مهما يكن الجهل والغيرة مطعمة بجشع الوسطاء إلى درجة يضرب بها المثل سببوا شلل الانفعال اللبيب لسكان كادحين ومعدين إعدادا طيبا .

فى حين أن الحكومة الإسماعيلية تحصل على كل ما تريد ، لا تبالى بالأهالى أو حتى بالمنتجين أنفسهم ، بأن قيمة دخل القطن أو القمح أصبح أو لم يصبح مجزيا . ولكن اليوم كبدت الحماية مصر بذخا مفرطا للاقتصاديين ورجال المال وكبار الرجالات الذين بدأت أوروبا تحرم منهم ، يقال إنه من المخجل أن السادة كبار الموظفين الأجانب وزراء بلا عمل بالدولة النيلية ، لم يدركوا بعد إدراكا صحيحا قيمة كل من أجرة شحن بضاعة ، أو قنطار قطن أو أردب قمح ، اعتبارا من اليوم حيث الأرض التى أنتجته كانت مزروعة . هكذا يمكن أن نصل إلى معرفة نوع المادة الغذائية التى تشكل أفضل ما يحتاجه البلد ، وما سوف يكون تقدما حقيقيا، الرؤساء الجدد المنوحون لمصر كانوا سيتقاضون ببذخ أكبر المرتبات الممنوحة إلى المثبتين فى وظائفهم ، من العاطلين الحقيقيين بمعنى وظيفة بلا عمل .

إن المعلومات الموثوق بها التى تصلنى من لندن ، تفيدنى بأن السيد إيستون ، الذى لا يزال فى أملاكه فى سوسيكس ، لن يتوانى مطلقا ويعتمد على دعم قوى لينتزع إما الملاحة النهرية ، أو الرى العام للأراضى ، من أجل وبواسطة مجموعته ، مهمة أصبحت أكثر سهولة بالامتيازات التى منحها رياض باشا لهذه الشرذمة التى استعادت آنفا إيجار الأرض الزراعية فى أملاك أميرية حصل عليها أحد الفرنسيين ، التى وُضعت تحت تصرف السيد إيستون بسبب نقص المياه وقسوة الحرب .

وفى لندن ، عرض على مجموعة إيستون ، المشروع العظيم وهو : مخالصة الرهن العقارى لروتشيلد ، الذى سوف يضع فى قبعة الشرذمة الإنجليزية حوالى ٥٠٠,٠٠٠ (خمسمائة ألف) فدان من أرض مصر ، ليواسوا أنفسهم برفض الخديو الصغير تأجير أملاك الدايرة إلى هؤلاء الصناع السالف ذكرهم ، امتياز يعارضه دائما البارون دى رانج .

لنعرض المشكلة من وجهة نظر أكثر دقة . المعروف أن الأيدى العاملة ناقصة فى مصر . مائة ألف مزارع ماهر لا أكثر . لنفترض ، الاستيراد المتعاقب لمجموعات صغيرة بأعداد متساوية من الهنود، رعايا صاحبة الجلالة الإمبراطورة والملكة فيكتوريا. من الهنود إلى السيبايين لا توجد سوى خطوة واحدة (السيباى : جندى فى "الكومبانى" ثم فى الجيش الإنجليزى فى الهند) .

ترتسم الفتنة الهيللينية هنا بخطوط واسعة ، ولكن بشرط أن الإنجليزى والفرنسى يقرران أن يضطلعا بدور القط فى الحكاية ، بأن يكدا ويعملا لمنفعة غيرهما ، من أجل سيادة القرد (بالبكار) . ذلك على الطريقة الإيطالية ، يفوق الحد . النماذج السيئة لا تنتج أبدا ثمارا طيبة. الهيللينيون لهم ماض عظيم لا شك أنه تقريبا عريق . لا يهم ؛ إن أثرياءهم وأثرياء إخوانهم الذين تركوا بلدهم بأعداد كبيرة لينشئوا سلالة فى أرض أجنبية ، يخرجون كنوزهم وينضمون إلى العلم الوطنى .

إن الثورة تكون لمن لديهم الشجاعة والمهارة ، الشعوب القديمة حرة اليوم ، حرروا أنفسهم بأنفسهم بمحاربة عدو أقوى من الأتراك . ولكن اليونانيين الذين كونوا ثرواتهم من الزراعة والعمل المتواصل والرقى الذى يقوم به العنصر الإسلامى ، يحبون أن

يحتفظوا بأموالهم . وبما أن الوهم لا يضايقهم ، فإنه من الصعب عليهم أن يقوموا فى الوقت نفسه بعمل تغيير مفاجئ ، مما يكون مخاطرة بالنسبة لهم فى أن يقلل من وضعهم ومن نفوذهم النسبى . رأيت الأعضاء الأكثر أهمية للمستعمرة الهيللينية جاءوا يرتدون الملابس السوداء، ورباط عنق أبيض ، مجاملة لإسماعيل لانتصار جيش المسلمين ضد الروس ، فى بليفنا . لنكن منطقيين ومنصفين إذا تسنى ذلك ، الصليب والمسيحية لم يكن لهم أن يفعلوا شيئا فى هذا الصدد ، والحماس المدرسى الجلاد ستونى نثر رياحا لن تتوانى عواصفها عن الزمجرة .

رسالة رقم (٢٤)

الإسكندرية فى ٢٣ نوفمبر ١٨٨٠

إننى تحدثت فى رسائلى إليكم عن تصرفات إنجلترا السياسية فى مصر ، وليس هناك داع للعودة إلى أى موضوع ، فقد تؤدى الاهتمامات بالمصالح المحلية ، إلى تقليل الأهمية فى باريس بدرجة كبيرة .

إننى بعيد كل البعد عن اعتبارى مبغضا للإنجليز ، إننى لا أقابل الإنجليزى فى كل مكان، ولكنى أميز بين مجرد حقائق ظرفية وتجارية ، وأهم الأعمال التى ترنو إلى المستقبل وأصلها يرجع إلى الحكومة البريطانية نفسها .

من اللائق القول إن إنجلترا لا تريد من مصر ، وإن وزراء الملكة متفقون على ما سبق مع زملائهم بالجمهورية الفرنسية ، ولن يمنع أحد من تحقيق رغبته . وإنه بالكلمات يخفى رجل الدولة فكره . ومن يثق بهذه الكلمات ، يتعرض إلى أن يفكر جيدا . الأمثلة ليست بعيدة. إنه فى روح الطبيعة الإنجليزية ، من حيث تخرج الحكومات المحافظة والحرة متواترة لتوسعة الممتلكات الهندية للإمبراطورة الجديدة فيكتوريا حتى سواحل البحر المتوسط بدمج البلد النيلى بأكمله أولا وشبه الجزيرة العربية وسوريا بعد ذلك بقدر الإمكان بين خطوط رمال أفريقيا الشمالية ومياه نهر الفرات . الخليج الفارسى قريب . عدن تتحكم فى البحر الأحمر حيث سواحله تعرف جيدا الراية الإنجليزية أكثر من راية أية أمة أخرى ، أجل ، فامتصاص مصر مسجل فى كتاب

المصائر البريطانية . وسواء محافظون أو أحرار ، فالوزراء الذين يتعاقبون ، سوف يتبعون هذا الهدف ، بدون أن تحرم فرنسا – بطبيعة الحال – من سلطة توجيه ضربات قوية ، وأفضل تأكيدات التفاهم الودى .

وعلى بعد مسافة كبيرة من المراكز السياسية الأوروبية نستطيع أن نحكم على ما يجرى بداخلها أفضل من هؤلاء الذين يقيمون بداخلها . هنا توجد حقيقة لا تقبل الجدال ، تكتمل بالمقارنة التى جرت فى المواقع نفسها فى الخارج بين الأفعال والأقوال الدبلوماسية ، مكتوبة أو معلنة من على ضفاف نهرى السين والتايمز .

مع الوقت والمهاترات ألم يأن الأوان لإبعاد إسماعيل باشا ووزيره نوبار ! ألبيون كانت تريد الاحتفاظ بالاثنين ، مقتنعة بأن الموظف الأرمينى الذى اكتسبته إنجلترا ومن ثم هو مناهض لفرنسا أفضل من يقوم بشئون الأمة البريطانية عن أية مجموعة دولية أخرى ليست على اتفاق مع الشعب الإنجليزى . أحدهما يمكر بالآخر ، والسيد نوبار سوف يحكم – إن آجلا أو عاجلا – زهرة أفريقيا من أجل صاحبة الجلالة الملكة فيكتوريا . أصبح ذلك أحد أحلام المدعو ديزرائيلى.

أعتقد أنه فى أوروبا لا يوجد أى شخص ساذج إلى حد ما لكى يخص المحمية المستترة الدولية بأقل شعور بالمحبة نحو السكان الفلاحين . الدافع الحقيقى لجميع الاهتمامات غالية الثمن ، التى تنهمر على مصر والتى يدفع البلد ثمنها غاليا ، هو الدين ، ولولا تصرفات الخديو المكروهة ورءوس الأموال الكبيرة التى يستثمرها بجنون بعض رجال المال الفرنسيين ما كان إسماعيل قد غادر القاهرة .

إن قرب حدوث إفلاس مؤسسة ائتمانية كبيرة هو السبب الوحيد الذى أجبر السلطة الحاكمة ، وحدث العزل . بعد سقوط هذا الأمير الذى كانت الدبلوماسية تحب أن تقبع عند قدميه كثيراً ، جاءت الحكومة عديمة اللون والخنثى ، التى تحكم اليوم عند ضفاف النيل ، حكومة مصلحة من أجل مصالح الدائنين ولكن مفتوحة لكل المؤثرات الخارجية المتعارضة مع الجنسية المصرية .

أصل إلى أدلة اقتراحى . ما كاد النظام الجديد يعقب القديم الذى بأمر بريطانى منح اللورد بيكونسفيلد – وهو أمر غريب فى إنجلترا – وساما للسادة : نوبار ورياض ،

الأول مكافأة له على ما أدى من خدمات للسياسة الإنجليزية ، والثانى من أجل هؤلاء الذين ينتظرهم من أحد المشاركين فى دين ، لا يزال بدون ارتباطات ، ولكن عديم الأهلية تماما .

فى الحال افتدى السيد وادنجتون ، وبالرغم من آداب اللياقة المتبعة ، جعل رياض ضابطا كبيرا لجوقة الشرف ، قبل أن يتسلم الخديو الصغير الذى أهملته إنجلترا ، شعارات هذا الأمر الفرنسى . لم يكن ذلك تصرفا لائقا .

بعد ذلك أجرى تكوين الآلية الإدارية المصرية ، التى لابد أن يهيمن فيها العنصر الأوروبى الدولى . فيها فرنسيون مسلم بهم ، ليس بصعوبة . ولكن الوظائف العليا ، والإدارات الرفيعة والبريد والجمرك والسكك الحديدية والمالية تخص الإنجليز . ليس فقط الأعمال هى نفسها التى تسود ، بل المثبتون يحملون محمل الجد الجانب السياسى لمركزهم المدنى . هؤلاء العاملون الذين سبق ذكرهم أو هؤلاء "الكلارك" إذا أردتم ، يستطيعون ألا يكونوا صقورا ، ومن المؤكد الفرق كبير . لا يهم ، المشكلة ليست هنا ، تلك أمور يمهدها وزراء الملكة من أجل تشكيل مستقبلى ، مستقبل بعيد ، حكومة إنجليزية ، أما بالنسبة إلى القدرات الإدارية للأفراد ، شريطة أن فائدة الدين تكون مدفوعة ، فإن الدبلوماسية الحامية لا تهتم بها إلا اهتماما سطحيا، ولكن لنر ما فعله السيد جلادستون ، الذى لم يكن من المؤكد الصديق السياسى للورد بيكونسفيلد ، منح بقرار ، وساما لأحد السادة يدعى فيتزجيرالد ، مجرد حافظ لسجلات الدين ، يتقاضى مكافأة كبيرة من أجل استحقاقات مرموقة قليلا تبلغ ثلاثة آلاف جنيه إسترلينى فى العام (إذا لم يكن هناك أفضل) .

إلى بلوم باشا مستشار سابق حميم المرحوم الشهير جدا "المفتش" ، الذى أدت تصرفاته إلى دفع مصر فى حالة شبه إفلاس ، أرسل هدية فضية عرفانا بالجميل من أجل الخدمات المقدمة التى لم تُعرف طبيعتها بعد . إنه يشجع فى لندن بكل نفوذه مشروعات مناهضة للفرنسيين لحزب إيستون دى سوزرلاند .. إلخ .

وما هو أشد خطورة وأكثر تمييزًا للحالة التى أصورها لكم . الحكومة البريطانية أمينة على مهمتها القومية ، تعارض بجميع الوسائل الممكنة تكوين برلمان مصرى يرنو إليه الشعب المصرى ، لا يهمه شىء من أجل أن يسحق الحزب الوطنى أو يلغيه ، وفى

هذه الحملة الصليبية التى يقودها خفية المندوب الدبلوماسى الإنجليزى فى القاهرة ، ويجذب بلا تردد الحكومات الأخرى إلى أن تحذو حذوه .

ألا يوجد هنا نظام ؟ لماذا كل هذا الحقد الذى يكنه رؤساء البرلمان البريطانى للجهود الأولية البرلمانية لشعب صغير يريد أن يتطور بالتحرر من التزاماته بطريقة مشرفة ؟ هل هو فى حاجة لتفسير ذلك ؟ مصر تنبثق باعتبارها أمة ، تحاول أن تشل العمل البريطانى بتأكيد وجودها تحت الشمس . ويكون من الأفضل بالنسبة إلى المحافظين أو الأحرار لمامة من خمسة ملايين فلاح ، محبوسين فى عبودية ثقافية تامة ، عن شعب من المكافحين الأحرار . حسنا ! بدون شن حرب على الغير ، ومن أجل فكرة ألا تنتهج الجمهورية الفرنسية سياسة تحررية ، محررة مصرية ، بعيدا عن الاستقراءات المستنتجة من المصالح المالية ، كبيرة ، إنى أوافق على ذلك ، ولكن فى ظروف مشابهة ، وبدون التعرض لأى خطر ، لا يجب أن تهيمن على المسألة ، هل ذكريات ١٧٩٨ إلى ١٨٠٠ قد خبت ؟

وهنا لا يتوقف نفوذ إنجلترا الخفى ، نفوذ شاسع وهائل ، يتناول ويمتد إلى كل شىء ؛ من لندن إلى أبعد المواقع الشرقية ، فى الشرق ، فى جنوب عالمنا ، يوجد أربعة وعشرون كابلا بحريا تحت سلطة رابطة وحيدة ، إنجليزية أساسا ، وهى المالكة لها . لا يمكن لأية فكرة ، ولا لأية كلمة تجارية أو سياسية أن تجتاز كهربائيا هذه الأماكن الشاسعة بدون أن تخضع لهذه الروابط المعدنية ، ملكية مطلقة بدون منازع ، للعنصر البريطانى .

عندئذ ، إذا وضعنا هذه القوى المغناطيسية الكلية إلى جانب العظمى البحرية لأمة واحدة ، سوف نتعرف – بدون أن نبذل أى جهد فى المقارنة – على أن النفوذ البريطانى فى هذه المناطق البحرية يشكل خطراً . سوف نرى أن هذا المد والجزر السياسى الذى يندفع باستمرار من الهند الصينية نحو البحر المتوسط لابد من أن يكون مراقبا ، وإلا توقف عن سيره ، عن طريق المصالح الأوروبية الكبيرة .

كيف نتناولها للوصول إلى هذا الهدف ؟ لا جرم أننا لا نتوصل إليه ، بأن نترك عددا كبيرا من الأذرع إلى إنجلترا على ضفاف النيل . بيد أن الملاحظات التى سبقت ستحصل على الأقل على التقدير فى الوقت المناسب .

رسالة رقم (٢٥)

الإسكندرية فى أول ديسمبر ١٨٨٠

هذا العام لم يكن الفيضان عاليًا، تسنى للنيل أن يروى على مستوى واسع محصولات الصيف، ولكن القنوات، كبيرها ومتوسطها، لم تبق ملآنة، والتحاريق قادمة أكثر من المعتاد.

هذا الظرف، الذى يمكن أن يمر عابراً، كان ضارا بالصحة العامة، بولوج بعض التسربات الصفراء الباهتة إلى الآبار والخزانات من الرمال البحرية التى تتكون منها التربة العميقة، من الرائحة الآسنة الناتجة عن النهر ومن بقايا من كل نوع متروكة على أرض الحقول قبل أن تستوعبها مياه الرى بطريقة ملائمة.

مدينة القاهرة، داخليا، قذارة يضرب بها المثل، الخليج - قناة قديمة تعبر العاصمة، يقال من أجل تغذية العاصمة بمياه الشرب من النهر - تحول بسرعة، للأسباب آنفة الذكر إلى مقلب لأقذار الشوارع بدون هوية، التى يكدسها السكان، وكان لابد من إلقائها فيه.

كان هناك شخصان كل منهما بلقب بك، أيا كانا هذين الشخصين، أوروبيين، بلا مراء، يحملان اللقب ويتقاضيان مرتب مديرى مصلحة الطرق. ولكن هؤلاء الموظفين، بخيلان، جعلا من وظيفتهما، وظيفة مسلية بغير عمل جاد، بصدد الأحياء التى تتطلب مراقبة فعالة وذكية. لم يحدث فى أى وقت مضى، أن روائح القاهرة والإسكندرية كانت وبيلة مثلما حدث هذا العام. والحالة هكذا، فقد تفاعلت الحرارة مع الرطوبة، متحدة مع رياح خانقة، يسفر عنها تكاثر الأمراض الوبائية.

فى الواقع، مع بداية شهر سبتمبر، حمى جديدة، هندية أصلاً، تسمى "حمى الدنج" (الضنك أو أبو الركب)، فاجأت المستعمرات الأوروبية بغتة، وها هى أعراضها:

ألم شديد فى الرأس، وإنهاك فى الجسد والساقين وضعف عام، وأرق، وحالة تهيج عصبى، بطيئة وقاسية مع عطش شديد. لا توجد حالات وفاة، ولكن دور نقاهة طويل. رأيت عائلات بأكملها قد أصابها هذا المرض، فى القاهرة، وفى المناطق المزدحمة بالسكان داخل القاهرة، وفى الإسكندرية. الكلية، حسب العرف العريق كما وضعه موليير الشاعر الفرنسى، بحثت فى جلد، عن أسماء، عن أسباب، عن اشتقاقات، لا تخيف مطلقًا، أو توقف انتشار الوباء، لأنها مستمرة كسابق عهدها. يعتمد على بعض فورات طيبة للريح أو المطر لغسيل المجارى سيئة البناء، وتغيير الطبقة الجوية لمصر السفلى.

إنها مسألة مهمة جدا، فى بعض المناطق المرتفعة، بمفهوم سياسى بقصد إفشال النفوذ الإنجليزى فى الشرق الأقصى. يختص الأمر بإنشاء خطوط تلغرافية بحرية تحت الماء، تخدم - اعتبارًا من مصر - المحطات الرئيسية للهند الصينية، إلخ، وتخفض إلى أسعار عادية التعريفة المنصوص عليها فى الاتفاقات التلغرافية التى أوجدت احتكارًا حقيقيا.

ومهما يكن من أمر الشائعة، فقد أصبحت ثابتة، هنا وفى أوروبا. من الآن فصاعدًا، ومهما كان الرجال قادرين - الذين لديهم هذه الفكرة الجيدة - ينبغى عليهم ألا يجهلوا أن الشركة الإنجليزية، مالكة الكابلات المذكورة آنفا، تمتلك وسائل عمل ومخزونًا كبيرًا من المعادن، حتى إن أى منافس سوف يكون أمامه اجتياز صراع طويل وهائل، مخرجه، إذا نقص المال ونقصت الطاقة، سيكون ميزة للمستغلين الحاليين.

ومن أجل ألا يكون إلا تفصيلاً، لا شك أنها مهمة جداً: وفقًا للترتيبات الجارية، بين الشركة الإنجليزية وحكومة كالكاتا، لا يمكن وضع أى كابل كهربائى أجنبى على الأرض الإنجليزية - الهندية. بيد أنه لم يسفر عن هذا الحظر سوى أن موانئ الأملاك البريطانية لا يمكن أن تكون مرتبطة عن طريق كابل موضوع على ساحل البحر ويتصل هو نفسه بالشرايين الكبيرة المنافسة. هنا يكمن موضوع الدراسة، مقدمًا أكبر فائدة للرجال الفرنسيين الأساسيين، وإلى فرنسا التجارية.

اللورد بيكونسفيلد، رجل السياسة الرومانى، سلم للشعب الذى تأخذه الدهشة قليلاً، إنتاجه الأدبى الأخير، بعنوان "أنديميون"، الراعى الميترلوجى لكاريا! - الحكاية هى دائمًا الحكاية - وماذا تعتقد الأفكار الجادة فى إنجلترا، فى خضم هذه الظروف الحالية؟

رسالة رقم (٢٦)

نظرة إجمالية نيلية وفقًا للطبيعة

الرق فى الشرق (أ)

الرق الحقيقى الذى يقوم على التملك بشرائهم بمبلغ من المال، أفرادًا ينتمون إلى الأصل الإنسانى الآدمى، وتم إلغاؤه فى الإمبراطورية العثمانية.

ذلك على الأقل، ما تدعو إلى تصديقه العديد من المعاهدات المبرمة، وخاصة الحديثة منها، المبرمة بين تركيا وبريطانيا العظمى. ولما كان الأمر يتعلق بوثائق دبلوماسية مهمة، والمنطق والسياسة يريدان أن نضيف عنصر الثقة إليها. ذلك ما سوف يستدعى، كنتيجة، أنه فى الوقت الحالى، إذا كانت هناك حالات نادرة من مؤسسة عجيبة، يرجع تاريخها إلى العهد التكوينى، فالتصرفات الوحشية التى ترتبط باستبداد مطلق تقريبًا قد اختفت جميعها.

وللأسف لم يكن ذلك كذلك. إذا كانت، من ناحية نخاسة الرقيق الأسود قد تضاءلت فى أفريقيا منذ تحرير العبيد فى الولايات المتحدة بأمريكا الشمالية، كما فى الممتلكات الإنجليزية فى الهند الغربية، بما فيها المستعمرات الفرنسية والهولندية، لا يمكن القول بأنها خبت على الساحلين الشرقى والغربى للقارة الشاسعة، حيث استمرت تعيث فسادًا ، يستخدم تعبيرًا علميًا للحالة المرضية الاستيطانية والمتفرقة.

وكان البحث عن السود من الجنسين مستمرًا فى البلاد العربية والإسلامية، اعتبارًا من سواحل البحر الأحمر أو ضفاف النيل حتى القسطنطينية، مرورًا بالعربيتين،

بلاد ما بين النهرين، والبحر الأسود، بما فيها ألبانيا ومقدونيا. تلك هى الدائرة التى تسيل منها البضاعة السوداء إلى الشرق الشمالى وإلى شرق أفريقيا. ومن الجهة المقابلة تأتى تونس، الأراضى الواقعة بجانب وفيما وراء "تومبوكتو" وحتى الأطلنطى ومراكش (المغرب حاليًا) معًا، باستثناء الجزائر. أخيرًا، بداخل القارة الأفريقية، وخط الاستواء، باتجاه الجنوب حتى الممتلكات الإنجليزية المتنازع عليها تقريبًا للبلاد المحيطة بمستعمرة الكاب، فى حدود أخرى فى الأماكن نفسها حيث تقع غارات السود الغزيرة، ازدهر الرق بدون منازع. كل الناس فيها يمتلكون عبدًا أو عددًا من العبيد، الزعماء هم أفضل المستفيدين. وهذه الدابة البشرية، تلبس وتتغذى مثل سادتها، مكلفة بأعمال قليلة، لا تحاول إلا نادرًا استرداد حريتها .

نحن قادرون على إثبات أن محصولات جزيرة زانزيبار والأراضى القارية التى تتبعها، كانت تنقل عن طريق عبيد متخفين. فضلاً عن ذلك أسواق أخرى، ليست بلا فائدة، تغذيها بصفة منتظمة، خاصة فى الجزر التى تجاور المستعمرات الهولندية، وفى الهند الشرقية، التى سكانها كما فى أتشين، من المسلمين.

هذا البيان عن الرق الأسود صحيح. فهو لم يصدر عن أى إحصاء رسمى- علمى أو مغلوط فيه. السلطات أساسًا فى هذا الشأن نفعيون ولا يجادلون. إنهم التجار والمشترون، المهربون - باختصار - هم الذين زودونا بأكثر المعلومات تفصيلاً فى هذا الصدد.

يصعب على الفكر الأوروبى أن يتفهم المقاومات التى يلقاها العنصر المناهض للاستعباد فى تنفيذ المعاهدات. المتصور، على هذا النحو، إذا تم اتفاق دبلوماسى ذات مرة، فسوف يكون نافذًا بآثاره كافة ، كما لو كان بفضل الله.

ولكن هناك ميول لكل، التى تهيمن على كل. كلما كان مسرح العمل شاسعًا ونائيًا، كانوا أقوياء. فى المواقع ذاتها حيث اتفقت الأداة الدبلوماسية نفسها، هنا حيث يوجد القانون وتقيم القوة فى أحضان الأمم المتحضرة، لا يمكن أن يطبق دائمًا اللفظ والمضمون.

بالإضافة إلى تقاليد وعادات الشعوب والجذور، نتيجة لضعفهم، أكثر ما هى نتيجة لميولهم وقدراتهم. الضحايا التى ذاقت أقسى المفاسد والعنت، ترجع إلى تاريخ قديم، تحملت تصرفات طاغية مستبد بنوع من الصبر الدفين، وهذه الضحايا لم تفعل شيئًا من أجل أن تجدد حياتها. وأبعد من ذلك، لأن شدة القصور الذاتى الذى تبديه هذه الضحايا، إنما أكثر صعوبة فى قهره من أن يواجهوا بالسلاح هؤلاء الذين يضطهدونهم.

عندما يعجب الملك أو حاكم مدينة، أو قرية سوداء، ببعض الفتيات الظريفات، حسب رأيه، فهو يطلبهن، ويحصل عليهن فى الحال، تلقائيًا، بدون زواج. تصبحن سيدات فى الحال. هذا من أجل السلوكيات الاجتماعية، تمس العائلات عن قرب. إذا كان اختلاط الأجناس لا يحكم - واقعيًا - فى وسط أفريقيا، التواضع، العفة - وفقًا للمعنى الذى أعطته الأكاديمية الفرنسية لهاتين الفضيلتين - لم يكن وقفًا على السود بأى حال، الفرق كبير.

فى الخرطوم، التى لم تكن فى هذه الأثناء بلدًا من الكونغو، المسيحيون والأوروبيون المقيمون فى هذه المنطقة الكبيرة، مثل هؤلاء الذين استقروا فى السودان، وفى كردفان وفى مناطق أخرى - جميع هؤلاء رواد الحضارة، هكذا كان متفقًا على تسميتهم، يمارسون تعدد الزوجات السوداوات. ولا يخفون ذلك أبدًا، هؤلاء رسل التقدم. بالعكس. كل شىء فى وضح النهار، مع التغييرات الظاهرة للعيان، والتجديدات التى تمليها الشهوات المادية، جائزة تقريبًا، الهوى له حرية التصرف، لعدم وجود إجبار اجتماعى. هكذا صنع الرجل المتحضر، إن تحت ملابسه العادية يكمن نسيج الوحش متقد العاطفة، ومملوء بالحيوية. السوداوات أصبحن أمهات بسبب هذه التجارة غير المشروعة، كن سواء بالنسبة لهؤلاء التجار المنغمسين فى الملذات السيبارية (نسبة إلى مدينة سيباريس المدينة الإغريقية التى كانت تشتهر بالحياة المترفة والثرية). هؤلاء النسوة ، ماذا ستصبحن ، هن وذراريهن ؟ يمكن تصور ذلك ببساطة شديدة .

لم تعد هنا بعد وسيلة تقبل إحياء الجذر الأسود.

حقا إن الأمر ليس مطلقًا من أجل أن تتجهز بحريم فى مثل لون الأبنوس، ولا تساوى أكثرهن اشتهاء إلا ما لا يزيد عن ٥٠ فرنكًا. الإغراء أكبر من ذلك. الفرش مناسبة. ثم بعد ذلك، من أجل أن يريح ضميره، عندما يمتلك المرء إحداهن، يعتق - بعد أن يروى ظمأ شهوته - الفتيات اللائى أصبحن أمهات، بدون أن يكن زوجات.

ويلبيرفورس الشهير لم يدرك حسا أبدًا، حتى ولو كان بعيدًا جدا، بنظام مماثل لمحاربة الرق، والذين يقلدونه من هؤلاء الذين لديهم حسن النية لم يفكروا فى ذلك كثيرًا. على الأقل، عندئذ، إن الحكمة الإنجيلية - تناسلوا وتكاثروا - لم تعد لها اعتبار الآن عند هؤلاء الذين يحبون الجنس البشرى، باعتبارها مساعدًا عظيمًا فى سبيل الوصول إلى هذا الهدف. بتكييف هذا الموضوع الشائن مع التشدق بالكلمات العزيزة على الاقتصاديين المحدثين، العرض والطلب يتلاقيان على قدم المساواة فى الأسواق الفعلية حيث يعرض اللحم الإنسانى بسهولة ويجد تهافتًا سريعًا.

الكلمة الاعتبارية هنا تصف الحقيقة تمامًا. أسواق النخاسة الحقيقية ليست مفتوحة، فى يوم العيد. أغلقتها المعاهدات. ولكن فى بعض أوقات من السنة تصبح مؤكدة على مدار فصول السنة، وتسهيلات أكثر فى طريقة النقل، لا تزال بدائية. المشترون يلحقون، فى وقت معين، بمتعهدى تسليم العبيد، فى جهات حيث لا يتعرضون لأية مضايقات من حماة القانون المزعومين والاتفاقيات الدبلوماسية.

عندما نفكر فى الدقة العلنية بالتقدم الإنسانى، الذى لا يمكن أن يتحقق إلا إذا أسرع بتمهل، فمن حقنا التساؤل عما إذا كان ذلك من أجل الشكل فقط ، نثور، بدون الاهتمام بطريقة أخرى لتحقيق النجاح النهائى الذى نرنو إليه.

تمت المطالبة بمقابلات، تحركت المجالس السياسية، ظهرت البلاغة كلها والبراهين. الطلبات الختامية تسبق القرارات التى كانت مسجلة قانونًا فى محاضر. ثم الطريقة والتأثر بالوقت كانت كافية، كل فرد انصرف وهو يشعر بسعادة ؛ لأنه ساهم بجزء صغير فى هذا العمل الكبير الذى ننتظر منه أكبر النتائج. ولكن رياح الواقع

السموم سوف تهب قريبًا على هذه الأعمال سريعة الزوال، ولن يتبقى منها غدا سوى آثار لا معنى لها.

الأفراد الأثرياء، كرام ونياتهم حسنة، الذين يتحدثون كثيرًا عن الإخلاص السامى الذى جاء على لسان موسى (عليه السلام): "هل ستحب قريبك كما تحب نفسك" ، ألا يمكنهم أن يتركوا، من آن إلى آخر "مسارحهم" الهائلة، وصالوناتهم المريحة، ويذهبوا ليشاهدوا بعيونهم الرجال والأحداث، التى يفكرون فيها على مرمى البصر عن حكايات وعن تخيلات؟

والأفضل يجب أن يكون ذلك كذلك حيال الدبلوماسيين الذين يفاوضون اتفاقيات أو معاهدات، يتوقف على تنفيذها، حرية الآلاف من الآدميين وحياتهم. فى الحال، راجت شائعة رسمية حول وثيقة موقعة وعين أشخاص أعدوها، وبعد ذلك تبادلوا الأوسمة والصلبان، تمجيدًا لكبار الأطراف المتعاقدة، مقتنعين بأنهم تسببوا عن جهل فى خطأ جسيم – هل يجب القول – نحو قضية التقدم البشرى.

الابتهاج الساذج الذى يرتسم على الوجه المقنع للدبلوماسيين المحبين للسود، يقترب كثيرًا من الهدوء الصادق الذى يرتسم على وجه بيكار الشجاع، مجيبًا على جاره الذى ينبئه بأن المنزل يحترق: "لا يهم إن مفتاحه فى جيبى". أما بالنسبة إلى فاعلية المعاهدات بدون أن تنعدم مطلقًا، فإن الصعوبات التى تثيرها – لأننا نريد أن نتجاهلها – تؤدى بلا شك بالمسألة إلى هذه الحقيقة المقررة: "ليس هناك ما يلزم بالمستحيل".

إنه من النظريات السياسية – الأخلاقية التى من الأفضل تسميتها "اليوطوبيا" أى الأوهام والسراب، وتعنى أيضًا مدينة فاضلة خيالية يعيش فيها الإنسان سعيدًا ، والتى بتحقيقها سوف تتجمع بعض الأفكار المتخصصة بإخلاص، ضد إضرارٍ بالمسائل الاجتماعية الظاهرة فى البيئة التى يعيشون فيها، وبمعنى آخر، مهمة.

كانت إنجلترا أول من شهدت بالرق. لم يمكن اعتباره جريمة. ولكن كان ذلك من مصالحها الخاصة وضد من هو من أعدائها الألداء: أمريكان الشمال والفرنسيين.

وكانت هى أيضًا أول من أنشد أنشودة حرب ضد الجمارك والقوانين المالية الدولية. فى هذا أيضًا، هذه الأمة المحنكة، وقليلة التشكك، تدافع عن قضيتها الشخصية. كان لابد من إدراك ذلك منذ زمن طويل.

القضاء على الرق بقوة السلاح وبالاتفاقات الدبلوماسية القمعية، هو إحدى هذه الأمانى السعيدة، العظيمة فى المضمون، ولكنها تتقارب مع تلك التى كانت تريد، من حوالى عشرين قرنا، تحويل - بدون فترة انتقال - البشرية إلى حواريى عيسى (عليه السلام) كان لابد من مرور ١٩٠٠ سنة على جزء ضئيل من سكان الكرة الأرضية ليصبح مسيحيا ظاهريا أو بازدراء، وهؤلاء هم على وجه التحديد التابعون للعقيدة التى استغرقت طويلاً لتتأصل، الذين يريدون أن يتحولوا بالتالى، بأهداف متنوعة،مهتمون تقريبًا، بمثابة خدم للحاكم، بالشعوب التى لا يقر بها شىء من أصلنا، ولا حتى الجلد أو البشرة، وكذلك قلة الذكاء.

الرقيق الأسود، أساسًا نظام توراتى، قائم، وسوف يستمر زمنًا طويلاً أيضًا، مهما تقلص ؛ لأنه عند الشرقيين - مسلمين ومسيحيين رعية، بدون تحيز طبقى - عادة، ومن ثم طبيعة ثانية.

وبناء على ذلك يجب القضاء على هذه الآفة الاجتماعية بل يجب اجتثاث جذرها، هناك حيث تسود ممارسة صناعة العبيد. إن الاقتصار على منع السود من الوصول إلى أسواق البيع، والتى سوف تصبح مستترة فيما بعد، لن يفيد هذا إلا بمثابة دواء مسكن غير مؤكد وغير مفيد.

إن الأطراف والمنافذ التى يجوبها النخاسون مفتوحة وشاسعة ومتعددة إلى درجة كبيرة ؛ حتى إنه يصعب حراستها بفاعلية ظاهرة. هؤلاء ليسوا فرسانًا للدون كيشوت الذين أرسلتهم حكومة ماليت - رياض من أجل حراسة شلالات النيل، حيث لا تمر سوى قوافل "تحويل الأنظار"، عندما يتلاقون عن طريق الصدفة، والتى سوف تنقص بمقدار جزء من تجارة غير مشروعة، حيث المحاولات الإنجليزية - المصرية لمنعها إجباريا، قد كلفت إسماعيل باشا ملايين الإسترلينى تنفق بلا جدوى، بمعنى أنها تنفق على المغامرين الذين يبيعون له خدماتهم.

ومفهوم أن شخصية جوردون باشا النزيهة والرفيعة، غريبة تمامًا بالنسبة لمجموعات السماسرة الذين نوه عنهم منذ قليل. الطبيعة الملتزمة لهذا الرجل الخير سوف تكون دائمًا بمثابة تشويش على هؤلاء الذين يغتابونه. وفضلاً عن ذلك فإن الفساد الذى يجرى مجرى الدم فى عروق الإدارة والبيروقراطية الدولية المصرية سوف تشل - أكثر فأكثر - حركة الموظفين المكلفين بتنفيذ المعاهدات المناهضة للرق. هل تريد تبغًا ممنوعًا؟ توجه إلى الموظف المكلف بمنع دخوله وادفع كثيرًا. إنها إحدى المكافآت الممتازة التى لا تقاوم. وقد زودت أسوان منهم بعبيد من الصفوة. اصبروا قليلاً.

سوف يختفى الرق شيئًا فشيئا، باندفاع الموج القياسى للمد والجزر الأوروبيين نحو وسط المناطق السوداء. ليس قبل ذلك. وكذلك فى غضون هذه المسيرة البطيئة ولكنها قادرة، سوء الحسابات والصعوبات لن تتوقف عن الظهور وبخطأ من الغزاة أنفسهم.

إذا كانت هناك شروط وقوانين لوضع الثقة فى الأوروبيين باعتبارها عوامل نشطة لحضارة نسبية، ولكن للأسف ظهر أنهم يسيئون إلى الأغلبية من أصولهم ، وأن هذه الظروف السيئة أثرت على الشعوب الشرقية حيث كان كرمهم مجهولاً معظم الوقت أو كان يزدريهم هؤلاء الذين يزعمون أنهم يصطحبون معهم الكمال الإنسانى.

ومن ثم إلى الكراهية، ليس هناك فرق، إن ذلك جزئيا فى قضايا تافهة من أول وهلة، ولكنها مجحفة ، والتى تستوجب الانكسار المعنوى للمسلمين وشعوب الشرق الأقصى للحركة الاستيعابية للعنصر التقدمى المسيحى.

وبصفة عامة، فى الخارج، الأوروبيون مقتنعون إلى أقصى حد بأنهم متفوقون، ثقافيا وأخلاقيا، ولهم الكلمة العليا، واليد الطولى، فى جميع الأنحاء، حيث القانون يسرى بقوة، يمثله رجل شرطة أو حرس بلدى، لا يظهر لاستدعائهم تمجيداً لهم.

رسالة رقم (٢٧)

نبذة نيلية على الطبيعة

الرق فى الشرق (ب)

دائمًا ما رأينا فى القسطنطينية وأزمير ومصر والهند الصينية ، ضباط بحرية بالزى الرسمى ، وسائحين ومسافرين ينتمون إلى الطبقات الراقية أو «متميزون» فى وطنهم ، يضربون دون رحمة – بسوطهم أو عصاهم – أهالىَ عزلاً ، لذنب وحيد اقترفوه ، هو أنهم لم يفسحوا الطريق بسرعة أمام هذه الصواعق الحضارية . ولما كانت القسوة على هذا النحو لم تعد كافية لوصف سمو المسيحى على المسلم ، أضيفت إلى وسائل العنف نوعًا من اللغة السوقية ، تطعن كل شخص بحماقة وبلغة غير مألوفة .

ولسوف نتساءل – بلا شك – عما إذا كانت هذه الحكايات حقيقية ، أو بطريقة أفضل ، كيف أن مثل هذه المخالفات للقواعد المستقرة للحياة المدنية وللتقاليد ، يمكن أن ترتكب ؟

وتفسير ذلك ليس صعبًا ؛ ذلك أن بريق الحضارة الذى يغلف تعليم الأوروبى بشكل أو بآخر فيتوهم أن يشكل جزءًا مكملاً لكيانه الأخلاقى ، هذا البريق هو الأكثر ضعفًا والأقل مقاومة عندما لا تؤازر مظهره صفات جادة للفكر والقلب . فماذا يعنى بعد كل ذلك «عدم الإساءة» نسبيا ، عندما يتعلق الأمر بعدم إذعاننا إلا للقهر الذى لا يقاوم ، خوفًا من القوانين البشرية ؟ فلا جدوى فى هذا المجال من الحديث عن الحواجز التى أعلى الدين من شأنها والتى انتقلت منذ زمن بعيد إلى سلطة الملك سوليڤو وتفيد منها جماعة المسرفين .

كم من ملاحظات لا تليق بسمع المسيحى الغربى ، ولم توجه إلينا ، فى هذا الصدد ، عن طريق موظفين مسلمين ذوى شأن رفيع ! إن أهالى مساكين قد تم استدعاؤهم بناء على طلب قهرى لأحد القناصل من ذوى رباط العنق الأنيق ،

لأنهم تجرءوا مرة ، من كل عشرين مرة ، على أن يردوا الصاع صاعين ، إلى فرنجة متغطرسين ومحرضين .

وعلينا ألا نخدع بما سبق : عوقب المدحورون ، بوحشية وبقسوة تحت سمع وبصر السلطة القنصلية ، التى كانت تتلذذ بنجاحها الدبلوماسى . فالامتيازات والشرف الأوروبيان كانا يقتضيان هذه الترضيات !

انتهيت الآن من خروج بسيط عن الموضـــوع ، المرتبط بنقاط كثيرة بمسألة الرق أو الاستعباد . كل شىء مكبل فى تروس العنصر البشرى المعقدة .

إن ما يحدث حاليًا فى أيرلندا يوضح أكثر من مرة كم تتعلق الأحداث العظيمة بقضايا صغيرة. إن تعظيم قوانين الحضارة – وكذلك الحضارة نفسها – لا يحتاج الكثير، فى طريق رجعى ينسحب على المــاضى ، ويغمــر طوائف خارج التحضـر فى مغامرات إجرامية تتعلق بقانون الأقوى ، وهو أمر أخطر مائة مرة من الاستعباد .

وكما أننا لا نستطيع بصراحة إثبات ما رأيناه بأنفسنا ، فسوف نذكر هنا بعض الملاحظات الخاصة لتعضيد الملاحظات السابقة من أجل إلقاء الضوء بطريقة أفضل على السمات الأساسية لهذه الدراسة .

الناس أو الطوائف الذين يكثر حديثهم عن الحرية الشخصية والذين يصبون إلى التمتع بجرعة كبيرة من الاستقلال ، هم بصفة عامة ، متغطرسون وغلاظ القلوب نحو خدمهم سواء كانوا أحرارًا أو عبيداً . كل قاعدة لها استثناءات ناجمة عن الميول العرقية ، أكثر منها إلى تأثير التعليم النسبى .

هكذا فى ولايات الجنوب بأمريكا الشمالية ، واستميح هنا العذر لمؤلفة «يخت العم توم» الماهرة ، أنه من بين أصحاب المزارع والقراء اليانكى (الأمريكان) المقيمين أو من هم بين أحضان سلالات عائلات الشمال ، كان يوجد أكثر السادة صرامة ووحشية . فهل يساورنا – فضلاً عن ذلك – أدنى شك فى أن التصرفات السيئة التى يندى لها الجبين ، والمكلف بها سادة العبيد ، فى جنوب الولايات المتحدة كانت مهولة بلا داع ؟ تلك حقيقة لا يمكن دحضها .

أين يوجد أكثر مما فى نيويورك وواشنطن ، أسود حر ، أصبح من مواطنى الولايات المتحدة ، ذو بشرة أبنوسية ، هو أيضًا فى هذا الوقت منبوذ فى كل التجمعات العامة ؟ فلا أحد يريد حتى الجلوس إلى جواره فى مكان عام !

فى الشرق ، عندما ازدادت ونمت الحركة الإنجليزية لمناهضة الرق حتى وصلت إلى التدخل الدبلوماسى ، أظهر أصحاب الأمر والنهى من اليونانيين والأرمن واليهود أنهم ليسوا فقط الأكثر مقاومة لها فحسب ، بل أيضًا هم الذين صدر عنهم أكبر عدد من المخالفات فى علاقاتهم مع عبيدهم . فاليهود لم يجرءوا على معارضة أى جهاز ، وذلك ما جعلهم من أقل المتمردين ، دون التخفيف من درجة جشعهم عندما كانوا يريدون أن يبيعوا للمرة الثانية أحد عبيدهم فى غفلة من القانون أو بالاحتيال عليه .

بعض الرهبان اليونانيين ، من أدنى مكانة إلى أرفعها قدرًا ، رفضوا – لحقبة طويلة – عن طريق بعض المناورات غير المؤثرة – أن ينفذوا مراسم التحرر ، كل منهم يبذل قصارى جهده فى التخلص منها بين أبطال الاستقلال شريطة أن تقترف كل الأعمال الجائرة ضد المسلمين ، ولصالحهم .

ولا يتأتى ذلك إلا عندما يعلم السود أنفسهم ما كان يحجبه عنهم أصحاب الأمر والنهى بحرص شديد بعيدًا عن القرارات القنصلية الخاصة بالعتق التى كانت تنفذ ببطء ولكن بفاعلية . فعند الضرورة ، كان العبيد يهربون باللجوء إلى الشرطة ، وأيضًا إلى مقر أحد القناصل ، فتسلم إليهم شهادة العتق فى الحال .

لا يوجد أى شعب، من بين تلك الشعوب التى تتخلى تطلعاتها القومية والتحررية ، أكثر صرامة واستبدادًا من الشعبين اليونانى والأرمينى ، فى معاملته لهؤلاء الذين يخضعون لأمره وسلطته ، فهم يعتبرونهم من أدنى الطبقات . ويوجهون فى تعاملهم مع هؤلاء الذين يعتبرون أنفسهم أسمى منهم ، الكثير من الكلمات البذيئة والحركات التى تخدش الحياء ، بينما فى تعاملهم مع الأغنياء والعظماء فإنهم يجاملونهم بإفراط ، ويتأدبون معهم أدبًا جمًّا . فالتثقيف ليس غريبًا عليهم ، ولكن ما ينقصهم تمامًا هو التهذيب . هذه الشتائم والكلام البذىء والفظاظة التى لا داعى لها ، منتشرة فى جميع الأنحاء ،

وهى على لسان كل شرقى ، بحيث تثير الدهشة لدى الأجنبى ، الأقل استيعابًا لها والأقل قابلية لانتشارها ، والذى بدون قصد يقارن بين أجنبى مهذب ولغة رديئة لا يوجد ما يبررها . فى جامايكا وفى الهند الغربية لم يكن الإنجليز أكثر رقة كأسياد حيال عبيدهم من أمريكان الولايات المتحدة . الفرنسيين فى مستعمراتهم كانوا أنانيين مثل جميع أصحاب المزارع ، ولكن أكثر وداعة وأكثر إنسانية .

فى الشرق، كان الأهالى المسيحيون فى هذا الصدد ، على النقيض من المسلمين . عند المسيحيين كان العبد يعامل بكل وحشية ، بينما عند العثمانلية (العثمانيين) يعتبر العبد فرداً من أفراد العائلة ، له حرية مطلقة فيما عدا بعض الاستثناءات .

ها هو بخطوطه العريضة ، عرض موجز لعلاقات الأصول والأديان المختلفة حيال الرق الأسود ، الذى ألغى حاليًا قانونًا ولكن ليس فى الحقيقة .

إلى جانب الرق الأسود ، نما وترعرع – وإن كان على مستوى أقل إلى حد كبير – الرق الأبيض ، شائع بين الجنسين ، ولكن كانت للمرأة فيه مكانة بارزة .

هذا الجانب الأرستقراطى من الرق معروف ، لن أروى تاريخه . بعض السلطانات ونساء مرموقات ، زوجات لأصحاب الرتب العالية ، وعدد من رجال الدولة الذين شرفوا حكومة الباب العالى ، لم يكن لهم منشأ آخر .

سوف أهتم فقط ، فى الجزء الثانى من هذه الدراسة ، بالمرأة البيضاء ، أوروبية وآسيوية ، التى لحقت بالحريم بناء على قانون الشراء ، لتخدم فيه أولى الأمر من الجنسين ، والتى هى ملكية منقولة قاصرة فقط على صاحب الحق فيها ، أى الحريم . وضع أولئك الفتيات ، اللاتى باعهن آباؤهن بمحض إرادتهن ، بعيد عن أن يكون مرغوبًا فيهن .

جميعهن ، وتلك هى القاعدة ، يخضعن للرجل الذى يمتلكهن ويأتمرن بأمره ، ذلك هو ما يعرفنه باختصار عند دخولهن فى الحريم . وبصفة عامة فإنهن لا يستحين من أى موقف يبدو لهن طبيعيا . فى الشرق عند المسلمين ، تعرف المرأة الأكثر عفة

بالفطرة أن مهمة جنسها مهمة مادية أكثر مما تعرف الأخريات ، فهى لا تخضع إلى شكليات قانونية وتعصبات اجتماعية من تلك التى تغطيها انحرافات الحضارة المسيحية فى الغرب ، مستبعدة عن الفكر الذى تهيمن عليه الغريزة الجنسية .

إن أجملهن وأكملهن تنتقلن إلى فراش صاحب الأمر والنهى ، وتصبحن سيدات - أمهات عندما يولد طفل - فى هذه الحالة يتحسن وضعهن ويتبدل حالهن ، وبدلاً من أن تخدمن ، تقدم لهن الخدمات . ولكن كثيرات منهن ، من هذه الفئة ، لا تحملن مبكراً ثمرة حبهن . فالإجهاض علم سهل فى الحريم ، وأصبحت السيدات الشرقيات خبيرات فيه . ولا يتطلب الأمر إلا أن تقوم به فى الموعد المناسب ، ولا توجد حاجة إلى أى طبيب أو خبير . وذلك عمليا ، أسهل إجراء فى العالم .

أما الجوارى الأقل جمالاً ، أو اللاتى تحابيهن الطبيعة ، لا تتوافر لهن الفرص نفسها - هن فى آن واحد ، وإلى حد ما ، الصديقات والوصيفات الحميمات لسيدات مرموقات ومربيات أطفال .. إلخ ، مخصصات لجميع الأعمال الداخلية ، باستثناء أعمال المطبخ والأعمال الدنيا ، والمخصص لها الجوارى السود .

يقمن بخدمة صاحب وصاحبة الأمر والنهى فى البيت بدون تمييز بنهما . ولكن إذا كان صاحب الأمر والنهى له عدة زوجات ، فإن بعض الجوارى يخصصن لكل واحدة منهن . اللياقة تتطب ذلك . وهن بصفة عامة ، موسيقيات وراقصات ، وهن بهذه الصفات يساهمن فى تسلية العائلة .

لا ينقصهن أى شىء : غذاء وكساء ، وكل شىء مناسب ، بثراء وفائض ، وفقًا لمركز صاحب الدار ، لأن الجوارى البيض يظهرن الأبهة والعظمة فى أيام العيد وحفل الاستقبال . بحيث تبدو على الحشد كله مظاهر البذخ والترف فى أبهى صوره ، متخذاً مظهراً زخرفيًّا يكمل - على نحو رائع - اللوحة الداخلية .

وباختصار ، كان الأشخاص العظماء دائمًا ما يزوجون جواريهم من المحميين الذين لا يرون فيهم ضعفًا . يتعين المهر وتتوطد أفضل العلاقات بهذه الطريقة .

أغلب الجوارى البيض ، رشيقات وجميلات ورقيقات ، يتمتعن بالذكاء والمهارة . يجدن التطريز والوشى والحياكة وكى الملابس . ونظرًا إلى أن سيدات الطبقة الأرستقراطية المسلمات يرتدين الآن ثيابًا من باريس أو أزياء مختلطة من قطيفة وبليسيه ودانتيللا ، فإنهن يحتجن إلى الأيدى الفنية الأوروبية المدربة . كذلك فإن بعض الحريم المحظيات لهن أيد خبيرة تعد التلميذات مربيات الجوارى البيض .

ولكن الحالة المقبولة إلى حد ما لأولئك الفتيات فى الديار التى يوجد بها كثير من الزوجات الشرعيات - لا يزيد عددهن عن أربعة - تتغير بشكل ملموس إلى الأسوأ ، عن حالة الفتيات فى الديار التى لا يوجد بها سوى زوجة واحدة .

على سبيل المثال ، تزوجت إحدى الأميرات من أحد أصحاب السمو ، أو من باشا عادى - وذلك ليس نادرًا - لأن الأميرات كثيرات ، لا يستطيع أن يجلب لها غريمة ، بحكم القانون . فالزوج ملزم بأحادية الزوجة وهى صاحبة الحق فيه ، زوجة واحدة شرعية ، تحكم بمثابة رئيسة رفيعة فى الحريم .

ويل لكل جارية بيضاء تملك مقومات جسدية ساحرة ، من بنات جنسها ! وسواء اكتشف صاحب الأمر والنهى أم لا ، أو لاحظ مزايا الخادمة ، يبدأ الاضطهاد ، بتكتم فى البداية ، إنها الحرب المرتقبة ! ليس بحثًا عن وقوع الشر . فالعيون تترصد فى كل مكان ، الجدران والأبواب تسمع وترى . الغيرة المتولدة عن الحب أو الكبرياء ، تحب الصخب . فلها خطتها ووسيلتها ، الماكرة والمتوحشة ، فى الحريم كما فى أى مكان آخر . هل فى هذا تعويض عن الإكراه المفروض على روح الاستقلال التى تبعث الحياة فى الإنسان الكامل والموهوب حقًا ، والذى لا تفقد قدرته حقوقها أبدًا ؟ أم أن لذة الانتقام تعادل عند المرأة ، إحساسها بكبريائها ؟ ليس فى الإمكان قول ذلك .

واحدة من تلك الفتيات ، إذا كان لها شعر جميل - وتلك سمة من سمات الجمال الأقل ندرة فى الشرق - لو أن الزوج الذى إذا أمعن النظر وبدا عليه أنه قيَّم وقدَّر - حتى ولو كان ذلك فى تكتم - رقة هاتين الجديلتين المتموجتين ، فإن فى ذلك ما يبرر إعلان الحرب ، فى حين أن كل واحد يتوخى الحذر . كل شىء ممكن .

اتسعت الغيرة وتأججت نيرانها ، لتتحول إلى حقد عنيف ، غيرة قاهرة حتى إنها تبتكر عقوبات يومية صغيرة ، يملؤها كيد النساء وتفننهن . ومن ثم ، ننتقل إلى السوط أو الكرباج (المصنوع من جلد فرس البحر) وأيدى السيدة العظيمة هى التى تهوى وتضرب . وعندما تتفاقم الأمور ولا تجرؤ سلطة الزوج على التدخل ، تقيد البائسة فى عمود ، عارية أو بغلالة رقيقة ، وتساط بدون شفقة حتى يسيل دمها . الحريم متسع والغرف لا ينفذ منها أى صوت . ولا خوف من أن تصل صرخات التعسات الممزقة إلى الخارج . هذه الشعور الجميلة ، يتم قصها ، وذلك يعنى إهانة بربرية ومكروهة . ومن شدة البكاء والدموع المحرقة المنهمرة ، تضعف هذه العيون الجميلة التى كانت تضىء هذه الوجوه الحلوة واللطيفة وتفقد بريقها رويداً رويداً بسبب برىء إلى حد ما وعواصف مخيفة .

كانت الثرثرة وترويج الإشاعات والأكاذيب التافهة أو البذيئة تشكل الحياة اليومية للسيدات الشرقيات . الكذب فى الشرق ، وفى الحريم مثلما فى أثينا وكريت ، وكل فرد يغالى فى استعمال الخيال . المخصيون والقديمات فى الحريم ، هم الذين لهم النفوذ والسلطان ، يتناولون أتفه الخزعبلات ، ويشكلون ، حسب الحالة ، يسار أو أقصى يسار الحريم فى وسط المقر الهوائى النسائى . أقحم صاحب الأمر والنهى ، وجه إليه النصح والإرشاد ، طوعاً أو كرهاً . يجب عليه أن يذعن . هو أيضاً مفعم بالمعتقدات وخضوعه مقبول ، إلا أنه من الصعب تصور طبيعة واختلاف قمة ممارسات الخرافات فى الحريم .

كذلك الخديو الحالى نادراً ما يخرج من مقره ، دون أن يكون قد استمع إلى «حظة اليوم» الخارج من كوم صغير من القول ، أثارته وأهاجته وأعدته مشعوذات عاديات أو فوق العادة من الحريم . ذلك هو قدس الأقداس ! رياض باشا شخصيا ، وهو السياسى الكبير ، توطن فى الظروف الصعبة إلى الضغوط ذاتها . محفل السبت لأولئك السيدات موعده ومكانه عنده فى بيته مثلما هو عند الأكثر ضعفاً وبلاهة من زملائه .

رسالة رقم (٢٨)

نظرة إجمالية نيلية وفقاً للطبيعة

الرق فى الشرق (ج)

إن مخنثًا حديث العهد ناقص الخبرة وجد على سطح القصر عقابًا منسوريا عجيبًا ترك نفسه ليؤخذ. حمله منتصراً إلى السلاملك (الشقة التى يستقبل فيها السيد الأجانب) وكان تقريبًا مصعوقًا بواسطة هيمان الباشا تابعه المذعور . تركوا الطائر وخلال خمس عشرة ليلة أتى الدراويش من القاهرة مولولين ومارين بالتناوب ليطردوا الأرواح الشريرة من القصرء ، ويقال إننا نرى ذلك فى الغرب وهى المؤتمرات النائية التى تحافظ بالتنافس وتبالغ فى الشكاوى الحقيقية أو المفترضة لسيدة القصر التى تجيز بطريقة ما التهورات التى لا توصف ووطء الأقدام التى لا تعقل للزوجة المهانة عندئذ، وغالبًا وكثيراً، عندما لا تختفى الأمَة البيضاء من هناك بواسطة الهرب أو الانتحار تموت تحت العقاب فى مقبرة محفورة بطريقة سيئة فى آخر الحديقة بينما ماء صهريج الرى يستخدم ككفن للبنت الجميلة، ضحية غيرة متوحشة غير مبررة فى معظم الأوقات.

فى بعض الأحيان يحدث أن السيد الشرس والمتقلب الأطوار والمائل للانتقام يكره أمة بيضاء أقل خضوعًا أو أقل مهارة من رفيقاتها. عندئذ تمطر اللطمات والركلات والضربات بالعصا بغزارة ، المسكينة التى تجد بالتالى بروح المعارضة حليفة فى سيدتها يوجد نزاع على السلطة الزوجية. إذا كانت السيدة موهوبة (بروح) صارمة (حازمة) يكون السلام صعبًا بواسطة أحقاد الزوج التى تقع بلاشك على الأمة فى غياب المرأة.

باشا معروف جدا، زوج أميرة ساحرة، وهو مهذب جدا وذو نسب طيب ولكنه كثير الغضب وغريب الأطوار ، لديه هوس بأنه لا يجد أبداً سريره مرتبًا جيداً. هذه النفس الشاذة لها أقران فى أوروبا. كل مساء يحدث مشهد جنون ثائر والصفعات التى تتلقاها الأمة المسكينة على كل أجزاء جسمها من الصعب عدها. والأسوأ هو أن هذا السيد لا يريد إلا فتاة أخرى تلمس سريره. وعندما يتم التصحيح يكون الهلع تامًا ،

كل الإماء يختفين والفزع يكون مطبوعًا على الوجوه. فلنفترض الآن ، فى هذا الداخل شبه الأميرى والأحادى الزواج، حالة حمل بين الإماء ، ما الذى يحدث فى كل مكان حتى فى أوروبا حيث تعدد الزوجات الشرعى لا يكون مقبولاً... يا له من مصير سيكون للمذنبة !

الأطراف تتحاور، عندما تُعامل امرأة بقسوة لمجرد عدم المهارة أو بواسطة نزوة حتى جعلها عاجزة بقية أيامها لا يبدو محتملاً أن الغيورة المندفعة لا تمضى إلى أقصى القسوة فى وجود حالة تلبس بجريمة خيانة زوجية .

ومع ذلك العكس هو الذى يحدث ، فإن ذروة تجاوز الحد تمهد عمومًا الغضب المتصاعد لنوبة حادة. إذا لم يعد الإجهاض ممكنًا، فيتم طرد الأمة أو يجدون لها زوجًا وفى بعض الأحيان تقتل المسكينة وهذا نادر ، وكل شىء يقال.

إن جنايتى شخصية رفيعة فى القاهرة، هاو كبير للزهـور وللأكثر رقة للقلب، أتى ذات يوم من هذه السنة ليعلم سيده أن أمة بيضاء، معها تحت ذراعها لفة من الأسمال (أمتعة قديمة) ، كانت قد التجأت إلى سرادق الحديقة.

وبهذه اللامبالاة للقاسى، القادم للبلاد الحارة، أجاب الأمير دون تفكير: " هذه يجب أن تكون أمة تنتمى إلى أختى" حيث عقارها كان ملاصقًا له.. "أرجعها إليها" كان ينسى هذا الباشا الشهم أن العقاب محجوز للهاربة بواسطة هذه السيدة الكبيرة القاسية فى ساعات هيجانها، وبعد يومين لم تعد الفتاة موجودة.

ومع ذلك، فإن هذه القسوة اليوم منتشرة قليلاً ولكن الوحشية القليلة للسيدات المتوفرة للإماء هى عملة مازالت رائجة جدا .

كلما كان الكائن البشرى يمتلك حرية عمل كل شىء دون معاقبة، مال إلى أن يكون فى وضع فوق القانون عندما يكون المقصود إرضاء أهوائه ورغباته.

الحرية تكون متسلطة – هذه البديهية لا تكون مناقضة لرأى الكافة – وأكثر انحرافاتها الكبيرة فى معنى الظلم تتولد تحديدًا من المعارضة المنطقية التى يفعلها لها العقل والإنصاف. إذا كان ممكنًا أن تخضع أفراد أحسن موهبة، ومختارين فى حضن

الحضارة الأكثر أدبًا، تحت تجربة حياة الحرملك، فمن غير المؤكد أن يفلت رجال ونساء وهم مستسلمون لأنفسهم من إغراءات التعسف المؤلف من الرغبات الجنسية. فالمشاهد والدراما الطبيعية المشتركة فى حياة الأسرة لمختلف الطبقات فى العالم الغربى والشائعة فى أوروبا تسمح بالشك فى هذا الخصوص.

عند العثمانيين، فإن حرمة الحريم توجد فى كل مفهوم الكلمة ، بالرغم من بعض الاستثناءات المنصوصة بواسطة الإصلاح القانونى. هذا القانون، فوق ذلك يكون منسجمًا مع الاستخدامات التعسفية والعدوانية لجنس جبار تأكد بالسيف الذى حددتها تعاليم القرآن حقًا. خلف حوائط الحرملك فى حضن الحريم كان السيد يسود ولا أحد كان يجرؤ على أن يرفع الحجاب الذى تحته كانت تختبئ ألغاز الحب والانتقام لغيرة لا تلين لتلك الخاصة بالسياسة ولم تكن دائمًا غريبة. أكثر من رجل أوروبى أنيق مغامر ومتيم ببعض المسرات، دخل إلى الحرملك لكى لا يخرج منه لا حيا ولا ميتًا .

القسطنطينية والقاهرة ملكا عاهراتهما المنعزلات المختارات لعشاقهم لبعض الأيام أو لبعض الساعات من ركن من نوافذهن المغطاة بشبكة حيث كانوا يرصدون ممر الشباب الوسيم المسلمين أو المسيحيين مثل العنكبوت الذى يتربص بذبابة.

هذه العربدة الكئيبة لم يكن لديها أى رنين - المقبرة والمخنثين يكونون صامتين . إحدى بنات محمد على خديو مصر كسبت شهرة ما فى هذا النوع "برج نسلية" فضلاً عن ذلك فإن هذه التجاوزات كانت نادرة .

لا تعرف أن تنكر أن السيدات الكبيرات للعالم المسيحى اللاتى، خلال قرون ماضية، كن يخنقن بندمهن فى الدم أو السم صيحات المتخلين عنهن لم يكن أكثر جرمًا من أخواتهن فى الشرق. كان لديهن التهذيب والتربية والحرية لكى تقودهن على الطريق المستقيم. كثيرات استخففن بالقوانين التى عرفن أيضًا كسر أبواب قصورهن أو صالوناتهن الصغيرة.

ومن جانب آخر ، الحالة الاجتماعية الأوروبية والمراكز الأكثر تمدنًا والدور الذى يلعبه الزواج المدنى والمسيحى يعطى للأخلاق المقارنة للشعوب، مغرم الذى يعيد على هذا النحو بناء الأسرة المسلمة ، حيث المتوسطة فيها تكون أعلى تمامًا من تلك التى يستطيع الغرب أن يقدمه.

وللأسف، فى العصر الحالى للتقدم الذى نحن فيه فإن الحياة الداخلية للأسر المسلمة للطبقة العليا فى تركيا وفى مصر تميل إلى التطور بالاتصال المادى أو المعنوى اليومى بالعنصر الأوروبى . إن النساء الأتراك للطبقة العليا يخرجن أكثر ويتمتعن بحرية أكبر، كثيرات من بينهن لهن وصيفات أوروبيات لا هن فتيات فاضلات ممنوحات تاجًا من الورود لصيتهن الحسن ولا هن ممنوحات جائزة البارون مونيتون الذى يمنح جائزة عن الفضيلة والأدب، بالعكس ففى القاهرة والقسطنطينية فإن الأميرات وزوجات رجال الأعيان يستقبلن عندهن الخلاصة المركزة لنشاط الدولة المالى العالمى ونبلاء الفوائد الربوية وزوجات القناصل، باختصار، يحل ازدهار طبقة الكوكودين فى هيئات شبه أرستقراطية على موضة اليوم كثيراً . فى زيارات المراسيم هذه، ثرثرات عن ملابس النساء وصالون النساء الصغير المشبوه. الشرقيات ناقصات الخبرة متطلعات يسمعن ويستفدن من هذه الدروس المقدمة بواسطة - أناس - أيا كان مزينا بالماس لم يكونوا فى وضع الوعظ، على سبيل المثال الفضيلة للمرأة العثمانية أو التركية .

ما الذى يوجد أكيداً! هذه النفحات للرياح التقدمية لم تحسن وضع الإماء البيض اللاتى تفكر فيهن قليلاً والذى يتفاقم كل يوم .

رسالة رقم (٢٩)

نظرة إجمالية نيلية وفقًا للطبيعة

الرق فى الشرق (د)

إن سقوط إسماعيل باشا والتدخل الإدارى لأوروبا فى الشئون المالية جعل النقود نادرة ، حيث لم تعد تستطيع الأسر الكبيرة أن تنفق منها كثيراً. عسر مالى تلاحق وعديد من الحريم اضطررن أن يطردن الإماء اللائى كان يمكن الاستغناء عنهن.

معظم هؤلاء المهجورات اللاتى لا يملكن موارد أخرى إلا البغاء استُحوذ عليهن بدون ضياع دقيقة واحدة، واستغل تماماً أصحاب المقاهى اليونانيون والأرمن هذه النغمة الحزينة غير المتوقعة. وفى الشتاء الماضى استطعنا أن نشاهد فى المقهى البلدى الكبير

لحديقة الأزبكية المدار بواسطة يونانى ذكى من ٥٠ إلى ١٠٠ امرأة تركية وشابات وجميلات ومزينات جالسات كل مساء حول تربيزات وهن يتناولن مشروبات على صوت الموسيقى فى انتظار منديل العاشقين ، هذا الحدث كان معايناً فى حضورنا بواسطة العديد من الموظفين المسلمين الكبار، أعضاء الحكومة الجديدة الذين سيقدمون بلا شك بعض المواساة لهؤلاء التعيسات ، ونحب أن يُعتقد فى ذلك .

عند رحيل الخديو المخلوع، كان يحتوى أحد قصوره على أكثر من ٤٠٠ أَمة بيضاء معظمهن موضوعات بالجراية الكافية بواسطة سادة المراقبة ومازلن خليلات ينفق عليهن بواسطة الخديو المخلوع تحت مراقبة إحدى سيدات الحرملك، تدعى ككيايا باشا. هذه الموظفة تمنع الجنس النسائى من التعدى فى الحريم الأميرى وملاطفة التابعين المنتقين لملذات السيد :

نعرف الهموم التى عاناها الخديو بخصوص إمائه البيض فالبعض منهن كما يقال هربن إلى نابولى.

يبدو من بين المضايقات الأخرى أن إحدى هؤلاء الفتيات البديعات بجمالها كانت مباعة من القاهرة إلى القسطنطينية بواسطة أحد موظفى إسماعيل. سافرت الأمة وكانت حاملاً ، سيدها الجديد طالب على الفور بنقوده .

وبسؤالها بواسطة الوسيط أجابت المرأة الشابة بسذاجة أنها كانت قد شاركت سرير الخديو ذات مرة! وعند علم إسماعيل باشا بالواقعة استدعى المرأة وعمل على إعادة ثمن المرأة. عادت هذه الأمة من نابولى إلى القاهرة فى بداية السنة الجارية.

وبإخلاء طرف إسماعيل باشا، يجب علينا أن نعترف بالإجراءات الممتازة لهذا الأمير نحو نساء حريمه. حتى إن السيدات الأوروبيات سوف لا يرفضن أن يعترفن بحقه فى هذا الخصوص، ولقد قلت بصوت عال كم من قليلات كبار السيدات كن يعرفن أن يضبطن مزاجهن السريع الغضب ونوبات الغضب التى تقودهن إلى ارتكاب الأفعال التى تستوجب اللوم والجديرة بالعقاب.

ها هو المثال الذى يختم هذه الدراسة عن الرق الأبيض .

في عام ١٨٧٠ إحدى البنات عشيقات إسماعيل باشا متزوجة منذ زمن قليل كانت تموت في الرملة بالقرب من الإسكندرية بشكل غير متوقع كثيراً ، بعد مرض دام بضعة أيام كان قد صرح به الطبيب الأوروبي للخديو بأنه غير خطير. كان صاعقة حب وحداد عام. وصلت الأميرة والدة الفقيدة على الفور بعد الوفاة واسترسلت في إظهار مشاعر حزنها الشديد الصاخبة والمألوفة تماماً عند الشرقيين لكل مذهب.

في النحيب تتابعت الأسئلة ونوع من التحرى (التحقيق) لم تتكهن بشيء طيب بالنسبة لحاشية الأميرة المتوفاة.

واستعلمت الأم عن أقل الظروف التي سبقت الموت. فهي علمت أن ابنتها كانت قد لفظت آخر نفس بمجرد أن شربت من الماء البارد من الإبريق الفخار الذي أحضرته إليها أمة محظية...

استدعت الأميرة التي أصبحت كالأسد فوراً أمامها الوصيفة الشابة التي في عنايتها كانت قد روت ظمأ سيدتها المحتضرة.

ماذا كانت مفاجأة النفس للعنان بدون أسماء عما قريب تكون متبوعة بعنف الذي وقع في هذه المواجهة الفظيعة ؟ من السهل جداً أن نتصورها من أن نصفها كلامياً.

كان للمشهد نهاية مكنت الأميرة بمفردها أكثر هدوءاً. ولكن ماذا أصبحت الأمة؟ في اليوم التالي للأحداث التي رويناها منذ قليل، على مسافة بعض مئات من الأمتار ربما قليلاً من قصر الرملة في إحدى هذه الخلجان الصغيرة الرومانسية، التعرجات المحفورة بواسطة البحر الأزرق والمقفولة في عرض البحر بواسطة الصخور القريبة من شاطئ البحر حيث مياهها المتموجة تأتي لتموت على الرمل ، على بعد خطوتين من الحمامات حيث تلهو باللعب الأوروبيات في المصيف ، وذات صباح لمح جسم غير متحرك لامرأة شابة. مستحم في الصباح فرد من المستعمرة الفرنسية لاحظ الجثة حيث اقترب منها فوراً. الجسم الذي كان مستدير الوجه في الماء كان ممدداً على شاطئ البحر ومطموراً بالكاد في مكان ليس له أي عمق. شعر غزير بني كستنائي وغير مربوط كان يطفو مطلقاً حول الرأس الذي كان يخفيها تماماً. جذب المتنزه الجسم إليه، وكان قد اقتنع أن الحياة كانت قد خفتت منه وذهب ليبلغ مركز البوليس لمحطة الرمل الذي حضر على الفور لينتشل الجثة .

فى مركز الحراسة، قاموا بعمل التحقيقات الآنية فى حضور جاناكو كابيتان وإلياس مصطفى بك وهو يونانى مرتد عن الدين، ورئيس البوليس السرى المعين خصيصاً لمواطنيه.

الجثة سليمة تماماً، دون أى أثر لجرح إلا ثلم خفيف مائل للزرقة حول الرقبة، وكانت مرتدية قميصاً رقيقًا جداً ناصع البياض. كان ينقص السروال ولكن جوارب بيضاء نصف حريرية تتجاوز الركبة كانت تغطى الساقين بلا انسجام أيضاً . والقدمان صغيرتان دقيقتا التكوين مثل اليدين وكانت تنتعل حذاء نصفيا أنيقًا بشريط نصفه من الجلد الطبيعى البراق والنصف الآخر من القماش الأزرق . العيون واسعة ومقفولة تترك رموشا طويلة ترى ويعلوها حاجبان مشكلة جيداً ومحددة ملامح الميتة تعبر عن سلام النعاس دون أى تشنج يُرى ، وكانت جميلة ومتسعة الأنف والفم ، والذقن بالشكل الآسيوى دقيق ومتناسب. الأذن كانت مخرومة، ولكن دون وجود أى حُلى – ليس إلا أصابع طويلة ورقيقة. كانت قامة الفقيدة متوسطة مائلة للطول وكانت فى حدود ١٩ عاماً. قاموا بالتخمينات. أهى جثة امرأة أوروبية أم يونانية؟ من كان يستطيع الإجابة، المتنزه الذى سوف نسميه السيد إكس (X) والذى كان لديه خبرة ما فى الأجناس، جازف برأى لم يكن على هوى كابيتان.

السيد X بدلاً من البحث هنا عن جنسية هذه المرأة، البوليس والهيئة القنصلية يجب عليهم أن يكونوا مبلغين. أوصل الجثة إلى قسم البوليس فى الإسكندرية.

كابيتان : فى ماذا تتدخل حضرتك، نحن نعرف واجبنا. تفضل انصرف.

السيد X هب لوقته إلى الإسكندرية عند صحفى مستقل من أصدقائه وحكى له ما حدث منذ قليل ، وحرر عن ذلك فوراً مذكرة لصحيفة الغد.

ومع ذلك ، بعد تفكير قرروا أن ينتظروا نسخة الجريدتين الرسميتين اللتين لم يفوتهما أن يتحدثا إلى الجمهور عن حدث كان من قبل على كل الألسنة. ظهرت الصفحات ولا كلمة بهذا الخصوص.

نشرت الجريدة عندئذ مقالة السيد X ... ملتجأة إلى الجاليات وإلى القناصل فى مصلحة الكل. سكوت تام من كل الجوانب.

لم يستطع السيد X أن يقاوم الرغبة فى معرفة ما فعله البوليس، وذهب إلى مدير الشرطة الذى كان معه على علاقة اجتماعية طيبة. بدا على سعادته أولاً أنه يجهل كل الذى عرضه السيد X عليه، ولكن التفاصيل المقدمة بواسطة ذلك الأخير (السيد X) أطلقت اللسان الرسمى للموظف.

الموظف : إنها وصيفة أوروبية بميناء الإسكندرية متروكة بواسطة حبيبها انتحرت بخجل من البك . كما لو كان يريد إثارة محدثه لينفتح أكثر.

السيد X : كيف .. منتحرة .. هل تجهل بالصدفة أن الجسم كان ممدداً فى لسان قليل العمق جداً حتى إن الماء كان لا يصل إلى نصف الساق.

سموه: حسناً، لكن الغريقة كانت آتية من عرض البحر.. تيارات الماء قوية !

سعادته نظر إلى السيد X .. لمدة دقيقتين بهيئة رجل لسانه و تفكيره يبحثان ألا يفتضح.

السيد X : وحزام الصخور القاطعة والمسننة الذى يقفل اللسان بإحكام ؟ أسباب غير وجيهة بما يكفى. ماذا فعلوا بالجثة؟ هل غرقت أو أن أحداً طلبها؟

عزيزى X ... قال فوراً البك سأجيب بصراحة على أسئلتك ولكن احفظ جيداً . الرأى الذى سيلى تصريحى أنا أصرح لك به ودياً .

نُقل الجسم من محطة السكة الحديدية بالرملة إلى المستشفى الأهلى حيث لم يتعرف عليه أحد ولم يطلبه أحد ودفن بلا ضجة فى مقبرة المسلمين.

أنا أفهم شكوكك كأوروبى . ولكن لا تتدخل أبداً فى هذه الأمور إذا أردت أن تعيش فى سلام ما دام لا يخص أحد أفراد أسرتك.

قلما كان السيد X متعجلاً كثيراً ولكن شكوكاً غريبة عبرت عن نفسها... لم يكن إلا بعد ثمانية أشهر حتى إنه علم من سيدة بالقصر والمشهد سبق وصفه وخنق الأمة بواسطة خصلة من شعرها الطويل. والجثة مازالت دافئة حُملت أثناء الليل إلى شاطئ البحر وغمست بخفة فى الماء لتحويل الشكوك. لأن الآراء غير المبنية على استدلال صريح كانت تتعارض عما كانت قد دفنت بالقرب من المكان الذى ماتت فيه الأميرة.

باختصار، مسموح الاعتقاد بأن الرق الأبيض كان فى سبيله إلى التضاؤل شيئًا فشيئًا. الثروة الخرافية للأتراك للطبقة العالية قلت كثيرًا. المانع الأول منها سيكون أفضال التعليم التى ستؤدى إلى تهذيب أفضل الأسر.

والذى سيقلل وسيلطف الرق أفضل من الاتفاقيات الموجودة التى عن طريقها سيعبر الدبلوماسيون بصعوبة أبواب الحريم للتحقيق إذا كانت الحرية منحت فى الزمن المتفق عليه لكل المعتزلات بواسطة حق الشراء. منذ أن قدم سمو الأمير حليم المصرى القدوة الحسنة بتحرير عبيد منزله. بدأت شخصيات كبيرة فى تقليده . وطريقة التصرف هذه سوف تعمل تأثيراً أكبر من كل الاتفاقيات الدولية .

رسالة رقم (٣٠)

الإسكندرية فى ١٦ يناير ١٨٨١

الآن فإن اللجنة القنصلية الدولية لمراجعة القوانين المصرية تقيم نهائيا فى القاهرة. سوف أخصص بعض الوقت لتكوينها ولمهمتها.

جريدة "مصر" الجريدة الكبيرة ذات الحجم الكبير، لسان حال رياض باشا، ورجال المال (الممولين) المشيعين وسيطرة الربا الفاحش، تعطى كاملاً القائمة الاسمية (قائمة الأسماء) للوفود (الممثلين) المختلطين والدبلوماسيين. دفعت هذه الورقة ذات الاتساع متكلف الحفاوة والرقة نحو مدافعيها حتى لتبين بأرقام خفية المكانة التى تحتلها كل شخصية، حول المائدة الأسطورية ذات البساط الأخضر التى يرأسها بالطبع رياض المغرور، الذى سوف لا تتكرر يومًا معرفته اللغوية.

اللغة الفرنسية هى اللغة المتكلم بها وسط المجلس حيث كثير من أعضائه بما فيهم الرئيس المحترم والمؤهلين كثيرًا أو قليلاً لا يعرفونها إلا من بعيد. بعضهم ينطقون باللهجة الإقليمية قليلاً، يخلطونها كثيرًا بالتعبيرات الإيطالية المشرقية. والبعض مثل سمو الكونت المرصع بالنجوم الكثيرة الذى يمثل بصفته قنصلاً عامًا. ليس دبلوماسيا، وجلالة ملك البرتغال والمستفيد من مساعدة ابنه، وليس أقل تزينًا بالنجوم لم يستطيعوا

أن يعبروا إلا باللغة العربية السورية المختلطة بكلمات تنتمى إلى شبه اللغة المزيج من العربية والفرنسية والإسبانية إلخ .... على الصعيد العثمانى. وكما هى الحال دائمًا، فإن طائفة التجار كانت مبعدة بعناية. وكان أفضل منها، الأتباع الوحيدون للآلة القضائية، استطاعت أن توضح بالحجج العلمية والمناقشات المخصصة لتعديل مجموعة من القوانين المعمول بها بطريقة غير حسنة وعلى وجه السرعة وفى عهد السلطات التشريعية الغابرة، على قدر ما، مسجلين بواسطة ذائع الصيت نوبار!

ولكنه رأى قبلى لا رجوع عنه، مؤرخًا من مؤتمرات القسطنطينية الشهيرة. عندما يقول قنصل أو يكتب أو يعمل أى شىء، فإنه قرآن، لا توجد مناقشة، والوزارات فى أوروبا التى لها أشخاص آخرون يدللونها ينصتون حتى بدون أن يقرءوا أمام كنوز المعرفة السلبية أو العقائدية.

من الممكن جداً أن الهيئة القنصلية عندها علم بالقانون الموصى به. كل مهنة لها مميزاتها. فيستطيع دبلوماسى من الدرجة الثانية أو الثالثة مُبدل بآخر فقيه قانونى للمحاماه المصرى، ما هو ليس بيرو ومُعاونًا بملحقه الحامل للشهادة أن يعمل كمندوب ممتاز ، لم لا؟ لنفرض ذلك، ولكن لا تنس حينئذ أنه يوجد هنالك أربع عشرة جنسية تتنازع السيادة بتقديم بلاغة مجادلة للعمل ومزينة بتألقات ذهنية، وفارغة، ومحلة دون اتساع للأفكار. وكما أن برج بابل الذى وصفته لك كثيراً، كان لا يكفى للفوضى الدولية التى غمرت فيها باللغة الفرنسية واللغة الإيطالية اللغتين الرسميتين قضاة ومحامين ومدافعين منذ مقدمة الإصلاح، وها هى إنجلترا أتت بالفم فقيه متجول، السيد كسون الدخول فى سفينة نوح القضائية لاصطلاح ثالث هو المملكة المتحدة لبريطانيا العظمى ولأيرلندا. تخيلوا القضاة الأمريكيين الذين لا يتكلمون أبداً إلا اللغة الإنجليزية. بأى ابتهاج سوف يبتهجون! سوف يفهمون أخيراً شيئًا ما، منذ خمس سنوات فى فن المرافعة أو فى الملفات. و لكن الآخرين الذين يجهلون هذه اللغة الهجين، الذين قلما يتفاهمون من قبل من الفرنسية إلى الإيطالية والعكس صحيح ! واليونان قريباً طرف فى الحرب لغزو القسطنطينية، هدف متواضع للملك جورج تدخر تحفزها ، وعندما تكون الإجراءات والمحاكم المصرية مزودة باللغة الدولية الثالثة، والممثلين اليونانيين سيطالبون من جهة القديسين ديلك وجلادستون، المحاباة نفسها بالنسبة

للتعبير الاصطلاحى اليونانى. بالطبع ، وسوف تطالب ألمانيا بناءً على قانون الأقوى لصالح سياسة المحسوبية التى تشكل موضوع اللهجات المحلية الألمانية ، وسوف تكون مصر سعيدة إذا أعفتها روسيا من الدين الوطنى، سوف تصل إلى كل هذا فى بلد رئيسه صغير جداً وبدون خبرة و لا يملك أية سلطة ، وحيث يكون الوزراء الخدام أكثر تواضعًا لطائفة أجنبية.

أما بخصوص الفلاحين فى لب البلد النيلى فهم ممثلون قليلـون جدا فى المجلس لا يعرفون حتى أنه يوجد، ولا يبالون بأن المحامين يترافعون بثلاث لغات مفهومة أو غير مفهومة. ولا تظنوا أن مسألة الاصطلاحات التعبيرية التى سخروا منها كثيراً فى مصر لم تكن أكثر فى الحالة القضائية هذه. فى العاشر من شهر ديسمبر الأخير قدم المستشار الموقر للولايات رسبيتى للمجالس الفيدرالية السويسرية مذكرة تميل إلى تكوين المحكمة الفيدرالية للقضاة مشتملة تماما على ثلاث اللغات السويسرية من أجل أن تستطيع المحكمة أن تقرأ القضايا و تسمع بفائدة المحامين والأطراف المتخاصمين ، طريقة فريدة للحصول على حكم عادل وشريف بدون مزيد من المصروفات.

فى أوروبا، مازالوا يحتفظون على الأقل بشرف جعل الأحكـام فى تلك الشروط. فى مصر تحت الرئاسة المتعسفة للسيد النمسوى "لابنا" فإن الأمور لا تتفق هكذا والمصاريف القضائية تكون غاية فى الإتلاف.

هذه المحاكم للإصلاح التى تدير ميزانيتها تشمل بزيادة فى شأن المصاريف وكتاب المحكمة عملوا بقسوة وبعنـف. والمحامون إذن ! ... الخطأ قدوة سيئة لهم. كيف نحتج على هذه الفواحش المفرطة؟

لا توجد حرية للصحافة على ضفاف النيل، حيث أى شخص يستطيع أن ينشر جريدة شريطة أن يؤكد كل صباح مع العصفورة. إن رياض باشا تجاوز كولبرت أوتورجوت، وإن الكوكبة الأوروبية تبين الماليات المصرية المزدحمة بالكواكب المتألقة. هذا الذى تفعله جريدة "مصر" فى نثر غامض ومدحى على ورقـة ناعمـة وحريرية الملمس ولو أن ورقة ذات ذوق سيئ لمناقشة آراء جريدة "الرسمى"، فإن التحذيرات تنزل عليها كالمطر ويتبعها عن كثب مرسوم بالتوقف . إن اللجنة المفتونة بواسطة الطنين الدولى

للمتطفلين الوزاريين، سوف تناقش شكليا، وسوف تعلن موقفها بدون مناقشات جادة. وبما أن أية معارضة عملية ومبررة سوف لا تستطيع أن تظهر، ستكون قوة للجاليات الأجنبية للخضوع للقرارات المنبثقة من مجمع الحكماء السامى.

رسالتى الأخير عن جوردون باشا والسودان أثارت عاصفة فى نفس رياض، الذى لن يسمح بأن نوجه له اللوم فى العهد القريب حيث إنه بعيد عن أن يكون "مصلحا". كان يسمع حرفيًا أوامر إسماعيل باشا، ورأسه منحن وعينيه منكستان وذراعيه مشبكتان وقدميه متجهتان للداخل. كان جوردون قد وجه له اللوم ، كل هذا أصبح معروفًا ومبلغًا للخديو الشاب (الصغير) فى نفس يوم خضوع حاكم السودان.

ولكى ينتقم لنفسه، لم يجد رياض شيئًا أفضل من أن يسلم إلى الجمهور - بواسطة الأعمدة المجاملة لجريدة "مصر" - ميزانيات جوردون باشا، لكى يثبت عدم الارتباط المزعوم للحكمدار السابق للبلد الأسود.

لم تبلغ الضربة الهدف ؛

١ - لأن الادعاءات الوزارية تخص دائرة الأحداث التى لا تستطيع حجتها أن تكون واقعة نظراً للمسافة.

٢ - لأنه من السهل دائمًا الاقتباس من الخيال وسائل تجعل الخصم الغائب الشريف مبعث سخرية.

٣ - لأن ميزانيات الحكمدار جوردون السابق تثبت أن المتأخر الواجب على الضرائب كان لا يستطيع أن يكون متحصلاً بواسطة حاكم أوروبى وإنسانى، بضرب السياط، كما مارس ذلك الموظف الموفد بواسطة رياض. خطة الوزير المقلدة لجارناك، سقطت على صاحبها، والمسألة تُبقى ما الذى كانت الخطة فى رحيل جوردون باشا.

مصر هى فعلاً البلد الذى كانت الأذناب فيه تُضاف إلى الأشخاص عديمى الشأن ومازالت تضاف أكثر سهولة. اليوم ينبغى أن نعرف فقط أن نكون بارعين. إن كبار ممولى العصر وبواسطة رأسماليين قد رخصّوا الصنعة، أنا أفهم تمامًا المقرض بالربا الذى كان يقرض الخديو مثل صاحب المطعم الحقير مدير الخدم الذى كان يجهز مائدته.

تخيلوا الموظف التابع فى اكتشاف المؤامرات وفى القبض على اللصوص المألوفة ومصادرة الصحف المنشقة وهو ملقى فى السجن من أجل خيانة الوظيفة (الاختلاس) وابتزاز أموال الأمة فى أثناء القيام بوظيفته البسيطة! هذا الفيدوك الإيطالى المنشأ المحمى من نائب الملك الصغير ومن القنصل العام لأمنه قد يكون وضع فى جيبه بلطف شيئًا ما يقرب من ١٥٠٠٠٠ فرنك.

إنها إلى حد ما تفاهة ، وعلاوة على ذلك عدم مهارة. فالحالة خاضعة للخديو، والمتهم يلزم الحبس. وسيخرج منه سليمًا كما يقال بفضل نفوذ المعتمد الدبلوماسى لإيطاليا على الأمير.

اليونانيون فى وسط الهيجان الشرس وحركة كبيرة بين الشباب بالقاهرة والإسكندرية. يتكلم الناس كثيرًا فى المقاهى وفى البورصة. قليلاً ما يفتح المرء كيس نقوده، ولكن لا أحد يجاهر بالحب لقميص المتطوع (الجيش). الأتراك غلاظ فى المعركة، و حملات الشتاء لم تحز الرضا.

ولكن عندنا عنصر استعمارى آخر فى حالة اضطراب. إنهم اليهود الذين لا يتفقون مع برلين ويندهشون وهم غاية فى الغنى، أن الناس يستطيعون ألا يخفضوا رأسهم أمام سلطانهم المطلق المذهّب.

نحن لا نرى هنا فى هذه الحملة الألمانية أقل موضوع دينى. لقد عبرنا بصورة سيئة من الأساس. فالشرق هو بلد التسامح الدينى. فلنخص القضية الدينية من القضية الاجتماعية. فالأولى غريبة عن الثانية، الوحيدة المطروحة للمناقشة فى هذه الساعة.

الملاحظات التى كنت أقدمها لكم فى يونيو الماضى عن مظهر محصول القطن لم تكن خاطئة. ربيع رطب وبارد كان قد أخّر نمو النبات. فالبذور الموضوعة قريبة جداً من بعضها البعض كان تصرفًا سيئًا، بالرغم من تحذيرات المزارعين الأوروبيين الجدد فعيونهم مفتوحة أكثر من بطنهم. فى الإجمال، فإن الألياف التى تم حصادها متأخرا ضعيفة والكمية الإجمالية أقل، بدون إنشاء أى وضع منذر بالخطر. ولكن القطن المصرى يكون ويظل أكثر فأكثر مخلوطًا وغير صالح لخيوط النسيج التى من أجلها كان مطلوبًا فيما مضى.

رسالة رقم (٣١)

الإسكندرية فى ٢٧ يناير ١٨٨١

لقد وقَّع الخديو مرسومًا يؤجل نهاية الخطة الخمسية للإصلاح القضائى سنة أخرى. لا شىء من النور ولا من الخير خرج من اللجنة الكاذبة التى تقيم فى القاهرة، كان من الضرورى للحكومة المصرية أن تكسب ما يكفى من الوقت لكى تسمح للفأر أن يخرج من سفوح الجبل. كيف نصل فى الواقع لنتيجة جادة عندما نجد أن أعضاء اللجنة التى يجب أن تكون مكونة من فقهاء فى التشريع غرباء عن علم القانون؟ من بين الدبلوماسيين الذين يحتلون فيها مقعداً، والوحيد الذى يملك معرفة سطحية هو ممثل فرنسا، والآخرون لا يشكون حتى فى ذلك. كذلك واحد من بينهم كان منذ بضعة أعوام معلم فى منزل القنصل العام لهولندا الذى ترك ليحل محل سيده ويصبح الخادم المتواضع جداً للخديو إسماعيل! والباقى كذلك. القضية الشائكة فى ذلك الوقت هى نظام متعلق بالرهن العقارى، الذى يراد أن يشبه ذلك المسموح به فى فرنسا لكى يستطاع فى حالة عدم الدفع أن تباع العقارات بالرهن، بدون شكل آخر من التقاضى. سيكون هذا بكل وضوح تحسنًا كبيراً. ولكن لكى نصل إلى هذا النظام المعتدل، ينبغى أن نبدأ بتهذيب الإقراض بإخضاعه لسعر فائدة معتدل وبالأخص بتقليل المصاريف الاستثنائية كثيراً ، التى هى فى ذلك الوقت تعسفية وباهظة. عندما تقترض الزراعة فهى لا تستطيع أن تفعل ذلك إلا بشرط أن ينجح فى الدفع المنتظم للفائدة المنصوص عليها.

ومن جانب آخر، إذا كان السعر الموضوع مقدمًا ربويًا تصبح العملية غير أخلاقية ومدمرة، نتيجة عدم الخبرة والجهل للفلاح فى الشأن الاقتصادى والمالى، فقد أذن بتحديد قسط بالجشع الشنيع للذين يلعبون بالنقود لعقد ذهنى محرر وأن يجعله نافذاً بدون حكم بمثل هذه الشروط، ومصر كلها قد تنتقل قريبًا فى أيدى اليونانيين واليهود الذين يستغلون المزارعين.

أحد جيرانى من الزقازيق يمتلك ألف هكتار من أجود الأراضى كان يقول لى أمس: حاجتى للمال نادرة ولكن دائمًا ضرورية. ولكنى لم أستمع لواحد من المائة موظف "للتأمين العقارى المصرى" أو "التأمين العقارى الإنجليزى" ، وهمس لى فى أذنى مغمغمًا فائدتهم من سبعة إلى ثمانية فى المائة، وأنا متأكد بأنه دفع منها خمسة عشر أو ثمانية عشر على الأقل. وها هو كيف : تقرير أرضى، ومصاريف المثمنين الذين لا يعرفون فيها شيئًا، ومصاريف الرهن العقارى، والعمولات، ومقابل الوفاء بالدين والسمسرة، وأخيرًا ارتباط طويل جدًا. هذه المؤسسات ليست مشكَّلة لخير الزراعة. الرأسماليون غرباء عن البلد فهم يأتون هنا كجزارين متنقلين يجزون من الخراف النيلية أكبر ما يمكن من الصوف، بدون أن يهتموا بصحة الحيوان. فقال جارى متابعًا عندئذ : لكى أتحاشى ضررًا أقع فى آخر. أنا أتوجه بالخطاب إلى اليونانى وإلى السورى وإلى اليهودى، عن الربا المشبوه، القائم فى عاصمة الإقليم، الذى يقرضنى بدون رهن عقارى، بفائدة متغيرة من اثنين إلى أربعة فى المائة فى الشهر وبالنسبة لعدد الأشهر الذى أثبته فإن المبلغ الذى علىّ، لم أعد أفكر فيه.

ها هو فى أى وضع توجد الزراعة فى مواجهة الرأسمالية المحبة للمصرى. وبكل تأكيد، فهناك تحسينات كثيره لإدخالها من الجانبين، أولها والأكثر أساسيا هو تثبيت القيمة بستة فى المائة، بدون مصاريف أخرى إلا ضريبة التسجيل ، مع استبعاد سرب المحامين الذين يجعلون مصر مقفرة كما الجراد.

قدم السيد الرئيس "لابنا" استقالته؛ فلم يعد الوضع ممكنًا. فى مدة ست سنوات قسمت وظيفته بين ابنه المحامى وبينه وهو كبير قضاة جمعا ثروة طائلة فتحت النمسا لهما ذراعيها. السيد المستشار "لوتورنوف" عضو محامى الاستئناف وزميل السيد "لابنا" عالم النباتات الممتاز ألف من بين الملفات المجهولة لأصحاب الدعوى كتابًا نيليا فى الأعشاب كاملاً جداً، ورحل ليزرع "كرنب" فى وطنه فى مقاطعة بروتانى.

انسحب قاض آخر، وبإيجاز، فإن الآلة القضائية معطلة. يحق لنا أن نتساءل عما إذا كانت المؤسسة القضائية التى عملت على دفع أكثر من خمسمائة محام مؤهلين

فى مصر خلال خمسة أعوام تستحق أن تكون معطلة أم أنها توافق على أن تعدل عن التجربة الخمسية لكى تعود إلى الانسجام القنصلى.

عينت القنصلية العامة لفرنسا لجنة لكى تدرس هذه المسألة المهمة، وأنا أعرف العديد من أعضائها الذين عكفوا على إلغاء الإصلاح ، أنا أعتقد أنه تحت النظام القديم كانت القضايا نادرة جداً؛ لأن كل واحد كان يفضل أن يتصالح وديا .

وهذا معيار الإصلاح. نزعات الصراع أذكت الغرائز العقيمة للأطراف الذين أفرغوا جيوبهم فى جيوب المحامين لمجرد الشكوك.

من الواضح أن القضايا المتعلقة بين الحكومة المصرية المدعين الحالمين لم تعد توجد ، إن سير القضايا المتنازع فيها قد يتعلق من جديد بالقنصليات المختصة بدون خطر ما عدا بعض التعديلات المفيدة لإدخالها. ولكن هذا الاتجاه الطيب هل سيناضل بنجاح ضد جشع رجال القانون، والبعض منهم حقق ثروات طائلة تقدر بمئات الآلاف من الفرنكات، بتدبير أحكام ملائمة لادعاءات مرتكزة على ضفاف النيل. أظن أننى كتبت لكم ذات مرة أن اثنين أو ثلاثة من هؤلاء الروائيين الأذكياء كانوا قد حصلوا كل واحد منهم على مليون إلى ثلاثة ملايين من الفرنكات من أجل أراض مغتصبة بواسطة الخديو وأنهم لم يمتلكوها أبداً. وآخر تسلم مليون فرنك لمنع تبديل حيوانات نافقة بفحم حيوانى بدون حرق جسم كلب واحد. باختصار سنة واحدة تكفى للوصول إلى حل. أليس كثيراً أن برج بابل يسيطر على القاهرة.

السادة روتشيلد إخوان الحائزون على الحقيبة المصرية للتأمين العقارى الفرنسى قد رفعوا المسار المالى للعنصر السامى، وهو من قبل أصبح فخا عن طريق استغلال الأموال الحكومية المصابة بالرهن العقارى حاملاً اسم الدار السابق ذكرها. إن عائلة روتشيلد ليس لها أية جنسية فى الحقيقة، ولكن يمكن أن يكونوا إنجليزاً وفرنسيين وألمانًا ونمساويين سيكون لديهم بلاشك ذات مرة فرصة الاختيار: من أجل أن يعملوا على ميل الميزان السياسى لصالح إحدى هذه القوى حسب السعر الذى سيكون مدفوعًا لهم، وسبق أن نصف أسهم قناة السويس انتقل بواسطة تدخلهم وبتحريض

اللورد بيكونسفيلد إلى أيـدى البيـوت فى القسطنطينية، سكرتير سفـارة (النمسا) كان مقتنعًا بأن حول بعض الرسائل الرسمية السرية التى كان يبلغها إلى أصحاب المصارف (الممولين) المذكورين آنفًا وهم بدورهم كانوا يبلغونها إلى حكومة الملكة.

هل سيكون إذن لدينا دائمًا عيون مغلقة فى باريس؟ عندما يكون فى بلد مثل مصر الجمرك والمراكز (البريد) والسكك الحديدية والمالية فى أيدى إنجلترا، هل سيقال أيضًا إن القطر كاملاً لا يكون موجهًا بواسطة هذه القوة؟

رياض باشا ليس لديه ما يرفضه السيد ماليت، المعتمد البريطانى، لهذا الدبلوماسى حيث رقته المفرطة تحمله لأن يكون مقبولاً للسيدات، رفعه إلى رتبة باشا السيد الكونت سالا، لكى يكافئه عن الحرب التى حددها لنفسه على الرق على أرض لم يعد الجلادون يسلكونها منذ عدة أشهر.

فهناك دائمًا تيار من الدسائس الإيطالية الصامتة ضد الفرنسيين بين تونس والقاهرة والعكس بالعكس. مجموعة من الممولين الفرنسيين فى باريس أرسلت أحد السادة ويدعى ويلد - موظف فى شركة فرنسا المصرية - لكى يحصل من الحكومة الخديوية على إذن إنزال كابل كهربائى مخصص لربط الجزائر وتونس بباريس. هذه الخطة تقلق السيد كيرولى، من جانبه منح للشركة الإيطالية كابل إيطالى- تونسى. ويوجد هناك فى الأفق نزاع جديد قليلاً ما يشككون فيه ولكن العقل المتيقظ يجب أن يتوقعه.

كل هذا هـو ثمـرة إدارة جلاديستون الذى "فى الحقيقة" عن طـريق حماقاته التى لا تحصى يعد أكثر معارضة للنفوذ الفرنسى فى الشرق من السياسة المحافظة نفسها ، وباستثناء لورد بيكونسفيلد فإن محصول القطن أكيد سيئ ونتائجه فى أملاك الدولة والدوائر تكون معيبة بالأخص ، ومن الممكن أن القسائم المستحقة فى السنة الجارية ١٨٨١، تعانى إما بعض التأخير أو تخفيض جبرى، إن العجز الكيفى والكمى ضخم. البرد والعملية الفاسدة لوضع البذور قريبة جدًا كانت سببًا للنتائج السيئة بالنسبة للكمية، وخلط البذور تسبب فى الباقى. وتجانس القطن ماكو كفَّ عن التواجد.

رسالة رقم (٣٢)

القاهرة فى ٢٦ يناير ١٨٨١

ما أنبأتكم به فى آخر رسالة لى بخصوص الدسائس الإيطالية فى مصر بالنسبة للمسألة التونسية لاقى نتيجة طبيعية فيما علمت لدى وصولى هنا. التطابق مؤثر بقدر ما هو غريب. كنت أعلمكم أن السيد (و).. موظف معتمد لمجموعة من الرأسماليين الفرنسيين كان قد طلب تصريحًا من الحكومة المصرية بتثبيت كابل كهربائى على بلاج الإسكندرية بغرض ربط باريس بمصر عن طريق تونس ، وعلى الفور طالب السيد دومارتينو المعتمد الدبلوماسى الإيطالى بالخطوة المحتملة نفسها لكابل ممنوح لشركة إيطالية بواسطة السيد كيرولى مخصصة لربط شبه الجزيرة التونسى والساحل النيلى وذلك لقطع الخط التلغرافى الفرنسى الجاهز من قبل والذى يسير مع السكة الحديد الجزائرية بطول البحر المتوسط حتى القاهرة أو الإسكندرية.

فحصت حكومة الخديو المسألة من مختلف أوجهها. فممنوع عليها أن تحابى أحداً من أجل ألا تضر بالمصالح المكتسبة كما على سبيل المثال "للشركة الشرقية للتلغراف" التى تعمل منذ أكثر من عشرين عامًا. وعلاوة على ذلك فإن الاتفاقيات تعارض كل الاحتكار. ويلاحظ المعتمد الدبلوماسى الإنجليزى المفاوضات التى يجب أن تنتهى عاجلاً أو أجلاً بدون أن يؤدى هذا بوعد ذى نتائج كبيرة للمنافسين المشغوفين الذين تقدموا وهدفهم - بلا شك - هو الحصول على بعض الامتيازات الشخصية.

ولكن بجانب هذه الدسائس المهمة تقريبًا، أجد أنها ليست أقل خطورة من التى يحيكها من روما ومن نابولى إسماعيل باشا الخديو السابق الذى هو فى أحسن حال مع ملك إيطاليا. يبدو أن هذا الأخير ربما يكون مدعومًا فى الخفاء بواسطة ألمانيا وربما قد أسمع إسماعيل باشا بأن عودته للقاهرة تتوقف على نزاع عام ربما يكون الشرق هو مسرحه فى أول وهلة. مع حدوث هذه المصيبة، تساند إيطاليا بحرارة حقوق العاهل المخلوع الذى سبق أن جعل من نفسه مدعيًا.

والحالة هذه، فإن إسماعيل الذى هو سياسى عميق وقوى مثل أى رجل إيطالى ميكيافيلى حديث، يمارس من قبل فى تونس نفوذًا تنتقل آثاره من تركى إلى تركى.

سوف لا يفوته أن يرتسم قريبًا، على حساب ضرر المصالح الفرنسية. لم يوجه الخديو بعد الضربة التى وجهها له السيد تريكوو فيما يخص المبالغ المالية التى تكلفها فى الساعة الثانية عشرة على يد السيدين نيباروت وفيفيان. وهو يجتهد فى أن يفوز بلقب بك تونس فى إيطاليا، تصور إسماعيل أنه ينتقم لنفسه من فرنسا وأيضًا من إنجلترا. كل هذا وهو يعتنى بمصالحه الخاصة.

يدعون هنا فى الدوائر الأهلية الأكثر معلومات أن رياض هو رجل الخديو السابق وأنه لا يتصرف إلا بإيحاءات وبناء على نصائح سيده القديم.

نعرف أى إخلاص كنَّه هذا الوزير الطاغية المعزول. هل هو مثال من بين مائة، سيظهر كم يخطئون كثيراً وهم يمنحون بسهولة لقب "مصلح " للموظفين المتخرجين من مدرسة إسماعيل.

حدث ذات مرة فى عام ١٨٧٨ أن نائب الملك رغب فى إنهاء عملية مالية مدمرة بلا مقاومة وكان المقرضون بالربا للخديو ينتظرون منها الألقاب الرسمية. أبلغ رياض (وكان عندئذ وزير العدل الخاص) لدى المجلس الخاص المرءوس بواسطة منصور باشا، صهر إسماعيل بهدف الحصول على توقيعات الأعضاء.

جعل منصور باشا رياضًا يلاحظ أن المجلس لا يستطيع أن يقر شيئًا بدون فحص ومناقشة ، وأعاد الرسولَ بأدب إلى سيده الذى كان ينتظر منه إجابه لبقة.

لم تتأخر الإجابة وكان رياض المتحرر حاملاً لها وقال بلهجة متعالية لكبار الموظفين الجالسين فى المجلس "يا سادة، الخديو يعلمكم على لسانى إنه بإرسالى إليكم، فهو توجه بالحديث خصوصاً إلى الاثنى عشر كرسيًا التى تجلسون عليها وليس إلى الأفراد الذين يزينوها، يجب أن تكون الوثائق موقعة بدون ملاحظة واحدة. أنا أنتظر".

كان كثيراً من جهة رجل يقدم نفسه اليوم كرئيس للإصلاح فى مصر!

وقع المجلس ولكن كثيراً من أعضائه قدموا استقالاتهم.

أنا كنت أمس فى المنصورة حيث شاهدت - كما فى الزمن القديم لإسماعيل - الكرباج يسقط بغزارة على أقدام الفلاحين المساكين بالرغم من المنع التمهيدى بواسطة حكومة الباب العالى، والذى يلغى العقاب الجسدى. إن مدير المنصورة وهو قريب لرياض يعتبر أن كل شىء مسموح له. الكرباج والسجن فى كل مكان بلا تمييز استعمل فى زيادة ثروة العديد من كبار الموظفين الذين يقبضون من الوزير،الذى لا يستفيد أى شىء من ذلك بما أنه لم يفكر أبداً فى وضع نهاية لهذا الظلم الهمجى.

رسالة رقم (٣٣)

القاهرة فى ٢٩ - ٣٠ يناير ١٨٨١

كنت أحدثكم أخيراً عن شتى التسهيلات المالية المقدمة للفلاحين الذين مازالوا يقترضون الآن بطيب خاطر من مقرضين يونانيين وسوريين... إلخ ، مقيمين بالداخل أكثر من مؤسسات الائتمان الكبرى. والسبب أنتم تعرفونه: استنزاف من أجل الاستنزاف ؛ فهم يفضلون الأكثر سهولة من صغار الرأسماليين لأنها تكتنفها القليل من الإجراءات المسبقة التى يتطلبها المصرف العقارى المصرى والبنك العقارى التابع للبنك الإنجليزى المصرى، إن حساب المزارع ليس خطأ كما نظن.

العملاقان المذكوران آنفا المختصان بالممولين لهما هدف واحد: نزع ملكية ما يستغلونه وما يستنفدونه بدون تحفظ بعد أن حصلوا على ٢٠٪ على الأقل من أموالهم.

إن أقزام الاقتراض بالتقسيط يبحثون من جانبهم - وهذا حقيقى - عن فوائد ضخمة وفرصة شراء منتجات بأقل سعر مما يجعل نوع علاقتهم مع الفلاحين سهلاً، ولكنهم يقدمون بالأحرى مبالغ صغيرة هو ما لا يفعله رجال المال. من الميسور جداً إذاً على المقترض أن يحرر نفسه تجاه دائن طيب فى مظهره يقرض بالشهر دون أن تكون له علاقة بالمحامين والمحضرين ، حيث تكون زمرتهم المشئومة ذيلاً لموظفى البنوك الكبيرة. مساكين المزارعون النيليون سكان زاهدون وبسطاء. وجب عليكم معرفة المصيبة الملقاة على الحضارة الغربية.

والحال هكذا، فإن المال وفير جدا ورغبة المؤسسات المالية الضخمة لاقتناء أرض ملحة جدا وإن العرض يتجاوز كثيرًا - وسوف لا أقول الطلب ولكن - الاحتياجات الحقيقية للمزارع. ماذا ينجم عن حالة مصطنعة للأمور ومختلقة حسب المشيئة بواسطة جشع الرأسماليين المستغلين فعلاً؟ إنه محزن أن نقول ذلك: فساد المفاهيم الاقتصادية الأكثر بساطة عند الفلاح يفضل الجهل المطبق المصان عنده بواسطة السلطة الحالية. إن الفلاحين يرون أنفسهم محاصرين بواسطة مروجي البنك العقارى المصرى فيما عدا عروض الشر الداخلى الموصوف عاليه، فهم يصبحون شيئًا فشيئًا أقل اقتصادًا ، يتعلمون أن ينفقوا فى التفاهات الأوروبية المكلفة. ما الذى كانوا يدخرونه بعناية قديمًا للأيام السوداء. عندما يظهر جامعو الضرائب، يقترضون المبلغ اللازم معزين أنفسهم بالحكمة ذات الخيانة الكبرى: "من يملك القسط لا يصبح مدانًا".

البعض - وأنا أعرف منهم الكثير - دائمًا خائفون وقليلو الثقة بالنظام الحالى، يدفنون ذهبهم ويتجهون إلى المرابين مفضلين ضمان مستقبلهم بواسطة الفرص المواتية الشائكة على فك المبلغ المحسوب.

هذه أعراض سيئة. فهى تكون سرابًا دائمًا يمنع الحكم بصحة على الموقف الحالى للفلاحين. أنا نفسى رأيت حياتهم وعشت وسطهم، لا أجرؤ أن أجازف برأى، ومع ذلك فلن أخشى أن أميل إلى أن الوضع مثقل بالديون ليس جيدًا أو سليمًا بناء على المعلومات التى أخذتها فى جولتى الأخيرة. أظن أنه لا يكون بعيدًا عن الحقيقة تحديد أن اثنين مليون من الجنيهات الإسترلينية هى الالتزامات الحالية للفلاحين بحصر المعنى تجاه الربا القهرى والأصغر الذى يقرض مصر.

بالرغم من كل التوقعات المتفائلة لمزاولى احتكار النقود وأصحاب مصانع الشركات الجديدة، هذا الرقم المشئوم للبلد، الذى دفع بأقل كلمة ٦٠٠,٠٠٠ جنيه إسترلينى لكى تحصل عليه على أساس أن يأخذ مدة سنة.

لا تستطيع أية زراعة حتى الأكثر خيالية أن تتحمل مثل هذه التضحيات. ينقصنى الوقت اليوم لكى أزودكم بلوحة صحيحة ومفصلة بقيمة الأراضى من ناحية متوسط غلتها. هذا العمل جاهز، وبما أننى أسعى خصوصًا للحصول على معلومات مفيدة

وجدية من مجلة "القرن" فأنوى أن أرسلها لكم فى خمسة العشر يومًا الأولى من فبراير. إن التقارير المبالغ فيها المنتشرة فى أوروبا عن هذه المسألة والتى لفتت انتباه مجلة "التايمز" فى إنجلترا، يجب أن تتوقف فهى تخلق اضطرابًا يتولد منه إثارة يدفع بسببها الجمهور المأخوذ فى شباك المادحين المعنيين فى نهاية المطاف غاليًا جدًا.

ديوان المراجعة الذى كان رياض قد حاول أن يخصه بالقاهرة من أجل مصر كلها لم يكن مرحبًا به ؛ فقد وجدناه قريبًا جدًا من المدير المالى لشئون البلد. حيث رؤساء قسم القضايا فى الدولة هم المادحون أو الموظفون الأكثر إخلاصًا. إذا كانت محكمة النقض ضرورية، يلزمها أن تكون مستقلة وعليمة، وهو شىء نادر على ضفاف النيل.

قبل أن يغادر السيد الرئيس لابنًا مصر، أتى ليرشق العين اليمنى لفيليب رياض بحربة فارسية وإلغاء حكم أول درجة المرسل إلى القاهرة الذى كان السيد جول باربييه ناشر جريدة "الإصلاح" – وهو مواطن فرنسى – يرفض طلبه بالتعويضات من الحكومة الخديوية...

فى أثناء شهر مايو ١٨٨٠ ، لم يوافق السيد رياض على نشر وثائق مسببة تمامًا فى هذه الجريدة، وألغى الورقة وأغلق ورش السيد باربييه الذى هو أيضًا مهنته طباع.

فقيه فرنسى فى التشريع فى القاهرة، ومستشار صميم للوزير المستبد قام بحملة مؤسفة لصالح هذا الإجراء. ولحسن الحظ كان السيد لابنا يرأس المحكمة. لقد رأى الأمور فى تلك المرة أفضل وحكم بالعدل! هذا الحكم سوف يكلف خزينة الدولة غاليًا.

رسالة رقم (٣٤)

القاهرة ، ٢ فبراير ١٨٨١

سيقولون أيضًا: إن المصرى هو دابة ركوب يعاملها خلفاء الخديو إسماعيل معاملة سيئة وكما يشاءون – بدون أن تفلت من صدر هذا الحيوان الصبور أية شكوى! هل ستفهم الحكومات الأوروبية أخيرًا أن أولئك الذين يشدون على وتر النفوذ السياسى والإجراءات المالية والتدخل الأجنبى فى مصر يجربون الحظ بأن يروه مقطوعًا ويتسببون فى سقوط مؤسف!

منذ زمن طويل والسحر السياسى مقطوع فى القاهرة. لقد أدرك المصريون وعرفوا قوتهم عن طريق عونهم الوحيد لذكائهم البارع. عندما كان الحزب الوطنى ينشر "بيانه" منذ خمسة عشر شهراً وكان يطلب أن يختص بنفسه، هو ذاته، بقبول الدين العام، تظاهرت السلطات بالصمم وسخر خدم الصحافة الرسمية مواجهة من المجانين الذين كانوا يجأرون بالتحدث عن التبعية والعدالة فى مصر.

لقد صبر المصرى بلا شكوى. فمنذ قرون وهو لا يفعل شيئًا آخر إلا أن يلزم الصمت. لقد درس وفكر ولم يأخذ على محمل الجد الصدام بين نوبار وويلسون الذى كان أكثر من تمرد عسكرى بواسطة الهيئة القنصلية ، واستطاع اللورد بيكونسفيلد أن يسخر منه مع السيد وادينجتون. فكلا الاثنين مقتنعان بأن الفلاح لم يكن أكثر هجوماً من رمية قديمة مستخرجة من معابد سرابيوم. كان الخطأ فادحًا ونأمل ألا يكون قاتلاً. كل شىء له بداية والخطوة الأولى هى وحدها التى تكلف. نعلم أن الرجل التركى حكم مصر بداية من المماليك خصوصًا لصالحه بالسيف والعصا والسجن والكرباج. والكبار من بينهم كانوا يتسوقون من سوق إسطانبول العبيد البيض وتقريبًا كلهم من أهالى منطقة جبال القوقاز، حيث كانوا يستخدمونهم كما يرغبون أثناء شبابهم ولكى يضعوهم بعد ذلك فى الجيش والبحرية أو الإدارة العليا.

بهذه الطريقة كان العثمانى يجد نفسه دومًا هو العنصر الموجه يتألف من دم محب للحرب واستبدادى ، وكان لا يتدخل أبداً فى ذلك الحقل المكون من خمسة ملايين من السكان مستغلِّين بقبضة الأجانب.

كان الجيش تحت القيادة الكاملة تقريبًا للشراكسة، كما فى الحرملك، كان معظم النساء وما زلن ينتمين لهذه الجنسية. هؤلاء الأفاضل والمنصفون قلما كانوا معروفين للأهالى النيليين. القوقازى العريق كان يستدعى القوقازى المخلط وهكذا كان يخلق الأرستقراطية فى البلد.

رياض باشا نفسه خارج من أسرة يهودية حيث يكون الجيل الثالث وهو ابن أم شركسية ، وطبيعى أن مودته تكون فى هذا الجانب لأن القوة الهمجية توجد فيه. والحال هكذا فإن الضباط المرءوسين المصريين الخالصين كان إسماعيل قد أدخلهم بحكمة فى الجيش،

عند تخرجهم من المدارس العسكرية بالقاهرة. نجحوا وحققوا الشهرة وحازوا رتبهم بنزاهة وذمة. البعض منهم وصلوا بعد حملات الشرق ونكبات الحبشة إلى رتبة عقداء. ولكن المراكز الأكثر علواً وأركانات الحرب فى وزارة الحربية كانوا قد درجوا على كره الأوروبيين، كانوا مكونين بشكل متغير من أفراد من أصل شركسى. ماذا قد يحدث عندئذ. إن الترقية كانت تحابى الشراكسة بينما الضباط الأجانب الألمان والفرنسيين وآخرين يميلون بالطبع نحو الحزب المسيطر. وكانوا يهتمون بصاحب الرتبة الطبيعى كما فى العام أربعين.

إن الأهالى قد تعبوا من هذا النظام وأرادوا أن يضعوا حداً له.

منذ شهر ديسمبر الأخير تم العديد من الاجتماعات غير القانونية والمشبوهة بينهم فى حاميات الداخل وفى القاهرة ، واتفقوا على أن يوجه ثلاثة من العقداء فى المشاة : على بك فهمى قائد الفيلق الأول للحراسة وعبد العال حلمى قائد الفيلق الثانى وأحمد بك عرابى قائد الفيلق الثالث عريضةً جماعية إلى سمو الأمير نائب الملك تطالب من بين أشياء أخرى، بإقالة وزير الحربية سعادة رفقى باشا. هذه الوثيقة التى كانت تتذمر من الدونية التى كان الضباط الأهليون موضوعين فيها بالنسبة إلى زملائهم الشراكسة - قد حولت إلى مجلس الوزراء بواسطة وزير الحربية نفسه وقرروا أن يمثل الموقعون على هذا الاحتجاج الحازم أمام السلطة العسكرية ليحاكموا هناك فى أول فبراير بواسطة لجنة "من أجل ذلك" مؤلفة من جنرالات من بينهم كان يظهر أمريكى وفرنسى وألمانى.

تحتل وزارة الحربية جزءاً من قصر النيل حيث كان يحرسه الفيلق الأول للمشاة. عند ذهاب عقيد الفيلق الأول إلى الوزراء. كان قد أوصى رجاله - كما أكدوا - أن يأتوا لإحضاره إذا لم يشاهدوه عائداً، وعند وصول على بك فهمى وجد زميليه هناك. طلب منهم أفلاطون باشا سيوفهم وهو تركى أرمنى مسئول الشئون، والأقل محبة واحتراما. وبينما كانوا يستعدون لعمل ذلك كانت الوزارة مهاجمة بفيلق كامل طلب عقيده حضوره إليه. تخيلوا البلبلة. لم يعرف ماذا يفعل ستون باشا ولارميه باشا وبلوتز باشا واللواءات الأتراك. بدت على أفلاطون وستون مظاهر معارضة فأسىء معاملتهما بدون عنف جدى.

بقى ضروريا جدا للتمرد أن يعمل شيئًا ما ، وبالرغم من الفيلق المستدعى تحت الأسلحة فى فناء القصر فضلاً عن ذلك كان الإجراء غير مجد؛ لأن هذا الجيش وكذلك الفيلقين المستدعيين من العباسية ومن القلعة أعلنوا عن رغبتهم فى مشاركة إخوانهم فى مصالحهم! وكانت تتجلى دلالة منذرة بالخطر. كان قد وصل فى مجموعة الفيلق الأسود بالأسلحة والمعسكر فى طرة بالخطوة السريعة. كانت البرقية صريحة وعرف أن السود لم يحسبوا أبدا العدد الذى انقضوا عليه بالضرب منكس الرأس بعد الاستسلام.

ولكن ها هى المصيبة. فيلق الحراسة الأول وعلى رأسه عقيده اتجه من قصر النيل إلى عابدين بكامله، بالأبواق والموسيقى واللافتات كما لو كان استعرضًا لكى يطلبوا الاهتمام الفورى بالعرائض المدانة . جمع نائب الملك مجلسه وكان رياض يعبر عن رأيه لدفع القوة بالقوة ، ولكن كانت القوة منعدمة. كان السود يصلون وكان الموقف يتفاقم ؛ لأن سكان القاهرة لهم أيضًا تظلماتهم ضد رياض ووزارته! لقد تفاوضوا.

أجابت القوات بأنها لم تعد تريد شراكسة يباعون ويشترون ولا أجانب، وأنه قد حان الوقت لكى يكون الجنود المصريون تحت قيادة عنصرهم الخاص، وأن الفلاح ليس أقل قدرًا من التركى والإفرنجى... وأنهم سوف لا ينصرفون إلا عندما تلبى مطالبهم.

كان الخديو مهللاً بطلب من وزرائه هو التضحية الفورية بزميلهم وزير الحربية والعفو عن البكوات. وعد بإصلاحات وأضاف أنه كان قد أعطى من قبل خلفية للوزير المراد، فى شخص محمود باشا سامى، مدير الوقف. أخيرًا فقد أعلن إقالة مرافقه اللواء يوسف باشا رشدى.

لم يلزم أكثر من ذلك: عادت القوات إلى قصر قيادتها ، ويعود الفيلق الأسود إلى ثكنته بعد أن أقسم على مساعدة إخوانه فى الجيش المصرى بكل شىء وفى كل مكان.

فى أوروبا سوف يتعجب المفكرون الكبار ، الذين يحسنون القول ويقولون: تسامح مذنب وكان ينبغى القتال!!.. قتال ماذا؟ ومع ماذا؟ إن الجيش المصرى هو دماء الشعب النيلى الذى لم تفسده الرذيلة ونبات الأبسنت والخطابات والسياسة الخداعة. الشعب طاهر من هذا الدنس ولا يتقاتل مع نفسه ضد الشعب.

بين المحراث المحبوب والبندقية التى أجبر على حملها، يوجد اتحاد أخوى، وكل الوزارات وكل الدبلوماسيين فى العالم سوف لا ينجحون فى قطع هذه الصلة العجيبة.

علينا ألا نخطئ فى ذلك، كلما زاد غداً عدد الأتراك ربما سيكون بعد غد: كثير من المستغلين الماليين وكثير من المرابين الأوروبيين. من سيقول لا ؟ وحينئذ ، فإن تمرد أول فبراير لم يكن حدثًا عرضيا. إنه حدث مؤثر ناتج من أسباب معروفة وجدية.

رسالة رقم (٣٥)

القاهرة فى ١١ فبراير ١٨٨١

أثمرت الفتنة العسكرية فى أول فبراير وسوف تثمر ثماراً سيئة . ولقد حصلتم على تفاصيل هذا التمرد العسكرى الذى بقى لى أن أقول لكم عنه بعض الكلمات.

وكذلك أطلعتكم على أن الحكومة كانت لا تستطيع أن تعتمد على الجيش. كل الفيالق التى يتكون منها الجيش كانت قد تفاهمت منذ مدة طويلة وفى أول نداء لنائب الملك لكى تقاوم بالقوة ، كان يمكن أن يحدث عصيان وإخلال بالواجب المقرر.

وعلاوة على ذلك كتبت لكم أن الفلاحين والجيش هم سلالة متماسكة ومتجانسة. فالمزارع يهيمن على الجندى. نفس الدم ونفس العادات ونفس الدين ونفس الاحتياجات. والعمل على ضرب هذا الشعب بنفسه قد يكون صعباً جدا، لن تستطيع أن تصل إلى ذلك حكومات الحماية بالرغم من كل رعونتها.

لذلك فالجيش كان على وشك الثورة فى مصر ولهدف محدد ، وكانت الحكومة لا تستطيع التصرف.

وفى كل البلاد البائسة لكى يكون عندها جيش دائم فهو السلاح الوحيد نو الحدين للاستبداد المطلق والنسبى عندما يقول الجيش لا، إذا كان ينبع حقيقة من الشعب.

ومع ذلك، فقد كان يبدو للوزير الاستسلام أمام إرادة العقداء الثلاثة الوطنيين، إنه شيء فادح ، وكان لا يستطيع فى هذه المعضلة أن يتبع لا ممارساته ولا ميوله

وهى: أن يسجن ويضرب بالعصا وينفى إلى النهر الأبيض وهو سفر لا يعود المرء منه. كان نائب الملك خائفًا وكان وزيره يرتعد بشدة بالرغم من حذلقته.

وأرسلوا لاستدعاء القناصلة العموميين وأتوا واحدًا واحدًا. وكانت فرنسا قد شاهدت إنجلترا التى كانت لا تمتلك مدرعات تحت يدها وهى تتردد فى إعطاء الرأى بالخضوع الذى لم يكن بريطانيًا، المدفع أولاً والعدالة بعد ذلك. إذا بقى شىء من ذلك فأقول إن فرنسا فى شخص السيد البارون دى رانج أبانت فكرتها هكذا: هل لديك سموك قوات لكى تقاوم القوات؟ أجاب هو: لا. إذن استسلموا. هذه الملاحظة أصبحت للهيئة القنصلية وقد استسلموا. ينبغى الاستسلام أيضًا وعما قريب.

هذه الملاحظة سيئة. فالظلم الذى يشكو منه وبحق الجيش الذى كان يحتج ضده منذ مدة طويلة جدًا بدون جدوى وبدون اهتمام بشكاواه المحددة، كان صارخًا ولا يُحتمل. كل جندى يريد أن يترقى حسب جدارته وبالعدل. والحال هكذا بما أن الجيش لم يكن لديه أية وسيلة لكى يكون مسموعًا فقد لجأ إلى آخر ذريعة للشعوب الحرة.

إنه بالتحديد ما كان يجب على الهيئة القنصلية أن تسمعه لتوفيق ورياض، اللذان استطاعا عندئذ أن يزينا ضعفهما بلون من الحكمة الإدارية.

لماذا لم تُقل أبدًا الحقيقة الصحيحة. الآن فى كل المتاجر العامة للمدينة وفى كل الكفور وفى مصر نسمع ذلك: "لقد نصح القناصلة الخديو بالمقاومة بالقوة وكانت القوة غائبة والخديو سلم. فقد رضخ هذه المرة وسيرضخ فيما بعد".

وهذا هو الأكثر حقا: "عندما يكون الرأس صغيرًا، يكون الجسم ضخمًا ويمر الرأس حيث مر الجسم". الآن أطلب منكم ذلك، فما هى القوة الأوروبية التى احتقرت العدالة والحق لكى تفرض بالقوة - كما يريد ذلك القناصلة - نظامًا مكروهًا على الجيش.

ولكن ما كان يقوله رياض وهو يرتعد: "سادتى.. غدًا سوف يجبرنا الجيش على حرق كتاب الدين العام كيف يصبح رعاياكم ودائنى مصر"؟ كان من الخيانة إدخال افتراض مثل ذلك ، ولكنه كان من المهارة أن تفهمه وهو فى الهواء فى وقت خروجه من عقل الوزير.

إن ما عمله السيد ماليت المعتمد البريطانى هو ما سوف يحدث مع إقناع السيد البارون دى رانج. ولكن العقداء الذين كانوا يعرفون جيداً الدافع للحب الدولى لمصر كانوا قد سارعوا بإخطار هؤلاء الدبلوماسيين بعدم الضرر المطلق للتمرد تجاه الدين. لدى السيد جلاديستون ما يكفى من المسئولية للعمل بدون عرقلة مخالب النسر البريطانى فى الفروة الغنية للخروف النيلى.

باختصار لقد ضيع القناصلة الأساسيون فرصة رائعة سواء بتحديد الدوافع الحقيقية لمجلس جيد، أو بالسكوت. الجيش يعرف بماذا يتمسك والشعب المصرى أيضًا. من المؤكد أن الكلمة الأخيرة لهذه الفتنة العسكرية لم تُقل. أنا أعرف من مصدر موثوق به أن الجيش يريد الوزير رياض. والبعض منهم يزعم هنا أن خلف العقداء يختفى الخديو إسماعيل الذى يبحث عن قلب ابنه. كل شىء ممكن. ورأيى الخاص بى، بعد أخذ معلومات جيدة هو العكس لهذه الطريقة للرؤية. الآن لا يوجد شىء فى هذا الأفق.

لقد عين فى وظيفة نائب رئيس محكمة الاستئناف رجل إنجليزى لا يعرف، كأى قاض يجب عليه صياغتها، أيا من اللغات الشرعية: الفرنسية والإيطالية. هذا الإنجليزى يدعى السيد سكوت، فقيه بريطانى، ذائع الصيت، وكفقيه قانونى من وجهة النظر العامة، قانون رومانى وفرنسى وقارى، فهو ذو كفاءة أقل من الثانوية. ها هو الرجل الذى أعطى له رياض المكانة الثانية فى قضاء المحاكم للإصلاح القضائى متنازلاً لسلطات المعتمد البريطانى.

والحال هكذا، فإن الرعايا الإنجليز الذين يكونون فى مصر أقلية سيكون لديهم فى جعبتهم نائب الرئيس مواطنهم فى مقابل السيد جياكونى الرئيس الإيطالى الفقيه المحنك الذى يملك بالصدفة اللغتين القانونيتين. والجنسيات الأكثر عدداً التى تتألف منها الجاليات الأجنبية فى مصر هى : اليونانيون والإيطاليون والفرنسيون. يأتى بعد ذلك الألمان والإنجليز. والباقى لا يحسب.

من الواضح إذًا أن السيد المستشار جون سكوت كنائب رئيس محكمة الاستئناف ليس فى محله.

رسالة رقم (٣٦)

الإسكندرية فى ٢١ فبراير ١٨٨١

إن ارتفاع الأوراق المالية المصرية فى نقابات أوروبا جعلت المشترين المتأنقين والماليين فى حالة فرح. الإسكندرية فى وسط احتفالات الكرنفال وها هو الدليل.

لقد وصل هنا لارشيدوق رودلف من النمسا يوم الجمعة الماضى، وكان مصطفى فهمى وزير الخارجية قد أرسل لكى يهنئ الأمير، بتوافق مع صفوة السفراء المقيمين الأستراليين والمجريين.

هذه النخبة اجتمعت وهى مزينة بزينة مختلفة: لا شىء كان ينقص لا العناوين الفخمة ولا الهدايا الصغيرة التى تحافظ على الصداقة وتقود نحو الأوسمة ولا الطرق الموصوفة بواسطة المؤلف الفذ لقصة "الحمار المحمل برفات القديسين". المشهد حدث على ظهر الياخت "ميرامار" فى صالون عائلة هابسبرج.

سمو الإمبراطور، فى بدلة سائح؟ وسط أصحابه المرتدين مثله، ينتظر الوفد المعلن. السمو الرسمى يلقى خطابه المعد فى القاهرة. خلف هذا الموظف الخديو، تتقدم الصفوة الآنفة الذكر تحت قيادة البارونات. السيد... أب وابن، ذو الثراء العظيم من أصل يهودى مقابل دفع نقدى بواسطة النمسا تحت علم الذين كانوا قد نجحوا فى أن يأخوا مكانهم. الأب يضع على رأسه قبعة سوداء مثلثة القرون ويرتدى بدلة بلاط واللبس مزخرف بصليب براق وفى يديه قفاز أبيض ويديه للأمام لكى لا يزيل رونق زينته الغربية ويقرن التملق بالسلامات على الطريقة التركية التي يوزعها بسخاء مثل أكبر المؤمنين إخلاصًا. الأمير رودلف، وهو الوريث الوحيد لعرش النمسا كان يجد عناءً كبيراً لكى يحافظ على وقاره أمام هذا التقليد الشرقى للمراسم الأوروبية. وأشار بيده "هذا يكفى" وأرهف السمع للائحة التكميلية الطويلة والمملة للحالة مع توعك المزاج للرجل الذى فضل صيحة الهجوم على خنزير بربرى وحيد، دلالة على أن الطريدة قد حوصرت وفقدت كل الأمل فى الإفلات بدلاً من هذا الهذيان الاصطلاحى المتفق عليه.

ما كان يوجد منظر هزلى للحماقة البشرية كاملاً كهذا . كان ينبغى الذهاب بعيداً لكى نجد نظيراً للأرستقراطية الاستعمارية المصرية الجديدة. البارونات والكونتات ومحدثو نعمة نيليون آخرون يكونون بأنفسهم فقط نوعًا حديثًا وعزيزًا، نموذج عجيب غير موصوف ينتظر من مؤلفيكم الساخرين ليحل محله على المسرح العالمى فى باريس. دعونى أبين بالأمثال هنا المعرفة المؤثرة لشخصية ترابيه حقًا المنحدرة من الفرع المباشر بيريكليس أو الإسكندر الأكبر. روسى، التراجيدى المشهور الذى قضى قليلاً من الأيام فى مصر، كان ممدوحًا فى صالونات الأثرياء العظماء. وبتواضع انحنى روسى... وحيا. ويواصل الممول : أحسن أدواركم هو ذلك الدور الخاص بأحمد!! لهذا الاسم، رفع الممثل رأسه وسأل السقف وهو ينبش برعب خبايا ذاكرته القوية فهو ينظر إلى إنسانه وفجأة خطر له خاطر كالبرق! عندئذ أجاب روسى بأدب جم: نعم، فى الحقيقية أحمد فى هاملت لشكسبير!

كان الرقص يبدأ والمجاملات تتوقف ولكن الكلمة بقيت ومازالت تذا ع فى القاهرة، حيث عدت. إن أمور السياسة الداخلية غير واضحة. البلد الفلاحى يريد برلمانًا، والجيش الذى يمثل الشعب يدعم هذه الرغبات المصحوبة بأخرى: عزل رياض باشا .

لا يعرف الخديو الشاب ماذا يفعل. فهو لا يعى تماماً وضعه إلا فى أثناء استقبال رسمى فقد ألقى مؤخراً خطاباً معرضاً للشبهة ومثيراً للسخرية على ضباط الجيش الثائر. كل كلمة تبين ضعف الحكومة. كنا نعرف ونعترف هناك بعمل رياض المفزع الذى لم ينتعش جهازه العصبى منذ التمرد.

ها هى الكلمات الموضوعة فى فم نائب الملك: "أنا كنت حليمًا لأنكم كنت على حق. من أجل هذا أقلت وزير الحربية بناء على رغباتكم. مره أخرى، حافظوا جيداً على النظام لأننى سأكون ملزماً بكثير من الصرامة، إلخ".

كان المستمعون يعلقون ذهنيا وهم يضحكون على هذا الكلام الخطابى المسهب الذى لا قيمة له.

كانوا يعرفون أكثر من أى شخص بماذا يتمسكون عند العفو الذى كانوا هم موضوعه.

بالرغم من رعونة الإجراءات الطـائشة المتولدة من الاتفـاق الأنجلو - فـرنسى ، فقد أعطت الشجرة النيلية فروعًا جديدة تبدأ فى إظهار أزهار.. هل يمنعون الثمار من أن تنعقد بقطع الشجرة؟ هكذا يتصرف المتمسكون بعقيدة البريطانيين، هؤلاء الذين ساندتهم فرنسا مدة طويلة. فمنذ أن وصل هنا السيد البارون دى رانج بذل جهداً فى محاربة هذه السياسة. مهمة عمل صعب عندما تكون قناة السويس والبحر الأحمر والجمارك والبريد والسكك الحديدية ونظام المياه والرى والمالية فى أيدى الإنجليز أى فى أيدى إنجلترا التى سوف تبتلع مصر بإذابتها فى سيل الشركات المالية والصناعية. فى انتخاب السيد ماسبيرو، أحرز السيد البارون دى رانج نصراً علميًا أكثر منه سياسيًا. كانت إنجلترا وألمانيا وإيطاليا معارضين لهذا المرشح. النهاية كانت مرتبة مسبقًا. كان السيد ماسبيرو مقبولاً كتعويض عن الخسارة. سوف لا يوقف عالم المصريات الفرنسى الأكثر كمالاً مصير البلد حتى لو وضعوا اسمه على شارع بالقاهرة. يدور الحديث عن إقامة تمثال عن طريق الاكتتاب لماربيت العالم من بين أبرز المتخصصين الذى كان ينظر إليه دائمًا نظرة سيئة بواسطة المصريين الغيورين على الثروات المستخرجة من الرمال المليئة بالأسرار لكى يزين متحف باريس رغم فتوحاته فى مجال الآثار.

وابل من الشركات غير مسماة وهى تقريبًا إنجليزية للأشغال العمومية والرى وحفر القنوات... إلخ ، سقطت منذ قليل على السوق بطلب النقود من العامة. أنا لا أستطيع القول إذا ما كان قد نجح طلب الأموال المتداولة؟ ولكن واحداً من أكبر الملاك المسلمين كان يظهر لى أسفه لعدم رؤيته العنصر الأهلى على الرأس. ليس لهذه الشركات ولكن لمشروع وحيد ووطنى من هذا النوع. ولماذا لا تأخذ من ذلك المبادرة؟

من إذاً أفضل من المزارعين أنفسهم سيكون جديراً بأن يعرف احتياجاتهم الخاصة برصد رءوس أموالهم، عندهم ومن أجلهم؟

ها هى الإجابة الساذجة لأسئلتى، سأوصى بها النفس والخطاب برلمان الجمهورية الفرنسية. قليل من العدالة والإنصاف قد لا يكون كثيراً.

كيف نتآلف نحن الرعايا فى مجتمع مصرى عندما أقصانا - بصورة وحشية وقاسية - الإصلاح القضائى المشهور عن فائدة مزايا المحاكمة فى كل القضايا المتعلقة بيننا أنفسنا، الأهالى غير المحميين بواسطة قنصلية أجنبية.

عند أول كيد أو ظلم، عند أول تعسف للسلطة التى قد لا يفوتها أن تعترض، ينتهى بنا الحال إلى السكوت. من يريد أن يناشد عدالة المحاكم التى يديرها المتعسف رياض؟

الآن قد لا يعترفون بنا كعمال وغداً قد يطالبون بأموالنا. نحن نفضل أن نمتنع عن التصويت. أوروبا لها إزاءنا تحيزات مهنية وسوف تفقد مصر من أجل سكانها. أليس لديكم مثال هذا المسكين موسى العقاد الذى أرسله رياض ليموت فى النهر الأبيض لجريمة لم تظهر حتى فى فرنسا! نحن سنموت، نحن سوف نخفى أموالنا انتظاراً ليوم الصحوة ، ترتكز هذه الخشية على حالة الأمور الناشئة من السياسة الدولية، ليس فيها شىء من المغالاة. الظلم صارخ. اللجنة التى تقيم فى القاهرة لدراسة التحسينات التى يجب إدخالها فى إدارة العدالة أرجأت لمدة عام الوضع الراهن الذى قد يكفى فى كل مكان آخر لإثارة وتبرير ثورة، من الآن فصاعداً. ومع الاتفاق والاستعداد الدولى الذى يسود فإن مصر لديها الوقت لكى تخفى تحت النسيج الشاسع الذى تحتله عناكب الربا والدعوى المحدودة لنسجه وفى خيوطه سوف تختفى المبادرة الأهلية.

منذ قليل استسلم الاتحاد الدولى السويسرى بكل غرور بأخذ التماس المدير الإنجليزى للبريد المصرى. الخطابات والجرائد المتبادلة بين البلدين ستكون فجأة داخل حقيبة مغلقة وموزعة فى مصر بواسطة الإدارة المحلية. وهو ما يعنى أنه عند الحاجة، وكذلك سبق أن حدث هذا، بعض الطرود والجرائد والمجلات... إلخ ، ستكون محجوزة معطلة بواسطة الغرفة السوداء.

إنها ضربة مسددة إلى فرنسا التى تصر مع النمسا واليونان وإيطاليا على ألا تعتقد النية الحسنة للوزراء المصريين. هذه القوى تريد بهذا الخصوص بالذات المحافظة على الامتيازات الأجنبية.

إنجلترا التى – إذا لزم الأمر – تتراجع عندما تستدعى سياستها ذلك، قد ضحت منذ زمن بعيد بهذا الرئيس لرعاياها فى مصر ، ولكن لديها حقيبة خاصة لرسائلها الدبلوماسية، لا يستطيع أى أحد أن يضع أنفه فيها.

رسالة رقم (٣٧)

الإسكندرية فى ٢٨ فبراير ١٨٨١

غادرت... لكى أحضر هنا لأوقع خطابات الجالية الفرنسية للبارون دى رانج وزير الجمهورية فى مصر، حيث أمانته وسلوكه وذوقه العالى كانت محل تقدير عال من الجالية الأوروبية فى كل البلد النيلى.

هذا الإجماع للشعور والظاهر فى عبارات رصينة ومحددة فى الوثائق التى تذهب إلى باريس غداً صباحًا فى الساعة السابعة (عن طريق برينديزى) تثبت أن البارون دى رانج ليس فقط رفع عالياً علم فرنسا فى مصر ولكن أيضًا فى جميع أفعاله الرسمية أو شبه الرسمية، دافع عن المصالح الأوروبية بدون تمييز فى الجنسية. كان السيد البارون دى رانج لا يعجب رياض باشا أو السيد المراقب دى بلينيير الذى يعتبر نفسه حراً فى التصرف كما يحلو له فى كل الأمور، دون أن يهتم بأقل القليل لممثل الجمهورية، مسبباً الشلل للنفوذ الفرنسى فى مصر لصالح إنجلترا والتجمعات الأخرى.

كانت التصرفات السيئة غير الفرنسية للمراقب دى بلينيير منتقدة منذ وقت طويل بواسطة الصحافة الأوروبية. كل مراسلى الصحف الفرنسية على ضفاف النيل - ما عدا السيد جابريل شارم- أجمعوا على هذه النقطة.

جريدة باريسية والسيد دى بلينيير لهما فيما بينهما روابط تقريباً واضحة ولكن لا تفلت من أحد هنا. كان يقال هكذا علناً فى القاهرة منذ بضعة أيام فى وسط مائدة نزيل "الفندق الجديد" أن السيد دى بلينيير الذى له باع طويل فى باريس قد يعمل على تعيين رئيس تحرير تلك الجريدة مكان السيد البارون دى رانج، المستدعى إلى فرنسا لإعطاء تفسيرات، وهى حجة تخفى رجوعًا حقيقياً.

هذه الشائعات التى ربما تكون عارية تماماً من الصحة، لها خطورة معنوية سوف يفهم مداها، عند تقريب اسم هذا المحرر- وهو مراسل تلك الجريدة شخص معروف قليلا فى مصر التى يعرفها قليلا هو نفسه من ذلك الذى له علاقاته فى وزارة الخارجية فى باريس.

أنا أنقل شائعات المدينة الأكثر وثوقًا وما سمعته بأذنى بدون تعليق آخر.

بعض أعضاء الصحافة الإيطالية أعطوا اسم السيد دوستان، القنصل العام للجمهورية فى تونس كخليفة للبارون دى رانج. هذه الصحف تكتب عما يرغبونه ، ويسعدهم أن يروا السيد ماكسيو سيد الموقف فى تونس. ولكن كم هو غير مجد أن نبيع جلد الدب قبل أن يرقد الحيوان على الأرض، إنه من الوفاء أن ننتظر قبل أن نحكم، ما الذى ستقوله الأمة الفرنسية التى هى وحدها لها الحق فى أن تبدى رأيها فى مثل هذا الصدد.

الدسيسة المدبرة بواسطة رياض باشا والسيد دى بلينيير ضد السيد البارون دى رانج - وهى فى الحقيقية مؤامرة ضد فرنسا - كانت تتهم ممثل الجمهورية من بين أشياء أخرى سيئة النية بأنه قلل من هيبة الوزير المذكور سابقًا وبالتالى الخديو، ومشجعًا على هذا النحو التمرد العسكرى، مستخدمًا مثل هذه الأسلحة، وكان الخليفان ليس فقط يساعد بعضهما بعضًا ولكن أيضًا إنجلترا. وها هو السبب : السيد كولفن زميل المراقب السيد دى بلينيير، والذى هو نفسه موظف فاشل تمامًا، لم يفعل شيئًا دون أن يستشير السيد ماليه المعتمد البريطانى.

هذا الأخير على علم بكل قضية مهمة فى الوقت المناسب ويسأل إن كانت توجد توجيهات من قبل فى لندن، بحيث إن الإنجليز يكونون على خط المعركة قبل أن يتعرف السادة الفرنسيون على أرض المعركة. نحن نشاهد الضرر الذى يوجد فى جانب الجمهورية والذى يكون الممثل مشلولاً فيه عن طريق الوقفة الغربية للمراقب الفرنسى الذى فى معظم الوقت يشارك السيد كولفن ورياض فى الأفكار.

إن سلوك السيد ماليت فى هذه الظروف له صيته فى ذلك فهو يظهر هذا الدبلوماسى صحيحًا جداً خارج هذه النزاعات التى يدعى أنه لا يعرف شيئًا عنها. إنه دقيق جدا للتدخل علانية ولكنه لا يستطيع أن يكون سعيداً إلا بالخلاف الذى يسود، وكل شىء لصالح إنجلترا.

يهتم للغاية السيد دى بلينيير - الذى هو بعيد جدا عن أن يكون جمهوريا - بالمصالح الأخرى أكثر من تلك التى يمثلها والتى يجب عليه أن يدافع عنها بإخلاص. فهو الذى كان يقول عنه إسماعيل، الخديو المخلوع : "هذا المندوب سيعمل ثروته

فى مصر وثروة اليسوعيين التى يريد أن يملأ منزلى بها". سوف تجدون هذه الحكمة من الآن فصاعداً تاريخية فى خطاباتى لعام ١٨٧٩ .

كفى عن هذه النقطة. سوف تحكم فرنسا . فالجاليات الفرنسية تعتمد على نزاهتها.

ها هو خبر مضحك وخطير: قد يكون للانقلاب العسكرى عواقب تقريب الخديو من الجيش . يؤكدون لى أن العقداء قسموا الخبز وأكلوا الملح مع توفيق الذى وعدهم بما طلبوه، شريطة أن يحميه الجيش ضد الدكتاتور المتخفى رياض، ومن دكتاتورية إنجلترا وأشياعها، أنا أصدق كثيراً هذا الاتفاق.

طلب العقداء فى خطاب جديد:

١ - برلمان مؤلف من ممثلين من كل طوائف الرعايا بدون تمييز فى الدين.

٢ - أحسن الأطعمة من الخراف بدلاً من البقر.

٣ - زبدة غير مخلوطة بشحم الأمعاء وشحم الخنزير، كالتى يوردها الممونون للأوروبيين.

٤ - أن يكون المرتب الشهرى على الأقل ٧٠ جنيهاً إسترلينيا لكل مواطن وموظف كبير ومن يعول أسرة... إلخ. كان يحدد لهذا الإنذار النهائى ثلاثة أيام للتفكير وآخرها ينتهى اليوم.

- نحن إذن على حافة أحداث مهمة، وغداً سوف أذهب إلى القاهرة حيث سأحدد تاريخاً محتملاً جداً لخطابى القادم.

حاشية

غداً صباحاً أو لو أحببتم اصطحاب السيد البارون دى رانج على متن سفينة بواسطة المستعمرة.

رسالة رقم (٣٨)

الإسكندرية فى ٧ مارس ١٨٨١

منذ اتصالى الأخير، أخذت الحركة التى ظهرت تلقائيًا لصالح السيد البارون دى رانج أبعادًا غير منتظرة .

نشرت جريدة "منارة الإسكندرية" خطابًا لمواطن فرنسى يفسر كثيرًا من الأمور ويعطى مفتاحًا للموقف المحزن لرياض وصديقه السيد دى بلينيير فى حملتهما المؤسفة ضد ممثل الجمهورية الفرنسية.

عند قراءة هذه البلاغات أصبح رياض شرسًا ، كان يريد غلق جريدة "الضربة القاضية".

اجتمع مجلس الوزراء صباح السبت لكى يقرر إذا كان التحذير الثالث الأخير الذى يسبب إغلاق جريدة المنارة سيكون موجهًا. لقد تأخروا بدون وقف شىء. واستؤنفت الجلسة يوم الأحد. وتم استدعاء كل محامى الحكومة. أمسك واحد منهم حجة لرياض: "إذا لم تستطيعوا إنكار الأدلة المادية وما فى جريدة المنارة من ادعاءات، امتنعوا عن التصويت ؛ لأنه ربما ينظم تحقيق بواسطة المجالس وسعادتك قد تظهر بصورة سيئة جداً". نحن لا نرى شيئًا فى الخطاب الناتج من الجريدة المعينة، الذى يستطيع أن يبرر إجراء جوهريًا جداً. لم يجب الوزير بشىء وتم إعفاء جريدة "المنارة". ولكن كونوا متأكدين من أن الإنسان الحقود الأول قرض يديه حتى الدم خلال جلستى المجلس المخصصتين لهذا الحادث الغريب.

إذا اتفقت الجاليات فى ودها للبارون دى رانج فإن الأقلام الإنجليزية المحلية تذهب دائمًا لكى تلومه لعدم توقير رياض. ولكنهم يتأثرون هنا بصعوبة لهذا العناء الضائع والناجم عن المنافسة الشديدة الوطنية. لقد تعود الإنجليز بهذا المقدار باعتبار أن مصر ميراثهم القادم، وأنهم لا يضيقون من التحدث عنها اليوم كملك لهم من قبل فى أياديهم.

لحسن الحظ أننا لسنا هنا. مع ذلك فإن خطأهم لم يكن كبيرًا جدًا كما نظن.

فى باريس، لم يحدث شىء لتقليل الأوهام البريطانية فى هذا الموضوع، وما يحدث اليوم لممثل فرنسا هو حقا الثمرة المرة ولكن ناضجة جدا لسياسة الحكومة الفرنسية تجاه الازدواجية الناشئة بواسطة سلوك السيد دى بلينيير الذى لا يفهم.

لسنا إلا فى بداية الصعوبات فإن كلمة فى غير محلها أو حماقة دولية جديدة يمكن أن تتحول إلى نزاع خطير.

لا نفهم الدور المزدوج للخديو تجاه ضباط عفا عنهم فى الحقيقة، إن هذا يدعو للاعتقاد بأن توفيق هو بالتأكيد طفل بدون إرادة وبدون خبرة كما وصفته لكم كثيراً، ومسيَّراً أحياناً بواسطة سيدات الحرملك وأحياناً بواسطة رياض الذى يخاف منه الأمير ولا يخالطه أى شعور بالاحترام.

لا يمكن أن تتحقق النتائج المرجوة بوضع الشاب نائب الملك فى وسط خلقته له السياسة الدولية.

تستفيد إنجلترا من كل الأخطاء المرتكبة ، حتى تلك التى لم يكن اشتراكها فيها ممنوعًا . إنها لعبة قديمة نجح فيها دائمًا مادامت التعقيدات لا تعرضه لحملة عسكرية.

أبرقت اللجنة الفرنسية إلى السيد جربفى بحالة الأمور وأن الجالية تأمل أن يكون السيد البارون دى رانج معاداً إلى رعاياه وإلى تمثيل الجمهورية فى مصر.

رسالة رقم (٣٩)

القاهرة فى ١١ مارس ١٨٨١

المركب الإيطالى هو الوحيد الذى على أهبة الاستعداد يوم الثلاثاء القادم. وأستفيد من ذلك لكى أرسل لكم معلومات أظن أنها مهمة جداً سوف تكمل خطابى قبل الأخير الذى وصل عن طريق برينديزى.

الشكوك التى كنت قد أرسلتها بخصوص الدور الذى لعبه نائب الملك فى التمرد العسكرى فى أول فبراير الأخير لم تعد ممكنة على حد قول بعض كبار الضباط الذين

أتحدث إليهم منذ سنين طويلة عن علاقات الصداقة. وإنى أتيت هنا لأرى نيتكم. وما يلى ذلك هو أمر مجهول للعالم الدبلوماسى والموجه.

ولكى أكون أكثر وضوحًا سألخص كل القضية مختصرًا بقدر الإمكان.

منذ ما يقرب من ستة أشهر، كان الاستياء الذى تعرفونه موجودًا فى الجيش الذى يعمل على أن يعرف الخديو الشاب شكاواه ضد وزير الحربية وكذلك ضد إدارة رياض.

استقبل توفيقُ إما بغرض التأكد من كل حدث ومنافسة القوات وإما رغبة منه فى أن يضع نهاية للوصاية الأنجلو - رياض (التى تشمل أيضًا التصرفات السيئة للمراقب!) المطالبَ المقدمةَ بواسطة كبار الضباط بترحاب شديد.

وخلال اجتماع سرى، أقيم فى الأجنحة الخاصة بنائب الملك، كان يحضره العقداء المؤتمرون الأساسيون وكان قد قدم الخبز والملح المألوفان وكل واحد أكل منه، أقسموا على القرآن أن يبقوا متحدين حتى الموت.

منذ ذلك بقى توفيق على علاقة متصلة مع العقداء وخصوصًا مع على فهمى الذى كان مسموحًا له بالدخول كل أسبوع إلى القصر بلا علم من الجميع، ورياض الذى كان جواسيسه يرصدون كان يعرف أنه يحاك شيئًا ما. ماذا؟ كان لا يستطيع أن يقول. وكانت وزارة الحربية من جانبها ترى اضطرابًا فى المعسكرات ولكن بدون أن تدرك بالضبط حالة الأمور. ومع ذلك فإن هذا الموظف كان يفهم أن محاباته لم تكن غريبة على عدم الرضا العام ، فعرض تقديم استقالته عدة مرات ولكنها لم تقبل. وأخيرًا، وقبل المظاهرات بعدة أيام، جرب رياض ضغطًا جديدًا على روح الأمير، فقد قال: "يتآمرون سموك ضد شخصكم... فلنتدارك الشر".

توفيق يعرف بماذا يتمسك وزيره الأول فأجاب بلهجة غير المبالى كثيرًا، قال مترافعًا "من أجل منزلى" [وهو عنوان خطبة لشيشرون الرومانى مترافعًا لعودته من المنفى ضد الشريف الرومانى كلوديوس الذى كان قد صادر أمواله؟ إنه ترافع من أجل قضيته] وبأنه كان ينبغى أن يحترس من التدخل عن مجرد مداخلات بغرض تجنب شر

أسوأ من الآخر. وأضاف نائب الملك: "لأنه إذا كنت تخطئ فإن الضباط الذين كانوا لا يفكرون فى الشر قد يكون لديهم فكرته فيما بعد".

كان رياض يرتجف من كل هؤلاء الأعضاء، وكان لا يدرى أى جانب يأخذ. كانت المؤتمرات تتواصل، لدرجة أنه ذات يوم يأتى السيد ماليه ليحدث توفيق عن قضية ما، أعاق مقابلة لم يكن لدى أعضائها الوقت للخروج منها. حبس على فهمى وزميل له فى غرفة مجاورة حيث مكثا ساعة ونصف فى انتظار رحيل الدبلوماسى المزعج. المألوفون للقصر كانوا مطلعين على السر. واحد من أفضل خدم إسماعيل وهو اليوم ملحق بالابن - خيرى باشا، رجل أمين جدًا - كان يشكل العلامة الرئيسية لاتحاد بين سيده ورؤساء الجيش والرءوس الأخرى للحزب الوطنى.

وتنفجر القنبلة ويحدث الانقلاب العسكرى. تأتى الفيالق إلى عابدين. أى صيحات تطلقها القوات؟

يحيا توفيق وتحيا مصر وتسقط الوزارة ويسقط رياض! نائب الملك هادئ؛ فشخصه ليس فى خطر. فى المساء، يذهب إلى المسرح مع الضباط ولكن رياض يغشى بصره. من يرسلون للتفاوض؟ خيرى باشا الذى هو مستحسن؟ يؤاخى ويهدئ!

ومع ذلك ما الذى لا يعنيه هو أن البناء الدولى من الكرتون الذى يطلقون عليه الحكومة لا يتعرض للخطر. لا شىء يتغير. فالجيش، أى العنصر المصرى الواعى لحقوقه يوحى بالوضع المتحالف ضد النظام الأنجلو - رياض وتركيبة رياض دى بلينيير التى تمثل حزبًا ضد الفرنسيين ويدبر الأمور الفرنسية حسب رغبته رغمًا عن المعتمد الدبلوماسى للجمهورية المنحًى.

بعد المظاهرات التى حاربها العنصر الدبلوماسى غير المطلع على الاتفاق السرى الذى كشفته منذ قليل، جاء البرلمان الذى تم بواسطة رجال ذوى نفوذ من الحزب الوطنى، مثل سلطان باشا وسليمان باشا... إلخ.

لم يجب رياض بشىء ولم يستطع التصرف ولا أن ينتقم لنفسه، فقد رد إليهم مقدمى العرائض مع رجائهم ألا يظهروا فى القاهرة الآن. هؤلاء المجددين كانوا

بالنسبة له عائقًا جديداً . كان رياض يحلم بخنق المعارضة، التى كان ومازال هو سببها بل وقتل رؤسائها. عندئذ كان السيد البارون دى رانج مطلعًا على هذا الطيف للانتقام عن طريق الشائعات التى تشيع بين العامة ، وحصل من نائب الملك على تعهد ليمنع كل عقاب خفى أو ما عداه ، حيث يكون – أو ربما يكون – الضباط والجنود المصفح عنهم محل عقاب.

هذا الاحتياط الموجه ضد رياض أثار غضب الوزير وأطلق ضد البارون دى رانج غضب العصبة النافذة من الأشخاص المتمتعين بسلطات سياسية خفية أو غير رسمية والتى لم تعد تتضايق. أصبح الكذب والوشاية العملة الرائجة بين القاهرة وباريس وحاز السيد دى بلينيير الذهبى ورقته الرابحة فى هذه المسابقة غير الشريفة.

لقد جرؤت ورقة عربية من الإسكندرية محررها هو كاتب معروف جيداً فى باريس وهو مألوف للسيد بلينيير أن تشمت فى عزل ممثل فرنسا المحترم الذى كانت تتمنى له بقلمها كل الوزارة سفراً سعيداً، جريدة مصر معانة ماليًا من أجل أن تسكت عندما ينبغى عليها أن تتكلم. وهى المحررة بواسطة فرنسيين لم تجرؤ على أن تهاجم سراً السيد البارون دى رانج وكانت تتسلى بنقد اللجنة الفرنسية المكلفة هنا بدعم شرف علم الجمهورية عن طريق دعايات ذات ذوق مبتذل ، لقد تأكد أن هذا الكاتب كان يحلم أن يحل محل السيد البارون دى رانج. إذا كنت أكرر عليكم هذا السخف (مرروا لى هذه الكلمة) هذا لكى أعطيكم برهانًا جديداً على الضلال الإنسانى فى بعض العقول الصغيرة لصغار الأفراد.

يبدءون بقذف هذه الأشياء فى المحادثات الودية ثم يطبعونها. عندئذ تتجول فى عالم السياسة، وفى وقت محدد فإن الشخصية المعنية يمكن أن تصبح وزيراً! ولم لا؟!

احتاط السيد ماليت من كل شىء. فالسياسة التى يمثلها تخدمها بشكل رائع دسائس رياض الذى يكرهها ودسائس السيد دى بلينيير الذى يجد نفسه فيها بصورة عجيبة. والسيد كولفن لا يخسر فيها شيئًا مادامت مصالحه الخاصة بعيدة عن أن تكون فى خطر ومادام رئيسه سعيد بها.

بأية طريقة يكون النفوذ الفرنسي مفهومًا ومعتنى به فى مصر ، إنه يدعو لعدم التصديق.

يبحث السيد ماليت فى استبقاء رياض الذى سيسقط. فهم لا ينتظرون إلا رحيل أمير النمسا الإمبراطور فى مصر لحسم العقدة الغورية [عقدة قطعها الإسكندر الأكبر بسيفه] . لا يمكن أن يدوم هذا النظام، والحزب المصرى يريد أن يثبت نفسه. يجب على الرجال الفاسدين أن يرحلوا . إن الوجود الوحيد للأرشيدوق أنقذ الحكومة الحالية من سقوط وشيك الوقوع، أى الوزارة. لقد كون رياض أموالاً. وهو مدين بجزء كبير من ثروته لإسماعيل الذى سيسرع بتوجيه ركلة حمار إليه. لم تكن البورصة والباقى جاحدين له ، ولكى يتشبث بالسلطة ويكون الذهب مع أقربائه وأصدقائه ؛ قد يلغى هذا المصلح النموذجى – المزين بالعديد من الأوسمة الرفيعة عن طيب قلب وعلى منوال أستاذه القديم – الكائنات الأكثر جرأة لمقاومة استبداده الذى لا يطاق.

توفيق محبوس الآن فى قفص ذهبى مثل عصفور صغير. من سيفتحه لكى يعطى مفتاح الحقول للسجين الشاب؟ نظر رياض محوِّل إلى جانب باريس فقد عرف أن يعمل لنفسه أصدقاء، وعد أصدقاؤه هنا أن السيد البارون دى رانج سوف لا يعود وهو يعيش فى انتظار رسالة تبلغه أن رغباته استجيب لها .

فليفعل الله ما ينتظره طويلاً.

رسالة رقم (٤٠)

القاهرة فى ٢٠ مارس ١٨٨١

العقداء واللواءات الذين قاموا بالتمرد العسكرى تصرفوا تجاه الهيئة القنصلية بكثير من الصدق الممكن. لم يغب عنهم أبدًا الحرص والكتمان مهما قالوا . لقد استقبلهم السيد البارون دى رانج كما كان ينبغى محدثًا إياهم عن النظام والواجب، والسيد ماليه عمل بالمثل ولكنه سخر منهم عندما أعلموا المعتمد البريطانى بالأمنيات الدستورية والبرلمانية للأمة.

أجاب هذا المعتمد : "أبداً، لن تملك مصر برلمانًا.. فالبلد ليس قادراً على ذلك".

حسنًا، مهما كان رأى السيد ماليه ورؤسائه فإن الشعب الذى يعمل لازدهار وطنه، الذى يدفع ضرائبه بدون تذمر وفى مواعيد ثابتة أيا كانت طبيعتها تعسفية أو ضريبة نصاب فهو قادر على أن يحكم نفسه برلمانيا ، فسوف يجد دائمًا فى صدره رجالاً جديرين بأن يمثلوه فى مجالس الدولة.

ها هى إجابة ورأى ليسا سيئين. لن تجد إنجلترا إلا خطأ واحداً، وهو أنهم مصريون وليسوا بريطانيين. لحسن الحظ فإن احتكار الأفكار التحررية والعادلة لم يعد قاصراً على ضفاف نهر التايمز، يفكر الناس فى البلد النيلى فى كل شىء كما فى أى مكان آخر.

إن الجيش الذى يمكن حقًا فى وقت محدد أن يكوِّن أول برلمان مصرى والذى صدمه بشدة نقص الحصانة للسيد ريفرز ويلسون، طلب – من بين أمور أخرى – العودة إلى المرتب الأساسى عندما كان يتمتع بالأقدمية (المرتب الأساسى يرتبط بالأقدمية) ليس له مقتضيات ولكن لن يخرج منه الإنصاف.

كان السيد ريفرز ويلسون قبل الانقلاب فى كفاءته الجاهلة وبيروقراطيته قد شطب الكوادر وطرد الضباط بدون أن يدفع لهم رواتبهم متخيلاً أنه يتعامل مع عبيد زنوج.

بسبب ذلك فهو لا يفلت من الطائفة السيئة إلا بواسطة حكمة العسكريين أنفسهم وتاركًا بعض شعر لحيته فى أياديهم.

أظهر الجيش التبعية والصبر. فلم يفهموه ولا سمعوه. أرادوا فصل الشعب عن الريف الذى خرج منه الجيش الذى هو مشكَّل منه. هنا يكون الخطأ وسينبغى الآن الإصغاء إليه.

من المؤكد إذًا أنه لم تكن قد تغيرت الحكومة المصرية ونائب الملك والوزارة فى أول فبراير الأخير ؛ فذلك لأن الجيش لم يرد ، إن عهده مع توفيق نصحه بأن يرى وأن ينتظر. لهذا السبب فقط وجب علينا أن نرى رياض واقفًا مازال ؛ فربما يكون من الطيش أن يشد الحبل أكثر.

رياض مريض جسديا ومعنويا. قوة إرادته الكبيرة هى التى تحافظ عليه. سوف يكون هناك رد فعل وستكون النهاية. إن التغيرات التى سوف تحدث أكيداً فى المراقبة سوف تجعل نظامه مستحيلاً ، لا سيما وأن كل مصر تكون ضد الإنجليز حتى إن تصرفات العنصر البريطانى قابلت فيها نفوراً.

أنا لا أحب أن أكرر ما قلته. ومع ذلك فإنه من الضرورى فى بعض الأحيان الرجوع بغرض العمل على فهم أفضل لنقط ينجم عنها موقف كبير.

كيف تريدون فى بلد تعداده خمسة ملايين نسمة، متجانس فى السلالة وفى الدين وفى اللغة، ولا يكون الشعب مصدوماً ومهاناً أن يرى على رأس الشرايين الأربعة الحيوية الإدارية فى مصر : البريد والجمارك والسكك الحديدية والمالية - أجانب موجهين بواسطة الإنجليز ويطيعون أنفسهم بإلهام العلى القدير العزيز عن المصلحة البريطانية. الأمة معهم فى كل مكان حتى فى أدق التفاصيل، هذا ما لم يريدوا أن يفهموه فى باريس.

سيسافر غداً السبت أمير النمسا ليوبولد. كل الحيوانات الضوارى والمائية وذات الأجنحة... إلخ ، التى قابلها حتى الطائر المألوف والمثير سقوطه تحت بندقيته المميتة ويقال إن الأرشيدوق كان لا يحتقر حتى الثعابين.

بعد رحيل الأمير ليوبولد، سوف تهتم مصر بكل هدوء بمصالحها العائلية.

رسالة رقم (٤١)

الإسكندرية فى ٢٥ مارس ١٨٨١

الطبع يغلب التطبع.

قامت المستعمرة اليونانية بتوضيح هذه الحقيقة للقول المأثور بطرق ملتوية وليس لها مبرر، حيث قام عدد كبير منهم أذنبوا ضد المجموعة اليهودية فى هذه المدينة. لا مراء أنكم سمعتم، أنه فى الشرق، يحصل الأرثوذكس على اللذة الهمجية، فى أعياد الفصح اليهودية، بالاعتداء وبالقتل والتشويه حتى لبعض اليهود المساكين الذين

لا يملكون وسيلة دفاع عن النفس، متذرعين بأن مصاصى الدماء التلموديين استخلصوا دماء أحد صغار اليونانيين ليصنع به الخبز الخالى من الخميرة. فى كل عام، فى مثل هذا الوقت، يختفى فى الوقت المناسب فى أى مكان لأساكل الشرق، طفل، ويضرب بطريقة لا توجد إلا فى الخيال الدموى والحقود للأرثوذكسية الشرقية.

عندما توجد الضحية المقصودة، وليس الحال هكذا دائمًا، الوضوح الأكثر ثقة، والأكثر تشكيكًا، يوضح بدون أى خطأ أن الوفاة كانت نتيجة لحادث طبيعى. لديهم: وكالعادة، بعد التشريح، لا يهدأ التعصب. الضربات والجراح تستمر. والغليان وصل إلى معدلات تمرد خطير.

فى العام الماضى، أحد الأطفال اليونانيين، هوى من شرفة المنزل حيث تقيم عائلته، والذى كان من سوء حظه أنه سقط على بعد خطوتين من معبد يهودى. بالتالى القصة القديمة بعثت من الماضى، اليهود يهربون كالحيوانات المتوحشة ذهبية الشعر أمام الجنود اليونانيين، والتزموا مساكنهم حتى يتحاشوا الضربات. سال الدم وللأسف، أحد أبناء اليهود الأثرياء، والبارون دى ميناسيه، وجلاً إلى أقصى حد، لجأ إلى طريقة كريهة، ابتزاز وتهديد بالتشهير، شاركت فيها السلطة اليونانية، اشترى مقابل مبلغ كبير من المال، صمت الذين يشاركونه فى الدين. هذه العملية التجارية راقت فى عيون أبناء الأوليمب، الذين لم يفتهم أن يجددوها هذا العام، ولكن بنجاح أقل إلى أقصى حد بالنسبة للحصيلة المالية. طفل يونانى عمره تسع سنوات اختفى من بيته يوم الجمعة الماضى. وبدون القيام بأى بحث، الجنود اليونانيون الأرثوذكس وجهوا أصابع الاتهام مباشرة – بدون أى نوع من أنواع القضايا – إلى الهاموية العبرية، بدأت الحقيقة تظهر. بعد مرور أربعة أيام، عثر على جثة هذا الطفل المسكين طافية فى الميناء، منفوخ البطن، الجفون والشفاه أكلها السمك. ولكن بدون أية علامة خارجية تؤكد الإثم المنسوب إلى التلمود. لا شىء يفيد! أكثر الحكايات تفصيلاً تشيع فى المدينة: عروق مفتحة وشرايين فارغة وتشوهات مخيفة، إلخ ، رأى اليونانيون كل ذلك. حينئذ أغلقت الحوانيت اليهودية أبوابها، الرعية العبرية فرت، رحلوا، ولجأ الكثيرون إلى القنصلية الفرنسية يحتمون بها حيث السيد دوبينى القنصل استقبلهم بمحبة إنسانية فرنسية. ولكن الضربات تنهمر. تعرض حاخامين لإهانة شديدة. أسرع قنصل

عام إنجلترا ونظيره الفرنسى وطلبا من الخديو إرسال فرق أمن، وأصبحت المدينة كأنها فى حالة حصار.

وماذا فعل المندوب اليونانى فى مصر، السيد رانجابيه؟ مثل ما يحدث فى بيزنطة، تناقش مع المتمردين بدلاً من أن يعاملهم بما يستحقون، وأذعن أمام تهديدات جمع غفير ثائر!

مع أن التشريح العام والدولى الذى أجرى لجثة الطفل، أثبت عدم صحة الاتهامات، فإن الفوران لا يزال مستمراً. المتعصبون من اليونانيين، لم يستطيعوا أن يضربوا، فهددوا اليهود بإحراقهم بالبترول. الطرقات، ومعابد اليهود، والبنوك، والقصور التى يسكنها أمراء المال من اليهود عليها حرس، والمدينة منذ يومين تشبه حصناً من الحصون يخشى من القصف. ها هم اليونانيون، ها هو العنصر المضطهد الذى يشكو من البربرية المسلمة والذى يطالب، باسم التقدم والعدالة، كل من أيبيريا وتلساليا وبقية الإمبراطورية العثمانية، أن يعملوا على تمدينهم.

أعتقد بأمانة أن الأحداث المؤسفة التى أذكرها لك سوف تؤخر لمدة عشرين سنة على الأقل، تحقيق الرغبات اليونانية التى تتسم بقليل من روح المغامرة. فى أيبيريا وتلساليا، لم يقم الأهالى المسلمون أبداً بمثل هذه الأعمال المغرضة ضد اليهود الذين يتهمهم اليونانيون بمكر وخبث بممارسات دموية ضدهم، والتى لم تثبت أبداً أبداً.

على الرغم من أن هذه الأحداث المؤسفة لم تلفت انتباه الشعب، فهى بصفة خاصة، استغرقت حالة البارون دى رانج، حيث يقال إنه سوف يحضر قريباً جداً. أنا لا أثق إلا بما أرى وأسمع. ولكن فى كل يوم، نرى نظام الحكم الحالى، غير المتزن بسبب موقف رجل حازم ونزيه، مجحفاً لمصالح الطائفة بصفة عامة...

من جهة، عن كلمات السر التى تفلت من القاهرة، تعمل بورصتنا بمبالغ ضخمة، التى إلى جانب المكاسب الكبيرة، تتسبب فى حالات خراب وانتحار للأسف واقعية:

المجموعة "رياض - ماليت - دى بيلنيير - كولفان" لها صيارفتها الخصوصيون والمفضلون لهذه العمليات الحكومية، وهكذا فإنه من بين مليونين ونصف مليون

إسترلينى لصفقات صادرة من هذا القائد، فإن ثلاثة أرباع (٣/٤) هذا المبلغ كانت قد سلمت من يد إلى يد إلى العائلة اليونانية "باللى سينادينو"، والتى شركاؤها أصدقاؤنا "الأحماء"، وهم، مع زوجاتهم، زينة الحفلات الاستقبالية، شعثًا قليلا، قدمهم السادة الموظفون البريطانيون المندوبون للمالية النيلية إلى النخبة من المدعوين.

كل هذه الزمرة يشملها السيد ماليت بعواطفه الودية والذى، فضلاً عن ذلك، لا يحجبها عنهم.

بعض الصحف الفرنسية تذكر تعداد المستعمرات الأوروبية فى مصر، وكثيرا من الأرقام خطأ. اليونانيون تجاوزوا ٣٣٠٠٠ ، والإيطاليون يصلون تقريبًا إلى هذا العدد. أما بالنسبة للإنجليز والمالطيين معًا فتشير السجلات القنصلية إلى ٤٠٠٠ .

حواشى : حامية الإسكندرية تم تحصينها بألف وخمسمائة رجل، وذلك كثير. يضطر الضباط المصريون إلى الحضور لبث النظام بين مصلحيهم من المسيحيين، أليس هذا مضحكًا قليلاً؟

بالأمس جرت محاولة بينى وبين كولونيل فرقة مستدعى، ونحن مسافران، وقد توصلت إلى حقيقة العدد الفعلى للجيش المصرى، حاليًا مخفض إلى ١٠١٥٠ رجلاً، وهو رقم يتضح أنه أقل من العدد الذى يحتاجه البلد للخدمة. الباب العالى يطالب بفرمان التنصيب، حد أدنى للجيش ١٨٥٠٠ رجل فى زمن السلم.

لم يلق الضوء على حدث دى رانج إلا بعد أن تنشر رسالتى التفسيرية عن الميك - ماك الخديوية مع ضباط الجيش. إنى أنتظرها فى أقرب عدد من أعدادكم فى جريدتكم "لو سييكل".

أنا لم أتحدث أبدًا عن زيارة البارون إلى عثمان باشا. بخصوص موضوع مهمات وزير فى حالة تغيير الوزارة ؛ لأن عثمان باشا لم يصرح لى بشىء فى هذا الصدد نظرًا لأنها زيارة رسمية. البارون - رغبة منه فى معرفة حقيقة الظروف - سوف يلتقى بعثمان ويطرح عليه السؤال.

عندما أخبرك بأن البارون كان محبوبًا ومقبولاً عند الأهالى، فذلك يكفى ويجنبنى الدخول فى تفاصيل معروفة بتفسير سيئ.

إن سؤال عثمان باشا ابن المرحوم مصطفى فاضل، ما إذا كان يقبل مهمة وزير فى حالة تغيير الوزارة، يعتبر جريمة فى حق البارون دى رانج. تقول زمرة رياض وشركاه إن هذا التصرف غير موفق، وغير لائق، إلخ. هذا اللوم لا أساس له، وبعيداً عن المنطق، وها هو السبب: عندما حركت المسألة صرح السيد ماليت فى مناسبات عديدة أنه لن يقبل لا شريف، ولا رينيو، ولا داود ولا عثمان، ولا أى شخص غير رياض وصحبه. ها هو التدخل أو أنى لا أعرفه! هل من أجل هذا تم التآمر وحياكة الدسائس ضد السيد ماليت؟ لا. لماذا الكيل بمكيالين، والوزن بميزانين؟ "أى لماذا التحيز والتغرض"؟

رسالة رقم (٤٢)

القاهرة فى ٢٩-٣٠ مارس ١٨٨١

البرقية التى أرسلها السيد مونج بالأمس إلى الخديو لا تدع مجالاً للشك. البارون دى رانج، وزير ومبعوث دبلوماسى للجمهورية الفرنسية فى مصر، أوقف أعماله. كان قنصل فرنسا فى هذا البلد مكلفًا بالمهمة البغيضة بإعلام نائب الملك بأن الدبلوماسى الذى يعد – بالرغم من التغييرات العديدة – أفضل من مثل بلده – أحيل إلى الاستيداع ولن يعود إلى وظيفته :

هذا النبأ لا أخفيه عليك، قد ألقى بالوجوم فى أحضان جميع المستعمرات – الإنجليزية مستثناة – والتى تعلم جيداً عن مستعمرتنا، على سبيل المثال، كلفت بالنشر، منذ رحيل البارون، فى صحيفة حقيرة صغيرة بالإسكندرية، بأن هذا الوزير كان معزولاً تمامًا. السيد ماليت، إذن كان يعلم ما سوف يحدث: أخبره وطمأنه رؤساؤه، من لندن، حيال ما ينبغى أن تقرره حكومة الجمهورية الفرنسية فيما بعد.

ذلك ما هو، فى وقت واحد، بناء ومثقفًا من أجل أن أكون منصفًا، ينبغى أن أوضح أن "لايجيبت" (المقصود بها صحيفة مصر)، أنشأها بعض المدنيين الفرنسيين فى خدمة رياض، والرقابة لم تمنع التكهن بالنتيجة.

ذلك، إذا كان مسموحًا بالتصديق وفقًا للمظاهر، صفقة معقودة بين القاهرة، وباريس ولندن، بدون علم المستعمرات والشعب الفرنسى.

حسنًا. يوجد قرار: علينا أن ننحى. ولكن يتحتم على هؤلاء الذين يعرفون أنه من المحتمل جدًا، أنهم فى باريس يجهلون تعريف الحقيقة كاملة عن هذا الحدث المهم.

ومن المؤكد أن العاصمة تثور بشدة، أقل من ذلك الذى يخص البلد النيلى أو ما يجرى فيه، نحن المقيمين والمستوطنين الآخرين، الذين ترتبط مصالحهم ارتباطًا وثيقًا برفاهية مصر.

بيد أنه يستحيل علينا أن نسلم - مهما كانت وجهة النظر السياسية التى نتموضع بالنسبة لها، والتى يروق لفرنسا أن تمارسها على ضفاف النيل - بكل ما يعجب إنجلترا شريطة أن يسقط الدين الموحد وأن تنتصر بعض الزمر.

ما من فرنسى لا يعتقد أنه سوف يكون مسموحًا للسياسة البريطانية أن تعد على هواها ابتلاع أو توسيط مصر، حيث إن إنجلترا غير ممثلة إلا بسبعمائة أو بثمانمائة من رعايا الملكة (بغض النظر عن ٣٠٠٠ مالطى، الذين هم من الأفارقة)، مقابل ١٦٠٠٠ من الغال بينما فرنسا - بالعديد من العلاقات والصلات المعنوية والمادية، وبأمر من الذكريات المهمة وحقوق لا تقبل المناقشة - لها نفوذ عالٍ فى هذا الوطن.

ومع ذلك كيف لم تصل إلى هذا الاقتناع الحزين، عندما تشاهد إدارة البلد المصرى برمته تحت سلطة الإنجليز؟ عندما يسمح ممثل الملكة لنفسه بأن يرفض أى تجمع وزارى، وأن يلغى أى اسم أو أية أسماء لأى أشخاص تريد مصر أن تراهم يتولون المناصب، وأن تفرض عليها نظام حكم بريطانى خالص تحت الإدارة المستعارة لرياض، الذى يميل قليلاً إلى الإنجليز، أصبح بين أيديهم أداة كراهية ضد فرنسا التى يمقتها؟ ونتعشم كذلك أن يسطع النهار على باريس، وأن المجالس تستطيع أن تمنع، وأن تعاقب ضربات المذبات التى يتلهى بتوزيعها النظام الأنجلو- نيلى على صورة الجمهورية وعلى المستعمرات الخاضعة للأمة الفرنسية.

والأساس اليوم هو أن نرسم بصدق، الأدوار التى يلعبها كبار الشخصيات التى ساهمت فى هزيمة، ليس البارون دى رانج، بل النفوذ الفرنسى فى مصر.

إن إخفاء الحقائق بنوع من الأدب أو اللياقة، سوف يصبح فى هذا الظرف خطأ جسيمًا، يؤدى مباشرة إلى النفاق.

سوف أكرر وأقول بوضوح ما هو، فى رسائلى السابقة كنت أعتقد أنه يخطط، مع إعطاء الفرصة لكل فرد حسب قدرته على قراءة ما بين السطور.

المظاهرة العسكرية التى حدثت فى الأول من شهر فبراير، التى ساعدت على بناء ذريعة مقيتة والتى بالاستعانة بها - لإرضاء بعض الأفراد المتعطشين - كان لابد أن يسقط البارون دى رانج، كان الخديو توفيق فى فكره أول الأسماء.

ليس هو الذى تخيله: بل وثيق الصلة بالضباط المتكدرين، كان على علم بالمظاهرة قبل ستة أشهر من اندلاعها، شجعها ويسر لها الأمور مؤيدًا هدفها ووسائلها، بعد أن أكل العيش والملح الخاص بالمشاركة السياسية مع المتآمرين.

بماذا تعاهد هؤلاء إلى "عظيمهم" حاميًا أو متواطئًا والذى يشعر بضعف مركزه المزعزع؟ للاحتفاظ به لحكومة مصر ضد تطلعات رياض التى كانت تهدف ولا تزال تهدف إلى هذا المنصب، الذى كانت إنجلترا "وعدته"به (مفهوم تمامًا) ، وضد أى احتمال أخير باستبعاد الوزير الحالى، أجنبى أكثر منه مصرى، واستدعاء رجال من الحزب الوطنى من أجله، لتقديم نوع من الدستور إلى البلد مع وزراء مسئولين يحكمون مصر باستشارة مجلس نيابى يتلاحم، يتكون من نواب يختارون من قلب المجتمع بدون تحيز للدين.

هذا هو برنامج المتظاهرين الذى تبناه توفيق، لن أقول باقتناع مطلق، فسوف يعنى ذلك إطراء زائدًا عن الحد، ولكن بإحساس "وقاية ذاتية" كما يقال فى لندن. وعن هذه الاتجاهات والبرامج، كان رياض لا يعلم إلا القليل. كانت السرية تامة، فى الاجتماعات غير القانونية - نهارية وليلية، كان يحضرها على فهمى وأحمد عرابى وخيرى باشا - التى كان جواسيس الوزير يضلون عنها.

عندما سبق أن أوضحت لك حديثًا أن رياض ضاق ذرعًا بما يحدث له، وكان يطلب من سيده المهيب اتخاذ إجراءات مناسبة، وكان سموه يمازح رئيس وزرائه بصدد مخاوفه، وأخيرًا، نضجت الثمرة. وقبل أن تخور القوة التى يعتمد عليها رياض، علم جيدًا، وأصبح قادرًا على أن يزود بالأسماء. وما كان توفيق ليتقهقر،

واقترح دراسة المسألة، موصيًا الشاكى باليقظة. الخديو الصغير ليس طفلاً كما كنا نعتقد. يوجد بداخله ثعلب، ولكن من المؤكد ينقصه تملق الأسد.

وهنا تدخلت الشكاوى وجميع أحداث العصيان دبرته اليد الطولى ، والملهاة يلعبها الأمير فى قصر عابدين وأصدقاؤه المصريون، ورياض هو ودبلوماسيتها، وزمرة كولفان- دى بلينيير وأصبح الشعب العريض هو المخدوع، بينما فى الحريم كله، كن على علم بما يجرى.

كان دور البارون دى رانج معروفًا. الضباط قابلوه، كما قاموا بزيارة زميله الإنجليزى. أصبحت الثقة التى يوليها الوطنيون المصريون لفرنسا واضحة. وشيئًا فشيئًا عرف دى رانج الحقيقة، لم يجد صعوبة فى إقناع السيد ماليت بتعاطف أقل من أن يكون مداهنا لإنجلترا وغير لائق لأقصى حد بالنسبة إليه شخصيًا. السيد بلينيير من ناحيته، قدم إلى حاشيته الباريسية فى جو عدوانى. ويؤكد ما لم يكن من قبل، مع إغفال تعريف ما كان. يقال، لابد من أن الأموال سوف تعوزهم، لأن البارون دى رانج يلمح على طريقة اليسوعيين بمساعدته وتأييده للثورة. وكما أن مصر محكومة فى باريس بالكوبون، فإن فى لندن تهيمن السياسة على رصيد العملة، فقد أجبر الخديو الصغير، من أجل أن يسترد إرادته فى الاستقلال، عليه أن يكتب "فى الحال" إلى الحكومة الفرنسية ليطلب منها استدعاء البارون دى رانج! كيف سيواجه نائب الملك هذه المناورة الخسيسة؟ هذا ما لا أستطيع أن أفسره لكم اليوم.

من الواضح أن ضعف إرادته أقوى من طاقته. النظام الأنجلو-رياض لا يعجبه، ويمثل عبئًا عليه. إذن، استسلم الأخير للتطلعات إلى السلطة، متحالفًا خفية مع الرجال الذين يتعهدون بتعضيد مركزه، ولكن فى الوقت الذى انكشفت فيه خططه السرية، حينئذ فقد نائب الملك رباطة جأشه وأذعن لمن يعاملونه باعتباره تلميذا فى مدرسة. شاهدت هذا الصباح ضباطًا من مختلف الألايات من الحامية، ولا أعتقد الخروج من حدود الحقيقة الباردة مع تأكيد أن برقية السيد مونج قذفت بهم وبالوطنيين المصريين فى جو من الوجوم. هذا ما كان بوسعى أن أوضحه لكم اليوم بصدد المخاتلة التى أصبحنا ضحية لها هنا وفى باريس.

الحزب "الأنجلو - رياض - كولفان - دى بلينيير" يهلل. والواقع أن هذه العصبة لا مأخذ عليها. وحتى استدعاء السيد بلينيير لن يكون مكافأة، ولا مرضاة لنا.

رسالة رقم (٤٣)

القاهرة فى ٣ أبريل ١٨٨١

فى رسالتى الأخيرة، قدمت لكم الخديو الصغير باعتباره متآمراً، يؤيد العصيان العسكرى ضد رياض ونظامه أنجلو - دى بلينيير، بدون علم الدبلوماسية التى تلعبها شخصية حتى الآن بدون أى قوام سياسى، بل، يقال، شخصية دسائس بحتة.

اليوم، نحن نأسف لملاحظة أن باريس - بدون الوقوف على خطورة السلوك الغريب لنائب الملك - قد تخلت عن مبادئ الإخلاص والعدل التى كانت من قبل أساساً لسياسة النفوذ الفرنسى على ضفاف النيل، ذلك للمصالح الإنجليزية فى مصر. أخذ أو يبدو أنه أخذ مأخذ الجد، خطاب توفيق الشهير المملى عليه والموقع منه شخصيا، بتحريض من الزميل الذى، جهاراً، تظاهر بالإشفاق على جحود السيد سان - هنيلير حيال البارون دى رانج، بينما هو شخصيا، فى كل بريد يخبر لورد ليون فى باريس، وحكومة الملكة فى لندن، بالنفوذ النزيه المنيع الذى يمارسه مندوب الجمهورية على كل الجمهور المصرى بدون استثناء.

ولماذا كل هذا؟ لتحتفظ بصدارة المناصب التى يشغلها الرعايا البريطانيون فى مصر، ومن أجل أن تمهد الطريق، بكل تأكيد، للاحتلال فى المستقبل، لأنها هنا لن تكون مسألة مصالح تجارية لإنجلترا على ضفاف النيل، وهى التى - بالرغم من الجهود المبذولة فى كل يوم من بعض المؤسسين الذين يتضورون جوعاً لشركات عجيبة، زراعية أو غير زراعية - سرعان ما تناقصت تماماً. ومن حسن التصرف أن نتصدر بحمولات السفن الإنجليزية التى سوف تعبر البوغاز، ولن يثبت أى شىء عن الموضوع المعنى. لأن هذه الأرقام تجيز الترانزيت عبر طريق محيدو الذى لا يزيد قيمة بارة واحدة إلى المصادر المالية النيلية، بالمقابل. إن تسعة أعشار التجارة الأنجلو- إيجيبشان فى أيدى اليونانيين، والتى انخفضت إلى صفر فى كل مكان حيث تلقى المنافسة، فالمنافسة البريطانية أقل مهارة من المنافسة الهيللينية ، ولكن حسب الاحتياج، كل شىء تحوم حوله الشكوك.

فى الإسكندرية، السيد جاليار، مدير الجمارك سابقًا موظف بريدى، فى الأعمال المختلفة لوزارته، هو أيضًا مناهض للفرنسيين بقدر الإمكان، ولو كان فى وسعه - عن طريق معوقات متزايدة وخفية - أن يرهق الاستيراد الفرنسى والقارى، إلى درجة إخضاعها لحرب مملة، لتحاول البحث عن منافذ أخرى، ما كان ليتردد لحظة فى أن يفعل ذلك. تلك هى كلمة السر الفطرية الوطنية.

هل ترغبون، عندما أتحدث عن الجمارك المصرية، أن تسمحوا لى بأن أرسم لكم بخطوط عريضة صورة المدير الحالى، من وجهة نظر العجرفة البريطانية فى البلاد الأجنبية على ساحل البحر الأبيض المتوسط؟

إن مزج الحزن بقليل من البهجة سوف يسفر عنه التهاء مناسبا. إن "صاحب المقام" هذا، الذى كان منذ ثلاث أو أربع سنوات مجرد موظف بسيط ومغمور من بين موظفى البريد الإنجليز فى لندن، لم يكن له شأن يذكر. كان يتعاظم متأنقًا بإسطمبولية يعلوها طربوش لا يخصه مطلقًا، بل جعلوه مميزًا شكلاً كأى فرد من البشر:

عندما جاء هذا "المهم" إلى القاهرة، نزل فى فندق سان إستفانو، إحدى علاماته الأكثر تعقيدًا ومساندة النخبة الغربية جدًا، وهنا، كل يوم فى الموعد حيث التيراس اللائق بالفندق مزدانا بأفضل وجهاء البلد من رجال ونساء جاءوا من أنحاء العالم، الحاكم العظيم للجمارك الأنجلو- إيجيبشيان، يرافقه أسود مقنع فى صورة جندى استعراضى، يعرض شخصيته الرسمية ويبحث أعماله فى وسط الدهماء ، حينئذ الجندى الأسود الوصيف، الذراعان إلى الأمام، يحمل عليهما خزانة سوداء - نوع من حقيبة وزارية - يظل واقفًا خلف رئيسه، الذى من آن لآخر وهو ينظر فى جميع الاتجاهات، يعود، يفتح الخزانة، يخرج منها أو يضع فيها أوراقًا، فى يسر محدثى النعمة الذى بوسعكم أن تتخيلوه. رأيت مناظر هذه الخيلاء الصبيانية. إننى شاهد عليها كل يوم. لأن هذه التصرفات تكون فى الحقيقة، أحد أمراض العنصر البريطانى كما هو ممثل فى مصر، بمعنى، أن طبقة تصنع منه حركة أرستقراطية، على سبيل المثال، لم تستخدم مطلقًا، فى إنجلترا، حافلات متواضعة.

هذه الملاحظات، مهما كانت تحمل من معان، فهى مهمة جدا. هذه الملاحظات تلقى ضوءًا مهما على نوع المديرين وأرباب العمل الذين توليهم السياسة الإنجليزية الجشعة من أجل أن تفعل بضفاف النيل ما فعلته مع قبرص وملحقات أخرى، والتى سوف تصبح فيما بعد جمرات متوهجة.

وهلم بنا نعود أدراجنا إلى ما هو أهم فى هذا الصدد. ها هو وزير فرنسا - على الأقل إنه لم يخضع عمله لعمل المجموعة الأنجلو- رياض- دى بلينيير - الذى كان يمكن أن يستعيد نفوذ أمته فى حدود صحيحة ولائقة، مع خصوم أقوياء ومتشككين!

ثلاث صحف إنجليزية فى خدمة هؤلاء، والجميع فى خدمة هؤلاء، والجميع مرتبطون بهذه العصبة بروابط نفعية. أحد المراسلين يعمل قاضيًا ونائب رئيس محكمة الاستئناف الوطنية. الآخر وكيل الشركة الملاحية الشرقية شبه الجزيرية. والأخير لا يشغل أى منصب ظاهر، ولكنه يرغب فى التوسع فى وسائل معيشته.

الجميع بدون استثناء، باعتبارهم أولاً إنجليز، فهم معادون لفرنسا، بمرارة ومنهجيًا، وثانيًا باعتبارهم تلاميذ البورصة وللمجموعة سالفة الذكر الذين يتلقون منهم التعليمات، إن لم تكن أوامر، حسب معرفتى. لا مانع من أن تبذلوا جهدًا فى قراءة ما بين السطور، على سبيل المثال، بعض برقيات صحف "إستاندار" و "ديلى نيوز"، سوف تجدون فيها من جهة الأصل الوزارى القاهر والآمر، ومن جهة أخرى الورق الخاص بطباعة أية تقلبات فى الأسعار التنافسية للسندات النيلية.

إنه يشق علىَّ أن أصدر ملاحظات على مثل هذه الخدمات، هيهات! بعيد جدًا على الأحكام المعلنة باستقلالية. ولكن بما أننى أحيا فى خضم هذا الحجم من الأزمات المعنية، ووثائق سياسية تحول جميع الأمور إلى مسألة مالية بدون أن تهمل من أجل ذلك المنافسة الوطنية الشديدة، أقول بدون أن أخشى تكذيبى عن طريق الأحداث: إن فرنسا، بقبولها مثل هذا الوضع، سوف تنتهى بأن تنحدر فى مصر إلى المرتبة الثالثة بين الدول الكبرى.

وإذا لم يكن يوجد سوى إنجليز فى المعسكر العدو، قد يفهم ذلك على أنه نتيجة طبيعية لهذه البذرة التى لن تهدم لا الأنفاق ولا فتحات البوغاز، ولكن ترى فرنسيين، ومندوبى صحف من باريس مثل السيد "إكس"، يترك قلمه، قلم الكاتب العادل والمستقل، ليصبحوا وسطاء لعداوات حقيرة ومريبة، ذلك هو الاستسلام للإحباط.

أبداً، بملء الفم أقولها، أبداً، التلميحات غير المشروعة، التى جاءت فى برقية صحيفة "إستاندار" بتاريخ ٢٠ مارس المنصرم، لا أساس لها من الصحة. إنه خطأ، أكبر خطأ، إن "عودة البارون دى رانج إلى هنا، كان مكدراً لهدوء البلد، إلخ" ولقد تحدى كل من مراسل الصحيفة الإنجليزية وكذلك مراسل صحيفة "الديلى نيوز" أن يثبته بطريقة أخرى غير الصمت الحذر، كلمة واحدة من نص البرقيات. إننى أستطيع، إذا أنا أردت ذلك، إعلامك عن هذا الفصل المؤسف. من الأرجح الانتظار، لأننا نتعشم هنا أيضاً، ألا يكون الخصم قد فقد.

إن الوشاية أو النميمة لا تعنى المناقشة. للأسف ذلك هو نظام البرهنة الذى تعتنقه صحيفة السيد رياض : "إيجيبت" (مصر)، والصحف الإنجليزية.

المسألة التونسية التى يجتهد بعض النفوذ أن يفسدها، والتى على ما أعتقد سوف تنتهى بتمخض الجبل، ولن تحصل أبداً على مكانة أختها الكبرى مصر، فى أية ناحية من النواحى. إذا كان السيد بسمارك – الذى تتكيف دلائله مع جمع الظروف – وإنجلترا يريدان حقًا أن يوافقا أو يتعطفا بإعطاء تونس لفرنسا، لتترك ألبيون (الاسم الأدبى لإنجلترا) تتمدد كما يحلو لها تحت شمس مصر الساطعة، لن نجد أى مواطن فرنسى لا يعترض على مثل هذا التعويض المثير للسخرية. فى جمهورية من الجمهوريات، إن الأمة هى التى تصدر قرارها فى مثل هذه المسائل المهمة، وليس السلطة التنفيذية.

إن القضية اليونانية – اليهودية لم تنته بعد. ولا تزال شوارع الإسكندرية تقوم بها دوريات حراسة مسلحة ، وإن حامية هذا الموقع تم تحصينها جيداً. والأرثوذكسية تؤكد أن أطباء التشريح الاثنين والعشرين قد اكتسبهم النواب اليهود برشوتهم بمبالغ

مالية كبيرة، هؤلاء النواب الذين يدافعون بكل قوتهم بأنهم لا يد لهم فى موت الصبى. أعد رياض لجنة لم يستغن تكوينها عن التوابل القنصلية ولا عن المقومات الكنسية، لابد من إجراء تحقيق عن هذا الحادث، فى مدينة حيث يتجنب سكانها أى شهادة قانونية، كأى عضو فى مجلس صحى يتحاشى مرض الطاعون.

يمكن التساؤل عما إذا كان فى هذه الظروف المعقدة، يمكن بلوغ الهدف المقترح. من جهتى أنا أشك فى ذلك. التعصب المسيحى بكل الفروق الدقيقة، هو مثله فى الشرق، إن أفضل ما يمكن تمنيه فى هذا الوقت قد يكون هو وأد المسألة من أجل الجميع.

أحد السوريين – مراب، فاحش الثراء، شديد الغيرة على المهنة، كما أتصور – أكد لى بالأمس، بمساعدة حجة الأب توماس، أن الطفل الذى عثر عليه غارقًا، كان قد تعرض للتعذيب حتى الموت، بعد التعذيب، أحد الأحبار اليهود، مقدم الذبائح والقرابين، هو شخصيًا اضطرب فكره، فى أوج لحظة استخلاص الدم، بسبب إشاعة اختفاء الرعية، كان قد تخلص من الجثة بإلقائها فى البحر.

لم أتصور أى شىء أشد لؤمًا، وأكثر من لا معقول، ولا أفظع إجرامًا ووحشية، سوى هذه الاتهامات الغادرة، ولكن، من جهة أخرى، فهمت جيدًا أن اليونانيين، والسوريين والمسيحيين الشرقيين جميعهم أصبحوا أساتذة فى فن البخل وخداع أى إنسان، ومجمعين على تعنيف مناهض للسامية. أبناء اليهود بالنسبة إليهم، منافسون شرسون فى المدن كما فى القرى.

فى العام الماضى، العنصر اليونانى، رجال ذوو شأن، شكلوا تحالفًا ضد الإنجليز، كبار مصدرون للفول، فقدت إنجلترا أموالا كثيرة، والشعب المصرى يدفع ثمنًا غاليًا لغذائه. ولكن بعض الهيللينيين دفعوا فيما بعد جزءًا من الخسائر بمثابة تعويض.

هذا العام، اللعبة ذاتها، إنها الأرستقراطية المالية اليونانية، ضد العنصر السورى – الشرقى، بدلاً من الفول، تتعلق بالذرة. خسائر كبيرة، مضاربات كبيرة فى البورصة والمشروعات. ها هى الحياة المصرية لشيوعى التجارة. حالتا انتحار وقعتا حديثًا بين هؤلاء المزعجين.

رسالة رقم (٤٤)

الزقازيق فى ١١ أبريل ١٨٨١

حصل فرديناند دى ليسيبس على امتياز لإنشاء سكة حديدية تربط بورسعيد بشبكة الوجه البحرى. اليوم، على سبيل المثال للتوجه من المركز الرئيسى حيث أكتب إليكم من بورسعيد، يجب الوصول إلى الإسماعيلية عن طريق السكة الحديد ونستقل قارب أمنيبوس سيئ حتى جهة الوصول. هذه الطريقة للانتقال طويلة وغير لائقة، لا تخلو من بعض الأخطار على القناة.

كذلك يتعلق الأمر بمد قناة للمياه العذبة من الإسماعيلية إلى بورسعيد. سوف يكون السيد دى ليسيبس هو الذى يطلب المشروع. لم يتقرر أى شيء فى هذا الصدد. إن القيام بمثل هذا العمل يمثل عوائق عديدة، أهمها ينجم عن طبيعة الأراضى المليئة بالمستنقعات والأملاح، التى لابد من أن تمر بها القناة. يقال إن أحد النواب أى أمراء الصناعة الأثرياء بلندن طلب من الحكومة الإنجليزية أن تطلب من رياض هذه الأراضى من أجل رابطة إنجليزية لشركات أو مصانع، سوف يتكفل بها هذا الملتمس.

إن مصدرى الوثيق الذى أعلمنى، يضيف أن المعتمدين الدبلوماسيين لصاحب الجلالة ولى النعم أصدرا أوامر بمنع التدخل فى الشئون التجارية للرعايا البريطانيين . لم يصدر أى تعقيب على هذا الالتماس.

رسالة رقم (٤٥)

القاهرة فى ١٨ أبريل ١٨٨١

اليوم هو يوم الاثنين يوافق عيد الفصح، يوم عطلة فى كل مكان بالنسبة للسياسة. هنا لا توجد إجازات من أجل هذا اليوم، بالرغم من خواء العديد من مكاتب الحكومة، بعض الاهتمامات الجدية تتسلط على عقول الوزراء. وقع تمرد عسكرى جديد فى اليوم السادس من الشهر الجارى، ولكن فى هذه المرة، فى الخفاء، بدون بنادق منخرة وبدون صوت.

الصحافة المصرية يخنق رياض حريتها، إن الأمناء على الأسرار من الأهالى فقط، وبعض الأصدقاء، أعضاء المستعمرات، هم فقط الذين أحيطوا علمًا بذلك. إن مثل هذه السرية قد يستحيل حدوثها فى أوروبا.

فى التاريخ المذكور آنفًا، ألاى من ضباط الجيش قدم عريضة جديدة وأخيرة للخديو مطالبًا بمطالب حاسمة:

١ – زيادة العدد الفعلى للجيش اليوم من ١٠٢٠٠ رجل – والذى لابد من أن يرفع عدده، وفقًا لفرمان شاهانى، أو فرمان تنصيب – إلى ١٨٠٠٠ رجل.

٢ – إعادة بناء البلد، وجميع المكافآت التى تمنح للضباط الذين أحيلوا إلى المعاش أو بنصف راتب.

٣ – تقديم غذاء أفضل.

٤ – تقدم عادل.

٥ – عزل رياض وتشكيل مجلس وطنى مع وزارة مسئولة ومتجانسة. الوثيقة تطالب نائب الملك "إذا كان، إيجابًا أو سلبًا، خديو مصر". فى حالة الإثبات، لابد من أن يثبت ذلك، وإن لم يكن كذلك فالتنحى يكون أفضل.

"الشعب المصرى – يقول مقدمو العريضة – من حقه أن يناقش وأن يحدد الرسوم، والضرائب، وأعباء مالية أخرى. فهو لم يكن طفلاً، ولم يكن سفيهًا تحت الوصاية، وإذا كان أميرًا يمقت حتى اسمه، استطاع أن يفرض على مصر دينًا هائلاً من أجل بلد صغير، دين لا يرغبه الأهالى، فذلك على غير رغبة الشعب. على العكس، ولكن لا يمكن اعتراض أمام استبداد إسماعيل الذى يسانده الاتحاد القادم للمرابين الماليين والدبلوماسية المعانة. أمام قوة هائلة، لا يستطيع البلد أن يثور، فلابد من أن يذعن".

"العهود تتبدل بالنسبة للجميع. دائنو الدولة يدركون مصالحهم. هؤلاء هم الأوروبيون، الذين، بدون مساهمة الأمة، قد دبروا أمورهم الخاصة، كما لو كانوا فى بلادهم، لم نقل شيئًا، بل أحسسنا بالهوان، لاسيما أن التعليم الذى تلقيناه قد علمنا تاريخ الشعوب. إن شعب النيل لن يسكت إلى الأبد على هذا التدخل الأجنبى الذى

تغلغل داخل نفوسنا، ونحن نريد عن طـريق مجلس نواب أذكيـاء، ووزارة مسـئولة أن نحكم وطننا من خـلال السبل المفتوحـة أمـامـه، بدون أن نبـتـعـد عن طريق العـدل والإنصاف".

"أخيراً، نطالب بأن جميع المصريين يكونون سواء أمام القضاء ومحاكم الإصلاح. لا لعدم المساواة، ولا للاستعباد".

توفيق، بعد الحـماقات التى ارتكبها، لم يكن يتوقـع مثـل هذه اللهجة الحادة، كذلك رياض. ومنذ ثمانية أيام، تتوالى المجالس. تمت الموافقة على كثير من طلبات الجيش لكى يكف عن المطـالبة. ولكن عبثًا. كل شـىء أو لا شىء. هـذا هو الشعار، وفى الوقت الذى أكتب فيه لكم يجتمع الوزراء ليبحثوا عن مخرج تسويفى.

من جهة أخرى، مطبوعات باللغة العربية منذ قليل وليلاً ملصقة على الأسوار فى الأحياء الشـعبية، يدعو فيـها نائب الملك إلى إعلان نفسه حاكمًا على شـبه الجزيرة العربية! هذا الهذيان منسوب إلى رياض، الذى يتعشم هكذا أن ينضح على خصومه بالسخافة. هكذا كانت الظروف. فى كل يوم يمر تكتسب أهمية جديدة لا يتشكك فيها أحد فى أوروبا.

يزعم أصحاب ديون مصر أن الدول الكبرى تتدخل لتمنع إرسال جيوش مصرية إلى تركيا، وذلك له أهداف، وهى عدم زعزعة بهجة المضاربين فى البورصة وأصحاب المحافظ المكتظة. لا علم لى بماهيتـها، ولكن يبدو لى غيـر عادى أن الحكومات التى تطالب حديثًا بفرمان جديد لتنصيب الخديو الحالى ارتضت بأن تكون أول من انتهك، فى وقت الخطر، أحد البنود الرئيسية المنصوص عليها بوضوح. هل نقابة باريس سوف تواتيها هذه السلطة؟

إذًا هكذا سـوف يكون حكم العـالم لرجـال المال. الشـرف والمال! أى من هـذين اللفظين سـوف يتـفـوق على الآخـر؟ الإجـابة ليست صـعـبة! لا شىء يؤكد أن العـالم المتمدين، مريض كما هو، لن يصل سريعًا إلى هذه النهاية المرضية. حينئذ، الأمراض العضال لها الأدوية الناجعة.

يقال إن هناك عريضة يقوم بإعدادها الأهالى ضد إرسال مساجين ومتهمين سياسيين مصريين إلى النيل الأبيض، حيث مناخه قاتل بلا هوادة. الشعب يشكو من السهولة التى ينفى بها رياض باشا بتعسف وبقسوة آلافًا من الأفراد إلى هذه المناطق الموحشة لأنهم تجرأوا على مقاومته هو أو صهره، وإلى إحدى المديريات فى الوجه البحرى. هذه العريضة سوف ترسل إلى الجهاز القنصلى، يناشدون فيها الدول الكبرى الأوروبية التى حبها للبشر يشكل قدراً كبيراً للعبيد السود الذين ليس عليهم ديون يخدمون من أجلها، وقليل جداً بالنسبة إلى العبيد البيض بالبلد النيلى الذين يساهمون بعرقهم من أجل أن يدفعوا كوبون فوائد ٩٠ مليون إسترلينى.

لقد تم إجراء العديد من المشتريات لحساب بعض رجال الصناعة الإنجليز من الأراضى النيلية، والذين يريدون أن يحصلوا على الكثير منها، إذا لم ترتفع الأسعار كل يوم بما يفوق قدرتهم.

فى تركيبة من هذا النوع، والتى تتكون من مجتمع مدنى وتجارى، تحشر أراض غير مزروعة، أرض بور لا قيمة لها، مع أراض أخرى جيدة، مع تضخيم الأسعار للوصول إلى معدل خاص يقدم إلى المساهمين. ذلك بتأثير فائض العملة. فقط الظاهرة التى تظهر دائماً. يقول أحد الكتاب "التجارة هى مال الآخرين". نرى بعض المؤسسين لا يعرضون شيئًا من جيبهم ولا ينسون أنفسهم. مديرون وعدد غفير من الموظفين يتقاضون رواتب باهظة ومتفاوتة، ومساهمون يلتقمهم البرنامج، وينتظرون بنفاد صبر.

فتحت اليوم قناة الخطاطبة - افتتاح مفيد وضرورى - التى سوف تروى مديرية البحيرة. مزيد من الشرايين المماثلة، وسوف يتسنى لمصر الاعتماد على أفضل توزيع لمياه النيل بالتقليل من فرص الفيضان:

أرض مساحتها ٣٠,٠٠٠ فدان، تقع فى (واحة) الفيوم، وكانت على وشك التأجير إلى السيد إيستون باسم مسخر (شخص يضطلع بتبعات عمل أو عقد بدلاً من الشخص الحقيقى) لابن الدوق "ديسو ذرلاند"، وصل أول أمس. رفضت الحكومة المصرية منح امتيازات أخرى لهذه الصناعة التى تمضى فى طريق ابتلاع مصر. تخيل السيد إيستون الخدعة وأمر بتقديم مبلغ ٥٢٠٠٠ إسترلينى إلى مصلحة الأموال الأميرية (الدومين) سنويا، باعتباره سعراً مرتفعًا جداً تحت القدرة المجزية لهذه الأراضى. يهدف الإنجليز إلى الاحتكار الاقتصادى والسياسى.

رسالة رقم (٤٦)

القاهرة فى ٢٤ أبريل ١٨٨١

يقع على عاتق رياض كثير من العمل وليس أفضل من ذلك. بعد مؤامرات نائب الملك، عندنا تلك المؤامرات الخاصة برئيس الوزراء ، كلاهما فى الحقيقة طفلان شاب وعجوز يتقاتلان بمساعدة الدسائس العسكرية على كاهل البلد.

إنها لعبة من أخطر الألعاب، وليس من الضرورى أن أجعل من نفسى عرافًا لكى أتنبأ من ذلك بأسوأ العواقب. لا هذا ولا ذاك سوف يكسبون فيها نفوذًا. فسوف يفقد الخديو الشاب حظوته فى الجيش وبالتالى فى البلد، وسوف يكون رياض فيها مكروهًا أكثر فأكثر. إن السخط الذى أثاره هذا العجوز السقيم والعنيد شاملٌ. إن طريقة التعبير وبعض المحادثات الداخلية فى متاجر القاهرة، حيث يكون الرأى العام أكثر مقاومة منه فى الريف، تؤكد على ذلك اللوم الشعبى ضد هذا المصلح المستبد الذى قد يلقن درسًا لإسماعيل فى شأن الاستبداد.

فهو الآن مثل الدب الذى تسكن أذنه خلية نحل، فهو لا يعرف على من يجيب. إن الجنود يطلبون ويشترطون. يوعدون بالكثير ويعطون القليل بدون الاهتمام بالانقلاب.

وجب على المجلس أن يمنح زيادة ضخمة وعادلة جدًا فى رواتب العسكريين ولكن الوزارة لم تستحق المبادرة.

ما هو خطير أن السيد ويلسون - هذا المدنى من لندن - كان قد حذف بقلمه القاسى والمالى على سبيل الاقتصاد (لا تخلطوا بتلك التى تحدد أتعابه و مكافآته الأميرية الخاصة) منظمة الجيش. وجب مراجعة كل شىء وتهيئة ما هو ضرورى لإعادة تنظيم كل شىء. مسكينة مصر!

كم من محاولات هؤلاء المصلحين الدخلاء الذين يتقاضون مرتبات مثل الملوك من الطراز الثانى الذين عملوا على أكتافك على استخراج أجورهم من جيبك! عندما نفكر أن مدير الجمارك النيلية أو المفتش على سبيل المثال يتقاضى فى مقابل عمل يؤديه

أجراً سنوياً أعلى من ذلك المخصص لكل مجلس الاتحاد السويسرى المؤلف من سبعة مواطنين شغالين وهم رجال غير عاديين وذوى موهبة، هذا يجعلنا نفكر بجدية. الشىء نفسه فى الأملاك الشىء نفسه فى الدين العام... إلخ.

كيف يكون ممكنًا أن مثل هذه الفضائح ومثل هذا الظلم لم يفطن إليه أحد فى أوروبا وهو يستمر ، والآن هل توقف الخديو عن تبذيره؟ وأيضًا ماذا يحدث؟ صدقونى أنا أقول الحق. الجيش الذى يشعر بنفسه قوياً من ضعف الحكومة يصر باسم الشعب على إنشاء مجلس انتخابى ونواب بارزين وطلب التطهير للموظفين الأوروبيين ذوى الوظائف ذات الأجور المتفاوتة. هذا أكيد. هؤلاء الناس النيليون لهم شعور حى بالكرامة مثل ما عندنا. فهم يقولون لأنفسهم: "ماذا كان يكسب هؤلاء الرجال عندهم فى موقف مماثل؟ لماذا يجز صوف القطيع المصرى فى الوقت الذى تحافظ فيه الكباش الأوروبية على كل فروتها وتتزين بفروتنا؟ لو سيادتك يا سيد رياض لا تريد أن تقيم العدل فى هذه النقطة سوف نتصرف بأنفسنا فى المجلس بإقرار الضريبة ومناقشة الميزانية بدون المساس بمصالح دائنينا".

عندئذ يغضب السيد ماليت من جهة إنجلترا التى تريد الحرية عندها وتقبل الاستبداد عند الآخرين. ويقول "لا لمجلس نواب، أنتم مدينون لنا بالمال: ادفعوا ديونكم أولاً، أنتم لستم بشراً ولكن فلاحين وعبيد؛ أى ماشية".

السيد رياض يجارى الآخرين فى رأيهم: فقد ينزع مجلس مستقل مع وزارة مسئولة لأقل خلاف. شخصية رئيس الوزراء مثل ما يزيل الريح ورقة جافة. وهذا بالتحديد ما يفرض عليه تجنبه بكل ثمن. من أجل ذلك نفى موسى العقاد إلى النيل الأبيض وكثيراً آخرين تجرءوا على إثبات أنه فى الظهر تكون الدنيا نهاراً.

والآن ها هى بعض المعطيات الأكيدة التى أوصى بها لأولئك الذين يهتمون بالمصالح والشرف لفرنسا. متفقين مع طموحات أمة نحو الحرية.

يريد السيد رياض (وهو استمرار لسياسة نوبار) متفقًا مع إنجلترا أن يقلل ويضعف إلى الصفر الحزب الوطنى المصرى، المؤلف من أبناء الأسر القديمة الحاكمة، المنحدرين من الأتراك ومن الشراكسة ومن الآسيويين ومن العثمانيين الألبان

أو الناشئين من الأقاليم التركية اليونانية القديمة ، كلهم أبناء الرجال الذين ساعدوا بأسلحتهم أو بمواهبهم الإدارية مع محمد على على عمل ما كانت عليه مصر قبل الإسراف الفظيع للعهد الأخير.

كلهم ولدوا وتربوا فى مصر أو فى أوروبا مثل آبائهم متعلقين بفرنسا ويحبونها ويرون فيها حماية مستنيرة ونزيهة وطبيعية.

أخيراً الجميع يعرفون ويخشون السياسة الإنجليزية التى هى - كما يقولون بصراحة - خطر على استقلالهم.

هذه الطريقة للرؤية مألوفة ولاحظوا ذلك من بين رجال الحزب الوطنى، كثير منهم منحدر من أب أو أم من أهالى البلد.

ماذا إذًا حرب توفيق ضد الشراكسة وأتراك الجيش إن لم يكن العمل السرى الفاجر والداخلى لرياض؟ من أين خرج الخديو؟ من الأتراك والشراكسة هو وكل أسرته العديدة! ورياض ماذا يكون هو؟ ابن رجل يهودى مهتد للإسلام ومن أم شركسية. عند الشرقيين تمثل الأم الدم. أخيراً، كثير من الفلاحين يجرى فى عروقهم دم شركسى.

أنا قادر على إثبات أن المزعومين الشراكسة المقصودين بالانقلاب العسكرى عرفوا الدسائس التى خرجت منها المظاهرات، كان يمكن أن يسيل الدم بغزارة. ها هو عمل طفل طموح مباع لإنجلترا. أنتم فهمتم الخطة. تدمير جزء من مجتمع البارزين ليس فى صالح النصف الآخر، ولكن للاعتماد على ذلك الأخير لإلغاء النفوذ الفرنسى. وبعد ذلك إذا حدثت هناك سلطة عملية: فقد وضع قدميه الضخمتين من بحر إلى آخر بطول قناته! هل نتغاضى عن كل هذا بحماقة (بخفة) فى باريس؟ إن موقف مثل هذا لا يحتمل ولا يمكن أن ينتهى إلا بسوء.

لقد حصلت على اليقين بأن رياض بحركته الخاصة - ولكن ليس بغير علم المعتمد الإنجليزى - قد أوفد بمكر الضباط إلى السيد البارون دى رانج بغرض أن يوقعه فى فخ غير متقن ، فخ كان محبطًا بشكل ماهر. هل هنا حالة طبيعية وأرض مواتية لزرع علاقات جيدة؟

لا يلزم هنا دبلوماسيون ماليون أو مرتبطون ببعض التكتلات النقابية القوية بأية علامات كانت. كان البارون دى رانج بالتحديد الرجل الذى فى محله. وإنه لكى يكون قد أدى واجبه كرجل فرنسى ضد الأشخاص المزينين الذين لم يكونوا إلا اسمًا، لذلك سقط.

ولكن يوجد فى الأفق تعقيدات أخرى. تآمر الخديو مع الجيش ضد النظام الحالى، ذلك الجيش يرى ضعف السيد الذى فرض عليه شروطه، ناح مع رياض الذى يعرف خوفه وعجزه. ها هى ثلاث سلطات موجودة: فالجيش يحكم قليلا فى الخفاء، وتوفيق يطفو ثلث جسمه ويراعى موقف المتخاصمين! ورياض يطفو من كثرة الدسائس ضد سيده لأنه يمسك مفتاح الخزينة معه أو بدون تصديق المفتش. لأن هذا النظام يتطلب أموالاً. لقد كلف سقوط البارون دى رانج أربعة ملايين من الفرنكات على أقل تقدير. من سوف نشاهده عما قريب. إن أصحاب الموقف هما توفيق ورياض.

هذا الوزير قدم مؤخراً عشاء للضباط قيل فيه كلمات وسيل من الشمبانيا. لقد اجتهد رئيس الوزراء فى تحويل الأوراق لصالحه.

يؤكد الناس أنه قد يكون وزع عشرة آلاف جنيه إسترلينى على هيئة رؤساء الجيش. صدق على ذلك عن طيب خاطر ومع ذلك فى نهاية الوجبة، قال عرابى بك هذا الحديث للوزير: "سيادتك تدعى أن الجيش يكون عقبة لسيادتك، حسنًا، نحن جميعًا، عقداء وقادة مستعدون أن نصعد على الحصان ونمضى إلى سوريا تاركين الجيش لرعايتكم وإلى ضباط أقل فى الرتبة. حاولوا أن تحكموا، حتى برؤساء من اختياركم نحن نتحداكم أن تفعلوا ذلك". توجد حقًا جرأة وقوة فى بعض هذه الجمل ذات الطابع العسكرى المتشدد. هل هذا واضح؟

وأيضاً بعض الكلمات التى تصور الموقف.

والخديو، اقترحوا عليه رحلات مثيرة للسخرية فى الداخل لكى يبعدوه ويلهوه بحجة الشعبية. له ميل للملاهى البريئة المقدمة بواسطة الشعوذة. وصل إلى القاهرة مشعوذ مشهور مزين بالعديد من الرتب حيث لم يفته ذلك. دعاه نائب الملك ومنحه وسامًا فى المساء، فى العشاء الذى قدمه رياض، رحب توفيق بدعوة رئيس وزرائه

ومدعويه إلى القصر لحضور عرض مسرحى. رفع رياض كتفيه أمام الهيئة الكاملة لرؤساء الجيش مصاحبًا لهذه الحركة بإشارة احتقار لدرجة أن الحضور كانوا شائطين من الغضب لم يستطيعوا أن يمنعوا أنفسهم من أن يعلقوا على ذلك. وهذه أعراض سيئة جدًا.

رسالة رقم (٤٧)

القاهرة فى ٣ مايو ١٨٨١

توجد الحكومة المصرية وعلى رأسها - بدون أدنى مجاز - نستطيع أن ننصب القنصل العام البريطانى المحترم فى وقت المعضلة الشاذة.

السادة إيستون وشركاه الذين يروون إقليم البحيرة ، أولئك أنفسهم شركاء سعادة الدوق دوسو ترلاند، فى العمل الحالى وكذلك فى عديد من المشاريع الأخرى المخصصة لاستغلال مصر ووضعها فى وضع استنزاف منظم تجرءوا على طلب مهلة لمدة عام من السيد رياض للوفاء بالالتزامات المأخوذة فى موضوع تغذية الخطاطبة.

فى حين أن المحاصيل وزراعات الصيف للأقاليم المذكورة آنفًا إما معرضة للخطر وإما مدمرة، عندما كان الفلاحون يعتمدون على العقود الموقعة وعلى الوعود المتكررة وكان لها صدى بعيد، كانوا قد تركوا وسائل الرى الأخرى وحرثوا مساحة كبيرة جدًا من الأرض. ها هم السادة إيستون وشركاه الذين أتوا يرجون الوزير الإنجليزى المصرى أن يؤجل لمدة عام المهلة اللازمة بواسطة رئيس قطاع الأشغال العمومية، على باشا مبارك، بالضبط كما لو كان يعنى شيئًا خاليًا من الأهمية.

لاحظوا أرجوكم أن كراسة الشروط تحتوى على بند عن طريقة تكون الدولة لها الحق فى أن تفرض غرامة كبيرة وتعويضات على المتعاقدين العاجزين عن الوفاء.

لا شىء من ذلك لم يحدث بعد. السيد دى بلينيير الذى أقنع الوزارة والمجلس لصالح السادة إيستون وشركاه... إلخ.

والذين تعلموا من السادة جريفلد إليوت... إلخ علم البقشيش، لم يجرءوا على أن يفتحوا أفواههم . الوضع صعب بقدر ما هو حرج ، وعندما تقع العقوبات بلا انقطاع على المذنبين الذين كانوا قد نجحوا فى البقاء فى مأمن، فمن المسموح به فقدان الرشد، إن لم تكن الخبرة.

سوف نشاهد كيف أن إيحاءات السيد ماليت سوف ترشد حكومة الثلاثة فى وسط العقبات التى بذرها لهم وبطش هؤلاء الموظفين المتهورين بأنفسهم.

أنا أعرف من أحسن المصادر أن نائب الملك لم يلتفت وأدار رأسه وهو يسحب من جيبه الأوسمة التى كان قد وضعها السيد رياض لتكون موزعة على الشخصيات المشهورة المكلفة برى إقليم البحيرة.

السيد أندرسون الذى قدمته صحيفة "مصر" وصحيفة "الأهرام" والصحف الأخرى كمهندس نابغة – مما وجب جرح تواضعه المعروف – تسلم بلا قلق وسام الشرف من يد نائب الملك كما لو أن الآلات المسلمة نفذت شروط البرنامج!

ما الذى أصبحت فيه أسرة العامل المسكين المقتول بواسطة الجهاز المزعج، أنا أجهله ولكن كما يقول السيد كولفن أو أى شريك للسادة إيستون : ما هذا العبد؟ لا شيء. وانتهى.

فى الانتظار ولإصلاح الأخطاء المرتكبة لهذا الرئيس بواسطة محاسيب السيد المفتش، وجب على الحكومة المصرية أن ترسل ستة آلاف عامل منزوعين من حقولهم بواسطة مستبد ليس عدواً للسخرة؛ لتنظيف وتطهير الخطاطبة ووضعها فى حالة صالحة للخدمة بواسطة جدول مياه للرى! الله يعلم أية مصيبة سوف تنتج عن تكديس كثير من الكائنات البشرية فى وسط الأوحال الوبيلة، ها هو ما يكلف مصر الحزب الإنجليزى ومجاملات السيد المفتش دى بلينيير.

ولكن هل الوزارة الفرنسية لا تريد أن تصدق أو لم تفهم بعد أن فى مصر : إنجلترا هى التى تحكم، وأنه تحت مظهر اتفاق ودى يؤثر فى شئون مصر النفوذ الفرنسى أُبعد للدرجة الثالثة لأسفل. مع كل الاعتبارات الأرستقراطية للنبيل الإنجليزى المكلف بالتنفيذ وهكذا عامل السيد ماليت زميله السيد البارون دى رانج.

ماذا ينبغى عمله، وماذا ينبغى قوله وكتابته لوضع البلد الأصلى (أى الدولة بالنسبة لمستعمراتها، أى فرنسا) مرة واحدة بإخلاص على مستوى الظروف! إن مراسلى الصحف الجادين الذين يحترمون أنفسهم لا يكتبون أخباراً أو روايات، رسائلهم تكون مخصصة أولاً للشخصيات التى تحكم؛ لأنها تحتوى فى معظم الوقت على أخبار لم يسبق نشرها، لم يستطع الموظفون السياسيون أن يصلوا إليها .

بعد ذلك فهى تتوجه إلى الجمهور الذى هو أيضًا فى بلد دستورى له الوسائل لجعل صوته مسموعًا. اليوم عندما أقول لكم إن إنجلترا كانت تعتبر نفسها من قبل كائنها فى مصر- أنا أعرف ما الذى أكتبه وفعلت ذلك بمعرفة القضية ولكن من يهتم بذلك.

آن الأوان فى باريس لعمل قليل من السياسة الفرنسية الجيدة فى مصر.

فى القرى، فى المنصورة وفى الزقازيق والأجوار تتابع فى النهار وفى الليل السرقة باستعمال السلاح كما فى وسط كالابر (إقليم فى إيطاليا). يوجد فى كل مكان أوعية للشرب يديرها يونانيون، مقرضون يومًا بيوم. إن الأهالى يتعلمون الشرب وأن يصبحوا كسالى. فهم يرون الذهب يجرى ويفكرون أن الربا انتشل منهم الكثير، كل الطرق للحصول عليه بدون عمل تبدو لهم جيدة. الحقيقة أنه ليس سليماً أن نسافر ليلاً بطول السدود الكبيرة للنهر أو القنوات، فى الوقت الذى نتوقع فيه على الأقل، نصف دستة من الأقوياء نصف عرايا يخرجون من صهريج قديم أو من ثنية أرضية يضربون بعنف على رأس المسافر وابلاً من الضرب بالعصى التى تطرح الرجل متصلبًا كالمسدس، بعد ذلك تلقى الجثة فى الماء. وجهت العديد من الشكاوى لوزير العدل فكرى باشا، الذى ليس عنده لا القدرة ولا الإرادة على ما يبدو لتدارك الشر. نحن نكون مجبرين على أن نسافر فى الداخل مسلحين كما فى بلد عدو، وهذا قلما يكون مقبولاً بالنسبة لرجال الأعمال.

السيد ماليت يسافر فى إجازة لمدة ثلاثة أشهر بالمركب الإنجليزى عن طريق برينديزى.

رسالة رقم (٤٨)

الإسكندرية فى ٦ مايو ١٨٨١

أصبح الجفاف الذى كان مهدداً منه إقليم البحيرة حقيقة. إنه إخفاق أجهزة التغذية بالماء للسادة إيستون وشركاه الذين هم السبب.

إن الشكاوى التى أبلغتكم عنها سببت زيارة وزير الأشغال العمومية لمأخذ المياه للخطاطبة، وسعادة على باشا مبارك أتى شكليًا للأماكن وانصرف مقتنعًا بما كان يعرفه من قبل. ومع ذلك تريد حقا الجرائد المعانة ماليا – وهى كلها كذلك أو تقريباً كلها – أن تطمئن الفلاحين بإبلاغهم أن الله هو المساعد، وأن الجهاز الظاهرى سيبدأ عما قريب فى العمل إن شاء الله!

أعفى مجلس الوزراء، بناء على الطلب شبه الرسمى للسيد ماليت، كما يقال شركة إيستون من دفع يومى لمبلغ ٥٠٠ جنيه إسترلينى (١٢٥٠٠ فرنك) كتعويض شرط جزاء عن طريق قائمة الشروط، لكل ٢٤ ساعة تأخير فى تسليم الآلات الهيدروليكية! هذه محاباة لا يأملها أبداً أى متعاقد فرنسى أو ألمانى أو سويسرى أو دافع الجزية، بافتراض أنه كان من الوقاحة طلبها فى مثل هذه الظروف. الجرأة هى فضيلة فى الأمور التهذيبية، اسمها يكون وقاحة دائرة غير الشرعية والظلم.

إن حادث (إيستون – الخطاطبة) هو بلا شك صائر إلى دوى معين. لا يحب السيد رياض من صميم قلبه السيد إيستون، والذى يتهمه بأنه يتعجل كثيراً التهام الجامد والسائل لمصر.

علاوة على ذلك، فهو يأخذ عليه أنه نصب على رأس أعماله السيد بوغوس نوبار ابن منافسه القديم وتلميذ أو شريك نوبار باشا بصفته مهندساً.

لكى أشرح جيداً هذا الموقف الهزلى والخطير فى الوقت نفسه، فإن الحاجة ماسة إلى أن نعرف أن السيد نوبار فى شركة صناعية مع السادة إيستون وديسى والدوق سوترلاند وشركاه؛ لاستغلال البلد النيلى. إنه هذا الوزير السابق الذى كان يقدم المعلومات الأكثر سرية المستقاة طبيعياً من أفضل المصادر وإنه بناء على معلوماته كانت تتصرف المجموعة.

نتذكر تمامًا أنه طبقًا لمعطيات السيد نوبار، هو الولد المدلل للورد بيكونسفيلد، كان قد طلب بالشكل نفسه المفاوضين السابق ذكرهم العقد لمدة ٩٩ عامًا للسكك الحديدية المصرية ولملاحة النهر ولشبكة القنوات والرى للبلد.

كان السيد البارون دى رانج مع رفض الحكومة المصرية ويجب علىّ أن أعترف بذلك، ربما لم يهتم رياض أبدًا بهذا الموضوع بأن يكون مقبولاً لرابطة الشركات البريطانية فى كل أطماعها الجشعة كان يظهر له فى العمق زميله السابق نوبار.

والحال هكذا، فإن جريدة ليجيبت "مصر" التى كانت قد وجدت أن تشغيل ماكينات إيستون خال من العيوب فى يوم افتتاحها، مزينة بصورة احتضار عامل مسكين مبتور، تشرع الآن بعد ثلاثين يومًا فى استئناف حملة ماكرة ضد المتعاقدين، وهى لا يمكن أن تكون إلا نتيجة لأوامر عليا. الوزير رياض واحد من الشركاء الموصين لجريدة "ليجيبت" مصر، إنه إذًا هو الذى ينظم لها الإيحاءات. العسل أولاً لكى يعدوا منه الطرق وبعد ذلك المر!

فى وسط تعارض المصالح والنفوذ الظريف، ربما نستطيع أن نتساءل لماذا السيد ماليت كان قويا جدا- لا أقول ظالمًا- لكى يعمل على إعفاء السيد إيستون من التعويض المشروط؛ لأن رياض كان يستطيع أن يعارض ، اعتراضه بمثل المحاباة. ينبغى أن نكون أقوياء تمامًا من جانب أو ضعفاء تمامًا من جانب آخر!

يهتم كثيراً جمهور المضاربين على شاطئ البحر المتوسط بما ستفعله وزارة الخزانة المصرية بالعائد الإضافى الموجود فى خزينة الدين الموحد. البعض يطلبون زيادة الفائدة الموعودة عن طريق الكلام المالى المصطنع للسيد ريفرز ويلسون، والآخرون يشيرون إلى استرجاع السندات لتسديد الدين على سعر اليوم وقد لا تكون العملية مجزية. من غير المحتمل أن يرتفع السعر أيضًا، إنه بالأحرى العكس كما تشير الأحداث الغريبة والاصطناعية التى ساعدت على دفع هذا النقد إلى أعلى.

بدون مناورات الجماعة المدعومة والممثلة فى مصر بواسطة السيد دى بلينيير كان قد بقى الدين الموحد فى الحقيقة كما منذ مدة طويلة.

والحال هكذا قد تتطلب العدالة أن تعين الحكومة - بنقود هذا الفائض - الفلاحين الفقراء المدمرين والمسجونين والمنزوع ملكيتهم على أثر الديون الربوية الكبرى مضطرين لمواجهة ابتزازات إسماعيل باشا بما فى ذلك تلك التى كانت خاصة بالإدارة التى تليه والتى مازالوا يستفيدون منها اليوم. من بين هذه الإجراءات المغضبة يظهر الدين الوطنى الوهمى الذى التهم مليونًا ونصف مليون جنيه إسترلينى المتجاوز عنها بواسطة الاستخفاف الاقتصادى للسيد ريفرز ويلسون، والحل التخلص لديون المقابلة الخارج من نفس العقل. ولما كان الموضوع يخص العبيد (المصريين الأهالى) كان المذكور آنفًا رئيس لجنة تصفية الحساب صارمًا. نتيجة لتجرؤ المسكين موسى العقاد بالاعتراض على هذه الفرمانات الاستبدادية، ولسوء الحظ فإنه واحد من محاسيب السيد نوبار وهو نفسه ظل للسيد ريفرز ويلسون قضى عقوبة جرأته فى النيل الأبيض لم تنقذه صداقته اليونانية الأرمنية. "أنا أخشى اليونان حتى عندما يقدمون قربانًا للآلهة" [كلمة فيرجيل فى الأوديسه].

يذم رياض الناس أجمعين وبصراحة، فى هذه الظروف الحزينة اتخذ تمامًا السيدان ريفرز ويلسون ونوبار مكانًا فى أسفل المارق الحقود.

نحن نقاسى من ألم جديد فى هذا البلد - مصر - المعرض للكوارث التوراتية والمزارة بواسطة مفتشين أكثر كاثوليكية من البابا.

تغرقنا أوروبا بالعملة المصرية المزيفة، وخصوصًا بالقروش التى قيمتها ٥٢ سنتيم. هذه القطع النقدية بناء على طلب التجار المحترمين أفراد جالياتنا فى المهجر فى إنجلترا وفى سويسرا وفى إيطاليا التى يروجونها هنا مع بعض الحذر فى المتاجر وفى الداخل. هذا النقد النحاسى جيد التقليد ولكن قيمتها غير الاسمية تقل ٥٠٪ عن قيمتها الاسمية. هنالك، وكذلك أنتم ترون ذلك، عملية مشرقة تبعد تمامًا عن شراء وبيع منتجات البلد.

بجانب هذه القطع النقدية النحاسية تظهر عملات ذهبية ذات صور قديمة: الجنيهات : المحبوك والمجيدى، وأخيرًا الجنيهات الذهبية الإيطالية القديمة المسكوكة

فى البندقية، كل هذه العملات المضروبة فى الأصل ذات كفاءة دقيقة جدا، ونحن نصل إلى عيار منخفض جدا. إن عملها خال من العيوب. إن قوالب العملات تكون من عمل مزيفين مدربين، أساسًا فى جنيف، مدينة الحلى والفنانين المحنكين التى تصنع المقلدات الإجرامية.

إدارتنا المسيطر عليها ألف انشغال صبيانى للنفوذ السياسى تضيع فى ملاحقة المصالح الشخصية وتهمل تمامًا مسائل النظام العام.

لقد تم حشونا بهبات المجبرين وأطباء ماليين وإداريين يقبضون مرتبات نواب ملوك بدون أن يهتموا إطلاقًا بشرطة النقود، هؤلاء السادة بما فيهم القضاة وهيئة القضاء لا يقبضون إلا من الذهب الخالص.

النائب العام والنيابة العامة والسادة المستشارون يكونون فى المصيف فى راميه أو فى أوروبا حيث سيلحق بهم المراقبة ورجال المال، بينما العامة يُسرقون بوقاحة فى وضح النهار عن طريق موردى العملة المزيفة.

من يكون هؤلاء الآخرون؟ قد أستطيع أن أقول لكم ذلك، قد لا تضيف الأسماء شيئًا للجريمة. أحب أن أعتقد أنهم يجهلون، هؤلاء التجار، أن صناعتهم مقترنة بظرف مشدد ومعاقبة بالقانون المدنى. قديماً، منذ زمن ليس ببعيد كان مزيفو العملة معاقبين بالموت. الآن أطلق التقدم العادات بزيادة نزعات القدوة السيئة الساكنة عاليًا. الأشغال الشاقة تكفى! وسوف نذهب أيضًا أكثر بعدًا.

من كثرة الشكاوى، اكتشفت الحكومة المصرية أثرًا ما لجزء من هذه التجارة غير الشرعية، على شكل صُرر نقود تُورَّد نصف شهريا بواسطة بعض المراكب التجارية التى تنتمى إلى شركات معروفة تمامًا. هنا تكون القضية. نأمل أن النقص المطلق للشكوى الذى يميز جماعة التجار لهذه الأقطار وهى تشرح كل شىء بواسطة الحكمة اليونانية: "تحتضن التجارة وتسامح كل شىء"، إنه بأكثر قوة وبأكثر براعة سوف لا تنجح فى تنويم قضايانا أو محاكمنا تنويمًا مغناطيسيًا.

إن ضمير البعض يعادل ضمير الآخرين. إن شمس مصر لها أشعة تبيض كل شىء. إن خطابات نائب الملك إلى السيد جريفى من حادث دى بلينيير ضد البارون دى رانج تثبت ذلك بأكثر مما يكفى.

رسالة رقم (٤٩)

الإسكندرية ١٧ مايو ١٨٨١

نحن نأمل ألاً يعود السيد دى بلينيير إلى مصر كمفتش، على الرغم من الوعود التى قد يكون وعده بها المحترم ماليت المعتمد البريطانى قبل الرحيل بعدم عزله.

يقال إن رجل المال هذا المضطرب المستعمل هو صاحب التدبير الذى حدث هنا منذ قليل والذى حول بنك الى سيبارينو.. إلخ إلى مؤسسة بنكية كبيرة يهتم بها أولئك الذين يؤلفون النقابة الباريسية.

نفهم الميزة التى قد تنجم عن حضور السيد دى بلينيير فى التفتيش بالنسبة للجميع. فالماء ينساب طبيعياً إلى الجدول. إن رجال المال المتحضرين هم أكيد صادقون.

كان على الحكومة المصرية أخيراً أن تدعو السادة إيستون وشركاه بدفع التعويض المشروط بواسطة عقدهم. لا تعمل الطلمبات جيداً والخطر وشيك الوقوع أكثر فأكثر. حتى ترعة المحمودية تتسلم ماء أقل من قبل التحسينات الشحيحة للمشيدين. من الصعب جداً أن نعرف الحقيقة فى بلد يكون فيه أفعال الإدارة إما محجوبة وإما مبالغ فى المعنى والمعنى الآخر بواسطة صحافة البلد.

ومع ذلك فلكى أكون منصفًا، فمن المسموح به أن نفترض أن على باشا مبارك سوف يقرر تأدية واجبه محاصراً بواسطة الرأى العام الذى يتهمه بكونه إما ألعوبة أو مجاملاً للسياسة الإنجليزية.

ولكن لدى شكوكى بهذا الخصوص وأنا مخول أن أدين لكم هذا الوزير ليس فقط كونه سهل البلوغ للبقشيش وكونه بائع نفسه للجماعة الإنجليزية إيستون وشركاه . الموقف فى قليل من الكلمات: سهَّل على باشا مبارك فى وقت جورج إليوت عندما لم يكن إلا مجرد تاجر فحم، من عقود هذا الوقود التى كانت أكثر تكلفة وخراباً على الخزانة المصرية. كان الذهب يمطر عليه فى يديه. عن طريقه بدأت المحاباة التى يتمتع بها السيد إيستون. هذا الأخير هو رجل داهية فهو يعرف تأثير الأسماء الكبيرة

ونجح فى الارتباط باسم الدوق دوسوترلاند الذى دوى جيداً فى أذن نائب الملك الشاب. تعطف سعادته بالمضاربة فى أعمال أصدقائه الجدد وأبحر بشخصه فى السفينة الحربية للرى بآلات عاجزة عن الخدمة التى طلبت منهم.

لقد حسبت تلك المجموعة الماهرة بلا شك ولكن قليلة الشك للغاية بما يكفى من المنطق. على باشا هو متقدم جداً لكى يتقهقر، شرب وسيشرب. إذا كانت الأرض عطشى، فسوف تنتظر وسوف تسكت . هنا يمكن أن يوجد خطأ؛ لأن الفلاح الذى يدفع ثمن هذه المغامرات اللاأخلاقية سينتهى بأن يغضب.

الجانب الأكثر حزنًا لهذه التدبيرات الزراعية والرى التى روجها السيد إيستون، أنه فى يوم الفرقعة الذى لا يمكن أن يتخلف عن الحدوث، سوف يقاسى من ذلك الفلاح والبلد لسنوات طويلة. المحاضر والإفلاس والاضطراب من كل الأنواع سوف تقع عليهم. من المستحيل أن تتحمل الزراعة النيلية مصاريف التنظيم والإدارة والترقية العالية جدا. فى قضية الكوم الأخضر المسلمة كرهن عقارى إلى إيستون فى مقابل مقدم مبالغ فيه هو أربعمائة ألف جنيه إسترلينى. عين مفتش الرهونات الذى يتقاضى ٣٧٥٠٠ فرنك فى العام لأداء عمل أجر ٥٠٠٠ فرنك يكفيه تمامًا. نحن نجونا من الخطر، أنا أخشى من نظام القضاء. بدلاً من المسيسيبى نحن لدينا النيل. وبالرغم من ذلك، كان يمكن أن تحدث العمليات الجيدة والسليمة فى مصر أولئك الذين قد يأتون مع النظرات الشريفة والجادة والعملية.

إن أحداث تونس كان لها صدى واسع هنا. سوف يستفيد الحزب الوطنى بهذه المناسبة للضغط على نائب الملك أن يستسلم لرغبات البلد ويرخص بمجلس للنواب مع وزارة مسئولة. إن مصر تريد أن تسير فى طريق التقدم بعناصرها الخاصة. من المستحيل على شعب أن يوجد مع عدالتين والكيل بمكيالين. مادامت الحقوق المدنية للفلاحين لا تنجم عن محاكم الإصلاح، فلن يكون هناك تقدم وتحسن ممكن. إن استبداد حكومة القلة التى تحكم مصر هى أسوأ من طغيان فرد واحد، والميزانية الإدارية مكلفة برواتب متخمة على كرامة السكان الأهالى.

خلال سنين وسنين، كان يقول ميرنيش المشهور وهو يتحدث عن إيطاليا: "عجبًا"! يريدون تكوين أمة بدون بلد، فالكل ما هو إلا تعبير جغرافى واحد لقد سقطت الحجج الواهية للأخطاء وشاهدنا ما تعادله كلمات السياسة.

سوف تواصل مصر عملها، ومن هذا الجانب إذا استطعتم توقع مفاجآت مثيرة لأن المستقبل متخم بما ليس فى الحسبان.

ستكون العريضة التى تُعد مبنية على أفضل القواعد وذات طابع أكثر جدية. فضلاً على ذلك فالجمهور مهتم بما يحدث فى تونس. أنا لا أظن فى أى ارتبــاك ولكن لا أحد يستطيع أن يجيب اليوم عما سوف يحدث غداً.

رسالة رقم (٥٠)

الإسكندرية فى ٣٠ مايو ١٨٨١

فى أكتوبر القادم سيكون قد مضى خمسة أعوام على عمل التفتيش فى القاهرة، وإنه فى هذا التاريخ ستكون المؤسسة إما معدلة أو مجددة. أنا متأكد من أنه فى مصر باستثناء المناصرين للنظام الإسماعيلى، لا أحد سينكر النتائج العامة الطيبة للتفتيش الدولى المنشأ لصالح دائنى الخديو السابق. لقد توقف النهب الكثير والتعسف فى وضح النهار الذى يعمى العيون. إما كاملاً وإما جهاراً. وبمساعدة الله، والكرباج وكثير من الأعمال التعسفية القاصرة دُفعت بانتظام أقساط فوائد الدين. إنه كان الهدف الجلىّ للقوى "الحامية". وهنالك أيضًا حاملو السندات النيلية.

إذًا فى أوروبا المستندات المالية المتحجرة القلب تصفق وملاكها السعداء مستعدون أن يسايروا أيضًا الثالوث: (كولفن- دى بلينيير- رياض).

لا يوجد شىء جديد تحت الشمس والتقاليد التوارتية السامية- المسيحية تجد نفسها صالحة على ضفاف نهر السين مثلما على شواطئ التايمز وسيرى فى ألمانيا، ولكن القضية هى شىء آخر أكثر جدية.

إذا كان التفتيش، كما يوجد، قد ساهم فى تحسين وضع لم يكن له مثيل بأى فوضى مالية وإدارية معروفة، فإنه لم يفعل ذلك فى جزء كبير؛ لأن صاحب الورطة الرئيسى كان قد غادر البلد، وأكمل الاتفاق السياسى العمل بتحديد المصروفات وبإخضاع البلاط الخديوى إلى مسلك معتدل. ربما يكون هذا الجزء من البرنامج معتبراً كملحق للمؤسسة فى مجمله.

والحالة هكذا، فيما عدا القسط، مهما كان فى كل هذه الأمور درجة الجهل أو عدم الاكتراث لكبار المتعاقدين بخصوص مصر، فمن المسموح به الاعتقاد بأنه كان للخمسة ملايين ساكن للبلد النيلى احتياجات اقتصادية أخرى يحتاج إلى تلبيتها أكثر إلحاحاً من خدمة الدين التى لها نصيب الأسد.

منذ تنظيم توفيق – جوشن الذى أثر بشكل تعسفى فى الدين العام، ولو كان كذلك الضمان العقارى الخاص بالسكك الحديدية وحتى إلى التلاعب الذى هو ليس أقل تعسفاً الذى أتاحت له الفرصة ديون الدوائر الأميرية – والدين الموحد. فقد عُومل السكان المصريون بواسطة العنصر الأوروبى تقريباً مثل عبيد الأرض فى روسيا فى زمن بيير الأكبر: الجاموس والحمير والخراف والمحاريث، والجمال والفلاحون مجرد مال للمزرعة تذهب مع الرهن! لقد قطعوا وهذبوا وفرضوا وعينوا وقبضوا من المكلفين بدفع الضرائب الذين يدفعون سنوياً تسعة ملايين جنيه إسترلينى، حيث يستنزف الجزء الأكبر منها بواسطة خدمة الدين الذى أجازته القوى بنفسها عن طريق تساهلها المذنب.

أخيراً بعد أن دخل الأوروبيون مبكراً جدا فى المنظمة الحكومية لضمان أكثر الإيرادات الممكنة لصالح الالتزامات المعينة، تغاضوا عن الاستمرار فى أكثر التجاوزات الصارخة، مع منع الشعب المصرى سياسيا ودبلوماسيا من أن يقترب بما عنده من الحق فى ذلك من إدارة شئونه الخاصة، لماذا؟ من أجل خدمة الدين وتكوين زيادات وهمية.

وكيف توصلوا لهذه النتيجة التى هى الرفض الأكثر ظلماً كما هو أكثر وضوحاً فى حقوق الإنسان؟ بواسطة الأنانية والغيرة اللذين وضعا على رأس مصر دمية

متحركة حركة ميكانيكية وكانوا لا يستطيعون وقف أية دسيسة ويقدمون اعتراضهم الملائم لأى إجراء اقتصادى أو سياسى صالح لتحرر الشعب.

لذلك كان السيد ماليت قلما يخطئ عندما كان يقول هذا الشتاء لشخصية أوروبية كبيرة فى أثناء مرورها بالقاهرة: "لا يتصور فى طبقة الأغنياء أن مصر فى هذه الساعة محكومة بواسطة بعض الدائنين العظماء الأجانب حيث يكون السيد دى بلينيير هو مندوبها الأكثر مباشرة منى أنا شخصياً هنا لبريطانيا العظمى!".

كانت هذه الكلمات صادقة ومازالت صحيحة. والتفسير المطلق الذى يحويه هو تبرير السيد البارون دى رانج.

ليس على الجالية والتجارة الفرنسية أن تشتكى كثيراً من توزيع الخيرات الاقتصادية للبلد غير العادل إلا من التصرفات السيئة الاستبدادية للمفتش الفرنسى النائب الخاص عن حاملى الديون الموحدة والسندات المصرية الأخرى.

لكى نعود إلى القضية.

وكما لو كان هذا غير كاف لحرمانهم من حقوقهم الشرعية بواسطة آخر أبناء محمد على.

لقد أرسلوا ذئاباً إلى شعب مقيد وديع، إلى نعاج تتغذى على العشب، لكى يعلموها أن ترعى بغرض أن تنتج كثيراً من الصوف والدسم والزبل الذى لن تستفيد منه. هذا الشعب المعامل هكذا أو المرهق كان يريد راعياً وبعض العون وليس أسياداً أجانب، ألم نكن أكثر بعداً؟

المقصود الآن بلا شك هو تثبيت التفتيش لفترة خمسية أخرى، وبطبيعة الحال يبين الاستعجال وذلك بتعديل السلطات بواسطة مفتشين أكثر سياسة وإدارة.

ولكن هل سيعملون عملاً طيباً من وجهة النظر الإنسانية والدولية لو تعاملت الوزارات، ولا يعرفون الشئون الحساسة على بعد بعض آلاف الفراسخ إلا عن طريق الروايات الكيفية وحالة السكان المعنيين الحقيقية.

المقصود اليوم - وهذه ضرورة ملحة - مراجعة الرسوم والضرائب، التى مقدار نصابها غير عادل وتوزيعها غير منصف.

ليس أقل إلحاحاً وضع نهاية للكيد اليومى والابتزاز المالى للإدارة اللذين لم يتغيرا فى طبيعتهما بتغيير الحاكم. ربما يعتقدون العكس فى باريس وفى لندن. بعد فترة ألفى عام هل سيكونون أكثر سذاجة؟ بمعنى أن أذكر لكم أمثلة مما أتيح لى من مكان قليل والذى يحدث أمام عيونى كل يوم والذى سأعرضه فيما بعد عند اللزوم.

لماذا إذًا لم يؤمر بعمل تحقيق تقوم به السلطات المصرية تحت رقابة السادة القناصلة العموميين للقوى الكبرى ويعاونهم ليس موظفين أجانب متسكعين خارج العمر ولكن رجالاً مسنين من البلد أوروبيين ذوى خبرة وأعيان البلد، يبحثون عن وضع اجتماعى لواقع احتياجات السكان؟.

ألم يحن الوقت لأن نبدو عادلين ومنزهين وإنسانيين؟

أنا قلت لكم أن جباية الضريبة كانت وحشية. وهذه الضريبة الظالمة يجب أن تختفى.

فى الظروف الحالية، من غير الأخلاقى التمتع فى باريس بالزيادة فى الخزينة ، وليس من الحكمة الاعتماد على هذا الفائض الكثير بقدر الرسوم والضرائب التى سوف لا تراجع مدة طويلة ولن تعدل وتستقر أفضل.

وإذا كان صحيحًا أن صيحات الحبور والسرور تكون من هنا وهناك يطلقها الرجال ذوو الشأن بالنقابة واللاعبون فإن العامة هم كبش الفداء الذين يدفعون ثمن الجرار المكسورة، لا يجب أن نتعامى عن أن مصر مجللة بدين مقداره مائة مليون جنيه إسترلينى شامل كل شىء وأن تسعة الملايين جنيه التى تدفعها سنوياً للخزينة جزء كبير منها يذهب بخسارة صافية إلى أوروبا ، وهى مبتزة عن طريق سكان تعدادهم خمسة ملايين نسمة وأن من هؤلاء الخمسة الملايين يوجد بالكاد ٢,٢٠٠٠٠٠ فرد صحيح ذكر وأنثى قادرين على العمل فى الأرض المنتشرة على مساحة ٢١٠٠٠٠٠ هكتار مزروعة، وأن فى أوروبا العامل الصالح والجيد التغذية يكفى لثلاثة هكتارات

بينما في مصر الفلاح ضعيف وفقير يستطيع بالكاد أن يشتغل في هكتار واحد في المتوسط، وأن أقل اختلال مادي في هذه الأرقام وفي السواعد التي تزرع وأقل ارتباك في وسائل الري والوباء (الطاعون والكوليرا) وكل العوامل الأكيدة للخطر الاقتصادي قد تشل الإنتاج وتقلل تماماً الإيرادات.

ها هي بعض المعلومات التي تستطيع توضيح الجانب العام خصوصاً للكبار، الذين توجه رسائلي إليهم: أقصى متوسط لكل إنتاج مصر المتركز على مساحة ٥٠٠٠٠٠٠ فدان هو ٣١٠٠٠٠٠٠ جنيه إسترليني. أي برقم بلا كسور ٨٠٠٠٠٠٠٠ فرنك. هذه الأرقام التي أظن أنه مغالي فيها حسب أسعار السلع والسنوات هي تلك المقبولة من السيد كاف في تقديره الدقيق جداً.

كان هذا الرجل المالي لا يجد إلا ٤٨٠٥١٠٧ فدان في الزراعة أرض جيدة وغير جيدة. ولو أن معلوماتي الخاصة صحيحة فهذه المساحة هي نفسها أعلى قليلاً من الحقيقة. مهما يكن أنا آخذ ٥٠٠٠٠٠٠ فدان لكي أرسي الاستنتاجات الآتية وهي معللة كلها عملياً.

ثمانمائة مليون فرنك في مقابل خمسة ملايين من الأفدنة (الفدان:٤٢ آر) يعطون ١٦٠ فرنكًا للفدان يكون الناتج الإجمالي ٤٨٠ فرنكًا لتعارض السنين بالنسبة لذلك لثلاثة أفدنة مزروعة بواسطة فلاح واحد (في المتوسط) ويخصم نفقات ١٨٠ فرنكًا لمصاريف الزراعة وخمسون فرنكًا للضرائب - هذا المبلغ الأخير غير كاف اليوم لتغطية الحقوق المالية - لن يتبقى كأجر لرأس المال الحقيقي ودورته إلا ٢٥٠ فرنكًا صافي، أي ٧٠ سنتيم لكل رأس في اليوم، مع وضع كل السكان في الحساب، أي خمسة ملايين ساكن! على حسب فيجاري بك فإن الفلاح الواحد قد لا يزرع إلا فدانين ونصف. وعلى أية حال فإن هذا العرض يدل بصورة كافية على وضع الفلاح الحزين ويبين ما يمكن أن نطلبه من قواه بقدر ما يخص إيرادات خزانة الدولة.

كيف نأمل إذن أن نرى الادخار، هذا العامل الوحيد لازدهار الأمم، وأن ندخل في كوخ الفلاح المصري الذي تطلب منه الدولة كثيراً عندما لا يأخذ منها كل شيء والذي يموت تماماً من الجوع هو وأسرته، إن كان يملك فقط ربع احتياجات مثيله في أوروبا ؟

وأيضًا يلزم معرفة أن الزارع مثل الحضرى عليهم أعباء أخرى تعمل العصا والسجن على دفعها والتى لا يشك فيها السادة المرشدون الأوروبيون، والتى لو عرفوها يغلقون عيونهم عنها بصورة إجرامية. ها هو الموقف الحقيقى للأسرة النيلية الكبيرة فى الساعة التى هى فيها. وها هو من أى الموارد تفلت الإيرادات العملاقة لشعب محكوم عليه فى عام ١٨٨١ بواسطة القوى الأوروبية بأن يكون أقل قليلاً من العبيد السود وأكثر قليلاً من دواب الركوب كما فى زمن الفراعنة !

لا أعتقد أن المصلحة المادية فى باريس رققت القلوب فى هذه النقطة بأن تسمح الجمهورية الفرنسية بالتغاضى عن ارتكاب مثل هذا الظلم. ينتظر البلد النيلى تحرره عن أوروبا. هل هكذا سيصل إلى مرتبة الأحياء؟

علينا إذن أن نسمع، وأن يُجرى تحقيق! من الواضح أن السواعد تنقص فى مصر ووسائل الزراعة الصناعية مدعُوة لزيادة موارد البلد. ولكن ذلك بشرط لازم؛ لأن المصاريف العامة التى ستولد إدخال الآلات سوف لا تزيد بنسبة غير طبيعية وأنه مع زيادة الإنتاج الإجمالى سيرى الفلاح الادخار وسيصل إليه.

ولا يكون هذا بالتلاعب بالأرقام والقيمة الحقيقية لثمن الأراضى، مثل بعض الشركات التى عملت ذلك أو تكون فى طريقة تطبيقه أيضًا، وأن الجيل الذى عمل كثيراً من الجلبة فى الأحاديث وفى البرامج سيكون تامًا. كانت مصر مستغلة بما يكفى.

من بين الأوروبيين ملاك الضياع، هذا الذى سيعطى عماله مرتب أقل، فهم يجدون أن فرنكًا واحداً فى اليوم بدون غذاء هو أقصى خراب، يتسلم الرجال المساكين تقريباً ستة فرنكات فى الأسبوع.

ولكن الأقساط تدفع، ألم يكن هذا كافيًا لمحبى البشر الذين قائمة عشائهم لا تكون أبداً أقل من ٦ و ٨ فرنكات. متى لا تبلغ أربع أضعاف؟ حسنًا! مثل هذه الحالة للأمور تتألف اليوم أكثر من أى وقت وفى فضيحة وخزى لكل أوروبى يدعى أنه متحضر.

حصل السادة إيستون وسى على سنة مهلة لترتيب آلاتهم. يقال إنهم دفعوا خمسة آلاف جنيه إسترليني عقوبة ستحصلها خزينة الدولة، في مقابل ثلاثين أو أربعين ألف جنيه إسترليني قيمة خسارة يتحملها الفلاح الذي لن يتسلم شيئًا وسوف لا يعفونه من بارًا واحدًا (أصغر وحدة نقدية تركية جزء من أربعة آلاف الليرة).

السيد نوبار الذي يتمسك بقروشه التي يراها معرضة للخطر بواسطة شركائه إيستون والدوق دوسوترلاند وسى، سيذهب ليلقى نظرة على الأعمال. كانت هذه الشخصية قد اشترت بسعر منخفض أراضي سوف تعطش وستكون حساباته مشوشة. عناية سعيدة!

السادة موظفو المالية الدولية كبار وصغار والمفتشون والمحاسبون في إجازة في أوروبا. تستغني مصر عنهم وتدفع. رائع! الموظفون الأهالي يكسبون النصف ويلزمون المكاتب!

أما بخصوص الصناعة الدولية الجديدة المتحضرة وتصنيع العملة المزيفة فهي تتعطل قليلاً.

بعد ثمانية أو عشرة أعوام من الاستغلال، يوجد انقطاع عن العمل : إجباري ومؤقت.

لقد خرج الجمرك والشرطة من حياتهم المعهودة. تتألق جنيف ومارسيليا! انتظروا، وسوف نرى الأفضل.

ويلزم ذهب لكي يلهوا ويحرزوا تقدمًا! لاحظوا أن المزورين اليوم وصناع العملات المزيفة لم يعودوا من حثالة الرجال غريبي الأطوار. تصعد الرذيلة ويرحل الخجل ولكن العالم يسير.

رسالة رقم (٥١)

القاهرة فى ٣ يونيو ١٨٨١

بإبلاغكم فى آخر رسالة لى أن السيد إيستون والسيد سى كانا قد تصالحا مع الحكومة المصرية على دفع غرامة بقيمة خمسة آلاف جنيه إسترلينى، لم أقصد أن أؤكد من هنا أن هؤلاء المتعاقدين كانوا قد تحرروا من كل مسئولية تجاه الآخرين المتضررين بعيداً عن هنا.

إن مبلغ صك التراضى المذكور عاليه يمثل محاباة وسابقة فى الوقت نفسه سيستند إليهما المقاولون الجدد فى كل مرة سيجدون أنفسهم فى موقف مماثل. ومن غير المحتم قول ذلك لأنه سوف لا تلبث الفرصة أن تأتى لأننا نستطيع أن نؤكد - بدون أن نخطئ كثيراً - على أن المتعاقدين أصحاب الامتياز للأشغال العمومية على ضفاف النيل ومهما كانوا يعطون فيما يخص العمل أقل كثيراً مما يتسلمون من المال. من النادر أن البقشيش لا يعادل مستوى الخصم فى ميزان المدفوعات الذى يثقله العمل المنطلق. كان هذا هو النظام السائد فى عهد الخديو إسماعيل، أقول ذلك على مضض وإذا وجد بعض التخفيف الزهيد فى هذه المصيبة يكون بالكاد محسوساً. فى القرى لا شىء يتغير فيبدو العمل هنا فى وضح النهار: بيع وشراء وصفقات وتوريدات... إلخ. والمرشد المشهور ينشر كل ذلك. وبعد ذلك فإن الذى لا يعرف أن يقرأ بين السطور يكون متأكداً من رحيل جان كما سبق. إن اللئام الذين يملكون الحيلة هم دائماً المنتخبون.

إن الملاك الزراعيين فى البحيرة الذين منهم السادة عائلة روتشيلد الدائنون بضمان الأملاك لهم الحق فى تعويضات ضخمة إذا اعتمدوا على الرى، انطلاقاً من المبدأ الموجود فى العقد بواسطة جماعة إيستون، فالمطر لا يلعب أى دور فى الزراعة النيلية؛ فعندما ينزل منه شىء فإنه يأتى فى غير محله والماء الذى يلقيه المطر على الأرض لا يساوى مشقة ذكره.

يدعون أن إدارة الأملاك تطلب ثلاثة ملايين فرنك من أجل حصصها. هذا ممكن. ها هي بلا شك النتائج التي لم يتوقعها الاتحاد المكون بواسطة الدوق سوترلاند ونوبار وإيستون وآخرين، وعندما أقول إن رياض كان لديه إحساس خفي مستحب في ظهور فشل أجهزة التغذية المائية للخطاطبة، أكون أيضًا مصيبًا بقدر ما كنت صادقًا.

وخوفًا من أن أكرر حرصت على أن أعمل على إيضاح الوضع الغريب جدا الأقل إيضاحًا للأطراف.

دائمًا ما يعالج السيد نوبار أعماله الخاصة والسياسية في آن واحد، كان البعض يعالج الآخر في بعض الأحيان ولكن من كلا الجانبين كانوا لا يحملون أبدًا إلا صدمات أو قفشات تثير الضحك ، وهذا كان نادرًا.

خلال شتاء ١٨٧٩-١٨٨٠ عندما جاء إلى القاهرة فخامة الدوق سوترلاند وقابل هناك إيستون ونوبار وشركاؤه وكان هذا الأخير يعتمد على بعض "المؤامرات" لقلب عدوه الشخصي رياض وكان يتحاشى أن يظهر علانية كشريك للنهابين الإنجليز الجدد. وكان يقول في نفسه "لو استدعيت للوزراة سوف لا يفوتهم أن يلوموني على علاقاتي المعنية مع المقاولين المذكورين آنفًا"، ومن جهة أخرى بما أن القطعة كانت لأولئك الذين لا يتركونهم غالبًا يفلتون استبدل اسمه شكليًا باسم ابنه السيد بوغوس نوبار أي لا فرق بين الأمرين ولم تنجح حيلته وإنه لهذا النوع من الفشل التام أن ننسب الظاهرتين التي حدثتكم عنهما: الشهوة الماكرة التي هدأت نفس رياض الساخطة، والوصول القريب جدًا للسيد نوبار إلى مصر إبان الصيف. بدأ النيل في الزيادة بشكل غير محسوس ليستطيع أن يتدارك نكبات الخطاطبة.

وكان لزامًا على الفلاحين أن يلجأوا إلى سواقيهم وشواديفهم والماء الذي يرسله الله في القناة سيكون الفائض.

إن العناية الإلهية لها دور مشهود لتلعبه مع المتعاقدين المضاربين الزاحفين على ضفاف النيل.

لدينا قضية أخرى إنجليزية تمامًا انتهت هنا منذ قليل. حصل السيد إدوارد دى سى ناشر جريدة الأوبزرفر فى لندن مع السيد بيرد على امتياز الترامات فى العاصمة التى ليس لها أقل احتياج لها وكذلك أقل رغبة.

إنه وباء حقيقى أن نشجع شركات جديدة نجاحها مشكوك فيه تمامًا وفى منفعتها.

لقد قابلت عدة مرات السيد إدوارد دى سى فى الوزارة، وكنت متأثرًا من القلق الفظيع الذى كان يحرك تقاسيم وجهه عندما كان يدخل عند شتى أصحاب النفوذ الذين يتوقف عليهم الحصول على توقيعات.

وفوق ذلك كانوا يهتمون قليلاً للغاية بالنجاح النهائى عند هؤلاء الذين لا يحسنون عملهم، فهدفهم هو أن يحصلوا على امتياز منتظم إلى لندن للشروع فى طرحه فى السوق مع الرجل البليغ هومبوج ورجال أعمال ناشرين متأكدين دائمًا من مكان صيد عجيب فى المياه المطروقة بواسطة الرأسماليين الأغنياء.

ليس لدى الادعاء بأن أسير ضد التيار ومقتضيات العصر ، واجبى أن أفهم هؤلاء الذين يعظمون الشكوك فى نجاح الترامات.

هذا الصحفى أكبر صديق للسيد نوبار ومبغض للفرنسيين، واضح تمامًا أنه نجح فى وقت ما فى إنجلترا أن يعمل على قبول نظرته الغريبة الأطوار ولكنها وطنية على توسيط مصر بواسطة الأمة البريطانية، مقالة بقلمه فى القرن التاسع عشر مليئة بالجمل المحكمة جيدًا فى معنى ميول جون بول وفحواها ، كان راجعًا إلى مطامع السيد نوبار، قد لاقت بعض النجاح ولكن المؤلف كان أقل سعادة فى المحاولة الثانية، انتحر مع صديقه وهو ينشر فى المجلة نفسها مقالته المثيرة "حمايتنا فى مصر" الدم الشريانى كان عليها مشبعًا بكثير من الغيظ لدرجة أن الحقيقة كانت لا تستطيع أن تظهر فيه، هذا بناء على رأى السيد إدوارد دى سى، ومنذ ذلك الوقت فإن العامة لم تعد تسمع أحدًا يتكلم عنه.

قريب جداً عند التوجه من هنا إلى لندن أرسل من باريس إلى مجلة الأويزرفر إحدى هذه الرسائل "الرجال الطيبون" المليئة بالمدح لاسم فرنسا التى كانت حركتها العسكرية فى تونس يجب أن تكون ليس فقط مقبولة ومسموح بها ولكن أيضًا مشجعة.

كان يقول : "فلنترك للجمهور محمية تونس التى تلائمها ولنوطد محميتنا فى مصر حيث كانت توجد فى الواقع من قبل".

هذه الخطبة التعيسة التى فى غير أوانها تشرح وتبرر- ليس فقط المنطق البريطانى لوجهة النظر هذه - ولكن فعلاً الجملة المشهورة للدوق سوترلاند متحدثًا مع السيد إيستون هنا فى العام الماضى : "فلنباشر الأعمال فى مصر بتقطيعها إذا لم تستطع إنجلترا أن تأخذها كاملة".

حتى هذا اليوم لم نجهل شيئًا لكى نطبق جيداً القاعدة البريطانية المتبعة لفخامته. والنتيجة سوف تبرهن عما قريب بأى نجاح سوف تسلك هذه الحملة.

موردو العملة المزيفة كلهم فى شدة القلق؛ لكون البوليس الفرنسى والسويسرى قد أمسك أوراقًا بوضع مادة التصنيع تحت الحراسة. تلك هى القضية التى وضع أصحاب الصناعات الأكثر تورعًا، هؤلاء أنفسهم مكان رجال الشرطة من ذلك صاحبى الجريمة الفظيعة التى ارتكبوها فى حالة الإيجاب بين التحقيق فى سويسرا ومارسيليا سوف تقدم أسماء سيستطيع العمل القنصلى بواسطتها أن يتصرف فى مصر حيث تبدأ عندئذ القضايا نفسها.

من المؤكد أن البلد النيلى يمتلك على الأقل حوالى أربعين من المزورين من أسوأ الأنواع، الذين يستحقون استئصالهم من الصفوف التى نسميها هنا تلطفًا على سبيل التلميح "المجتمع الطيب" فليسامحنى الله!

رجال بنوك عظام، منهم كونت أو بارون - جماعة متحضرة ، أترك عمداً الاسم للشك - كانوا يكونون رءوس الأموال لعدد كبير من صغار الصيارفة الطماعين الذين كانوا يدفعون بأسمائهم وكانوا يعملون مع جنيف الملتزمة وكانوا يقتسمون الأرباح الطائلة مع عمالهم الأذكياء .

هذه الصناعة لا زالت مستمرة منذ سنوات والجمرك كما هو دائمًا- كان لا يرى شيئًا، وملايين من الفرنكات على مختلف أشكال العملات المزيفة استطاعت أن تدخل وتتداول فى مصر بلا عقاب مع أكبر خسارة للسكان لأول وهلة. كان ذلك مسموحًا بالكاد. أظن حتمًا استحالة أن الجمارك المصرية لم تساند هذه العملية الشنيعة. نرى هنا أناسًا لديهم وسائل ظاهرة يعيشون عيشة باذخة بين يوم وليلة ، من أين إذن يمكن أن تنشأ مواردهم؟

عند التنزه على القناة بعض الأشخاص المعروفون حتى ذلك الوقت يعيشون يومًا بيوم كانوا يظهرون هنا أو ينتشرون هناك فى ثمانى دوائر كل واحد يعمل أفكاره بدون أن يحد المشكلة، لقد ثار الغضب وتركت جنيف نفسها تظهر عارية بكشفها كلمة السر.

ومع ذلك فإن مفهومك ومفهومى يكونان غير معروفين تمامًا بين المستعمرات الأوروبية لمصر، لا يوجد أى اتفاق وأى تدبير قادر على أن يوصل مال "بولى" إلى جيب "بيير" ، لا تندهش من ذلك: "إذا لم تصبر، فلن تحصل على الفطيرة". وحتى فى هذه الحالة نكون مفعمين بالسماحة للمذنب.

حكى لى أمس وزير قديم للخديو حكاية ذات طابع وهى كالآتى : عندما وجب على هذا الأمير قليل الشك أن يرسل مبلغًا ضخمًا جداً من نقود التلارين (جنيه النمسا مارى تيريز) إلى ملك الحبشة، دخل فى مفاوضات مع رجلين محترمين من المالية من حاشيته لكى يوردا له قطع العملات تلك ذات العيار المزوّر، كل شىء تم إبرامه وترتيبه ولكن تنفيذ هذا العقد الجميل ترتب عليه بعض الصعوبات التى عملت على تغيير بعض البنود . ماذا تريدون، كانت الموضة أن أخفى الأسماء.

فى كوكبة المزيِّفين – المقبوض عليهم وسط نجاحها- يوجد تجار محايدون يسلم إليهم المزيِّفون النشطاء حقيبة من العملة الجارية المزيفة عند وصول كل مركب من أجل أجرة العمال المستخدمين بالقرب من السلالم عند استقبال وشحن السفن. كان بارعًا فى الوضع اللاإنسانى ، لأن أوائل الضحايا لهذه التجارة الشنيعة كانوا من فقراء العمال اليوميين.

ماذا سيفعلون الآن بكل هذا المعدن ذى العيار الفاسد الذى سوف لا نعرف أبدًا عدده الحقيقى.

يتواصل السخط فى الجيش فقد قدم ١٧ من كبار الضباط استقالاتهم، كانوا قد شكوا من بعض الترقيات التى قرر رياض أن يقوم بها لكى يشكل له حزبًا حيث الكل مستاء منها فى كل مكان. كان العقداء قد دعوا الوزير ألا يقبل الاستقالات وأن يترك الأشياء فى الدولة. صرف رياض النظر ونائب الملك الذى كان يعتقد فى المبدأ أنه كون له مناصرين فى الجيش بتدبير دسيسة للأول (الملك) مع نائب الجيش وهو الآن متروك فى الظل بسبب مرشده النشيط.

فى الجولة التى قمت بها منذ قليل فى أقاليم المنوفية والشرقية، بدت زراعات القطن ذات مظهر طيب للغاية فقد وضعوا البذور بعيداً عن بعضها البعض والنباتات قوية وسليمة. العديد من الحقول متأخرة ، ولكن لا يوجد ضرر إذا أتى الماء فى الوقت المناسب وبدون فيضان.

سوف أكمل معلوماتى فى موضوع الإتاوة والرسوم المفرطة الجائرة الأخرى.

رسالة رقم (٥٢)

الزقازيق فى يونيو ١٨٨١

احتج كثير من الناس ضد زعم الحكومة المصرية أن البلد النيلى كان لا يستطيع أن يكون سخيًا بمياه النهر، عجبًا ! وقيل هل عندما تضيع منه مليارات الأمتار المكعبة بلا جدوى كل أسبوع فى البحر نستطيع أن نصون بعض قطرات السائل النافع فى بورسعيد!

هذه الملاحظات التى تثير النفس لدى سكان نهر السين ليست إلا ملاحظات خادعة رغم براعة شرطيتها، يوجد إما كثير من الخيال وإما كثير من الشعر . فى الحقيقة فيما يخص مصر العليا ومصر الوسطى فإن المساحة المطلقة للأراضى القابلة للزراعة تصل إلى ما يقرب من مليونى فدان، ولكن شواطئ النهر وبعض الجهات تكون عالية الارتفاع لا يأتى الماء فى كل مكان بكمية كافية، لكى يبلل الأرض ينبغى أن تقل إلى ١٥٠٠٠٠٠ فدان المساحة سهلة البلوغ للنيل والتى عليها يلقى النهر من أربعة أمتار إلى أربعين سنتيمتراً من الماء فى العمق.

وبتقليص هذا الإيراد الضخم من أمواج النيل إلى متوسط صحيح سوف نحصل على طبقة تعادل مترًا واحدًا و ٢٣ سنتيمترًا تمثل بالضبط الكمية المطلوبة لرى متر مربع واحد.

من غير المفيد القول بأن الزراعات الصيفية الأكثر كثافة تتطلب أكبر كمية من الماء وتحديدًا فى زمن التحاريق "أقل مستوى للمياه"، فلنقل أخيرًا إنه للأسباب المبينة سابقًا فإن الوجه القبلى لا يحتوى إلا على زراعة شتوية وبالتالى محصول واحد.

فى الوجه البحرى نظام النهر يكون مختلفًا، عديد من الترع كبيرة وصغيرة تشقه وتستقبل مياه النيل للزراعة الصيفية فكلها محفورة على عمق تسعة أمتار تقريبًا أسفل المساحة المتوسطة للأرض، القنوات النيلية المستخدمة فى أثناء فيضان النهر لم يعد يبلغ عمقها أكثر من ١٢ قدمًا إلى ١٣ قدمًا عند استلامها للماء. وبما أن انحدار الوجه البحرى هو ٢١ مترًا تقريبًا ابتداء من مقياس النيل إلى البحر المتوسط، فإن هذه القنوات يقل عمقها كلما اقتربت من البحر.

اليوم يحسبون أن ١٢٠٠٠٠٠ فدان من أراضى الوجه البحرى تكون قابلة للزراعة صيفًا، ولكن بناء على خبرتى الخاصة ينبغى خفض هذا الرقم كثيرًا؛ إذ ربما يبلغ مليون فدان فى متوسط السنين كأقصى ارتفاع.

بناء على تقارير الكبارى والطرق وقطاع الزراعة المعززة فيما يخصنى بواسطة مهندسين عمليين وجادين فإن الإيراد الإجمالى لكل القنوات الصيفية للوجه البحرى لا يتجاوز سبعة ملايين ونصف مليون متر مكعب من الماء فى اليوم، وباشتراك شتى الزراعات وبافتراض أن هذه الترع كانت دائمًا مغذاة بطريقة مناسبة فإن الحجم الإجمالى السابق ذكره قد لا يكفى أكثر من ٤٠٠٠٠٠ فدان، وأيضًا قد يلزم استعمال المياه بروية وفطنة.

السواقى أو الآبار وطلمبات البخار هى التى تلافى العجز أو النقص. مساحة الأراضى القابلة للزراعة فى الوجه البحرى ٢٦٥٠٠٠٠ قد تتطلب ٥٣ مليون متر مكعب من الماء للدورة الصيفية ويقدم منها النهر بالكاد فى زمن التحاريق المتوسطة يوميا ٨٢ مليونًا تتطلب الملاحة منها لفرعى النيل النصف على الأقل.

قد يكون من الممكن بلا شك حفر ترع أخرى بهدف توزيع أفضل للزيادة فى المياه التى تضيع خلال أعالى النيل، ولكن فى هذه الحالة قد يكون أيضًا من التهور بقدر الصعوبة تخصيص أكبر كمية من المياه المتاحة للحاجة التى ليس لها أى إلحاح.

عرف "لينانت دوبل فو" مع مهندسين مياه آخرين أن تحويل مياه النيل لصالح الدلتا وأراض تجاور إقليم دمياط لكى لا نضر بمصالح هذا ولا ذاك فإنه لا يجب أن يكون مخصصًا لرى الدلتا والجهات التى على يمين فرع دمياط إلا جزءًا بسيطًا أو ضعيفًا من النيل فى زمن التحاريق.

كل الذى كتبته منذ قليل باختصار شديد يدل من جهة على أن الحالة الحالية قد يكون من الخطير والمستحيل أن نرصد أكبر كمية من الماء، ومن جهة أخرى لا يجب تخصيص أكثر من ٤٥ مليون متر مكعب للرى الصيفى عندما لا يكون زمن التحاريق منخفضًا جدا فى المتوسط الجيد مما قد يكفى مليونى فدان للزراعة الصيفية. هذه السنة الماء منخفض جداً ووقت التحاريق يكون أقل من ثلاثين مليون متر مكعب، ظرف أو حالة تجعل فشل السيد إيستون والسيد سى أكثر قسوة وصعوبة.

من شتى وجهات النظر فإن المعلومات السالفة تكون مهمة وأنا أرغب فى أن قراء جريدة "لوسيكل" الذين يحبون مصر إنسانيًا لا يكتفون على حسب العادة بألا يسمعوا إلا جرسًا واحداً وصوتًا واحداً.

وبناء على الإشاعات التى وصلتنى للتو من القاهرة قد تكون المسألة أكثر جدية من تغيير وزارة مثاراً بسبب كره البلد لرياض وزمرته.

نشير كما سبق إلى رئاسة مجلس معالى عثمان باشا ابن عم الخديو وابن المرحوم الأمير مصطفى فاضل شقيق إسماعيل ، الذى مات معزولاً فى القسطنطينية. قد يذهب حيدر باشا إلى المالية وذو الفقار باشا إلى الخارجية.

هذه الشخصية الأخيرة يونانية الأصل سلبية تمامًا، كل هذه الأسماء تنتمى للحزب الوطنى المصرى وهم أصدقاء لفرنسا.

أعطيكم الخبر الذى جاء لى بالتلغراف من القاهرة لا توجد نار بدون دخان. فنحن نلمس بوضوح أزمة وزارية خطيرة.

يبدأ مزيفو النقد الذين تعج بهم الإسكندرية والقاهرة فى إيجاد الوضع غير السار، فهؤلاء أصحاب الصناعة الجديرون بالاحتقار يعتمدون على الإفلات من العقاب الذى غطى حتى هذا اليوم الجرائم النيلية فى زمن إسراف الخديو الجميل.

فى بلاط المعجزات الواسع هذا كان النجاح يغفر لعائلة ماندرا وعائلة كارتوش للمالية والأعمال، فاليوم هم مشرفون بواسطة أموالهم المكتسبة بطريق غير شريف. تحملت فرنسا وسويسرا مسئولية هذه القضايا الفاضحة. واجب على المذنبين أيا كانوا أن يمثلوا أمام العدالة فقد حدث العديد من الاعتقالات، رعايا إيطاليون وفرنسيون ويونانيون كانوا متورطين ويستمر التحقيق ولكن يبدو أنه يتحسن. لا نستطيع فى أوروبا أن نكوِّن فكرة عن الاضطراب الناتج فى البلد عن طريق هذه التجارة الإجرامية التى تكون مدتها غير معروفة ولكن تؤرخ من عام ١٨٦٨ بلا شك، وبناء على المعلومات الأكيدة أعتقد أنه سابق على هذا السودان وكردفان ومصر العليا غارقة بالأموال المزيفة. الجنيه المجيدى يساوى تقريبًا خمسة فرنكات ومضروب بشكل وهمى. تسلمت سوريا وتونس هذه القطع نفسها بمئات الآلاف، وكل العملات الذهبية - تقريبًا التى تحملها السيدات فى رءوسهن من دمشق وحلب وبيروت ومن الجبل، والنساء الفلاحات والتونسيات والجزائريات... إلخ - مزيفة؛ أى ذات عيار أقل ونوعية منخفضة من نوع باندوج "جنيه البندقية" سكين، القديم ٢٣ قيراطًا وغزة والمحمودية عيار ١٩ قيراطا والذين لا يحتوون على أكثر من ١٢ قيراطًا على أقصى تقدير ، مثل الشهية التى تفتح عند الأكل تزداد الأرباح وتقل نقاوة المعدن. أما بخصوص القروش المصرية فكانت تساوى تقريبًا ٣٥٪ من القيمة الاسمية، ومع أن سكان المستعمرات فى مصر أكثر الفاسدين فى الكرة الأرضية فإن كل العالم لم يورد العملة المزيفة. البيوت التى كانت أياديها طاهرة من هذا العمل السيئ لا تستطيع أن تناضل فى السوق مع المزيِّفين من السلالة العالية، الذين كانوا يدفعون ثمن المنتجات المحلية بالسعر العالى والبعض لم يكن أبدًا خاسرًا. القطن والقمح المسروقان فى القرى يعرضان فى محلات هؤلاء النصابين وكان كل واحد يتساءل كيف يتم تداول تلك الأسعار بدون أن يقع خراب؟!

فى القاهرة حدث الشىء نفسه للصمغ الذى أصبح بعض الأفراد يملكونه، وكل هذا على مستوى أكثر ضخامة، فمدينة جنيف وجب عليها تصنيع وتصدير أكثر من ٢٠ مليونًا من هذه التجارة الشنيعة التى كانت تدر عليها مكاسب أفضل من صناعة الساعات. هذا التهريب الدنىء الذى كان يسبب تراخى العادات والقوانين هو إحدى نتائج وعواقب المبدأ الاقتصادى الشهير "المال ما هو إلا بضاعة"، وفى الواقع فالجمهور لا يستطيع أن يشكو فهو مستبعد وفق المراد. فيوجد نبيذ ونبيذ وأقمشة وأقمشة وذهب وذهب.. المنطق قبل كل شىء.

كيف كان يتصرف أعضاء طبقتنا المالية الأرستقراطية النبيلة، مسيحية ويهودية: فقد عشقت الطيور المهاجرة فجأة سويسرا، كانوا يعشقون خاصة شواطئ بحيرة ليمان، سكان جنيف ظرفاء جدا ومحبوبون! كان كل واحد يذهب للتصييف فى مدينة كالفن وهناك بينما كانت السيدات يتنزهن فى مونتييه أو كن يزرن شواطئ البحيرة الفاتنة والسادة أرباب الأسر مهمومون بالغد كانوا يدبرون مع المزورين لمدينة جنيف المخالفين العمليات المربحة التى تعانى مصر من عواقبها كأكبر طرف.

أتذكر أننى كنت شاهداً فى بيروت فى عام ١٨٦٤ لمشهد حدث لجمرك هذه المدينة بين رجل تاجر من جنيف وقنصل بلجيكا، والباشا التركى جالس على رأس هذه المؤسسة، كان الأمر يتعلق بعدد من صرر نقود تحتوى على عملات ذهبية تشبه تلك المذكورة سابقًا بالتفصيل ومصنوعة فى جِنيف نفسها وذات عيار ردىء. خنقت القضية ولكن الجمرك أمسك بالصرر. الثروات التى تكونت عن طريق هذه التجارة كانت هائلة، كل الطبقات هنا حتى البورصة تأثرت بمبادرة إصدار قرار مطبوع بصدد هذه المضاربات الشيطانية التى يجب على الحكومة والجمرك أن يكونا على علم بها فالمسئولية الأخيرة سوف تقع عليهم، ونأمل ذلك.

يوجد مذنبون فعلاً فى الظل سوف يبلغهم الضوء، إنهم الأكثر غنى ويجب ألا يُغفر لهم، لا نعرف من نحيّى فى الشارع ولا على من نسلم باليد فى هذا الوسط لمزيِّفى العملة والكونتات المزيِّفين وأسوأ البارونات.

رسالة رقم (٥٣)

الإسكندرية في ٢٠ يونيو ١٨٨١

عدت إلى هنا لكى أعيد بعض حقائب النقود المزيفة التى كان قد تسلمها رجالى فى أثناء غيابى من مختلف الأيادى. وكان لدى المدير نفسه كثير منها بدون أن يشك فيها، ووجب عليه أن يعيد الصرر المليئة بالنقود الخاصة به إلى خزينة الدولة بالقاهرة.

بدأت أعتقد أن الصرافين فى الداخل الذين يحصلون للحكومة ذوو ذكاء مع مرسلى العملة المزيفة الذين يعملون فى القرى. كان من غير الممكن أن نعرف عن ذلك شيئًا آخر. كيف تمتلئ خزائن الدولة بالعملة المزيفة؟

لقد اشترى البنك العثمانى من تلك العملة أربعمائة ألف جنيه (تلاريس) منها كمية كبيرة جنيهات مجيدية وقروش إسبانية والجنيه النمساوى ذو النسرين، وكلها عملات تخرج بطبيعة الحال من ورش جنيف. الاضطراب كامل والممولون المهرة البارعون الذين كانوا يهتمون بهذا الفرع المربح يكلفون بأنفسهم بتصنيع الدينارات الإسبانية الذهبية للمغرب والساحل الغربى لأفريقيا. اسمهم هو كل العالم، وعددهم فيلق أرباح طائلة وأكيدة وإفلات من العقاب مضمون.

خمسة عشر عامًا على الأقل من الوجو ونجاح تقريبًا بضمان الحكومة. وهذه ليست مفارقة بما أن القانون الجنائى لجنيف لا يعاقب إلا بخمس سنوات حبس لمنتجى العملة المزيفة التى لم تتداول فى المقاطعة. كل هذا لصالح الفنون الجميلة المثقفة على شواطئ بحيرة ليمان.

لا شىء أكثر من هذا تشجيعًا للسادة المزيِّفين.

لذلك كانوا يريدون تبادل المصلحة بينهم، زبائن وأصحاب مصانع! وكما قالت جريدة جنيف : كانت تسود الرقة الأكثر مودة فى ولائم الأصدقاء العامة وكانت التجارة تسير جيدًا وكانوا ينسبون لصناعة الساعات الاستئناف البارز للنشاط المتحضر، ولكن كل واحد كان يعرف الحقيقة.

انظروا كم أن الجريمة غير المعاقَب عليها تقوى القلوب وتعطى الجرأة لمرشحيها الأكثر خوفًا بواسطة أرباحها المدعومة.

وبمجرد وصول أى سائح إلى مدينة روما البروتوستانتينية القديمة حتى يتقدم إليه بسرعة فى الفندق وكلاء السادة مزيِّفى النقد. يقدمون أولاً ساعات للخداع وبعد ذلك يقدمون القروش والجنيهات وفرنكات الباب ودينارات البندقية وجنيهات الجازى... إلخ. وكانت العقود تبرم بكل سهولة.

وكان ذلك أكثر فى بلد النعيم الخرافية كوكانى والدورادو. لذلك لم يعد أبطالنا الأسطوريون المصريون أبداً إلى البلد القديم كولشيد السويسرية بدون حصة من الجزة (الفروة الذهبية) سوف يتوصلون بصعوبة للإمساك بأبناء إحدى أكبر شبكات الاحتيال فى العصر ومما نخشى منه أن الصغار يدفعون للكبار. وفضلاً عن ذلك فإن جرأة ووقاحة البعض والبعض الآخر بلغت المنتهى. أى مستورد معروف تمامًا بأنه مزيِّف عملة ذهبية يتنزه كل يوم على متن الحصان فى ميادينا العامة، وأية شخصية أخرى أكثر زهواً والعامة الذين لا يخطئون قليلاً يشيرون إليه بكل تأكيد كواحد من قواعد البناء الإجرامى لا يخشى أن يذهب فى عربته الفاخرة التى تجرها أربعة جياد والمزينة بشعارات ليقدم ولاءه واحترامه للخديو! كل ما أكتبه سوف يصدقونه بالكاد فى باريس، حيث تحدث مع ذلك أشياء غريبة كما سيقال. هكذا انتشرت الشائعة فى القاهرة لدرجة أن السيد وزير الخارجية للجمهورية كان قد أثنى ثناء كبيراً على السيد دى بلينيير لسلوكه فى مصر. قرأت ذلك فى جريدة (لوفتيبل) هذا الصباح. "فلنتابع بذل الجهود".

يعطينا فيرجيل رأيا صائبا. فلنصمت أمام العتاب ولنمض إلى شىء آخر، من الخطير إلى المبهج إذا أردتم فعلاً.

ذهبت عند قيام نائب الملك بمناسبة عيد ميلاده، هذه كانت المرة الأولى التى أتعرض فيها لمناطق الأمراء. لم آسف لذلك. لقد تسليت هناك فى سكون ولكن عن طيب خاطر.

وبما أنه لم يعد يوجد شيء يقرض فى القصر فلم تعد الحاشية كما هى، أعداؤهم ازداد عددهم، ولكن النوعية بقيت كما كانت مختلطة ومشكوك فيها خارج الاستثناءات المعروفة.

المجموعات المشار إليها منذ البارحة بواسطة المرشدين النيليين كانت تتكون من ضباط الجيش، والقوات البرية والبحرية، وأصحاب الرتب الإدارية العالية، والقضاء والمحاكم والتجار لهذه الفئة الأخيرة الغامضة والمطاطة ينتمى كل الذى لا يتعلق بالآخرين: تجار وكونتات وبارونات ورؤساء إدارات أوروبية وبقالون وصحفيون وموظفون مهندمون وكثير من الأفراد الآخرون غير المعروفين الذين يدفعون فى ذلك اليوم ثمن شرف تسجيل أسمائهم فى الكتاب الذهبى. نظافة الملابس والأناقة تضيع هناك أمام الارتباك من جانب آخر، بفضل الطبيعة الطيبة لفخامة بتونيو سلمونى بك رئيس المراسم.

دخلت بطبيعة الحال مع الشعب أى الدرجة الرابعة. توفيق الأول جالس فى ركن من الديوان ونهض وحيا بأناقة بيديه بدون أن يبدو أى ارتباك فى عينيه وهيئته. ومن الزوار كانت التحيات متنوعة ومنتقاة، كل منهم كان يريد أن يزايد على جاره لكى يكون ظاهراً وملاحظاً بشكل أفضل، مشقة لا فائدة منها. الأكثر قرباً من الخديو كانوا أول من جربوا هذه التفاهات. نائب الملك يسمع تماماً هذا الدرس الممل عن القمر والنجوم لدرجة أن شخصين أو ثلاثة من التافهين أخذوا للأسف مأخذ الجد أعمدة كل التشريفات. الجو فى القاهرة رطب جداً ، قالها توفيق . قال أحدهم : سموك... رطب جداً فى القاهرة. الجو حار جداً، قالها الخديو مستطرداً ومتوجهاً بالحديث إلى آخر. قال: فى الحقيقة يا سيدى الجو حار جداً فى القاهرة. ويأتى دور موظف شركة شبه الجزيرة الشرقية التى لم ترحل بعد سفينتها فى الساعة المحددة نظراً لتأخر حقائب الهند الصينية. وسأل سموه فى أثناء الحديث : لماذا سفينتكم التجارية مازالت هنا؟ ينبغى حقا قول شيء ما: لكى نحتفل بعيد ميلادكم يا مولاى! كل الناس نظروا لبعضهم ، لم يستسغ توفيق روح الموظف واحتدم غضباً ، عندما رأى فى اليوم التالى فى الفنار نتيجة هذه الإجابة غير اللائقة. إنها معاملة الخديو الشاب علانية على رءوس الأشهاد كطفل عنده خمسة أعوام.

وبناء عليه كناقد انصرفوا جميعاً.

فى القاهرة تتعقد من جديد الأعمال الخاصة والداخلية، السلطة تخفى الحقيقة ولكن ليس بما يكفى من العناية لكى لا تشع بواسطة أى شق أو فرجة.

أخبارى صحيحة؛ لأننى أستقى المعلومات جيداً مثل مواطن من أهل البلد لكن السكون خيم، الأمر الذى لم يمنع الأحداث من أن تسير.

طلب الجيش إذن أن تتكون اللجنة المكلفة بمراجعة التعليمات العسكرية من رجال ينتمون إلى الجيش بدلاً من الموظفين المدنيين الذين كانوا قد أرسلهم رياض.

القوات لا تريد ضباطًا معينين لهوى عابر من قبل الوزراء أو الخديو ، والذين لا يعرفون مهنتهم . موافقة ولكن صمت.

أخيراً العريضة الكبيرة الجوهرية والدستور التى أبلغتكم عنها أعدت وذهبت إلى أيدى توفيق مع التوصية الآتية: "فخامتكم، اقرءوا وعلقوا على هذه الوثيقة أنتم بمفردكم وبأنفسكم. فقد يكون من غير المفيد عرضها على وزرائكم أو رقابتكم الذين لا يتمتع البعض ولا البعض الآخر بثقتكم. بعد فترة قليلة ستكون المسألة قد نوقشت فيما بيننا عندما تبدون رضاكم للجمهور وأنتم تستدعون حولكم رجالاً أكثر مصرية وأكثر وداً".

خرج من هذه العملية الخبر المذكور فى رسالتى الأخيرة بخصوص تغيير وزارى. يقال الآن أن نائب الملك يكون مجبراً على الذهاب إلى القاهرة لعدة أيام حيث تستدعيه أشياء لم تعلن.

من ناحية أخرى أدرجت جريدة التايمز خطاباً من مراسلها العادى مقوياً فى الاتجاه الأكثر مناسبة الفكرة الدستورية الوطنية النيلية حسب البرنامج الذى وضعته تحت نظركم أكثر من مرة. إنها المرة الأولى التى تجد فيها هذه الجريدة الكبيرة المتقلبة - مثل اسمها - نفسها نقطة جوهرية لمصالح المصريين مع مراسل جريدة القرن (لوسييكل).

علمت قبل أن أنهى رسالتى أنه قد نشب منذ قليل خلاف عميق فى الرأى بين رياض وعلى باشا مبارك وزير الأشغال العمومية وحامى المقاولين الإنجليز. منذ فترة طويلة انقطع الانسجام بين مجلس الوزراء. من قبل وفى عهد البارون دى رانج، كان الموقف متوترا، ولكن رياض الذى كان يريد أن يزيح ممثل فرنسا ظهر بمظهر لائق وأظهر تماسكًا استمر فى الوجود.

أعتقد أننى أخبرتكم أكثر من مرة بأن رياض كان لديه تعاطف أكثر من متوسط مع السيد دى بلينيير لم يستطع أن يلغيه، فكان يبدو أنه متفق معه علمًا بأنه يكرهه بالكره نفسه الذى يحمله لعلى باشا مبارك.

أزمة وشيكة. دى بلينيير ليس رجل أحد فهو صوت الشعب للحزب الوطنى الذى يطالب بصيحات كبيرة بطرده، هذا الموقف حرج جداً وأكرر ذلك لكم، فإن أحداثًا مرغوبة عادلة جدا وهى متبعة فى أوروبا بحيث لا تتوقف إلا بالضحك لعدم تصديقها، وقد تحدثت حقا بالطريقة غير المتوقعة. الشعب يطلب مراجعة الضرائب وتخفيضها، أقول لكم أيضًا، كل ذلك جاد.

رسالة رقم (٥٤)

القاهرة فى ٢٤ يونيو ١٨٨١

حرصت على إبراز موقف مصر بوضوح بقدر الإمكان نظرًا لمتشائمى المهنة الذين يقومون بالأعمال السياسية لإنجلترا ومراعاة لهم، وفى الوقت نفسه فإنهم يحابون بطريقة شرعية مقامرى البورصة.

لقد فهم الحزب الوطنى جيداً الوضع الحالى للأشياء التى تدبر من الآن لتأسيس بنك مصرى أهلى مخصص لتسديد الديون الخاصة بالمزارعين تجاه الفائدة الأوروبية الفاحشة وتأدية خدمة الائتمان الزراعى فقط بسعر مخفض؛ لإبعاد المؤسسات التى تستغل الفلاحين وتخنقهم، عن طريق المنافسة الشريفة.

وهنا مفتاح الوضع: توريد المال للزراعة بالاستغناء عن المرابين والمهندسين الزراعيين المستعارين، الذين ليس لهم هدف آخر إلا التطبيق القانونى على فقراء الملاك المدمرين بالفوائد الباهظة.

البلد يرزح دائما تحت وطأة السخط عن أعمال وحركات مزيفى العملة، ولو أنهم فى جنيف ومارسيليا يعملون بجدية لمنع هذا التهريب الكريه ويتهيأون لعقاب المنحرفين فلن يوجد مثل ذلك فى مصر .الحكومة تتقدم وتتقهقر فى الوقت نفسه. يعتقلون أناساً ومجرمين ثم يتركونهم، وأفراد يجب أن يكونوا محبوسين أو مفرج عنهم بكفالة يأتون ويذهبون برأس مرفوع وهذا مثال على ذلك، لن أذكر أسماء.

رجل أوروبى حامل لعملة مزيفة مطمئن وجد فى أوراقه عدداً ضخمًا من الإيصالات المزورة مدونة بقدر الدفع غير مبررة بواسطة عمليات حقيقية، محررة للسيد x..... بواسطته شخصيًا من بين الذين وصلوا بالسفن حاملين صرر النقود الفاسدة. المتهم المطمئن صرح – بينه وبين نفسه – قبل القبض عليه أن السيد x..... كان قد تسلم منه العديد من حقائب النقود التى جاء بها المدين المتعجل السلس. وحسنًا لا ترى السلطة فى ذلك شيئًا من الغموض. يعيدون الوثائق للمتهم والسيد x..... الذى له علاقات اجتماعية لا يجب أن تناقش هنا فهو يسخر بمرح من القيل والقال.

من المعتقد مع الجمهور أن رجالاً ذوى شأن كبير جدا على جانبى البحر المتوسط، كانوا متهمين فى العمليات التى كانت جنيف هى المحرك الأساسى لها، وأن تأثير فرق الجيش الكبرى خنقت العملية فى مصر. هذه النتيجة قد تكون مؤسفة، بل قاتلة لكننا هنا معتادون على كل شىء، ألم أقل لكم ذلك؟ التسامح الذى يعمل عمله يأتى من قسم القضايا والتفتيش والإدارة المالية العليا الأوروبية ! ماذا تظنون من جهة العنصر نفسه الأكثر اهتمامًا فى القضية؟ هل سنوضع فى ظروف بمثل هذه الخطورة بين إنكار للعدالة والكيل بمكيالين؟ علاوة على ذلك أنتم تعرفون ما هو قلم القضايا الخاص بنا، الرئيس وسكرتيره اختصما القانون. الذئاب لا يأكلون بعضهم بعضاً.

أبلغتكم فى آخر رسالة لى طريقة عمل مزيِّفى العملة. رأيتم أيها السادة كيف أن السيد الكونت إسترهازى وفخامة سمو الأمير ليرشتان جالبا خطاب اعتماد للحكومة المصرية لمدير الخرطوم، كانا قد سرق منهما مبلغ ٤٠٠ جنيه مصرى مزيفة (١٠٥٠٠ فرنك).

يبقى علىَّ أن أبلغكم كيف أن البلد الأسود من مدينة أسوان فى دنقلة والبحر الأحمر كان موبوءاً تماماً بالجنيهات المزيفة النمساوية والإسبانية ومن القسطنطينية ومن الجنيهات المصرية المضروبة بواسطة رجال الصناعة فى جنيف.

هنا أيضاً ومؤقتًا - لن أسمى أحداً مع الاحتفاظ مع ذلك بصحة تحديد الأماكن - منزل فى الخرطوم مع أفرع ووكالات فى دنقلة والسودان وسواكن وسيترة والذين يقومون بأعمال ضخمة بدون أن يتمسكوا كثيراً بالأسعار، كانوا يتسلمون منذ زمن طويل صرر أموال مخصصة لشراء منتجات مكتسبة عادة بالتبادل.

طريقة التعامل هذه بطيئة جدا كما يبدو بالنسبة لنشاط التجار اليوم، وأولئك الذين أعنيهم يفضلون أن يجلبوا من أوروبا عملات ذات أوجه سالفة الذكر وجنيهات مصرية، لذلك فإن تجار السوق السوداء الفقراء ليس فى أيديهم عملات أخرى غير تلك التى عما قريب سوف لا يعرفون ماذا يفعلون بها إذا استمر عدم الثقة.

هذه العملات المزيفة لم تصل إلى الجهات المخصصة عن طريق النيل. السادة النصابون الذين يمارسون هذه التجارة كانوا حريصين. فهم يرسلون بضاعتهم إلى سواكن حيث تأتى قوافل مرسلة من دنقلة أو من الخرطوم لإحضارها.

منذ ستة أسابيع تقريباً، واحد من أصدقائى كان موجوداً فى سواكن نفسها علم أن موكبًا من العملات الأجنبية والذهبية يبلغ مليون فرنك كان منتظراً بواسطة رجال وجمال أتوا من المقاطعات السابق ذكرها. لم تظهر الصناديق التى كان يجب أن تصل من السويس عن طريق بورسعيد. سفر هذه العملات كان مشوشًا بواسطة البوليس الفرنسى والسويسرى. كان قد امتنع المشتركون فى مارسليا والإسكندرية والمشلولون بواسطة انفجار القنبلة، والمليون فرنك الذهبية والفضية وجدت متوقفة فى مكان ما انتظاراً لفرصة لكى تذهب لتبذر الخراب بين سكان السودان الفقراء.

كيف سيجدون فى أوروبا هذه التصرفات التجارية أو المتحضرة؟ وكيف سيستطيع التجار الذين لم يتصدوا بعد للعملة المزيفة أن يكافحوا ضد الزملاء الذين يدفعون ثمن الصمغ وريش النعام الفاخر بعملة فئة خمسة فرنكات والتى لا تساوى إلا فرنكًا و ٥٠ سنتًا، وجنيهات مصرية قيمتها ٢٦ فرنكًا تراجعت إلى ١٢ فرنكًا و ٥٠ سنتًا؟

أوروبا مهتمة - بقدر اهتمام مصر - بالعمل على وقف مثل هذه القضية بالبحث وبمعاقبة المجرمين أيًا كانوا. فلنترك الأسماء والتفاصيل الآن لجعلها علنية عندما ينبغي ذلك. إنه واجب على كل واحد تأديته: إذا لم يعاقب المجرمون الكبار فأى فرصة ستتيح للصغار لكى يظلوا شرفاء؟

يبدو لى أن التجارة الفرنسية يجب أن تحتج ضد تجارة العبيد الجديدة الوقحة هذه ومنتجات أفريقيا الوسطى عن طريق العملات المزيفة، وإلا سيكون من الصعب أن نتنبأ أين قد تتوقف الفوضى الاقتصادية والخسائر لصالح بعض الغزاة الجسورين المفتونين بعدم العقوبة الممتدة.

رسالة رقم (٥٥)

الإسكندرية فى ٢٩ يونيو ١٨٨١

تمضى مدة طويلة على ذلك، كان هذا فى شتاء عام ١٨٨٠ فى الربع الأول من العام. كانت القاهرة مبتهجة وكان السياح يتزايدون وكان فندق شيبرد يرفض كثيراً من الناس، خانات القوافل الأخرى كانت فى حالة ابتهاج.

إيستون والدوق سوترلاند ودى سى وعائلة روتشيلد ونوبار وويلسون وأوبن هايم وهيل وبجانبهم بعض وجهاء المالية الفرنسية كانوا يجتمعون كل يوم لكى يتحدثوا عن الوسائل الأكثر ملاءمة لاستغلال مصر بتجفيف مستنقعات الدلتا وجيوب الفلاحين عن طريق الفرصة نفسها.

هذه الكوكبة التى يسميها إسماعيل باشا فى عزلته "تماسيح أسفل النيل" كانت قد قررت أن تطلب كل شىء وأن تأخذ كل شىء ولا تترك شيئًا، إنها أفضل طريقة للمتابعة، عند عدم إرادة نسيان أى شىء، من هذا البرنامج للغيلان الدوليين، فإن الحكومة المصرية ألغت ملاحة نهر النيل وأملاك الدائرة والسكك الحديد عندما تبنت فى الوقت المحدد هذا الإفراط لحب المال، ولما كانت تبقى رى الأراضى كثير من الأجانب شاربى الخمور، فإن سفينة التهريب السريعة تنجح فى الحصول على حصة صغيرة

كعينة من اللباقة البريطانية بمال الآخرين، أو بمال الجميع. كان هذا نصراً. المفترسون محبو البشرية تعانقوا من أجل الحق ، وقد قال سمو الدوق دو سوترلاند بلغته الأسكتلندية الأدبية: "نحن أدخلنا الوتد فى الشجرة النيلية العجوز، وسوف نقطع قريباً الجذع!" نوبار كان يعانق إيستون كمنقذ، ومن أجل عربون معرفته، وأيضًا ربما لكى يلاحظ من قريب جداً رءوس الأموال التى كان سيستثمرها هذا الشخص على نمط إبراهام، أعطى له ابنه باغوس نوبار مهندس المدرسة المركزية فى باريس. كل شىء كان لونه ورديا. كان السيد نوبار لا يظهر شيئًا علانية فى هذه العمليات التى كان من الممكن - والقدر يساعده - أن تثير شعوره كوزير! جاء الحر، وكان رياض قد اكتشف بعض الدسائس التى كانت تجعل إقامة السمو الأرمانى فى القاهرة حرجة، وجب الانفصال. الكوكبة المالية متأكدة من الأرباح الضخمة. استأنف طريق أوروبا والمسكين موسى العقاد رحل وحيداً إلى النهر الأبيض ليكفر عن صداقته للسيد نوبار.

اليوم تغيرت الأشياء من الكل إلى الكل. الديكورات نفسها والممثلين أنفسهم إذا أردنا ، ولكنها كوميديا ميلودراما لنوع معارض.

ماكينات السيد إيستون والسيد أندرسون والسيد سى لم تعط مياهًا، وسيفقد إقليم البحيرة جزءًا من قطنه والأموال المستثمرة تظل مشبوهة. السيد نوبار يتهم السيد إيستون، والسيد باغوس نوبار يردد مع أبيه أخيراً خلال عام ١٨٨٠ هم الأعداء الألداء لعام ١٨٨١، ها هى إحصائية مصلحى البلد عن طريق استغلال مصر. أرجو من القراء أن يتابعوا عواقب هذا الفشل الصناعى. فى إقليم البحيرة الكبير يوجد ملاك أو أصحاب مزارع أوروبيون مثل السادة عائلة روتشيلد على سبيل المثال، فالسادة إيستون الذين يردون الخاضعين للضريبة تعاملوا مع الحكومة المصرية، عن طريق هذا الرئيس. إن هذا الأخير هو المسئول عن عجز الرى لأنه كان يجب عليه أن يدفع ضريبة المياه. الطريق المتبع ظاهر إذاً: عمل التعويضات والفوائد أمام محاكم الإصلاح لكى لا يكون هذا بخصوص الملاك الأهليين دافعى الجزية الذين يشكلون الأغلبية. الطريق المفتوح للأوروبيين والمقفول عليهم بلا شفقة بفضل ترتيبات أسرة السادة إسماعيل ونوبار، والرجال المساكين الذين سوف لا يعفونهم من بارة واحدة (وحدة نقدية تركية : جزء من أربعة آلاف ليرة) من الضرائب العقارية، إذا لم يرضوا

سيلجأون إلى ساحات العدالة المحلية والمدارة بواسطة مجموعة قوانين رياض وباشى وكورباش وسان جاميه.

وكما سترى فإن السنوات تتعاقب ولا تتشابه. إن مصير مصر مسلم إلى مثل هؤلاء الرجال وإلى مثل هذه الأطماع.

النتائج نفسها تنتظر جميع الشركات التى شيدت فى مصر منذ حوالى عشرة أشهر مهما كان اسمها. مادام الهدف ليس مؤازرة حقيقية لرفاهية البلد رغم عبارات البرنامج الفاتنة، والفشل غير مشكوك فيه والسكان الساخطون من قبل سينتهون بأن يروا ذلك أكثر وضوحاً، فقد رفضوا أن يتركوا أنفسهم مسلوبين حتى من الدم بواسطة هذا السيل من الرعاة المطببين الذين داخلهم مغمور.

أصحاب الالتماسات للضرورات الشرعية التى لم يستطع أبداً نائب الملك أن يتهرب منها، قالوا ذلك بوضوح لتوفيق: "نريد مساواة الأهالى أمام القانون الدولى لغياب محاكم مصرية مستقلة وقادرة على تنفيذ أحكامها؛ لأن هدفنا هو أن نوفر الاحتياجات الاقتصادية للبلد بأنفسنا. نحن لا نستطيع أن نقيم أى بنك زراعى أو غيره دون أن نكون خاضعين لنزوات وزير مستبد أو حكومة تضعنا فى منافسة مع الأوروبيين وبالقياس إليهم نكون فى أحقر وضع، وقد تذهب تحت أول عذر رءوس الأموال الأهلية وقد تخربنا بطريقة غير مسبوقة.

نريد أن تكون ثمرة جهود الأمة باقية فى مصر وهذا لن يحدث إلا بتحرر الشعب المطلق القادر على الإنتاج سنوياً ٨٠٠ مليون فرنك بحاصلات مختلفة لدفع ٢٢٥ مليون فرنك رسوم ضرائب بدون أن يبقى منهما ١/٦٠ فى البلد".

تلك هى المشكلة المطلوب حلها. نائب الملك مشغول جداً داخلياً وبالحريم، كانت زوجته تريده حرا وعظيماً، حلم جميل للأميرة! السادة الحماة الدوليون ورياض يرغبونه كما هو: مستبعد وصغير! إنى أجهل التوجيهات الوزارية الفرنسية بهذا الخصوص لقناصلنا العموميين فى القاهرة، تلك التوجيهات الخاصة بالحكومة البريطانية المعروفة والبسيطة: "حافظوا على الدمية، شجعوا كل ما يمكن أن يعقد الوضع الاقتصادى للفلاح عن طريق قناة المشاريع الإنجليزية حتى مع منافسة الأجانب ويا ليت أولئك

لا يكونون معنيين بالاسم وقد تصدوا بدون أذى لفرنسا والوزارات الأخرى، بدون إظهار لعبتكم. على أن تبقى أخيراً إدارات المال الكبرى الرئيسية فى الأيدى البريطانية طبقًا للترتيبات الإنجليزية السامية للسادة : بيكونسفيلد ودى روتشيلد وكوشين... إلخ".

لا شىء أكثر وضوحًا وسأضيف : لا شىء أكثر سهولة ، خصوصًا عندما بدت وزارة الجمهورية الفرنسية أنها تعير منافسة قوية لهذه السياسة المفهومة تمامًا بواسطة المفتش دى بلينيير.

رسالة رقم (٥٦)

الإسكندرية فى ٦ يوليو ١٨٨١

قضية مزيفى العملة تقدمت كثيراً، فقد ادعت الحكومة مدنيا ضد كل المتهمين المكتشفين حتى هذا اليوم إصراراً على إثبات أن عتاة الإجرام مازالوا خارج الطبقات الشعبية. أنا سمعت قولاً فى القاهرة أن موظفًا سياسيا كان قد باع بمبلغ ضخم قدراً من التساهل القضائى مخالفًا للقانون وللأحداث، وعن طريق التساهل كانت الشخصية المالية المعتبرة بخصوص الذهب الذى تمتلكه تطوف الحقول فى هذه الساعة. وعلى أية حال ها هى معلومات جديدة محددة عن هذه القضية الفظيعة، التى لا تمس المصالح التجارية العالمية.

جريدة باريسية كانت مراسلاتها عن مصر قيمة جداً فى العادة، ولكنها بكل تأكيد أقل صحة وهى تعالج مسألة النقد المزيف.

ومن الظلم بقدر ما هو غير حقيقى أن نكتب أن الحكومات المصرية - التى تعاقبت منذ عهد محمد على صاحب هذا الأمير الكبير المدرج - قد سمحت بتصنيع عملة مزيفة أيًا كانت. هذا القول هو خطأ من جهة المراسل الذى لا يعرف أن يكون مؤيداً بدون افتراء.

نائب الملك كان الوحيد الذى أرهف السمع إلى العروض الإجرامية التلقائية للممولين الأوروبيين الذين أعرف أسماءهم، إنه إسماعيل باشا بمناسبة الفدية المستحقة لملك الحبشة (إثيوبيا) وقد أبلغتكم عنها بالتفصيل فى إحدى رسائلى الأخيرة، لم يوجد تنفيذ كامل، ولكن هذه العملية الشائنة فى المسالك التجارية للمستعمرات على ضفاف النيل.. هل نجحت؟ إنها قد لا تعد أبداً إلا جريمة جزئية، تولد من مبادرة تجارية أوروبية وليس حالة من الأمور السياسية الضريبية حيث الريح يمكن أن تكون مثارةً عن طريق أفراد الجالية التى تشين اسم الأوروبى فى الشرق.

مراسلكم فى مصر يعرفها منذ عام ١٨٣٨ وهو يؤكد أنه على حسن معرفته لم يشاهد أبداً ولا يعلم أن الحكومات النيلية منذ المماليك قد بررت من قريب أو بعيد الرواية الوهمية المعنوية فى إحدى الرسائل المصرية للجريدة التى نحن بصددها.

لقد كان من الصحيح القول إن منشآت مالية كبيرة - منها واحدة تحتل فى فرنسا موقعًا مهمًا - كانت تمارس هنا منذ سنوات - حتى منذ قليل من الأسابيع - بواسطة أفرع تجارة شبكة ممنوعة للنقود المزيفة من بينها كان يسود الجنيه النمساوى لمارى تريز والنسر المزدوج المطلوب جداً فى المناطق الوسطى لأفريقيا. هذه القطعة المقدرة فى مصر بعشرين قرشا مصريا وما يعادل أكثر قليلاً من خمسة فرنكات، كان يعاد بيعها محليًا للتجار غير الشرفاء من ١٦ إلى ١٧ قرشًا أكثر أو أقل، كان البيع منها كثيراً وبدون توقف.

من أكثر الاحتمالات أن هذه النقود كانت تساوى تقريبًا ٣ فرنكات و ٢٥ سنتًا أى ١٣ قرشًا للمستوردين، ١٤ قرشًا على أقصى تقدير، أرباح رائعة تتزايد ولا سيما أن الحصص السنوية لهذه الاعتمادات أو للبنوك المشهورة الزائعة الصيت وأنه يجب على الجمهور أن يتعلم أن يعرف أفضل، وأن هذه القطع النمساوية - المزيفة بلا عقاب - التى كانت ترحل إلى البصرة كانت تستثمر كأحسن نقود من ٢٤ إلى ٢٥ قرشًا.

اللوم لهذا الموقف يعود على الامتيازات الأجنبية (اتفاقيات التسليم) وعجز مبادرة الهيئة القنصلية فى الأمور المفيدة. لذلك فإن العملة المزيفة المطروحة على بساط البحث كانت منقولة فى وضح النهار عن طريق عجلات النقل ذات الجوادين إلى البنوك

التى لن أعطى أسماءها الآن. الجمرك الذى بالصدفة كان يرى نفسه مسروقًا من وقت لآخر يشكو للوزير الذى كان يخطر القنصل. وسكوت مطبق من جانب السلطة الأوروبية. الامتيازات الأجنبية تضمن كل الحرية للتجارة فى أساكل المشرق وكانت السرقة تزدهر!

كان على قناصلة فرنسا أن يذكروا بالواجب واحدًا من رعاياهم لم يدرك ذلك الواجب، والأمور بقيت هناك لكى تنتشر أكثر فأكثر وبعد ذلك رجال البنوك أنفسهم وهم شخصيات مشبوهة (مهربون) يدعون وجهاء المستعمرات وعند اللزوم يقضون بأحكام قنصلية ضد مواطنيهم! ماذا يكون إذًا القناصلة عمومًا؟ أهم حكام فارسيون يتقاضون مرتبات عالية وهم تنابلة!

أصبحت عملية تزييف العملة هذه أوروبية استيطانية (مستمرة)، يصنعون منها ملايين من الجنيهات الإسترلينية ويطلعون منها فى فيينا ونابولى وتريست ومارسيليا والقسطنطينية وفى الشرق. فى كل مكان - احفظوا ذلك جيدًا - على حساب ضرر المسلمين الذين يستحقون ما حدث لهم من خداع أثناء تمدينهم. ها هو أصل بعض الثروات الضخمة، وهذا ما يفسر لماذا كان هناك تجار شرفاء - يصدرون لإنجلترا أنياب الفيل وصمغ ومنتجات أخرى من السودان مكتسبة من أموال جيدة - كانوا يعانون ويتكبدون باستمرار خسائر فادحة، بينما كانت بيوت معروفة فى مصر تربح كثيرًا بدفع ثمن نفس السلع من سينًار من ١٠ إلى ١٥٪ أغلى بجنيهات مزيفة، ويعجبون هنا بتلك المهارات!

لكى أتمم بلاغاتى السابقة بخصوص المؤامرات والدسائس الإنجليزية الإيطالية الصغيرة على ضفاف النيل، أستطيع أن أؤكد أن الأعضاء الأكثر نفوذًا للمستعمرات يحلو لهم نشر إشاعة احتلال لمصر فى مدة قريبة أو بعيدة. يعلقون على المنشور الدورى للسيد روستان الذى يستخدمونه لإيقاظ تعصب ضعيف . لحسن الحظ هذه الإشارات تسبب تأثيرًا سيئًا.

حفلات ذكرى اعتلاء توفيق العرش انتهت بحفل راقص كبير فى قصر رأس التين. خليط عام، لا يوجد مسرح، موسيقى سيئة، عشاء قليل الوفرة وخمور كريهة ورخيصة. كل شاربى الشمبانيا مرضى. أسد السهرة كان فخامة الملك كالاكوا، ملك جزر هاواى، مثال جميل برونزى اللون ونبيل إنجليزى تمامًا.

رسالة رقم (٥٧)

الإسكندرية في ٢٣ يوليو ١٨٨١

لقد شرحت لكم ذلك سابقًا، رى الأرض يتم بواسطة ترع (قنوات) أكثر أو أقل عمقًا وعرضًا وتأخذ المياه من الترع الرئيسية الكبيرة المتصلة مباشرة بالنهر. إن نظام هذه القنوات القائمة بحكمة بالغة على الورق وللأسف توجد أهوسة (سدود لرفع وخفض السفن) لا تفتح إلا بأمر مهندسى الإقليم الذين يطيعون الأجانب شاربى الخمر مثل كل كائن نيلى بدون تحيز لجنسية أو دين، مما أدى بلا مراوغة إلى أن تشرب أراضى الأمراء وعلية القوم حتى تشبع، بينما زراعات الملاك الأقل حظوة تروى جفافًا (بلا ماء).

وبما أن النيل بقى منخفضًا جدا هذه السنة وفيضانه متأخر، فإن القليل من الماء الذى كان من الممكن للأراضى أن تتمتع به وجد محجوزًا بشح فى الترع التى كانت تتصرف فيها المهدية، وسأقول تقريبًا كأكبر مقدم عرض وآخر مزايد.

ها هى نقطة كلها إدارة داخلية تمامًا ومتصلة بشدة بالمسألة الكبرى للسياسة الدولية كلية القدرة فى باريس: "دفع أقساط فوائد الأرباح وارتفاع القيم السلعية المصرية." حسنًا! ماذا يعمل السادة المفتشون المصيفون أو المهتدون (عائدون لبيوتهم)؟ ها هى القضية بالتفصيل إن أردتم عن أهليتهم، لأنه من الثابت فى هذه الساعة أن سنة الرى غير الكافى حقيقة قد تضع ثلاثة أرباع المزارعين فى عدم إمكانية دفع الرسوم والضرائب.

إن الميزانيات الأفضل إعدادًا قد تكون مشوشة ، وخدمة الدين قد يشاهد مؤجلاً لهذه السنة إلى أيام استحقاق فوائد القروض. لا يطلب شىء من مزارع تعس. إنها القاعدة فى كل مكان حيث يكون الناس رحماء. الأوهام تكون محتومة من كلا الجانبين. من هذه الناحية فإن النظام الجديد لم يحسن شيئًا. أنا أرى بعيونى وأقارن يوميا الشقاء والبؤس الحالى بالبؤس فى عهد إسماعيل.

ومهما قيل عن ذلك فى البورصة لدفع أسعار القطن فلم توجد بعد خسارة حقيقية مسببة، ولكن لم يستلزم أن يطول الموقف أكثر. وبما أننى متأكد من ذلك فى مسألة الضرائب، قد يفوتنى فى مهنتى إذا لم أكن أحدثكم عن إحدى الوقائع الأكثر جسامة عن هذا الفرع الهام من الاقتصاد الضريبى.

فى مصر لا تتسم الميزانيات أبداً بالصحة المطلقة، فمنذ البعث المالى هذه الأدوات هى الأكثر صحة فيما يتعلق بالإيرادات والمصروفات التى يستوجبها أكثر لدائنى البلد للإشراف والمراقبة والمعرفة ، ولكن فيما عدا ذلك النفوذ الإصلاحى لا يرى شيئًا ولم يطلب شيئًا. حب الإنسانية الذى أعرفه لم يجد مكانًا صغيراً فى الجمعية التأسيسية الغامضة التى تدير سياسيا الوضع المالى لمصر.

أستطيع أو أؤكد بلا خوف من أن أكون معارضًا أن السكان النيليين هم حاليًا مستنزفون ومسلوبون بأحد عشر مليون جنيه إسترلينى فى العام. منها ٩ مليون على الأقل تشكل ميزانية جلية أو رسمية للإيرادات المستنزفة بواسطة خدمة الدين والمصروفات الإدارية... إلخ.

إن هذا الإيضاح لا يبدو مفرطًا أو جزافيًا بالنسبة لكم، أنا لا أخشى أى تحقيق وعلاوة على ذلك، أؤكد أن لا شىء يكون أكثر قبولاً للفلاحين يا ليت البحث الرسمى - وهذا يفهم - لا يكون موصلاً لا إلى ريفرز ويلسون ولا إلى رياض.

إسماعيل ومفتشه المعزول أتعبا مصر فى سنة واحدة بأربعة وعشرين مليون جنيه إسترلينى! كل المنتجات الزراعية ذهبت فى ذلك، وبقى الفلاحون كما فى عصر الفراعنة : خبز جاف وبصلة وعيون للبكاء. إنها حكاية الأمس. من الحقيقى أنه عصر أعياد المالية الخليعة التى كان يشارك فيها صفوة التهريب هذه، التى كان منها يوتانى باى الذى كان يستطيع أن يطالب بسبعة أثمان (٧/٨) من القيمة الكلية.

لا تسألونى أين ذهب فائض الميزانية السنوى، فلن أقول لكم ذلك هنا، ولكنى أستطيع أن أعرفكم كيف جمع: تحت كل الأشكال، تحت كل المسميات، بالخوف وبالعصا وبالسجن . ولنقم الآن قليلاً بعمل الوعاء الضريبى لهذه الأحد عشر مليون جنيه إسترلينى، موزعين على خمسة ملايين على الأكثر من السكان، يكون ٥/٢١ جنيه لكل رأس. بمعدل ٥٥ فرنكًا لكل رأس.

الآن لو فكرنا أن السكان الزراعيين المختصين بالعمل لا يتجاوزون ١٨٠٠٠٠٠ نسمة وأن ملاك الأراضى يبلغون بالكاد ٥٠٠٠٠ سوف ندرك التباين والاختلاف الشاسع الموجود بين نصاب الضريبة وأجر العمل النهائى. ولكن من الذى أخذ على كاهله عبء هذه القضية ولو للحظة، هذه القضية الأكثر حيوية من بين القضايا؟ قارنوا الأرقام التى سبقت مع رسالة من رسائلى الأخيرة التى تعرض المنتجات الزراعية ومنتجات الفلاح، وسترون أن الفلاح النيلى مازال يحتل اليوم الوسط المناسب بين رقيق موسكو السابق والدابة المخصصة للركوب.

حسنًا. هذه هى حالة الرجال الأذكياء الذين يديرون الحزب الوطنى أصحاب العرائض التى أبلغتكم بمحتواها.

وبطلب مجلس المفوضين وقبل كل شىء المساواة أمام الإصلاح القضائى، لم يصيغوا أى ادعاء مغالى فيه، لم يكن لديهم صيغة حكومية جمهورية أو أخرى، ولم يريدوا أن يسبقوا عصرهم كما فعل ذلك إسماعيل بتبديد موارد البلد بالموافقة الضمنية المقدرة للقوى، الهدف منها كان أن يرى سقوط الإنسان.

لم يعد لديهم ذهب ليقدموه لبعض القناصلة ليشتروا تعاونهم أو سكوتهم.

ما يرعبهم هو أن يسيروا مع الزمن، أن يعملوا على أن يدفع لهم كل ما كان فى مصر- بما فيها المستعمرات - نصيب عادل من الضرائب والرسوم بقدر الإمكان. الوظائف العامة المشغولة بواسطة الأفراد الذين لم يأتوا إلى البلد لكى يغتنوا فيها ويرسلوا إلى أوروبا بسخاء. الإدارة المفروضة على الخديو الشاب.

لا فرنسا ولا الولايات المتحدة ولا أى بلد متحضر قدم نسبة إحصائية للضرائب شبيهة بتلك الخاصة بمصر. هذه النسبة ضخمة جدًا ومدمرة؛ خصوصًا عندما نعتبر أن ثلاثة أرباع هذه الميزانية الضخمة تغادر البلد بتركها كل سنة فقيرة بالقدر نفسه.

رسالة رقم (٥٨)

القاهرة فى ٥ أغسطس ١٨٨١

يُعتقد بلا شك فى أوروبا أن النفوذ الفرنسى أو الإنجليزى هو شىء ما ظاهر للعيان وملموس على ضفاف النيل، مع أنه لا شىء من ذلك، فإن مسافراً ذكيًا وخبيراً فى لغات البحر المتوسط ويعرف اللغة الإنجليزية يستطيع أن يعيش عدة سنوات فى القاهرة أو فى الإسكندرية بدون أن يتبين أنه ليس هناك أى نفوذ غير ذلك النابع من السلطة المحلية مسيطراً أو موجوداً فى البلد.

اللغة النيلية هى اللغة العربية المتحدثة بواسطة خمسة ملايين فرد من أهل البلد، بعد ذلك تأتى اللغة الإيطالية فى المدن، ثم اللغة اليونانية أما اللغة الفرنسية فهى تعادل – هنا وهناك – هاتين اللغتين الأخيرتين ولتحاشى ارتكاب أى خطأ ربما قد يكون من الأفضل القول إن للثلاث اللغات تكون منتشرة أيضاً فى مصر، مع هذا الاختلاف إن اليونانيين هم أفضل اللغويين عن اللاتين ويحوزون عمومًا اللغة الفرنسية واللغة الإيطالية. كثيراً من السكان الأهليين يعرفون هاتين اللغتين، كل الناس فى المستوطنات يعبرون ويتفاهمون كثيراً أو قليلاً باللغة العربية، ولكن لا أحد يرهق نفسه بتعلم اللغة اليونانية التى ليس لها إلا فائدة واحدة نسبية على ضفاف النيل.

أما بخصوص اللغة الإنجليزية فهى خاصة لرعايا هذه الأمة. فالكل مجبرون على أن يتحدثوا قليلاً اللغة العربية والإيطالية والفرنسية وبدون هذه اللغات قد تصبح الحياة الاجتماعية والتجارية صعبة. فلا أحد يستطيع أن يعيش فى مصر وهو لا يعرف إلا الإنجليزية واليونانية، ما عدا فى الداخل فنستطيع أن نستغنى عن العربية عند اللزوم وفى كل مكان وبوفرة عن "الروميكيا" ولكن ليس إطلاقًا الاستغناء عن الإيطالية والفرنسية، والجنس البحرى الذى يعيش حول القبطانات والميناء يجب أن يعرف الإنجليزية.

ومن اللغة ومن إيقاعاتها تتولد الألفة الموحية بالود للشعوب، إننا نحب الذى نفهمه ونقرأه والذى يوسع تاريخه دائرة الفعل. إن الأفكار المتسامحة والنبيلة التى يخرج منها

تحرير الشعوب هى تلك التى تبحث عنها قبل كل شىء الأمم الآخذة فى سبيل التجدد، قبل كل شىء إننا نحب بشغف ذلك الذى يفتن ويقنع القلب ونرتبط به، إن الروح تريد النغمات التى تجذب ذلك وتثبته حسب استعدادات المجتمعات.

ها هو السبب فى أن ذكريات الاحتلال الفرنسى فى مصر رغم مدته القصيرة لم تمنع على ضفاف النيل، وتوجد هناك فى كل مكان، حتى فى الإدارة وديوان الوزراء فى صالون جلسة استماع نائب الملك.

إذاً النفوذ الفرنسى بواسطة الأمر وبواسطة الروح الفرنسية خارج كل عمل سياسى أو دبلوماسى هو الأول والأكثر قوة فى مصر.

نستطيع أن نعلن عن عجز أى أحد يعرف جيداً البلد وسكانه مدة طويلة فى الداخل وفى المدن فى أن يبين أو يثبت العكس.

إذاً من وجهة النظر الأساسية، يكون التأثير الإنجليزى أقل من أى تأثير على الفعل الأخلاقى الممارس بالاحتكاك اليومى للاسم. مسموح إذاً أن أقول وقد قمت به بأكثر حرية إن لدى خبرة جيدة عن الرجال والأشياء فى البلد، وإن العنصر الفرنسى كان فى مصر هو العنصر الجذاب والطبيعى بامتياز، ليس للإيطالى أن يضع قدمه فى الأرض فهو مختلط مع العنصر الفرنسى ولكنه لا يعتمد لا اجتماعيا ولا سياسياً وليس له تأثير أصلى. أما بالنسبة لليونانيين فهم يعيشون جانباً كما يفعل القادر المتطفل على شجرة مليئة بالنباتات ويقوم بتدميرها وتحطيمها. لا توجد صلة بينهم وبين المستعمرات الأخرى. تشبثهم بالرأى وأنانيتهم تتماشى مع الطريقة التى يعيش بها اليهود.

يأتى السوريون الأغنياء والعاملون الذين يتجمعون فى نواة أوروبية لا يستعيرون منها إلا العادات الاجتماعية والخارجية. إنه عنصر وراثى لا تنقصه القوة وحيث لا نستطيع معرفة اللون لأن الذين كونوا هذا ولدوا دافعى الجزية بمعنى أنهم خاضعون للعثمانيين، وهم ليسوا - مع ذلك - مكسباً مفيداً للفلاحين الذين استُغلوا حتى الدم عن طريق الربا المشترك مع اليهود واليونانيين، ولكن كجذب سياسى، وبالرغم من لغتهم العربية، والسوريون هم فرنسيون بالتعليم حصلوا عليه عند "اللعازريين" (كهنة من جمعية فنسان دى بول) أو عند الرهبان حيث تغطى مدارسهم سوريا وضفاف النيل.

وأخيراً العنصر الفرنسي يكون فى المقدمة فى التأثير الأخلاقى والثالث فى الرقم.

ما هو إذاً التأثير الإنجليزى من وجهة النظر نفسها، هل هو سياسى فقط؟

لا شىء . كلمة بدون جذور ولا أصل! آلات متحركة ذاتيًا وتغذية مائية ليست تلك التى تنتمى إلى السادة "إيستون وسى"؟ أشخاص يشترون القطن والمواد الغذائية، وموردون للسلع التى ينتجها اليوم أكثر أو أقل سوءًا، كما فى إنجلترا والبلاد الأوروبية الأخرى. تجار جشعون ومستهلكون للمشروبات الروحية، مستعمرة ميكروسكوبية تعتزل جانبًا يعيشون فى وسطها كالكلاب والقطط، هذا بالنسبة للعنصر البريطانى الذى يتصرف أخلاقيا فى الداخل بين البحر الأحمر والبحر المتوسط. أما فى الخارج أى عندما تبدأ المياه، العديد من السفن الإنجليزية تأتى محملة بالشحنات المشتراة والمصدرة عن طريق التجارة المصرية التى تعتبر أكثر يونانية، وسورية، ونمساوية، وإيطالية، وفرنسية... إلخ. ما أكتبه هنا يتعذر رده. هل يجب عد المنازل الإنجليزية؟ لا فائدة، ستكون قليلة جداً أو بسيطة جداً بالنسبة لمشجعى حكومة الملكة فيكتوريا.

مع ذلك يجب وضع ملاحظة على تأثير هذه المستعمرة الصغيرة. هذه الملاحظة جيدة وهذا أفضل مما نحن عليه فى مصر، حيث فساد المجتمعات الأجنبية تعدى كل تخيل مبدع يمكن أن يخلق.

ما من إنجليزى شارك لا عن قرب ولا عن بعد فى عمليات المزيِّفين الذين يمارسون صناعتهم الدنيئة من "جنيف" إلى الشرق منذ أكثر من عشرين عامًا، وهناك الكثير لنقوله! لكن فى مصر ما من شخص وقف عند هذه التفاصيل، هذه هى التفاصيل، هذه هى قائمة التأثير الأخلاقى الذى مارسته الجنسيات الأجنبية على ضفاف النيل.

لنسرد الآن القائمة السياسية، هى مقبولة ولن أرجع إلى ما سبق والذى نسميه اليوم بالتأثير السياسى فى مصر، لا يبدأ تاريخه حقيقة إلا مع الاضطراب المالى الذى تسبب فيه إسماعيل باشا.

أساسًا كانت إنجلترا لا تريد أن تخضع سياستها لمتطلبات بعض عشائر المرابين الجشعين الذين ينتشرون أيضًا على ضفاف نهر التايمز كما على ضفاف نهر السين والنيل، لكن "مامون بيكونسفيلد" الذى يملك الذهبية فى يده جعل السيد "جوشن"

يسرع لعمل ما تدعيه من إدانة حكومة الملكة فى باريس تحت غطاء عملائه حيث هو الأول فى المضاربة المجهزة. هكذا لعبت فرنسا والحكومات الأخرى؛ إنجلترا بحجة الترتيبات المالية الخاصة : الإنجليزية والفرنسية والأوروبية، حاولت أن تنشئ وتنجح فى إنشاء حكومة الوصاية على مصر بقدر من النجاح.

دخلت السكك الحديدية والبريد والجمارك والميناء إلى الإسكندرية، وحصة من الإدارة المالية فى أيدى إنجلترا وكان للسيد "ريفرز ويلسون" الإدارى الحزين كل السلطة؛ فقد سوى وشرع القوانين بتوقيعه الذى يشبه مخلب الفهد ولم ينس نفسه. كان نوبار هو المحور "المصرى المستعار" الذى تدور حوله الكوميديا والذى بواسطته كانوا يذرون الرماد فى العيون، إذاً فعندما يدار بلد صغير تعداده خمسة ملايين من السكان عن طريق موظفين ذوى جنسية وحيدة وقوية وهناك البعض الذى دُعى لهذه الوظائف بالتدليس، ومن المسموح القول - والسماع عن طريق الصحافة - إن التأثير السياسى لهذه الأمة يسيطر عليها وهو شىء خادع وغير صحيح فى الواقع فقد حل محلهم موظفون ذوو أصول مختلفة؛ السيد "كولفن"، والسيد "هولتمر" المسئول الأعلى عن الوظائف، والسيد "بلومفيلد"، الضباط الذين يحرسون الشواطئ، والسيد "مازوريه" الرئيس المسئول عن الديون، السيد "جيرالد"، "فيتزجيرالد"... إلخ يقعون على هامش الميزانية النيلية بدون أدنى ارتباط بالبلد وهذا التأثير السياسى الذى قام بعمل ضجة كبيرة لا يوجد إلا فى الحالة الخفية عن طريق العمل الأكثر أو الأقل وضوحًا بأفعال الدبلوماسية الإنجليزية.

لا فائدة من الإنكار، الموقف السياسى الدبلوماسى الذى حدث فى مصر عن طريق المكائد البارعة للسيد "دزرائيلى" والنهج المعتاد للجمهورية الفرنسية لا يكونان فى صالح إنجلترا. منذ فترة طويلة ونائب الملك طفل مُوجّه بواسطة السيد رياض سيكون خاضعًا لسيطرة السيد "ماليت" والموقف سيبقى كما هو؛ والسبب بسيط وهو أن المصالح المالية مسيطرة فى باريس. تشجع السياسة الإنجليزية، فى الظاهر، هذا العنصر غير الجديد بأن يوصى به فى ذاته، حيث إن لندن يمكن أن تطالب بحصة كبيرة، وعلى الشّبَاع أن يتركوا الماء يسيل بدون الانشغال بالصعوبات السياسية التى يرتبها هذا الوضع الراهن الذى يرتدى ثياب الاتفاق الودى.

باختصار، تسيطر فرنسا على مصر من وجهة نظر ذكية وبالتأثير الأخلاقى الجذاب أيضًا، لكن سياستها مليئة بالخطر على مصر. أما إنجلترا التى لم يكن لديها زمام الأمر لكن بقليل من الشك وكثير من الممارسة وضعت- كما رأينا - فى أيديها الشرايين الكبيرة للميزانية. من هنا نجد أن التأثير البريطانى الصناعى واضح، فهذا التأثير لا يمسك إلا بخيط واحد؛ ذلك الذى يتعلق به حوالى ١٢ من الموظفين الكبار تستخدمهم فى تحريضها بواسطة جماعة من الصناع الماليين. مع ذلك لا يجب أن ننخدع بذلك لأن هذه الدستة من الموظفين الاثنى عشر هم الأمة البريطانية بأجمعها!

السيد "وايلد" فرنسى - مصرى، عاد إلى مصر حامل سلطات كاملة لمجموعة من الماليين الأوروبيين يرغبون فى وضع كابل تلغرافى بين الإسكندرية وباريس، عبر تونس وبون فالأموال مرصودة، وقد يكون رياض على وشك قبول الامتياز المطلوب.

ويرى العامة هذا الإبداع بسرور. مع ذلك فهو يخشى أن تنتهى بالإخفاق للشركة الجديدة بوقوعها فى أيدى الشركة الشرقية للتلغراف "إيستيرن تلجراف كامبانى".

رسالة رقم (٥٩)

الإسكندرية فى ١٧ أغسطس ١٨٨١

مسألة احتلال تونس بواسطة قوات فرنسية فى صفاقس أججت شعور الإنجليز بخصوص مصر. إنها حمى معلقة انتشرت من ضفاف نهر التايمز بإنجلترا إلى شواطئ نهر الجانج فى الهند.

السيد إدوارد ديسى الناشر الدائم لجريدة "الأبزرفر" - وهو الذى دافع كثيراً فى المسابقات المرتجلة حيث يحارب بمفرده - ألف كتاباً جديداً منذ فترة وجيزة بعنوان "إنجلترا ومصر" خصيصاً لتوطيد الحقوق الأكيدة لبريطانيا العظمى فى البلد النيلى وهذا ليس بجديد ولا مبتكر.

من هذا الكتيب لم أقرأ بعد إلا التقرير الذى صاغه المؤلف نفسه. أنا أفترض - فى جريدته الخاصة - أنه صحيح جداً لفهم الهدف من الدراسة ولكن قليل جداً لكى

نفهم منها الحجة. أنا أنتظر (الكتاب) الذى طلبته من لندن. إذًا الأمر يستحق العناء فسوف أرسل لكم عنه بعد فحص دقيق، نقدًا كاملاً بقدر الإمكان.

هنا الأحداث السياسية تبقى سجينة فى أعمال التقوى فى شهر رمضان. الأمور الأكثر جدية والتى يوجد منها على بساط البحث ستكون مؤجلة إلى الأسبوع الذى سيلى أيام العيد. سيكون البلاط (الملك ووزراؤه) إذًا فى القاهرة والقضايا المقرر مناقشتها لم تعد تستوجب تعطيل الوزراء.

يعانى رياض من إكزيما خبيثة تشوهه تمامًا. أولاً يجب أن يفرض عن طـــريق حضوره، ولا شىء لم يعد أكثر تدميرًا للنفوذ المنشـــود من مرض جلدى يستقر فى الوجه.

ومع ذلك، ورغم هذا الحدث الخطير فإن العرائض المذكورة فى آخر رسالة لى قادت الوزراء إلى الإسكندرية حيث العديد من الجلسات العاصفة. أراد توفيق المتواطئ قليلاً مع الجيش أن يرأس هذه الصفوة من الاستثناءات. حق الدولة المناسب يمكن أن يرفض بواسطة رجال السياسة الفرنسيين والإنجليز المقتنعين على ما يبدو بأن شخص الخديو المهيب يجب أن يبقى بعيدًا عن كل إزعاج للسياسة! مما يعنى أنه: "يأيها الأمير ارجع إلى عرائسك وفقاعات الصابون، من الأفضل لك أن تلعب من أن تسود وتحكم". مقدمو العرائض العسكريون غير راضين عن الحكم الانفعالى ضد الثمانى من جنود المدفعيـــة الذين حدثتكـم عنهم. كانوا متعجلين جـدا مما وجب طـــرد وزير الحرب. إنه معالى داود باشا الكولونيل القديم حفيد ابن شقيق محمد على الذى حل محله صاحب المقام العائد قريبًا من النفى. هو شقيق زوجة توفيق، وفى الوقت نفسه شقيق معالى منصور باشا، وزير قديم وهو نفسه شقيق زوجة الخديو. هذه الأسرة تنتمى إلى الحزب الوطنى المصرى.

إن التغيير لا يعنى شيئًا فى حد ذاته، ولكن قد لا يكون من الحكمة ألا نتأمله هكذا؛ لأن موقف مصر من وجهـــة نظر سيـاستها الداخليـة هو حرج فعلاً، أنا أراه هكذا منذ المحادثات الأخيرة التى أجريتها مع الشخصيات المهمـــة للبلد. فهمونى جـــيدًا..

إن السكان المتصلين بالجيش - أى السكان بالإجماع - لم يعودوا يريدون رياض ولا إدارة موجهة برغبة السيد "ماليت" الموظف السياسى لإنجلترا، فهم يجدون أنه من الذل والهوان أن يكون على رأسهم نائب ملك عاجز وصغير جدا مسنود بوزارة تدعمها سياسة إنجليزية أجنبية.

وهذا الشعور العام مطحون بلا رحمة، تارة عن طريق نظام وتارة عن طريق آخر، موضوع وعود مكررة وإصلاحات جذرية تملص منها كل واحد ملفوف اليوم فى لفافات رقابة دولية. حيث موضوعها يبدو كأنما يأخذ دائمًا دون أن يعطى شيئًا. يطمح الشعب النيلى إلى أن يحكم نفسه بنفسه فهو يعرف وسائله وقواه الإنتاجية، فهو يعرف أن الأرقام من أجل الأرقام والميزانيات من أجل الميزانيات، ويحتل إحدى المكانات الأولى من بين الأمم الزراعية : لماذا إذن يستمر فى قبول عبودية النظام المالى الأنانى الذى يضع وادى النيل تحت عصا السيد رياض والسيد كولفن والسيد دى بلينيير ، وهم أنفسهم يسيرون تحت نصح الموظف البريطانى.

سنتوجه إلى القسطنطينية، هكذا كان يقول رئيس ناد سرى منذ أيام قليلة. سيقيم السلطانُ العدلَ لشعب يدفع بانتظام ضرائب مجحفة، وإذا لم يستطع توفيق أن يؤدى واجبات مهمته الرفيعة فسوف نطلب الأمير حليم الذى هو خديوينا الشرعى بلا منازع.

- أرجوكم أن تذكروا أنها ليست مجرد كلمات، إنه تعبير ممل بديل لأكثر رحابة الصدر مرونة.

الشعب يتعلم كل يوم، وهو يشاهد ما يُخفى عنه. فهو لا يريد أن يكون مباعًا مع أرضه للأجانب. فالشركات التى تكونت هنا مدعية أنها ستبنى كبارى وتحفر ترعًا وقنوات لها هدف آخر، وهو شراء أملاك زراعية. الشركة الإنجليزية لاند مورتاج كومبنى (صندوق الرهن العقارى) لم تكن إلا حجة ، فموظفوها يمارسون الإدارة ويعملون ما فى وسعهم لكى يتملكوا بسعر زهيد أراضى مازالت بائرة ولكن من الدرجة الأولى. إنهم لا يهملون شيئًا لكى يعموا السلطات الإقليمية. الفلاحون مكبلو الأيدى والألسنة، لا يعرفون إلا أن يشتكوا لكى يعارضوا هذا النهب العلنى لمنازلهم الخاصة. هل هذه

خطة دولية؟ إن هذا النهب الربوى بواسطة الأخساء الدخلاء الذين يتجرءون على أن يعملوا من مصر ما لا يعرفون أن يحلموا به نفسه فى أوروبا! هل سيكون مسموحًا لبعض الوزراء المجردين من الوطنية أن يبيعوا بلدهم للأجانب بدون استشارة أمة أهلية بعملها وبإرادتها الطيبة تتحمل أعباء الدولة الضخمة وتقبل أن تكون مجبرة بأكثر قوة فى العالم أجمع مقارنة ومعلومة سنويًا كأقل مبلغ ٢٥٠٠٠٠٠٠ فرنك!

من جهة أخرى فإن الجيش المصرى يبدو أنه قد فوض نفسه لتنفيذ الإصلاحات الموعودة من قبل أوروبا التى لم يجب عليها أن تركز فى الحصول على دفع أقساط فوائد الدين باستنزاف الشعب. وها هم موظفون دبلوماسيون أوروبيون يتدخلون فى تشكيل مجلس الوزراء نفسه فى وجه البلد، فى حين أن خديو مصر ملىء بشعور طبيعى يرغب فى أن يواجه مناقشات مجلس الوزراء. توفيق يعرف أفضل من أى أحد منكم أن الإدارة الحالية مكروهة من الجمهور : فهو يعرف كره رياض ضد الحزب الوطنى، وهو على علم بالود الإنجليزى لرئيس وزراء مخلص تمامًا للبريطانيين، أخيرًا فهو نائب ملك مصر. لا فائدة من ذلك، مندوب الدائنين يأمر والأمة النيلية يجب عليها أن تدفع وتطيع وتسكت. البرنامج يتطلب ذلك.

أليس كذلك؟ هناك فى الحقيقة سياسة مثالية وكريمة من جهة المجالس الدستورية والتحررية عندهم. إن إنجلترا فى الحقيقة هى ممثلة نيابيًا بواسطة دبلوماسى ذى فرصة تامة، مجرد مساعد قاضى قنصل، السيد كوكسون لا يستطيع أن يؤدى عمله بشكل جيد كما سيقولون. لا شك فى ذلك ولكن المبدأ هنا تتراكم الأخطاء والروح السيئة، وأخشى حقًا ألا يبحثوا عن حجة ليجعلوا الشعب المصرى يتأسف أنه أولى كثيرًا من الثقة للوعود البراقة لمندوبى حمايته. إن البلد يحصد فى هذه الساعة العواصف المزروعة بواسطة السادة : دزرائيلى ونوبار وفيفيان ووادينجتون وريفرز ويلسون وجوشن. هذه الكوارث ناجحة بما فيه الكفاية. كان نوبار يطرح ويجند رياض الذى أشاد به التفتيش والمضاربون للمالية. فيما بعد، مفتون بنفسه، يتحالف بدوره مع السادة : كولفن و دى بلينيير وماليت ضد فرنسا، سياسة فى صالح المضاربين وجماعات المضاربين فى البورصة. أخيرًا يستقصى نوبار كما كان يستحق الباقين ذلك أيضًا.

ومصر هى التى تدفع مصاريف هذه المسرحيات المقززة مع إبقاء الكومبارس المستعبد! درس جميل مقدم للأمم الشريفة التى تبحث عن التحرر!

فلنتكلم قليلاً عن الرق الأسود لكى نريح أنفسنا منه.

لم تكن تجارة الرقيق أكثر ازدهارا من اليوم، هل هذا نتيجة الاهتمام البريطانى وأوامر توفيق؟ أم هل هو تأثير تعيين ضباط بارعين (سالا باشا) وتورنسن أفندى مفوضين لإخماد الكارثة والذين هم حالياً فى أوروبا للتصييف؟ وانتظاراً حتى تحل هذه المسائل ها هى بعض التفاصيل المطابقة أوصيت بها الذين يحبون البشر الغربيين.

فمنذ أن انفتحت السودان على التجارة اكتسبت تجارة العبيد نسبًا غير متوقعة، التجار الأوروبيون أياديهم مليئة بالنقود ذات العيار المنخفض وهم قلقون بمبادلتها بالمنتجات الفنية للبلد. وبما أن الدواب تكون غالية أو أحيانًا تنعدم فإن هؤلاء الجالبون الشرفاء يهتمون مع الجالبين بمضاربات شنيعة عن طريقهم تكون البضائع محمولة على ظهور رجال. إجراء مفصل للغاية بواسطة الاقتصاديات المنفذة وباستعمال بغال وجمال. آلاف العبيد المشترون على الحساب الاجتماعى، حيث يموت الثلث على الأقل، يعطون لهؤلاء التجار الأذكياء فائدة أكثر عشر مرات من تلك المشتقة من منتجات البلد، يبيعونهم مثل الخبز بين سواكن وجدة حيث يقودهم تجار الدرجة الثانية إلى مدينة بالعراق وإلى إيران وشمال الهند، يذهب هؤلاء التعساء بالآلاف، تمامًا كالماشية، والمستوردون الأجانب يحققون الثراء.

وأسوأ حالاً من الأمور الشنيعة هذه أن رئيس المكتب المصرى نفسه معين لكى يمنع تلك التجارة التعسة : إنه على رضا بك المهندس المعمارى القديم بالقاهرة، والمفوض بواسطة رياض لكى يحمى بالكاد وعلانية تجار العبيد الذين جلدهم وأصلهم لا يكون دائمًا أفريقيًا.

إن تجارة المرأة والعاج هى أساسًا متحضرة. النقود المزيفة تحرق أيدى أولئك الذين يستوردونهم. وبدون العبيد فكل الخير المنتظر من هؤلاء الرواد للتقدم لا يمكن أن يتحقق.

وأخيراً فإن وكالة إنجليزية فى سواكن. السيدان ويلد وسى ممثلان لشركة كبيرة للملاحة بالتجار. (بريتيش إنديا) رأت محلاتها مدمرة رأسًا على عقب بواسطة أوامر على رضا بك بعد أن رأت نفسها معادية لمحميين من الموظف الذى يفهم واجباته لواحدة من أكبر الطرق. ولكن تجار العبيد كرماء جداً. ينبغى الاعتراف بأن المجلوبين يستعملون فى قليل جداً من الأمور عندما نرسل لكى نجعلهم ينُفذون لأُناس يرغبون فقط أن يكسبوا بسرعة الكثير من النقود.

إن إدارتنا للوظائف التى على اتفاق مع السيد كايار مدير الجمارك الذى يملك فى اختصاصاته الغامضة خدمة الملاحة بالبخار (الخديوية سابقًا) أتى لدفع ثمن الآلات الجديدة (الشرقية) سفينة قديمة ذات بناء إنجليزى. وبما أنها نقود ملقاة فى الهواء، لا نستطيع أن نقول شيئًا عن هذا البرهان الذى لا يضيف شيئًا كبيراً بسبب وجود مؤسسة مدارة بشكل سيئ مهما نفعل فهى تتأرجح سنوياً عن طريق عجز خفى بكلام مبهم فى إمساك الدفاتر.

إنه السيد كايار المدعوم بواسطة السيد (ماليت) والتفتيش الذى يصر على كونه وزير البحرية البريطانية لكى يملك السلطة على الأسطول حيث قد تستفيد صناعته الخاصة بشكل أفضل. فهذه المراكب تبحر فى البحر الأحمر مع احتكار حقيقى مُضر للشركات الخاصة. ولكى أعطيكم فكرة عن القيمة المالية لتجديدات السيد كايار فإن السفينة (الشرقية) التى تسلمت آلات جديدة منذ قليل قيمتها ٢٦٥٠٠٠ ولا تساوى بكل ما فيها ٣٠٠٠٠٠ على الأكثر.

توقف النيل وشح فى القاهرة.

لقد أدى افتتاح الخليج إلى زيادة قادمة. فهو هنا ظاهرة يعزونها للرياح. ومع ذلك فإن الزراعيين يخشون أن يصل الماء متأخرا جداً، مثل الإصلاحات الموعودة..آه! إذا كان النيل منخفضًا فإن قسط الدين قد يعانى من ذلك أيضًا! خطأ. فالعصا والتفتيش هنا. ميزانية تصنع بدون مساعدة المكلفين لا تكون شيئًا مقدساً! من سيلمس السفينة المقدسة؟ سوف نرى.

رسالة رقم (٦٠)

الإسكندرية فى ٣١ أغسطس ١٨٨١

نظراً للظروف التى اجتهدت الصحافة والسياسة الإنجليزية فى جعلها خطيرة - وهى لم تكن فى الحقيقة كذلك - أبعث إليكم بعض كلمات على وجه السرعة عن طريق المراكب الفرنسية، فهى تكملة لرسالتى المكتوبة من القاهرة.

لم يسقط وزير الأشغال العامة على باشا مبارك خصم السيد دى بلينيير المفتش سريع الغضب، والذى يستيقظ متأخراً لكى يطيح اليوم بالذى كان يعشقه أمس، بل كان يطلب سقوط كل الوزارة! وربما بهذا الثمن قد يهدأ بالكاد غضبه الشديد! فكل واحد يتساءل عن أى حق يحوزه مراقب كهذا لحكومة البلد التى تدفع له مرتبات أحد الأمراء. جوبيتر كان يحمى أولئك الذين كان يريد أن نفقدهم. يبدو لى أن نهاية مهمة السيد دى بلينيير تقترب، السلطة المنبثقة عن الانتخابات الجديدة سوف تجد بسهولة خليفة أقل اضطرابا وأكثر جدارة. إن مصر تحتاج للراحة فهى لم تعد تريد قمبيزات وإسكندر وروماب ويونانيين للمالية وأقساط الفوائد. ألم يكن هذا ممكناً؟ ألم توجد إذاً عدالة وسلام تضع الدبلوماسية يدها عليهما؟

ولتعقيد الأمور، يقال فى القصر إن السيد سينكيو بك يدعم ويؤيد الادعاءات الغربية للمفتش، قيل لى ذلك فى القاهرة وأعادوا علىَّ ذلك هذا الصباح. مازالت عندى شكوك فى هذا الشأن. مع ذلك فقد أكد رياض - الذى قضى العيد فى وسط عزلة مكدرة - أن تسارع الزائرين هو علامة خطوة تؤكد وزارته وهو يتحدى العاصفة ، فيكفيه أن السيد ماليت كان معه.

يؤكدون هنا أن الخبر الإنجليزى صحيح وهو أن حكومة الملكة سوف تعيد النظام غير المضطرب إلى نصابه، مع الملابس الحمراء وغير الكاملة. وقد تطلب فرنسا عند اللزوم مساعدة رجال محصول القوة، وقد يعارض السيد بسمارك والسلطات هذا التدبير.

معاليه، الذى هو عـاهل البلد النيـلى كان يطلب الخيـار وقواته الخاصـة، وألمانيا - بناء على الشـائعات التى أظهرها دائمًا - كـانت قد صـرحت أن التدخـل الأنجلو فرنسى يبدو لها فى غير محله ووقته ، وهو خطير. الشىء الوحيد الجدير بالقبول قد يكون ذلك الخاص بالسلطات، فى حـالة أن الضرورة أقل وضـوحـا، لإنزال قد يتطلب إجراءات قمعية.

السيد بسمارك يفكر جيداً إذا كان التحول حقيقيا. فقد أثارت الجيوش الأجنبية الشعب وقادته إلى نتائج غاضبة حيث لا أحد يريد القيام بتنفيذ اللعبة الأنانية للسادة الإنجليز. فوق ذلك الجيش الوطنى وبدلاً من أن يدفع بعيداً احتجاجاته، أجلها إلى وقت أفضل. ما من دافع إذاً للاهتمام بإنجلترا. إن الأوراق الإنجليزية لأوروبا وبلاد المشرق تبالغ وتستغل أحداث تونس والجزائر كأفضل ما يكون. أعرف أن أذُن توفيق أُجهدت فى كل زيارة تقوم بها شخصية رسمية ليست مسلمة.

نائب الملك الشاب متصل بعدم خبرته - هل أستطيع القول بعدم قدرته؟ - تعصب خارج الموسم ومهمل فى مصر منذ عهد محمد على. إذاً عندما تعرض على هذا الأمير الأمور الجزائرية والتونسية تحت شكل مزوَّر وضـار للمصـالح الفرنسية، فإن إنجلترا وأعداء الجمهورية يعتقدون أنهم قد سبقوا أقرانهم. إذا أرادت فرنسا أن تحتفظ بنفوذها فى مصر فيجب أن تعارض كل تدخل أجنبى منافق فى الشئون السياسية لهذا البلد، مع السعى فى الوقت نفسه لأخذ مبادرة الإجراءات الأكثر خصوصية وأن تمنح الشعوب النيلية الإصلاحات والميزات التى يطلبونها .

السيد ماليت منتظر فى اليوم الأول.

تأمل المستعمرات أن يفحص المجلس الجديد عن قرب حادث "رانج" ويقيم التحقيق المطلوب، فمنذ رحيل هذا الوكيل الدبلوماسى ارتبكت الشئون المصرية أكثر، فالموظفون المنتدبون لا يقومون بالعمل جيداً، فليس لديهم لا الوسائل ولا الوقت للعمل الجيد، إنجلترا تعلم هذا وانتهزت فرصة استدعاء البارون ولم تعط ما هو جاد للسيد "كوكسون" الذى قام بدور ذبابة الخنزير.

رسالة رقم (٦١)

الإسكندرية فى ٩ سبتمبر ١٨٨١

إذا كان قد حدث أن وزيراً مقيماً، استدعته حكومته ظلماً وحوكم أمام الشعب بصفة عامة، فهو السيد البارون "دى رانج".

فى الوقت الذى أكتب فيه إليكم، أكد الشعب المصرى حقوقه. احتل الجيش القلعة، وجميع المواقع فى القاهرة. سادت البلد كلمة النظام، وكانت الألايات تعلم، أنه فى نهار اليوم، سوف يخرج النظار مع نائب الملك، أو أن الإصلاحات المطلوبة ربما تُقبل، وحذروا توفيق من أن الأزمة لا يمكن أن تؤجل إلا على حساب هدوء البلد. وقد تضمنت رسائلى عرضاً، منذ وقت طويل، لمطالب ورغبات الشعب. بالأمس، كانت الشروط النهائية مُحددَّة: تغيير النظار، وتأليف مجلس نواب، ومساواة أفراد الشعب أمام الإصلاح القضائى. وأمام هذا الأمر الواضح، كان نائب الملك متردداً، الكل مقتنع بأن مطالب الشعب شرعية. حينئذ سار جيش الطوارئ نحو القلعة، حيث كان "عرابى بك" الشجاع قد استدعى الجيش، المدفعية بأكملها، سلاح الفرسان بأكمله، تجمعهم المصلحة المشتركة فى هذه الحركة الكبيرة للأمة. أنذر الجهاز الدبلوماسى بأن العنصر الأوروبى عليه ألا يخشى شيئاً، وأن كل شىء يجرى فى اتجاه صحيح وبهدوء.

فى الواقع بمجرد أن عرفت مسألة احتلال القلعة، ورغماً عن المعتمد البريطانى المنتدب الذى كان يحاول أن يُعقِّد الأمور، بالتدخل فى شئون الغير بطريقة ميكيافيللية، (أى بالخداع السياسى والانتهازية والوصولية)، تحقق سقوط "رياض"، وتم استدعاء شريف باشا رئيس الحزب الوطنى على وجه السرعة إلى القاهرة؛ لتشكيل الوزارة الجديدة برئاسته، كان ذلك فى سرية تامة. كنت أعلم بالخطة المقترحة، منذ عشرة أيام، ولكن كان علىَّ أن ألتزم بألا أنبس ببنت شفة.

الرعونة السياسية عجلت بالخاتمة التى لم تعد محلاً لأى شك. عندما تدخل القناصل العموميون لمنع الخديو من رئاسة مجلس الوزراء، وقعوا قراراً باستبعاد "رياض". باختصار، هذا الشخص كان على علم بما يهدده: منذ زمن طويل كان يرتب حقيبته، ويبدل أملاكه العقارية مقابل الذهب.

يا له من حدث مبارك! عندما علم الشعب أن له صوتا، استخدمه ليعبِّر عن نفسه. سوف تتخلص مصر من هؤلاء الخونة، نتعشم ذلك، من عائلة "بلوم" باشا ومن عائلة "إيستون" ومن العاملين النهابين، الذين تغذوا على دماء الأمة وأخفوا حقوق الأهالى.

كان الحديث يدور كثيراً عن الاحتلال الأجنبى، واستخدام القوة الغاشمة ضد القانون. هل سنرى الشعوب الأوروبية، الأكثر حرية والأكثر دستورية بالغرب، تمنع أمة عاقلة وعاملة من أن تثور ضد الاستغلال والطغيان؟ الحكومة ممقوتة، ومسنودة من الخارج؟

سوف يكون ذلك كريهًا، ولكن جشع أقطاب المال المهرب، وقوة كوبون الدفع، سوف يكون لها القوة فى إعطاء العالم عرضًا لهذه الفضيحة. وإذا كان الأمر كذلك، حينئذ، فقط حينئذ، قد يكون فى استطاعة الدم أن يُهرق. الساعة الآن الحادية عشرة مساء، والمواقع التى كان يحتلها الجيش، أخلاها، تحت هتافات: يعيش توفيق! وعادت الآلايات إلى ثكناتها تتبعها الموسيقى فى المقدمة والرايات التى ترفرف.

يُقال أيضًا إن الأفكار التحررية الفرنسية ليست هى الأفكار التحررية فى مصر!

هذه ثورة قام بها مصريون، مسلمون سلبوا، ونهبوا، بمنافسات بين المسيحيين واليهود – تحكم شئونهم السياسة الداخلية – بدون أن يضطرب الهدوء الشعبى للحظة واحدة.

يا لها من قراءة جميلة، كما يقول الإنجليز، بالنسبة إلى سالبى الفلاح. ومن أجل هؤلاء الذين يعتقدون أيضًا، فى باريس ولندن، أن المصرى حقير، ولد ليدفع الكوبونات! "عرابى بيه" مواطن عظيم خير من يستحق ما ناله من الوطن النيلى.

رسالة رقم (٦٢)

القاهرة فى ١٨ سبتمبر ١٨٨١

عدت بالأمس من القصر مع أحد القناصل، ليس عمومياً، بل يشغل منصباً ما، يقول: قابلت "شريف باشا" منذ قليل، ثم استطرد: كلاّ، أحد أصدقائه السياسيين، أكد لى أن هذا الموظف يطالب بإعدام الكولونيلات (العقداء) الآخرين، شرط لازم لمباشرة شئونه . سألته، وهل تصدق ذلك؟ أولاً، إنه موضوع "رياض" وكذلك "داود باشا"، وزير الحربية الجديد، تركى عجوز فظ عمم استغلال الفلاح كأنه دابة. الجيش المصرى لا يضم جنوداً، لا من الأجانب، ولا من المماليك ولا من الإنكشارية. إن الجيش تجسيد للفلاح النيلى الذى ترك المحراث ليحمل البندقية مؤقتًا. يتجانس فيه الأصل واللغة وقسمات الوجه، لا تعرف إلى أية محافظة ينتمى هؤلاء الرجال.

طريقة التجنيد جعلت منه جيشًا من المليشيات أكثر منهم جنودا مقيمين. الحركة التى ولدت الآن، حركة طبيعية بقدر ما هى مُفسَّرة. أصدر الخديو وعوداً، وأخذ تعهدات غير مناسبة "لرياض" وأصدقائه. وقد طالب المعنيون تكراراً، وتحريرياً، بالتنفيذ. ولكن كانت لهم أذن من طين وأخرى من عجين. لم يكن يوجد مجلس نواب، ولا أية وسيلة دستورية على ضفاف النيل، لطلب العدالة. كان "رياض" طاغية، هو ونظامه. يجب حينئذ الرجوع إلى البرهان الوحيد للأمم التى يضربها الطاغية.

بوجهة النظر هذه، لا يمكن لأوروبا أن تحكم مضر. "إن قتل "عرابى" وأصدقائه جريمة سياسية لا جدوى منها"؛ فالرجال يختفون، ولكن الأفكار تعيش إلى الأبد. التخلص من فرق أجنبية، حتى التركية، سوف يؤدى بطيب خاطر إلى مذابح وحشية.

الدبلوماسيون الذين قد ينصحون باتخاذ مثل هذا الإجراء، سوف تتلطخ أيديهم بالدماء. الاغتيال المشروع للإخوة "بانديرا" انتسب إلى تحرير إيطاليا والنمسا. سوف تصبح مصر حرة، لن يرتبط اسم شريف باشا أبداً بأية جريمة لأنه شديد الاعتزاز بنفسه.

لقد أعطيتك أحداث هذا اليوم المختلفة بصيغتها الأصلية، بحالتها كما اقتطفتها عند مروري. سوف تعطى إلى قراء "القرن" فكرة منصفة للحالة الراهنة للأفكار بين الأوروبيين. هكذا سوف نفهم أنه من السهل على عميل دبلوماسى قليل التشكك، أو علم خطأ، أن يُفقد ثقة الخارج بالوثائق السياسية لإحدى الأمم.

الشر أسوأ الأمور عندما – وكما نتعشم – تثار ضدها (أى ضد هذه الأمة) أطماع الجشعين من الدائنين المتعصبين، أو اتهامات المتزمتين المنافقين، الذين يتشدقون بالمسيحية، وهم أنفسهم الذين – فى كل خطوة من حياتهم، يخالفون الإنجيل – الحالة من أسهل الحالات، يعقدها فقط هؤلاء الذين لهم مصلحة فى ذلك. ذكرت إنجلترا، والعملاء البريطانيين، والتحكم، ونقابات باريس.

أكد الشعب الآن أن مؤسسات الحماية لا تنال إعجابه؛ لأنها لا تأخذ فى حسابها إدارة الأمة.

كان اختيار توفيق سيئًا وغير موفق، وأكدت السلطات التى أجلسته على العرش النيلى أنها ساذجة بدرجة جهلها بإمكانيات الشعب الفلاح. ربما كانت إنجلترا منطقية دائمًا تنظر إلى بعيد بأنانيتها، ومن أجل أنانيتها تشعر دائمًا بالعواطف التى يعرف القراصنة فى عرض البحر كيف يستفيدون منها.

لا يبدو لى مطلقًا أن نائب الملك واقعى. هو الذى تسبب فى الموقف الحالى، بدون أن تكون لديه القدرة المنطقية لقيادة السفينة التى يريد كل فرد أن يضع ملاحين مريبين على متنها.

إن مهمة السادة: "ديزرائيلى" و "وادينجتون" فيها مجازفة تجاه الشعب المصرى، ويحدث له ما حدث للسنتور نيسوس فى عباءة "ديجانير". باختصار، نحن نعبر أزمة سوف تلقى الضوء على أوروبا، إذا كان عندها الوقت والتؤدة لترى الأمر بوضوح.

قضينا أيامًا بدون وزارة وبدون حكومة. لا فوضى، ولا سرقة، ولا تهديد. سارت الأمور أفضل من ذى قبل، ذلك بالنسبة لطريقة هؤلاء الذين يعاملون المصريين مثل "زنوج بدائيين" وقد تحركت الهيئة القنصلية، ولكن هيهات... حاولت إنجلترا أن تحظى بشعبية، وهى تخفى الدبوس الكبير فى القبعة الرمادية، فى قبعة التشريفة الخاصة

بالسيد "كوكسون". جميع الدبلوماسيين أخذوا على حين غرة، بينما، منذ الإثنين الماضى، أى قبل الحركة بأربعة أيام، كان معروفًا فى أحياء الإسكندرية الشعبية ما كان سيحدث. فإن الصدفة المحضة هى التى قادت المندوب البريطانى إلى القاهرة، مما أتاح له الفرصة لكى يتحرك.

حكومة الملكة الحالية، تحررية، ولكنها إنجليزية قبل كل شىء، وهى أيضًا مناهضة للفرنسيين كما كان "فوكس" وزملاؤه. الجمهورية يداها مبسوطتان فى أفريقيا. تتشبث بعظمة بها قليل من اللحم، ولكن تستغلها بنهم.

نلتمس ذريعة، ندفع السلطان إلى ارتكاب حماقة كبيرة فى مصر، تحت رقابتنا والله كريم. "البيون" سوف يقوم بالباقى. هذا ما قيل فى لندن، وذلك ما جعل السيد "ماليت" يتوجه إلى القسطنطينية. ومع ذلك، ليس هناك أخطر، ومكروه شعبيًا، من إرسال جيوش تركية هنا. فإن البلية التى تسفر عن ذلك تضاهى الطامة التى تنجم عن وجود جنود مسيحيين. وقد يتحملون تكاليفها؟ وليست وزارة الخزانة. قد لا يسمح بذلك الدائنون. سوف يقع العبء بالكرباج على ظهر الشعب. هذا لا إنسانية فيه، ولكن من الناحية المالية والسياسية، سنشاهده عن كثب!

إننى معجب حقا بالإنجليز. يعتبر كل ما لم يصدر عنهم أو من جنسهم، لا يساوى شيئًا. إنهم لا يطلقون علينا لفظ الكلاب صراحة، مثل الأتراك واليونانيين، ولكنهم يعتقدونه ويبرهنون عليه بوسائلهم.

من النادر، أن يتفضل إنجليزى بقراءة صحيفة فرنسية، ماذا يستطيع هؤلاء الكتاب النافهون والمتقلبون؟ بوسع الصحافة العالمية قاطبة أن تمدح ما يبدو لها حسنًا. لا شىء يتقدم، لا شىء يصلح. إنها مجلة "التايمز" ونظريتها سلطة بريطانيا إلى الأبد. كذلك نستمع هنا فى جميع الأماكن التى يرتادها رعايا الملكة: الآن أزف الوقت! البلد لنا.. حسنًا! ذلك ما تبقى لنا لكى نراه.

ينبغى علينا أن نقول، هؤلاء السياسيون، وعلماء البورصة، والمنافسون اليونانيون والمغتصبون، على ما أعتقد سوف يصابون بخيبة أمل، إذا كان البلد فى حالة بؤس،

مثل قبرص وبلاد كثيرة أخرى إذا حكمتها إنجلترا، ولكن هذه الآمال سوف تهوى فى النيل، ثم تذهب إلى عرضه. فتح "عرابى" وأصدقاؤه أفق الحرية، وبلدهم سوف يتحرر.

علمت أن شريف باشا، تفاهم أخيراً هو والجيش. يُقال إن البكوات وجيوشهم سوف يتخذون إحدى الحاميات خارج العاصمة، وسوف يعود الانضباط لكل شىء. الوزارة قيد التشكيل: إذا توفر لدىَّ الوقت، سوف أوافيكم بالموضوع.

من الممكن أن يكون "شريف باشا" هو رجل الساعة. هو رجل شريف وليس إنجليزيا. فقط، هو دائمًا متجاوب، ولا ينقاد لأحد، تنقصه العبقرية والمبادرة. ولا يطالب إلا بشىء واحد: وهو أن يكون وزيرًا مصريًا وليس تركيًا.

ولاؤه العظيم، وأخلاقه الرفيعة تجعل منه - كما كان دائمًا - محط احترام الجميع. إنه جدير بأن يذكر دائمًا، تلك هى الكلمات النبيلة التى وجهها "عرابى" يوم الجمعة إلى نائب الملك فى قصره بعابدين "ماذا تريدون هنا؟ يقول توفيق، "عودوا إلى ثكناتكم..." "أُحذِّر: نحن لسنا مملوكين لأحد .. ولسنا عبيداً لكم، نحن الشعب المصرى. لقد طلبنا ولم يستجب أحد لطلبنا، والآن نحن نريد".

لابد أن شريف باشا وزملاءه ينسون الماضى باعتباره نموذجًا، ولكن الحالة ملحة إلى أن يتناولوا الأمر باعتباره درسًا للمستقبل.

رسالة رقم (٦٣)

القاهرة فى ١٩ سبتمبر ١٨٨١

أنا لم أغادر القاهرة. تشكلت الوزارة، بل بدأت فترة الانتقال. هناك رد فعل ضرورى. نتعشم أن يُحقّ الحق والعدل.

كان على "رياض باشا" أن يغادر على وجه السرعة. طالبوا بإجراء تحقيق معه. كان رئيس الوزراء السابق ذا بصيرة، ونحى جانبًا عناده وتصلبه الشخصى،

واستسلم إلى نصائح صديق حميم. لا أعتقد أن حياته سوف تتعرض لأى خطر، بالرغم من الأفكار الحماسية، ولكنه تصرف بحذر.

تفحص الزعيم "أحمد عرابى" الموقف ومستودع السكة الحديد فى بولاق، من أجل احتلال الموقع عسكريًا وإيقاف الحركة عند الضرورة. وسوف نفاجأ إذا دعت الظروف إلى ذلك، بخطر مكاتب البرقيات المحلية والإنجليزية، بدون أن يؤثر ذلك على الملكية الشعبية أو الخاصة. وسيلة عنيفة، إذا كانت هناك محاولات من أصحاب النفوذ أن يتدخلوا تدخلاً طائشًا، يذهب إلى حد بعيد، فإن سدود النيل مقطوعة فى مواقع معينة، لغمر الأرض فى وقت واحد، المحاصيل والكوبونات.

يكون الشعب قويا عندما يتكلم ويكون الحق معه. إن مصر هى إحدى البلاد العريقة، التى هبت من رقدتها التى سببها الطغيان، ويطالبون بأن يدعوهم وشأنهم.

فى الحالة العكسية، نتائج اليقظة المضادة سوف تكون غير محسوبة وغير متوقعة. "عرابى بك" فى مؤتمراته مع "شريف باشا"، عرف هذه الشخصية بالظلم الصارخ الذى يقترفه كل من "نوبار" و"ويلسون" و"جروتش" و"رياض" ليحظوا برضا إنجلترا وغرماء البلد. "نحن قبلنا الدين، وندفع فوائده، ولكن الأمة لا تستطيع أن تتحمل هذه المهانة بأن ترى أجانب يتمتعون بخيراتها، ويكونون ميزانياتهم منها، ولا يهتمون مطلقًا بالمكلفين إلا بفكرة بالية". "كيف ذلك"! يقول هذا الصبى الشجاع من الأرياف: نحن نعطى للأوروبيين ما تفرضه علينا السلطات من بلاد السفراء، ويعاملوننا أسوأ معاملة باعتبارنا مجرد خدم. ومن هم؟ من أين جاءوا؟ هؤلاء الموظفون الذين يدعون معرفة كل شىء والذين ينتزعون أموالنا، ويحرمون الأهالى من قطعة خبز، ولا يقومون إلا بعمل لا يسمن ولا يغنى من جوع؟ سوف يظل التحكم، هنا فى برنامجنا، ولكن بدون تدخل سياسى.

لا مراء أن الترتيبات اللازمة - كتشكيل مجلس نواب - لن يكون هناك أى تردد فى إجرائها. الحزب الذى طالب بالتغييرات، هذه التغييرات قد حدثت منذ ثمانية أيام، والحزب يراقب بدون انقطاع. وهذا العمل لن يكون عقيمًا، علينا ألا ننخدع، لا هنا ولا فيما وراء البحار. قيادة الأمة جيدة. وكل محاولة للتقهقر، سوف تتمخض عنها

نتائج تستوجب الندم. "شريف باشا" لن ينسى ذلك، وكذلك "عرابى بك" والبلد. وأوروبا حقيقة تحررية، والجمهورية الفرنسية أكثر على وجه الخصوص، يجب أن تسعد عند رؤية المبادئ النبيلة لتحرر الشعوب، تُفسر جيداً على ضفاف النيل، على يدى رجل خرج من بين الحقول.

عندما قلت لكم فى رسالتى الأخيرة، إن موقف الخديو يُعتبر موقفًا مزيفًا، فأنا لا أدّعى الإفراط فى ذلك. هو الذى تسبب فى أعراض التمرد الأولى، وهو الذى أثارها، يعطى الوعود، وهو الذى جعلها تستعر، ثم يُخلف وعوده، بينما الطلبات كانت عاجلة ومشروعة. كان الزمن شاهداً على كل شيء . لا يوجد أى وزير فى أوروبا لا يصدق اتصالات مراسلكم. كل هذا يؤخذ على أنه حكايات، إن لم تكن تفاصيل لا معنى لها. وكان خطأ كبيراً، أقوله اليوم بكل صراحة. تنبيه البارون "دى رانج" خطأ لا يقبل المنازعة من بعد ذلك، كلف مصر الكثير من المال، وفرنسا جزءًا من نفوذها.

علاوة على ذلك، دائمًا فى ترتيب الأفكار ذاتها وبدون حكمة "أحمد عرابى بك" ورفاقه، فإن الأحداث التى وقعت حديثًا، كان فى إمكانها أن تؤدى إلى إراقة أنهار من الدماء.

حينئذ، لست أدرى كيف أن نائب الملك بدون خبرة، ولا طاقة له ولا إرادة، كيف يمكنه شغل المنصب بطريقة سليمة، والذى قامت السلطات به، تحت تأثير بواعث مستبدة، أنعم عليه به السلطان وفقًا لطلبها، بالرغم من قانون العدالة.

من الواضح أنه فى وقت من الأوقات، مثل هذا الأمير سوف يكون لعبة فى مواجهة أول عاصفة سياسية تهب. ويبدو أنه قد تم اتخاذ هذه الحالة الاستثنائية والخطيرة فى الاعتبار. وعلينا أن ننتظر الأحداث.

الهدوء يعم البلد. تجرى الأمور بدون تزمت وفى نظام كامل. أعتقد أن السيد "سيلنكيفيتش" كان فى منتهى السعادة لأنه وصل متأخراً إلى مسرح أحداث الجمعة. إن مجرد حضوره حقق ما يمكن تحقيقه من خير فى وقت كان يسود فيه هدوء حذر لابد منه. لن يتغلب أى رأى على رغبات محدودة بل رغبات يُعبِّر عنها الشعب بطريقة هادئة. السادة "كولفان" و"كوكسن"، اللذان كان لزامًا عليهما أن يستحييا من كرامة

الطلبات المصنوعة، لم يدركا - لا هذا ولا ذاك - خطورة منصب يجهلان أصله الحقيقى. السيد "كوكسون" على وجه الخصوص، يعتمد فى تصرفاته على صفته معتمد بريطانى بالنيابة، متناسيًا مظهره الضخم المضحك، يرتدى قبعة التشريفة رمادية اللون، وقد سمح لنفسه بأن يوجه حديثًا إلى الفرق بلغة يفهمها هو فقط، ضحك منه الضباط والجنود، وأعيد السيد "كوكسون" إلى عمله. أما السيد "سيلنكيفيتش" فقد احتفظ بقدر كبير من الكرامة، ولكنه تصرف بوحى من "شريف باشا" بطريقة ممتازة.

وهنا تكمن النتيجة الطيبة للأحداث: تعرفت أوروبا على مصر كما هى فى هذا الوقت، مع الأمة، كم من تأثيرات آثمة، وكم من تجمعات إجرامية سياسية ومالية أنهكت الشعب بدين يكفى لطحنه . محافظ المرابين الدوليين المتضخمة، والوزراء الذين يجعلون من أنفسهم مُحضرى الإعلانات، يعلمون الآن أنه على ضفاف النيل، مثلما على ضفاف نهر السين، ونهر التايمز - لابد للأجنبى من أن يستخدم الكثير من الفطنة، حتى يصبح مسموعًا.

اللهم اجعل "شريف باشا" وزيرًا لعصر حقيقى قومى مصرى، بدون محسوبية لأى نوع من الأنواع. وبهذه الشروط فقط، بوسعه الاستمرار.

تحدثنا سلفًا وذلك لن يكون إلا إنصافًا، عن أن إبعاد "بلوم باشا" وبعض الزعماء المتنازعين الذين كانوا قد أسسوا عهد المحامين، يعد واحدًا من مصائب مصر. وسوف تجرى إصلاحات أيضًا فى وزارة المالية، وفى المصالح الداخلية: جمارك، وسكك حديدية.. إلخ.

الحقيقة المقنعة، التى توضح الموقف، هى هزيمة النفوذ الإنجليزى، ضد ورغمًا عن الجميع. عاشت من أجل الوقت.

انتظار السيد "ماليت"، الذى سوف يصل، كما يُقال، مع مفتش الباب العالى "سيرفير باشا". تلك إشاعة اليوم. وكما أن البرقية تشيع أكاذيب أكثر من الحقائق، فإن ما لا يرى بالعين لا يُصدق. المستحبون يتطوعون، السيد "ماليت" لا يجد ما يفعله فى إسطنبول، طلب رجل شرطة إمبريالى ليصحبه إلى القاهرة.

رسالة رقم (٦٤)

القاهرة فى ٢١ سبتمبر ١٨٨١

عاد السيد "ماليت" إلى هنا منذ يومين، دارت محادثات وزارية عديدة. تلاقى المعتمدون الدبلوماسيون لكل من فرنسا وإنجلترا. كل شىء كان محاطًا بهذه الشكليات الاستقصائية، بدون وجود المظهر الذى يسمى "استطلاعية" بالمعنى العسكرى، والتى لا تخرج عن قواعد الكورتوازية، تساعد المحاربين على اتخاذ موقع على أرض المعركة، وكان لابد من أن ممثل الملكة يتأسف عن طول غيابه، الذى منعه عن مساندة المخلص إلى آخر رمق: رياض باشا! لا أعتقد أن حضور السيد "ماليت" لم يغير شيئًا من الأحداث. ولكن أكثر ذكاءً وأكثر واقعيًا من نائبه الرومانسى السيد "كوكسون" الذى يعتقد أنه يقوم بدور "مازانيللو". اعترض، بقدر الإمكان، الآمال الشعبية التى ظهرت هكذا من أجل إثارة النزاع، ومن ثم إلى ذريعة تبرر العمل العسكرى البريطانى، لا يوجد سوى ديكور يدور على المسرح السياسى. الراية التى أهينت فى شخص المعتمد الدبلوماسى، على سبيل المثال، خصلة من شعر اللحية الويلسونية، مجذوبة أو منزوعة، بمثابة تذكار، لتزيين ميدالية لأحد الضباط! رأينا كل هذا، وأقل أيضًا، يدخل فى خدمة رأى سبق تكوينه ولا رجعة فيه فى السياسة.

ولكن السيد "ماليت" كان فى مكان آخر حيث لم ينجح من أجل تعجل وجهات نظر تهيمن مسبقًا، والمواطنون المصريون كانوا يعرفون مصالحهم أكثر من اللازم، ليعرضوا أنفسهم لما حدث، فى مواجهة الجهاز القنصلى.

يقال إن الدبلوماسى آنف الذكر الذى - بالرغم من المقولات المتضاربة - ينتمى إلى حزب المحافظين، يتبع قليلاً لحسابه النهج المعتاد للدوائر المعارضة، ظاهريًا، آراء الوزارة الحالية. ويوجد من بين أفضل الضوارى من كلاب الصيد القوية، التى تساعد من وقت إلى آخر على تحقيق المتعة للرياضة العظيمة، من أجل اكتفائهم الخاص. وإذا أطلقوا مرة، ينفخ لهم فى الصور، ويصفر لهم، لاستدعائهم على الطريق، فلا يستجيبون لهم.

غرائزهم واستقلالهم من جوهر نبيل، جعلهم صُم لصوت سيدهم. إننى أميل إلى التصديق بأن السيد "ماليت"، ينتمى فى بعض النواحى إلى هذا النوع من الموظفين الدوليين. وأجد تأكيد طريقتى بأن أرى فى إجمالى سلوك الغش الذى يتبعه المعتمد البريطانى تجاه البارون "دى رانج". ولكن من ناحية أخرى، كونوا مقتنعين، كما قلت لكم منذ بضعة أسابيع، بأن وزارة "جلادستون" هى قبل كل شىء "إنجليزية" فى سياستها الشرقية، وإذا ران لها أن تكون عادلة، فسوف تسقط غداً.

بوسعى أن أؤكد لكم أن السيد "ماليت" لم يهيئ لا السيد "كولفان" ولا السيد "كوكسون" على التفاهات التى نشروها جماعيًا يوم الحركة القومية. مندوب الملكة لا يحب هذا الإحراج المضحك الذى، فى الحالة التى ألمحت لها، شارك الببغاء أكثر من اللازم، يعلم القرد القيام بحركات. اختنق الضحك. لم ير الشعب فى الشخصيتين سالفتى الذكر، سوى نماذج للقره قوز (الأراجوز) الفرانغى، غير مسل بدرجة كبيرة جداً وأقل بكثير من القره قوز الأهلى. الوضع لم يتغير.

أعضاء حزب العمل الذين خدموا الشعب بكثير من الحكمة والاعتدال لم يتكاسلوا. إنهم يريدون الحصول على جميع الإصلاحات التى طالبوا بها بالقدر نفسه.

حقيقة أن بعض الدبلوماسيين، وبعض الصحف، اتهموا الأمة بأنها خاضعة لقيادة بعض المتمردين العسكريين – تلك وشاية يمكن أن تقع عاجلاً أو آجلاً على من قام بها – ومن ثم، فإن المشنعين على الشعب المصرى، ليسوا جميعهم عدوانيين باختيارهم، البعض منهم يخطئ عن جهل. أين هو الأوروبى الذى يمكنه أن يتباهى بمعرفته للفلاح، الذى يمكن القول عنه :

"الذى يرى واحداً، فهو يرى خمسة المليون نفس المتجمعين على ضفاف النيل"!

حتى السورى نفسه الذى يتحدث اللغة العربية، والذى ولد من أصل الفلاحين الجبليين لا يستطيع ذلك، لا يمكنه أن يسبر غوره، ولا يستطيع أن يفهمه. إذاً، هل هؤلاء سوف يكونون موظفين أو عاملين، بعثت بهم أوروبا، متأنقين، ومتعلمين فى وطنهم، والذين يهدفون إلى أن يحكموا، وأن يصلحوا وأن يرشدوا، وأن يثقفوا، وأن يفسروا الفلاح المصرى الذى لا يعرفه الأتراك الذين يهيمنون عليه أبداً؟ لماذا "محمد على"

شخصيًا أصبح هو الامتداد للعصا والكرباج؟ ذلك لأنه لم يكن لديه الوقت ليصبح محاربًا، غازيًا وباعثًا للحضارة فى وقت واحد. كان لابد له من أن يأخذ كل شىء من البلد، ليثبت نفسه، ويصون حاله. لم يكن العدل والعدالة فى منهجه الذى كان يشكل تبعية لمنهج المماليك. ولكن إذا قدر أن له حياتان، ما كان لينتظر، إبان الحياة الثانية، المظاهرة التى تطالب باحتياجات الشعب، لكان قد تنبه لها!

لم يتعهد بوعود كاذبة، لم يفعل ذلك أبدًا مثل خلفه، وهذه سمة تميز هذه الأمة المثيرة للاهتمام.

رأيت فى عام ١٨٣٩، إبان حرب سوريا، فى العصر الذى كان فيه الفلاحون، وإن كانوا هادئين، إلا أنهم كانوا على الأقل مسرورين، وفى غضون بضع ساعات، جعلوا جميع الكائنات الحية تختفى، بما فيها الكلاب، بإحدى أكبر قرى الوجه البحرى. "محمد على" مثل "نابليون الأول" كان يأخذ رجالاً بدون أن يعمل حسابًا لرفاهية رعاياه. عندما علم زعماء المنطقة المعنية على لسانى بأن المنطقة يجب أن يقوم بزيارتها محترفو التجنيد، يقولون كلمة السر إلى تابعيهم.

فى الساعة التاسعة مساء، كان جميع السكان نيامًا. فى الساعة الثالثة صباحًا، لم يكن هناك أى أثر للناس، أو الحيوانات، والمواد الغذائية. كانت الطرق مكنوسة وفى منتهى النظافة إلى درجة أنه يصعب على الباشى بوزُق (جنود أتراك غير نظاميين) المرسلين من أجل تجنيد الجنود أن يميزوا الخطوات على آثار الهاربين.

وفى النهار، يسأل الفلاحون المنتشرون فى الحقول. لم ير أحد أى شىء. تم إجراء الموافقات بدون أية دهشة، ولكن بدون خروج عن الصمت المصرى. هذا هو الشعب الذى تدعى الهواية الأنجلو- فرنسية تعليمهم التقدم عن طريق الكوبون.

أول عمل من أعمال الوزير الجديد هو التذكير بالمنفى وهو "موسى العقاد" الذى يعتبر ضحية " ريفرز ويلسون" و"رياض"، وأقول أيضًا ضحية "نوبار". لن أكون مخطئًا، ولكن ذلك يحتاج إلى تفسير.

كان السيد "نوبار" صديقًا حميمًا لـ "ريفرز ويلسون" كان يبغض - باعتباره مالكًا زراعيًا - قانونَ المقابلة، الذى أقره هذا الإنجليزى مع "رياض". لذلك فقد حرض "موسى العقاد" على أن يوجّه بصفته مواطنًا مسلمًا، عرائض إلى لجنة التصفية، والذى لا يجرؤ على توقيعها، وأن "رياض" يعرف أصله الأرمنى [دين المقابلة: يتلخص مشروع المقابلة الذى أصبح بعد أن تحقق يعرف "بدين المقابلة" فى أن تصدر الحكومة المصرية قانونًا تعد فيه ملاك الأراضى الزراعية بأنهم إذا دفعوا ضرائب ست سنوات مقبلة دفعة واحدة أو على أقساط متتابعة "وهو يساوى ما على مصر من ديون" فإنهم يعفون إلى الأبد من نصف ضرائب الأطيان. وتتعهد الحكومة بألا تزيد سعر الضريبة على أطيانهم فى المستقبل، ولن تطالبهم بأية سلفة مؤقتة ولا يجوز للحكومة أن تصدر على الخزانة سندات للقروض أو أن تقترض ديونًا جديدة، ولو تحت ظروف قاهرة إلا بعد التصديق على ذلك من مجلس شورى النواب، وأن تخصص المبالغ المتحصلة من دين المقابلة لتسديد ديون الحكومة. وقد انتهزت الحكومة فرصة انفضاض مجلس شورى النواب لتصدر هذا القانون. (موسوعة تاريخ مصر للدكتور أحمد حسين، جـ٣، صـ ١٠٢٣)].

عندئذ، لم يكن بوسعه أن يرسل "نوبار" إلى النهر الأبيض ما قام به "المحبوب المغفل". اكتفى "رياض" "بموسى المسكين" الذى يصبح حراً. ولابد لى من أن أضيف لكى يكون كلامى كاملاً، أن هذا المنفىّ، كان أحد المخلصين المناصرين لـ "حليم باشا" الذى لا يطيق "رياض" باشا مجرد سماع اسمه.

كذلك الخديو كما ينظر إليه، بعد أن وعد بكل شيء لزعماء الحركة الوطنية فى أثناء اجتماعاته غير القانونية معهم، فى الوقت المناسب حيث فوجئ الأمير ذات ليلة بزيارة السيد "ماليت"، كان لابد من أن يخفى - كما يحدث على المسرح - فى إحدى الغرف، أسلحةً وأقنعة إلى جانب "رياض".

ولن يخفى على قارئ جريدة "لو سيكل" أن يعرف كيف تمت فترة الانتقال. وسوف أقصه عليكم قريبًا.

رسالة رقم (٦٥)

القاهرة فى ٢٦ سبتمبر ١٨٨١

كنت قد وعدتكم بأن أقص عليكم كيف أن الخديو بعد أن وعد زعماء الحركة الوطنية، كان لزاماً عليه أن يدس عند "رياض" أسلحة وأمتعة.

رئيس الوزراء المخلوع، الرجل "المخلص والمقتصد" بطريقة ممتازة، كان يعرف قيمة الهدايا الهائلة. قام بنقل مبلغ ٤٠٠٠٠ جنيه إسترلينى من خزينة سرية إلى خزينة منزل الخديو، حيث الذهب المسكوك غير المصنع فى جنيف يجد الهواة بصفة دائمة.

هذا المليون يمكن أن تتبعه ملايين أخرى. المال موجود فى مصر، من عرق جبين الفلاح، ويستخدم فى عمل المعجزات الكبيرة، بدون علم أو مؤازرة من الرقابة.

كذلك فى الأحياء الأهلية حيث لا يجهلون الأمور المهمة، يعرفون أن إيرادات البلد الأسمر لا تُدّون فى السجلات، وأن هذا التناسى محدود بمجموعة إيرادات أخرى خارج حدود الرقابة. وتوجد خزانة المديريات التى تشبه برميل الفراشات الليلية، وخزانة أموال سرية، يستخدمها "رياض" ببذخ - هنا وفى أوروبا - لصالح أهله، بما فيهم السادة المراقبون. ووضح الآن كيف أنه استطاع أن يتصرف بنفسه بحيث أن نائب الملك الذى اكتسب الصفة الباخوسية (نسبة إلى باكوس أو باخوس إله الخمر عند الرومان)، بعد أن ألح فى الطلب بأمر عال، على السيد "جريفى" بالاستدعاء الجائر للبارون "دى رانج"، كان له القدر نفسه لدى ملكة إنجلترا لاحتمال حصوله على التدخل البريطانى فى مصر.

وهنا كانت تكمن أوراق السيد "ماليت" الرابحة و "رياض"، ولكن شعب النيل كانت يده هى العليا، وجميع أوراقه كانت جيدة.

فى الحقيقة هذا التدخل الدبلوماسى المستمر فى الشئون الداخلية لمصر اجتراء أكثر من اللازم، وله خطورة واضحة. ومن الأمانة بحق أن أتساءل ما هو تبرير هذا التدخل،

خارج نطاق المراقبة؟ هذه الملاحظة طرأت على بالى من حديث "عرابى بك" موجهًا إلى الشهيد (هو كذلك فعلاً) السيد "كوكسون" المعتمد البريطانى.

كان القنصل قد قال له، إن هذه الحركة، تهدد استقلال البلد وتخاطر بأن تجلب إلى البلد جيوشًا وحكومة أجنبية: "بأى حق تتحدث عن مصر هكذا"؟ أجاب بذلك "أحمد عرابى بك". « هل منعت فى أوروبا من توسعة مؤسساتك وأن تصبح شاغرة؟ أودية النيل سوف تحرر، وإذا سولت لك نفسك أن تأتى بنذالة بجيوش لتفرض طغيانك على خمسة أو ستة الملايين نفس، وهو تعداد شعب بلدنا، يوجد من بينهم مليون رجل على استعداد دائمًا لإهراق آخر قطرة من دمائهم فى سبيل استقلالهم!

وما هى الضمانات التى سوف تقدمها لنا؟ أنت الذى تعتبر "واحدًا" من بين أقرانك. كلماتك ليست قوانين. وبم تفيد أحاديثك وضماناتك، عندما ساعد الجهاز القنصلى على ارتكاب الكثير من عمليات السفه والتبذير، التى شارك فيها العديد من الأنذال، استطاع أن يشارك فى برود وصمت فى اغتيال "إسماعيل صديق باشا" مفتش مصر بيد "إسماعيل باشا" نائب الملك! كما يوجد الآن فى هذا الوقت فى خدمة نائب الملك الحالى خدم من الأوروبيين ومن البلد، الذين عانوا فى الإعداد لهذه الجريمة النكراء!

احتفظوا بضمناتكم، احتفظوا بها. إن ما نطلبه هو العدل، وسوف نحصل عليه ».

إذا أدرك السيد "كوكسون" لغة الشعب الذى يسبه، فهو سيفكر الآن فى المعنى العميق لهذه الإجابة التى تتسم بعزة النفس. ولكنه لم يفهم منها كلمة واحدة، واستطاع المترجم أن يخفف من الفحوى، إذا قام بترجمتها دائمًا. ولم تتحقق معرفة طبيعتها أو أضرارها إلا بعد توقف المصيبة. وكانت بداية معرفة الملعون "رياض" على حقيقته. منذ رحيله، ظهرت أعمال حقيرة، غير مفهومة نسبيًا. كان بغضه لبعض الشخصيات، بغضًا مريرًا، ولكى يشفى غليله، لم يكن ينفر من أى أعمال حقيرة أو مخزية. زملاؤه – وهذا أسوأ ما يقال – أفضل منه موهبة ومع ذلك فهم يطيعونه فى ذلة وخضوع. ويكفى نموذجان من أجل أن يصورا رجل الدولة، وهو الطفل العزيز لدى السياسة الإنجليزية.

تتذكرون "شاهين باشا" صديق "إسماعيل" ،أصبح كونتًا ومواطنًا إيطاليًا. كان "رياض" يريد أن يستولى على أملاكه بدون حكم. ماذا يفعل؟ إذا تم الحصول على مستندات قيمة، تعرض للشبهة، موقعة بخط يده؟ وهذا سهل جداً فى محاضر المجالس السرية، كان يقرأ، ما كتب بخط السكرتير "كحيل بك" القرارات التى أصدرت بالإجماع بالحصول على خاتم شبيه بخاتم "شاهين باشا". فى الشرق لا يوجد توقيع قانونى بالعلم، كل فرد له خاتم خاص به، ولا يوجد أسهل من أن يقلد هذا الخاتم عندما نحصل على بصمته. تُعتبر هذه الحالات نادرة. رياض يهاجم جنسية "محفوظ باشا"، البوسنى المولد، وبناء على ذلك يكون نمساويًا.

هذه الشخصية ثرية ولها قدرها، وله قضية معلقة مع الحكومة وتُبذل المحاولات للحيلولة دون كسبها. اقترح "رياض" الوسائل نفسها، وسقوطه فقط هو الذى حال بينه وبين هذه الوسيلة.

هذه الأحداث حقيقية.

والآن ننتقل إلى ممارسة أخرى تقوم على أساس العمل على زيادة ثروته بأن يبيع مصر إلى الفريسيين وهم الدخلاء الأغراب من المرائين الذين يتظاهرون بالتقوى. نوريسون بك أحد موظفى بنك "الكريدى ليونيز فينانس"، هو اليوم ملحق بالشركة المصرية للرهن الميت (تبع الأنجلو إيجيبشيان بنك)، يمارس إمكانياته المختلفة لحساب شركات أجنبية، بشراء مساحات شاسعة من الأراضى المزروعة وغير المزروعة. لم تحقق نجاحًا كبيرًا، ولكنها تدعى أنها تتعامل مع الله، الأقوى من قديسيه. مبدئيًا، رفضت الحكومة الموافقة على مثل هذه المبيعات، التى يعارضها الأهالى. (الرهن الميت أو "المور - جاج" ووفقًا لذلك يقبض الدائن المرتهن ثماره ولا يخصم من الدين).

هذا هو كل ما اتفق عليه كل من البك الذكى ورئيس الوزراء، ليحققا مكسبًا كبيراً لصالحهما، ويحدد "رياض" من مديرى المديريات، مخلوقات محل ثقة ومطيعين. "فريد بك" الذى يحكم الشرقية، كان تقريبًا من هؤلاء. كان مطلوبًا منه أن يجد أفرادًا، يبيعون بثمن بخس إلى "نوريسون بك" قطع أراض صغيرة بأعداد كبيرة، ليجمعها فى النهاية، يكون منها ربع المديرية، وبعد ذلك، المشترى الصورى يبيع إلى زبائن من أوروبا، الكل بسعر ودى، تاركًا فائدة هائلة، حيث يحصل رئيس الوزراء الحاذق على ثلثيها،

يقال – وسوف تصدقوننى لو قلت – أن الثلث الباقى سوف يكون ثروته، لأن أكثر من ١٢٠٠٠٠ فدان، سوف تنفق هكذا.

ولحسن الحظ، أنهى "عرابى بك" هذه العمليات المشينة التى تهدف إلى نقل مصر وأراضيها تحت النفوذ الأجنبى. قام "شريف باشا" بعزل هذا المدير اللين "فريد باشا". وسوف يستغنى عن مدير مديرية المنصورة، وهو من العجينة نفسها. وقام بسحب شخص مضجر مذكور فى جريدة "لو سيكل"، "أحمد رياض باشا"، مرسل إلى سواكن، لقمع تجارة الرقيق، والذى كان يحمى النخاسة لصالحه. يعتبر هذا العمل عظيمًا. وللأسف، يوجد فى وزارة المالية رجلاً نجسًا، ترتبط باسمه أعمال مؤسفة كثيرة. لماذا يحتفظ به؟ هل يخشى منه، فى بعض المناطق المنزهة؟ تجرى عملية تطهير كبيرة ولكن سوف يستغرق ذلك بعض الوقت. ولكن رجلاً على خلق وشريف مثل "شريف باشا" يجب عليه أن يبعد عن شخصه وعن الحكومة، كل فرد فاسد، إذا أراد أن يحصل على احترام الجميع، وهو بدون منازع، من حقه.

فى إحدى الجلسات التى عقدت فى الأسبوع الماضى، كانت المشكلة هى التضحيات المالية الهائلة التى ارتكبها إسماعيل باشا لبتر نظام وراثة حكومة مصر، أحد الأعضاء، الذى بدون شك، سوف يصبح أحد نواب الأمة فى المستقبل، قال: "هذا الذهب، الذى ينثر فى القسطنطينية وأوروبا بأمر "نوبار"، أليس هو ذهبنا، الذى انتزعته منا المقرعة والتعذيب الجسدى. هدف هذا البذخ الممقوت، ألن يفرض علينا إلى الأبد، إذا لم يكن فى مستوى مهمته، وهل يجب علينا أن نتحمل دائمًا الأصفاد التى يكبل بها أيدينا وأرجلنا، النظام المخيف، تسانده الحكومات الأوروبية، ونحن الذين ندفع الثمن؟".

علمت فى آخر لحظة أن جريدة "لو ستاندارد" أرسلت برقية مثيرة تعلن عن مظاهرة عسكرية جديدة. وذلك غير صحيح.

إن ممثلى الشعب قالوا لـ"شريف" كما أعلمتكم من قبل، إنهم لن يتوقفوا عن المطالبة بمجلس نواب إلا إذا تحقق هذا الطلب. ويطلبون إعادة جميع العاملين الذين يأخذون على عاتقهم أية مهمة.

وهناك أكثر من ٥٠٠ شيخ من علية القوم بالأرياف وقعوا على التماس يقرون الإصلاحات. إجماع عام.

رسالة رقم (٦٦)

القاهرة فى ١٠ أكتوبر ١٨٨١

أخيراً، حصلنا على ما يريح إحساساتنا التى تولدت من السياسة الأهلية، فكاهات السيد "بلينيير" المنورة فى كثير من الصحف الباريسية وصحيفة "الأنديباندتس" البلجيكية.

هذه الحاجة إلى تلمس المستقبل عن طريق الصحف تشبه إلى حد كبير ما يسمى فى مجال آخر : نجاح، من أجل أن يُضرب عنه صفحاً. أعتقد أنه من الأهمية أن نكرر عالياً، أن رأى الأستاذ "بلينيير" فى إمكانيات الوزارة الحالية ليس له أية قيمة، لا مع ولا ضد.

شريف غير ممتن لها، لا بالكلام الطيب عنها، ولا بالسوء الذى تخفيه نواياه. الشعب المصرى الذى تعتبر الوزارة الجديدة وكيلة له لا يريد أبداً أن يؤثر فى مبدأ الحكم الذى يراه ضرورياً، باعتباره ضماناً لأمن الدائنين. ولكن هذا الامتياز المسلم به، لا يمكن أن يعنى أن الجمعيات التأسيسية التى تحكم حالياً نظام المراقبة لم تُعدَّل مما يعتريها من إفراط وإبهام.

هكذا، لم يكن المراقبون هم فقط ما يجب أن يكونوا عليه موظفين مكلفين بمراقبة الإيرادات والمصروفات الخاصة بالدولة، لصالح حاملى السندات المصرية، بل أيضاً يستغلون المحررين الغامضين للجهاز الدبلوماسى، وكانوا أيضاً يستعملون كل ما هو واضح وجلى فى النص لإقامة بابوية تشبه - إلى حد بعيد - دولة داخل الدولة. وإلى مثل هذا الوضع، غرر بالأمة التى لا تريد ذلك. إذا سلمنا، حتى بسقوط إسماعيل باشا، بأن الأمور تجرى فى مصر، فى وضع يزعزع إلى حد ما، لتبرير السلطات المفرطة، وحرية التصرف الممنوحة للرقابة، وتبقى دائماً الحقيقة الهامة، لاستثناء تتطلبه الظروف الاستثنائية، والذى لا يوجد ما يبرره.

لم يكن السادة المراقبون هم الذين يدفعون بانتظام، لا الضرائب ولا الرسوم، للإنصاف الذين يتهمونه به. ماتت الدابة، ونضب سمنها، بمعنى أن الخديو إسماعيل

نظراً إلى أنهم قد استغنوا عنه، اختفت معه ابتزازات عصره الهائلة. ولكن هل الرقابة تحرت ابتزازات أقل، استمرت كسابقاتها، حتى ولو كان مع قليل من الخوف من يوم القيامة؟ كلا. وإذا سألناها عن طبيعتها وعملها، تتملص من الإجابة بالمراوغة. بالنسبة إليها، تعتبر مصر في القاهرة، في مكاتبها الخاصة، في شارع شبرا، والعكس بالعكس. وعن لغة الفلاح وحياته الاقتصادية، لا يعرفون شيئًا، وكل ما يعرفه المراقبون بصدد الإمكانيات المالية للسكان، أنهم الشعب سواء كانوا أكثر أو أقل ذكاء، أو كثر اطلاعهم أو قل أو في حالة حسنة، والتي يدبرونها لهم. وإنه بهذه الترسانة من الأسلحة السلبية والناقصة إن هذين الموظفين يهدفان إلى طلب مكانة في مجالس البلد، خاصة عندما نعلم كم أن النفوذ البريطاني في غاية القوة على هذين الموظفين! وحيال ذلك، يتبقى لي أن أقول أنه في كل مرة، في عهد حكومة "رياض"، أي إجراء يتسم بقليل من الليبرالية يهدف إلى مواساة الفلاح، يناقش بالصدفة، تتظاهر الرقابة بأنها خصمه الوليد.

ومن ثم، يكون من الطبيعي أن الأمة المصرية – التي تنشد حكم شئونها الخاصة بنفسها – لا تروقها مطلقًا الشخصيات الحالية، وكذلك لا ترضى عن الجمعية التي تنتدب لها السلطة، وإذا كانت أوروبا – وخاصة إنجلترا وفرنسا – تصر على "حالة راهنة" في هذا الصدد، ذلك لن يكون إلا بالتضحية بمحبة الشعب النيلي وبالعدالة.

أما فيما يتعلق بالإصلاحات الإدارية، التي تناولها الأستاذ "بلينيير" في صحفه بضجة كبيرة، وبالإيثار، فلا هو ولا السيد "كولفان" المخلصان المنتظران من أجل أن يقوما بهذه الإصلاحات.

وهناك رجال في الوزارة تنطبق عليهم مواصفات هذا العمل تمامًا، وذلك ما يستبعد، مستقبلاً، المؤازرة الاستشارية للرقابة.

التفاهم التام قائم بين الجيش والوزارة. رأيت جزءًا من الفرق التي كانت ترابط في حامية في القاهرة والآلاي الأسود في ثكناته بين دمياط والعاصمة.

وقد نفذت جميع الوعود التي أعطيت عن طيب خاطر، بالنسبة لكل ما هو ممكن تنفيذه في الحال. وبقية الوعود سوف تنفذ تباعًا ورويدًا، تنفيذًا للاتفاقات، ولكن مندوبي الأمة متيقظون، ليس كنوع من التهديد، بل للمحافظة على الاتفاق الطيب بين الحكومة والأمة.

وعبثًا حاولت الصحافة الإنجليزية، وأكبر الأعضاء نفوذًا فى المستعمرة البريطانية فى مصر تكرار البدع العتيقة التى يطلقها المستبدون قديمًا وحديثًا: "تعود الفلاح على الارتباط بالأرض، ذكاؤه محدود، واحتياجاته لا تتجاوز احتياجات الدابة. وعلينا أن نحذر السماح لهم بأية حرية، وذلك سوف يعتبر تنازلاً عن أخطر اليوطوبيات" (اليوطوبيا: مدينة فاضلة تخيلها "توماس مور" (سنة ١٥١٦) تحكمها حكومة مثالية ويعيش فيها شعب سعيد) هنا وكل يوم أقرأ وأسمع ذلك. وأكثر ما يدهشنى فى ذلك، ليس هو أن نلاحظ أن جميع الكتاب فى هذا المجال من الإنجليز - نحن تعودنا على هذه السياسة التى تتسم بالنفاق والأنانية الاستبدادية - بل هو أن نرى فى عام العفو ١٨٨١ رجالاً يزعمون أنهم الأكثر إنسانية، والأكثر مسيحية فى العالم أجمع، تواتيهم الجرأة على أن يقولوا ويكتبوا ما عفى عليه الدهر تقريبًا منذ عشرة قرون. حقيقة أن حكام أيرلندا لم يكونوا منطقيين مع أنفسهم فى سياستهم الداخلية، ولكن "إيران الخضراء" تتبع تاج الملكة، بينما مصر ليست إنجليزية مطلقًا - والحمد لله - ونأمل ألا تكون. [إيران الخضراء = الاسم الأوروبى لأيرلندا].

السيد ماليت فهم ذلك منذ عودته. وما وقع فى أثناء غيابه فتح عينيه. مبدئيًا، سلك طريقًا خطأ وضحى بأصدقائه فى سبيل السياسة الإنجليزية القومية، لكى لا ينجح فى شىء مما سبق أعطى إليه كهدف رئيسى، ورغمًا عن هذا الفشل المتكرر فإن حكومة الملكة، بدلاً من أن تستدعيه أو ترسله إلى مكان آخر، كافأته بأن منحته درجة فارس.

هناك بعيدًا عن علامة التمييز هذه، الممنوحة إلى زميل البارون "دى رانج"، عدم العرفان بالجميل من حكومة باريس للمأسوف عليه وزير وقنصل عام فرنسا.

وصلت إلينا اليوم برقية من القسطنطينية تعلن رحيل "على نظمى باشا" إلى القاهرة بصفته مفوضًا إمبراطوريا بصحبته ملحقون معاونون دينيًا. أمر يحار فيه العقل، التكهنات عن أصل هذه البعثة وهدفها، التى ترجع إلى مبادرة واختيار السلطان شخصيا، كما يقال.

هل يعتبر نجاح اللورد "دوفرين" الذى - ظاهريًا - يحتفظ الباب العالى بتكليفه، والذى سوف يسفر عن تأسيس سلطة سيادة الإقطاع على ضفتى النيل، فى الخفاء، نكاية فى السياسة الفرنسية، التى سوف تجد فى ذلك "إخفاقًا مستترًا" طبقًا لما يقال على ضفتى التايمز.

لا أعتقد ذلك ، بيد أن الموظفين أصحاب الرواتب الضخمة كانوا مبتهجين بهذه الزيارة التى - وفقًا لرأيهم - سوف تعضدهم بمعاقبة، وكذلك بإطلاق النار على العقداء، وعلى ألد الأعداء من القوارض الدخيلة، وهم كثيرون جداً هنا.

إن رأيى الخاص مخالف تمامًا. يريد السلطان أن يجرى تحقيقًا، ليس عن الأحداث العسكرية التى نعرفها، بل عن الظروف الحالية الحقيقية مع التثبت من صلاحيات نائب الملك بالنسبة إلى الأخطاء التى ارتكبها أو التى ساعد على ارتكابها.

إن خديوية مصر من الأهمية بحيث أنها تتعرض للخطر، إن لم يستدع لها أمير قادر وحازم. لا مراء أن اللجنة سوف تقرر ذلك.

ويجدر بنا أن نذكر أن "على نظمى باشا" هو الفقيه نفسه الموظف الذى كلفه السلطان "عبد العزيز" ببحث حقوق المرحوم "مصطفى باشا فاضل"، شقيق الخديو السابق "إسماعيل"، فى الدعوى التى أقامها الأول ضد الثانى. هذا التزامن يمكن أن يعنى شيئًا. إن الشخص المختار لرفعته، هو مشرع متميز، رجل حاذق وذو فكر ثاقب. نتعشم أن شمس مصر، التى أحيانًا تداعب أشعتها عيون الأجنبى، ولا تجعله يرى من يقوم بالمهمة فى يوم آخر، وألا يبحث سوى عن الحقيقة. لذلك، خير له أن يستقى معلوماته من مكتب السيد ماليت فقط.

رسالة رقم (٦٧)

القاهرة فى ٢١ أكتوبر ١٨٨١

عادت العاصمة المصرية إلى هدوئها المعهود، منذ رحيل المفوضين العثمانيين، اللذين - وأكرر ذلك - لم يسببا لها أى اضطراب. وإلى الدبلوماسية الإنجليزية يجب أن ترجع كل الضوضاء التى شاعت حول بعثة هدفها السرى قد يدهش الحكومة البريطانية إذا عرفته فى الوقت المناسب. لست أدرى، كيف يستقى السيد "ماليت" معلوماته. ربما لديه أسباب وجيهة تجعله يعتقد أنها صحيحة، وأنها الأفضل، ليتصور أنه عندما يعلم مصادفة أنها حقيقية فهو الوحيد الذى يملكها. ذلك ما نسميه أسرار

المهنة، جراب الحاوى. فلنتفحص عن كثب: هذه الأمور الصغيرة والهائلة، لا يمكن دائمًا رؤيتها بالعين المجردة. بالأمس، عندما كنت أقوم بجولتى فى حديقة الأزبكية، عندما أسدل الليل ستاره، قابلت شخصًا لم أره منذ وصول سفراء السلطان، كان خارجًا من عند "سانتى". كانت أعماله تجعله على اتصال دائم يوميًا مع نائب الملك، وخاصة المسلمين الأحماء بالقصر، الذين لا يخفون عنه أى أمر من الأمور المهمة. ومن المحادثة الطويلة، الطويلة جدًا، التى أجريتها مع الصديق سالف الذكر، نزعت إلى الاعتقاد بأن الناحية السياسية الحقيقية للبعثة العثمانية، كان هدفها مصلحة شخصية للسلطان، الذى خزانته دائمًا خاوية.

من الطبيعى ألا أستطيع أن أقول لكم أن كل ما يخطه قلمى هذا، كتب باعتباره سرًا مهمًا. لكن من الأهمية أن أخبركم بأن الاتصال بى تم على هذا الشرط. فى هذه الحالة، بما أننى لا أعنى شخصًا بعينه، وأنه من الأهمية أن تدرس القضية على وجه السرعة وأن تعرف مظاهرها المختلفة، فإنى أتغاضى عن وعدى، مقتنعًا بأن أفضل صيانة للسر هو ألا نذيعه لأى شخص. ها هما: المفوضان الرئيسيان "فؤاد بك" و"نظامى باشا" قد يطلبان صراحة من الخديو من قبل عظمة السلطان، قرضًا خاصًا بمبلغ خمسمائة ألف جنيه إسترلينى، مقابل إيصال من الخزانة الإمبراطورية الخاصة.

توفيق، الذى لا شك أنه كان يتوقع بعض الخسارة المالية، ولكنه لا يتوقع أن تكون كبيرة إلا إذا أخذ على حين غرة – حاول أن يوضح للمفوضين أن عصر وملايين إسماعيل قد غض عنها النظر. ولكن من ناحية أخرى، مقتنعًا بأن موقفه يتطلب براهين على الإذعان، لأن الرجل الشاب قد خاطر بنفسه كما سبق وأوضحت لكم، قليلاً، بالنظر إلى الرقم المطلوب. إذًا، من المحتمل أن الخديو قدم مبلغًا قدره مائة إلى مائة وستين ألف جنيه مصرى، جمعها على وجه السرعة، وسلم إلى المفوضين المنتظرين والمذكورين سلفًا، طردين مصفحين ومختومين، يبلغ حجمهما ٢٠ بوصة فرنسية مكعبة، يحتويان على حُلى من الأحجار الكريمة، من أجله ومن أجل صاحبة الفخامة والدته: إذًا، سوف يتأخر إرسال القرض قليلاً. وأما بالنسبة إلى المفوضين المنتظرين، فقد نال كل منهما ألفى جنيه إسترلينى وجواهر بقيمة نصف هذا المبلغ. وها هو ما يعنيه، عاملو مبعوثى الباب العالى بتميز وأدب. إن هذا الذى أبلغكم به، قد جاءنى على أنه حقيقى تمامًا. كان يوجد كثير من الأمور الصغيرة والكبيرة لا يصرح بها،

والكمبيالة التى سحبها السلطان على خديو مصر، سوف تكدر نظريات سياسية، مدبرة على الطريقة الإنجليزية، بقدر من الكراهية.

لا تعتقدوا أن الأزمة المصرية فى نهايتها. نحن ندخل فيها. وأقول لكم، ليس باعتبارى نبيا ولكن باعتبارى مراسلاً يهتم بالحصول على معلومة صحيحة، وأن كل شىء يسير على ما يرام، إذا لم تلعب الحكومتان الإنجليزية والفرنسية لعبة "الدروع".

وفى حالة اندلاع مظاهرات جديدة من هذا النوع، وما تسببه من إثارة وهياج، لن أضمن الهدوء الشعبى. أتمنى أن هذه الكلمات تكفى. وإنه من السهل أن تنثر رياح أبريل، ولكن يصعب التصدى لعواصف الخريف.

ومن أجل أن أجعلك تلمس بنفسك كم أن باعى السيد "ماليت" طويلان حتى باريس - وليس هذا بالقول المناسب - ويؤكد هنا أن السيد "دوبينى" قنصل فرنسا فى الإسكندرية، وهو حاليًا فى إجازة فى باريس، لن يعود إلى وظيفته؛ حيث إن السيد "بارثيملى سان - هيلير" قد شغلها خلفًا له.

ويبدو أن السيد دوبينى، أقل مرونة من السيد "مونج" الذى كانت ميوله نحو البارون "دى رانج" فاترة، أرسل إلى باريس تقارير بأن السيد "ماليت" استطاع أن يوجدها، وإن كانت صحيحة، وفرنسية بصفة مباشرة، فهى تكن مناهضة للإنجليز بمعنى الكلمة. كيف سنحصل على حكومة معدة إعداداً جيداً، عندما يكون الأشخاص الذين تستخدمهم يتربصون بأصغر نبأ، صحيح أو خطأ ويحصلون منه على المال، ويرسلونه إلى هواة الحقيقة فيما وراء البحار، أو أكاذيب مزخرفة. ما رأى سعادة "شريف باشا" فى ذلك؟

رسالة رقم (٦٨)

الإسكندرية فى ٣ نوفمبر ١٨٨١

لقد لقن الشعب المصرى رسالة مهمة إلى السادة المراقبين. وكان ذلك هو الوقت المناسب، ولم يكن مفرطاً.

لجنة الوفد القومى قدمت للوزارة مبلغ إعانة قيمته ٢٥٠٠٠٠ فرنك، منحه السيدان "كولفان" و"بلينيير" لتزويد القاهرة بالأوبريت وحريم كامل للرقص ومطربات، إلخ. ولم يكن من الحكمة والتعقل، لأنه فى الوقت نفسه كانت هناك مجموعة من الموظفين من الأهالى، إما فصلوا أو أحيلوا للاستيداع لتوفير أجورهم.

فى الواقع، هذا المبلغ مستنزف من عرق الأمة، كان يمكن أن يستعان به فيما يعود بالفائدة، ومواساة الطبقة المهمة، التى ذكرت سالفًا. يوجد من يتمتعون بحياء أكيد، لا يعرفه المراقبان نظرًا إلى جنسيتهما الأجنبية، وعليهم ألا يغفلوا ذلك أبدًا.

نحن الآن فى عصر الذهب والمرأة، هؤلاء الذين يأخذون كثيرًا من هذا، يدفعون كثيرًا إلى ذاك. ولكن الأهالى يقولون، ليس هذا سببًا كافيًا من أجلنا نحن، لأننا، نحن الذين لم تطأ قدمهم مسرحًا، ندفع من مالنا الخاص، إلى عشيقات وملذات العاملين الأوروبيين، مكافأة سخية مقدمة منا نحن.

وما من أحد يجهل، فى القاهرة وفى البلد، أن جنس النساء المسرحى يخلب اللب، بطرق مختلفة، فى أوقات فراغ العديد من حُماة مصر.

معظم هؤلاء السيدات، يتبعن شابًا يهوديا فلاشيا سكرتيرًا خاصًا سابقًا للسيد فيفيان، السلف الشهير للسيد "ماليت"، وكان هو شخصيا أكثر ابتهاجا بهذه الفرق التى تبعث السرور فى نفوس المصلحين المتأنقين، مدرج حسابها جيدًا فى الميزانية المصرية.

هذا النوع من المراسم لا يعجب الشعب، ولهذا السبب كان الاحتجاج المقدم من "عرابى بك"، موجهًا إلى الحكومة التى ستأخذه فى الاعتبار.

إذا كانت الوزارة تريد أن تحقق بعض التوفيرات التى سوف يقبلها الجمهور، لأن الأهداف متوفرة من النواحى المالية، وعلى الأخص داخليًا، فسوف يوجد الكثير من أجل اقتناعه. أن يرسل رؤساء فى كل يوم، أحد الأشخاص، مزود بعينين مفتوحتين جيدًا، فى الجراند أوتيل أو فى شيبرد: سوف يرى هناك، من بين متسكعين آخرين، رؤساء سجل المساحة، بمرتبات من ٢٠ إلى ٤٠٠٠٠ فرنك سنويًا، يدخنون من الصباح إلى المساء سجائرهم، ويشربون البراندى بالصودا، بدون أى اهتمام بهؤلاء

الرجال المساكين، المسّاحين الذين يعملون تحت أشعة الشمس المتوهجة، مقابل الحصول على أجر زهيد. لماذا السيد ج... ثرى مميز فى بلده ، لا يقوم بالتفتيش جيدًا؟ والجنرالات، والمستعمرات الهندية والعالمية ماذا تفعل؟ لماذا مثل هذه النفقات على أناس يتحلون بالألقاب، يأخذون المال، ويهملون عملهم؟

وفى أوروبا، من أجل أن نعود إلى المساحة، هذه المؤسسة، عبارة عن منجم يضم العاملين المهرة من المساحين المتواضعين الذين يقومون بأربعة أمثال العمل، ويحصلون على قدر أقل من المكافأة. الموظفون الإنجليز فى مصر، لا يأخذون عملهم مأخذ الجد، يصرفون الرواتب ويدعون العمل.

وكانت حالة السكك الحديدية والجمرك يرثى لها. فالمعدات والخدمة فى الدرجات الأولى مهملة إلى درجة أنها أثارت شكاوى غير الجديرين، من جهة الانتظام والراحة. لا يمكن إغلاق أية نافذة، والعربات قذرة، والقاطرات ضعيفة السحب أو فى حالة سيئة.

أما بالنسبة للجمرك، فتسوده الفوضى. ولا ينقضى شهر إلا ولابد من فضيحة جديدة، وتظهر فوضى تهريب البضاعة، والاختلاسات، بينما السيد "كايارد" فى مشادة مع مساعده بشكل مناقشات حادة مع "موريس بك" أو "موريس باشا" عند تخليص البضاعة.

وتدور الشائعات هنا حول عودة البارون "دى رانج" باعتباره مندوبًا فرنسيًا غير عادى للجنة الإصلاح القضائى.

لا نسمح لأنفسنا بالتفاؤل بحسن الطالع الذى قد يتقبله الجميع بسرور. مع فقهاء قانونيين أمثال أو على شاكلة السيد "جـــون ســكوتى" والسيد "كوكســون" وسرعان ما تتوه مصر فى "لابيرانت" متاهات القوانين الإنجليزية.

رسالة رقم (٦٩)

الإسكندرية فى ١١ ديسمبر ١٨٨١

إن بعض المتشائمين من الصحافة المصرية، ليسوا على صواب فيما يخص مصر، لا سيما، عندما - مثل بعض الصحف الفرنسية - ينكرون الحيوية واليقظة التى سرت فى الأمة المصرية.

كذلك كان بعض الكتاب يرون البلد خراباً إلى الأبد، ولن تتوافر له الوسائل، ولا الإرادة فى خدمة فوائد دينه. تلك كانت آراء لبعض المكفوفين الذين يتناقشون فى قيمة الألوان. فالأحداث لابد من أن تشير إلى العكس، ليس بفضل الرقابة والنظام الجديد، ولكن بكل بساطة باختفاء "الهيدرا" ذات المائة رأس التى - على شاكلة الخديو "إسماعيل" وتابعيه الماليين - كانت تلتهم البلد حتى عظامه.

فى هذه الحالة رغمًا عن تكهنات بعض الصحف الكبيرة وخاصة "التايمز"، "شريف باشا" و "أحمد عرابى" لم يفترسا بعد. وإذا كانت حكومة الأول لم تحقق أشياءً كثيرة، فإنها لم ترتكب أموراً سيئة، فهى كانت متبرمة وفى صراع مع مندوب إنجلترا، نتيجة لمضايقاته لها.

أما بالنسبة إلى الثانية. يظل الرجل الأكثر شعبية فى مصر، الذى تتجه إليه جميع الأنظار. الوقت احتفالى : الأمر يتعلق بتشكيل البلد. الحذر المطلق ضرورى. الأعداء فى كل مكان.

لحسن الحظ أن الصحف الأهلية نحت جانبًا العنصر الدينى بكل أمانة، وكان جدالها ينصب على قضايا الساعة. البعض يعاقب - بطريقة فى غاية الذكاء - الكتاب الأجانب الذين يجزمون بالعلم بكل شىء نيلى، قبل معرفتهم التمييز بين الشمام والخيار. هذا مثال من بنات الأفكار.

ورقة جديدة، صحيفة "الطائف"، ويحررها "عبد الله النديم" كاتب وطنى من المتميزين، بدأ بمقال قرأه الناس بنهم شديد.

"عبد الله النديم" صديق "أحمد عرابى"، خطيب بليغ، بسيط ومنطقى، أعجب الجماهير وأسرهم بأسلوبه كأنه أستاذ فى جامعة السوربون الفرنسية، آراؤه غزيرة وعاقلة، وتطلعاته السياسية كلها قومية وطنية وسلمية، تمثل تمامًا أفكار المواطن الشهير، تدين له مصر بعهد من الحرية المجهولة فى حوليات الشعوب المستغلة أو المستعبدة.

البيان العام الذى وجهه "لورد جرافيل"، فى هيئة رسالة، إلى السيد "ماليت"، أسفر عنه أثراً، بطريقة ملتوية، يتعارض عما كانت تنتظره السياسة الإنجليزية. وجهت صحف البلد النقد إليه، جملة بجملة، يفسرونه بسخرية لاذعة شكلاً وموضوعاً، لا شىء شرقى سوى الحكمة والاستعارة. استخدم الصحفيون الأهليون الاثنين معًا، ليوضحوا المعيار المختفى خلف ستار التحذيرات الخطابية وبراثن الفهد، المختفية خلف البلاغة شبه الليبرالية لحكومة الملكة.

ما من إخفاق يكون كاملاً أبداً. وليس ذلك كل شىء. الفلاحون مقتنعون بحكمة، بأن هذه الرسالة تم ترتيبها بين السيد "ماليت" ورئيسه لاصطياد بقايا النفوذ الإنجليزى الذى سار على غير هدى.

البلد النيلى على علم بما يجرى ويتعلق بما يسمى محمية إنجليزية - فرنسية. فيما يختص بإنجلترا، فهو يعرفها - أى مصر - ذراعًا، ذراعًا. وأما فرنسا، فهى على استعداد لأن تترك "مصر للمصريين"، فالشعور الوطنى لصالحها.

موعد البرلمان الوطنى يتقدم. وموعد الانتخابات تحدد والجميع راضون عنه. فى الأرياف، جميعهم رجال أثرياء ومن ذوى النفوذ، هم الذين تم تعيينهم. وكانت الحرية المطلقة مراقبة فى أثناء الانتخابات. ولا وجود للأتراك. الأمة تمثلها الأمة.

فى القاهرة، كان النواب البرلمانون من الوجهاء المعروفين، مؤرخًا بتاريخ آخر جلسة التى حاول الخديو إسماعيل أن يديرها قسراً: "عبد السلام المويلحى"، تاجر مسلم، وهو مواطن على درجة كبيرة من الاحترام، رجل تحررى ومثقف، اقتصادى بمعنى الكلمة، فهو لا يغوص فى النظريات، ولا فى العبارات الرنانة.

وأذكر بعده "عبد الشهيد أفندى" من أقباط الصعيد، والذى بدون أن يقرأ الثورة الفرنسية وتاريخها، أجاب على رجال الخديو المخلوع، والذى كان يرجو النواب أن ينسحبوا أفضل من أن يناقشوا أوامر حاكمهم: "نحن هنا، المنتخبون من الأمة، وسوف نظل فيها حتى تطردنا القوة المسلحة"، وأدى ذلك إلى مناقشات ساخنة واستقلالية.

لا أستطيع أن أخفى عنكم مدى القلق الذى يخيم على الوسط الرفيع حيال اجتماع المجالس. هذا التخوف دفع إليه حدثًا غير معروف جيداً، وسوف أعرضه عليكم. عندما اقترح "إسماعيل باشا" تكوين برلمان مصرى، بناء على رأى أحد المتواطئين من المرابين الأجانب، والذى لم يتذكر شيئًا مطلقًا فى هذا الصدد، شريف باشا، الذى كان حينئذ ينتقل إلى رجل دولة متقدم، صنع نظامًا تحرريًا من أجل المجلس الذى استبدل بنائب الملك آخر أقل عمومية منه. كان النواب طبقًا لهذا النظام عاجزين عن العمل ومجبرين على الصمت. وكان ذلك ما يريده الحاكم. وأخيراً، بعد عزل "رياض"، طالب "أحمد عرابى بك" وأصدقاؤه "شريف باشا" بالعمل، ولكن، الزمن والعادات!

هذا الوزير نفسه، رئيس للحكومة المصرية بدوره، لم يكن يريد ذلك، فهو يجد أن عمله تحررى أكثر من اللازم، ولكن قانونًا جديداً ينزع من البرلمان معظم سلطاته الشرعية. اعتراض الحزب الوطنى. أخيراً تم التوصل إلى حل وسط. المجلس، منعقد، سوف يناقش تنظيمه الخاص، وسوف يُصوت على النقاط موضوع النزاع. إذا احتد "شريف باشا" على ذلك، فسوف يكون عمل البرلمان لا قيمة له، سوف يظل كل شىء لمبادرة الخديو، اسميا أو من عدمه. فى الحالة العكسية، سوف تدخل مصر فعلاً فى طريق التقدم. وبالتحديد ترجع الصعوبة إلى عدم حضور "أحمد بك عرابى" داخل البرلمان. قانون "شريف باشا" يسمح للجيش بنسبة ١٠٪ الذى، فى هذا الصدد، مد يد العون إلى "شريف باشا" وإلى الخديو الشاب الورع. لا أستطيع أن أفسر لكم دور ممثل فرنسا فى هذه الأحوال. نتعشم أن يكف عن ذلك مع التحرك فى الاتجاه المخالف، سوف يعمل ضد النفوذ الخاص للجمهورية التى تمتلك الآن جميع حالات تعاطف مصر.

لم يكن "أحمد بك عرابى" من هؤلاء الذين يمكن محاربتهم بالكلام، كما حاول ذلك السيد "ماليت" بتجاهله أو التقليل من شأنه. هذا الضابط، هو نمط المصلح والمواطن الشجاع والمستقيم. سلطته على الشعب تُعادل ولاءه. إنه أحد هؤلاء المتميزين الذين تختارهم العناية الإلهية من قديم الزمان، من أجل إيقاظ شعب ذكى، صبور ومستعبد. فى الوقت الذى بلغ فيه ستة ملايين، بنفوسهم المتجانسة، يعرفونه، ويحبونه، ويخلصون

له بدون ملاحظة أى أثر لا من ناحية ولا من أخرى، لعاطفة سياسية أو تعصب. "توفيق باشا"، الذى يمقت العنصر الفلاحى، والذى هجر نديمه السابق "عرابى بك"، يجد نفسه على غير ما يرام فى الوسط المفكك الذى يعيش فيه. وجد نفسه بين اثنين من الأتراك المخرفين "طلعت باشا" و"خيرى باشا" يمتدحان له الأيام الجميلة للاستبداد الإسماعيلى، ويقضى وقته يلعن الحزب الوطنى، كأقصى درجة من درجات المد.

طوعًا أو كرهًا، سيكون لمصر دستور تسجل فيه حقوق الإنسانية. تلك هى النقطة الأساسية التى سوف تنبثق عنها النقاط الأخرى.

رسالة رقم (٧٠)

القاهرة فى ٢٧ ديسمبر ١٨٨١

بالأمس، تم افتتاح البرلمان فى احتفال مكيف حسب الظروف.

ألقى الخديو خطابًا مسهبًا، لا يُعبر عن شىء مهم، رد عليه "سلطان باشا" رئيس المجلس، ردا متطابقًا مع خطابه. وقبل الاحتفال وبعده، كانت طلقات مدفع القلعة تدوى، معلنة للشعب عن حدث سعيد، يصعب التكهن بنتائجه. وفى الأسواق التى تجولت فيها، سمعت محادثات جادة، يسودها اقتناع كامل مرتسم على جميع الوجوه. ولا يوجد أى شك عند الغالبية العظمى، حيال هذه النتائج العظيمة التى أسفر عنها هذا التجديد المهم. بيد أن بعض الأفكار الحذرة تخشى من أن الدبلوماسية تعمل على نثر بذور الشقاق بين أعضاء المجلس الوطنى، وأن تضع فى طريقه العراقيل ، ولكنى أفكر فى هذه العراقيل ولا أذهب إلى بعيد.

إن حدث الأمس، خطوة لم تكن قد تمت بدون صراع. عارضت إنجلترا بشدة فى هذا الصدد، لمدة طويلة بقدر استطاعتها. ولم يوقفها أى تردد. وكانت تجارب العنصر المالى الإنجليزى - الفرنسى الذى يستبعد نفوذه الاستبدادى أىَّ إحساس بحب البشر. ولكن عندما أصبح معلومًا للجميع أن الوطنية المصرية لم تكن مجرد وجه من أوجه البلاغة، وأن الكولونيل "عرابى" وجد نفسه فعلاً، رئيس حزب مكون من الأمة

النيلية جميعها، حينئذ غيَّر مبعوث الملكة خطته. أطلق اللورد "جرانفيل" بيانه، استطلاع متأخر وطائش لكوكب جديد - حتى الآن - مجهول، والاعتراض الذى يجنده "رياض باشا" اتخذ شكلاً آخر. أقيمت السدود فى مواجهة الطوفان، تقول ذلك الحامية الدبلوماسية. بما أننا لا نستطيع إيقافه، فلنوجه ذلك أيضًا أكثر من اللازم، سوف نرى ذلك فى حينه. وعن الطوفان، فلا وجود له. فالماء الذى يسيل، هادئ، فى طريقه الطبيعى، بين السهول الوعرة قليلاً فى الحياة الزراعية. ويساعد تشكيل البلد على تكوين طباع السكان، فى الوقت نفسه الذى يزيد فيه اعتدال المناخ من رقعتها.

دع الشعب المصرى لنفسه، سوف يتمكن من الدخول فى الطريق البرلمانى بثبات شريطة أن لا يضع العنصر الأجنبى أمامه أية عقبات. إذا تظاهرت أوروبا بأنها لا ترى السلطة التى يمتلكها الشعب بين يديه عن طريق الإنابة الوطنية فهى ترتكب خطأ فاحشًا. فمنذ اليوم، الاستبداد الخديوى أو الباشوات نواب ملك مصر، أفسح المكان ضمنًا لسيادة الأمة. الاعتراضات والرغبات، مثل الاحتياجات الاقتصادية أو السياسية، وعن هذه السيادة، سوف تكشف من الآن فصاعدا، عن طريق شكوى كانت تقدم فقط إلى الأمير الذى قد لا يعيرها اهتماما، بل تقدم إلى مجلس النواب أيضًا حيث ينبثق الشعب، كل شىء هنا. فهو لن يتوخى الحذر، لا من ناحية إنكاره ولا من ناحية الجهل به.

قلت لكم آنفًا، كم كانت مقابلة سير "ويليام جريجورى" للكولونيل "عرابى" تسبب الضيق فى الوكالة البريطانية.

وفى هذا الصدد تبادل كل من السيد "ماليت" والسيد "كوكسون" تفسيراتهما بصراحة من خلال محادثات خاصة.

من المؤكد أن "عرابى بك" رجل ذكى، يقولون ذلك، ولكن هذه العلاقات سوف تجعله متكبرًا، ونحن نتجنب أن نظهر له إعجابًا شديدًا، لأن فى ذلك خطورة بالنسبة إلى نفوذنا على ضفاف النيل، حيث يجب علينا قيادته، مادمنا لا نستطيع محاربته.

* إحدى الصحف، وهى "الإيجيبشيان جازيت"، التى تصدر باللغة الإنجليزية، والتى تبدو دائمًا فى عداء شديد، فيما يختص بفرنسا فى الجزائر وتونس، تتظاهر بمعاملة

المواطن العظيم "سيدى الكولونيل" كما كان الملكيون يطلقون على "نابليون الأول" "السيد بونابرت". وذلك مضحك بقدر ما هو ذوق غير سليم، ولكن هذه الصحيفة ليس لها أى معنى، أيًا كان، فى مصر.

ووفقًا لما أراد السيد "ويليام جريجورى" أن يقوله لى، "التايمز" بتاريخ ٢٢ الجارى، لابد أنها قد تضمنت حديث هذا الشخص مع "أحمد بك عرابى"، عمل سبق وأن قامت به الجريدة الأهلية "الطائف".

وإذا كان، فى إنجلترا، يتكرمون بتعليم تاريخ الشعوب، بوسائل أخرى غير تلك التى تقدمها الصحافة البريطانية منذ زمن طويل، فإن المواطن المصرى سوف يكون معروفًا فى الجهة الأخرى من المانش. وقد نشرت "لوسييكل" فى هذا الصدد كل ما هو ممكن قوله عن هذا الرجل، حقًا بارزًا وعن حزبه. ولكن ذلك ينكر فى لندن، كما تنكر معرفة قناة السويس. اليوم تغيرت الأمور، أحد أعضاء البرلمان الإنجليزى سمع ورأى، كيف، وسوف نرى أثر التقييمات النبيلة لحاكم سيلان السابق.

ويدوم الانتظار هنا من أجل رجل مالى كبير إنجليزى، هو السيد "جون بليندير" المدير العام لشركة "إيسترن تلجراف سى. آى. إى". لقد كانت مشكلة أكثر من أى وقت مضى، فى مصر، فى المستعمرة البريطانية، لشق قناة جديدة، موازية لتلك التى تربط بين البحرين، والتى سوف تستخدم بحيراتها الداخلية، مثل الأخرى، بمثابة همزات وصل.

لقد تزايدت حركة الملاحة الدولية، وعدم كفاية القناة الحالية، تجعل الحركة غير سلسة، لذلك فإن الفكرة التى طرحها السيد "جون بليندير" وأصدقاؤه، هى بكل تأكيد لها سبب وجودها. ورأيت حديثًا فى القناة خمسًا وثلاثين باخرة فى حالة ترانزيت، والطريق المائى كان مكدسًا إلى درجة أنه يحتاج إلى ما يقرب من ثلاثة أيام حتى تحصل هذه البواخر على حريتها. تخيلوا لو أن إحدى هذه البواخر الكبيرة غرقت أو انفجرت، فسوف يعقبها جنوح فى الرمال، ويسفر عن ذلك إغلاق القناة.

ولا ينجم عن ذلك إلا ضرورة حفر القناة الثانية. فى مصر، هذا العمل أقل من شعبى، حيث إن القناة الأولى قضت على تجارة الترانزيت التى أثرت مصر وزادت من أهميتها.

وسوف تظل المحصولات متأثرة بذلك فترة طويلة، وسوف يبلغ العجز بالنسبة إلى السنة المالية التى ستنتهى مائتى ألف جنيه إسترلينى تقريباً.

ويوجد اهتمام كبير فى القاهرة، لحالة متوقعة منذ بداية هذا التدبير. جاء بيروقراطيون من على ضفاف السين والتايمز، يتغيرون بصعوبة إلى فلاحين زراعيين، مهما كان المرتب الذى يتقاضونه فاحشاً، ها هو الدليل على ذلك.

اتخذت الحكومة المصرية بعض الإجراءات التى كان لها وقع سيئ على الرأى العام. النزاع الذى يتولاه السيد "بوريللى" والى مدينة إيسوار (بوى – دى – دوم) سابقًا قرر أنه لم يكن مزمعًا متابعة التحركات التى بدأت ضد الأشخاص المشبوهين بجلب نقود مزيفة؛ حيث إن العديد منهم كانوا قد أطلق سراحهم مع استمرار مراقبتهم.

هذا التسامح الآثم مع أمثال هؤلاء المجرمين الأوروبيين، يعتبر مثالاً مخزياً أعطته الوزارة الحالية للأهالى. نشرت جريدة "لو سييكل" فى مقال صغير منذ بضعة أشهر، متوقعةً إيجاد حل، من المؤكد أنه لا يضيف أى شىء إلى أخلاقيات المستعمرات الأجنبية فى مصر. استمر سجل المساحة يستعمل بأكثر الوسائل الشاذة. بالنسبة إلى العمل المزمع القيام به يحتاج إلى قرن من الزمان لإنجازه. لم ندرك أن الحكومة لم تحضر من أوروبا شركة من المهندسين المتجانسين، من ذوى الخبرة، و ليسوا من الهواة، تستطيع أن تتعاقد معهم بالمقاولة لقياسات كل محافظة. هذا العمل الذى كان يجرى هكذا، اكتمل فى خمسة عشر عاماً. فى هذا الوقت، كانت الإدارة التى تدير هذا العمل، تضم إنجليزاً لا يعرفون اللغة الفرنسية، وفرنسيين لا يتحدثون الإنجليزية، ولكن الجميع يرطنون العربية بصعوبة. كذلك المساحة كانت هى الفوضى مجسدة. زادت ميزانية الحرب بمقدار كبير. يتعلق الأمر بإجراء تعديلات فى الجيش، وإعداد فيالق جديدة.

رسـالـة رقـم (٧١)

القاهرة فى ٢٤ يناير ١٨٨٢

يقوم مجلس النواب بعمله بهمة وجدية، وترك للحكومة عملاً مهمًا. وفيما يتعلق بالجمعيات الوهمية واختصاصات الرقابة لم يرد المجلس أن يترك حقه فى المناقشة والاعتراض (الفيتو). ولم يكن ذلك إلا مناوشة ضرورية من أجل تأكيد واجبات واختصاصات نواب البلد.

تريد الأمة، قبل كل شيء، أن تجعل الجهاز الحكومى يسيرًا، وأن تحقق اقتصاديات حقيقية، وأن تنافس الموظفين الأوروبيين، بقدر ما تستطيع.

وبعد أن أكد الحزب الوطنى للشعب أنه يعرف طريقه، وأنه سوف يسير فيه بدون أى تردد وأنه يهدف إلى استخدام كل ما يتمتع به من امتيازات برلمانية، قرر أن يتجاوز عن السنة المالية الحالية. الميزانية التى أصدر نائب الملك مرسومًا بإعدادها على وجه السرعة بدون دقة، حتى يحجبها عن تقييم المجلس، سوف تخرج تمامًا عن سلطته. والآن يهتم النواب بإعداد نظام نهائى للمجلس، مما يؤدى إلى احتكاكات وزارية تكشف عن مجموعة من المخالفات الصارخة. ولكن، كانت تلك عواصف هادئة بدون نتائج. كل شيء سوف تخبو جذوته. وظل الهدف صعب التحقيق كما هو: المسألة المالية. كان الحزب الوطنى يهدف - بدون أن يسبب أى إجحاف لدائنى مصر - إلى عدم ترك حكم البلد لعنصر أجنبى بسبب الكوبون فقط، مضاعفًا بفكرة السياسة الإنجليزية، والأمة تعالج فى آن واحد: تحررها، والخدمة القانونية لما عليها من دين. السلطات لا ترى شيئًا فى المسائل التفصيلية.

بالرغم من هذه المقدمات الواضحة، لم يتوقف العميل البريطانى فى مصر عن التدخل لدى نائب الملك و"شريف باشا"، لكى يحول دون تحقيق ذلك، مُطالبًا بهذا، يعد ويتوعد، وينتقد المذكرة الجماعية الشهيرة التى انتزعتها لندن فى باريس، للإثارة من أجل أن تسبب القلاقل فى البلد. إلى درجة أنه كان يدور الحديث عن حل مجلس النواب، والمجلس بدوره يثابر على الرغبة فى مناقشة الميزانية وتعديلها. عم أسفر ذلك؟

درس سهل وخطير فى آن واحد. حلوا ، هذا من حقكم، ولكننا سوف نعود جميعًا، بأغلبية تحررية وكذلك أكثر عددًا. لحسن الحظ أن "شريف باشا" لم يكن قادرًا على أن يلقى بنفسه فى خضم الانقلابات السياسية، تمنعه نزاهته، بدون شك، وقد تكون له رغبة فى ذلك. وفضلاً عن هذا، فهو يتصرف باتفاق تام مع "عرابى" والحزب الذى يرأسه. وذلك يكفى.

مرّت على "توفيق" أوقات محرجة بعد أن قرأ المذكرة الأنجلو - فرنسية. كان ينبغى عليه أن يتنصل من أى تصرف من ناحيته - حيال القسطنطينية وأوروبا - من شأنه أن يؤدى إلى صدور بيان دبلوماسى ساذج وفى غير موضعه. استسلم نائب الملك عن طيب خاطر لهذه التفسيرات، وعاد الحديث إلى مجموعة الأخطاء المنسية. لا أستطيع أن أعبر لك عن الأثر الذى نجم عن المذكرة الجماعية فى البلد. بحثتها الصحافة كلها وأدانتها.

ومن جهة أخرى، كانت الصحف الإنجليزية تدافع عن المبادرة البريطانية، وتؤكد أن النقابات الفرنسية هى التى أجبرت الحكومة، وهى التى بدورها بالمثل لإنجلترا، التى لم تقل كلا. كل ذلك له مظهر كوميدى حزين، مضحك وخطير فى آن واحد بتبعاته المالية فى المجال الصدفوى، بل خطير أيضًا، إذا تم التفكير فى أن مثل هذه الحماقات التى تكررت كثيرًا يمكنها أن تحرض شعبًا هادئًا ليقوم بثورة، وتؤدى إلى أحداث وخيمة.

أستطيع أن أؤكد لكم أن الموظف العام الأنجلو - إيجيبشيان، الذى بالرغم من مهمته كقاض فى محكمة الاستئناف، يستمر باعتباره مراسل جريدة "التايمز"، لا ينقطع عن ذكر البلد على أنه فى حالة من الفوضى الكاملة. بالأمس أيضًا، يوحى بأنه من الضرورة الملحة التدخل، سواء عن طريق إرسال بارجة من كل قوة من القوتين الحاميتين، مع فرق إنزال، أو من القوات العثمانية. وأشار كذلك، إلى أنه لا مانع من إرسال فيلق هندى عن طريق السويس، إلخ.

ومع أن هذه الجهود الضائعة، لأصحاب النزوات، لم تسفر إلا عن إهمال يرثى له للواجبات التى فرضها روب القاضى، الذى قبل أحد الرعايا الإنجليز بارتدائه مرة أخرى، مقابل مرتب، فإن نشر مثل هذه الآراء فى هذه الظروف الصعبة الحالية لا يمكن إلا أن يزيد من المصائب.

لا أستطيع إلا أن أفكر فى جميع الإشاعات، حول التدخل الذى يروج له بعض أعضاء المستعمرة الأوروبية. إن رأيى الخاص بى، الذى يقوم على الحقيقة، رأى معاكس تماماً: لأنه لا شىء، لا شىء مطلقاً، يبرر مثل هذا الخطأ، إلا إذا كان ظلماً مماثلاً.

أجرى المندوبون نوعاً من التحقيق الرسمى عن النتائج العملية للتغييرات التى تمت بناء على اتفاق "جوشن" فى إدارات البلد الكبيرة. وحقاً، ليس على وزارة الخزانة إلا أن تهنئ نفسها على هذه البدائل الدولية الشهيرة. الجمارك والسكك الحديدية خضعت هكذا لفحص دقيق، مع اعتباران الأساس هو مدة خمس سنوات سابقة وخمس سنوات لاحقة للإدارة الإنجليزية. هذا المتوسط لعشر سنوات منصف بقدر ما هو مؤكد. حسناً! وقد لوحظ، بلا عناء، أن كل الأمور تتساوى، كل فرع من فروع الدخل قد حقق عجزاً أكثر من مليون جنيه إسترلينى منذ التدخل الأجنبى - يكون فى مجموعه ٥٠ مليون فرنك على الأقل! - من أين يتأتى هذا الفارق الضخم؟ ها هو: قصور من الجميع، وتزايد تهريب البضائع على مستوى كبير، واختلاس وخيانة لأمانة الوظيفة فى كل المناطق الوسيطة، وأتعاب هائلة، ومصروفات بلا جدوى وبدون أية تسهيلات عما كان عليه الأمر من قبل. اقتحم مراكز العمل مجال النفقات التى لا مبرر لها، مختنقة بخطوط ملاحة، لا شك فى أنها سيئة الإدارة، وتشكل سوء استخدام السلطة كما سبق الإشارة إليها.

وبماذا أحدثكم عن نتائج قرض بنك "روتشيلد" المسمى "الدومين" أو قومسيون الأملاك الأميرية ، والدائرة؟ نتائج مطابقة.

وصل إلينا من لندن وباريس إداريون زراعيون، لم يخرجوا من مكاتب أية مصلحة مدنية كبيرة بأقل معلومة نظرية أو عملية. وذلك بالنسبة إلى الدومين.

أما بالنسبة إلى الدائرة، فقد وضع فيها موظف من المالية الهندية، فارس ممتاز، ولكنه لا يستطيع أن يميز بين اللفت والقرع. ونظراً إلى أن إدارة هذا الموظف تعتبر كارثة، فقد تم تبديله بجنرال إنجليزى - هندى عجوز، نزيه جداً، ولكن من الناحية الفنية عندما يتكلم، يشبه سلفه فى جميع صفاته.

كانت النتيجة المباشرة لهذه التجمعات خسارة لا تعوض بمبلغ مليونين من الفرنكات بالنسبة لإدارة ١٨٨٠، وأكثر من خمسة ملايين بالنسبة لإدارة ١٨٨١. وينبغى على البلد أن يدفع الفرق لكى يفى بالكوبون.

رسالة رقم (٧٢)

القاهرة فى ٣ أبريل ١٨٨٢

الحالة السياسية لم تتغير. والحكومة تتجه يوميا نحو الهدف الوطنى. والإجراءات المأمولة والجاهزة سوف تؤدى إلى تغييرات جادة فى شئون العاملين الإدارية. توفيرات كبيرة فى جدول الأعمال فى كل مكان حيث سهولة وسائل العمل يمكن أن تحل محل المجموعة المعقدة من الجهاز الحكومى الحالى، ولا يوجد تردد فى إجراء ذلك. كانت الآلة المالية هى هدف هذه الإصلاحات. وحول الخزانة العامة والرقابة توجد وظائف عاطلة براتب وبلا عمل لا تحتمل، لتهميش مرتبات خيالية.

أحد الأفراد يقود عربة فاخرة بطاقم من الخدم يرتدون الزى الرسمى الموحد، وبعربات احتياطية وخيول ممتازة - بعبارة أخرى - يشغل منصب سكرتير، وربما يتقاضى مكافأة تبلغ ٨٠٠٠ فرنك فى العام.

حسنًا، هذا الموظف المرفه قد يصل مرتبه إلى ٤٣٠٠٠ فرنك، بفضل المراقبين، الذين يستخدمونه فى لجان لا جدوى منها، حتى يحتفظوا بوجود أناس مكلفين حولهم من أجل وزارة الخزانة، بل لكى يقدموا لهم خدمات شخصية. قرر نظام الحكم الجديد أن يطهر الوزارات من هؤلاء الكومبارس الذين يتقاضون مرتباتهم من الدولة، على حساب أهل البلد الذين يشكلون عددًا كبيراً.

جميع هؤلاء العاملين، صغاراً كانوا أو متوسطين، يعدون أعداء الحزب الوطنى الطبيعيين. هذا اتجاه للأسف ملحوظ. عليك فقط أن تتساءل أى موظف أوروبى هنا فى خدمة الحكومة، وسوف تتلقى إجابة واحدة، على شكل لعنة موجهة إلى النظام التحررى.

وهذا المزاج السيئ يدرك على سبيل المثال فى باريس من الأجانب الفرنسيين. ولكن على ضفاف النيل، يبدو لى أن الأجانب يجب أن يُكنّوا الكثير من الاحترام للبلد الذى يقدم لهم كل شىء بسخاء. والأهالى ناقمون على ذلك. وإلى جانب هذا التعارض البيروقراطى الذى له مداخله ومخارجه، حتى الدبلوماسية، ينضم إليها العمل القنصلى

الذى يتدخل دائماً وبطريقة مطلقة فيما لا يعنيه من الشئون الخاصة، ويعيق، بقدر الإمكان، تحركات الوزارة. ولكن الدسائس قلت أو كثرت خطورتها وجديتها، ليست القضايا الوحيدة التى تهدف الحكومة الوطنية إلى محاربتها.

الحزب التركى - المصرى، الذى تمثله الأسر الحاكمة السابقة بنفقة دائمة، والتى يجب ألا ينظر إليها باستخفاف. المعروف أن ذريات أصدقاء "محمد على" من أصحاب المقامات الرفيعة الذين ساعدوه فى جهوده لبناء البلد النيلى، لم يشعروا أبداً، مثل أجدادهم، بعطف من أجل تحرر الفلاحين. إذن لا يجب أن نندهش، إذا رد لهم الأهالى المصريون الكيل بالمثل، إبان القيام بالإصلاحات والمطالب السياسية - الاجتماعية. حالياً، عين رجال حسب إرادة الشعب، فى مقدمة الأمة، مع استبعاد العنصر التركى شيئاً فشيئاً، من جميع الوظائف العامة، كما تم استبعاده من الجيش. ويبدو لى أنه فى وقت إجراء تغيير مماثل، ليس من الحذر خلق طبقة غير راضية مهما كانت قليلة العدد، خاصة وأنه فى القسطنطينية تتزايد يوميا بؤرة الدسائس المناهضة للتحرر.

هنا تكمن المشكلة العويصة. السلطان يعد مفاجأة، لم يكوِّن عنها أى فرد فكرة واضحة، كل فرد يعتقد أنه يقرأ أو قرأ بعض سطور هذا الفصل حيث التكهن يلعب دورا كبيرا. وأرى أن الخطأ سيكون عظيماً.

بوضوح : "توفيق"، سواء كان عن طريق الأخطاء الدبلوماسية التى ارتكبت، أو عن طريق الموقف المكدر والمريب للحكم الثنائى، أو أخيراً بسبب عدم قدرته - أصبح، ليس فقط مستحيلاً باعتباره خديو، بل أيضاً يعتبر عائقًا فى سبيل الهدوء فى مصر، وكان من الأفضل كثيراً أن الحزب الوطنى الذى يحكم بتعقل اليوم، يعلن بصراحة أنه يميل إلى الأمير "حليم" الوريث الحقيقى لمؤسس مصر الحالية، بدلاً من أن يجلب إلى الوطن النيلى المخاطر التى كدسها عليه هؤلاء الذين يدعون أنهم أصدقاؤه. لن يستطيع ابن "محمد على" إلا أن يكون حاكمًا دستورياً بالعناصر الإدارية الطيبة التى أظهرتها الحركة الوطنية، وأن أية صدمة لاحقة سوف يمكن تجنبها.

إذاً، فالحالة جد خطيرة. ويفهم أن رئيس الدولة، كما هو مفروض على مصر، بناء على سياسة تجهل حقائق الأمور، والاحتياجات وتطلعات الأمة، وتشكل فى الأفق هدفًا مشئوماً،

إن لم يكن شاذًا، ينبغى الخروج منه إن آجلاً أو عاجلاً. وكيف سيكون المخرج منه؟ تلك هى بالتحديد الناحية الخطيرة فى المسألة، وهناك احتمال كبير أن الأمور سوف تستتب بمساعدة إحدى هذه التجمعات غير المتوقعة التى تقوم الصدفة فيها دائمًا بمكافأة الشعوب التى تعمل على التحرر وإجراء إصلاحات. ولكن الاحتمالية فى ذلك لم تتضح بعد، وما يجرى فى القسطنطينية عند السلطان ذاته بقدر ما يجرى عند الدبلوماسية رفيعة المستوى لا يطمئن أصدقاء التحرر النيلى.

وإلى إنجلترا تنسب المشروعات المشئومة الممكنة، ونؤكد أن السيد "ماليت" يميل لصالح الحزب التركى المصرى الذى حدثتكم عنه منذ قليل، والذى على رأسه، لعدم توافر الأفضل، ورغمًا عنهم، عين أعضاؤه "توفيق"، الذى هو شخصيًا متحير عند ضفاف البسفور، لا يعرف أبدًا أين هو ذاهب.

ويضاف أخيرًا أن "نوبار باشا"، الذى هو على وشك الوصول، سيكون حاملاً لبعض الاقتراحات المكيافيلية [أى التى تنزع إلى الخداع] التى تؤدى نتيجتها النهائية إلى سقوط النظام الحالى. وكانت المحاولات دائمًا تجرى لخداع قادة الحركة الوطنية ببعض الترتيبات المستساغة ظاهريًا، ويجعلهم يقعون جميعًا فى مصيدة هائلة. لا شىء مما أنبئكم به اليوم غير مستبعد، ولكنى لا أصدق أبدا أية مهمة للسيد "نوبار"، وأخرى لا أعتقد من باب أولى نجاحه فيها. هذا الأرمينى يستخدم باعتباره رجل دولة، بمثابة دبلوماسى أو موظف. فهو مكروه للأمة ولا يسمع إليه أى أحد. ولكنى مقتنع بأن الدسائس التى تحاك فى القسطنطينية، سوف تثير أزمة لا يمكن تجنبها. وليحفظ منها الله مصر معافاة.

يجب أن ننصف الوزارة الحالية التى تتسم حركاتها - التى تثير الإعجاب - بالحكمة. يعتبر "أحمد عرابى بك" رجلاً حصيفًا ومحنكًا. هو وأصدقاؤه لن يحيدوا عن منهجهم، وهو الإصلاح التدريجى، بدون أية إساءة إلى الترتيبات المالية من أساسها.

ولن تغير المذكرة التى بلغت إلى مجلس النواب أى شىء من قراراته بصدد الميزانية، هذه الوثيقة الدبلوماسية - مثل سابقاتها - ليس لها طابع ولا اتجاه. تأجل مجلس النواب إلى نوفمبر القادم، ومنذ الآن ليس لنا أن ننتظر أى تغيير فى تكوين الوزارة، الذى يلقى موافقة تامة من جميع الأعضاء.

الجيش فى حالة هدوء. ولا يعتريه أى اختلاف فى الرأى. تم استدعاء السيد "نوبار" إلى مصر قبل كل شىء من أجل أعماله الخاصة، وعلاقاته مع عمليات السيد "إيستون" التى شارك فيها.

وبإجماع الأصوات، أعلن مجلس الوزراء معارضته لحفر القناة، على الأقل، مؤقتًا.

رسالة رقم (٧٣)

القاهرة فى ٢٩ أبريل ١٨٨٢

إذا كان العالم أجمع قد اتفق على أن ينشر سخافات عن مصر، فإن مروجى الإشاعات لن يتمكنوا من تحقيق أى نجاح. إن الجهاز الدبلوماسى ذاته غير معصوم من أشد أنواع الوباء المعدى بغضًا. فى هذا الصدد توجد ملاحظتان مؤسفتان، جوهرهما شرقى تمامًا.

قديمًا، كان القناصل العموميون، يوجدون فى مواجهة الوزراء، يقدمون واجهة صالون ، متحدث ومتكلف فى الحديث، عند الشراء، حسب الحالة. كانت الدبلوماسية تتحدث، وتتلقى الرد عليها. إذا كان هناك نزال، فالاستعراضات تعقب ضربات السيوف. أخيرًا، من الجانبين، كانت توجد سيوف وواقى الصدر. المال متوفر، لم يكن عزيزًا . الخديو إسماعيل، إذا كان متعبًا، لا يذهب إلى الجبال، بل يحضرونها إليه.

ولكن الآن تغيرت الحال، فالذهب الذى كان مخصصًا لتوفير زيت التشحيم الذى يمنع الاحتكاك، غير متوفر. التوفير سائد، الوزراء رجال أعمال، والمبلغ الزهيد "لحلو الحديث" لكى يقولوا شيئًا له أى سحر فى نظر. طواحينهم تدور، ولا يعلم أى أحد القوة المحركة لها، وكذلك قليل من الحبوب يلقى فى المطحن ويجب أن نأخذ الدقيق كما هو ، محملاً بالنخالة. اختفى القبول وكان يقال: ولكن يا لهم من رجال دولة يثيرون العجب! إنهم يلتزمون الصمت، يتحدثون قليلاً، يتكلمون بغموض، وعند اللزوم تظل أفواههم مغلقة.

ومن هنا تتنوع التقييمات قليلة الاستنتاجات، ولكنها على الأرجح سريعة، غير صحيحة وعلى أساس غير سليم للدبلوماسية. بمثل هذه العناصر، أسألكم كيف أن السادة القناصل العموميين يستطيعون إعلام حكوماتهم بنزاهة وضمير! ولا أذهب بعيداً عن الحق فى الإجابة بآرائهم الشخصية، وهو ما لا يساوى شيئًا كبيرًا دائمًا. والهدف الثانى هو ما يلى: فوج من الموظفين الأجانب، يتقاضون رواتب ولا يقومون بأى عمل تقريبًا، يكافأون بسخاء، والذين يستعبدون ويخشون التغييرات غير المناسبة، يبيضون ويحتضنون بيض وأفراخ البطة حيث يسرق نتاجها الردىء من كل الجهات.

فى هذه الحالة، إذا أضفنا إلى هؤلاء العاملين، البرقيات المؤثرة لوكالات البرقيات، مشبعة تمامًا بمصالح المضاربين فى البورصة، حيث القاهرة والإسكندرية والمواقع المالية فى أوروبا ممهدة لهم سوف تحصل على سر انحراف المزاج المصرى الذى يسود من ضفاف النيل إلى ضفاف التايمز.

ويبدو أن الرغبة والمراد أن تسوء الحالة فى مصر. لم تكن الحكومة التحررية سخية، وكانت توفيراتها جائرة. "إسماعيل" أفضل قيمة. نقول فى هذا الصدد كل ما هو ممكن من سوء. عندما يلفظ بالأمر يطاع، ها هنا حيث نكون. وقد حرصت على أن أعرض عليكم هذه الحالة الاستثنائية، وهى ضعيفة سياسيًا، سوف تؤدى إن آجلاً أو عاجلاً إلى أزمة أخرى مالية أخطر من سابقاتها، وسعر الدين الموحد يثبت ذلك، ومع الكوبون لابد من أن ترتفع الأسعار. إنها المضاربة عن جهل أو لتحقيق هدف، من ناحية، ومن ناحية أخرى. بذلت محاولات لخفض الأسعار للوصول إلى رد الفعل الإيجابى. وكل شىء هنا.

حاليًا، يقال، أصدر مجلس الحرب الحكم المنتظر. ماذا سيكون مضمونه؟ رأيت جنرالات هذا الصباح تنم طريقة نظراتهم إلى المتآمرين على أنها ليست فى صالحهم. وإذا كان الكولونيل "عبد العال باشا" الذى كان مخصصًا له اللبن المسموم، قد مات، والذى كانت عائلته سوف تذرف عليه الدمع، وسوف يستدر حزن جنوده عليه؟ وإذا كان أحمد عرابى قد قتل، حيث سيلقى القبض عليهم، لكانت نتائج هذه الجريمة التى يعتبر التدخل فيها سواء عثمانى أو أوروبى، من أخطر ما يمكن، ولن يذكر أى شىء عن الدماء التى كان يمكن أن تُراق فى هذا الصدد.

حقيقة إن المواطن الوزير الذى كان مزمعًا قتله، سوف يتقدم عشرة رجال من فرقته ليخلفوه ويواصلوا طريقه.

ولكن هذا هو الذى يجب أن نبحثه، عندما يكون إحيــاء مصر، قبـل كل شىء، عملاً سلميًا.

"إسماعيل باشا" المؤلف المباشر وغير المباشر لهذه الظـروف المؤسفة كان يجب - وفقًا لما أرى - أن يراقب عن كثب. قد جعل من نابولى، بملياراته المسروقة من مصر مقرًا للمسألة النيلية، معقدة عن تلك التى تخص تونس والجزائر. والأخطاء التى ارتكبها الوزراء "وادينجتون" "وبيكونسفيلد"، سوف تضيف أمورًا أخرى خطيرة عن سابقاتها، والتى سوف تنتهى نهاية مشئومة بالنسبة إلى مصر وأهلها.

ذكرت لكم فى رسالتى الأخيرة، أن "إسماعيل باشا" هو الرأس المدبر لوضع السم فى اللبن للجنرال الذى سلح الشراكسة والذى كان يريد أن يفجر الثورة فى القاهرة عن طريق التمرد فى الحريم وتفجير الثكنات.

أحد الجنرالات، قليل الأهمية شخصية أو رتبة عسكرية، ولكنه من عمل الخديو السابق، "راتب باشا"، كان منفيا قبل العاصفة، من حسن حظه، يقال، إنه لم يكن موفقًا، "راتب" يعتبر حاليًا - أو كان يعتبر - قائد القائد الإدارى للجيش فى الحبشة حيث كان خلوا من الكفاءة وحسن التدبير. وكذلك عدم قدرة "حسن باشا" ابن الخديو، والضباط الأمريكان والأجانب، فقد هزم هزيمة رجل واحد ولم يأسف عليه أحد، ولكن كان كل فرد يتمنى أن يتلقى مرتكب محاولة التسميم عقابا يستحقه.

مجتمع خديوى لطيف، مثل ذلك الذى حدثتكم عنه! المرابون، والمفترسون، سيؤدون له شعائر، ولكن الرجال المساكين، عرقى، قتلى، مخنوقين بالمئات، وعائلاتهم؟ لم يتحدث عنهم أحد. ويقال إنه يوجد دبلوماسيون يحلمون بعودة مثل هذا الحكم!

إن نفى البلد للسيد "ماكس لافيزون" كان قد أعلن ونفذ. ورغمًا عنه، السيد "دى ليكس"، قنصله العام وعميل روسى، وجب عليه أن يبلغه بالقرار. تم إجراؤه بجدارة.

بالأمس، قال "عرابى" لصديق حميم: "أترى ما يفعله الأيرلنديون فى أيرلندا: سواء خطأ أو صواب، يوميًا يقتل أو يغتال أشخاص ينتمون إلى جميع المناطق. وحسب ما أرى، هذه الأعمال البربرية، قد تجرى بالكاد فى مرتفعات التبت. حسنا، هل تطالب جريدة "التايمز" بتدخل مسلح؟ كلا! إنها تحذر من ذلك تمامًا. إنها تحتفظ بمضايقاتها من أجل مصر، عندما قتل أحد الإنجليز المتغطرسين، أحد الحمارين، تلقى ضربة قاصمة. الإنجليز والأيرلنديون لهم امتياز الجرائم الزراعية والسياسية. هذه الاغتيالات، فى الأصل، لها سببها ولا تعير أى شخص أى اهتمام. ولكن إذا طلبنا مراجعة معاهدة قوية وباهظة، وإذا اهتممنا بأن نعطى أنفسنا نظمًا سياسية تحررية، وإذا أردنا أن نحكم أنفسنا فى بلدنا، وأن نتنفس هواء بلدنا النقى، المكتوم منذ زمن طويل، فإن صحيفة لندن الكبيرة، ومثيلاتها فى باريس، تحرض الناس علينا، ويهددونا بتدخل مخرب وإجرامى! هل هذا عدل؟ كلا. هذا جنون".

رسالة "عرابى" نشرت فى "جريدة التايمز"، كان لها وقع حسن، والمؤلف تلقى عنها مجاملات هذا الصباح وكان الهدف منها أن يضع حداً، بقدر الإمكان، للاتصالات المزعجة من بعض مراسلى الصحف التى تتحدث عن مصر بطريقة أكاديمية مثل "يوليوس فيرن" من صحيفة "لا لين" (القمر). هؤلاء السادة يجهلون شيئًا مهمًا فى القاهرة، بالرغم من زياراتهم المتكررة للوزارات، وفى كل مكان، يقابلون أبا الهول بحديثه الصامت. لذلك يجب أن نكتب، وحينئذ، يكتب ما لم يكن أبداً، ولن يكون أبداً. رؤساء البنوك شبه الوطنية، يتصرفون دائمًا من فراغ. لا يثق أحد بوعودهم التى تكذبها أسماؤهم وأعمالهم. ومهما يكونوا أصلاً من الرعايا، فجميعهم فى حماية أوروبية، وذلك قد يحرم الحكومة من إجراء أى تصرف ضدهم، إذا كانت المؤسسة "الوطنية" تدفع فى الحال بدون مراعاة لشروط البرنامج.

لا تزال إشاعات التدخل التركى أو المختلط سارية. تلك خدع الذين يلهون، ولا يوقفها أحد. الحكومة تعمل بنزاهة، هذا كل ما يريده الناس. اللهم أعنها على أن تتحرك فى حرية وسلام.

رسالة رقم (٧٤)

أنباء الأزمة فى مصر

مع أنه منذ الثامن من شهر مايو، أدت الأحداث إلى تغيير ملحوظ للحالة فى مصر، نعتقد أنه من الواجب نشر الخطاب الذى وجهه إلينا مراسلنا الخاص؛ لأنه يحتوى على تفاصيل ذات أهمية حيوية ولكنا نتحفظ تمامًا على تقييماته بالنسبة للرجال والأحداث التى يتحدث عنها.

القاهرة فى ٨ مايو ١٨٨٢

مجلس الحرب الذى كان مقره فى حى قصر النيل، أصدر حكمه فى قضية المؤامرة الشركسية. بمقتضى هذا الحكم يقضى المتآمرون بقية حياتهم - وعلى رأسهم "عثمان باشا"، وزير الحربية السابق، وهو الذى كان يريد ذات يوم أن يلغى الحزب الوطنى - فى بعض قرى البلاد التى يرويها النيل الأبيض.

لا أتحدث عن التجريد من الرتب العسكرية الذى أعلن أيضًا، بالإضافة إلى ذلك، وبأدلة واضحة فإن الخديو السابق إسماعيل كان محرك هذه المؤامرة الكريهة، التى من أجلها كان قد أوفد القائد العام "راتب باشا"، وسوف تدرس مسألة ما إذا كانت المخصصات المالية التى يتمتع بها، والتى تدفعها الخزانة المصرية، سوف تستمر أم لا. استخدام المبلغ الضخم الذى يتقاضاه هذا الأمير سنويًا من الخزانة العمومية من أجل أن يشعل الحرب الأهلية، ويخطط - احتمال وارد - لعودته الخاصة، أتصور أن السلطات لا ترمى إلى ذلك . "إسماعيل باشا" الذى يبت فى مثل هذه المسائل على هواه، ثم يقرها وزراؤه المجاملون، طوعًا أو كرهًا، ولم يحدث أبدا أن عمه "حليم باشا" قد أساء إليه.

كانت ذريعته أن هذا الشخص المنفى كان يتآمر عليه فى أوروبا، فقطع عنه تمامًا السنوية التى تبلغ ٨٠٠٠٠ جنيه إسترلينى، منصوص عليها رسميًا بعودة الأملاك

التى كان الخديو، الموسوس قليلاً، قد وضع يده عليها. "حليم" الذى كان - إذا لم أكن مخطئًا - فى باريس فى ذلك الوقت، يعترض، ويعلم نائبه الملكى ابن الأخ، بأنه إذا لم يستمر دفع ما كان يدفع حسب العرف، فسوف يأتى شخصياً للمطالبة به. كل ما فعله "إسماعيل" بمنتهى البساطة أن أجابه برقياً: "لا تتكبد هذه المشقة لأنك ليس فقط لن تطأ قدمك مصر بل ستعود على متن السفينة نفسها، التى تقلك إليها". هذه الظروف قد استمرت حتى التخلص من "ويلسون".

لن تذهب الحكومة النيلية إلى بعيد لكى تبرر شطب القسط السنوى الذى لم يكن ضرورياً، وأسىء استخدامه.

رحل "راتب باشا" قبل النهاية، وخلص منها بالتجريد من الرتبة والنفى المؤبد. وفى نابولى، من أجل أن يكافئه رئيسه، جعل منه كونتًا. ولكن هذه الألقاب النبيلة، المكتسبة بإجراءات احتيالية يستخدمها كثيراً مغتصبو الأرض المصرية، لا تقدم السعادة إلى طيور "أبو رزيق الذهبية" التى يتباهون بها.

لا يوجد لدى أى تغيير أذكره لكم فى حالة الظروف النيلية. الحكومة الوطنية تعمل بطريقة عظيمة، بدون ضوضاء، بتخفيض المصروفات وتسهيل المهام الإدارية بقدر المستطاع. المستعمرة الأوروبية، المسيحيون والماليون الساميون الذين شيدوا لأنفسهم قصوراً من لحم الفلاحين، يأسفون على نظام يحكم على هواه. صمت الخلاص الذى يخيم على الوزير يدهشهم بطريقة كريهة ومقززة. ينشرون على الملأ أنه لا يوجد حكومة فى مصر، وأن الكارثة وحدها سوف تنقذهم بأن تفتح لهم خزائن الدولة. ماذا يمكن أن ننتظر أكثر من ذلك من رعايا سبع عشرة دولة مختلفة، الذين من أجلهم تقوم الوطنية النيلية بالصرف عليهم من منابع مصر؟ انتبهوا إلى هذه الإشاعات التى، للأسف، وصلت إلى دواوين الوزراء فى أوروبا.

لا توجد أية كلمة حقيقية فى الأنباء المثيرة التى تستخدمها "رويتر وهافاس" يومياً من أجل عملائهم. اقتصر قناصلنا العموميون على العيش فيها بافتراضات ومواقف لا تتوافر إلا فى تخيلات البعض. سلوك الآلة الحكومية النيلية سهل، و "أحمد عرابى" هو وزملاؤه لا يريدون أن يمسوا أى اتفاق مالى دولى. الدين معترف به، وقسطه تحدد قانونياً،

ولكن فيما عدا ذلك فإن الأمة المصرية عندها طموح نبيل، كما يمليه عليهــا واجبها : أن تظل سيدة نفسها. لا تتصوروا وجود أدنى علاقة بين القــاهرة والقسطنطينية، تربط الحزب الوطنى بالسلطان، سوف تسلك طريقًا مزيفًا. هذا خطأ مطلق، ولكن يجب على الدبلوماسية أن تتكلم وتتحرك، وأن المنجمين السياسيين يجب أن يكون لديهم سعة من الوقت.

– علمت الآن أن أحمد عرابى قد تشفع عند الخديو وأصدقائه المقربين، ليحصل على تخفيف العقوبة على المدانين – الحكم الصادر ضد المذنبين – مع أنه قاس، لم يكن كافيًا – إذا قدرت العواقب الوخيمة التى كان يمكن أن تسفر عن المؤامرة. فى أوروبا، كان يمكن لمحكمة عسكرية أن تنهى حياة الكثيرين بالرصاص. ولكن "عرابى" شخصية حكيمة ورحيمة. فكر فى أن إلغاء الحكم واستبداله باستبعاد مؤبد خارج الأراضى المصرية سوف يؤدى إلى الهدف نفسه، بدون ويلات المناخ السودانى، التى كبدت "إسماعيل باشا ورياض" خسائر فادحة.

وحسب ما أراه وأسمعه كل يوم، استطعت أن أقنع نفسى بأن القسطنطينية أبعد من ذى قبل عن ضفاف النيل، حيث لا توجد أية رغبة فى فصم العلاقات التى فرضتها الفرمانات السلطانية والمعاهدات.

تلك هى الحالة الراهنة التى يرمى الحزب الوطنى إلى الاحتفاظ بها – باستقلال لا أكثر ولا أقل. وكل تدخل عثمانى فعلى سيكون بالنسبة إليه مكروهًا، مثل تدخل أية سلطة أوروبية على حد سواء. قال لى "عرابى" مرارًا : « نحن نعرف واجباتنا الدولية، ونحافظ عليها فى الحدود الممكنة. نحن لسنا فى حاجة إلى أن نجعل – فيما يتعلق بالحضارة – من مصر باريس أخرى أو لندن ثانية ، من أجل أن نفى بديوننا. من المؤكد أن ذلك لن يكون ما نتمناه. قناصلكم العموميون إذا سمعنا كلامهم حرفيًا فسوف يدفعوننا إلى أكثر من طريق مسدود. مصر، كما هى، تراعى مكانتها التى كانت عليها، ومسيرتها الحالية، تقدمت أكثر بمجهودها الذاتى، وكأى شعب فى العالم، بقدر متساو فى الزمن والعصر. إذن نجد أنفسنا متحضرين بما فيه الكفاية: أكثر من اللازم، ربما باحترام أكيد.

بالإضافة إلى ذلك، الفلاحون الذين استخدمهم العنصر الأجنبى - لسوء الحظ له مطلق الحرية هنا أكثر من أى مكان آخر - قد أصيب ثلاثة أرباعهم بقصف مدفع. فى هذه الحالة، واجبنا هو بناء الصرح، والحفاظ عليه، نحن بأنفسنا، فى حالة جيدة» .

من الأرجح ألا تفترضوا أن اللواء "عرابى" وأصدقاءه الأقوياء لا يمكن أن يبعدوا. هذه المخاوف التى يعبر عنها بعض الرجال شبه المقتنعين أو أعلموا خطأ، مثل السير "وليم جريجورى" أو بصفة أعم، الموالون السابقون ليس عندهم أى أساس صحيح. لا تقرروا ذلك. سوف يكون ذلك قليل الكرم وغير مشروع. الأمة النيلية تثق بزعيم خرج من بين أحضانها. إنها تريده، وذلك يكفى. لا يوجد جيش، الجيش هو الشعب نفسه.

تعرض التحقيق الجمركى إلى دفع حماسى، قام به رجلان مرموقان : "حسين بك واصف"، سكرتير سابق لوزارة العدل، وهو من أكفأ العاملين المرموقين، و"يعقوب أرتين بك" باعتباره فكرًا عمليًا وعاليًا، "روجرز بك"، أدرك من سبقوه، فكان من الواجب أن يتنحى. يحكى أن السيد "كايا" وأركان حربه، قد أحسنا إدارة أمور الجمرك، وأن البضائع التى كانت مقدرة بنصف قيمتها - بالبقشيش - دخلت هكذا إلى نصف - حق، بدون حساب البضائع المهربة قلت أو كثرت تخفى إجازة المرور.

علم خطأ من مستشاريه المقربين جدًا، الخديو كان على علاقة بالسلطان بصدد موضوع الشراكسة المتآمرين . طلب "الباديشاه" أى (العاهل)، معلومات وبيان الحكم ومن ثم المدة الواقعة بين نشر الحكم، وقرار مجلس الحرب.

من الجدير بالذكر معرفة أن الباب العالى ليس له أى حق فى التدخل - من بعيد أو من قريب - فى إدارة العدالة المدنية أو العسكرية فى مصر. بيد أن هناك استثناء عندما يتعلق الأمر بالمشير، أعلى مرتبة عثمانية، فى مثل هذه الحالة، المتهم حامل هذه المرتبة، لابد من أن يحاكم فى القسطنطينية.

هنا، لا شىء مماثل يمكن ادعاؤه، وطريقة تصرفات "توفيق" تستحق اللوم، من وجهة النظر فى المجاملات، على قدم المساواة فى الحقوق الذاتية لمصر فى مواجهة الحاكم.

"إسماعيل باشا"، هو ما لم يكن تساوره شكوك قوية، كان يعمل على إغراق وتسميم الكثيرين من الذين يكدرونه. وقد نقل الآلاف منهم إلى النيل الأبيض. لم يعودوا ثانية أبداً.

أخيراً، قتل شر قتلة صديقه المتواطئ "إسماعيل صديق"، وزير ماليته، بدون أن يأخذ رأى السلطان. وعندما أمره "مدحت باشا" بأن يرسل المفتش إلى القسطنطينية ليحاكم هناك، حينئذ أجاب المجرم المرن بأن "صديقه الأمين" توفى إثر إسهال شديد.

رسالة رقم (٧٥)

القاهرة فى ١٢ مايو ١٨٨٢ (منتصف الليل)

منذ أن بعثت برسالتى مع الإنجليز، انبثقت مشكلة غير متوقعة، وهى أن القنصلين العموميين المشاركين فى السيادة، وجها إلى الحكومة الوطنية حركة شغربية (حركة فى المصارعة) دبلوماسية.

سوف أوضح ذلك: رأيتم فى حاشية الرسالة التى بعثت بها إليكم يوم الأربعاء أن الخديو الشاب، طاب له بتحريض من أصحاب الرأى السيئ أن يتصل بالسلطان، بصدد قرار مجلس الحرب. ومن المؤكد أن ذلك يعتبر خطأ فادحاً، ومجلس سيئ للغاية.

الباب العالى أصابته الدهشة. كان ذلك يعنى تقديم العون. كذلك أبرق إلى "توفيق" بألا يتخذ أى قرار، وأن يرسل إليه ملف القضية. وذلك ما يراه السيد "إ. ماليت" رئيس الحركة الدبلوماسية، الذى يريد، تارة تدخل السلطان، وتارة أخرى الرفض الضمنى لسيادة "باديشاه"، أوحى إلى نائب الملك أن يضع حداً "للتآمرات" التى بدأت بقرار سريع بالتخفيف، حتى بدون اجتماع مجلس الوزراء.

"توفيق" الذى يفتقر تماماً إلى التأثير وإصدار الحكم ومثل أى طالب فى مدرسة يسره أن يقوم بحيلة للمدرس الذى يعلمه، عندما شعر بأنه مسنود من الخارج، اتبع هذا الرأى الذى كان من نتيجته طبيعياً وضع الخديو فى موقف معارض لوزارته.

في الحقيقة أن "عرابى باشا" كان قد التمس مسبقًا تخفيفًا للحكم، ولكن هذه الرغبة لا تنطوى، من جانب نائب الملك على أية مخالفة للقانون أو الأعراف ولا أى تعد على حقوق الوزراء، وذلك مسلم به، ومع هذا رفضوا التصديق على توقيع القرار.

ومن ثم، طريق مسدود، عائق خطير يثير الشبهة أوجده التدخل فى شئون الغير الذى قام به القناصل فى مجال لا يتناسب مطلقًا مع أهليتهم، وكله من السياسة الداخلية.

وهذا ليس كل شىء. فإلى هذه الحماقة المؤسفة إلى حد ما يضيف الجهاز القنصلى، الذى يتصرف دائمًا كأنه من الهواة الظرفاء الحقيقيين، حماقة أخرى، بأن سمح لوكالتى رويتر وهافاس بالإبراق بأنه كان قد طلب من الوزراء عما إذا كانوا قد استجابوا للهدوء الشعبى. ما هى الضرورة التى من أجلها ينقض القلق على الشعب؟ هل كان هناك فى الخفاء أمر يتعلق بالبورصة؟ أعتقد ذلك. حينئذ، أين نحن من هذا إذًا، من أجل مكافأة السماسرة الماليين، طرحت حياة المقيمين الأجانب على طاولة المضاربين الخضراء.

من فرط عواء الذئب، انتهى الأمر بأن خرج من الغابة. السيد "إدوارد ماليت" لم يخطئ فى أن يفكر أحيانًا فى الاغتيالات التى تقع يوميًا فى أيرلندا والفوضى الدامية التى يبدو أن الملكة قد تورطت فيها. عندئذ، ربما هو وزملاؤه قد يفكرون فى أنه دائمًا من الخطورة أن تمنع أمة من تطلعاتها النزيهة، ولا ترنو إلا إلى أن تتصرف بمحض إرادتها، وعندما تتعرض هذه الأمة للخراب بأيدى حُماتها، لن تفكر مطلقًا فى أن تمس شعرة واحدة من رأس هؤلاء الذين يتآلفون ضد من يفكر فى الجور عليها.

استدعت الوزارة مجلس النواب للانعقاد يوم الأحد. بدون مساعدة الخديو الذى يعارض ذلك وهو مستتر وراء الجهاز القنصلى، وازدراء للأهالى جميعًا.

من الواضح، أن الهدف كان إثارة أزمة وتحريض الحزب الوطنى على اتخاذ إجراء يُعرض للشبهة.

وهذا هو الدور الذى لا يقره أصدقاء الحرية عند الآخرين، مثلما فى بلدهم الخاص.

نتعشم أن يجد الوزراء بحكمتهم وبحزمهم وفى حبهم للشعب، الوسائل التى تساعد على درء الخطر، بالعمل على إحباط مناورات أصدقاء الطغيان، والخطط المشينة التى تقوم بها الدبلوماسية.

سوف ننتظر من هنا إلى يوم الأحد أى حل يصدر.

– مدينة القاهرة هادئة. التنزه عادى، ولكن المخوفين يتحرشون، وكثير من الأوروبيين يرتعدون داخل جلودهم بدون داع. أبرقوا لى من الإسكندرية أن الهدوء يسود كل الأنحاء.

يا له من شعب يثير الإعجاب، هؤلاء المصريون! يتخنون ما هو فوق طاقتهم، بوسعهم أن يتحكموا فى أنفسهم، ولا يبالون بشىء. وإذا انقطع الحبل، فإلى من ينسب الخطأ؟

إذا قرأتم البرقيات المغرضة التى يبرق بها يوميًا مراسلو "الديلى نيوز" وصحف كبيرة أخرى إنجليزية، سوف تثير ازدراءكم لها. وكل ذلك من أجل البورصة، يجب خفضها من أجل رفعها، على حساب حرية أمة، ودماء آلاف الأفراد. ولم لا! المصالح فوق العدالة. هكذا يريد تقدم التقدم "القوة فوق الحق".

رسالة رقم (٧٦)

مهما توالت الأحداث سريعًا منذ ٢٣ من شهر مايو، نعتقد أنه ينبغى علينا نشر رسالة مراسلنا الخاص فى القاهرة؛ لأنها تتضمن تفاصيل مهمة، من الطبيعى أن نحافظ على كل ما يتعلق بمصالح فرنسا السياسية.

القاهرة فى ٢٣ مايو ١٨٨٢

قضيت فى الإسكندرية عدة أيام من الجمعة إلى الأحد لكى أتأكد من أمر تجمعات السفن. بعض الفرقاطات وبواخر ذات أبعاد مختلفة، فرنسية وإنجليزية، وصلت بقيادة الأميرالين المشتركين فى السيادة.

لا توجد بوارج عثمانية، بالرغم من الإشاعات التى يطلقها الحزب المناهض للوطنية. لم تكن السفن الإنجليزية والفرنسية الضخمة المتجهة إلى الإسكندرية قد ظهرت للعيان بعد. وفى المقابل أرسلت اليونان، فى خضم الدهشة العامة، سفينتين حربيتين لحماية مواطنيها. وباعتبارها من ملتقى الجهات الأصلية الأربع، فإن مصر كانت دائمًا تحتفظ بهدوئها - ولكم أن تصدقونى إذا أثبت لكم ذلك - إن وصول الأسطول الدولى لم يطمئن أحداً، لأنه لا أحد، فى الواقع، يتوافر لديه، ضميرياً، أتفه الأسباب للقلق. والبورصة التى يبدو أنها أحد العوامل الرئيسية لهذه المغامرة السياسية - الدبلوماسية، قد تنفست الصعداء ملء رئتيها دافعة بالريع إلى أعلى ما يمكن . بالرغم من ذلك، بعض المتحمسين، بحثًا عن وسام جوقة الشرف أو من أجل هدف آخر غامض، بعثوا إلى الوزير فى باريس تهانى كهربائية وأبرقوا بالانفراج وتنفس الصعداء.

لم يكن مطلوبًا شىء من هذا القبيل، الأميرال الفرنسى كان لابد أن يدهش من تسلم لدعوة موجهة إليه من أعياننا "الجمهوريين"، لتهنئته بأن مجيئه قد أنقذ المستعمرات من مذبحة وشيكة الحدوث. نتعشم أن مظاهرة الأطفال الأشرار هذه لا يكون لها وجود. الظروف التى تتعلق بهدف المظاهرة البحرية مختلفة وعديدة. قليل جدا من الأوروبيين ومن أهل المشرق - فى هذه المرحلة هم اليونانيون، والسوريون اليهود من البلد - يسلمون بضرورة قوة مماثلة لمنع التدخل الذى يدفع به الباب العالى. الغالبية العظمى من هؤلاء السياسيين مقتنعين بأن سفن السيادة المشتركة، الحجاب المستحلفين على المالية الدولية، وهى مرسلة إلى مصر من أجل أن يفسر على أنه (بروتيستو) أى احتجاج على عدم الوفاء وإجراء تنفيذى ضد الحزب الوطنى الذى قد يفضل مصالح البلد، قبل مصالح حاملى السندات النيلية.

هذا المجاز رفض بأمانة عقليات مستعمراتنا. هنا، حيث إننا أقل بمضارب واحد فى البورصة عن الإسكندرية، ولكن حيث يسود عنصر "العاملين الأوروبيين"، تشاهد النشوة على جميع الوجوه. "آه آه يا سادة البرلمان، أنتم كنتم تقترحون توفيرات فى الميزانية من مصروفاتنا! حسنًا، سوف نريكم العكس".

هذا التعجب، طبيعى أكثر منه شرعى، ودارج. الطائفة التى تتقاضى مرتبًا مبتهجة. والمقاهى مكتظة بالزبائن المعروفين عند مكاتب الوزراء، الذين سوف ينفقون بنزاهة بعض مئات الآلاف سكى (عملة فرنسية قديمة) لتقوية وضعهم على ضفاف النيل.

أما بالنسبة للأهالى، جميعًا فيما عدا بعض النساء التركيات، وقد سبق أن حدثتكم عنهن، لا يفعلن شيئًا، مع احتفاظهن بموقف محترم وهادئ.

وفى الإسكندرية، فى الأسواق والوكالات، حيث يقيم كبار التجار، لاحظت على وجوه هذه الصفوة البورجوازية علامات الغيظ المكظوم، عندما تدوى بطاريات المدافع البرية مبادلةً التحيات مع فرقاطات الأسطول. ذلك هو التذمر تقريباً.

فى القاهرة، المدينة الشرقية بلا منازع، لا تسمع رشقات الساحل، والجمهور لا يتقبل شيئًا يتغلغل داخل إحساساته ليثيره. ها هو موقف الشعب، الأسواق، وأهالى المدن، وأهالى الأرياف.

فلنذهب إلى أبعد من ذلك. ليس فى الدوائر الدبلوماسية المطلعة (أسلوب هافاس ورويتر) غير الموجودين هنا، ولكن من قلب عالم الحكومة، فى الوقت الذى أكتب لكم فيه، ها هو الموقف بالضبط، سوف أصفه لكم بكل أمانة، بدون غموض رأى مبتسر، رغبة فى قول الحقيقة: "توفيق" الذى تسبب فى هذه الأزمة الخطيرة، بمعاونة السيد "ماليت"، من بداية الفصل الثانى، يتنزه يومى الجمعة والأحد فى ممر شبرا، وهو يحيى دائمًا بذراعه الأوروبيين والعاملين الأجانب أو السوريين، من الذين يتجولون فى هذا الطريق مرتين كل أسبوع، حيث الأهالى لا يظهرون إلا نادراً. الفيكتورية نقيصة، ملكية، هى تقريبًا ضرورة زخرفية، مثلها كمثل شعب يحب أن يشاهد وهو يوزع السلامات على عظماء الأرض. لا شىء تغير من هذه الناحية. الوزراء سوف يتلاقون فى ساعة متأخرة، كالعادة، وجميعهم استقبلوا اليوم كما كانوا بالأمس. إجمالاً، وضع متطابق.

فى حقيقة الأمر، المظهر مختلف قليلاً، أصور: تفاهم مطلق بين الأمة الزراعية، والجيش والوزارة الحالية؛ أى "عرابى" وزملاؤه، اتفاق بين مجلس النواب والوزارة

الحالية ؛ "عرابى" وزملاؤه، تفاهم بين العلماء وشيخ الإسلام والوزارة الحالية ؛ "عرابى" وزملاؤه.

وعلاوة على ذلك، عناوين تلغرافية وتحريرية لجميع أعضاء هيئة القضاء البلدية، وجميع رؤساء القرى، وجميع المديرين فى الأرض النيلية، تأكيداً للتفاهم سالف الذكر.

وأعلم، فيما عدا ذلك، أن سلطان باشا رئيس مجلس النواب، ونائبه، وشيخ الإسلام والعلماء أرسلوا برقيات - استناداً إلى ما سبق - إلى شخصيات كبيرة فى إنجلترا، والذين يرون أن علاقاتهم بالسيد "ماليت" لا تبدو لا منيعة ولا أكيدة.

والآن ماذا يريد الشعب؟ المحافظة على الظروف القائمة، والرجال الذين يديرون الأعمال، العزل المحتمل "لتوفيق" واستبدال ابنه البكرى به، تحت وصاية مجلس يختاره المواطنون الذين يتمتعون بثقة الأمة. هذه الرغبة الأخيرة واضحة كأنها أفضل مخرج من المشاكل التى تولدت من روح الدسائس وعدم أهلية "توفيق" الذى يقع دائماً فريسة التوبيخ الذى يوجهه إليه والده ، وخصومات الحريم.

الحزب التحررى، الذى يتعرض للتقدم فى محاولة لإعاقته عن أعمال الإصلاح التى يقوم بها، متحد وثابت. أى رجل قادر على إبداء رأيه بالذم أو بالاستحسان، وفقاً لما هو جار الآن، لا يتعارض مع ما سبق أن أوضحته لكم فى هذا الصدد. إذاً، الأهالى والجيش والمشايخ والنواب وخمسة ملايين نسمة مجمعون على الرغبة فى إيجاد حل لأية أزمة داخلية تخصهم، هم فقط ولا تخص أى أحد آخر.

ذلك يعنى التساؤل عما سوف تفعله القوى. هذا ما سوف نراه دائمًا، لأن هؤلاء أنفسهم الذين يعرفون عادة كل شىء، ولا يعرفون شيئًا وكذلك عندهم اليوم قليل من العلم.

إنكار لحقوق الأمة، رغباتها وتطلعاتها الحقيقية الدبلوماسية، هل تزدرى ظروف عادية ، وطنية، موقف مكتسب، سليم، أفضل ما تم إجراؤه لتحقيق رفاهية البلد، بدون المساس بمستحقات أصحاب الديون، والهدف الوحيد من ذلك هو تخصيص خطأ سياسى فادح مع احتجاز شاب ذائع الصيت فى مقدمة مصر؟ المسألة كلها تكمن هنا.

فى مصلحة حاملى الأسهم المصرية لا يهددون أبداً. اتهامات المراقبة، التى حملها إلى باريس الشهير السيد بلينيير ، ليس لها أى أساس من الصحة. السيد "دى فرانسييه"، نحن متأكدون منه، وسوف يكون أكثر من سابقيه إيضاحًا، وإن حكمه لن يكون خاضعًا لقيادة التحزب المالى. على الأكثر، مراجعة اتفاقات "جوشن وويلسون" الجائرة، هل يمكن لهذه المراجعة أن تفتح الباب أمام مراجعة نزيهة تقرها الوزارة الحالية ولا تحتاج إلى ضغط أخلاقى، أو بمعنى أفضل، الترهيب الذى يسببه وجود أسطول هائل.

الشعب يتسامر حول وجود الباخرتين اليونانيتين الصغيرتين.

المعروف أن المرابين السوريين واليونانيين يبغضون "عرابى" على وجه الخصوص، الذى يراقبهم فى القرى. اليونانيون، لمقتهم للمسلمين، الذين أخرجتهم أوروبا من رق العثمانيين، والتى أنفقت من أجل ذلك الملايين التى لم ترد إليها، اليونانيون، الذين كان لهم شرف إنجاب بعض كبار الوطنيين الذين إليهم يدينون بالكثير، ينكرون على الشعب الفلاح تفوقه فى بعض الأمور. الحق أنه فكر فى رجل يعمل خصيصًا من أجل مصر، مع زملائه، بالتحديد ما فعلوه من أجل اليونان، الأعمال الأصلية التى سجلها التاريخ. هذه الأعمال الجائرة التى يرثى لها، التى تقبلها أهالى القاهرة والإسكندرية بشكل المداعبة، وكانت هى الموضوع الذى يتناوله المتسامرون فى عدد من المقاهى فى العاصمة.

أظهر كل من المعتمد والقنصل العام الفرنسيين تأثرهما الكبير والقوى فى ظرف يمكن أن يضيف إلى الأحوال الراهنة عواقب وخيمة. إحدى صحف الإسكندرية : "الإيجيبشيان جازيت"، تصدر بالإنجليزية وبالفرنسية بقلم محررين ينتمون إلى هاتين الجنسيتين، أصبحت ذائعة الصيت منذ بداية الأزمة، عن طريق هجومها الشرس على الحزب الوطنى.

بعد المصالحة بين نائب الملك ووزرائه بيومين، هذه الصحيفة تمادت فى غيها وتناولت "عرابى باشا" على أنه "كلب هارب". توقف جمع غفير أمام هذا العدد من الصحيفة، المعلق على الحائط، بالقرب من إحدى المقاهى، الانتقادات اتخذت مجراها،

حتى جاء الإنكشارية من القنصلية العامة للجمهورية الفرنسية، ونزعوا هذه الإعلانات المخزية، وأرضت الرأى العام.

كان الهجوم جبانا ولا مبرر له وغشيمًا، والشعب، كل برأيه، يطالب بالتدخل القانونى لمثل فرنسا، بينما السيد "ماليت" أغلق على نفسه، فى غطرسة السكوت البريطانى.

مبعوث الملكة "فيكتوريا" بالإسكندرية، الهدوء لم يعكر صفاءه لدقيقة واحدة.

حاشية فى رسالة : "عرابى باشا" استدعاه القنصل العام الإنجليزى، فأجابه بأنه لا يستطيع أن يتلقى اتصالاً إلا كتابة، لقد توقف وقت اللقاءات الشفوية الودية، منذ وصول الأساطيل. وأضاف أنه ليس لديه أية أوامر باستقبال أى أحد من دواوين الوزراء الأجانب بصدد قضية محلية وأهلية تمامًا، لا تحل إلا بأيد مصرية.

هذه الإجابة الحكيمة التى تعبر عن عزة النفس كان لها وقع كبير.

رسالة رقم (٧٧)

القاهرة فى ٢ يونيو ١٨٨٢

المزاعم التى يرسلها أعداء مصر يوميًا إلى أوروبا، سواء أكانت صحيحة أم لا، ضد "عرابى"، أقنعت على ما يبدو حكومة وادى النيل بدراسة المسألة الحساسة التى أثارتها المكانة التى تحتلها شركة "إيسترن تليجراف" فى كل من الإسكندرية والقاهرة بموجب اتفاق - بلا مقابل تقريبًا - مبرم مع نائب الملك الأخير.

ليس فقط وكالات البرق والمتخصصين الذين يعطون هكذا انطلاقة إلى عبقريتهم المبتكرة، ولكن من المعلوم - لسوء الحظ - أن بعض المعتمدين الدبلوماسيين يستغلون خطوط هذه الشركة المذكورة من أجل تقوية القضية الغربية التى اكتنفوها بأحداث مثيرة لأكثر الحالات خطورة، والتى سيكون من السهل كشف بياناتها، إذا وجب ذلك. إرسالها بهذه الطريقة إلى مكاتب الوزراء الأوروبيين كما ترسل إلى كبار ناشرى

الصحف الإنجليزية، هذه البرقيات الكاذبة والخادعة ترسل فى الخفاء وبطريقة غير مشروعة إلى السلطات؛ للقذف فى حق رجال وظروف مصر، بدون أن يكون مسموحًا للأشخاص الذين يُهاجَمون بهذه الطريقة، بأن يتفادوا هذه الضربات الموجهة خفية.

كانت المسألة هى معرفة ما إذا كانت "إيسترن تليجراف" منشأة إنجليزية تستغل خطوطها فى إطار عقود خاصة، وأساسًا يمكن إبطالها أو فسخها إذا ما كانت هناك حالات جادة تستدعى ذلك، سواء كان هناك أو لم يكن اتفاق على تعهدات ضمنية ومعنوية تعتبر قاعدة لكل اتفاق دولى، دبلوماسى أو خاص، مع قبول رسائل قابلة لأن تعرض للخطر البلد نفسه، حرياته وحياة الأجانب المقيمين.

هذا الاقتراح الأول تم إيجاد حل له بكل تأكيد والثانى كان يقوم على إجراءات خاصة بإنهاء هذه الظروف المؤسفة، بإصدار مرسوم من أجل الإنقاذ الشعبى من حالة الحصار المضروب على القاهرة والإسكندرية، ويكون من السهل على الحكومة التدخل بفاعلية لدى الشركة الإنجليزية بإلحاق موظف مصرى كبير، ليراقب جميع البرقيات غير المشفرة، مع رفض مثيلاتها مستقبلاً.

وهناك وسيلة أخرى أكثر حسمًا ولكنها ليست أقل فاعلية، تقوم على المطالبة – من أجل صالح البلد – بإغلاق مكاتب برقيات "الإيسترن تليجراف"، ومنعها من استخدام البرقيات.

القانون والحق يناضلان لصالح الاقتراحين المعروضين على الحكومة، ولا يمكن أن يصدر ضدهما أى اعتراض قانونى.

ولكن "عرابى باشا"، الذى كان قد علم بكل ما ينسج حوله من مؤامرات، لا يريد حتى الآن أن يتخذ أى إجراء خشن. اقتصر على إعلام الشعب باعتراضه فى هذا الصدد، متحفظًا على التحرك لاحقًا، حسب ما تقتضى الظروف. إن الفكرة المهيمنة عليه هى ألا يمس بأى ضرر التسهيلات التجارية التى يقدمها التلغراف الكهربائى، ولكن يعتقد أن التصريحات الممنوحة لبعض الأجانب، محاربين أم لا، يجب أن تستغل حسب القانون والنزاهة، وذلك بعيداً عن الحالة الحالية. أدركت الشركة الإنجليزية جيداً وضعها الغريب، وأن مديرها فى لندن، السيد "جون بليندير" التمس من الحكومة الإنجليزية أن يقدم لها عون الأسطول لخدمة البرقيات فى حالة الاعتداءات.

رسالة رقم (٧٨)

الإسكندرية في ١٢ يونيو ١٨٨٢

بالأمس؛ يوم الأحد، حوالى الساعة الثانية بعد الظهر فى أحضان أحد الأحياء المزدحمة بالسكان، ومن حيث لا يمر صفوة السكان مطلقًا، نشبت معركة بين أحد المالطيين، وأحد الحمَّارين بسبب بعض الملاليم التى رفض الأول أن يدفعها من أجل مطيته. صراخ قوى هنا: كلمات غضب، يتبادلها الاثنان المالطى والمواطن المصرى، كل منهما يسب دين الآخر ، ذلك يحدث كل يوم. على ماذا يعتمد المالطى للدفاع عن نفسه، أخرج مسدسًا من جيبه، أطلق رصاصة قاتلة على الحمّار. الجمع الغفير كان متلاحمًا، والمشارب والمطاعم كانت مزدحمة، يمكنكم أن تتصوروا الصرخات. وفى الحال اليونانيون مسلحين بالسكاكين والمسدسات انضموا إلى مسرح الحادث معهم بعض الكلابرين (إيطاليين). أهل البلد الذين لا يملكون سوى العصى، استخدموها وضربوا بشدة، بينما المسيحيون يدافعون عن أنفسهم. وصل الحرس. أحد الجنود رأسه نصف منزوع بسبب رصاصة أطلقها عليه أحد اليونانيين. وصلت شرطة البلدية وتساقطوا جرحى كالذباب ومع أن هذه المذبحة وقعت فى أقصى غرب المدينة، فى نهاية شارع الأخوات، فإن الأحياء المقابلة لا تعلم عنها شيئًا. أنا شخصيًا، خرجت من الفندق قبل الساعة الثالثة بقليل، توجهت نحو الميدان لأستقل منه عربة، بينما أحد الأشخاص أسمر اللون، مارا بجانبى، دلنى عن طيب خاطر. متخذًا طرقًا جانبية، خرجت تقريبًا إلى وسط الحدث، فى الوقت نفسه الذى جاء فيه جنود ليرفعوا بعض جثث الجنود. وبمنظر هؤلاء المساكين، وصيحات الجمع الغفير، يكتمل المظهر المشئوم لهذا المشهد.

لم أتلق تهديدًا من أى أحد، ولكن، عند مشاهدة أناس يطلق عليهم الرصاص أو يضربون على رءوسهم بالعصى، عدت أدراجى مسرعًا، ورأيت بعض البوتيكات منقوبة أو مسلوبة ومنهوبة بأيدى السوقيين المماثلين دائمًا لهؤلاء الذين يعيشون فى المدن الكبيرة.

لم تتمكن فرق الحصون من التحرك. عندما وصلت إلى القنصلية الفرنسية، فى الميدان الفسيح، أوغاد متفرقون فى وسط جمع غفير متحرك غير ملتحم تماماً يتبادلون ضربات الهراوات مع المارة والفضوليين.

وكانت هناك أربع جثث ليونانيين أو مالطيين، ملابسهم رثة، ممددين على الرصيف وعلى قارعة الطريق. اجتزت البريد، رأيت مرافق مدير الشرطة الذى ذهب لاستدعاء فرق ثكنات باب شرقى. تسللت بجوار البريد الفرنسى، وانعطفت بجوار المبانى التى تشكل خلفية القنصلية الفرنسية، رأيت يونانيًا مسلحًا بسكين، يجرى خلف أحد المواطنين، أحد الحرس التابع للبلدية أوقفه واليونانى أغمد السكين فى صدره. وتقدم الجندى الشجاع أربع أو خمس خطوات ثم سقط صريعًا. حينئذ، دوى صوت طلقات رصاص من شرفة أحد المنازل المواجهة، وأحد الخرفان لا حول له ولا قوة، تدحرج على الأرض ولم ينهض ثانية. غيرت طريقى.

رسالة رقم (٧٩)

وافانا مراسلنا المصرى برسالة مهمة من القيادة العامة لعرابى باشا. ليس لنا حاجة بأن نذكر، أن مثل مراسلنا "للديلى نيوز"، السيد "بلونت" كان دائمًا أمينًا لهذا الاعتقاد الراسخ بأنه يوجد فى مصر عناصر لحكومة وطنية منظمة، يمكن لأوروبا أن تتفاهم معها.

وهذه رسالة مراسلنا.

القيادة المركزية للجيش المصرى

كفر الدوار فى ١٥ يوليو ١٨٨٢

إن استقرار أية مدينة تعرضت لمعاملة غير إنسانية مثل الإسكندرية، على أيدى الإنجليز، لا تقدم أية تسهيلات أدبية كبيرة، إذا ما أراد أحد أن يقيم فيها ، الأبواب والنوافذ مغلقة. ولكن ليس لدىّ متسع من الوقت. فى اليوم التالى للقصف استولى رعب

مميت على المدينة، استبعدت البقايا النادرة من الأجانب. فى حوالى الساعة الرابعة مساء، الوطنيون هجروا البلد بأعداد غفيرة، وهم يولولون بكلمات مثل: "الموت للإنجليز" شعرت بسعادة غامرة لم أشعر بها من قبل! خرجت من المنزل للحصول على بعض الأخبار. ولكن أضاءت السماء بعض القنابل الضخمة بأزيزها المخيف، عدت إلى منزلى لأحتمى به، وأختفى فى أى مكان، حتى يعود الأمان. متأخراً جداً! اختفى الأهالى، وأغلقوا الأبواب بإحكام، بما فيها باب الطريق. وفى الوقت نفسه كانت، إحدى الفرق تنظف الطريق وهم يتقهقرون نحو ثكناتهم الخارجية. تمشيت إلى الأمام بدون أية رغبة لتغيير الملابس، مفلساً، ويداى فى جيبىْ سترتى، متعجباً، ولكنى لم أكن مسروراً. كان غليان رهيب يهيمن، كل شىء كان فى فوضى، والنساء يبكين ويولولن، وعند ثكنة باب رشيد، استقبلنى قائد الموقع بطريقة ودية وقال: "ادخل، أنت منا وآمن". وعندما بدأ الليل يسدل ستاره، وصلت شائعات مشئومة: القنابل تسقط فى كل مكان وتشعل الحرائق هنا وهناك، وتشتد الحرائق بسبب الرياح، سرت بمحاذاة المعبد الإنجليزى. رأيت ثلاث كتائب من المشاة فى نظام جميل، وفى خطوات رياضية، بينما فرقة أخرى من السلاح نفسه تتمركز على طول طريق الأخوات. تفرقوا فى طوابير، يتفقدون المنازل، وقاموا بإخلاء المواقع فى وقت يسير، وجرت حملة اعتقالات واسعة.

العديد من القتلى والجرحى. وفى الحال قام الوطنيون بإخلاء ورفع ذويهم والوطنيين أمثالهم، ومن الصعب تحديد عددهم.

أحد الميكانيكيين من العاملين فى الأسطول الإنجليزى يرتدى زيه غير كامل، قتل فى أثناء عودته إلى متن السفينة، وقتل قنصل اليونان العام السيد "رانجابيه" حيث توحى لحيته وشعره الأحمر بأنه إنجليزى، والسيد "كوكسون"، القنصل الإنجليزى فى الإسكندرية، أصيب بجراح.

أطلق الأميرال الإنجليزى طلقات كهربائية مضيئة على بعض المواقع على الساحل. كان الضباط يخشون مفاجأة ليلية، كانوا متذمرين، وجه القائد العام إنذاراً إلى المحافظ، مضمونه أنه إذا استمرت هذه الأمور الغريبة فإن البطاريات سوف تطلق قنابلها. توجه "عمر باشا لطفى " إلى القنصلية الإنجليزية، حيث كان يوجد ضابط من

الأسطول وأخبره صراحة بأنه إذا لم تنته هذه الأعمال فى الحال، فلن يستطيع أن يتحكم فى الموقف.

الأميرال تلقى مكالمة تليفونية، أصدر الأوامر اللازمة، وتوقف الخوف فى كل مكان.

انتهى الهلع. لا يرى سوى أمتعة وحقائب. العبَّارات اكتظت بالركاب، والناس جميعًا مهددون بأن يرحلوا بدون النظر خلفهم. رأيت الكثير من البدو النهَّابين يجتازون أبواب المدينة، وتم صد الكثير منهم وطردهم، ولكن النزوح كان مخيفًا كان يخرب كل شىء، ساعد هؤلاء الأنذال على أن يدخلوا المدينة المهجورة التى غادرها الأهالى. فى الليل، قدم لى قائد فرقة مشاة حصانًا وتابعت المجموعة طوال الليل حتى القيادة العامة، قابلت "عرابى باشا" وزير الحربية، وأنا ضيفه الممتن له.

فى بضعة أسطر، سوف ألخص لكم القصف الذى وقع فى الحادى عشر من شهر يوليو، الذى بدأ فى السابعة وسبع دقائق صباحًا.

بعد الرفض الصريح من جانب الحكومة الخديوية بالإذعان للادعاءات الغريبة التى طالب بها السيد "بوشامب سيمور"، هذا الأميرال الذى كان يريد أن يفعل شيئًا من أجل أن يروى زهور "الجلوة"، ويتطلب ذلك من بعض بطاريات المدافع أن تفرغ من قنابلها.

بعث وزير الخارجية إلى الأميرال ردا سلبيًا، مصدقًا من جميع زملائه، ومن نائب الملك ومن "درويش باشا" شخصيًا. تذكروا ذلك جيداً. فى الوقت نفسه، صدر الأمر إلى المدفعجية بعدم الرد على النيران إلا بعد الطلقة العاشرة التى يطلقها الإنجليز.

كان السير "بوشامب سيمور" سعيداً بنجاح خطته: فى الساعة السابعة والدقيقة السابعة، أطلق أول قذيفة من مدفعيته الهائلة. "فى أقل من ساعة ونصف الساعة، كان يكرر قوله لأى أحد، سوف أقضى، وأمر جميع معدات هؤلاء الزنوج": قذيفة تتبعها أخرى، ترد بها الحصون على الإنجليز. كان التسليح النيلى بالمقارنة ضعيف فى العيار والمدى، ولكن لا شىء يحول دون استخدامها. ولكن تلقيم بطاريات المدافع نفد،

والمدافع أصبحت فارغة. ولا يوجد أى رجل يتعثر، بدون حماية كأنهم فى استعراض عسكرى، كانت المدافع تجيب على العدو بخفة ومهارة أدهشت الأميرال الإنجليزى. استمر ذلك ثمانى ساعات. شاهدت كل ما يجرى. أصيب طرد إنجليزى، المدرعات المنيعة تمطر بالتدمير بدون خشية. رأيت ذلك آنفًا. ولكن أعتقد أن ما لا يمكن وصفه هو القصف الوحشى، وبدون حاجة إليه، على قلاع دمرت منذ وقت طويل ولم تعد صالحة لأى شىء. أمام شرفاتى، على بعد ١٨٠٠ متر، سفينتان هائلتان بأبراج تقذف بسبع وأربعين قذيفة على الحصن الصغير والجميل يزينه مسجد، انتهى الميناء القديم، الذى يحبه جميع الذين يحبون كل ما هو مثير فنيًا.

كان إطلاقهم للمدافع سيئًا جدًا بنسبة تصل إلى نصف قذائفهم، طول القذيفة ٣,٥ قدم ومحيطها ١٨ بوصة. التأثير فى البحر كان عجيبًا ومخيفًا. بعض أجزاء الأسوار المتطايرة دفنت تحتها العديد من الجنود المسالمين. المدرسة السويسرية ومدرسة أخرى أصيبتا، كما أصيب أحد عشر رجلاً وحصانان كانوا يقفون عند باب محرم بك متأثرين بشظايا القنابل المنفجرة.

ليس عندى متسع من الوقت لأوضح لكم كل شىء. إننى أكتب وأنا مستند على ركبتى، بريشة عربية، فأرجو أن يقرأ خطى صحيحًا.

طوال ليل ١٢ إلى ١٣ والأيام التالية، كانت الإسكندرية تحترق. وفى كل مرة يحاول الجنود المقيمون أن يطفئوا إحدى الحرائق، تشتتهم القذائف، وهجرت المدينة عن بكرة أبيها. وبعد ظهر يوم الثالث عشر، توجهت إلى الإسكندرية فى لانش بخارى بصحبة حراسة لأن هيجان الشعب المعسكر بدون مأوى وبدون خبز على ضفاف قناة المحمودية لا يبعث على الطمأنينة، مذابح كثيرة ومشاجرات عديدة، لابد من أن تحدث. ولن أنسى مطلقًا المشهد الرهيب والمقزز الذى أثر فى نفسى. أجمل الشوارع، وأجمل القصور، التى شيدها أكبر الماليين "لإسماعيل باشا"، أصبحت أطلالا ينبعث منها الدخان. لا توجد أية كائنات حية، لا قطة، ولا إنسان، إلا بعض الأنذال من اللصوص، يفرون هنا، وهناك، بمسروقاتهم التى ظفروا بها، ويطفئون نار الحرس المختبئون فى أركان المبانى التى لا تزال قائمة. وشارع شريف باشا الجميل، وميدان القناصل، رؤية تثير الأحزان.

لا يسعد من يتنزه، لم أستطع أن أدخل منزلى، عدت إلى دهبيتى ومقابلة نائب الملك الذى عاد من الرملة، فى رأس التين، بدعوة من الأميرال، على متن إحدى السفن التى قضى فيها أيامه هو وعائلته، كان هكذا بالتمام فى أيدٍ إنجليزية تحميه. صيحات كثيرة تهتف "يعيش عرابى ويسقط توفيق"، سمعت هذه الهتافات من مجموعة المهاجرين البؤساء، عندما كان يعبر نائب الملك أمامهم.

"اذهب وانظر عمل الإنجليز – كان بعض رجال يتمتمون بذلك، بدون أن يتحركوا من جلستهم على الحصيرة – أنت الذى استدعيتهم، سوف تكون مسروراً". مولانا، شاحب الوجه كالأموات، حاول أن يبتسم. كنت مشفقًا عليه تقريبًا. هذا الأمير لا يمكن أن يبقى. حينئذ، أنزل الإنجليز بضع مئات من الرجال، الذين كانوا يتظاهرون بإطفاء الحرائق، والذين قتلوا مذنبين وأبرياء، بدون أن تأخذهم أية شفقة بالرجال المساكين الذين يتساقطون. ومن أجل أن ينتهوا بسرعة، استخدموا المدافع الرشاشة! إجراء سريع كما هو مسيحى وإنسانى!

كذلك القلة من الأهالى الذين كانوا قد نجحوا فى العودة إلى المدينة، ابتعدوا عنها من جديد.

كل فرد يدخل، كان لابد من أن يلوح بمنديل أبيض فى يده، ويقول صائحًا: يعيش توفيق! وإلا يطرد أو تطلق عليه النار.

الآن، فرق الحراسة مهتمة بجنود الإس. إم. بى. جميع حرس نائب الملك، وأهل منزله غادروه ليسلموا أنفسهم إلى الجيش. يسود المدينة حماس هائل، خيول، حبوب، رجال يصلون من جميع النواحى. تتنافس العائلات الصغيرة والكبيرة بحماس وطنى، وإذا كان وزير الحربية يريد ذلك، يكون بإمكانه فى أيام قليلة، الحصول على جيش يبلغ عدده أكثر من مائة ألف رجل.

وإليكم وثيقتان مهمَّتان، استطعت أن أحصل عليهما من القيادة العامة.

يوم الجمعة، ١٤ يوليو ١٨٨٢، رسالة من صاحب الجلالة توفيق باشا إلى سعادة "عرابى باشا" وصلت إلى هذا الوزير فى المساء. كانت تحتوى على ما يلى: «تعلمون أن

قصف الإسكندرية، والمصائب التى تبعت هذا القصف، كانت نتيجة لرفض رغبات الأميرال الإنجليزى.

كان يتعلق بأعمال تجرى فى القلاع، وأن الاستمرار فى هذه الإصلاحات ممنوع. بيد أن قائد الأسطول الإنجليزى قد وعد بأنه لن يقصف سوى بطاريات المدفعية، وذلك ما فعله، موضحًا أنه لم تكن لديه النية فى أن يحارب مصر. وقد أعلمنا أيضًا أنه كان يرغب فى إعادة توثيق العلاقات الودية مع بلدنا، مؤكدًا لنا أنه كان على استعداد أن يستودع المدينة جيشًا نظاميًا، منضبطًا ومطيعًا، أو - إن لم يكن ذلك - ففرقًا عثمانية. ومن جهة أخرى، كان مؤتمر القسطنطينية قد قرر أن الباب العالى فقط له الحق فى التدخل فى الشئون المصرية، فآمرك بأن تتوجه إلى قصر رأس التين بأسرع ما يمكن، لتتفاوض مع زملائك فى الترتيبات اللازمة التى اقترحها الأميرال الإنجليزى.

أنت مدعو إلى تعليق التجهيزات غير اللازمة.. توفيق» .

وإليكم إجابة "عرابى باشا" على الرسالة السابقة - التى أملاها، بلا ريب، الأميرال سير "بوشامب سيمور" على ربيبه:

«تشرفت بالرسالة التى بعثها لى الخديو بتاريخ الأمس والذى يطلب منى أن أتوجه إلى قصر رأس التين؛ للتفاوض فى الترتيبات التى اقترحها الأميرال الإنجليزى. تقولون لى، مولانا، إن قصف الإسكندرية كان نتيجة رفض تنفيذ طلبات قائد الأسطول الإنجليزى.. هذا التفسير ليس صحيحًا، لأنه ناقص. وقد أغفل جنابكم أن تضم أسباب الرفض الوزارى المعارض قبل العمل، والتى تطابق الحقيقة المادية ذاتها. وادعاءات الأميرال الإنجليزى ليست مبالغ فيها فقط، بل لا سند لها لدعمها من ناحيتكم، مولانا، وكذلك من ناحية وزارتك الاجتماعية وصاحب السعادة "درويش باشا" المفوض، المساعد من مجموعة أعيان البلد، قد رفضوها. وأضيف أن الجميع ونحن نعتبرها متعارضة مع حقوق الأهالى، والأعراف الحربية ومجحفة للكرامة المصرية.

وبرفض الإذعان لطلبات السير "بوشامب سيمور" الأميرال وإنجلترا، فى البيان ذاته، أعلنوا أنهم مسئولون عن عدوان لا مثيل له فى تاريخ الشعوب، ولا يبرره أى سبب. لم تكن مصر آنذاك فى حالة حرب مع أى أحد. مهددة صراحة بأساطيل ضخمة ألقت مراسيها فى ميناء الإسكندرية، كان لزامًا عليها أن تتخذ إجراءات وقائية،

تمليها عليها أغرب المواقف، فى مواجهة التصريحات "الودية" الصادرة عن القوى، والمترجمة فى مصر إلى مئات من المدافع الهائلة.

وجنابكم لا تجهلون أن الرأى العام للبلد قاطبة التحم بالهتافات وبالآراء الموضحة فى المذكرة المسلمة إلى قائد الأسطول البريطانى.

اقتراحات الأميرال الإنجليزى توضح أنه كانت لديه نية مبيتة للحرب، بما أنه يطالب بالسلام ،إذاً، فالحرب قائمة، لا سيما وأن السير "بوشامب سيمور"– على عكس تصريحه المتزامن والمعلن أنه لا يريد أن يقصف سوى القلاع – قد أطلق عدداً كبيراً من القذائف ذات أبعاد ضخمة تقتل بضراوة، وتهدم الأملاك، وقتلت وجرحت أعداداً كبيرة من العسكريين والأهالى بالمدينة، وأضرمت النيران واشتعلت الحرائق الهائلة، ساعدت الرياح على تأججها. أنا لا أعترض على أى حل سلمى، وجيشك منظم جداً ومنضبط تمام الانضباط، سوف يتخذ مكانه من المدينة عندما يلزم الأمر، كذلك أظهر الأميرال البريطانى رغبته فى ذلك. ولكن أساساً يجب أن نذكر هنا أن العدوان هادم حالة السلام يظل من جانب الأسطول، الذى لم ترد بطاريات المدافع المصرية على نيرانه إلا بعد الطلقات العشر الأولى التى قصفها الأسطول الإنجليزى والتى كانت قد تقررت فى مجلس، وباستحسان من جلالتكم وصاحب السعادة "درويش باشا".

كذلك لوحظ أن الحرب قائمة فعلا بين إنجلترا ومصر، لأن بعد اثنتى عشرة ساعة تقريباً من القصف، وتحت تهديدات جديدة، وجب على الفرق النيلية أن تجلو عن المدينة المدمرة، والمحتلة إلى هذه الساعة بواسطة عدد لا بأس به من الجنود الإنجليز.

وسوف تدرك، جلالتك، أنه فى مثل هذه الظروف، لا توجد أى مفاوضات جادة تقوم على الأمان واستقلال المشاورات لوقت طويل، إن الأساطيل الأجنبية ستبقى فى موقعها فى ميناء الإسكندرية، والتى كان يجب عليها أن تبتعد عنها مسبقاً. هكذا، سأكون مستعداً أن أسلم نفسى حسب رغبة جلالتكم. وإلى هنا ينصحنا الحذر بألا نوقف أية تعزيزات، أو أى حذر. الإجراءات التى نوهت عنها، مولاى، والتى تنطوى على تشكيل فيلق من ٢٥٠٠٠ رجل، وقد أقرها جلالتكم، لم أفعل حيالها سوى تنفيذ الأوامر. ويشرفنى... إلخ».

"عرابى باشا".

رسالة رقم (٨٠)

كنج عثمان (كفر الدوار)

٢٤ يوليو ١٨٨٢

(القيادة العامة للجيش المصرى)

رسالتى الأخيرة مرفق بها وثيقتان مهمتان، تصل إليكم عن طريق بورسعيد، الوحيدة المفتوحة منذ انقطاع الاتصالات مع الإسكندرية. أتعشم أن مصلحة البريد، التى تخضع للإنجليز لا تستغل وضعها وأن الرسائل إلى الخارج تنتقل فى أمان.

قبل أن أحدثكم عن الموقع الذى يحتله الجيش النيلى، اسمحوا لى أن أعود إلى الدفاع الذى قامت به المدفعية التى استخدمت الطوابى، ضد قصف الأميرال الإنجليزى "سيمور".

جميع مبانى الطوابى يرجع تاريخها إلى عهد "محمد على" ولم تجر لها أية إصلاحات. معظمها كان مسلحًا بمدافع خفيفة عيار ٢١ و ٢٢ و ٣٢ ، ذات مدى قصير. وكان "إسماعيل باشا" قد اشترى مدافع (أرمسترونج) عيار ٩ و ١٠ بوصة. بعض القطع فقط تم تركيبها فى البطاريات. لسوء الحظ، الباب العالى متشائم دائمًا بصدد المصالح المصرية، يعترض فى كل مرة يتخذ فيها أى إجراء احتياطى. ونظرًا إلى أننى كنت فى المجال بصفة مستديمة منذ وصول الأساطيل، أستطيع أن أمدكم بمعلومات مختصرة حيال وسائل الدفاع الفعلية التى يمتلكها الموقع.

من الثابت فى التاريخ أن هجوم الأميرال كان غير شرعى، كما أنه لا يشكل خطورة كبيرة على سفنه. "توفيق" وحاشيته كانوا قد أعلموا "بوشامب سيمور" بحالة الحصون ، وبالنسبة إلى هذا الضابط فقد تأكد أن هذه الحصون كانت خالية من المدفعجية، جميعهم تقريبًا كانوا فى عطلة من باب التوفير فى الميزانية، وأنه من حوالى ١١٠ مدفع أرمسترونج عيار ٩-١٠ بوصة، ٦٤ منها فقط مركبة على ركائز فى حالة سيئة. والأخرى على الأرض، وذخيرتها مخزنة فى الترسانة. كان الأميرال يشكو من

أن الحصون تهدد أسطوله، وتلك مهزلة يقوم بها من ناحيته، لأن عملاءه والخديو كانوا قد أخطروه بأن العمال الذين طلب منهم التظاهر بأنهم يشكون، ما هم إلا ضعفاء محكوم عليهم بالأشغال الشاقة، مكبلون كل اثنين معًا، لا يؤدون سوى أعمال بسيطة. وبواسطة الضوء الكهربائى كان قائد الأسطول يرى ما يعجبه، ولا يعجب الآخرين، مادامت الأسباب الحقيقية لاعتراضاته لا يعرفها إلا هو، وفى خياله هو. إذن، كان لابد من أن يسرع. سوف تصدر الأوامر إلى المدفعجية - وبقية القطع - الذين كانوا ينتشرون على البر، كانوا يستطيعون اتخاذ أماكنهم من بطاريات المدافع، فى مواجهة وسائل دفاع الباب العالى اللامعقولة.

والحال هكذا، الذريعة قائمة، الأسطول البريطانى الصغير أطلق بهمة ونشاط، لينتهى من ذلك بكل تأكيد، ساعتان أو ثلاث ساعات موفقة قبل تناول الغداء. خطأ. كل قطعة لا تستعمل إلا بواسطة رجلين من السلاح، وجدت زيادة وفيرة من تطوع أطفال البلد الذين دفعهم حب الوطن، وكراهية الأجنبى، إلى الاستدعاء إلى الحصون. هؤلاء الأهالى من الشباب، مفعمون بالإرادة القوية والمهارة، يقومون بواجبهم كالجنود الفعليين، مخادعين هكذا فى هذا الصدد، توقعات الأميرال الإنجليزى.

إذًا فلا إفراط فى تأكيد - كما سلّم بذلك بقية ضباط الأسطول - أنه إذا لم تكن الحصون لها متاريس مبنية مرتفعة يبلغ سمكها من أربعة إلى خمسة أمتار، بعض المحلات التجارية التى تتجاوز خط الرمى، تسببت الصواريخ التى أطلقها العدو فى إصابتها بخسائر بسيطة. ومن جهة أخرى، لا شك فى أنه حتى ولو أن جميع القطع غير المركبة كانت فى مواضعها، فإن أسطول الأميرال "سيمور"، ما كان تعرض لخطر كبير. الخسائر الإنجليزية كانت كبيرة، لأن البحر قد قذف بعدد كبير من جثث جنود أو بحارة قتلوا فى أثناء العدوان.

باختصار كانت تصرفات المصريين مقيدة فى بلدهم. كان ضباط الأسطول البريطانى يقومون بعمل استطلاعات وعمليًا سبر الأعماق حتى عند سفح الحصون بدون أن تعترضهم أية عوائق بفضل أوامر الباب العالى.

أخيرًا، عندما بدأ الأميرال الإنجليزى القصف، كان على علم بأنه سوف يقصف جسدًا لا حياة فيه، الذى فى مواجهة جميع الظروف المعكوسة، استطاع أن يحافظ على شرف الجيوش المصرية.

وكان جلاء القوات النيلية من موقع الإسكندرية نتيجة لتهديدات الأميرال "سيمور" الجديدة، الذى كان قد أعلن أنه يريد أن يهدم الحصن دمشق (كوم الدكة) وحصن بابليون (كوم الندور)، اللذين يقعان فى وسط المدينة، ولما حل بعد الظهر، "عرابى باشا"، بعد أن رفض الاشتراك فى هذا العمل البربرى مدافعًا عن هذه الحصون، قرر أن ينسحب نحو كفر الدوار، موقع حصين سوف أوضح أهميته لكم. من كانوا الإنجليز فى نظر المصريين؟ أصدقاء أم أعداء؟ عند وصولهم، كل شىء محفوف بالمدافع، قالوا لأنفسهم، أصدقاء. لا يصدق ذلك مطلقا، ولكن بذلت محاولات لإضافة الثقة إلى اعترافاتهم.

تدمير الحصون، ومهاجمة المدينة فى هدوء تام بدون أى سبب أو دافع يتطلب ذلك، يوضح أنهم لم يقولوا الحقيقة، والوزارة تقول باعتبار الأسطول البريطانى كأنه فى حالة حرب مع مصر.

كانت مدينة الإسكندرية والأراضى التى تحيط بها تشكل شبه جزيرة، تحيط بها من جهةٍ مستنقعات مالحة وبحيرات طينية، ومن الجهة الأخرى يحدها البحر. ومن أجل التوغل إلى الداخل، لا يوجد سوى طريق ضيق يقع بين هذين المانعين الطبيعيين، وفى وسطه يمر الخط الحديدى الذى يربط الميناء سالف الذكر بالوجه البحرى.

إذًا، فى أوسع جزء من هذا الطريق، أقيم المعسكر على أرض زراعية، شعبة رملية، شديدة الجفاف. ونحو الغرب بقليل، فى اتجاه الإسكندرية، خط دفاع قوى وممتد، يقطع طريق بحيرة مريوط، حتى مستنقع الرملة، ممتطيًا جوادًا على السكة الحديدية، وقنال المحمودية. متاريس بمنحدرات متسعة، مسلحة بمدافع كروب، مثبتة على أعلى نقاط، تتحكم فى الممر.

مدفعية الفيلق تستحق التقدير، تتكون من مائة قطعة كروب قوية الشد والتركيب، المشاة والفرسان، باختصار، ليس به أى عيب. هذه الفرقة الأولى قوية تتكون من ٢٥٠٠٠ رجل، كانت موزعة ولكنها كانت تتجمع يوميًا. بالإضافة إلى ٣٠٠٠٠ بدوى فرسان ومشاة، وثلاثة آلاف مسلحون بالعصى الهائلة، وسوف نحصل على تقرير صحيح عن حالة الدفاع عن البلد من ناحية البحر المتوسط، منطقة الإسكندرية. أنا لا أعتقد مطلقًا فى الفرق التى تريد إنجلترا أن تحضرها من الهند. إذا كانت الفرق من المسلمين، فسوف تتآخى مع المصريين. وإذا كانت من الجنود الهنود فإن حكومة المملكة تعجل بثورة الإسلام، متروكة لها هى نفسها على ضفاف "الجانج". المدافع على أهبة الاستعداد وأصغر شرارة سوف تؤدى إلى الانفجار. إذًا فالمجازفة كبيرة.

فى جميع الأحوال فإن أقل محاولة على بورسعيد أو السويس، قد تسبب تدميراً جزئيا للقناة الدولية، التى أصبحت خطا استراتيجيا. هذا الجزء من مصر يشغله حاليًا بدو الجنوب والشرق، الذين يستطيعون بمؤازرة بعض الفرق أن يدافعوا عن موقعهم، بفضل العوائق الطبيعية للمنطقة.

بذل البلد كل ما فى وسعه ليقاتل خصوم تحرره، وعلى هذا الأساس، فالعدو وهو مندفع نحو الغاية، معرض لأن يلقى ما لم يكن فى الحسبان.

بلغت كراهية الأجنبى ذروتها. وفاضت الهبات الوطنية، والتطوع عن طيب خاطر. ومن أجل أن أعطيكم فكرة عن الحماس الذى يسود هنا، سأقول لكم إن الفلاحين الذين أرسلتهم المديريات ليجلبوا المخدرات، كانوا من الكثرة بحيث أنهم أنجزوا عملهم فى ستة أيام بدون أن يخرج أى جندى من المعسكر.

"عرابى باشا" هنا، يقيم فى بيت متواضع من بيوت الفلاحين، على بعد بضعة أمتار من القناة، التى أغلقت أول أمس من أجل:

١ - إغراق السهول التى تمتد إلى أبى قير التى تقع على بعد فرسخين ونصف شمال شرق المعسكر.

٢ - حرمان الإسكندرية من مياه الشرب.

أعلن عن هجوم وشيك يقوم به خمسة عشر ألفًا من الإنجليز.

بالأمس قام الحمر – كما يسمون هنا – بعملية استطلاع فى جبهتنا من أجل إعادة فتح القناة. لم يواتهم الحظ: المشاة جاءوا عن طريق السكة الحديدية. قوضوا المعسكر فى الحال، وفقد فرسانهم أربعة جياد.

اليوم وصل ستة مندوبين إلى القيادة العامة، أرسلهم المجلس الإدارى المؤقت الذى يتخذ القاهرة مقرًا له.

نوقشت مسألة زيارة "توفيق"، اثنان فقط من هؤلاء المندوبين لهما رأى إيجابى.

أسمع من حولى لعنات تنصب على "توفيق"، الذى تسبب فى هجرة ستين ألفًا من سكان الإسكندرية يعيشون على كرم الفلاحين! فليشنقوه! صاحت النساء بذلك، وهن نائمات فى الطريق، وهن مجردات من كل شىء. سمع "عرابى" باقتراحهن، فى يوم الجلاء عن الإسكندرية، بينما الخديو يلوذ محتميًا فى الرملة، كان يسهل أسره! "كلا اتركوه لمصيره. نحن مصريون فلاحون وجنود، ولسنا مغتالين أو سفاحين". هل "عرابى باشا" لم يتمكن من منع "على باشا مبارك" و"رءوف باشا" من أن يتوجها فى مهمة إلى الإسكندرية، حيث بدون أدنى شك، كانا سيوقعان الضرر بالحزب الوطنى؟ على العكس، أعطاهم عددا كبيراً من حرس الفرسان، الذين يستعرضون فى الوقت الذى أكتب فيه إليكم.

يسود البلد هدوء تام. إنجلترا تهيمن حتى أبواب الإسكندرية، ومصر تنقاد بمفردها، بحكمة ونزاهة، بداية من حدودها هذه وحتى السودان.

أقول لكم إن حياة الهلال الأحمر، والمراسل الوحيد، على ما يرام فى إحدى القرى المغبرة، قابعة على ضفة القناة، فى وسط شعب هائج والأرجح أنهم لا يميلون إلى الأوروبيين، وقد يؤخذ ذلك على الحقيقة. ولكن الحرب هى الحرب.

الجهاز الطبى جيد التجهيز، جميع الأطباء يتحدثون الفرنسية. والوزير القائد – بالرغم من اهتماماته الضخمة – يبدو دائمًا قلقًا على رغد العيش بالنسبة إلى من يحيطون به. إننى أتناول الطعام على مائدته، متواضعة ولكنها تضم الكثير من ألوان الطعام، بدون شوكة ولا سكين، ونجد ذلك أفضل. ثلاث سفن إنجليزية أراها من شرفتى قاصدة إلى أبى قير لمنع شق الخط، الذى يسفر عنه غمر الأراضى التى يفرضون المرور عليها.

رسالة رقم (٨١)

تسلم مساعدنا "فوكلان" من القاهرة الرسالة التالية، التى حتى الآن يعلمها الشعب تماماً عن طريق البرقيات الإنجليزية، سوف توضح الأهمية.

القاهرة فى ٢٠ أغسطس ١٨٨٢

النظام مستتب فى طول البلد وعرضه، بالرغم من الهيجان العظيم الذى يهيمن على الوجه القبلى والسودان ضد الأوروبيين.

الأستاذ "ديمارنس" مدرس موسيقى فى القاهرة، اغتاله خادمه. ودفن مواطننا تم بدون وقوع أى حدث مؤسف. وألقى القبض على القاتل. وبكل تأكيد سوف يعاقب.

الجميع، أهال وأوروبيون، يثنون كثيراً على الحزم والنشاط المنتشرين بفضل Yaoum بك قائد الشرطة فى القاهرة حيث يعم الهدوء ولم تقع أية اضطرابات ولو للحظة واحدة. أحد التصرفات التى ستوضح احترام الحكومة الوطنية لأموال وممتلكات الأجانب: أمر "عرابى باشا" بعمل جرد، أمام شهود، لجميع المحتويات التى توجد فى المحلات الأوروبية، حتى يسهل عند الاقتضاء، أن التجار الذين يتعرضون لحالة سلب أو نهب، يمكنهم بسهولة أن يقيموا مقدار التعويض المستحق لهم قانوناً.

يمتدح المسلمون كثيراً الموقف الوطنى للأقباط والأكليروس. ولا يقل اليهود وطنية عن أقباط مصر. من بين هؤلاء اليهود الذين يقيمون فى الصعيد، قدم هبات كبيرة إلى الحكومة الوطنية. وأحد الأعيان المسيحيين فى هذه المنطقة أرسل إلى القاهرة - لسد بعض احتياجات الجيش - مائة حصان و ٢٥٠٠ أردب قمح. وأرسل الأكليروس القبطى إلى نجاشى الحبشة وفداً يطلب منه عدم قبول أى تحالف يعرضه عليه الإنجليز.

أما الشعب المسلم، فلم يكن أقل حماساً ولا أقل نشاطاً. معظم العمد (أعيان الناس) كانوا يتنافسون فيما بينهم فى الكرم والوطنية.

بعض تجار دمنهور تعاونوا وأرسلوا إلى وزير الحربية قافلة من ٥٠٠ حصان. أجريت التحصينات حول دمنهور، وكفر الدوار، والزقازيق وبنها، ووفقًا لتصريحات من شاهدوها، كانت هائلة.

فى القاهرة العمل يجرى على قدم وساق . وقد قام ٣٥٠٠٠ من صغار الفلاحين، صبية وبنات، بالعمل لمدة سبعة أيام، فى إقامة التحصينات فى بولاق، وفى الجيزة وفى شبرا . بل هؤلاء العمال الصغار قام أكبر عدد منهم بالعمل فى طرة، فى جنوب العاصمة، وفى جبل المقطم وفى العباسية. انتهت التحصينات من ناحية هليوبوليس، وتم تسليحها بمدافع كروب ذات عيار كبير. وحول هذه النقطة، كان مظهر الأعمال الدفاعية هائلاً.

يثق الشعب فى "عرابى" ورجاله ثقة عمياء. بالرغم من الضرائب التى تشكل عبئًا ثقيلاً وتثقل كاهل الشعب والتى أعاقت تجارته وصناعته، فلم يشكُ أحد ولم يتنصل أحد، ولم ينس أحد أن هناك تضحيات لابد من تحملها، وآلام قاسية من أجل تحقيق هذا الهدف.

توقف الصفقات، وانقطاع الاتصالات مع أوروبا أدى إلى ندرة العملة فى البلد، وجزء كبير من الضرائب يدفع عينيًا . كانت جميع الأحاديث والمناقشات التى تدور فى المساجد، والأماكن العامة، والمقاهى، عن الحرب.

فى كل مكان، الموضوع الذى يطور، هو ذاته حرب الإنجليز، طاعة محررى الوطن.

أصبحت القاهرة كناد واسع : فى كل خطوة نقابل خطباء شعبيين يحثون على الشجاعة ويعظون الشعب بالثبات. فى حديقة الأزبكية يوميًا، فى وقت عزف الموسيقى العسكرية يصعد أحد الخطباء الشعبيين على كرسي، ويحث الشعب على أن يتابع الحرب بدون تقاعس ضد الإنجليز و"كلابهم بالإسكندرية" . و"كلب الإنجليز" بالنسبة إلى المصريين هو "توفيق باشا"، الخديو الذى عزله المجلس الوطنى بالقاهرة.

فى كل يوم يتوافد المتطوعون ويرتفع عدد المقاتلين ، هؤلاء الذين رأوا – منذ ستة أشهر بالكاد – هذا الشعب المصرى، الطيب جدًا، الهادئ جدًا، الصبور جدًا، لا يعرفونه اليوم.

نبأ ذو أهمية قصوى من جميع وجهات النظر، وبصفة خاصة من وجهة النظر المعنوية، وهو وصول ١٢٠٠٠ جندى مشاة من طرابلس الغرب مع فرقة فرسان كاملة من قبيلة بنى سليمان الكبيرة. كل هذا الجيش المؤازر على خطوط كفر الدوار الآن. أحضر قادة هؤلاء الطرابلسيين مع محاربيهم، رسالة من أكبر قادة رابطة الزواويين الأفارقة : "سيدى محمد السنوسى"الذى أعلن عن قرب وصول دعم جديد للقاهرة يبلغ عدده ١٤٠٠٠ فارس بدوى، وسوف يكونون مسلحين ببنادق سريعة الطلقات مجلوبة من إيطاليا.

من بين المشاة الطرابلسيين الذين وصلوا حديثًا إلى كفر الدوار، يقال إن كثيراً منهم مسلحين تسليحًا ضعيفًا. من أجل استبدال بنادقهم القديمة أرسل من القاهرة قطار محمل ببنادق "ريميختون".

وفى قلعة القاهرة، يستمر العمل ليلاً ونهاراً. حوالى ألفى عامل يقومون بصناعة الخراطيش. سبك المدافع من أهم الأعمال، ولسوء الحظ فإن القطع التى يتسنى لسلاح المدفعية صناعتها ضعيفة العيار.

أميرات عائلة نائب الملك (الردافة الملكية) مُقيمات بالقاهرة، سيدات العائلات الكبيرة من الأهالى يعملن فى التضميد، ويتولين إدارة عمل الآلاف من نساء الشعب. ومن بين العمال الذين يعملون فى التحصينات فى شبرا والعباسية نرى عدداً كبيراً من النساء ، جميع أمراء عائلة الخديو أعلنوا أنهم موالون للحزب الوطنى، وأدوا يمين الولاء علنا لحكومة الدفاع الوطنى أمام جمع غفير.

وأرسل الأمير "حليم باشا" من القسطنطينية انضمامه إلى لجنة القاهرة المركزية.

عدد صغير من الضباط الشراكسة أو الأتراك وبعض الأفندية العرب تغيبوا عن اللجنة، وقد تمت رشوة بعضهم. من بين العرب الذين ينتمون إلى العنصر المدنى الموجود بجانب الخديو هناك اقتناع بأن أكبر عدد سوف يتركون "توفيق" حالما تسنح الفرصة لذلك. يمتلئ بلاط نائب الملك الصغير، والمعسكر الإنجليزى، بجواسيس "عرابى باشا" الذى يعرف يوماً بيوم ما يجرى عند أعدائه.

أرسل "عثمان باشا غالب" حاكم أسيوط، ٢٢٠٠٠ جندى، من قدماء الجنود الذين خدموا فى عهد "إسماعيل باشا" الذين تم استدعاؤهم ثانية إلى الجيش. ثكنات العباسية حافلة بالمتطوعين، يتدربون يوميًا فى الميدان الفسيح للمناورات الذى يحمل الاسم نفسه، ويقع عند حدود الصحراء. وفى طرة نفس المشهد. طلبة جامع الأزهر كلهم تقريبًا متطوعون. ويقيمون فى ثكنات، جزء فى قصر النيل والآخر فى القلعة.

هؤلاء يشكلون فرقة خاصة لن تغادر العاصمة، والذين سوف يعملون مع الفرقة النظامية للدفاع عن مرتفعات المقطم المغطاة حاليًا بمتاريس مسلحة بالمدافع.

تسلم "عبد القادر باشا" حاكم السودان، أمرًا بإرسال أكبر جزء من جيشه، المكون من فرق قديمة يبلغ عددها ٣٥٠٠٠ مقاتل. وسوف يسد النقص الذى سوف ينشأ فى صفوف جيش السودان، بالمجندين الجدد من صعيد مصر.

غادر السودان ألاى ينتمى إلى الفيالق السوداء يبلغ عدده ٥٠٠٠ رجل، وصل إلى قنا. هذه الفرق سوف تستقل السكة الحديد إلى أسيوط، حيث يصلون فى غضون بضعة أيام، وسوف يتوجهون إلى المواقع الأمامية.

المعتقَد أن حاكم مساوا قد تخلف وانضم إلى الخديو وأصدقائه من الإنجليز. ولكن هذا الحدث لم ينل كثيرًا من الاهتمام، لأن "المهدى عبد الله" المزيف، الذى قام منذ عامين بحملة على الفرق المصرية، عقد حلفا مع حكومة القاهرة التى يعترف بها، وبادلها بحكومة مديرية سنار.

تعهد الثائر القديم بأن يدافع عن الجبهة الجنوبية ضد أى هجوم يأتى من الحبشة. اتخذ "عبد القادر باشا" احتياطاته ضد أى غزو محتمل تقوم به فرق النجاشى، ولهذا السبب، لم يستسلم إلى النصائح التى تحملها إليه بعثة الأكليروس القبطى. وفى الوقت نفسه الذى كان يتخذ فيه إجراءات الدفاع نحو الجنوب، يقال إن لجنة القاهرة المركزية ستقدم إلى النجاشى ميناء على البحر الأحمر مقابل حياده.

أنا لا أصدق حقيقة هذه الإشاعات، وأنا مقتنع بأنه إذا ترك النجاشى "جوهانس" جباله، وبدأ الهجوم فإن المدافع المصرية سوف تدفع قسرًا بمجموعاتها داخل بلدهم.

استولى المصريون فى الاشتباك الأخير الذى وقع أمام كفر الدوار، على قطار مدرع من الإنجليز. وكان يجب على هؤلاء أن يسردوا عجائب عن آلة الحرب هذه، التى هى فى الحقيقة، ذات فاعلية متوسطة . لست أدرى لماذا فكر المصريون أن يصنعوا مثله وأن يرسلوه إلى التل الكبير.

لم يكن بين صفوف المصريين سوى عدد قليل جداً من الضباط الأجانب:

إنهم بعض الألمان وبعض الفرنسيين. "ستون باشا" الجنرال الأمريكى غادر القاهرة مع عائلته. ضابط من البحرية الإيطالية : السيد "باولوتشى"، أخلى طرفه وجاء يعرض معاونته على "عرابى باشا" الذى أحسن استقباله. كان عدد الأسرى الإنجليز الذين تم أسرهم بالقطار المدرع قليلاً جداً، تم إرسالهم إلى مدينة زفتى التى تقع شرق مدينة طنطا. أقاموا فى إحدى مدارس الحكومة، وكانوا يعاملون معاملة حسنة. طعامهم كان أفضل من طعام الجنود المصريين أنفسهم. وكان لهم يومياً راتب قيمته قرشان (٥٢ سنتيم). لم يكن يوجد فى القاهرة سوى أسير إنجليزى واحد. هو الضابط صف بحرى "شير"، يقال إنه من عائلة كبيرة فى إنجلترا. وكان يعامل بكل حذر. حتى يمكن إخفاءه عن حب استطلاع الجماهير، وتم تغيير الزى الخاص به. ارتدى زياً إسطامبولياً وطربوشاً.

بالأمس، خرج بصحبة ضابطين مصريين يجيدان الإنجليزية، وزاروا الأهرامات.

كان "عرابى باشا" يجوب الطريق باستمرار، يذهب من أقصاه إلى أقصاه لخطوط دفاعه ليتفقد سير العمل. ويذهب إلى القاهرة لبضع ساعات كل ثلاثة أيام. أطلقت شائعات فى الإسكندرية بأنه كان مريضاً وهذا غير صحيح. بالأمس، فى الأزبكية كان يحتفى به، وخلال يومين، رحل إلى دمنهور ليتولى قيادة الفرق.

رسالة رقم (٨٢)

عندما ذكرنا فى نشرتنا السياسية الصادرة الأحد رسالة مكتوبة عن الخطوط المصرية أمام الإسكندرية (كنج عثمان، بالقرب من كفر الدور)، كتبه أحد الأوروبيين المتحمسين مناصراً لعرابى باشا، أعلنا أننا سوف ننشر للقراء بعض المقتطفات،

وذلك لإعلامهم بالطريقة التى تواجه بها الأمور فى بطانة الديكتاتور المصرى. بهذه الصفة مهما كانت الرسالة التى تتعلق به وسواء كانت مؤرخة فى ٢٢ أغسطس مع حاشية رسالة ٢٤، وأنها قد استغرقت هكذا ١٢ يومًا لكى تصل إلينا عن طريق بورسعيد وكان لمضمونها أهمية.

كان كل اهتمام مراسلنا ينصب على إيضاح أن الإنجليز لا يستندون إلى القول بأن الأسطول والجيش الإنجليزيين فى مصر من أجل أن يقمعا ثورة. منذ الساعة الأولى لقصف الإسكندرية استيقظت الأمة المصرية ولم تكن هناك إلا صرخة واحدة ضد الخديو الذى استسلم للأجانب على مدى ٤٠ يومًا. ملايين من العمال المتطوعين أقاموا خطوط دفاع ونفذوا بحماس استثنائى أعمالاً هائلة، من أول إلى آخر مصرى أدركوا جميعًا أن إصرار إنجلترا من أجل أن تظل السلطة فى يد دمية تخلى عنها الشعب، سوف تقود أودية النيل إلى الحماية الإنجليزية منسوخة من الحماية على تونس.

لم يكن أحمد عرابى مرهقًا ولكنه يتساوى فى الوطنية بستة أو سبعة ملايين نسمة، الذين قدموا مؤازرتهم فى الحال للدفاع الوطنى بحماس صادق. وفى المديريات تتوالى التطوعات بمحض الإرادة، والجنود القدماء انضموا إلى فرقهم. كانت الهبات كلها عينية تنهمر من كل نوع: خيول، وبغال، ودواب بالآلاف، وأكثر من ٢٥٠٠٠٠ قنطار من الغلال، وصلت ثلاثة ملايين فرنك من الذهب إلى وزارة الحربية بالقاهرة حيث تستمر هذه العطاءات فى الإغداق.

سيدات الحريم وأميرات أسرة محمد على وأمهات وأخوات الجنود يتنافسن بكل حمية فى جميع الأعمال التى تمكنهن من خدمة الجيش. أخيرًا من أجل تتويج العمل أعدت الأمة لكى تثبت وجودها لوجود جماعات تنشرها الصحافة الإنجليزية وأسفرت هذه المظاهرة عن مجلس عمومي وحاكم منتخب من الأهالى بالمدن والقرى، مكونًا من أمراء وعلماء وبطاركة مسيحيين وأحبار يهود وأعيان وتجار ومزارعين.

هذا المجلس الوطنى عزل "توفيق" بالقوة، وكلف "أحمد عرابى" بالدفاع عن البلد، مع وضعه هو شخصيًا، بصرف النظر عن عمله العسكرى وبصفته وزيرًا للحربية، يأمر بأمر حكومة مؤقته مكونة من ٤٠٠ مفوض عن الأمة.

إذًا كيف تجد ثوارًا عند شعب لا يريد بالإجماع أميرًا غير كفء، فى طريقه إلى تسليمه إلى الأجنبى؟

وجد مراسلنا أن هذه الحماسة تثير الإعجاب.

والآن ها هى بعض المعلومات العسكرية:

الخطوط الدفاعية للممر الضيق الذى يقع على بعد عدة فراسخ شرق الإسكندرية بين البحر وبحيرة أبى قير وبحيرة مريوط والسهول المالحة التى تسمى الملاحة – تغلق الطريق أمام أى جيش ولو كان كثير العدد . أمام القيادة العامة وخلفها يوجد المعسكر الحصين بكفر الدوار، المواقع المتقدمة تقع نحو حجر النواتية.

من دمنهور إلى الخطوط المتقدمة يوجد ٣٠٠٠٠ رجل من الفرق النظامية من كل الأسلحة، وتقريبًا عدد من البدو، مشاة وفرسان. فى هذا الوقت، يوجد فى مصر أربعة ألايات قوية تتألف من ٢٠٠٠٠ رجل لكل ألاى بكامل أسلحتهم، وجيش مساعد من الأعراب غير النظاميين يبلغ عددهم ٦٠٠٠٠ ونيف، نصفهم من المشاة المسلحين المصريين فى بيوتهم، يعرفون طبيعة الأرض ونظام المياه، ولا يخشون المناخ. اعتدالهم فى الغذاء معروف جيدًا، وأرضهم تمدهم بالغذاء الوفير. إذن، يستطيعون الدفاع عن أنفسهم وينتظرون من لا يعمل حسابا للناس أجمعين، هذا صحيح.

الإسلام وفقًا لمراسلنا، فى غليان، لصحوة عامة سوف تهز إنجلترا، وتنتهى الإمبراطورية العثمانية فى أوروبا، ولكن سوف تتمخض عن خليفة، حاكم حقيقى لإمبراطورية إسلامية شاسعة يبلغ عددها ٢٠٠ مليون نسمة فى أفريقيا وآسيا.

فى هذا الوقت تجرى الاستعدادات فى مكة المكرمة لمؤتمر إسلامى سوف يعلن المسائل الحيوية التى وضعت آنفًا فى العام الماضى، بمناسبة الحج فى العام الهجرى ١٢٩٨ – ١٢٩٩ .

رسالة رقم (٨٣)

هيئة أركان حرب الجيش الإنجليزى كانت تحتفظ ببعض رسائل مراسلنا المصرى. تسلمنا اليوم فقط، بطريقة غير مباشرة، مجموعة من الرسائل لاحقة للاستيلاء على التل الكبير، تتضمن معلومات مهمة عن هذا اليوم، وعن الأحداث التى أعقبت ذلك. لسنا فى حاجة إلى أن نذكر بأن مراسنا الأوروبى النزيه، المقيم فى مصر منذ سنوات طويلة، رافق "عرابى" إلى معسكر كفر الدوار.

نحن ننتقى رسالة من الرسائل التى وصلتنا، وهى التى تتعلق بمعركة التل الكبير، وعن استسلام "عرابى".

القاهرة فى ١٦ سبتمبر ١٨٨٢

إن ما تم الاتفاق على تسميته جيش الشرق، كان يتوقع هجومًا يوم الأربعاء أو الخميس، وبناء على ذلك تم استدعاء كتيبتين من ألاى قديم يقيم فى خطوط كنج عثمان ببرقية ليتواجد اليوم التالى، الخميس عند بزوغ الفجر، إلى رأس الوادى.

وبحلول منتصف الليل كان الرجال على استعداد جيد، رحلوا لكى لا يصلوا أبدًا إلى وجهتهم، فى ضواحى الزقازيق. الدلالات الجلية الواضحة لهزيمة تتلاقى من كل جهة، وتابعت الحركة العامة .

وهذا هو ما قد حدث. علمت وأنا فى المواقع ذاتها، من سيارات الإسعاف، الموجودة خلف القيادة العامة، فى الوقت حيث كان يجرى نقل الجرحى.

"سلطان باشا"، رئيس مجلس النواب، كان يسير مع أركان الحرب الإنجليزى بصفته نائبًا عن "توفيق". هذا وقد أعلمتكم فى رسالتى الأخيرة، بأن هناك رسلاً من البدو من قبائل عائلة "أولاد على"، طوعًا انضموا إلى الحزب الوطنى ودعاهم إلى أن يتولوا الجيش المصرى، "سلطان باشا" وعد بميزات كبيرة ومال كثير. هذه العروض لم تلق نجاحًا من جهتنا إلا قليلاً. وكان البدو يقاتلون ويريدون قتال الإنجليز، غزاة الأرض النيلية، وأكثر وطنية من أمثالهم من الشرق، ظلوا مخلصين للراية المصرية.

ولكن من جهة الإسماعيلية، كان يوجد زعماء من البدو من مديرية الشرقية، ظاهريًا أصدقاء "لعرابى باشا"، وهو أصلاً من هذه المنطقة، ولكنه لا ينثر الذهب، ليرتبط بالرجال. أحد هؤلاء الزعماء مراسل سابق للسيد دى ليسيبس، متعودا على حياة الترف، عنده دائمًا مال وفير وخيول جميلة، ومستعد لعمل أى شىء من أجل إرضاء جشعه، قابل "سلطان باشا" فى الموعد المحدد، بمجرد وصوله إلى الإسماعيلية.

زعيم البدو، أحيط علمًا بما يجب عليه أن يقول لـ "عرابى باشا"، قام بزيارات عديدة للمعسكر المصرى :

"علمت من مصدر أكيد أن الإنجليز سوف يذهبون من هنا، وسوف يأتون إلى هنا، ويمرون من هنا".. يقول ذلك بكل مودة. "ووضع ألاى هنا على هذا الطريق وضع قوات كبيرة هنا للحراسة". تظاهر وزير الحربية بالاقتناع طوال هذه المحادثة الأخيرة التى كانت فى يوم ١٠ إلى ١٢ من الشهر الجارى. ليس هذا كل شىء، الزعيم البدوى قام بزيارة بعض القادة. أحدهم يدعى "روبى باشا" عمل سابقًا فى هذا المجال، استمر هذا الزعيم العربى قائلاً: "الإنجليز عددهم كبير مثل رمال البحر، سوف يذبحونكم جميعًا". تم التأكد من أن الذهب قد تم توزيعه. حينئذ لم تبد أى علامة تدل على التعاطف. كان المتوقع أن يبدأ القتال يوم الخميس فى النهار وفقًا لتأكيد الشيخ سالف الذكر، ووفقًا لتصريحاته تم توزيع كتائب عظيمة فى مواقعها حيث عدم جدواها كان واضحًا.

وفى مساء الأربعاء، الجيش الإنجليزى، ينقاد فى ميسرته وميمنته وفقًا لإرشادات البدوى، سار ليلاً، والذى سوف ترونه موصوفًا فى الصحف الإنجليزية، وانقضوا بغتة عند الفجر، على معسكر غافل بسبب الخيانة، وشطروه بحركة زاوية قائمة على ميسرته. لا أحد سوى البدو يستطيع أن يقود العدو من الفجاج الرملية والكثبان المرتفعة.

تم إجراء فحص، وفقًا لمفكرة أحد ضباط أركان حرب، كان يوجد فى هذا الوقت ١٦٠٠٠ رجل بكامل الأسلحة، فى خطوط الدفاع كما فى المواقع حيث لا يستطيعون أن

يظلوا بدون أى مصدر. من هذا العدد ٢٠٠٠ رجل فقط - على الأكثر - قاتلوا بشجاعة حتى النهاية. الآخرون جميعهم تركوا الصفوف عند أول بادرة ظهرت من الارتباك والفوضى، أى عندما تم انشطار الموقع وعبور الجيش الإنجليزى من وسطه، وكان ضوء الفجر ضعيفًا يكاد يسمح بتمييز العدو. فى نصف ساعة، كان للإنجليز السيطرة وأنهوا عملاً كان قد تم من تلقاء نفسه، بدون معركة وبدون قتال استراتيجى، وفى دهشة عظيمة من كبار الضباط.

قائد الجيش البريطانى، عمليا إلى ما لا نهاية، رأى فى ذلك نصراً، لأنه كان قد وعد الملكة بأنه سوف يدخل القاهرة يوم الخامس عشر، وهو وعد قد حققه. ولكن وجهة النظر العسكرية الدقيقة، من الواضح أنه إذا لم يستمع "عرابى" إلى آراء صديقه القديم زعيم بدو الشرقية، ولو أنه صف أفضل ألاياته، مع إخلاء رشيد ودمياط، المزدحمة بالجنود بلا حاجة إلى ذلك، وبقيادة لواء ممتاز، فإن الجيش الإنجليزى ما كان قد تسنى له أن يجتاز مدخل الوادى فى وقت قصير، بل كان سوف يستغرق شهرين أو ثلاثة أشهر.

ولسوء الحظ، فقد جرح أفضل ضابطان فى الجيش فى عملية يوم ٩ ، والحق يقال، لم يكن فى جيش الشرق مفكر عسكرى واحد منذ أن حرم من الخدمة "على باشا فهمى" و "راشد باشا". ومن ناحية أخرى، أصيب الدفاع العام عن الجناح، عندما وقع فى الأسر "محمود باشا فهمى" القائد العام لأركان الحرب بعد عملية نفيشة فى بداية الحملة. فى هذا العمل الوحيد، أعده ضابط ممتاز، كانت خسائر الإنجليز، نسبياً، أكثر من العمليات الأخرى مجتمعة.

هذه الحملة على رأس الوادى كبدت العدو كثيراً من الرجال. كانت تسير ببطء، ولكن بعناصر نجاح خاصة ساعدتها الظروف والصدفة.

شاهدت ضباطًا مصريين يبكون من هول المفاجأة ورأيت منهم آخرين كأنهم سقطوا من فوق السحاب، لا يفهمون شيئًا مما يجرى فى هذه العملية الأخيرة، ولا يريدون أن يصدقوا مثل هذه الكارثة. بيد أنى لم أسمع أبدًا كلمة توبيخ توجه إلى "عرابى".

وكان إجمالى الخسائر فى هذا الصباح المشئوم، من الجانب المصرى، يربو على ٩٦٧ رجلاً، أى حوالى ثلث الفرق التى قاتلت. وذلك يوضح لكم كيف أن هؤلاء البواسل كانوا يدافعون عن خطوطهم بضراوة. العدو قوى بستة عشر ألف رجل، يضرب يمنة ويسرة، ويندفع حتى الزقازيق. حيث منذ زمن طويل لم يكن هناك أحد.

استدعى رئيس المجلس "عرابى" إلى القاهرة، توجه "عرابى" إلى القاهرة ووصل حوالى الساعة الرابعة بعد ظهر الخميس. تحركت مسألة الدفاع عن العاصمة، أمر سهل خاصة وأن كثيراً من الجنود ينضم إلى الآلاى الذى يتبعه. القلعة كانت مزودة بكل شىء. تمت المشاورات فى قطع من الليل حتى الصباح. رفض "عرابى باشا" الموافقة على أى قرار إيجابى.

يتساءل : "هل إذا دافع عن المدينة، فذلك يعنى أنه يدفعها إلى أن تلقى مصير الإسكندرية، وأن العدو سوف يجد فرصة سانحة ضدنا، نحن الذين اتهمونا باقتراف إثم كبير، ونحن منه براء". هذا الرأى يدينه.

عندما وصلت إلى القاهرة فى نهار يوم الجمعة، ذهبت إلى "عرابى باشا" لأشكره على كرم الضيافة الذى أحاطنى به، بعد أن أنقذ حياتى فى الثانى عشر من شهر يوليو. تحدثنا طويلاً عن الأحداث. المواطن العظيم لم يكن محبطًا أبداً.

قال لى : « لا تحرر لأى بلد بدون إهراق الدماء وبدون هزيمة، تعرف ذلك أفضل فى سويسرا، عن أى مكان آخر. أنا لا أتألم بقدر كبير لما حدث بالأمس، كما أننى أتوجس خيفة من جرائم رد الفعل التى سوف تظهر تحت حماية القوات الإنجليزية. لماذا نحن هنا، كأننا هاربون فى بلدنا الخاص؟ إنه الظلم ، والسرقة، والفساد، والاستبداد فى عهد "إسماعيل"، واستمر حتى هذا الوقت الذى نحمل فيه السلاح. فى أوروبا، يتظاهرون بعدم تصديق ذلك. ماذا كان يوجد من مصائب تستوجب العقاب فى مصر قبل وصول الأساطيل؟ بل إنجلترا كانت قد نالت من مصر مع "رياض". هيا يا صديقى، تناول المسألة بالدراسة حيث توجد المعلومات الصحيحة. لا تضيع الوقت، سوف يقال لك كل شىء » .

بعد ذلك تغيرت المحادثة. استطرد متسائلاً : "ماذا يجب على أن أفعل الآن؟".
كان ذلك فى المساء. يقال، تريد أن تهرب إلى الداخل. سوف يكون ذلك خطأ. هل يصح ذلك؟ أجاب، "أنا أهرب - بصوت ونظرات هادئة - أنا أهرب، إننى جندى : أبداً"!
إذاً، أفعله باعتباره وديا ، هل تريد رأياً لصحفى بسيط يعذرك دائماً ويدافع عنك؟ هيا أنت وصحبك، استسلموا إلى الجنرال الإنجليزى (الذى وصل إلى العباسية). سلموا له سيوفكم، ولا تنتظروا حتى يلقى القبض عليكم، لأن "توفيق"، الذى كنت تنتسب إليه سابقاً، يريد رءوسكم".

ابتسم "عرابى"، نهض وسار وقتا طويلاً، يداه معقودتان خلف ظهره. "طلبة باشا" و "محمود سامى" و "على فهمى" بحثوا المسألة، هذا الأخير، جريحاً كان فى بيته، ملازماً للفراش، على بعد خطوتين من بيت "عرابى باشا".

"محمود سامى" انصرف وهو يقول: إذا أرادونى، فهم يعرفون أين يجدونى.

عرابى وطلبة فقط سمعا نصيحتى، وتوجها معاً، حوالى التاسعة مساء، وهما يدخنان السيجار، فى عربة ميدان، إلى العباسية، حيث، فى الحال، أصبحا أسيرى الجنرال سير "جارنيت وولزلى"، ذلك بكل تأكيد لا يمكن أن يسىء إلى موقفهما.

قال لى "عرابى" وهو يشد على يدى : "لا تنصرف، عليك أن تواسى ولدى الذى يبكى".

ومنذ ذلك الوقت لم أر أى واحد من هؤلاء. احترسوا من شائعات الصحافة الإنجليزية والأجنبية.

رسالة رقم (٨٤)

مغامرة چون نينيه

فى مصر

نحن نسارع إلى ذكر التفاصيل المهمة التالية التى تتعلق بمغامرات مواطننا، مع أن المأساة المصرية فقدت كثيراً من واقعيتها. التفاصيل التالية تستحق على الأقل التجديد، السيد "نينيه" كان السويسرى الوحيد فى معسكر "عرابى".

« ... كنت قد وصلت إلى الإسكندرية، قادماً من الزقازيق، فى اليوم السابق على تهديد الأميرال "سيمور" "لعرابى" بقصف المدينة إذا لم تستسلم ثلاثة حصون. لم يكن أحد يصدق أن الأميرال قد وضع مشروعه قيد التنفيذ. صدرت أوامر صارمة إلى السكان، لم يستطع أحد أن يفتح نافذة تطل على البحر. شاب إنجليزى من مكتب التلغراف صعد إلى الشرفة بمكتب المصلحة، وبيده منديل أحمر يعمل به إشارات. أنزله رجال الشرطة، وفى الساحة كانت توجد فصيلة من الجنود، أوقفه الإنجليز أمام الحائط وأطلق عليه الرصاص، انعقاد مجلس بدون إجراءات.

كان المدفعجية المصريون يتخذون مواقعهم، بدأ القصف فى الساعة التى حددها الأميرال الإنجليزى. ساد الهلع، النزوح تام، اكتظت الشوارع بالهاربين، أنا شخصيًا سارعت بإغلاق السكن الخالى الذى أشغله، وسلمت المفاتيح إلى البواب، أو البواب المجاور، دلفت إلى الطريق، خادمى الصغير اختفى بين الأمواج المتلاطمة من البشر، أنا شخصياً كانت الجماهير تدفعنى دفعًا، وجدت نفسى أمام فيلق أمرنى بالتقدم إلى الأمام.

كذلك مع الآلاف من الهاربين الآخرين، ألفيت نفسى خارج المدينة التى كانت الفرق تخليها.

كان الوطنيون ساخطين، فلنتصور الحالة النفسية لسكان مدينة أوروبية تعرضوا لقصف مفاجئ، فى أقصى حالة هدوء، وأننا انتقلنا إلى وسط سكان من العرب،

وفهمنا بسهولة الاهتياج العام. النساء بصفة خاصة، يظهرن أكثر سخطًا واهتياجًا من الرجـال.

وصلت خارج المدينة، جموع الهاربين توجـهوا بحذاء السدود، عبرالطريق الذى يتبع بحيرة مريوط نحو الداخل، عربات أركان الحرب التى كانت تمر، بعض الضباط أركبونى معهم. كان السفر طويلاً، ولم نصل إلى كفر الدوار إلا فى اليوم التالى. جمع هائل من الأعـراب والفلاحين، وطنيين ويونانيين وأرمن وصـلوا إلى المعسكر، كانت هناك مشاهد خوف. نرى أحد الأوروبيين يخرج من المحطة، يجادل بعض الأعراب بصدد أمتعته التى يريد الأعراب أن يأخذوها منه، كان هذا فرنسيا يعمل محررًا فى صحيفة الإسكندرية المسماة : "فيوليت". أحاط به مجموعة من الأعراب ضربه أحدهم بعصا قوية على ساقيه، فطرحه أرضًا وأجهز عليه آخر بأن فصل رأسه عن جسده بضربة من سيفه. وكان التدخل مستحيلاً، كل ما كان فى استطاعتنا عمله أن نحول دون إلقاء الجثة فى القنال. فى اليوم التالى، دفناه خلف مبنى الإسعاف، "وكانت أول جثة تدفن هنا" ».

ويحكى "نينيه" بعد ذلك عن إقامته فى معسكر "عرابى"، وأعماله كمساعد لإسعافات الصليب الأحمر، يخدم فيها أطباء مصريون، كان معظمهم قد تلقوا دراساتهم فى الجامعات الأوروبية. فى البداية كان الإنجليز لا يريدون الاعتراف بالصليب الأحمر، وكانوا يطلقون النار على عربات الإسعاف.

يتحدث الراوى عن الإقامة فى المعسكر حيث قضى ٦٦ يومًا: « أصبحت استحكامات كفر الدوار هائلة. تقدم آلاف الفلاحين بإرادتهم ليقوموا بالعمل، لم يقبلوا مرتبات، واكتفوا بالغذاء. كانت البلد تقدم بوفرة كل ما يلزم من مواد، ودواب ركوب ونقل. وكان أحد طلبة البحرية الإيطالية قد احتمى بالإسعاف، اسمه "باولوتشى"، من "كاستيلفيداردو" الذى أصبح منذ ذلك الحين مطلوبًا للإنجليز، ويدينه مجلس حرب إيطالى بسجنه لمدة عامين. رفض الطالب الصغير أن يصرح باسمه لمدة طويلة ».

أشاد "نينيه" بقنصل إيطاليا فى بورسعيد، أحد (الفريبورجوازيين)، السيد "دى بوكار" الذى أقام معه علاقة تتعلق بالطالب "باولوتشى".

وفى المعسكر كان الجنود يقضون وقتهم فى تبادل إطلاق النار مع الفرق الإنجليزية، التى تقوم بطلعات استطلاعية فى ضواحى كفر الدوار، ويحكى أنه أكثر من مرة، سأله الفلاحون الذين يحضرون إلى المعسكر ويرونه ويسألونه عما يفعله بين المصريين. "هذا المسيحى المتنكر"؟ ويحكى أيضًا أنه أكل مع "عرابى" عدة مرات على مائدته بدعوة منه، والذى كان يعيش عيشة راضية. وهو من الرأى القائل بأن السيد دى ليسيبس جامل الإنجليز، دون إرادته، فى خططهم، مع احترام حياد القناة أكثر من الأوروبيين.

أعمال المساعدات للإسعافات كانت تطوعية ومجانية، لا تدفع أية مرتبات، حالة كرّس الإنجليز انتباههم لها.

ولما كانت الاتصالات مقطوعة فى جميع الأنحاء، وبصعوبة شديدة استطاع أن يوصل بعض الرسائل إلى الخارج وحذر هكذا بعض الأصدقاء. وكان هو الأوروبى الوحيد فى معسكر المصريين. السيد "بلنت" أحد الإنجليز المخلصين للقضية الوطنية، كان قد اختفى، أحد المراسلين الفرنسيين الذى كان فى أركان الحرب "لعرابى" إبان القصف اعتقد أنه من الأفضل أن ينتقل إلى متن إحدى سفن الأسطول.

وصلت إلى المعسكر فرقة من الأسرى الأوروبيين، كانوا بحارة الباخرة النمساوية "النوتيلوس" التى أسرت فى دمياط. عاملتهم هيئة أركان الحرب المصرية بكثير من التحفظ، وعادوا حيث كانوا فى حراسة مشددة بهدايا أحرارًا، بشرط واحد : ألا يصرحوا بأى شىء شاهدوه فى المعسكر. هؤلاء البحارة حملوا رسائل السيد نينيه، رسائل وصلت إلى وجهتها، كما علم فيما بعد.

- ٢ -

[ملخص الرسالة ٨٣ ، تفسر دخول الجيش البريطانى مصر. نص للقصص الفودى (من "فود"بسويسرا)، ٢٠ أكتوبر عام ١٨٨٢، نشرة "لوجورنال دى جنيف" ٢٢ أكتوبر عام ١٨٨٢] .

- ٣ -

نصح "نينيه" "عرابى" بأن يسلم نفسه إلى الإنجليز، كان فى استطاعته أن يهرب إلى الصعيد، ولكنه رفض ذلك. مواطننا قضى يومين فى منزل الدكتاتور، ثم توجه إلى فندق تديره امرأة نمساوية كان فى إمكانها أن تخفيه، ولكن لا يريد أن يعرضها للشبهة، وهنا اعتقله الإنجليز وقادوه إلى مقر الشرطة حيث حبس.

وجد هناك حوالى مائة من الأعيان ووجهاء القوم، وباشوات وشخصيات أخرى من القاهرة، مشتبه فيهم ومعتقلين ألقت شرطة نائب الملك القبض عليهم. كل هؤلاء الناس مكبلون فى الأصفاد، لم يكن النظام قاسيًا، بدليل أن هؤلاء المساجين يتغذون على حسابهم، ويكلفون من يُحضر إليهم احتياجاتهم المعيشية من الخارج. السجين يعيش على الخبز والعنب، وفيما بعد، تقاسموا وجبات رفقائهم فى هذه النكبة، وهو لا يريد أن يمس الوجبات التى تقدمها الحكومة، ليس بلا أسباب، بعض من الخليط يعرف سره الشرقيون.

أكثر من مرة، استجوبت السلطات والجنرالات الإنجليز السجين، يحاولون إدانته، ويدعون أن خدماته فى معسكر "عرابى" لم تكن تقتصر على معونات للجرحى. وقد نجحوا فى اكتشاف أوراق ووثائق وبيانات بالموقع توضح عند صاحبها رأيًا مجحفًا لكل من نائب الملك والإنجليز. يوجد فى العدد اتصالات تمت إلى الحكومة الفرنسية التى يمتلك المؤلف منها نسخة مزدوجة.

استجوبه كل من الجنرال "وولزلى" و "كاميرون" و "بتلر"، وعرضت عليه مجموعات صحيحة من الجرائد الأجنبية مهتمة بشخصية السجين، وتصحبها تعليقات فى غاية الجرأة فى ربط الأحداث. لاحظ السجين بصفة مستديمة أنه لم يكن ليهتم بتقديراته التى تتعلق بشخصيته وأن السلطة يجب أن تقتصر على ذكر الأحداث التى تنسب إليه.

وكما علمنا، اهتمت الدبلوماسية بالسجين، وذات يوم علم أنه سوف يطلق سراحه بشرط أن يغادر الأراضى المصرية. نذكر حادثًا طريفًا: أحد الحراس، إيطالى، كان يقود السجين إلى الاستجوابات، سأله ذات يوم: "هل أنت سويسرى؟ نعم. حسنًا!

إن ما يؤلمنى أن أرى من يطوع أو يجند من مواطنيكم للحضور إلى مصر ليقوم بعمل الجنود". علمت كذلك، يستطرد القاص، أنه فى عهد توفيق سوف يجرى ثانية التجنيد الذى بدأ فى عهد إسماعيل.

أخطر السجين بأن السفينة سوف تبحر فى اليوم التالى، تلك كانت حيلة من رجال الشرطة الشراكسة لكى يستطيع أن يعاين التزاماته وأن يخفى بعض الذهب، وأشياء لها قيمة عالية، ولا يترك له وقت لكى لا يختلط عليه الأمر. فى الواقع، أخطره الجنود بضرورة رحيله فوراً، وتم اصطحابه إلى الإسكندرية، صعد إلى السفينة أربعة من رجال الشرطة، وعندما وصلت إلى عرض البحر متجهة نحو تركيا عندئذ فقط اختفى رجال الشرطة، والمطرود رحل تماماً وقد نفذوا تعليماتهم. وعلى متن السفينة، عندما كان يعاين أمتعته، لاحظ أنه قد فقد ماله. كذلك زوروا له جواز سفر مصرى وكتب فيه أنه (راجا) (أمير هندى) ولد فى الأناضول، احتمال من أجل أن يشتبه فيه ومنعه من التخاطب مع السلطات الأوروبية. وصلت الباخرة إلى "بيريه" حيث نزل إلى البر، من أجل أن يرحل إلى أوروبا عن طريق بواخر شركة (فريسينيه). من رأى السيد "نينيه" أن هذه القضية المصرية دسيسة سابقة التدبير، نسجت خيوطها إنجلترا مشجعة أو متناسية غزو تونس، وتعرف جيداً أن مصر فريسة ناضجة يجب أن تقع بين يديها. اليوم استولى الإنجليز على البلد، وأصبح نفوذ القوى الأخرى – بما فيها فرنسا – تحت الصفر. الإنجليز يحكمون باعتبارهم الأسياد، وسوف يسامحون "توفيق"، طالما أنه يخدم مصالحهم، وإذا ثبت عكس ذلك فإنهم سوف يتخلصون منه بمنتهى السهولة. إنهم يعرفون تماماً ماذا تعنى مصر من وجهة النظر الاقتصادية، بأرضها الخصبة خصوبة عجيبة، وتبلغ مساحة الأراضى الزراعية فيها ١٢ مليون أكر، ذات عائد بالنسبة إلى المزارع، يستطيع أن يدفع من ٢٥٪ إلى ٥٠٪ فوائد إلى المرابين و ٢٥٠ مليون ضرائب للدولة. الوطنيون كادحون، هادئون، لا يميلون إلى الحرب، يشكلون هكذا فئة من الرعايا لا يسببون أى قلق أو هموم للسلطة.

چون نينيه

رسائل إلى جريدة التايمز

ملخص

تجارب السيد نينيه

جريدة التايمز فى ٢٥ أكتوبر ١٨٨٢

أنا شيخ أقيم فى مصر منذ اثنى وأربعين عامًا. فى بداية الأمر، كنت أعمل مزارعًا للقطن - وذلك لحساب محمد على - وبعد ذلك تاجرًا بالإسكندرية. لقد كرست حياتى لقضية الفلاح.

وبما أننى عاصرت نهضة الحركة الوطنية، فقد عرفت فى عرابى حاميًا لحقوق الشعب. وشاركته نضاله بأن قمت بقيادة سيارة إسعاف تابعة للهلال الأحمر.

ومن أجل إنصافه، ذهبت إلى إنجلترا لأشهد على أعماله عن طريق نشر قصة الثورة والحرب.

وهذه الرسالة ما هى إلا نداء عاجل لصالح المعتقلين بسجون مصر، التى خرجت منها.

وتلك هى ظروف اعتقالى فى التاسع عشر من سبتمبر. فى السجن، كان على فهمى، وقد كان جرحه غائرًا يلقى الرعاية الطبية نفسها التى أتلقاها.

وكان السجن مليء بأنواع العذاب، بالقانورات وبالخوف من دس السم فى الأكل. وقد أرسلت خطاباتى إلى السيد ماليت.

قام العقيدان بتلر وويلسون بزيارة السجن. وفى الثانى من أكتوبر، وبالرغم من الحمى التى أصبت بها، تم نقلى والحديد بيدى إلى الإسكندرية. وهناك، تم استجوابى وتجريدى من ملابسى وتفتيشى. أمضيت أربعة أيام بسجن بورجو.

وكنت أشهد المعاناة وصياح المسجونين المكدسين لسوء المعاملة، سافرت إلى مدينة سميرنا بجواز سفر مزيف كأحد الرعايا العثمانيين.

وفى مدينة بيريه هربت من المخاطر التى تحيق بى، ثم عدت إلى برن عن طريق فرنسا. وكانت شكواى الوحيدة بخصوص ثلاثة الآلاف سجين الذين عانوا من الوحشية التركية التى تجددت عن طريق إنجلترا بدون علم الشعب الإنجليزى.

السجناء المصريون - جريدة التايمز ٣١ أكتوبر ١٨٨٢

لتلبية النداء الذى أثارته أفكار الكاتب فى غرفة العموم، نسب السيد شارل ديلك إلى الكاتب وقائع غير دقيقة.

ولبيان الحقيقة، فإن الكاتب المسجون قام بتقديم العديد من الشكاوى.

هل أطلق ماليت سراح الكاتب أو طالب بتكبيله بالقيود الحديدية وجواز السفر المزور لإلغاء هويته السويسرية؟

- المزيد من التفاصيل عند اكتمال تشكيل لجنة تحقيق.
- أول قائمة لسجناء تم إساءة معاملتهم.
- انتقامات شخصية خارج السجون: سوء معاملة سلطان باشا لمحافظ (المنيا).
- تعذيب فى سجون المقاطعة.

الإجراءات ضد عرابى باشا - جريدة التايمز الأسبوعية ، فى ٢٤ نوفمبر ١٨٨٢

قدم چون نينيه نص الإقرار الخطى فى العاشر من نوفمبر فى ويستمنستر - هول وهو عبارة عن شهادة عن تحركات عرابى ورفاقه منذ قصف البحرية الإنجليزية للإسكندرية فى الحادى عشر من يوليو وحتى تسليمهم للقاهرة فى الرابع عشر من سبتمبر ١٨٨٢ .

آراء نينيه فى مصر - جريدة التايمز فى ٢٣ ديسمبر ١٨٨٢

ما هو مستقبل الشعب المصرى؟ فالاحتلال البريطانى أمر واقع. وفى ضوء حقيقة وجود الحركة الوطنية، كان من الممكن أن تعترف إنجلترا بخطئها وتنسحب من البلد، ولكنها كانت تبحث عن أية حجة لاستكمال غزوها.

ومن بين تلك الذرائع:

١ - النواحى المالية: لم يتم بعد تطبيق برنامج عرابى النافع.

٢ - الإدارة: يوجد عدد كاف من المسلمين والأقباط المؤهلين، ولا توجد ضرورة لتعيين موظف أوروبى لا يفهم العربية.

وتعد غرفة النواب ووزارة الحرب بمثابة مثال على التنظيم، يجب الاستفادة من مواهب عرابى كأفضل إدارى واستراتيجى.

٣ - الجيش: يجب تحديد دوره. فهو إما جيش من المرتزقة الشراكسة والألبان للحفاظ على سلالة محمد على، وإما جيش بأكمله من الإنجليز لاحتلال مصر كالهند ، أو جيش من الفلاحين، الذين انفصلوا مؤقتًا عن محاريثهم للخدمة الوطنية، مكونين بذلك طبقة معارضة للحكومة، وذلك وفقًا للنظام السويسرى. بالنسبة للبوليس - وخاصة فى المدن التى يقطن بها أجانب - يتم تعيين ضباط أوروبيين جادين وليسوا على مصالحة مع الخديو إسماعيل أو توفيق.

٤ - العدالة: المساواة بين الطبقات مطلوبة، تطبيق القانون المصرى بالعربية حتى من جانب القضاة الأجانب بالتعاون مع قضاة من الأزهر : ومن بين المفوضين المختارين من الشعب، عرضت لجنة على البرلمان وعلى الجمهور الإنجليزى رغبات مصر فيما يختص بتلك الإصلاحات. وقد تأكدت فاعلية لقاء محمد عبده - جلادستون ، وكان هذا الرباط الدائم الذى يضمن مصالح البلدين لا يمكن أن يتم إلا من خلال استقلال الحياة الوطنية.

ملاحظات

١ - عدت إلى مصر فى الخامس عشر من أغسطس عام ١٨٧٨ بعد لقاءات شخصية مع سالسبيرى فى لندن ووادنجتون فى باريس وبسمارك فى برلين.

قام نوبار باشا بتشكيل "الوزارة الأوروبية" راجع كتاب Supra صـ ١٩ شارل رو، مصر من صـ٣٥٠ عام ١٨٠١ إلى ١٨٨٢ صـ ٣٥٠ مصطفى: مصر (ص ٦٢-٦٤).

وعن الأرمنى نوبار باشا (١٨٢٥-١٨٩٩) مهنته كرجل دولة بمصر، اقرأ السيد نوبار ، أ. هولنكسى، نوبار باشا أمام التاريخ باريس أ دويتر (١٨٨٥) بيفيز صـ٩ السيد صبرى "نوبار باشا" (الطبعة الأولى صـ ١٠١٢-١٠١٣) ج- تاغر "شخصية نوبار باشا النفسية" كراسة التاريخ المصرية (١٩٤٩) ٥٦ صـ٣٥٣-٣٧٢ "نوبار باشا والإصلاح القضائى" الطبعة نفسها (هى ٣٧٣-٤١٢).

كتاب مصر (صـ ٦٣-٨١)، الأيديولوجية لعبد المالك (صـ ٣ ، ٤) لبيرك. الإشارة للمذلات غير المنشورة والمحفوظة بأرشيف الكونت أرشوشونيفينه وأرشيف مملكة بلجيكا.

٢ - إدوارد دور من تولوشتازومور مورج (ولد فى مدينة فيفاى عام ١٨٤٠ وتوفى بالقاهرة عام ١٨٨٠). مؤلف كتاب التعليم العام فى مصر (باريس، لاكروا ١٨٧٢).

تم تعيينه "مفتشًا عامًا للمدارس المدنية المصرية" وحصل على لقب بك.

مرجع: صـ ١٢٠-١٢٢ لكتاب الألف بوغاز لـ نينيه، وكتاب خديو مصر لإدوين دى ليون، لندن.

ساميسون لو عام ١٨٧٧ (صـ ٢٧١-٢٧٢)، صفحة ١٨٠ من كتاب بيادى فيشر "مساهمات فى معرفة العلاقات السويسرية - المصرية" (١٩٦٥)، لشبونة.

٣- تريكو كان قد مثل فرنسا فى مصر. وكان حذرًا جدًا تجاه الخديو إسماعيل، تم استدعاؤه إلى باريس عام ١٨٧١ . وقد أثبتت عودته إلى القاهرة ليحل محل كودو تصلب الحكومة الفرنسية، وذلك فى مقابل تشدد لندن التى عينت فرانك لاسيل ليحل محل اللورد فيفيان القادر على مساندة الخديو إسماعيل.

٤ – إشارة إلى ما سيحدث: عزل الخديو إسماعيل وترشيح البرنس حليم.

٥ – عثمان باشا نورى: قائد أركان الحرب بالجيش التركى، كلفه السلطان بإجراء تحقيقات مختلفة عن حكومة الخديو.

مرجع A.A-R مصطفى، "علاقات مصر بتركيا خلال حكم الخديو إسماعيل (١٨٦٣–١٨٧٩)"، القاهرة، دار المعارف ١٩٦٧ (صـ ٤٥/١٦٣ – ١٦٤).

٦ – خير الدين ١٨١٠–١٨٨٩: رجل دولة ومصلح فى تونس ثم فى تركيا. كانت إدارته الجيدة فى الوصاية على عرش تونس (رئيس اللجنة المالية ١٨٦٩، وزير قائد ١٨٧٠، رئيس وزراء ١٨٧٣) قد أثارت عداء محيط البيه، مما اضطره إلى التقاعد فى عام ١٨٧٧ .

وعندما استدعاه السلطان عبد الحميد إلى القسطنطينية فى أغسطس عام ١٨٧٨ أصبح كبيرًا للوزراء. كان يدعم ترشيح الأمير حليم لخديوية مصر. ولكنه استقال منذ شهر يوليو ١٨٧٩ .

مرجع: كتاب زعماء الإصلاح لأحمد أمين، القاهرة، النهضة، ١٩٤٨ (صـ ١٤٦ إلى ١٨٣). كتاب "أصل الحماية الفرنسية بتونس" لجان جانيادج، باريس، ١٩٥٩ ، صـ ٨١ . كتاب: حواراتى أفكار عربية (صـ٨٤–٩٤) وكتاب نيازى بيركس: التطور فى تركيا، مونتريال. جامعة ماك جيل ١٩٦٤ صـ ٢١٤، وكتاب مصطفى "مصر" (صـ ٩٨–٩٩).

٧ – طلعت باشا: مبعوث الخديو فى القسطنطينية.

٨ – مرجع: الرسالة ٢٤ والملحوظة ٦٤ .

٩ – عندما استشعر الخديو إسماعيل عزْله رفع عدد جنوده من أجل مقاومة السلطان والقوى الأخرى، لكن الجيش كان يُكنّ له مشاعر عداء.

مـرجـع: باريس، وزارة الخـارجـيـة، "مـصـر" الجـزء الـ ٦٣ رقم ٨٩، جـودو فى واديختـون، ٢٥ أبريل ١٨٧٩، لندن، F.O ١٢٦، ١٤١ رقم ٣٨٦، .F.O لاسيل ٢٦ يونيو ١٨٧٩ .

١٠ – محمد فؤاد باشا: ولد فى القسطنطينية عام ١٨١٥، وتوفى فى مدينة نيس عام ١٨٦٩ . كان رئيسًا للتنظيمات، عين خمس مرات وزيرًا لخارجية السلطان ومرتين كبيرًا للوزراء. ارتبط اسمه بعلى باشا وهو مثله مصلح فى مجـال المـالية والعـدل، وكـان ضد تدخل السفراء الأجانب فى الشئون التركية، وكان فؤاد مواليًا للخديو إسماعيل (كتاب نينيه "الألف بوغاز" صـ ١٠ ، أما على فكان يكره الخديو.

١١ – عن مجمل سياسة بسمارك تجاه مصر، مرجع: دسائس بسمارك فى الشرق، باريس، لـ ١٨٨٢، بيانكونى وجييوم، وكتاب شارل – رو: "ألمـانيا وإنجلترا ومصر فى ١٨٧٧ – ١٨٧٨" معلومات استعمارية ١٩٢٨ صـ ١٧٥–١٨٠ وكتاب: "ألمـانيا وقضايا تونس والمغرب ومصر من عام ١٨٧٩ إلى عـام ١٨٨٤"، والفصل الثامن والثلاثون من كتاب: "أفريقيا الفرنسية".

الفصل الثامن والثلاثون (١٩٢٨) – (صـ ٣٤٥–٣٥٥، وكتاب سماركو "الممالك" صـ ٣٥٧، وكتاب فرانك أيدولوت: "وليام بسمارك وبريطانيا الاستعمارية البوليسية" ، فلادلفيا، جامعة بنسلفانيا ١٩٣٧، وكتاب W.O هندرسون: "التوغل الألمـانى الاقتصادى فى الشرق الأوسط ١٨٧٠–١٩١٤" ، وكتاب: "تاريخ الاقتصاد".

الفصل الثامن عشر (١٩٤٨–١٩٥٠)، رقم ١–٢، صـ ٥٤–٦٤، وكتاب مصطفى "مصر" صـ ٩٣–٩٨، وصـ ٤٢ .

١٢ – فى النصف الأول من شهر يونيو، كلفت مكاتب لندن وباريس عملاءها فى القـاهرة فيفيان وجودو بتقديم نصيحة رسمية إلى الخديو إسماعيل باعتزال العرش. هذه النصيحة سيتم تقديمها من جديد بشكل رسمى وفقًا لتعليمات تلقاها العملاء فى الثـامن عـشـر من يونيـو، ولتـلافى صـدور قـرار فـرنسى – بريطانى يطالب الخـديو بالاستقالة طالب الباب العالى بأن يحل توفيق (ابن الخديو) محل الخديو.

١٣ – روبير بورك (١٨٢٧-١٩٠٢): عمل كاتبًا للدولة للشئون الخارجية منذ تولى ديزرائيلى السلطة فى فبراير ١٨٧٤، وكان يمثل الحكومة فى غرفة العموم.

١٤ – وعن هذه المسألة السياسية – اللاهوتية، كتب لوى جارديه: "فسخ عقد الخليفة"، و"المدينة الإسلامية" باريس، فران، ١٩٥٤ (صـ ١٧٥-١٧٧).

١٥– مرجع: الفصل السابع من كتاب "نينيه والأمير حليم" وقد أكدت دراسة دقيقة لمصطفى، علاقات، ص ٢٠٥-٢١١ الدسائس التركية والدولية المذكورة فى هذه الرسالة.

١٦ – أصدر السلطان عبد الحميد فرمانًا فى السابع والعشرين من مايو ١٨٦٦ يقضى بانتقال الإرث مباشرة من الأب إلى الابن فى مصر، وذلك وفقًا لأحقية الابن الأكبر فى أسرة الخديو إسماعيل فى إرث الحكم.

وقد ألغى هذا الفرمان لائحة الإرث التى تضمنها فرمان يونيو ١٨٤١ الذى كان سيعطى الأولوية لحليم.

وقد استفاض نينيه فى سرد هذا الفرمان فى الرسالة السابعة وعرابى باشا صـ ١٦-٢٢.

مرجع ج. دوين: "تاريخ حكم الخديو إسماعيل".

كتاب: "الملكية" صـ ١٩٦-٢٠٠ ، سماركو.

١٧ – السير هنرى لايار وفورنيه هما بالتوالى من سفراء إنجلترا وفرنسا بتركيا.

١٨ – الرسالة الرابعة.

١٩ – جون سكوت: قاض إنجليزى بمحكمة استئناف الإصلاح القضائى. لم يكن يعتقد فى مهامه الدقيقة التى لا تتوافق ومهام مراسل لجريدة التايمز.

كان يعمل تارة لدى الخديو إسماعيل ويمتدح "سخاءه الذكى" وتارة وسيطا بين مصر وإنجلترا.

كتاب: "نينيه وعرابى باشا"، صـ ٣٥ . مرجع: الرسالة ٣٥ .

٢٠ - مرجع: الرسالة السادسة، الملحوظة الأولى، رسالة جوزيف أشقر "خديوية مصر، دراسة الحق السياسي"، مونبلييه للسيد فيرمين ومونتان في عام ١٩١٢ .

وقد كتب محمد سيف الله رشدى فى رسالته عن إرث العرش فى مصر المعاصرة، باريس، روسو ١٩٤٣ وبالنسبة للنصوص الرسمية، يوجد الفهرس العام للتشريع والإدارة المصرية، فيليب جيلا (١٨٤٠-١٩١٠)، الإسكندرية ١٩٠٦-١٩١١، الحجم السادس، وألف حاييم ناحوم كتاب: "مجموعة الفرمانات الإمبراطورية العثمانية الموجهة للخديو" ١٠٠٦-١٣٢٢ هجرية (١٤٠٩-١٥٩٧)، القاهرة، IFAO ، ١٩٣٤، بالإضافة إلى كتاب: "مجموعة الاتفاقيات التى عقدها الباب العالى العثمانى مع كبرى الدول الأجنبية، منذ أول معاهدة لعام ١٩٣٦ حتى الوقت الحالى (مرتبة وفقًا للدول)، باريس، ١٨٦٤-١٩٠١، الجزء العاشر.

وقد قام دوتستا باستكمال تاريخ هذه الاتفاقيات.

٢١ - وبخصوص العلاقات مع الأمير مصطفى فاضل، كما ورد فى الخطاب ٤١ والملاحظة ١٠٣ .

٢٢ - وكما ورد فى رسالة ج.دوكروييه، رءوس الأموال الأوروبية فى الشرق الأدنى.

٢٣ - إسماعيل صديق، والمعروف باسم وظيفته "مفتش المالية".

نعرف ، يقول نينيه، أن أعمال صديق المتحدث الكريم والتى كانت تختبئ من ورائها أعمال سيده الشريف والذى أمر بإعدامه عندما شرح أن صديق أفشى أسراره إلى الشريف جوشن. وعن هذه الشخصية ونهايتها المأساوية، التى وردت فى الخطاب ٧٤ ، عن نينيه فى الصفحة ٦١ ، وفى "رسائل لصاحب الفخامة جوشن" فى الصفحة ٦٥، وفى أصل الحزب الوطنى فى الصفحة ١٢٢، وعن ليون من صفحة ١٨٣ إلى صفحة ١٩٨، وفى كتاب بلانشار جيرولد بعنوان "مصر فى عهد إسماعيل باشا" والذى تم كتابته عام ١٨٧٩ فى صفحة ١٨٦ إلى صفحة ٣١٤، وعند بلانت فى كتاب بعنوان سر التاريخ فى الصفحات ٩ ومن صـ ٣٠ إلى ٣٣، م. صبرى كتب عنه فى الصفحة ١٨٤ فى كتاب: "الإمبراطورية المصرية فى عهد إسماعيل" وأخيراً بيرك الذى كتب عنه فى كتاب: "مصر" فى الصفحات ٣٩ و ٤٠ .

٢٤ – وفى وقت مبكر جداً، وهو زمن سعيد باشا، انضم نينيه للماسونية الشرقية المتحدثة بالفرنسية، وهى مستقلة بذاتها، وتسمى هذه الجماعة بجماعة الأهرامات وهى تابعة لجماعة الشرق الكبير لفرنسا (كما جاء فى كتاب نينيه "أصل الحزب الوطنى" فى الصفحة ١٣٦). وهذه الجماعة بعد انضمامها إلى جماعات مصر التى لها جذور ماسونية، كان قد تم تأسيسها فى الإسكندرية فى ١٦ أبريل عام ١٨٤٨، ولكن لم يكن لها أية أنشطة قبل عام ١٨٦٣ . وتم تأسيس جماعتين فى الإسكندرية، وهما جماعة "استرجاع اليونان" وذلك فى عام ١٨٦٣، وجماعة "النيل" فى عام ١٨٦٨ أما جماعة "نور مصر" وهى جماعة ناطقة بالعربية، فقد تم تأسيسها فى عام ١٨٧٥ ونرى أن السيد جمال الدين هو أحد الأعضاء المنضمين. وبعد ذلك، ستندمج هذه الجماعة مع جماعة أخرى مهمة فى الإسكندرية، وهى جماعة "كوكب الشرق" التى سوف يديرها الأمير حليم.

٢٥ – وقبل ثلاث سنوات من صدمة عام ١٨٨٢، تنبأ نينيه بالاستعمارية الجدلية والثورة الوطنية.

٢٦ – وعن جمال الدين الأفغانى، كتب نينيه فى مؤلفه "عرابى باشا" فى الصفحة ٢٨٥ .

٢٧ – كان لويس التاسع، الذى قاد الحملة السابعة، قد أبحر إلى دمياط فى الخامس من يونيو عام ١٢٤٩ .

وتم أسر لويس التاسع فى شهر مايو من عام ١٢٥٠ . وفى السابع من مايو ١٩٦٠ وبمناسبة ذكرى مغادرة لويس التاسع وإبحاره، قام الزعيم جمال عبد الناصر بافتتاح متحف أقيم بمنزل ابن لقمان، حيث كان ملك فرنسا مسجوناً. وعند "سجن الملك لويس التاسع بالمنصورة" كتب السيد رشاد، كما ذكر هذا الموضوع فى نشرة المعهد المصرى، الجزء الثانى (١٨٨٧) الصفحات ٧٨ – ٨٩ .

وكتب أيضاً فى هذا الموضوع السيد عبد الوهاب فى مؤلفه: "منزل ابن لقمان حيث سجن لويس التاسع فى المنصورة"، ١٩٥٠ فى الصفحات ٥٢٩–٥٣٧ . وتم سرد هذا الموضوع أيضاً فى كتاب (حملة لويس التاسع ضد مصر وهزيمته فى المنصورة) للسيد زيادة، القاهرة، ١٩٦١ .

كما كتب إيمانويل سيفان: "الإسلام والحملة الصليبية، الأيديولوجية والدعاية فى ردود أفعال المسلمين تجاه الحملات الصليبية"، باريس، مواسونوف فى عام ١٩٦٨ .

٢٨ – مرجع فى أعلى صفحة ١٧ .

٢٩ – خطة الجنرال الفرنسى لوى جول طروشو (١٨١٥-١٨٩٦)، رئيس حكومة الدفاع القومى فى عام ١٨٧٠ وللمارشال آشيل فرنسوا بازان (١٨١١-١٨٨٨) وقد قام هذا الأخير بتسليم جيش الراين إلى البروسيين وذلك عن طريق استسلام ميتز.

٣٠ – مرجع: النصوص الرسمية فى المجموعات السابق ذكرها فى الملحوظة رقم ٢٠ .

٣١ – مرجع D & N الفصل الأول من كتاب: "تكوين شركة جرينفيلد".

٣٢ – الكونت إدوارد لافيزون: كان يعمل موظفًا بقنصلية روسيا. وقد أبرزه نينيه "كصديق مقرب للخديو" فى كتاب: "الأمير والرعايا، الأموال وقوائم المتعة، فواصل من الحضارة الغربية فى مصر ١٨٧١-١٨٧٣".

وكتب عن مؤلف: "فى بلاد الخديو" فى الصفحات ٢٧٧-٣١٤ .

وفى هذا العصر، كان لافيزون يعمل وسيطًا للخديو عند نينيه من أجل توظيف قائد/ أركان حرب سويسرى للخديو لدى الجيش المصرى سرًا (الجنرال فريبور جوا دوكستلا) وفى النهاية، قتل الخديو لافيزون من أجل كتمان بعض الأسرار.

٣٣ – باولينو: يونانى من قبرص (أو من موريه) غير اسمه إلى بول درانيه، مثله مثل البارون ثينار. كان يعمل صيدليًا وطبيبًا للأسنان لدى محمد على، ثم مدير مسارح لدى الخديو إسماعيل. وكان يشبه باولينو باشا، الأستاذ فى مسرحية نينيه (المذكورة فى الملحوظة السابقة). وكتب أوريانت عنه فى كتاب: "محمد على واليونانيين" (١٨٠٥-١٨٤٨).

كما ذكره كتاب الأكروبول فى الجزء الثانى (١٩٢٧) فى الصفحات ٢٤ و ٤٣ .

وكتب كتاب "مصر الحديثة"، باريس، صـ٩٩، القاهرة (مارس ١٩٦١) صـ ٥١ - ٧١ .

٣٤ – جوزمان دوالفراش وهو شخصية فى رواية إسبانية تشردية تحمل نفس الاسم، ماتيو اليمان (١٥٤٧ – ١٦١٤). وقد عالج Lesage هذا النص باللغة الفرنسية (١٧٣٢). كان مغامراً، وقد عمل بجميع المهن، وكان يمتلك جميع الشرور فى مجتمع منافق. فعمل خادماً وجندياً وقاطعاً للطريق وقواداً... إلخ. عرف الثراء ولكن لم يسمح للدواه بتجريده من ثروته. وقد قادته وقاحته إلى القوادس.

٣٥ – أحمد البدوى (١٢٠٠ – ١٢٧٦): الولى الأكثر شعبية لدى مسلمى مصر. وقد كتب عنه ليتمان وفولير فى مقالاتهما فى الطبعة الثانية الصفحات ٢٨٩ و ٢٩٠ .

٣٦ – مونج وقد منع إرسال طلب إلى رئيس جمهورية فرنسا. وقام مصطفى فى الصفحة ١٢٠ من كتاب "مصر" بذكر رسالة الرابع من أغسطس فى وادنجتون.

٣٧ – مرجع: كتاب "فرمان التنصيب" فى أشهر الصفحات ٢٦٠ – ٢٦٧ وكتاب مصر صـ ١١١ – ١١٦ .

٣٨ – وكما ورد فى مصنف L.J لعام ١٨٨٠ ص ٣٣١ فى ٢٥ يونيو من عام ١٨٧٩، تم إرسال تلغراف لـ وادينجتون يؤيد ارتباط فرنسى – بريطانى "من أجل الحفاظ على فرمان عام ١٨٧٣ فى مقابل عزل الخديو" صـ٣٣٦ .

وفى ٢٦ يونيو ١٨٧٩، تم إرسال تلغراف لهارا يتودورى باشا، وزير الخارجية التركى، الذى يعلن عن انسحاب السلطان من فرمان ١٨٧٣ صـ٣٣١-٣٣٢ . ومن ٢٥ يونيو إلى ٨ أغسطس مارست الحكومتين: الإنجليزية والفرنسية ضغوطاً وبذلتا الجهود المكثفة من أجل إلغاء قرار السلطان.

٣٩ – وكما ورد فى مصنف جارديه: "سلطة تنفيذية: مشكلة الخليفة"، المدينة المسلمة، صفحة ١٤٧ و ١٨٨ ، كتب برنالويس مؤلفه "مفهوم جمهورية إسلامية" الفصل الرابع (١٩٥٧) الصفحات ١ – ٩ وكتب على مراد كتاب: "الشورى السياسية فى الإسلام" (١٩٦٤) صـ٧١٤ – ٧٢٤ .

٤٠ – أشار نينيه إلى تجربته فى زراعات منطقة جورجيا (١٨٣٧ – ١٨٣٨).

٤١ - إبراهيم باشا وهو صهر نوبار باشا، وموظف لدى الخديو إسماعيل فى القسطنطينية منذ عام ١٨٦٨ ، وذلك ليتجسس ويشترى السلطان وأتباعه.

كان معروفًا باختلاساته. كتب عنه مصطفى فى مؤلفه "علاقات" صفحة ٢٠٩ . كما كتب عنه دييركرابيت فى (اسم مستعار أصلان) كما يوجد مصنف إسماعيل الخديو الماكر ، لندن لـ روتلدج ١٩٣٣ فى الصفحات ١٦١ - ٢٠٨ ، ٢٨٣ - ٢٨٨ . ويشير هذا الكتاب إلى مقتطفات كثيرة من مراسلات إبراهيم - إسماعيل حتى عزل الخديو إسماعيل.

٤٢ - قلب نظام حكم الخديو إسماعيل : إسقاط "الوزارة الأوروبية" لنوبار باشا.

٤٣ - وعن اليونانيين فى مصر الحديثة. كتب مرجع سياسة ، Op.Cit .

٤٤ - بالنسبة لماسونية السكان الأصليين المميزة بالمحافل الماسونية المستوردة من أوروبا، نقرأ الرسالة التاسعة والملحوظة الرابعة والعشرين. أوجه الشبه بين هذا البناء الحر والماسونية الفرنسية بالجزائر تجاه السكان وكتب ياكونو عن خلط- هذا الموضوع "قرن من الماسونية الجزائرية" (١٧٨٥-١٨٨٤)، باريس ميزوتوف ولاروز (١٩٦٩) فى الصفحات ٢٣٥-٢٧٥ . وكتب مارسيل إيميريت "مشكلة البعد الأخلاقى: المقاومة الجزائرية فى عصر عبد القادر"، والجزء الثالث عشر من كتاب "معلومة تاريخية" صـ ١٢٧-١٣١ . ويؤكد هذا الكتاب على قوة الجماعات و "حرب الصوفينى".

كما ألف جاكوب لاندو كتاب "مقدمة فى دراسة سر المجتمعات فى مصر الحديثة".

وتأتى "الدراسات الشرق أوسطية" ليناير منذ عام ١٩٦٥ صـ ١-٥٢ لتسىء تقدير الرباطات العميقة "الماسونية المسلمة" والتى يشير إليها نينيه.

٤٥ - مرجع D & N الفصل السابع من كتاب "نينيه والأمير حليم".

٤٦ - إشارة إلى الحملات التعسة للجيش الخديوى ضد الأحباش فى عامى ١٨٧٥ - ١٨٧٦ .

وكما ورد فى مصنف ويليام ماك "مسلم مصرى ومسيحى حبشى أو الخدمة العسكرية فى عهد الخديو فى الأقاليم وخارج حدودها طبقًا للتجربة التى خاضها الموظفون الأمريكيون".

نيويورك، (١٨٨٠) "الحملات المصرية فى أفريقيا" (١٨٨٥)، حملة مصر ضد الحبشة (١٨٧٥-١٨٧٦) بالإضافة إلى نشرة معهد مصر، الجزء الخامس (١٩١١) صـ ١٩-٢٩، كما كتب كرابيتس عن "إسماعيل" صـ ١٠١-١٢٣

٤٧ - الجنرال شارل بوميرى ستون (١٨٢٤ - ١٨٨٧)، وقد خدم فى مصر منذ عام ١٨٧٠ حتى ١٨٨٣ : كان رئيسًا للبعثة العسكرية الأمريكية وقائد أركان حرب الجيش المصرى. ثم عمل مرافقًا عسكريًا للخديو توفيق أثناء الثورة الوطنية. وبعد إقالة الخديو إسماعيل، لم يعد أمام هذا الجنرال إلا الضباط إيراستون سباروباردى (الذى توفى بالقاهرة عام ١٨٨١) وماكومب ماسون ليعملا بمسح الأراضى. ويقوم نينيه بسرد علاقاته مع ستون باشا فى كتاب "بلاد الخديو" فى صفحات ١٥٥-١٥٦

وكما ذكر بيير كرابيتس فى مصنف (اسم مستعار لأصلان) وكتاب "أمريكيون فى الجيش المصرى" لندن روتليدج (١٨٣٨) وكتب فريدريك كوكس مؤلفه "عرابى و ستون: أول تمرد عسكرى مصرى ١٨٨٢" CHE ، الفصل الثامن (١٩٥٦) فى الصفحات ١٥٥-١٧٥، وهناك أيضًا كتاب جسمان للخديو إسماعيل الأمريكيون، الشئون الأفريقية رقم ٥٧ (١٩٥٨) صـ ٣٠٢ - ٣٠٧ .

٤٨ - مرجع : الرسالة الثامنة.

٤٩ - إدوارد ديسى (١٨٣٢ - ١٩١١): مسافر، ورجل أعمال، وصحفى، ورئيس تحرير جريدة الأوبزرفر من عام ١٨٧٠ إلى عام ١٨٨٩ .

كان يتميز بقضاياه الاستعمارية ويطالب خاصة بضم مصر لإنجلترا.

مرجع: قاموس السيرة الذاتية القومية فى الملحق الثانى، الصفحات ٤٩٧ - ٤٩٨ . وقد قابله نينيه بالقاهرة (الرسالة الواحدة والخمسون).

٥٠ - عرض دقيق لإصلاح جوشن - جوبير فى كتاب ليوفييه بعنوان: "المصالح المالية وقضية مصر"، ص ٢٥٨ - ٢٦٧ .

٥١ - مرجع: كتاب بلانت "تاريخ سرى" صـ ٢٤ - ٢٩ ، ومصنف تمبرلى "دزرائيلى وقبرص" وكتاب "تاريخ إنجليزى" (١٩٣١) ، فى الصفحات ٢٧٤ - ٢٨٩ ، ٤٥٧ - ٤٦٠ وكتاب دوايت لى "بريطانيا العظمى والسياسة الخاصة بمعاهدة قبرص ١٨٧٨" . هارفارد، ١٩٣٤ .

٥٢ - بعد انقطاع استمر عشرة أشهر، ظهر خلالها بطريقة غير شرعية أول بيان للحزب الوطنى المصرى (فى الرابع من نوفمبر ١٨٧٩). استأنف نينيه مراسلاته وقام بتحديد الموقف.

٥٣ - وعن المقابلة نقرأ D & N .

٥٤ - مرجع D & N فى الفصل الرابع.

٥٥ - وبعد عزل الخديو إسماعيل، أعاد مرسوم الخامس عشر من نوفمبر ١٨٧٩ المراقبين الإنجليز والفرنسيين إلى البلاد.

ولم يصبحوا مثل عام ١٨٧٦، ممثلين لحاملى الألقاب ولكنهم صاروا معينين بشكل مباشر من القوتين العظميين ولا يمكن إقالتهم إلا بموافقة إنجلترا وفرنسا.

وقد كانوا على رتبة الوزراء وأقاموا بمجلس الوزراء ولكن لم يكن لهم حق التصويت.

وتم إثارة تقرير لجنة التحقيق من جديد (نص L.J فى الصفحات ٢٠٠ - ٢٧٠).

وقد قامت لجنة التسوية بمناقشة هذا التقرير وتحضير قانون التسوية، الذى تم سنُّه فى السابع والعشرين من يوليو ١٨٨٠ والتعليق عليه فى (نص L.J، ١٨٨١).

٥٦- تمثل اليابان لنينيه المشاريع الأقل واقعية. مرجع: كتاب نينيه تحت عنوان "لا توجد معاهدة تجارية مع اليابان".

٥٧ - كتب ديساى "حمايتنا فى مصر" فى القرن التاسع عشر. الجزء السابع، صـ٣٣٣.

٥٨ - دولاموت فى (النيل) وكان أول وثانى مؤتمر نظمه السيد دولاموت يتعلق بدراساته عن حوض النيل (Xbre ١٨٨٠)، باريس، تولمير (S.d.) .

٥٩ - لوى - موريس - أدولف (١٧٩٩، القاهرة فى ٦ يوليو ١٨٨٣) بعد المهام الجغرافية التى قام بها فى السعودية والسودان، أصبح كبير المهندسين لدى محمد على منذ عام ١٨٢٨ وقام برسم خطة مائية للدلتا.

ونحن ندين له بأعمال الرى وتنقية أنهار مصر الحديثة التى تتم عن طريق مسابقة مهندسى سان سيمونيان، وقد ساهمت دراساته لبرزخ السويس فى تصحيح خطأ مساحة الأراضى وقع فيه Le Pere ، كبير مهندسى بونابرت.

وكان الأب قد أشار إلى فرق المستوى بين البحر المتوسط والبحر الأحمر.

وأسفرت تلك الدراسات عن حفر قناة السويس. وقد ألف دوبلفون مذكرات عن الأعمال الرئيسية للصالح العام التى تم تنفيذها فى مصر منذ قدم الأزل وحتى الوقت الحالى، باريس، برتراند، ١٨٧٢ - ١٨٧٣ . كما كتب عنه فيدال فى كتاب "لينانت باشا دوبلفون" وتوجد أيضًا نشرة عن مجتمع الخديوية الجغرافية، ١٨٨٤، الفصل الثانى، صـ٢٣٧ - ٢٤٦ . وقد ألف Jean-Marie Carre كتاب "المسافرون وكتاب فرنسيون فى مصر"، القاهرة، IFAO ، الطبعة الثانية ١٩٥٦ ، صـ٢٦١ - ٢٧٧، الفصل الثانى، صـ٢٣ - ٢٥ .

وكتب عنه جبريل جيمار كتاب "الإصلاحات فى مصر"، القاهرة، طبعة باربى، ١٩٣٦ فى الصفحات ٣٠٧ - ٣٢٠ .

ونشر شارل رو كتاب "مصر منذ عام ١٨٠١ إلى عام ١٨٨٢" بسرد بعض التفاصيل عن دوبلفون فى الصفحات ٢٣٧ - ٢٣٨ .

وكتب عنه هيلين ريفلان "السياسة الزراعية لمحمد على فى مصر" فى الصفحات ٢٣٣ - ٢٣٧ (١٩٦١)، كمبريدج.

٦٠ - المهندس الفرنسى ديودونيه أوجين موجل (١٨٠٨ - ١٨٩٠) بعد أن شيد حوض ترميم بميناء الإسكندرية، بنى سد الدلتا عام ١٨٤٧ . وقد سرد روبير هامبورى براون هذا الموضوع فى كتابه "تاريخ السد فى رأس الدلتا بمصر"، القاهرة، ديمر، ١٨٩٦ .

كما ورد عنه فى كتاب جيمار فى الصفحات ٢٢٤ - ٢٤٥ ، ٣٢١ - ٣٢٩، وشارل رو فى مصنفه "مصر منذ عام ١٨٠١ إلى عام ١٨٨٢" فى الصفحات ٢٥٧ - ٢٥٨، وأيضًا محمود محسن فى كتاب "الرى فى مصر والسودان الإنجليزية - المصرية"، ليون، طبعة تالان، (١٩٢٨) فى الصفحات ١٣٤ - ١٤٢ .

٦١ – مرجع: الرسالة الخامسة والأربعون (الملحوظة ١١١) والسابعة والأربعون (الملحوظة ١١٥).

٦٢ – سيبابيس (بالإنجليزية سيبوى وبالفارسية سيباهى أى جندى)، وهو اسم الجنود الهندوس المجندين من جانب الأوروبيين.

فى عام ١٨٥٧ ، قام بثورة فى التيفال ثم فى بومباى إثر ضم مملكة أود Aoudh (Oude) .

وكان الاستيلاء على دلهى فى العشرين من سبتمبر ١٨٥٧، بعد حصار طويل، بمثابة نهاية للكفاح.

ولكن مقاومة نانا صاحب امتدت لأكثر من عامين فى Apudh .

وقد اتسم القمع البريطانى بشكل خاص بالعنف.

وخلال قرن، كان المؤلفون الغربيون قد نسبوا بصفة عامة ثورة الجنود الهندوس إلى محظورات السكان الأصليين. وكان هذا بمثابة تمرد لجنود خرافيين رافضين البندقية الجديدة إنفيلد، التى وفقًا للبعض تم دهنها بشحم خنزير، أما الآراء الأخرى، فتشير إلى دهنها بشحم البقر.

واليوم، تبرز عصرية Ninet . نعترف أن التمرد كان ردًا على ظلم الإجراءات التى اتخذها الإنجليز، وخاصة تجريد الأمراء من سلطاتهم، وانهيار الصناعات المحلية وتغريب المجتمع التقليدى... إلخ".

مرجع: كتاب دوبوشير تحت عنوان "تشريح الاستعمار"، باريس، البان ميشيل، ١٩٦٧ ، ٢٥٦، وكتاب أنسل أمبرى (١٨٥٧) تحت عنوان "الهند، مجزرة أم حرب تحرير"؟، بوسطن، هيليث ١٩٦٣ ومصنف لفردريك مورو "التوسع الأوروبى (١٦٠٠ – ١٨٧٠)"، باريس، P.U.F، ١٩٦٧ ، صـ ٢٣٧ – ٢٣٨ .

٦٣ – القيصر ألكسندر الثانى أعلن الحرب على تركيا (أبريل ١٨٧٧) ليحمى الشعوب البلقانية. وقد عبر الجنود الروس نهر الدانوب، ولكنهم واجهوا فى بلغاريا ولمدة خمسة أشهر مقاومة عنيفة من قبل حصنى بليفنا الذى يحميه عثمان باشا.

٦٤ – وكما ورد فى نهاية الرسالة الثانية وبداية الرسالة الرابعة. تحت إكراه اتحاد الدول للالتزام باقتراض روتشيلد (وهو مرسوم تم إصداره بجريدة رسمية فى العشرين من أكتوبر لعام ١٨٧٨ و L.J لعام ١٨٨٠ صـ١٢٧ – ١٣١) من أجل تسوية الديون المتداولة ورهن ضياعه الخاصة، فقد جمح الخديو إسماعيل.

وبعد رفت وزيرين أوروبيين، قام الخديو، عن طريق محكمة استئناف الإسكندرية، بتثبيت بعض الرهانات السابقة لضمان اقتراض روتشيلد. وقد أثار المصرفيون القلقون مكاتب باريس ولندن ضد الخديو. وكانت جهودهم، هى التى تشخص المراسلات الدبلوماسية فى مايو ويونيو ١٨٧٩ وقد مهدت لعزل الخديو إسماعيل.

ويمكننا تتبعهم فى رسائل جودو المبعوثة فى الثانى والسادس والخامس عشر من مايو فى وادنجتون وفى السادس عشر من مايو فى L.J ١٨٨٠ فى الصفحات ٢٩٠ – ٣١٨.

٦٥ – وعن رياض باشا، الذى ترأس مجلس الوزراء من ٢١ سبتمبر ١٨٧٩ إلى ٩ سبتمبر ١٨٨١، كتبت المراجع التالية:

الرسالة الرابعة والثلاثون، كتاب بيوفيز فى الصفحة التاسعة، وكتاب مصر (صـ١٣٠-١٣٣، الثورة صـ٥٤ ومصر للكاتب بيرك (صـ١٥٦).

٦٦ – وكان استثمار الإدارة المحلية عن طريق موظفين إنجليز هو أحد الأهداف السريعة لسياسة وزارة الخارجية البريطانية طبقًا للتعليمات السرية فى السادس عشر من أكتوبر ١٨٧٩ المعطاة للقنصل الجديد إدوارد ماليت.

مرجع: نص D & N ، الفصل الرابع.

٦٧ – الخليج، أو "خليج" القاهرة، وهو فرع قديم للنيل كان يمر بهليوبوليس ويخرج من السويس. وقد تم إهمال هذا الفرع منذ القرون الوسطى كطريق موصل بالبحر الأحمر. وقد ضاع غدير منه فى شمال القاهرة، وقبل أن يختفى فى نهاية القرن التاسع عشر، كان يستخدم كخزان ومصب للمجارى.

"عندما يصل الفيضان، كان لسد القنوات المؤدية إلى القناة (...)، وكان مجرى النيل نظيف إلى حد ما، فكنا نملأ الصهاريج.

وفى أدنى المياه، كان الخليج يصبح مستنقعًا راكدًا ونتنًا بسبب عدم التفريغ فى الأنحاء المجاورة.

وكانت السلطات تكتفى بإلقاء الرمال من أجل سد ثقوب المياه والوحل. ولكن الطمى، الذى كان يأتى فيما بعد، كان يدمر العمل".

وقد كتب مارسيل كليرجين عن هذا الموضوع كتاب: "دراسة فى الجغرافية المعاصرة والتاريخ الاقتصادى"، القاهرة، شندلر، ١٩٣٤، صـ١٤، الجزء الثانى، الصفحة الخامسة.

٦٨ – أونديميون (١٨٨٠)، وهى آخر رواية نشرها دزرائيلى. بالمقارنة بالخرافات، كانت تلك الرواية "تبرهن على سيطرة المرأة على مقدرات الرجل. ومن هنا كانت هيمنة الإدارة على المصير" وتبرز السير الذاتية والتاريخية بوضوح:

المهنة السياسية للبطل امتدت على بانوراما إنجلترا والعالم بأكمله، "من مافاران إلى حرب كريميه" حيث غالبًا ما تمثل الشخصيات رجال سياسة إنجليز أو أجانب معروفين.

مرجع: رسالة ريمون ميتر المعنونة: **Disraeli**، رجل الآداب، باريس ديدييه ١٩٦٣، صـ ٣٢٣ – ٣٢٩.

٦٩ – مرجع: دراسة جابرييل بير "**Slavery and its abolition**" و "دراسات فى التاريخ الاجتماعى بمصر الحديثة" جامعة شيكاغو ١٩٦٩، صـ١٦١ – ١٨٩، والسيرة الذاتية لبيترهوج اتفاقية العبد الأفريقى والغائرة، سيرة مصنفة ومؤرخة. لندن، **F.Cass**، ١٩٧٣.

٧٠ – ويليام فيلبير فورس (١٧٥٩ – ١٨٣٣)، وهو برلمانى إنجليزى وبطل الحركة المضادة للرق. وقد عبر عن نموذجه المثالى المسيحى فى عمل أحرز نجاحًا كبيرًا. هذا العمل هو وجهة نظر عملية عن النظام الدينى القائم عن المسيحيين المتدينين فى الطبقات العليا والمتوسطة التى تتنافى وتعاليم المسيحية الحقيقية. فارنر: ويليام فيلبير فورس وزمنه. لندن، **B.T.**، باتفورى، ١٩٦٢.

٧١ – إشارة إلى قصة لافونتين الخرافية: الضفادع التى تطلب ملكًا.

٧٢ – مرجع D & N ، الفصل الخامس.

٧٣ – الكونت جوزيف زوخيب، وقد عين قنصلاً عامًا للبرتغال فى عام ١٨٧٠، وتوفى فى نوفمبر من عام ١٨٨٤ وقد حل ولده محله.

٧٤ – مرجع: كتاب "مصر وأوروبا" عن طريق قاض قديم" لفان بيميلان صـ٢٠٥ – ٢٦١، بالإضافة إلى بحث دقيق عن "المحاكم المختلطة" (محاكم العدل المصرية – الأوروبية).

٧٥ – الرسالة السادسة والعشرون.

٧٦ – إشارة إلى الاعتداء الخائن للسيد جارناك الذى قام خلال مبارزة بالسيف، بفلق مقبض خصمه لاشاتينيوريه.

٧٧ – أوجين فيدوك (١٧٧٥ – ١٨٥٧): كان نصابًا ولصًا. هرب مرتين من سجن نانتس وعندما تعب من المطاردة، وضع خبرته فى خدمة الدولة التى عينته رئيسًا لبوليس الأمان بباريس. وتم إقالته لأنه تعقب مرتكبى سرقة نظمها بنفسه.

٧٨ – مرجع: الرسائل ٤١ و ٤٣ ، الصفحة ٣٢ من كتاب فان يميلان، مصنف جاكوب لاندو تحت عنوان "بعض الأوجه الاجتماعية – الاقتصادية لليهود فى مصر فى القرن التاسع عشر" فى طبعة هولت. بالإضافة إلى مصنف "التغيرات السياسية والاجتماعية فى مصر الحديثة، مؤتمر عن تاريخ مصر المعاصرة"، جامعة لندن، ١٩٦٥، لندن، أكسفورد، جامعة بريس ١٩٦٨ ، صـ١٩٦ – ٢٠٨ .

اليهود فى مصر فى القرن التاسع عشر ، جامعة نيويورك بريس ١٩٦٩ .

٧٩ – تلف القطن المصرى. هو أحد آخر منشورات نينيه Ninet (١٩٢٨)، ويعكس الانشغال الدائم بالزراعة الذى عبر عنه سابقًا فى مقالة "زراعة القطن فى مصر وصانعو الغزل الإنجليزى"، ١ ديسمبر ١٨٧٥، صـ ٥٧٧–٥٩٦ . انظر الرسالة اللاحقة.

٨٠ – مرجع لاندز: "Bankers and Paschas وعن الـ روتشيلد، كتب كورتى كتاب بيت روتشيلد، باريس، بايو ١٩٢٨ (الجزء الثانى). وكتاب بوفييه: روتشيلد ، باريس نادى الكتاب الفرنسى، ١٩٦٠، وكتاب مورتون بعنوان "روتشيلد"، باريس، جاليمار ١٩٦٢، ومؤلف جيل "قصة منزل روتشيلد"، جنيف، دروز، ١٩٦٥ .

قصة شراء إنجلترا لأسهم مصر فى قناة السويس (١٨٧٥) كما رواها شارل لوساج أعلى (صـ١٦).

٨١ – الرسالة الثانية والثلاثون. من أجل مجمل المنافسات الاستعمارية حول تونس، انظر توميدى "القضية التونسية وإيطاليا"، بولونيا، ١٩٢٢ . وكتب زندريه جوليان "القضية الإيطالية فى تونس" (١٨٦٨ – ١٩٣٨)، باريس، ١٩٣٩، ورسالة جانياش.

٨٢ – تم إلغاء الإصلاح بسبب نقده لأوتوكراتية رياض باشا واتهامه لـ دى بلينيير بالتعاطف مع ريفرز ولسون Rivrers Wilson على حساب مصالح المستوطنة الفرنسية. وتم ذكر ذلك فى الجزء السادس والستين من كتاب مصر، الفقرة السادسة والثمانون، من دى رانج إلى دى فريسنيات، ٣١ مايو ١٨٨٠

٨٣ – انظر إلى أعلى الصفحات ٢٣٤ – ٢٥١ ، يوجد نص البيان. لا نعرف فى الوقت الحالى إلا تلك الرواية الفرنسية.

هى أحد أعمال نينيه، الموقعة "على" Aali ، أحد ألقابه.

٨٤ – وعن مشاجرة الثامن عشر من فبراير ١٨٧٩، ورد فى أعلى صفحة عشرين "ثورة أم تبدل؟" وقد لخص جودو، قنصل عام فرنسا بالقاهرة، هذا الحدث فى تلغراف أرسله فى اليوم نفسه إلى باريس (L.J. ١٨٨٠ صـ ١٤٨ – ١٤٩):

"قامت الحكومة بتسريح عدد كبير من الجنود وتم دفع نصف راتب لـ ٢٥٠٠ ضابط بدون دفع المتأخرات التى يستحقونها.

وقد تسبب هذا الإجراء فى استياء الجنود الذين قاموا بتنظيم مظاهرة خطيرة فى نفس اليوم. وكان السيدان ويلسون ونوبار باشا اللذان أهينا على أيدى عدة مئات من صغار الضباط الذين يطالبون برواتبهم، قد تم حبسهما فى وزارة المالية. وقد ذهب الملك السابق محاطًا بممثلى القوى الرئيسية إلى العين ، وقام بتفريق التجمع بمساعدة الجنود".

٨٥ - مرجع: تقرير الملك عن ثورة الأول من فبراير فى L . J، ١٨٨١ ، رقم ١ .

٨٦ - رواية لافونتين الخيالية: الحمار الذى يحمل ذخائر.

٨٧ - وقد تم إعادة نسخ نص حديث الخديو الذى ألقاه فى الثانى عشر من فبراير ١٨٨١ فى الصفحة ١١٢ من كتاب الثورة، الرافعى.

وكان الخديو قد ألقى هذا الحديث خلال حفل استقبال نظمه فى قصر عابدين على شرف الضابط بدءاً من رتبة عقيد.

٨٨ - وقد أكدت الوثائق الدبلوماسية الفرنسية والإنجليزية لفبراير من عام ١٨٨١ والتى قام مصطفى بدراستها فى كتاب مصر (صـ١٢٧ - ١٤٠) على سياسة البارون دى رانج، كما قام نينيه بتحليلها فى مقالاته. انظر الرسالة الثامنة والثلاثين والصفحات ٣٦ و ٣٧ من كتاب عرابى باشا.

٨٩ - وعن حسن موسى العقاد، انظر الرسائل ٤٦ (الملحوظة ١١٣) و ٦٤ (الملحوظة ١٤٥). وقد كتب عنه بلانت فى الصفحة ١٠٣ من كتابه: Secret history .

٩٠ - وقد أطلق Ninet على نفسه لقب "مستوطن ومحمى فرنسى منذ عام ١٨٣٩ كان يحمل جواز سفر فرنسى حرر فى الإسكندرية".

وكان نينيه قد بعث برسالة فى السادس من يونيو ١٨٨٣ بهذا الشأن إلى رئيس الاتحاد السويسرى وقام بنشر تلك الرسالة فى كتاب عرابى باشا فى الصفحة السابعة والعشرين.

٩١ - مرجع D & N ، الفصل السادس، "باريس تستدعى البارون دى رانج من القاهرة".

٩٢ - جابرييل شارم (١٨٥٠ - ١٨٨٦)، وهو الأخ الأصغر لاثنين من الأكاديميين ورجال السياسة الفرنسية كان يعمل محرراً بجريدة المداولات جريدة دى دوبا.

كما عمل بمجلة العالمين ونشر علاقات سفر بالشرق وقام شارم بتدريس رسائل استعمارية عن تركيا والبلاد العربية.

ولطبيعة عمله كصحفي، حضر شارم Charmes قضية عرابي في ديسمبر ١٨٨٢ .

مرجع: كتاب عرابي باشا، الصفحات ٢٧٧/٨٣ و تحليل فان بيملين، في الفصل الثاني صـ٣٥٧ - ٣٧٨ .

٩٣ - تيودور روستون (١٨٣٣ - ١٩٠٦): قام بإدارة القنصلية الفرنسية بالقاهرة في عام ١٨٦٥، في الإسكندرية في أعوام ١٨٦٧ - ١٨٦٨ ، ١٨٧٢، وفي دمشق وبيروت. ثم أصبح منذ ديسمبر ١٨٧٤ قنصلاً عاماً وقائماً بالأعمال في تونس، حيث تم ترقيته إلى منصب وزير مفوض في عام ١٨٨٠ .

كما تولى مهام وزير مقيم في تونس في الثالث عشر من مايو ١٨٨١. وقد قدمه جانياش في رسالته عن أصول الحماية الفرنسية بتونس (صـ٤٤٦) "كشخص ثابت وحازم ويمتلك، على الرغم من ذلك، الكثير من السلاسة. كان روستان على بساطته وسط دسائس البلاط الشرقي. كان يعرف سلطة النقود والأشخاص المفضلة. وقد استطاع جيداً تنظيم جهاز مخابرات وشبكة تواطؤات بين المقربين لـ بارود".

٩٤ - ليكورجو ماسيو: ولد في عام ١٨٢٨ وحصل على ليسانس حقوق من بيز. عمل محامياً بالإسكندرية. وعمل منذ عام ١٨٦٠ بقنصليات القاهرة ودمشق وبيروت والتحق بالعمل في قنصلية تونس في أكتوبر من عام ١٨٧٨ . وقد كتب عن جانياش في الصفحة ٥٥٠ : "وصل ماسيو إلى تونس وهو يحمل سمعة شخص صامد ومقاتل. كنا نعرف في تونس أنه يمتلك فكرة جليلة عن الدور الذي يجب أن تقوم به إيطاليا في البحر المتوسط. كان روستان يعرف ماسيو جيداً، فقد كان زميله بالقاهرة وبيروت، وكانا على خلاف منذ ثلاثة عشر عاماً بالقاهرة، ثم صارت بينهما قطيعة كاملة في تونس".

٩٥ - مرجع: الرسالة التاسعة عشرة التي تم إرسالها في التاسع من سبتمبر عام ١٨٧٩ .

٩٦ - وعن هذه المطالب والتنازلات للحكومة، كتب الرافعي al-Rafi كتاب الثورة صـ١١٣ - ١٢١ .

٩٧ - ظهرت جريدة الأهرام فى الإسكندرية عام ١٨٧٦ على يد أخوين من أصل لبنانى، هما سليم وبشارة تقلا. كان نينيه يعرف جيداً السيد تقلا، وقد قال فى الصفحة الثالثة والثمانين من كتاب عرابى باشا: "كنت بمثابة كابوس لهذا الصحفى الانتهازى" الذى كانت تربطه صلة وثيقة بشارم. (مرجع: الملحوظة الثانية والتسعون).

وعن الأخوين Taqla تقلا وجريدتهما، كتب إبراهيم عبده فى الأهرام، بالقاهرة، دار النشر ١٩٥٠ (باللغة العربية). وقد كتب تاغر عند مولد وتطور جريدة الأهرام، ومرجع .C.H.E فى الفصل الرابع (١٩٥٢)، صـ٢٥٩ - ٢٧١ ، كما كتب ليون زولونديك عنه فى كتاب "الأهرام ويسترنيزيش، التفكير السياسى - الاجتماعى لبشارة تقلا"، بالإضافة إلى الفصل الثانى عشر من كتاب Die Welt des slams (١٩٦٩)، صـ١٨٢ - ١٩٥ و A.Scholch صـ٣٠٥ .

٩٨ - وعن مصر ومحرريها، كتبت الرسالة الثلاثون والملحوظة الثانية والسبعون.

٩٩ - انقلاب: قام الخديو إسماعيل برفت "وزارة نوبار الأوروبية" إثر مشاجرة الثامن عشر من فبراير عام ١٨٧٩ . المرجع: رسالة ٨٤ .

١٠٠ - مرجع: إيضاحات الرسالة الثانية والأربعين. وفى كتاب عرابى باشا فى الصفحات ٣٧ إلى ٤٢ ، شرح نينيه الدور الذى لعبه "مختلف الممثلين" (الخديو، والباشوات رياض وشريف والفلاحون وعرابى وسلطان).

وقد أبرز الدوافع السياسية والاجتماعية والنفسية لكل منهم.. وفى كتاب "التاريخ السرى"، يسرد بلانت فى الصفحات من ١٠٢ إلى ١٠٩ "مناورات الخديو توفيق مع جنوده". وقد ناقش الرافعى معلومات عن الجانبين فى الصفحات ١٣١ و ١٣٢ من كتاب "الثورة".

١٠١ - وتتناول الرسالة الثالثة والأربعون بقية هذا الموضوع.

١٠٢ - راوو: حفل استقبال ومجلس اجتماع (بالإنجليزية rout).

١٠٣ - وقد ارتبط نينيه بعلاقات وثيقة بعائلة الخديو إسماعيل.

وقد حرمه الخديو من الميراث، مثله مثل حليم، وذلك لصالح ولده توفيق. (مرجع: الرسالة السابعة).

وعندما أصبح السيد Fazil وزيراً للمالية لدى السلطان، قام بتكليف نينيه Ninet فى عام ١٩٦٣ بمهمة زراعية فى آسيا الصغرى (من كتاب عرابى Arabi باشا فى الصفحات ٢٨٥-٢٨٦). وكانا يتقابلان فى سويسرا (زيارة انترلاكين) وفى عام ١٨٨٢، وعن طريق تدخل الأميرة المحبوبة نازلى ابنة الراحل مصطفى فاضل Mostapha Fadil فى كفر الدوار، جريدة التايمز وأشارت مقالة لانترنزيجون (المتعنت) التى نشرت فى الخامس والعشرين من سبتمبر ١٨٨٢ فى الصفحة الثانية، وفقاً لإحدى رسائل نينيه، إلى انضمام أصغر أولاد السيد فاضل (وهم إبراهيم وأحمد وكامل) إلى الحركة الوطنية التى تطالب بإقالة الخديو توفيق وأولاد أعمامهم (الولد الأكبر، عثمان باشا الذى كان يوجد فى ذلك الوقت فى باريس).

١٠٤ - وتتجاوز التفاصيل التالية برونونسيامنتو الأول من فبراير ١٨٨١، المعلومات التى ذكرها Blunk الذى غادر القاهرة. مرجع: الملحوظة ١٠٠ .

١٠٥ - مرجع: D & N الفصل الرابع "باريس تستدعى البارون دى رانج من القاهرة".

١٠٦ - مرجع: الرسالة الرابعة والعشرون والملحوظة السادسة والستون.

١٠٧ - وعن مهنة كيبار وموقفه تجاه الوطنيين يتحدث نينيه Ninet فى كتاب عرابى باشا صـ٥٩ وبيفيشفى صـ ٧٨ و ٧٩ .

١٠٨ - جون سكوت مراسل جريدة التايمز.

مرجع: الرسالة السابعة والملحوظة التاسعة عشرة إيضاحات عن "Manipulation of the orqans of public news" فى كتاب التاريخ السرى لبلانت ص١٣٣ - ١٣٤ .

١٠٩ - تم سرد القصة بأكملها فى الرسالة الواحد والأربعين.

١١٠ - تم أخذ المعلومات من المصدر. رسالة قصيرة جداً دومونج برتيليمى سان هيلير، القاهرة فى التاسع من أبريل ١٨٨١ ، و L.I (١٨٨١) صـ٩ .

١١١ - وبعد مرور عامين، أشار نينيه، عن طريق أنشطة هذه المجموعة والتدخل العسكرى، إلى تطور بعض التقارير عن الأموال والسياسة.

مرجع: كتاب عرابى باشا. الصفحة ٢٩١ ، الملحوظة الأولى.

١١٢ - إنجليزى.

١١٣ - حسن موسى العقاد: تاجر مشهور نفاه رياض باشا إلى السودان بسبب نقده لقانون تسوية الدين (١٨٨٠) الذى ألغى المقابلة على حساب السكان الأصليين الدائنين للحكومة.

مرجع: الرسالة السادسة والثلاثون والرابعة والستون والملحوظة ١٤٥ ، D & N الفصل الثانى، كتاب مذكرات عرابى، القاهرة، دار الهلال، ١٩٥٣ ، الفصل الأول، الصفحة التاسعة والخمسون وكتاب سولش فى الصفحات ١٢٠-١٢١ ، ٢١٦-٢١٨ .

١١٤ - وقد أعاد الرافعى فى كتاب الثورة فى الصفحات ١١٩ و ١٢٠ حديث رياض Riad باشا وفقًا لما ورد بالجريدة الرسمية. ولم يتم نشر إجابة عرابى Arabi التى يوجد مقتطف منها هنا.

١١٥ - مرجع: الرسائل ١٢ - ٤٥ - ٤٨ - ٤٩ - ٥١ - ٥٥ .

١١٦ - وقد قام چاك بيرك J.Berque بتحليل ظاهرة ظهور الكحول واللصوصية فى القرى فى كتاب "مصر" فى الصفحات من ١٢٦ إلى ١٣٠ .

١١٧ - مرجع: الرسائل ٢٠ و ٤٦ .

١١٨ - وفى الرابع عشر من أبريل ١٨٨١، دخلت وحدات فرنسية مكونة من ٣١٠٠٠ رجل بقيادة الجنرال فورجينول دوبوسكوتار إلى مملكة تونس. وكانت هذه الوحدات على اتصال بالأميرال كونراد وفى الأول من مايو رسا أسطول فى مدينة بيزرت، وفى الثانى عشر من مايو، وصل الجنرال إلى بريبا على رأس طابور مكون من ثمانية آلاف رجل، إلى أبواب تونس و أجبر البيه Bey على توقيع معاهدة تقضى بالحماية الفرنسية على تونس. مرجع كانياج صـ٥٨٩ و ٦٧٥ .

١١٩ - مرجع: الأمير حليم D & N (الفصل السابع).

١٢٠ – الفِرْدة : هو الاسم الشعبى لفردة الرءوس أو الجزية، وهى عبارة عن ضريبة تفرض على الأشخاص.

وتقدر هذه الضريبة بثلاثة فى المائة من الدخل المعروف أو المفترض لجميع سكان مصر.

مرجع: ريفلان فى كتاب "ضريبة مصر بعد العصر العثمانى"، الطبعة الثانية، الفصل الثانى، صـ١٢١ – ١٥٢ – ١٥٤ . وقد تناولت الرسائل ٤٨ ، و ٥١ ، و ٥٤ ، و ٦٠ موضوع العملة المزيفة. كما تحدث عن هذا الموضوع كتاب "فى بلاد الخديو" فى صفحات ١٧٧ – ٢٢١ .

١٢٢ – مرجع: الملحوظة ١٢٠ .

١٢٣ – مرجع: الرسالة ٤١ و الملحوظة ١٠٣ .

١٢٤ – وعندما صدق مجلس الشعب والشورى بباريس على معاهدة باردو، قام روستان، بصفته الجديدة كوزير مقيم بتونس، بإبلاغ القنصلية بالمنشور الذى صدر فى الحادى عشر من يونيو ١٨٨١.

وينص هذا المنشور على أن روستان مبعوث من جانب البيه من أجل إقامة علاقات فرنسية – تونسية، وفقًا للمادة الخامسة من معاهدة الثانى عشر من مايو.

١٢٥ – مرجع: كتاب چاك بيرك "التاريخ الاجتماعى لقرية مصرية فى القرن العشرين"، لاهاى، موتون، ١٩٥٧ ورواية عبد الرحمن الشرقاوى: "الأرض"، القاهرة، دار النشر المصرية، ١٩٥٤ .

١٢٦ – مرجع: الرسالة الثامنة والملحوظة الثالثة والعشرون.

١٢٧ – وعن السيادة الإيطالية فى مصر فى القرن التاسع عشر، كتب أنور لوقا A.Louca كتاب "المسافرون" فى الصفحة ٣٤ و كتب A.Sammarco "الإيطاليون فى القاهرة والإسكندرية" فى عام ١٩٣٧ .

١٢٨ – مرجع: إيضاحات نينيه فى كتاب عرابى باشا فى الصفحات السابعة والثامنة و ٢٢٣ كتاب فرنار ويلييه تحت عنوان: "الأسس التاريخية لمشاكل الشرق الأدنى" باريس، سيراى، ١٩٥١ فى الصفحات ١٩ و ٢٢ ، وكتب أنور لوقا "الصلات الثقافية بين مصر والمغرب، ثبوت وتغيرات" ١٨٠٥ – ١٩٧٦ لـ Grepo ، طبعة الـ C.N.R.S باريس، ١٩٧٧ صـ١٠٧ – ١٢٨

١٢٩ – وعندما ثار سكان صفاقس Sfax فى النصف الثانى من شهر يونيو ١٨٨١ على إقامة الحماية الفرنسية فى تونس، قام رئيس الحركة الثورية، على بن خليفة بطرد محافظ مدينة جيولى.

وفى الخامس من يوليو، قذفت الزوارق الفرنسية المسلحة المدينة. وفى الخامس عشر من يوليو، كثفت المدفعية الفرنسية هجومها على المدينة، ثم فى السادس عشر من نفس الشهر نزل الجنود الفرنسيون إلى المدينة.

مرجع: P.H.X إستورنيل دوكونستون كتاب "السياسة الفرنسية فى تونس، الحماية وأصولها"، باريس، بلدن، ١٨٩١، صـ ٢١٣ – ٢٢٨ .

١٣٠ – إن كتاب "إنجلترا ومصر" للمؤلف ديساى الصادر فى لندن شابمان عام ١٨٨١، ديون مقالات عن هؤلاء الذين قام نينيه بمقاومتهم (مرجع: الرسائل ١٥ ، ١٩) الفهارس: طريقنا إلى الهند – مستقبل مصر – ديون الخديو – وزارتا نوبار وويلسون – الحماية الإنجليزية الفرنسية – لجنة تسوية الديون – المرتقب وإمبراطوريتنا فى الشرق.

١٣١ – وقد تناولت الرسائل ٥٣ ، و ٥٥ و ٥٧ هذه الطلبات.

١٣٢ – وفى الخامس والعشرين من يوليو ١٨٨١، قتل أوروبى بسيارته جنديًا من المدفعية. وحمل جثمانه ثمانية من رفاقة الذين كانوا يوجدون بالقرب من قصر رأس التين. وطالبوا الخديو بمعاقبة المذنب، وقد عاقبهم الخديو بشدة لعدم الانضباط، فحكم عليهم بثلاث سنوات فى سجن الخرطوم مع الأشغال الشاقة المؤبدة. وقد احتج الوزير البارودى على هذه الشدة. وقام رياض Riad باشا، الذى كان يشك فى تعاطف هذا الوزير مع المواطنين، باستغلال الوضع المتوتر من أجل أن يتخلص من البارودى.

١٣٣ - كان الحزب الوطنى، فى بداياته، يضم مجموعة من "الأتراك الشيوخ". وقد قامت الرسالة بإدانة طباعهم الثورية.

١٣٤ - مرجع: الرسائل: ٢٦ إلى ٢٩ عن "الرق فى الشرق".

١٣٥ - مرجع: عن كيبار والدور الذى لعبه.

الرسالة ٤٣ والملحوظة ١٠٧ .

١٣٦ - مرجع: الرسالة ٣٦ والملحوظة ١٤٣ .

١٣٧ - مرجع: كتاب "مصر" لمصطفى، الصفحات ١٥١ - ١٥٢ .

١٣٨ - لم يرجع ماليه إلى مصر إلا فى الثامن عشر من سبتمبر.

١٣٩ - الفترة من العاشر إلى الرابع عشر من سبتمبر ١٨٨١.

١٤٠ - وعن شريف، كتب أنور لوقا: "المسافرون" صـ١٨.

١٤١ - أبحر رياض باشا إلى الإسكندرية فى الرابع عشر من سبتمبر ١٨٨١.

١٤٢ - وفى يوم الجمعة ٩ سبتمبر ١٨٨١، وهو يوم حاسم فى مظاهرة القاهرة، كان سيانكفتش يوجد بالإسكندرية.

١٤٣ - وفى الثامن والعشرين من يوليو ١٨٨١ وأثناء زيارة **Maler** للندن، قامت وزارة الخارجية البريطانية بتشكيل لجنة خاصة لشئون مصر تحت قيادة شارل ديلك وقد حضر ريفيرز ويلسون اجتماعات هذه اللجنة. وفى طريق عودته من "إجازته" توقف **Maler** فى القسطنطينية من أجل أن يؤكد للسلطان أن إنجلترا لا تريد احتلال مصر ويطمئنه على إمكانية منح إنجلترا دستوراً لمصر. وقد عمل **Maler** على تشجيع الوطنيين عن طريق إقامة تعاون ظاهرى بين إنجلترا وتركيا.

مرجع: ماليه فى كتاب "مصر ١٨٧٩ - ١٨٨٣"، طبعة لورد ساندرسون، لندن، مورى ١٩٠٧ (ص١٣٦).

١٤٤ – وهذه الصفحة المميزة تبرز جليًا "المشاركة فى التاريخ المرتبطة بصمود الشخصية الجماعية".

وقد قام چاك بيرك فى عام ١٩٦٧ بدعم هذا الاتجاه بقوله: "لا الفقر ولا الخطورة يستطيعان إضعاف مقاومة الشخصية الجماعية. وهذه الأخيرة ليست بحاجة إلى مؤسسات شرعية لإبداء رأيها. إنما قبل كل شيء مأوى أمام الشرعية فهى تتوارى بالنسبة لعدد كبير من الإداريين فى القرن التاسع عشر (...) إلا أنه يحق لنا أن نطالب بها على أساس ما يظهر فى منتصف القرن العشرين".

١٤٥ – مرجع: الرسالة السادسة والأربعون، الملحوظة ١١٣ وكتب نينيه **Ninet** فى الصفحة الثانية والعشرين من كتاب "بلاد الخديو" عن العلاقة قليلة النزاهة التى تربط العقاد وحليم.

١٤٦ – تم تقديم طلب إلى شريف فى الثامن عشر من سبتمبر ١٨٨١.

١٤٧ – وعن الاضطرابات الدبلوماسية التى أثارتها مهمة نظامى باشا ومختلف النوايا المنسوبة إلى السلطان، كتب مرجع **Biores** صـ٣٢ – ٣٦ وكتب شارل رو فى الصفحات ٣٦٩ – ٣٧٢ "مصر من عام ١٨٠١ إلى عام ١٨٨٢" والرافعى **Al-Rafi** فى كتاب الثورة (صـ١٨٥ – ١٨٩)، فضلاً عن كتاب مصر لمصطفى كامل صـ١٤٨ – ١٥٩ .

وتتناول الرسالة السابعة والستون معلومات سرية.

١٤٨ – "ماتاس، أعطاه نائب الملك معونة ليستأجر فنانين ذائعى الصيت (...) وكان على الفرقة أن تقدم الأوبرا الهزلية والكوميديا والفودفيل".

وكتب دوان عن ذلك الموضوع فى صـ١٠٣ – ١٠٤ ، كما كتبت جانيت تاغر فى الفصل السابع رقم ٣ صـ١٥٩ – ١٨٦ من كتاب "حانات القاهرة فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر".

١٤٩ – مرجع: مسرحية دولسى فيتا الحياة الناعمة بفندق شبرد. وكتاب عرابى باشا لـ **Ninet** فى الصفحة ٣١٠ .

١٥٠ - ظهرت جريدة الطائف فى العشرين من نوفمبر ١٨٨١. ووفقًا لمؤسسها : "بما أن الأمة تمتلك مجلس نواب تتعرف من خلاله على حقوقها، فهى تملك أيضًا جريدة تنشر فضائلها وتدفع عنها نميمة العدو".

وقد كتب على الحديدى فى رسالته عن عبد الله النديم، الصحفى والخطيب وعن إسهاماته فى أول حركة وطنية مصرية (دراسة أدبية وتاريخية). وقد حصل على رسالته من جامعة لندن ١٩٥٩ ، وتم نشرها باللغة العربية "عبد الله النديم"، القاهرة، مكتبة مصر ١٩٦٢ (العالم العربى، ٩) وكتب Gilberr Delanoue "عبد الله النديم (١٨٤٥ - ١٨٩٦) الأفكار السياسية والأخلاقية لصحفى مصرى" بيان بالدراسات الشرقية، المعهد الفرنسى بدمشق، الجزء السابع عشر (١٩٦١ - ١٩٦٢) صـ ٧٥ - ١٢٠، عبد المالك "نشأة التيار الشعبى الثورى" ٤٤٩- ٤٧٩ من كتاب "إيديولوجية".

١٥١- وفى رسالة بعثتها وزارة الخارجية الإنجليزية إلى ماليت فى الرابع من نوفمبر عام ١٨٨١، أعرب جرانفيل عن أمله فى نجاح الإصلاحات بمصر.

وقد أكد Granville على ضرورة الحفاظ على العلاقة التى تربط الخديو بتركيا.

ونفى جرانفيل أن تكون بلاده قد ساندت رياض باشا فى الماضى، وأن تكون راغبة فى تنصيب وزراء فى خدمة إنجلترا.

فإن هذه الأخيرة لن تتدخل بصورة مباشرة فى الشئون المصرية إلا إذا وقعت مصر فى "حالة من الفوضى".

حاول ماليت تفسير هذه النقطة التى أثارها فى الصفحات ١٧٥ - ١٩٤ وقد ادعى أن مصر رحبت جدًا بتلك الخطوة.

١٥٢ - كتاب "برلمانات وأحزاب فى مصر"، نيويورك، بريجير، ١٩٥٤ ، ص٢٩ .

١٥٣ - مرجع: إبراهيم المويلحى، كتاب "المويلحى فى مصر"، الفصل السادس رقم ٣ ، ٤ الصفحات ١٦٨ - ١٧٩ .

١٥٤ - يوسف عبد الشهيد: هو أحد مبعوثى المنيا. مرجع: أسفل D & N فى الفصل الثالث.

١٥٥ - مرجع: بلانت، الصفحات ١٣٣ ، ١٣٤ من كتاب "Secret history" .

١٥٦ - مرجع: الصفحة الثامنة من جريدة التايمز ليوم ٢١ ديسمبر ١٨٨١ الحركة المصرية للنظام الداخلى.

١٥٧ - ويليام جريجورى (١٨١٧ - ١٨٩٢)، عضو حزب Whig ومحافظ مدينة Ceylan . كان يساند قضية الوطنيين المصريين من أجل أسباب تم تفسيرها بعدة طرق. (مرجع: بيوفيز صـ٤١). قام بنشر مقالاته فى جريدة التايمز التى يديرها صديقه شينيرى.

مرجع: جريجورى "سيرة ذاتية"، قامت بطبعه الليدى آن جريجورى فى لندن بالإضافة إلى موارى، ١٨٩٤ .

١٥٨ - وعن سير جون بندير (١٨١٥ - ١٨٩٦)، رائد البرق تحت الماء وعضو البرلمان الإنجليزى، وعن مشاركته فى الأسطول البريطانى فى الإسكندرية، مرجع: الرسالة ٧٧ وكتاب عرابى باشا، صفحات ١٠١ - ١٠٧ - ١٤٥ - ١٤٨ .

١٥٩ - زوكتاف بوريللى: فرنسى، محامى مجلس الرئاسة بمصر ومدير المنازعات القضائية بوزارة المالية. تم تكليفه بالتفاوض، باسم الحكومة المصرية، مع قناصل إنجلترا وفرنسا. ومن أجل نشر إقالة الخديو لـ عرابى Arabi فى يوليو من عام ١٨٨٢، أعاد بوريللى تنظيم جريدة المونيتور المصرية بالإسكندرية، بينما ظل الشيخ عبده يتولى مهمة نشر الجريدة الرسمية "الوقائع" بالقاهرة.

وكان على بوريللى أن يتولى مهمة إلقاء التهم على عرابى. مرجع ذكرياته، أشياء سياسية عن مصر ١٨٨٣ - ١٨٩٥ باريس، فلاماريون، ١٨٩٥ ، برادلى كتاب "كيف ندافع عن عرابى وأصدقائه، قصة عن مصر والمصريين"، لندن، شايمان وهيل والصفحات ٣٠٤ و ٣١٢ من كتاب بيوفيس وصـ ١٠٢ من كتاب "مصر" لبيرك.

١٦٠ - وقد أدى الصراع بين مجلس النواب وشريف باشا إلى سقوط الوزارة.

مرجع: الرسالة ٢٧، والملحوظة ١٦٤ .

١٦١ - سلم العملاء الدبلوماسيون الفرنسيون والإنجليز بالقاهرة الخديو توفيق مذكرة مماثلة فى الثامن من يناير عام ١٨٨٢ .

بمناسبة اجتماع مجلس المبعوثين، أكدت الحكومتان من جديد على دعمهما للخديو، وذلك "بموجب الشروط التى تضمنتها الفرمانات".

أعربت الحكومتان عن النية فى "تجنب المخاطر التى قد تهدد حكومة الخديو".

فستتحد فرنسا وإنجلترا فى مواجهة تلك المخاطر.

١٦٢ - وعن أصل الملحوظة المماثلة التى أعدها كومبيتا انظر إلى الصفحات ٤٧-٥٠ من كتاب بيوفيس وكتاب "مصر" صـ٣٧٦ - ٣٧٩ .

١٦٣ - القاضى جون سكوت مرجع: الرسالة السابعة. الملحوظة التاسعة عشرة.

١٦٤ - وفى الثالث من فبراير، أقال النواب شريف باشا؛ وذلك لرفضه لمشروع قانون عضوى قام بتقديمه. وفى الرابع من فبراير، شكل محمود سامى البارودى وزارة جديدة وأسند وزارة الحرب إلى عرابى باشا. وفى السابع من فبراير، صدر قانون عضوى يسمح للنواب بالتصويت على الميزانية.

١٦٥ - مرجع: الرسالة السادسة والأربعون، الملحوظة ١١٢ .

١٦٦ - بلانت: التاريخ السرى. "كان كولفين ودى بلينيير نشطين فى نشر بلبلة بين مالكى المكاتب، وكان من المضحك أن نلاحظ كيف تخلى الشاعر لورد هوجتون فجأة وتمامًا عن موقفه الأول من تعاطفه الرومانسى مع الحرية المصرية عندما أخبره زوج ابنته فيتزجير الذى كان واحداً منهم فهو معرض لخسارة قوته اليومى".

١٦٧ - كان نينيه يبحث تتويج الأمير حليم "وقد وضع الدستور الذى أعده الحزب الوطنى كشرط ضرورى لذلك" مرجع" D & N، الفصل الثامن.

١٦٨ - مرجع: الرسالة الأولى والملحوظة الأولى عن نوبار باشا، والرسالة الخامسة والأربعون والملحوظة ١١١ عن الشركات إيستون.

١٦٩ - وكتب بلانت عن دسائس الخديو إسماعيل فى الصفحات ١٩٠ - ١٩٣ من كتاب التاريخ السرى، كما كتب عن الموضوع نفسه بيوفيس فى صـ ٨٠ - ٨٢ ومصطفى فى ص١٩٨ - ١٩٩ من كتاب "مصر".

١٧٠ - كان نينيه يعرف جيداً الكونت ماكس فيزون ابن إدوارد لافيزون. (مرجع: الرسالة ١٣ والملحوظة ٣٢) وكان الكونت ماكس لافيزون يعمل إدارياً فى أملاك الخديو إسماعيل. وقد قامت الحكومة الثورية بطرده فى التاسع من أبريل ١٨٨٢

١٧١ - ١٣ مايو ١٨٨٢ . السيد سامى البارودى أعلنه للقناصل، فى العاشر من شهر مايو، فى تصريح فسره "سينكيوفيتش" هكذا إلى فرلسنى": "مجلس الوزراء" بعد أن أدرك عم إمكانية التفاهم مع الخديو، ومن جهة أخرى لا يستطيع تقديم استقالته، قرر استدعاء مجلس الأعيان خلال فترة وجيزة. وسوف يضطلع المجلس باتخاذ الإجراءات التى تختص بسلامة البلد. سوف تستولى عليه الدهشة بسبب الشكاوى التى قدمها مجلس الوزراء ضد توفيق باشا، وخاصة لهذا العمل، خطير بين الجميع، بأنه بدون إشارة وزرائه، أظهر سلطته فى الخضوع الكامل والكلى للباب العالى. المجلس يضمن بصفة مطلقة، حتى فى حالة التدخل التركى، الأمن التام". أضاف محمود سامى أنه يمثل كذلك أمام توفيق باشا. بإيجاز: نحن أمام حكومة ثورية. سقوط الخديو بات وشيكًا- ٢٢ . ل.ج. ١٨٨٢، ص ٦٣ - ٦٤ .

١٧٢ - من ١٩ إلى ٢١ مايو ١٨٨٢ .

١٧٣ - منذ بداية ٢٠ مايو، فى ميناء الإسكندرية، الأميرال السيد "بوشامب سيمور" كان تحت لوائه بارجة وزورقان مسلحان، والعميد بحرى كونراد، بارجة وسفينتان حربيتان صغيرتان.

١٧٤ - "بلنت"، الذى كان قد اتخذ إجراءات مباشرة لدى جلادستون ليرشده إلى صحة سرد الأحداث التى قامت بها وزارة الخارجية، تلقى هذه الرسائل من الوطنيين رداً على برقياته الثمانى، مذكورة فى "ملف سرى" صـ٢٠٦ - ٢٠٩ . راجع نفس المراجع صـ٢١٣ - ٢١٤ رسالة خاصة من "نينيه" ١٩ من شهر مايو ١٨٨٢ .

١٧٥ – فى شهر فبراير ١٨٨٢ . من أجل أن يعترض على الحق الممنوح للمجلس فيما يتعلق بالناحية المالية طلب "دى بلينييز" وهو المراقب المالى الفرنسى الذى حرض حكومته على التدخل بقوة ضد الوزارة الوطنية الجديدة، طلب من فريستى التدخل. ووافقه فريستى على ذلك، وفى الحادى عشر من مارس، نظراً إلى عدم وجود "صيغة تتناسب مع الحقوق المعترف بها للمجلس"، تركت المراقبة الثنائية مجال الرقابة المالية وكما ذكر "نينيه" ذلك هنا حمل المسألة على الصعيد السياسى. وسوف يكون سبب التدخل "مساندة السلطة الخديوية ضد الفوضى والتمرد." راجع بيوفيس، صـ ٧٠ – ٧٢ ، شارل رو،"مصر من ١٨٠١ إلى ١٨٨١" صـ٣٨٢ – ٣٨٤، مصطفى، مصر صـ١٨٤ – ١٨٧ ، ١٩٦ – ١٩٨ .

راجع رسالة رقم ٧٠ .

١٧٦ – عن "مذبحة الإسكندرية" فى الحادى عشر من شهر يونيو ١٨٨٢ ، راجع حكاية مفصلة فى "عرابى باشا"، صـ ١١٤ – ١٣٠ ، حيث أجرى نينيه تقاربا بين الاضطرابات التى وقعت و"رؤى السير إدوارد ماليت الواضحة، والتى أبرق بها إلى اللورد جرانفيل فى السابع من شهر مايو، أى من قبل، بمدة أربعة وثلاثين يوماً: بعض العقبات أدت إلى تغيير الأمور بغتة قبل الحل المرضى الذى اقترحه للمسألة المصرية ويمكن التوصل إليه، ولابد أن يكون بحكمة وتعقل حتى يمكن العمل به". هذا النص الذى يذكره "نينيه" وفقاً إلى **Le B.B** ، ٣٢٤٩ ، ١٨٨٢ ، صـ١٠١، يقرأ أيضاً فى نفس المرجع المذكور صـ٣١٢.

١٧٧ – راجع نينيه، "اليوم التالى تقصف مدينة الإسكندرية. ذكريات وانعكاسات مرتدة" فى بلد الخديوية، صـ ١٠٥ – ١٧٦ .

١٧٨ – راجع تفصيلات أخرى عن قصف الإسكندرية فى ١١ يوليو ١٨٨٢، فى الرسالة رقم ٨٠ و"عرابى باشا" صـ ١٧٦ – ١٨٨ .

١٧٩ – راجع ما سبق صـ٨٢ "تصيد مراسلات نينيه".

١٨٠ – سيباى (جنود هنود قديماً): راجع رسالة ٢٣ .

١٨١ – بعد أن استشاره عرابى، نينيه متمسكًا بفكرة إغلاق قناة السويس مؤقتًا. كتب بهذا المعنى إجابة على مجلس الحرب بالنسبة إلى الضمانات غير الكافية التى قدمها "دى ليسبس"، عرابى الوحيد الذى كان مترددًا محاولاً ألا يفقد أوروبا. إيضاحات فى "عرابى باشا" صـ٢٤١ – ٢٤٥ ، "بلنت" الملف السرى، صـ ٣٠١ – ٣٠٢ ، ارجع إليه. راجع وثائق من دار الوثائق، القاهرة: وثائق الثورة العرابية، كارتونة٨، ملف ٥٣ .

١٨٢ – انظر رسالة ٨٣ والملحوظة ١١٨ ، F.O ، ١٥٥/١٤١ رقم ٤٨٦ والصفحة ١٠٣ من كتاب مصر لبيرك.

١٨٣ – وذكرت جريدة جنيف الصادرة فى السادس من أغسطس ١٨٨٢ مقتطفات من هذه الرسالة، وتحت عنوان "معسكر عرابى"، كتب المقال: "ها هى معلومات شيقة عن معسكر عرابى تم الحصول عليها عن طريق مراسل "القرن" المؤرخة فى الرابع والعشرين من يوليو فى كفر الدوار. والمراسل هو فرنسى من أتباع عرابى".

١٨٤ – أرسل الجنرال فولسلى فى السادس من سبتمبر ١٨٨٢ إلى الإسماعيلية هذه البرقية المرقمة إلى ماليت "تقول التقارير أن عرابى كان يتباحث مع بعض الشيوخ فى أرض طرابلس وذكر بصفة خاصة على خليفة رئيس القبيلة. هل يمكن لسموك استخدام نفوذك مع بورت لتفادى أن يقدم هؤلاء العون لعرابى" F.O ١٦٤/١٤١، الجزء الثانى رقم ٢٦٩ .

١٨٥ – فى مجتمع سرى، قابل نينيه (من الحزب الوطنى صـ١٢٦) هذا القائد (١٨٤٤ – ١٩٠٢).

مرجع: صـ١٩ وكتاب لهنرى دوفيرييه "جماعة سيدى محمد بن على السنوسى الإسلامية ومجالها الجغرافى فى عام ١٣٠٠ هجريًا = ١٨٨٣"، باريس، مجتمع الجغرافيا ١٨٨٤ .

١٨٦ – تم سرد قصة باولوس فى الصفحات ٢٣٨–٢٤٠ من كتاب عربى Arabi باشا.

١٨٧ – انظر صـ ٢٣٢ – ٢٣٦ .

١٨٨ – وعن خيانة سلطان باشا، كتب نينيه فى الصفحات ٧٥ ، و ١٩٣ ، و ٢٥١ ، و ٢٥٦ من كتاب عرابى باشا. وقد دون ماليت هذا الموضوع فى برقية مرقمة بعثها فى الرابع والعشرين من أغسطس ١٨٨٢ من الإسكندرية إلى الجنرال هولسلى: "يرغب الخديو فى أن يقدم لكم بصفة المدعى العام المدنى على باشا مبارك الذى عين وزيراً للأشغال العامة وسلطان باشا رئيس البرلمان، ومهمتهما أن يكسبا تعاطف المواطنين المدنيين كلما تطورت الإجراءات وأن يعطيا معلومات عن سلطة ومكانة الأشخاص الذين يأتون إليكم. وكلاهما من الطبقة العليا والمؤثرة فى البلاد وأعتقد أن الاقتراح جيد، هل توافقون على إرسالهما؟" F.O ١٦٦/١٤١ رقم ١٠٤ .

١٨٩ – فى الثانى من سبتمبر ١٨٨٢ ، أرسل الجنرال فولسلى من الإسماعيلية برقية إلى ماليت فى الإسكندرية: "لا أعرف شيئًا عن تحركات عرابى هل يمكنك أن تؤكد لى إذا كان عرابى Arabi يقلل من عدد جنوده فى كفر الدوار؟ أنا مستعد لدفع المال للحصول على أخبار منك": .F.O صـ ١٦٤/١٤١، الجزء الثانى، رقم ٢٦٠ مرجع: كتاب نينيه "عرابى باشا" صـ ٢٥٧ – ٢٦٢ .

١٩٠ – قام Ninet بسرد هذه النقطة بالتفصيل فى الصفحات الأولى والثانية من كتاب عرابى باشا.

١٩١– انظر الرسالة الثمانين والملحوظة ١٨١.

١٩٢ – عن مسجونى نوتيلوس انظر كتاب عرابى باشا فى الصفحات ٢٣٦ – ٢٣٨ . "بالأمس عندما شاهدت السفينة الحربية الأسترالية نوتيلوس العلم الأبيض فى أبى قير أرسلت قاربًا يحمل الطبيب الملازم وضابطًا عظيمًا وثمانية بحارة، كانوا جميعًا معتقلين كأسرى وأرسل التلغراف الآتى يوم ٢٦ أغسطس Ibid ٤١٦": وتم إعادة الضباط الأسرى ورجال السفينة الحربية نوتيلوس إلى سفينتهم وقد شاهدوا عرابى فى ضواحى كفر الدوار ولكنهم تعهدوا بألا يعطوا أية معلومات عسكرية.

١٩٣ – إقرار خطى عندما تم منعه من الشهادة فى قضية القادة الثوريين بالقاهرة، قام نينيه بتسليم هذا التصريح مكتوبًا ومعتمداً من الجهات القانونية، وكانت الإستندر قد نشرت البرقية التالية من مراسلها فى القاهرة بتاريخ ٦ أكتوبر:

"طرد مستر نينيه من مصر، ويعتقد الكثيرون أن هذا الرجل المتحالف الذى كان يعمل مرشداً لعرابى ومستشارا له محظوظ للغاية ولم يحدث له أسوأ من هذا المصير. ولكن صرح أصدقاء عرابى أنه طرد من البلاد لأن شهادته فى المحاكم سوف تكون موالية لعرابى وأنه أعلن أنه يمكن الشهادة بأن عرابى بذل أقصى ما فى جهده لتفادى تخريب الإسكندرية".

وقد أكد نينيه بنفسه فى صـ٣٤٠ و ٣٤١ من كتاب عرابى باشا: "ولضرورة الاستناد إلى شهادتى فى قضية "الثوار"، كان يجب أن أختفى عن أنظار محامى عرابى ولهذا السبب لجأ شريف باشا، بموافقة السير ماليت وبواسطة كل السبل الممكنة، إلى إلغائى شخصياً. ولم يستطع كلاهما، فيما يخصنى أو فيما يتعلق بأشياء أخرى غاية فى الدقة، أن يكونا على مستوى الأحداث، ذلك أن الله تكرم على بأن أقص حقيقة ما حدث فى مصر منذ عام ١٨٨١ إلى عام ١٨٨٢". وعن قضية الثوار، مرجع بلانت وبرودلى فى كتاب التاريخ السرى، الفصل السابع عشر، بالإضافة إلى كتاب Biories صـ٢٩٥ - ٣٢٥ وكتاب "الثورة" للرافعى صـ٥١٧ - ٥٥٤ ، ومحاضر كاملة تم نشرها فى جريدة الطليعة بالقاهرة، الجزء الثانى (١٩٦٦)، رقم ١٢٠٢، الجزء الثالث (١٩٦٧)، رقم ١-٦ (لم يشر نينيه إلى هذا الموضوع).

ملحقات

نصوص چون نينيه

ترجمة النص باللغة العربية

بيان الحزب الوطنى المصرى

من أجل أسباب وجيهة تم تأجيل النشر باللغة العربية لعدة أيام.

القاهرة فى العشرين من ذى القعدة ١٢٩٦

الرابع من نوفمبر ١٨٧٩

فى وقت حاسم وجليل بالنسبة لسلطته الشخصية، طالب الخديو السابق إسماعيل باشا بتدخل الحزب الوطنى المصرى. كانت تلك هى المرة الأولى التى ينبس فيها الأمير، الذى كان لا يستمع إلا لآرائه، بكلمات سحرية وكهربائية فى أوروبا. وكانت لتلك الكلمات معان، إذا تم تفسيرها بعقل، ترفع الروح المعنوية و تفيد الأمم وتصنع الرجال.

وعن طريق هذا النداء الموجه إلى الحزب الوطنى، الذى كان يعلم بوجوده ويخشى انتشاره، كان الخديو إسماعيل يريد أن ينقذ نفسه وأقاربه لكى يبقى فى الحكم دومًا بدون تقديم أية تنازلات.

ولما كان هذا النداء قد أتى بعد فوات الأوان، فلم يستجب له أحد.

واليوم، يريد الحزب الوطنى المصرى أن يثبت نفسه، كما يريد الحزب – وهو يعيد بناءه وتكوينه تجاه العالم السياسى – أن يسلك الحياة التى تروق له كى ينتشل البلد من الهوة التى وقع فيها نتيجة الاستبداد والتضاؤل. وهو يعتقد، وفقًا لمعطيات حقيقية،

أن أكثر من ستين مليون إسترلينى ظلت فى أيدى الوسطاء الماليين والصناعيين لآخر حكم. وكان نصيب مصر من هذا المبلغ عبارة عن دين يقارب مائة مليون إسترلينى!

إن مبادرة الحزب الوطنى تعد واجبًا مقدسًا ناتجًا عن حق لا جدال فيه، هذا الحق الذى تمتلكه أمة حرة متجانسة ومثابرة وخاضعة لنفس القوانين المدنية والدينية. هذه الأمة هى الأمة المصرية التى قاومت الاستبداد على مدى آلاف السنين، والتى بدون جهودها لم تكن خصوبة التربة ستنتج شيئًا. هذا الشعب المثابر والمتحرر لا يريد العبودية.

وكان الحزب الوطنى ينوى الارتقاء بالجماهير عن طريق التعليم الابتدائى والثانوى الذى يتناسب مع عادات واهتمامات السكان . يجب أن يعرف الشعب واجباته وحقوقه، ويجب أن يتولى بعض أفراده تعليمه بقدر الإمكان.

وقد شهد الحزب الوطنى بأسف الحدث الدبلوماسى الذى حدد فجأة سقوط السلطة السابقة. ولكن مع الرضوخ للأمر الواقع، لم يستطع الحزب أن يعتبر الحكومة المؤلفة عن طريق النفوذ الأجنبى كأداة للتعبير عن أمنيات واحتياجات الشعب التى لم تأخذ بمشورته. وبالتالى فإن الحزب لم يكن لديه أية صلات مصرية حقيقية، وقد شاركت السلطات فقط فى تكوينه. ولم يكن للأمة أى دور فى هذا الصدد. كان الخليفة يحكم بالقاهرة، لكنه لم يتول، هو أو وزارته، إدارة أعماله. وفى ظل الحكم، ظلت مصر دائمًا مسئولة عن أخطاء الغير وقد سئمت هذا، فكانت مصر تسعى إلى حتفها مثلما كانت فى عهد الخليفة المخلوع.

لا تستطيع الأمة النيلية أن تقبل هذا الأمر الذى يسلمها نهائيًا إلى حماته و يهدد استقلالها ويسمح لعناصر أجنبية - غير مسئولة تتمتع بإعفاءات ومزايا - أن تستغل ثروتها.

كانت الأمة تشعر بالشباب والقوة وهما يبثان فيها روح التجديد. وكانت تأمل فى ذلك، لهذا طالبت بحقوقها؛ كلفت الحزب الوطنى المصرى بتولى مصالحها. هذا الحزب المكون من رجال قادرين ومجربين كانوا يلزمون الصمت حتى الأمس، وأصبحوا الآن وطنيين عددهم كبير.

كانت مصر تريد التحرر من الدين الذى لم تكن لتتحمله، إذ لم يطلب منها إبداء الرأى فيه. لاحظ الحزب الوطنى بعناية هذا الظلم، وأصبحت مصر مرهقة ولكن ليست مخزية. وقد قبلت هذه المهمة الصعبة بشرط أن تسمح لها الدول الكبرى بمناقشة الوسائل التى تمكِّنها من الوصول إلى حل عادل بدون إعاقة تنفيذ الإصلاحات الضرورية.

ولهذا، كان لابد من أن تتم هذه الإصلاحات بإدارة شخصيات مصرية من اختيار الدولة. ولابد من أن تستحق هذه الشخصيات ثقة الدولة فى جميع النواحى.

إن الحزب الوطنى لا ينكر الخير الذى ستجنيه المجتمعات الأهلية عن طريق منافسة محتملة ومحسوبة للعنصر الأجنبى فى بعض فروع الإدارة. وعلى العكس، يبحث الحزب دائمًا - إذا اقتضى الأمر - عن خدمات الأشخاص الواعدين الذين يودون تقديم خدمات إلى رؤساء الإدارات الحكومية.

لكن الحزب لا يريد أيضًا وزراء يمثلون نفوذًا أوروبيًّا. فمثل هذا النفوذ لا يجب أن يكون فى مصر التى تحمل شعار: عمل بدون سياسة. لذا، فإن الحزب يرفض ببساطة كل تدخل أجنبى فى شكل رؤساء الإدارات الرئيسية الذين تبتلع رواتبهم الضخمة معظم الدخل العام. وقد ساهم هذا التدخل، الذى كان مفروضًا ومسموحًا به فى ظل النظام القديم فى انهيار مصر.

ويمثل الحزب الوطنى، بكافة ائتلافاته وصلاحياته وطموحاته، السكان المصريين الخاضعين للقوانين بدون أية استثناءات أو قيود. إن الشخصيات التى ترأسه لم تجهل أبدًا الآثار الممتازة لآراء الآباء والأصدقاء التى أعربت عنها السلطات الأوروبية إلى الشعوب المستعبدة التى تبحث عن الحرية الصحيحة، ستكون مصر هى الأولى التى ينظر إليها نظرة سيئة إذا ما أنكرت ما هو جلى كالشمس لكن مع الاعتراف بفضائل نفوذ كبير وواسع، أرادت مصر حرية بنسب متوائمة مع قواها الاستيعابية، عندما تطلب ذلك.

لكى يثبت بالأفعال، عن طريق تدعيم وجوده، فى اللجوء إلى الأصدقاء الحقيقيين للدولة فى الظروف الحساسة والصعبة، قام الحزب بعرض موقفه على الحكومات الأوروبية.

ولن يجد السكان النيليون أسهل من معالجة مشاكلهم سوى تتبع المراحل التاريخية لحياة الأمم الأوروبية التى تتمتع اليوم بحريات تنشدها مصر. وهؤلاء السكان كانوا يستطيعون إذن أن يرفضوا الضريبة ويضعوا أنفسهم فى تناقض صريح ومشروع مع جميع السلطات التى تسىء التعامل مع هذه المسألة.

لن يكون إذن لأى شعب، بما فيه الشعب المصرى، حق التصرف.

لكن الحزب الوطنى كان يكره العنف، ولم يكن يلجأ إليه إلا فى آخر لحظة. إن مصر دولة زراعية بمعنى الكلمة وعن طريق العمل والسلام، تستطيع النهوض بنفسها ولنفسها. ولهذا السبب، قرر الحزب أن يوجه نداء بهذا الخصوص إلى الدول الكبرى والجمهور عن طريق هذا البيان.

وقد شارك جميع أعضاء الحزب الوطنى فى إعلان هذا البيان لكنهم لم يستطيعوا عندئذ، ولسوء الحظ، أن يوقعوا عليه. لماذا؟ لأن الحكومة المصرية كما شكلتها الدول الكبرى، بدون مشاركة وطنية، تستطيع بكلمة واحدة وبدون قضية أو ضجة، أن تعتقل أو تقتل وتدمر الوطنيين الذين جمعهم الحزب الوطنى تحت لوائه الموحد.

هل هؤلاء المواطنون تنقصهم الشجاعة الوطنية أو يمنعهم الخوف من الاضطهاد من تأدية واجباتهم؟ كلا فالجميع سالت دماؤهم، إذا تطلب الأمر، من أجل قضية عادلة. لكن المنفى، الذى لا نعود منه، والموت بدون مجد أو فائدة قد أظهر جليًا أعضاء حزب يحتاج إلى كل قواه من أجل أن يحسن أداء المهمة التى أسندت إليه.

وعلى صعيد آخر فإن مصر مقتنعة أن أوروبا تريد الحصول على خيراتها واستقلالها الإدارى. إن مصر متأكدة من أن أحداً لا يشك فى إدارة أولادها لكن الحزب الوطنى، الذى يفكر بالطريقة نفسها، والذى لا يمكنه وقف المسيرة بسبب عدم الثقة فى هؤلاء المستفيدين من نموه على ضفاف النيل، وجه نداءً لحكومات العالم الحر والمتحضر. هذا النداء سيتم تلبيته نظراً لفهمه من جميع الشعوب.

وكان يروقهم أن يحموا أى أن يضمنوا سياسيًا أعضاء الحزب أو الحزب نفسه، من أية إجراءات تعسفية أو تلك التى تمس حياتهم أو حريتهم وحقوقهم من جانب الحكومة المصرية الحالية أو المستقبلية أو من أى شخص آخر، يجب إتاحة الفرصة لكل مصرى لتقديم خدماته لوطنه دون أن يخشى تعنيفه أو إعاقته بأية طريقة.

وعلى أسـاس هذا الضمـان المطلوب، فـإن الرجـال الذين شكلوا الحـزب الوطنى سيلبون علنياً نداء الأمة وسيقبلون مسئولية أعمالهم.

إن الحزب الوطنى يعتمد، بصفة خاصة، على الأمير شونسيليه فون بسمارك الذى اعترف بمبدأ استقلالية الجنسيات وأراد أن يدافع عن قضيته أمام محكمة الأمم.

وفى الزمان والمكان، قدمت اللجنة نفسـها للأمير، وفى نهاية المطاف، التمس الحزب الوطنى من الدول العظمى ألا يتخـذوا أى إجراء حـاسم، على عكس مضـمـون البيـان العام وبدون أن يستشيروه. وبالشروط سالفة الذكر هو على استعداد لأن يتحرك.

وإذا كـانت أوربا ترغب حقًـا فى أن توائم بين تصــرفـاتـها وبـين دبلومـاسـيـتـهـا، فسوف تحمى الحزب الوطنى المصرى وتحقيق العدل لطلبه الشرعى.

كذلك مصر، كما قيل سلفاً، توافق على قبول جميع الديون التى اقترضـها أفراد الأسرة الخديوية، وسوف تسددها برمتها.

ولكن الأمـة التى تدفع دائمًـا، مـهما تكن قيمـة أية تضـحية، والتى تتعـهد بدفع كل شىء، من حقها أن تتمتع، بمعنى أن تستخدم بصفة مطلقة جميع فروع الدخل العام، أو قروض فرد، والتى تشكل المـال العينى للبلد.

ولا يمكن أن يظل أى مصدر من هذه المصادر التى تعتبر وطنية من الآن فصاعداً ، مرهونًا أو يمنح بصفة ضمان أو بأية صفة أخرى، تحت تصرف أى كائن من كان.

وبناء على ذلك، لا يمكن أن تظل السكة الحديد المصــرية تستخدم بمثابة ضمـان أو رهن للبعثة التى يطلق عليها (جوشن – جوبير) (أو لجنة جوشن – جوبير، الأول إنجليزى والآخر فرنسى)، استمراراً لامتيـاز جائر، والذى ليس من حـق الخـديو "إسمـاعيل" أن يوافق عليه خـاصـة أن الدولة المصرية المثقلة بالديون كـانت سلفًا تواجـه مـخـارج شرعية من صنع العصر منوطة نسبياً بإيقاف جزئى لمدفوعاتها.

بالإضـافـة إلى أن هذه البعـثة الجـائرة (أو اللجنة التحكمية)، كـانت بطبـيعـتهـا الخاصة، على حساب مصالح جميع هؤلاء الذين يقرضـون أموالهم، يثقون بقدرة مصر على سـداد ديونهـا، وهـى مـدينه الوحـيد. "إسمـاعـيل" ليس من حـقـه ولا من سلطتـه

التصرف على هواه بتقسيم الدائنين إلى فئات، وكذلك ليس له أدنى حق أو سلطة فى اختلاق امتيازات للاختلاس من المال المصرى لبعض فروع الدخل العام، وهو الذى لمدة خمسة عشر عاماً ظل يخص نفسه، سراً وبمهارة فائقة، بجميع المصادر العادية وغير العادية للدولة، هو الذى كان يمتص جميع القروض، وبناء على ذلك، تجشم جميع المسئوليات التى تثقل كاهل مصر اليوم.

لا منفعة، لم يكن "إسماعيل" يستطيع أن يخصص أية أملاك من أرض الدومين، المسماة بالخاصة، لسداد أى دين، هذه الأملاك غير الأملاك الموروثة للأمير كانت صادرة عن الخزانة المصرية.

لا أحد يجهل الثروة الوراثية التى كان يمتلكها "إسماعيل" عند وصوله إلى السلطة. السيد "ريفرز ويلسون"، يعرف ذلك، باعتباره نائباً لرئيس لجنة التحقيق. جميع أملاك نائب الملك التى حصل عليها ببعض الوسائل أو بأية صفة من الصفات، منذ اعتلاء الخديو السابق حتى عزله تخص الأمة، وينبغى أن ترد إليها.

هذا المبدأ الذى يمثل العدالة، كان قد خصص بحسم المرسوم التحفظى الشديد اللهجة (احتجاجى)، الذى أصدره الباب العالى فى ٢٥ أبريل ١٨٧٠ معنياً به الدول العظمى، الذى قبله اللورد "كلاريندون" شكلاً وموضوعاً.

اللجنة المسماة (لجنة الدومين الأميرية) - دى روتشيلد ترجع إلى المبادرة المؤسفة للسيد "ريفرز ويلسون" تقوم على قرض قيمته ٨ مليون جنيه إسترلينى، مرهونة بالأملاك التى يتنازل عنها أفراد الأسرة الخديوية، ألغيت اللجنة لنفس الأسباب والدوافع التى قدمت سلفاً حيال لجنة (أو بعثة) جوشن - جوبير.

كلاهما يقوم على الجور الذى قد يرمى إلى الاستمرار فى توالى الترتيبات المالية لهذه العين، المخالفة للمنطق وتتعارض مع الضمير والعدالة.

لم يستطع الحزب الوطنى المصرى أن يتم بيانه، إلا بأن يعرض على الشعب برنامج المدين النزيه والضحية، الذى حل محل المتسبب فى الديون غير المثمرة من أجل الأمة، وأخيراً عن مصر، النزيهة دائماً، بصدد التنظيم النهائى للمسألة المالية المصرية العامة.

ها هو :

(أ) عودة جميع الأموال الأميرية (الدومين) المسماة بالخاصة أو لأفراد الأسرة الخديوية، هؤلاء المورثون المستثنون.

(ب) عودة، أو سحب الامتياز الممنوح للقرض المسمى بالدين الممتاز بتخصيص دخل السكك الحديدية، بمثابة رهن أو ضمان، بأية صفة كانت، لرئيس هذا التجمع. ومن الواضح أنه فى حالة إصرار الدائنين الإنجليز على أن يتولوا لجنة جائرة، لتضمن "لإسماعيل"مبلغًا ضخمًا مختلسًا من الخزانة، ليحافظوا على ضمان دخل السكك الحديدية، وسوف ينبغى عليهم أن يكتفوا بهذا الدخل، كما هو، بدون حاجة إلى منافسة تعسفية وظالمة، لأموال المكلف المسكين، والمخصصة لخدمة أرباح الدين الموحد.

إن أى امتياز مصفِّدًا لنوايا وجهود الشعب لا يمكن ولا يجب التساهل معه.

(ج) تحويل عام وفورى لجميع الديون المجمدة (أو الثابتة) والسائرة، شخصية أو تابعة للدولة، غير متنازع عليها، بسند بيع وحيد، بفائدة ٤٪ فى السنة تضمنه الأمة النيلية وجميع أملاكها، والذى سوف يستبدل سواء مقابل الوثائق القديمة أو مقابل الديون المعترف بها بسعر عادل، وبسقوط نهائى لجميع الاعتراضات والادعاءات الصادرة من حاملى السندات، ضد مصر وحكومتها. وعلى هذا الأساس، فإن الديون العامة والسائرة، وهذا بئس الحديث عنه، والذى يسمى دين خاص،تتجمع هذه الديون وتشكل إجماليًا والذى سوف يزيد المبلغ الذى يعتبر ضروريًا لتعويض الفروق العادية، التى أوجدها التعديل. ونتيجة لهذا التعديل، سوف تستبعد قروض عام ١٨٦٤ وعام ١٨٦٦ وعام ١٨٦٧، تسددت بجزء كبير، وتمثل رصيدًا قيمته ٢٥٠٠٠٠٠ جنيه إسترلينى تقريبًا قضاءهم سوف يتبع سعره العادى، مع تخفيض الفائدة إلى ٥٪.

ولما كانت إيرادات مصر، في الظروف الاقتصادية، حيث وجد المزارعون بعد اغتصابات وابتزازات كثيرة، طبعًا لم يستطيعوا أن يتجاوزوا ٦٥٠٠٠٠٠ جنيه إسترليني (أدنى حد ارتفاع)، فإن ميزانية مصروفات الحكومة يجب أن تدرج على مستوى اقتصادي غير شحيح أو مقتر ولكن متعقل. ومن الآن فصاعدا، سوف ينبغي هامشًا من أجل إقامة أساس لتخفيف كبير، ومحسوب على أساس إسقاط الدين المصري في عدد محدد من السنين.

(د) مراقبة دولية، خاصة ووقتية، تتكون من ثلاثة أعضاء تختارهم القوى العظمى، توافق عليهم الحكومة المصرية، يراقبون دائرة فوائد الدين بدون أي تدخل آخر أو مساهمة إدارية.

وسوف يكون المراقبون على اتصال مباشر بالوزارة المصرية، ومسئوليتهم مثل مسئولين من الحكومة ذاتها، وسوف تذكر في لجنة دولية، حتى يتسنى لهم أن يتجنبوا، بمراقبة صارمة لشروطها، كل ذريعة لأي تدخل أجنبي مختلط ممكن.

وليس من اللائق تصديق أن الدول الكبرى وهي أكبر المنتفعين من العقبات المالية لمصر، بالنصيب الذي استولى عليه رعاياها، أي رعايا هذه الدول المنتفعة، تتحمل مسئولية كل التبعات التي تسفر عن مجازفتها ومخاطراتها في عمليات مشكوك فيها، مثل فرنسا على سبيل المثال، محاولين التأثير على الآخرين، وهي أقلهم نفعًا، من أجل أن تطلب من البلد النيلي أكثر مما لا يستطيع هذا البلد أن يدفعه، إلا بإصلاح نفسه.

ويعلن الحزب الوطني المصري أن الشعب لا يستطيع أن يتحمل الصحن الضريبي الحالي، الذي ينبغي فيه تعديل هذا النظام، في الوقت نفسه الذي فيه تخفض الرسوم. وفي الحالة العكسية، حالة البلد الاقتصادية سوف تزداد سوءًا، وسوف يظل كثير من الأراضي غير مزروعة (أو بورًا).

ولا يمكن أن يتعلق أمن شعب ورفاهيته بدفع كوبون ذي قيمة وهمية تمامًا، عندما تتعارض فيه القوى المنتجة في الأمة، وأن الآثم الذي ارتكب الخطأ كدس ثروات طائلة، وتخلص بابتعاده عن البلد ومعه عقوبة الدول العظمى من أي نوع من أنواع المسئولية.

فى هذه الحالة، إن لن تصبح مصر مجرد تعبير جغرافى، وأن خمسة الملايين نسمة الذين يعيشون فيها لينعشوها، لابد من أن يشبُّهوا بداية فرض عليها رعاة يخضعون لنزواتهم؟

الشعب الذى بعمله المتواصل – وصناعته الجلدة – أنتج الآلاف أنفقت خلال ستة عشر عامًا، ذاق فيها أقوى ألوان العسف والاستبداد، أليس من حقه أن يفوز من عالم متحضر ببعض العدل والعدالة؟ إن ما يطلبه هو أنه يجب أن يعامل كما يعامل أخيه الإنسان فى أوربا، إذا ما ألفى نفسه فى وضع مطابق للذى فرض عليه.

بهذا التوحيد العام للشروط المشار إليها، مصر متخلصة من عوائقها، ومن الأعباء التى تهدمها، تعود إلى ممارسة حقوقها فى جميع فروع الدخل العام، ستقدم إلى دائنيها بصفة موحدة ضمانات إيجابية، سوف يتساوى أصحاب الديون أمام سجل الدين الكبير، بدون أى استثناء أو امتياز.

هذه المميزات الرئيسية، التى لا تفلت من أى شخص سوف ترفع من أسعار السند المصرى، وسوف تمنع – إلى الأبد – التقلبات الشديدة للسوق المالى، وتقضى على مناورات المضاربة.

(الترجمة مطابقة للأصل باللغة العربية)

سكرتير اللجنة AAli

إلقاء خطاب ارتجالى

وفقًا لطلب بعض المدعوين[1]

لا تندهش عندما ترى أحد الأوروبيين على هذه المنصة القومية النيلية. باستبعاد الخطأ أو السهو، أنا تقريبًا عميد المستعمرات الأجنبية فى المنطقة المصرية. فى عام ١٨٣٨ كنت فى خدمة "محمد على" ومندوبًا لإنتاج القطن، كنت أتعلم كيف أعرف الفلاح بالمعيشة معه وسط الحقول.

(١) A.E ، "رسائل سياسية ، مصر ، وكالة وقنصلية عامة" ، Vol.74, ff ، فى اتصال مع رسالة من ٤٢٣-٤٢٦ عميد بحرى "لونراد" الإسكندرية ، ٢٠ يونيو ١٨٨٢ .

أنا سويسرى الجنسية، ابن بلد ليس غنيًا، كادحًا وحرًا. تعرفت على الآلام التى يعيشها سكان وادى النيل، الذين يتذرعون بالصبر، ويتسمون بالذكاء، ويحبون العمل. أحببت هذا الشعب، وبذلت قصارى جهدى من أجل مساعدته على أن ينفض عن عينه غبار سبات عميق عاش فيه منذ قرون. يداى نظيفتان - وذلك أمر نادر هنا - وأعتقد، بهذه الصفات المختلفة لى الحق فى الحديث فى هذا الاجتماع.

جميع الشعوب قاست من أجل تحريرها. ولا يوجد أى شعب فاز بحرياته بدون مكابدة. معظم هذه الحريات تم الحصول عليها بعد سنوات، وقرون من المعارك الدامية. فالاستبداد يسعد الطغاة والاستعباد يبلى النفوس، ويخمد الشجاعة، حتى ينزع من الإنسان كل شعور بالكرامة والحمية. أنتم وصلتم إلى ذلك هنا.

المصريون، من بين جميع الأمم، ظلوا أطول زمن خاضعين وصامتين. أنا لا أريد أن أسرد تاريخهم الزاخر بالغزوات، وتوالى الأسرات الحاكمة والحكام يغطيهم تراب آلاف السنين الخانق، إبان ذلك، وحتى حكم "إسماعيل باشا". الفلاح ؛ أى الأهالى الذين يبلغ عددهم أكثر من خمسة ملايين نسمة - كانوا يعملون دائمًا من أجل رجل واحد، كان يعطيهم ما يكاد يسد رمقهم. ولم يكن يملك سوى عينيه من أجل البكاء. إجمالا، كان الفلاح يعتبر بمثابة أداة من أدوات مزرعة يمتلكها مزارع أو مستغل لأراضى النيل. كان يسمى، رجل، (بهيمة) ويدير الساقية من أجل أن يسقى الأراضى. هذه الظروف ليست بعيدة عنا. كانت لا تزال موجودة إلى عهد قريب. سقط "إسماعيل باشا" تحت وطأة الابتزازات وإسرافه فى جميع النواحى، خلفه نظام غير شرعى. كان الاعتقاد السائد هو تحسينات تامة - تأخرت فى المجيء - الأرياف قد رزحت تحت وطأة الربا، ولم يستعمل أى دواء لعلاج البلد، من أجل مساعدة الزراعة التى هى شريان مصر وروحها.

فى هذه الأثناء خرج من بين حبات طمى النيل، رجل، فلاح مثلكم : حكيم وعاقل، نزيه، واع، معتدل، مستلهم بأسمى الأهداف، أخذ على عاتقه قضية بلده، قضيتكم جميعًا.

يشير التاريخ إلى أنه فى تاريخ الشعوب فترات حرجة، ينبثق أحد الرجال، نزيه ومرتفع و قوى، يضطلع بإنقاذها.

الخلاص بوسائل يتعذر سبرها، والتى ينبغى الانحناء لها، مهما كانت. عرابى بك... عرابى باشا... أنتم تقولون (توقف) حسنًا. أنا عرفت عرابى على حقيقته، ثم بعد ذلك عرابى بك - هو هذا الرجل. ليس غريبًا أبدًا، إنه ابن البلد، من دمائكم ومن أصلكم. أنتم تحبونه، وأنتم تسمعون له. وهو رجل طيب. أنتم على حق.. ما كان فى وسعكم أن تحصلوا على صديق أفضل منه. لا أشك فى أنه بنصائحه، وبما عنده من روح المصالحة. ستصل مصر رويداً رويداً إلى التحرر النسبى الذى تستحقه ولها فيه حقوق لا تقبل المناقشة.

ولكن طريقه وطريقكم ليس سهلاً، ولكن التعسف على مدى القرون والذى له علاقات خارجية، سوف يشكل عقبة كبيرة بالنسبة لكم. "إسماعيل باشا" قد أثقلكم بدين ضخم، الذى بمقارنته بديون دول أخرى، يتضح أنه فوق طاقة البلد الذى يعيش فيه خمسة ملايين نسمة. هذا الدين لم يفدكم فى شىء أو لم يكد. لقد صنع الأغنياء وصنع الفقراء. هناك بلاد عديدة، لن أذكر أسماءها، بعد أن جعلوا القروض، تنكروا لتعهدهم أو الأرجح أنهم لم يوفوا به. أما أنتم، المطحونون، وخمسة وسبعون فى المائة منكم معدمون، ماذا صنعتم؟ بدلاً من أن تنكروا الدين الضخم - أكثر من مائة وعشرة ملايين جنيه إسترلينى - الذى أثقل كواهلكم به الخديو المخلوع بطريقة لا إنسانية، فقد قبلتم الدين، بصدق، وكرم، بالرغم من الأعباء المالية التى فرضتها عليكم هذه التضحية، ودفعتم الفوائد فى موعدها، وأقررتم بأنكم مسئولون عن اتفاقيات الحكومة السابقة.

ولكن شعبًا تعداده خمسة ملايين نسمة، مغلوب على أمره، مستنزف لقرون من الابتزاز والعبودية، يدفع سنويًا وعن طيب خاطر ضرائب متنوعة تربو على عشرة ملايين جنيه إسترلينى تقريبًا، فإن من حقه على ما يبدو التحقق من حساباته المالية وحساباتكم وميزانيته، للأسف، فإن دائنى مصر مثلهم كمثل أمثالهم فى الكون كله لهم نيتان: إحداهما فى بورصتهم التى تحكم جيوبهم، وأخرى فى جسدهم وفى صدرهم الذى يبعث فيهم الروح. الميزانية المصرية من أجل خدمة الدين، صدر قرار بإعداد لجنة تصفية بينما إرادة أو تطلعات شعب النيل، لا تتوافر له الوسائل التى تساعده على أن يسمع ويعرف.

الأمة لم تُستَشر، وعندما استيقظت نازعوها حق إدارة ماليتها من وجهة نظر إعدادها ودراسة ميزانيتها. وهنا وجهة نظر وجدت لها السياسة حلاً.

إن عندكم مجلس نواب. ليس هناك أدنى شك فى أن هذه المسألة لا تجد حلاً مفيداً. لا أريد أن أتعرض للسياسة - فلنتحدث عن "عرابى". إنه بصدد موضوع أنكم اجتمعتم هنا. حسب ما أرى، إننى لا أجد هنا جيشاً عندما لا يوجد عدو فى الخارج. الجيش المصرى، هو الفلاح، الذى يترك المحراث ليحمل البندقية، ويترك البندقية ليحرث الأرض. إذاً، فالجيش هو الشعب. "عرابى" الذى أفلت من خطر محقق، تحتفلون اليوم بهذا الشأن لحسن طالعه، فهو يستحق تقدير الجميع، باعتباره مواطنا، إنه عظيم. إننى معجب به لهذه القدرة، وأهتف معكم: طول العمر لهذا المواطن العظيم الذى يريد إحياءكم بالسلام وطرق الإقناع وتثقيف الشعب، وبدون هذه الوسائل، لا شىء على وجه البسيطة يمكن تأسيسه. أنتم جميعًا من البشر، اليوم، نحن جميعًا إخوان يعملون من أجل تحقيق هدف واحد. ما من أحد منكم ليس عظيمًا إلى حد ما، وما من أحد منكم لا يهتم بأقل شىء ممكن من أمر الشعب، ألا وهو وطنية الجميع.

يحيا "عرابى" باشا المواطن العظيم!

توقيع

چون نينيه

نشأة الحزب الوطنى فى مصر

عندما ذهبت للإقامة فى مصر لأول مرة عام ١٨٣٩، كان محمد على ذلك الرجل المسن فى كامل قواه العقلية. كان رجلاً قصير القامة، متناسقًا، ذا ملامح وجهٍ حادة. كان وجهه يحمل الطابع الألبانى مع شىء من ملامح التتار. وكان له أنف عريض وسميك وعظام وجنتين بارزتين وفم صغير، وعينان صغيرتان ولكنهما تلمعان مثل عينى الصقر، ولحية بيضاء طويلة، وحاجبان أبيضان أشعثان. كان يرتدى عمامة وكمباز ودائمًا ما كان يتقلد سيفه المملوكى المقوس.. فقد تلقى أمرًا من إسطنبول باستبقاء ثيابه القديمة لتناسب سنه الكبيرة. كان رجلاً ذا قوة لا تكل، فضوليًا، ذكيًا ومتحدثًا. وكان قاسى الطبع، تابعًا لأهوائه، مجنونًا، ولكنه كان كريمًا وكانت له فى الحقيقة رذائل وفضائل العثمانيين القدامى. وعمومًا لم يكن له شىء من سلالته الشركسية الموجودة اليوم.

كانت حاشيته تركية خالصة، بمعنى أنهم يتحدثون التركية، أما هو فقد تعلم العربية فى وقت متأخر من حياته حتى يحسن قيادة الفلاحين. وفى عهده كان الأوروبيون هم أصحاب الوظائف العالية، يستخدمون فيما كانوا يستطيعون عمله، ولكن مع بعض الاستثناءات، فهم لا يوجدون أبدًا فى حضرته ولا يخولون نفوذًا سياسيًا. وقد تعامل معهم عن طريق "بوجوزبى" الأرض وعم نوبار باشا الحالى الذى كان وزيره الوحيد. والعديد من هؤلاء الأوروبيين كانوا سان سيمونيين ورجالاً مشهورين. وقد أنشأ بمعونتهم مدرسته البوليتكنيكية المتعددة التخصصات بالقاهرة، ومدرسة الطب تحت رئاسة كلوت بك، ومدارسه العسكرية فى طرة والجيزة، والمعهد التعليمى فى باريس تحت رئاسة "م.جومارت". هذه المنشآت التى تلقى فيها شباب العرب تعليمهم، كانت هى القاعدة التى قام عليها الانتعاش السياسى فى مصر.

كما أن الأزهر أيضًا قد مده بالمال والكتب والأساتذة وشارك بدور جديد فى الحياة العقلية.

خارج قرى الدلتا والصعيد عمل الفلاحون بغير تفكير - كما كانوا منذ أيام الفراعنة - فقد كان محمد على هو المتبنى الوحيد لرؤيتهم السياسية. وكان أمله فى القانون.

وقد خافوه لحروبه التى كان يسوقهم إليها ولكنهم لم يحلموا بمراجعته فى قراراته. فقد أخذ منهم ما يريد وبدون طريقة منظمة للضرائب، تبعًا لتقديراته غير المبالغ فيها، فلم يكن طماعًا، ولكنه عندما أراد الذهب أخذه أينما وجده. ولم يقترض المال أبداً، ولهذا لم يكن على الدولة دين عام.

وقد سمح لى محمد على بمقابلتين عند وصولى خصنى بهما بفضل تخصصى فى زراعة القطن وأرسلنى إلى المنصورة للإشراف على أراضيه ولزاعة ألفى فدان يملكها قطنًا من صنف جزيرة البحر. وهناك بدأت لأول مرة الاتصال بالمصريين الحقيقيين، فلاحى الدلتا الذين كانوا يجبرون على المجىء إلىَّ - من كل أنحاء مصر- بإنتاجهم الذى يحتكره الوالى.

أنا أيضًا كنت أسافر بانتظام داخل البلاد لعمل يتعلق بهذه الصناعة. وكان معاونى ومترجمى محمد أفندى، فلاح شاب تعلم فى المدرسة الطبيعية بباريس، وهو رجل يملك معلومات غزيرة أعطانى ما كونته من أفكار سياسية مبكرة عن مصر. فتاريخه مماثل للأسباب التى أدت إلى الحركة القومية وكان محمد مواطنًا من شبرا خيت بالبحيرة، وابن شيخ البلد، أرسله الوالى عندما بلغ السادسة عشرة إلى باريس مع آخرين لتلقى تعليماً أوروبياً ضمن البعثة الفرنسية، وبعد ذلك - ولأنه كان شاباً واعداً فى المدرسة التى حصل فيها على درجته العلمية فى التاريخ والعلوم وكان قد أعد ليصبح أستاذًا عند عودته إلى مصر - عاد وهو أفضل تلاميذ البعثة ليتوقع تسلم وظيفة رفيعة مناسبة فى القاهرة، وبدلاً من أن يعين فى تلك الوظيفة عين كاتبًا فى مكتب بسيط بمرتب ثلاثة جنيهات شهرياً، لا عمل له طيلة عدة سنوات أكثر مما يقوم به أى مترجم عادى، وذلك نظراً لغيرة أصحاب النفوذ من الحاشية الجركسية والتركية ونظراً لأنه كان فلاحًا وواحدًا من الذين يخشى نبوغهم. وقد اعتبر إرساله للعمل تحت رئاستى فى مثل هذه الوظيفة المهمة تقدمًا كبيراً له. ولا أتردد مطلقًا فى أن أقول إن معلومات هذا

الشاب ونبوغه كانا يؤهلانه لأية مهمة ذهنية يمكن أن تتاح له فى مصر، ولكن الأتراك غير المتعلمين وقفوا حائلاً بينه وبين النجاح، ولولاى لما استطاع أن ينفذ أبداً من مكانته البسيطة هذه فى الحياة الرسمية. ولكن هذا لم يكن خطأ محمد على، فهو لم يكن يتمكن من معرفة كل الذى يحدث، فعندما علم منى بأمر محمد عينه معاونًا فى وزارة الزراعة ورقى مؤخراً إلى رتبة القائمقام وإن لم يتمكن بسبب الأتراك من الحصول على الباشوية.

وقد علمت عن طريقه سر الفلاحين غير المتعلمين من أبناء بلدته، وغياب العدل الذى ولد فى ظله العديد مثله من الفلاحين.. ولكن المتعلمين من الرجال لم يقبلوا فى وظائف مناسبة لنبوغهم، لمجرد أنهم ليسوا من الحاشية التركية.

وقد علمنى أن أرثى للعرب وأن أستغرق فى الأحلام حول إنقاذهم سياسيًا.. وكانت بذور القومية تنتشر فى تلك الأيام، فأولئك الشبان الذين درسوا فى الخارج قد عادوا وهم يدركون تفوقهم العقلى على أسيادهم الجهلاء الذين تعمدوا إهمالهم الشديد لإخضاعهم لنفوذهم، فكانوا يبعدونهم عن العاصمة ويرسلونهم إلى الأقاليم كتبةً ومترجمين. وكان هناك دائمًا الرجال المتبرمون مثل دعاة التحرير الذين يملكون من المعلومات ما يذيعونها على مستمعيهم، ويعرفون من الأخطاء ما يروونها أمام المتعاطفين معهم.. وهكذا فإن الأجيال المتبلدة بدأت تلقن الحياة تدريجيًا. وفى نهاية السنوات الخمس التى سادها الأمل فى مزيد من التحرر تركت خدمة محمد على وبدأت فى زراعة القطن لحسابى فى السلمانية بمحافظة الشرقية حيث تسلمت امتياز الأرض وظللت هناك لمدة سبعة أعوام، فضلاً عن عملى فى الإسكندرية حيث كنت أعمل نائبًا لقنصل بلجيكا. وقد منحنى هذا التغيير مزيداً من الخبرة عن مصر وشئونها، وفى أوقات فراغى كنت أمارس تطبيب الفلاحين فى منطقتى كهاو وليس كمحترف، وقد زاد هذا من معرفتى بأخطائهم وآمالهم وتطلعاتهم.

وفى عام ١٨٥٥ أحضرت أول محلج قطن مكارتى إلى مصر من أمريكا وهو نظام معمم استخدامه الآن فى مصر، وتسلمت وساماً من السلطان مكافأة على ذلك.

وفى تلك الأثناء توفى محمد على عام ١٨٤٩ وتولى ابنه إبراهيم. وقد رأيت إبراهيم وتحدثت معه مراراً. وكان إبراهيم شديد الشبه بوالده ولكنه كان ذا طابع أكثر جركسية، فوالدته من ذلك الجنس ذاته. كما كان بالغ الذكاء أيضًا ولكنه كان أقل حنكة

من والده، شديد الانغماس فى رذائل الأتراك الغلاظ، تلك الرذائل التى عجلت بنهايته، بعد أن أصبح قويًا فى حياة والده.. وكان لديه الوقت ليفصح عن صفاته كحاكم. وقد خلفت شهور حكمه المعدودات بغضًا لا يمحى أثره لدى الفلاحين الذين نهبهم ظلمًا، لأنه كان على العكس من والده شديد الولع بالمال، ولولا موته المبكر لأصبح حاكمًا مخيفًا حقًا.

عباس ابن أخ إبراهيم، كان ابن امرأة فلاحة، وقد أحب الزراعة وكان عطوفًا على الفلاحين، كما كان معتدلاً- باستثناء أشياء خاصة كإنشاء المبانى وجمع الخيول - وكان إداريًا جيدًا وكان عباس أول من سمح بتجارة حرة مؤثرة فى مصر، وعلى الجانب الآخر كانت له كل الرذائل الداخلية التى خلفها له ميراثه الأبوى، وقد مات على أيدى خادميه من عدة سنوات مضت نتيجة لمكيدة دبرها حريمه.

وقد عرفت عباس معرفة كافية مكنتنى من تقييم نبوغه فى العمل، عندما تعاملت معه لإمداده ببذور القطن لأملاكه فى الوادى بجوار التل الكبير. أحبه الفلاحون لأنه كان عادلاً معهم، كما التصق به البدويون. وقد أرسل العديد من شباب الفلاحين إلى فرنسا وإنجلترا لتلقى تعليمهم. ولكن كان كجده محظورًا عليه أن يصل بهم إلى أقصى ما يصبون إليه من أمانى؛ وذلك بسبب الحصار الجركسى. ولولا عيوبه الخاصة لكان حاكمًا جيدًا. ولم يترك أية ديون، بل على العكس ترك ميراثًا ضخمًا لابنه إلهامى باشا.

وذات مرة اقترض ٣٨٠ ألفًا من الجنيهات ولكنه أعادها فى بضعة أعوام.

مات عباس عام ١٨٥٤ فخلفه عمه سعيد، ابن محمد على من سيدة جركسية - وكان سعيد قد تلقى تعليمه ليصبح بحارًا تحت الوصاية الفرنسية وكان رجلاً كثير الإنجازات.

وكانت معرفتى به وثيقة جدًا أكثر من أى من أسلافه فقد كان أول من منح الأوروبيين كامل ثقته، تلك الثقة التى أدت إلى إساءة استخدامها تمامًا من جانبهم.

وعلى الرغم من أنه ورث الرذائل الخاصة بجنسه الجركسى فإنه لم يكن محبًا للمال، بل على العكس كان رجلاً كريمًا ومبذرًا أحيانًا.. ولم يكن قاسيًا فى مطالبه التى يطلبها من الفلاحين الذين حفظوا ذكرى طيبة لفترة حكمه.

وكان البدويون هـم الفئة الوحيدة التى اضطهدها سعيد لأنهم كانوا المفضلين لدى عباس وكانوا هم الذين حاول سعيد إجبارهم على التخلى عن حياتهم الشاردة ومحاولة تعليمهم الزراعة، أما الجيش فقد كان يقدسه لأنه أنفق نقوده فى زيادة أعداده وإعادة تنظيمه، ولهذا سقط الجيش فى هوة الفوضى. فقد رفع أول الأمر رتب العسكريين من الفلاحين مانحًا بعضهم رتبة البكوية أو رتبة "المقدم" ونذكر خلال ذلك عرابى وطلبة، والحزب الوطنى الذى يحمل لسعيد دين العرفان بالجميل بسبب ذلك الذى فعله فقد خفض ضرائب الفلاحين وألغى جميع الجزى. وكان النجاح العام الذى لم يشهد مثله منذ ذلك الحين هو نتيجة لذلك الكرم.

كان استغلال الرأسماليين الأوروبيين لفترة حكمه لمصر هو النتيجة السيئة لتعامله البسيط السهل. فقد كان سعيد مشجعًا للتجارة الخارجية، كما منح الامتيازات على نطاق واسع. ومد نظام السكك الحديدية الذى بدأ بصعوبة على يدى عباس. كما سمح بتكوين الشركات الأوروبيــة جنبًا إلى جنب مع الشركات التى كونها بنك مصر وفوق هذا كله منح دى ليسبس التصريح ببدء قناة السويس.

ولم تكن الفكرة الأساسية لهذا العمل العظيم بالنسبة له فكرة مالية على أية حال. ولكنها كانت لمضايقة السلطان عبد العزيز الذى يكن له سعيد عدم ارتياح شخصى، وربما كانت رغبته فى مضايقة السلطان ببدء القناة تأتى على قدم المساواة مع رغبته فى نفع مصر منها.

وقد كان السلطان المؤيد من الإنجليز معارضًا للقناة، التى منحها سعيد للفرنسيين بلا معارضة.

وقد أغرى دى ليسبس سعيدًا، فيما يتعلق بهذا المشروع، لخلق مكونات الكنز، الذى كان مصدرًا لديون مصر، وقد اقترض سعيد فى آخر سنة له فى الحكم بضعة ملايين من إحدى نقابات بيوت المال فى باريس وألمانيا، حتى يتخلص من هذه الديون. ولكن حصة كبيرة من هذه الأموال كانت لا تزال فى منزله عند وفاته. ولولا آثامه الشاذة التى لوثت حياته الخاصة لكان قد ترك بالإضافة لتلك الأموال، اسمًا مشرفًا.

كانت فترة حكم سعيد هى آخر ما عهده المصريون من النجاح، والهدوء، والخضوع للقضاء والقدر.

كان إسماعيل باشا هو أداة الله الحقيقية وعقابه، أرسله ليتخطى به الفلاحون خلافاتهم وليصنع منهم أمة عن طريق المعاناة.

إسماعيل هو ابن إبراهيم كانت والدته جركسية، وقد ورث بالكامل المساوئ لهذه السلالة لأنه نتيجة تزاوج اثنين من الدم الشرير.

وقد كانت الطبيعة المهذبة التي يملكونها والتي سرعان ما تجتذب العين الأوروبية هي طريقه للحصول على رتبة خاصة.

وقد عرفته جيداً هو أيضًا ولكن علاقتنا لم تكن ودية تمامًا لأنني كنت صديقًا لأخيه مصطفى، ولعمه حليم، اللذين وقفا قبله في التتابع الشرعي لوراثة العرش.

وعند إعلان إسماعيل حاكمًا لمصر، اعتقد الذين لم يعرفوه (الأوروبيون) أنه رجل بالغ الذكاء شديد العفة. ولكنه من الداخل كان منذ الوهلة الأولى بالغ السوء. وكانت رذيلته الأساسية هي الطمع؛ فمن أول حكمه إلى آخره لم يكن يهتم بشيء إلا أن يجمع ثروة مصر في محفظته، وقد كانت له أدواته الخاصة لهذا الغرض، فقد كان له من الرجال من ساعدوه جيداً وأذاعوا له أسرار العمليات المالية على النطاق الواسع قبل يومه المحتوم في الشرق.

وكان راغب وإسماعيل صدِّيق (المفتش) ونوبار هم خدمه الثلاثة في هذا الأمر، وسأقص بعض الكلمات لأنني أتيحت لي معرفة كل منهم:

راغب بك كما عرفته أولاً.. كان **acandiote** رجلاً مسلمًا من أصل يوناني استفاد من الدهاء المالي لبني جنسه. بدأ حياته السياسية في مصر في عهد سعيد باشا كموظف في نظارة المالية التي رقي فيها بسرعة إلى منصب رفيع.. كما نال سمعة لا يستهان بها، خصوصًا وسط المجتمع اليوناني الذي ظلت علاقته به تتسم دائمًا بالحب والولاء. يعود إليه فضل التزايد السريع لنفوذهم التجاري خلال السنوات الأخيرة لحكم سعيد.

وعند مجيء إسماعيل للسلطة عين راغب وزيراً للمالية وتلقى منه إسماعيل دروسه الأولى في عشق المال، وقد كان راغب باشا شرقيًا بالضرورة. وكانت أفكاره محدودة

بتلك العمليات التجارية كما فهم بعد ذلك فى القاهرة والإسكندرية، وفى نهاية أربع سنوات كان قد استغنى عنه سيده بعد أن تعلم كل ما يمكن أن يتعلمه منه وطمح بعدها إلى أشياء أعظم.

تلا راغب مرءوسه إسماعيل صدِّيق الذى كان أكثر نبوغًا وأقل ريبة. وكانت شخصية هذا الوزير مزيجًا غريبًا من السيئات مع بعض الصفات، وقد عرفته معرفة وثيقة ومازلت صديقًا لابنه. ولدىّ ما أقصه من المعلومات عن تاريخه. لقد كان عربيًا من أصل مغربى وقد بدأ اتصاله بالبلاط المصرى عندما عمل مديرًا لإسطبلات عباس باشا الشهيرة فى شبرا والمطرية، وقد كان دائم الشغف بهذه الحيوانات محبًا للتفاخر وحسن الضيافة التى يحبها العرب. كما كان شخصيًا جوادًا بماله، ومبسوط اليدين فى كل تعاملاته كما كان أيضًا نوعًا خاصًا من حب الوطن، وإذا حق لى أن أقول لقد صادق على خراب مصر وعوزها أكثر مما فعله أى شخص آخر، ولكن مع استثناءين: فلم يكن محبًا للأتراك كما كره الأوروبيين ولكنه استخدمهم. وعلى الجانب الآخر لم يكن مطلقًا كثير الشكوك فى خدمة سيده وفى الوسائل التى جمع بها الأموال. وكان بالنسبة للفلاحين سببًا فى معاناة أكثر من مريرة. فقد كان تغاضيه سببًا فى الابتزاز الرهيب للاثنى عشر الأخيرة من حكم إسماعيل. ففى عهد سعيد باشا كانت ضريبة الأرض مخفضة إلى نسبة ٨٪ من كل فدان.. قام هو برفعها خطوة خطوة إلى أن وصلت إلى ٣٠٪ ، كما أعاد فرض (الفردة) الجزية.. واخترع ضريبة الطابع على كل العمليات التجارية، وضريبة الدخان، وضريبة على الجمل، وضريبة على الثيران المستخدمة فى الزراعة. كما اخترع ضريبة خاصة كانت من أكثر الضرائب قهرًا للفلاحين وهى ضريبة الوطن "أو القومية" وهى ضريبة إجبارية للاحتياجات المتوقعة للدولة. وفى سنواته الأخيرة فرض ضرائب لم يكن لها حتى مجرد اسم إلا مجرد أنها احتياجات تعسفية للمال. ولنبوغه المزعوم يجب أن نعزو بيعه للمقابلة التى يطلبها الناس بالمال. وبنشاطه الذى لا يكل كان محصول الأرض ينتزع عامًا بعد عام وحتى أحسن أراضى الدلتا لم يكن لها إلا سعر السوق بصعوبة، لم يحدث أبدًا أن تم إيضاح قيمة المبالغ الضخمة التى يحصل عليها إسماعيل صديق عن طريق أى عملية مالية، فالدين نفسه لم يكن شيئًا بالنسبة لها ولكن لابد أنها تقدر بعدة مئات من الملايين من

الجنيهات الإسترلينية ومع هذا فقد تركوا مصر فقيرة دائمًا. نهاية صدِّيق المأساوية هى التى أنقذت اسمه من فضيحة تامة لأنها كانت بسبب بقايا من الشك الوطنى. كما ضغط مستر جوشن على رئيسه إسماعيل لعمل ترتيب خاص لاعتبار صديق مماثل لخضوع مصر للأجانب. ولكنها فشلت فى الحصول على موافقة آلاته المستعمرة الحالية وتسبب ذلك فى مشادة. سجن صديق ومات بائسًا على يدى واحد من الشخصيات الرفيعة فى البلد.

أما نوبار باشا فكان أرمنيا ينحدر من عائلة كريمة من سميرنا **Smyrna** ، وهو ابن أخ بوغوز بك الذى أشرت إليه كسكرتير لمحمد على وكاتم لأسراره. أرسل نوبار لأوروبا عندما كان صبيا. وتلقى تعليمه على يدى الجزويت فى فريبورج بفرنسا، دعاه عمه إلى مصر عند انتهاء دراسته وعينه فى مترجمى القصر حيث التقيت به أول مرة. مؤخرًا، أرسل نوبار كمترجم مع إبراهيم باشا عند سفره إلى أوروبا للسياحة. وهكذا نال نوبار أول دراية له بالحياة السياسية فى لندن وباريس. وفى فترة حكم سعيد تمت ترقيته ليصبح مديرًا للسكك الحديدية الجديدة. وقد أهلته معلوماته اللغوية وقدراته العامة العظيمة لنيل وظائف أرفع، وأصبح عند اعتلاء إسماعيل للعرش وزيرًا للشئون الخارجية، وعندئذ كونت أرصدته السياسية، فقد اكتشف فيه إسماعيل منذ البداية أنه أكثر الرجال قدرة على القيام بمشاريعه بكل ضخامتها وجرأتها المالية.

وقد علم منه سر المالية الأوروبية، ومع بعض فترات وقتية من التباعد بينهما استبقاه إسماعيل خلال حكمه للعمل ككاتم أسرار مع الحاشية والرأسماليين الأوروبيين. والمجال هنا لا يسمح لى لأقص تفاصيل عملياته المتنوعة ذات الشهرة الذائعة ويكفى أن أقول إنه من أول عمل قام به وهو قبول إسماعيل لمعاهدة قناة السويس إلى آخر عمل له وهو تصفية الحسابات المصرية، كانت كل العمليات المالية المهمة خلال حكم إسماعيل تدار بواسطة وزيره الأرمنى، فإلى نوبار يرجع تدافع رأس المال إلى وادى النيل وإنشاء البنوك وبنوك الائتمان وتكاثر الامتيازات والقروض ورهن ممتلكات الدولة ووجود المسئولين الأوروبيين فى كل نظارة من نظارات الحكومة. وأخيرًا التحكم الإنجليزى الفرنسى.

له وله وحده بعد الوالى يرجع الدين القومى الذى بلغ مائة من ملايين الجنيهات. وبسببه فقدت مصر ملكيتها لقناة السويس، وبسببه أيضًا تكونت الجاليات من مختلف الدول وسريعًا ما نقلت ملكية الأرض – الميراث الوحيد للفلاحين – إلى أيدى مانحى المال من اليونانيين والأوروبيين والسوريين.

كان نوبار سببًا فى كل هذا، ولكن لأن طرقه أوروبية وليست شرقية لم يتناول أحد عمله بما يستحقه من النقد إلا من المعاونين من المصريين. وإلى يومنا هذا لم يزل بعض الأوروبيين يعتبرون نوبار باشا فى بعض الأحوال خيرًا ورجل دولة ذا وجهات نظر عريضة وحتى وطنيًا.

وقد كان نوبار فى الحقيقة صديقًا سيئًا لمصر أكثر من راغب وصدِّيق، وكنت أقول إنه يكاد يكون أسوأ من إسماعيل نفسه.

والآن سأعود لترى تأثير كل هذه الأنظمة المختلفة، ذلك التوافق بين التعليم المتزايد وبين الظلم المتقطع والمتزايد دائمًا على شعب مصر. تحت تحكم محمد على كانوا يبدون لى كحيوانات الحقل. مجرد ثيران متبلدة لا هى تجادل فى رغبات مالكها ولا تدرى شيئًا عن كل ما تعانيه، فقط هنا وهناك نجد موظفًا منفيًا ومتعلمًا تعليمًا أوروبيًا يقص على جماعة من الناس سر أراض أخرى تعرف معنى الحرية، وفى المدن نجد نورًا أكثر بعض الشىء ولكنه قليل جدًا ومظلل بقوى استبدادية لشخصية رجل واحد. حكم سعيد كان نظامًا أكثر يسرًا بالنسبة للفلاح وفيه قليل من التدليل للبدويين بالقدر الكافى لإنعاش الأمل فى كليهما. فى عهد سعيد ظلت الضرائب المخففة وقدر أكبر من التشجيع للتحسن المادى.

أثناء حكم سعيد لاحظت ظروفًا جديدة من الأشياء التى أخذت فى الظهور فى حياة الفلاح. فقد فتحت مصر أبوابها لأول مرة للتجارة الحرة التى يمارسها الأجانب، وبدأ الأوروبيون ينتشرون حتى فى أقصى جوانب الدلتا. وقد بدا نفوذهم لأول وهلة بغرض الخير وكان المواطنون يرحبون بهم؛ فقد رأوا فيهم شيئًا متفوقًا عنهم فى التعليم والصفات التى تصنع النجاح. فقد أحضروا الثروة معهم ونوعًا من الحماية، كما علموا الفلاحين فنونًا جديدة فى الصناعة، شكروها لهم.

قدم مع الأوروبيين أيضًا من شجعهم على افتتاح مجال جديد لهم وهو الترجمة، وهم زمرة غازية من السوريين الأقباط والمالطيين الذين لإجادتهم العربية استطاعوا أن يعيشوا بسهولة كأنهم فى وطنهم فى هذا البلد.

كانت هذه على وجه الخصوص هى الحالة فى أثناء السنوات الأربع الأخيرة من حكم سعيد، فعندما تسببت الحرب الأمريكية فى رفع أسعار القطن فجأة أعطت بذلك فرص عمل لكل الأيدى التى يمكن أن توجد. وقد شكل فى الحال هؤلاء المستشرقون مع اليونانيين الذين شجعهم راغب عنصرًا جديدًا فى غاية الخطورة من الشعوب المستوطنة. وحتى قدومهم عاش المواطنون المسيحيون الذين يمثلون الأقباط فى توافق تام مع أبناء بلدهم المسلمين، ولكن القادمين الجدد أتوا بالتعصب التحيزى الشرس للطوائف التى يمثلونها. ومع ذلك لم يكن النزاع ظاهرًا أول الأمر، ولكن فور انتهاء نجاح تجارة القطن والضرائب المخففة فى عهد سعيد، بدأ الشجار بين الرجال الذين كانوا مشغولين جدا بزراعة أراضيهم وتكوينهم للمال عن طريق التجارة المشروعة كما كانت المتاعب الشديدة مخزنة للأعوام التى تلت تلك الفترة والتى سادها الابتزاز والأحزان.

لقد حمى عهد سعيد الفلاحين على وجه الخصوص، وكما قلت أعطى بعض الاهتمام لترقية المصريين إلى مراكز مسئولة فى الحكومة وحتى فى الجيش بينما ظل الأقباط مستبقين فى وظائفهم القديمة فى الخدمة العامة ككتبة ومحاسبين.

وفى عهد إسماعيل أصبحت كل مفاسد الهجرة الأجنبية إلى مصر فى الحال ملموسة، ففى عام ١٨٦٤ هبط القطن فجأة وأعداد لا تحصى من الأيدى العاملة أصبحت بلا عمل، كما ارتفعت الضرائب بشدة والجماهير العاملة أصبحت حزينة ومتعبة.

أنا نفسى قد تأثرت فى عملى بهذا التغير الذى أتذكر مظاهره جيدًا. منذ عام ١٨٦٦ وحتى ١٨٦٩ أتاح المال الذى توفره قناة السويس للبلد قدرًا من الراحة كما أدى إلى تأجيل الأزمة، ولكن مع اكتمال هذا العمل العظيم بدأت الأزمة.

وعند ذلك ومنذ الوهلة الأولى أصبح الفلاحون غير قادرين على الوفاء بالضرائب المقررة عليهم؛ فاضطروا إلى اقتراض المال وهو الشىء شديد الكراهية لنفوسهم

ولخبرتهم التجارية. ولسوء حظهم بالرغم من وجود المال فى أيديهم فقد كان سريع النفاد بدرجة كبيرة. وعندئذ ظهر المرابون من اليونانيين والسوريين وعرضوا قروضهم فى كل قرية كبيرة على الفلاحين البؤساء، وأكثر من هذا لقد جالوا فى الأحياء لتوسيع تجارتهم. كان المطلوب من الفلاح أن يعطى أكثر مما يملك وتحت تهديد الكرباج وقع رغماً عنه فريسة لفائدة قدرها ٣٠ و ٤٠ و ١٠٠٪. وقد عرفت بنفسى حالات تصل الفائدة فيها إلى نسبة ٢٠٠٪ تأخذ هذه النسبة عن كل سنة. وكان هذا يمثل بالنسبة لتلك الفترة أجراً عظيماً لاستخدام حاصل الربا حتى إن مدينتى القاهرة والإسكندرية الحديثتين قد بنيتا بتقديم العديد من الملايين من الإسترلينى. حتى عام ١٨٧٦ وخلال الانتشار الشديد للربا فى البلد، كان لا يزال هناك إجراء خاص قابلته الصعوبات التى وضعها القانون الإسلامى أمام طريقة استرجاع الديون عن طريق الرهن لممتلكاته، فالفلاح لم يكن يقبل فعلياً فكرة رهن أرضه وكانت ديونه فى هذه الحالة محددة بما كان يملكه.

ولكن فى عام ١٨٧٦ قدم نوبار تشكيلاته التشريعية الشهيرة التى حصل بسببها من أوروبا على لقب "رجل دولة عظيم". والتى كانت لطمة للفلاح.

كانت عمليات الاقتراض عن طريق الرهن تجرى فى سهولة وأمن. وقد عملت الجاليات المتنوعة الجنسية على استرجاع الديون حقيقياً أو ظاهرياً ضد الفلاحين العرب كنوع من التأكيد للمرابين الأجانب. ومن المستحيل أن أحكى هنا تفاصيل العمل ذى التنسيق الثنائى أكثر من ملاحظة أن النظام الجديد بدا كما لو كان مصمماً لحماية الانتقال السريع لكل فدان من الأرض من أصحابها دافعى الضرائب المصريين للأجانب الذين لا يدفعون ضرائب بالمرة. وقد كان القانون الجديد للرهونات الأسهل والأقل تحديداً فى كل العالم. لقد كان قانوناً جديداً لاسترجاع مبدأ التلخيص الشديد. وسيكون صعباً أن يوجد فى أوروبا عربى يقرض حيث إن المحاكم الدولية فى مصر تخضع خلال ثلاثة أيام لطلبه وهى تحكم بقضاة أجانب لأنها تتعامل بلغات أجنبية ونظام أجنبى، والشىء الوحيد الذى يصلح فى مثل هذه الحالة أنه يقوم بتعيين محام أجنبى للدفاع عنه ويتحدث باللغة التى لا يفهمها. وقد أدى هذا فى النهاية إلى تصميم الفلاحين على الثورة، وأكثر من ذلك أيضاً قد أدى إلى تحول الشعور الأخوى الطيب الذى كان موجوداً بين المسيحيين والمسلمين إلى شعور بالكراهية المريرة.

سبب آخر أدى إلى إثارة الضجر والمشاعر السيئة وهو استبدال إسماعيل بالمواطنين الأقباط موظفين آخرين من السوريين والمالطيين. وقد كان الضرر فى ذلك وجود العديد من الأوروبيين فى البلد وزيادة استعمال اللغة الفرنسية لغة رسمية واستبدال نظام أوروبى حديث فى المالية بالنظام الوطنى القديم، أدى إلى التسليم بهذا الالتزام. وكتقييم لم يكن الأقباط ملمين باللغات كما كانوا شديدى الالتصاق بطرقهم القديمة، بينما كان السوريون متحدثون طلقون ويستخدمون الحسابات الغربية. وتبعًا لذلك الاستبدال تم إبعاد الأقباط عن الأماكن التى كانت لهم ولآبائهم منذ وقت بعيد، كما زرعوا فى النفوس جذور الضجر.

أخيراً، بدأ الأوروبيون فى تولى كل المناصب الرئيسية فى الدولة والتى شملت حتى أعلى المناصب على الإطلاق. والحركة من هذا المنطلق قد طرحت جزئيًا قبل البرلمان الإنجليزى، ولكن جزئيًا فقط. والمعلوم فى هذا الشأن أن سببه الأساسى هو العداء المرير للأوروبيين الذى بدأ فى السنوات الأخيرة لحكم إسماعيل ولأول مرة يتضح فى أرقى الأماكن وأحقرها على السواء.

إذا كان هناك أى شك فى تلك الحقائق فليرجع إلى كتاب "مصر وأوروبا" لقاض مختلط قديم. وعمل هذا الرجل الهولندى "فان بيمين" الذى يعمل الآن قاضيًا للجنس الراقى يرجع إلى الأتراك والجراكسة وهم الأعداء الذين لا يزحمون بالنسبة للمصريين تلك المشاركة بأعداد كبيرة فى الحركة الوطنية والمعادية للأجانب.

كثير جداً من الأخطاء التى أثارت الشعب. وسأتكلم الآن عن رجال هذه الثورة . منذ عرفت مصر، عرفت أسرار مجتمعها فيرجع أصلهم على ما أعتقد إلى زيارات الهنود المسلمين لجامعة الأزهر حيث كانوا يستقبلون بحفاوة، وحيث طوروا تلك الأفكار الماسونية المتحررة المنتشرة فى آسيا. ومنذ بداية حكم سعيد باشا دُعيت لحضور محفل من محافل الماسونيين الشرقيين فى الإسكندرية، ومنذ ذلك الحين أصبحت الحركة عامة جداً.

ولم يكن لهذا المحفل ما يستطيع عمله مع المحفل الأوروبى لمصر الذى يسمى "الأهرام" ولا اعترف أعضاؤه بأى مستشرق أوروبى فى تنظيمهم. وقد كانت أفكارهم

مماثلة تمامًا لأفكار هؤلاء الأوروبيين من الماسونيين المتحررين، ولكن فقط بأية صبغة دينية خاصة من الغياب الفكرى عن أفكارنا.

وقد كان الماسونيون الأحرار المصريون عندما عرفتهم أول مرة مسلمين بالكامل ولكن الاتحاد القبطى والإسلامى فى الحركة الوطنية قد أدى مؤخرًا إلى انضمام عدد من القيادات القبطية إلى المحافل، حيث إن المبادئ الإنسانية يمكن ملاحظتها بوضوح فى أفكارهم كما هى فى أفكارنا.

وبالاتصال بهؤلاء كانت الرفعة المبكرة للحرية فى شمال أفريقيا. محمد السنوسى الذى كان طالبًا فى الأزهر منذ عشرين عامًا مضت والذى كان مغربيًا من أصل تركى كما أظن والذى غادر مصر عندما كان عمره ثلاثة وعشرون عامًا. قد بذر الآن بذور هذا المجتمع الذى أصبح شهيرًا منذ عرف اسمه بين المسلمين.

كان نظامه يعتبر تطويرًا للماسونية، إلا إنه كان دينيًا بلا شك، اشتراكية دينية تعتمد على المبادئ المبكرة لتعاليم محمد عليه الصلاة والسلام، التى غرست أخوة إسلامية عالمية وتسامحًا دينيًا كاملاً.

قد يكون هذا تغير فيما بعد على يدى السنوسى منذ لجوئه إلى طرابلس.

وبالنظر إلى الحركة الإسلامية الشاملة فى الأزمنة الحديثة، التى لم يكن عرابى ورفاقه أصلاً على علاقة بها، إلا إنهم أبقوا على شكلهم المبكر فى مصر، وأعطى عرابى ورفاقه على الفور اعتبارًا للغة الأخوة والتسامح، وهو ما اعتبره المتحذلقون الأوروبيون تصنعًا. وقد وجدت أفكار السنوسى تربة ملائمة جدًا فيما يطلق عليه "الموظفون ذوو الأصول الاجتماعية المنخفضة"، وجيرانهم أنصاف المتعلمين ببعض الأحياء التى سبق لى الحديث عنها، وتبناها علماء الأزهر وكثير من الوجهاء وكبار التجار بالمدن، وعلى الرغم من ذلك فقد ترك السنوسى مصر قبل أن تبدأ الحركة الحديثة البارزة للقومية المصرية، لذلك فهو يكاد يعد واحدًا من كهنتها البارزين، لقد كان رائدًا سباقًا أكثر منه حواريًا أو مبعوثًا، وقد رأيته مرة واحدة، ولم أستطع للأسف تذكر شىء واضح عن شخصيته.

واحد آخر من دعاة الإصلاح الاجتماعى الذين كان لهم تأثير واسع على الطبقات المتعلمة، سواء بالقاهرة أو فى الضواحى، وهو الشيخ جمال الدين- وينادى بين العموم بالأفغانى - لقد تلقى هذا الرجل الرائع تعليمه فى بخارى وفى دلهى، وجاء إلى القاهرة بعد أن أدى فريضة الحج.

قابلته مرة عندما كان يلقى محاضرة بالمنصورة - التى يتمتع فيها بأكبر عدد من الأتباع فى مصر كلها - فوجدته متميزاً جداً، كان فى هذا الوقت مازال شاباً وسيماً مفعماً بالحيوية، وقد حباه الله بأفضل موهبة عند العرب وهى الفصاحة المطلقة، وقد وضح لتلاميذه بلا شك أسباب موقفهم المزرى (كان ذلك فى عهد إسماعيل) من استبداد الطبقة المتميزة الذى جعل من التركى سيداً ومن العربى أجيراً بلا أجر، وحثهم على التعليم ليحصلوا على القوة التى تعطيها لهم المعرفة للحصول على حريتهم. كانت هذه المحاضرة أو المواعظ تتسم بالسرية الشديدة، حيث إنه - فى عهد إسماعيل - كان يتم القبض على من يعرف عنه التمسك بالأفكار التقدمية ويزج به إما إلى السجن أو إلى النيل الأبيض، أو حتى نيل القاهرة ، الذى اختفت تحت أمواجه طموحات كثيرة فى نيْل الحرية لم تكن قد اكتملت بعد.

وعلى الرغم من ذلك استمر الأفغانى، بدون حدوث ما يؤسف له حتى النهاية، عندما خان نفسه ونادى بصوت عال بسقوط إسماعيل، وطردته الحكومة بالتالى من مصر. وذهب بعيداً إلى أمريكا واشتغل بتدريس اللغة العربية، حتى عاد بعد ذلك إلى الهند- حيث يقال إنه يعيش بها الآن.

حتى ذلك الوقت لم تكن هذه الأفكار قد تغلغلت فى الطبقة الدنيا من المجتمع المصرى. لقد حفظت هذه الأفكار حتى وصلت لمعلم ثالث ليجعل أفكار التحرر أفكاراً شعبية، ويعطيها صبغة قومية مصرية متميزة. هذا المعلم هو يعقوب صنوع (James Sanua) . كان يهوديا قاهرى المولد بنزعات موروثة من دمه الأوروبى، تلقى جزءا من تعليمه فى إيطاليا وجزءا آخر فى المدينة التى ولد بها، كانت لغته الأولى هى العربية وكان دارساً جيداً لها وعلى الرغم من أنه - لأسباب شعبية - تبنى فى كتاباته اللهجة العامية للفلاحين، فإنه يتحدث الإيطالية والفرنسية والإنجليزية.

بدأ حياته مدرسًا بالمدرسة العسكرية بالقاهرة حـوالى عام ١٨٧٢ حيث تخرج من تحت يديه كثير من الضباط الأصغـر سنًا الذين شـاركوا فى التمرد. ويرجع إليه - إلى حد بعيد - تشبع الجيش فيما بعد بمبادئ التحرير التى حيرت الأوروبيين بظهورها فى مكان غير متوقع لها. لقد غرس أفكاره بكثير من الحذر حيث إن السياسات فى ذلك الوقت تميزت بالخطورة، إلا إن صيته قد ذاع بين الطبقة الأكثر تعليمًا بالمدينة، وعلى الرغم من أصوله فقد أصبح مفضلاً لدى صغار طلبة الأزهر، وهم قسم مهم للغاية من المجتمع القاهرى. كانت مغامرته الجماهيرية الأولى هى جريدة مجهولة (غير مسماة) - أو بمعنى آخر ورقة مطبوعة - وتحت مظلة الشطحات الشعرية التى تلائم الأفكار العربية خاض مغامراته الرمزية لينتقد القوى الموجودة آنئذ. وكانت هذه الأوراق توزع سرًا - من يد إلى يد - وبسرعة دارت دورة عظيمة وكانت أساسًا لما تطور بعد ذلك ليصبح جريدة وطنية حقيقية.

بعض هذه الأوراق كانت موجهة إلى الفلاحين خاصة، وكانت مكتوبة بلغتهم الدارجة، فكرة جديدة تمامًا بالنسبة للعقل الشرقى، وشخص يملك تأثيرًا غير عادى على الخيال الشعبى.

خلال السنوات الخمس الأخيرة من عهد إسماعيل لم يكن بالقاهرة من لم تُقرأ عليه هذه الأوراق (إذا لم يستطع قراءتها بنفسه)، ويمكننى أن أشهد بتأثيرها فى القرى، حيث إننى كنت بائعًا كادًا لنتاج صنوع الفكرى أينما ذهبت. من هذه البدايات طورت "مصر الفتاة" نفسها وهى أقدم جريدة وطنية.

وكانت البداية الأكثر تأصيلاً هى افتتاح مسرح صغير بالمدينة القديمة، وتحت ستار الكاريكاتير والسخرية الفجة سخر صنوع من كل غلو الأسرة المالكة، ولاقى هذا أيضًا نجاحًا عظيمًا وأصبحت مسرحياته بدعة سائرة ووجدت غير قليل من طلاب الأزهر ممن أخذوا فى تقليدها.

وبدأ فى النهاية أكثر مغامراته شعبية، وهى جريدة "أبو نضارة" التى جمعت بين أسلوبيه السابقين، فقد كانت جريدة ساخرة (كاريكاتيرية) تتضمن صورًا، تسخر صراحة من الحاكم ومن وزرائه، وحققت هذه الجريدة شعبية كاتبها كما أنها قضت عليه.

فعندما جاء رياض باشا للسلطة - قبل سقوط سيده بفترة قصيرة - قدم إشارات لطيفة ساخرة (بطريقة زائدة عن الحد)، حتى لا يقع فريسة سهلة لبديهة صنوع الجريئة.

بسبب ذلك وبسبب مسرحياته، ألقى القبض على صنوع، ولكن نظرًا لتمتعه بالحماية فلم يكن مصيره هو نفس مصير الوطنيين الآخرين الذين أجهضت تجاربهم، لهذا فقد نُفى من مصر، وذهب ليستمر فى حملاته الصحفية بهمة ونشاط جديدين فى باريس.

فى الوقت ذاته ظهر رجال آخرون أكثر جدية، وبلا شك أكثر مصرية، وكان مقدرًا لهم أن يلعبوا دورًا أكبر فى التاريخ أمثال: سلطان، والأباظيون، والشريعى، وفكرى، وواصف البطريرك القبطى الأرثوذكسى، وأخيرًا عرابى الذى صنع لنفسه اسمًا قبل سقوط إسماعيل بفترة طويلة، وكان معروفًا فى الجيش وفى بلده الشرقية بأنه رجل ذو شخصية ووطنى جرىء.

كان هؤلاء جميعًا - رغم السرية - على اتصال وثيق ببعضهم بعضًا خلال الفترة الأخيرة من حكم إسماعيل، وكانوا قد شكلوا من أنفسهم بالفعل حزبًا هو "الحزب الوطنى" قبل أن تتخيل أوروبا وجود حياة وطنية فى مصر.

أعلن الحزب الوطنى نفسه فى النهاية بالطريقة التالية :

كان إسماعيل باشا - منذ عام ١٨٦٦ - مضغوطًا عليه من الباب العالى ليرسل جيشًا إلى Candia لإخماد العصيان اليونانى هناك، ورغبة منه فى الحصول من الباب العالى على تكاليفها، استدعى مجلس الأعيان ليزوده بصلاحية إصدار مرسوم بتصويت قومى حول اقتطاع هذه التكاليف من الجزية السنوية.

جاء الأعيان إلى القاهرة وصوتوا - كما طلب منهم - على هذه النقطة وعلى غيرها، إلى أن بدأت حقبة القروض الكبرى.

فعندما وجدهم إسماعيل غير راغبين فى الاستمرار معه قام بإعادتهم إلى أقاليمهم. وعلى الرغم من أنهم كانوا أجبن من أن يفرضوا الاعتراف بحقوقهم بأية وسيلة أخرى، فإنهم لم ينسوا أنهم تم استدعاؤهم وتمتعوا بالنفوذ لعدد من السنوات. وكان القانون

الرسمى الذى خلق منهم قوة فى الدولة هو الأساس الذى بنى عليه الحزب الوطنى برنامجه فيما بعد.

لم يتم تدوين هذا البرنامج طوال فترة بقاء إسماعيل فى الحكم، ولكنه - حسب علمى - كان مفهوماً بلا شك كملمح رئيسى فى الحركة التى كانت قد تشكلت بالفعل فى ذلك الوقت.

لقد أدت مغالاة إسماعيل الشديدة إلى تفكير كل الوطنيين فى أن جعل الأمة نفسها هى المتحكم فى ماليتها، سيكون هو العلاج الوحيد المشروع لحالة الانهيار.

ولم يزدهم تأسيس اللجنة الأولى للرقابة بإشراف كل من : نوبار، وولسون، و بلينيير إلا تصميماً على ذلك.

إنها لمسألة تحتاج إلى تأمل ونظر لنحدد أنه فى حالة عدم تدخل أوروبا فى مصر دبلوماسيًا، هل كان الحزب الوطنى سينجح فى فرض برنامجه على إسماعيل أم لا؟ إلا إننى أرى أنهم كانوا سينجحون.

فهم على أية حال يشكلون قوة فى الدولة بطريقة كافية لأن تجعلهم معروفين لإسماعيل - إن لم يكن لوزرائه - لمدة عام على الأقل قبل سقوطه، إن هذه الحقيقة (كونهم معروفين) أدت إلى ما سوف أربطه به حالاً.

فى خريف عام ١٨٧٨ كان إسماعيل فى أواخر نوباته المالية، حيث اعتزم إشهار الإفلاس، وكان الوزراء الأوروبيون الذين استدعاهم لإعادة جدولة ديونه قد فشلوا فى توفير قروض أخرى له وأصبحوا يمثلون عبئًا ومصدر إزعاج له، فقرر أن يتخلص منهم، ولينفذ ذلك احتاج إلى عذر جديد وتحالف جديد، ففكر مرة أخرى فى حيلته القديمة : مجلس الأعيان والحزب الوطنى الذى أصبح يمثل قوة فى الدولة، إلى جانب كونه عذراً مبرراً.

وبالتدريج دخل فى مفاوضات سرية - عن طريق بعض الشخصيات المرموقة من حاشيته - مع الزعماء الوطنيين. عرض عليهم شروطًا تشبه ما يلى: سوف يعترف بهم كحزب - الحزب الوطنى - ويضع نفسه على رأسهم. وتُوجه الحركة ضد كل التدخلات

والموظفين الأجانب. هو والشعب يجب أن يسويا الدين باتفاق مشترك، على أساس توحيد الالتزامات عند نسبة ٧٪ . وبمجرد أن يتم تسوية ذلك كان سيستدعى ثانية أعيانهم ويمنحهم الدستور.

أنا لا أصدق أن إسماعيل كان صادقًا فى عرضه الأخير هذا (ولم يكن أبدًا صادقًا)، ولكن شريف باشا (الذى كان قد خط "قانونًا دستوريًا ائتلافيًا" فى المناسبة السابقة) تم ترشيحه كشخص ذى أفكار ليبرالية يمكنه تحقيق المطالب الجديدة للأمة. لقد تُرك للحدس أمر أن التصفية (التسوية) ستكون مقدمة فقط لشىء آخر - شىء لا يختلف كثيرًا عن الامتناع عن سداد الديون. حيث إن إسماعيل لم يكن يشك فى أن رعاياه سوف يقومون طواعية بتحرير أنفسهم جميعًا من الحمل الذى كان قد وضعه ظلمًا على كواهلهم. على الجانب الآخر جعل نفسه على اتصال بزعماء الجيش - الذين كانوا كلهم تقريبًا من الجراكسة - ليدفعوا الضباط الأقل إلى مشروع أبعد. كانت خطته هى أن يجعل وزراءه الأوروبيين يهربون فزعًا، وأراد تغطية نية الانقضاض عليهم بمظهر الفتنة العسكرية.

كانت أسباب عدم الرضا كثيرة جدًا فى الجيش، وكانت الفتنة طبيعية، وجد الضباط أن كثيرًا منهم يحالون إلى التقاعد بدون تعويض، وشعر الباقون بأن مناصبهم متقلقلة.

علاوة على ذلك فإن الأفكار الوطنية تغلغلت بعمق بين المراتب الدنيا، وكان الأجانب هم هدف التحقير المزمع.

إذن فقد تحققت رغبات إسماعيل كلها بنجاح - عدا الموت ، دُفع ويلسون فى شوارع القاهرة، وبلينيير دفعه الخوف أن يحبس نفسه فى منزله ، وحُلَّت الوزارة البغيضة بسبب عدم شعبيتها. لقد كانت ضربة الدولة ناجحة بشدة.

لكن إسماعيل كان يلعب بسكين حاد أكثر مما تصور هو. لقد وصل إلى غرضه مع أوروبا إلى حين، لكن منذ هذا الحين فصاعدًا أصبح الحزب الوطنى حقيقة فى مصر، حقيقة أقوى من تاج العرش، وكان آخر الأعمال الاستبدادية التى شهدتها قبل الثورة هو تنصيب توفيق باشا.

فى صيف عام ١٨٧٩، كان حاملو السندات وغيرهم على علم بخطط إسماعيل وشموا رائحة الإفلاس القادم؛ فقاموا بالضغط على القوى التى تدخلت نيابة عنهم. وتم عزل إسماعيل وخلفه ابنه - مرشح التمويل الأوروبى.

سأصف لكم شخصية هذا الأمير الصغير، هو ابن (أمة) جركسية كانت - حتى قبل مولده - قد فقدت رضا مولاها، قامت أمه بتربيته فى عزلة وتحت تأثيرها الكامل، كره إسماعيل ابنه وتعلم الابن فى مهده فنون المراءاة التى تصاحب الخوف، بقى طويلاً مع الحريم أكثر من الأولاد، ولم يتعلم ممارسة الرجولة سواء عقلياً أو جسدياً. لم يتعلم أبداً شجاعة قول الحقيقة للرجال، وعلى مدى عمله أظهر نفسه كامرأة أكثر من رجل. كانت أمه تؤمن بالخرافات، وربت ابنها تربية دينية - بالطريقة التى يفهم أمثالها الدين - وعندما شب وترك رعايتها كان ذلك ليرتبط بالمشايخ المتعصبين بالمدرسة القديمة بالأزهر - علماء الحنفية - واشتهر بينهم بالتقوى. فيما بعد علمه المدرسون الأوروبيون الإنجليزية والفرنسية، وعلى غرار جميع الأتراك تقريباً الذين يتكلمون هذه اللغات كان لديه كراهية عميقة لأوروبا لم يستطع دائماً أن يخفيها. ومع ذلك فإن توفيق لم يتم تنصيبه على العرش لكى يحكم، فكان رياض هو الوزير الذى تمتع بالنفوذ ومارسه باسمه، أما هو فقد كان شفرة فى الدولة. أمسك رياض بزمام الأمور ثانية، بعد أن كان إسماعيل قد حرمه منها ولجأ إلى مساعدة الحزب الوطنى، ولم يعرف عدواً أكثر منه مرارة. حكم بالبوليس والسجن والنيل الأبيض، وخلال العامين اللذين قضاهما بالوزارة نُفى أكثر من ألف شخص إلى ما وراء الخرطوم، وقوبلت كل إشارة إلى الاستقلال بالقمع الفورى. ومع ذلك فإن الحزب الوطنى لم ينكمش، لقد تعلمت الصحف - التى استمرت على الرغم من رياض - أن قوتها فى الكلام ولكن بحذر.

فى ٩ نوفمبر أصدر أول بياناته المطبوعة وتعامل فيه مع الموقف المالى لمصر، شملت اللجنة التى خطت هذا البيان - إلى جانب مصريين كسلطان باشا، وسامى باشا، وعلى بك يمنى - شملت أتراكاً مثل: إسماعيل باشا يسرى، وعثمان باشا لطفى، وشريف باشا، ساندوا الحركة كوسيلة للنفوذ. لقد كنت أنا نفسى كاتب نسختها الفرنسية التى اختلفت قليلاً عن الأصل العربى، **وفيما يلى أجزاء من فقراتها الرئيسية:**

البيان الوطنى لعام ١٨٧٩

فى لحظة عاصفة من مصيره، لجأ إسماعيل باشا إلى الحزب الوطنى المصرى - الذى عرف بوجوده وخاف منه - جاء هذا اللجوء متأخراً للغاية ، ولم يجبه أحد.

الآن يؤكد الحزب الوطنى وجوده لإنقاذ مصر من الانهيار المالى، إنه يطالب بحق كل شعب فى أن تكون له دولة، وسوف يرشد الناس بعضهم بعضاً ليتعلموا هذا الحق.

إن الحزب الوطنى يأسف للتدخل الدبلوماسى الذى تسبب فى سقوط الحاكم المصرى (الذى يستحق هذا على الرغم من ذلك). فيجب الإذعان لحقيقة أنه لا يمكن قبول حكومة فرضت تحت تأثير أجنبى لتعبر عن إرادة وآمال الأمة، حيث إن هذه الأمة لم تُستشر، إننا نستنكر هذا النظام.

مصر تشعر بذاتها فتية وقوية، وسوف تجدد نفسها بنفسها، تعلن مصر أنها سوف تحرر نفسها من الديون، وأنها قادرة على الوفاء بهذه الديون، ولكنها ستسددها بطريقتها الخاصة، لأنها يجب أن تتدبر أمورها بنفسها.

يعترف الحزب الوطنى بقيمة المساعدات الأجنبية - تحت قيود - لكنه يستنكر التدخل السياسى للأجانب. إن شعار مصر يجب أن يكون "اعملوا بعيداً عن السياسة". يرحب الحزب بكل من يخضعون أنفسهم - مهما كانت أصولهم - لقانون البلاد العام. ينوى الحزب الوطنى الوصول إلى أهدافه بالطرق السلمية ، ولا يلجأ إلى القوة إلا كخيار أخير، إنه بهذا يلجأ إلى أوروبا من أجل العدالة، مؤمنا أن أوروبا تبغى الرخاء لمصر، وبصفة خاصة الأمير بسمارك المدافع عن مبدأ القوميات. هذا الإعلان لا يمكن توقيعه بواسطة قادة الحزب لأن النفى والموت مازالا هما جزاء الوطنية، ولكن عندما يوجد الضمان سيقوم الجميع بالتوقيع عليه.

وكما سبق القول فإن مصر تقبل الديون من نائب الملك، لكنها ترفض رهن مصادر دخلها لدائنين بعينهم، مثل تلك المرهونة لصالح اتفاق جوشن - جوبير ، واتفاق روتشيلد Rothschild .

برنامج الحزب الوطنى كما يلى:

(أ) عودة أراضى الإقطاع (Domain lands) إلى الأمة.

(ب) سحب كل امتيازات الديون الخاصة.

(جـ) توحيد كافة الديون عند نسبة ٤٪.

(د) إنشـاء تنظيم دولى - خـاص ومؤقت - لغرض واحد هو متـابعة سداد الديـون.

هذا الإعـلان الذى وزعت منه ٦ آلاف نسخـة، تسبب فى بعض الاضطـراب، وقام الكتاب المشتبه فيهم بنوع من العزل الذاتى فى حلوان، حيث ظلوا فترة تحت الرقابة الصـارمة.

عاد مستر ريفرز ويلسون إلى القاهرة فى ربيع عام ١٨٨٠، وتم اتفاق التسوية بينه وبين رياض. وعلى الرغم من الإطراء الكبير الذى قوبل به من الكتـاب الأوروبيين، فقد كان فى الحقيقة القشة التى قصمت ظهر الفلاحين، وكان تأثيرها بالتأكيد هو إثارة المشاعر الوطنية التى كانت حتى ذلك الوقت موجهة ضد الأتراك، فأصبحت الآن ضد الأوروبيين. كان شرط التسوية - الذى أظهر أسوأ مخالفة - هو إبطال تسوية المقابلة الذى يُنشئ مخالفة مباشرة للعهد مع الفلاحين، وتوريطهم فى خسارة أكثر من عشرين مليون جنيه إسترلينى.

كان ذلك ظلماً أحس به ورآه أفقر فلاح وأثر على الناس بكل القرى. وبسرعة نُفى حسن موسى العقـاد - وهو فلاح صغير ذو ملكية بالشرقية - إلى النيل الأبيض لاعتراضه على هذا الظلم الفادح. على الرغم من أن مستر ويلسون دعا علانية إلى توجيه النقد لترتيباته بالجريدة الرسمية. كان حسن صديقًا لعرابى وكان هذا الفعل الاستبدادى الذى وصل إليه واقترب من أبوابه - ملائماً لظهور فكرة المناضل البليغ فى مطالبه. وطالب - فى سخط - رفاقه بالجيش بمقاومة الاستبداد الذى كان يهدد حياة كل شخص فى مصر. ولأول مرة تم التحدث عن القوة كعلاج للخطأ.

ولم يمر وقت طويل حتى جاء الوقت الملائم للتحرك، واغتنم الجيش هذه الفرصة، وقام عرابى وأصدقاؤه بالتحرك - بسبب الكراهية المشتركة - بالتعاون مع الخديو الذى كانوا على صلة وثيقة معه - عبر على فهمى رئيس الحرس الملكى الذى تزوج من القصر - وكان موقف الخديو من هذا الموضوع كالآتى :

الغيرة من وزيره المتعجرف رياض، والكره للسيطرة الأوروبية التى ساندته، ففكر فى تقوية نفسه بالميل إلى الجيش. كان على فهمى صديقه - وصديق عرابى أيضًا - قد قضى كثيرًا من وقته بالقصر حيث تقام لعبة الداما التى كان الأمير مغرمًا بها، وأراد كسبه للصالح الوطنى.

كانت مقدرة عرابى على الإقناع عظيمة وكان له فى ذلك الوقت تأثير غير مشكوك فيه، كان بإمكانه - لو استمر - أن يصنع من الخديو ملكًا شعبيًا دستوريًا، لكن للأسف كان أقل من يُقاد إلى نهاية محددة.

وبعد استشارة توفيق، كتب الضباط اعتراضًا سلموه إلى رياض - كما فعل حسن العقاد مع مستر ريفرز ويلسون - ولكن مع توطيد العزم على ألا تُعامل حالتهم بنفس المعاملة. كانت مذكرة الاعتراض تطالب بإعادة تشكيل الجيش ، تعيين ضباط مصريين وليس جراكسة، وعزل الكريه عثمان رفقى.

لم يرد رياض، لكنه خطط لتدميرهم. وكان ضروريًا على الرغم من ذلك، أن يقوم أولاً بتأمين موافقة الخديو الاسمية، وواجه الوزير - وهو رجل عنيف - بعض الصعوبة فى إرهاب السلطة حتى تآمر بالقبض عليه - وليجعل نفسه شريكًا فى جريمة الخيانة - تم إرسال دعوة لصديقيه على فهمى وعرابى وعبد العال زعيم الحرس الأسود لحضور المجلس. كانت القصة غالبًا قد أبلغت، وقبل الذهاب إلى الموعد ترك الزعماء رسالة إلى تابعيهم لمتابعة ما يحدث. واصطف كردون من الجنود من القصر إلى الثكنات، وأعطيت الأوامر بالسير لإنقاذ القادة إذا ما تم احتجازهم لمدة طويلة، ومن المعروف كيف نجح هذا، وكيف أعطى الضباط (مجردون من أسلحتهم) الإشارة، وكيف وصلت قواتهم بسرعة، وكيف هرب عثمان رفقى عبر شباك، وكيف سار القادة والرجال معًا بنصر إلى قصر عابدين حيث حصلوا على العفو وعلى الوعود من حليفهم الخائن.

هذه التظاهرة الأولى - رغم كونها عسكرية بحتة - أعطت إشارة للأمة، فقد نشرت شهرة عرابى - التى كانت حتى ذلك الوقت محصورة فى الجيش وفى بلدته بالشرقية - فى جميع أرجاء مصر، وأشير إليه على أنه الرجل المنوط به - ذو إرادة وشجاعة - إصلاح الأوضاع. ومنذ ذلك اليوم انهالت عليه الالتماسات من جميع نواحى الريف، وهى علامة مؤكدة للنفوذ. ومن مجرد قائد للجنود أصبح يحمل لقب زعيم الأمة. لقد كان ظهور هذا الرجل فى الواقع وليد الساعة، لقد كانت ثورة الجيش فى فبراير ١٨٨١ أول أحداث الثورة، وكان ثانيها ذا طابع قومى أكثر، فقد نضجت خلال الربيع والصيف التاليين وآتت ثمارها فى سبتمبر، لم يكن الجيش وحده بل انضم كذلك الزعماء المدنيون للحزب - ومرة أخرى - الخديو.

لم يعد هدفها فقط عزل وزير الحربية وإعادة تشكيل خدمات الجيش البسيطة، بل الإطاحة بوزارة رياض وبالنظام الاستبدادى الذى كان يمثله.

كان المحرك الأول فى هذه المسألة هما سلطان باشا وأباظة باشا - كلاهما مصرى - وكانا على التوالى أكبر مالكى الأرض فى الوجه القبلى والوجه البحرى. لقد قاما سراً بإرسال رسائل إلى مشايخ القرى المختلفة الذين كانوا على صلة بهم، وبالأعيان فى المدن، يخبرونهم فيها بأن الوقت قد حان لوجود البرلمان والحكومة الدستورية التى طال حلمهم بها.

وعد توفيق بالدستور علنا فى أول أيام حكمه، وكرر هذا مقسمًا بالقرآن فى خاصته. وكانت العقبة الرئيسية فى طريق تحقيق آماله هى رياض.

وكان يحبذ لهما أن يقدما التماسًا لتنفيذ وعود الخديو، لحكومة نيابية، والمسئولية الوزارية والاستدعاء الفورى للأعيان بغرض صياغة قانون دستورى.

شريف - بوصفه الرئيس الاسمى للحزب وكاتب الخطة السابقة للدستور - كان من المفترض أن يوضع فى المقدمة كخليفة لرياض الذى كان سيُطلب سقوطه. وانتُزع منه وعد بأنه عند وصوله للسلطة سوف ينفذ برنامج الحزب. وفى النهاية اختير عرابى والضباط كممثلين للإرادة الشعبية. كان من المفترض أن تسير الفيالق الثلاثة إلى القصر وأن يقدموا عريضة المطالب، وتم الحصول على موافقة الخديو على خلع وزيره.

أعد كل شىء بسرية تامة وتنظيم تام، وأصدرت الأوامر الصارمة إلى القوات قبل مغدرة ثكناتها بعدم إطلاق النار تحت أى ظرف. تم إرسال الرسل إلى القنصلية لتفادى المباغتة، وأصدرت التعليمات إلى الخديو ليلعب دوره فى عزل وزيره بدون إثارة الشكوك وأن هذه كانت رغبته هو .

فى الواقع كان الجميع فى هذه اللحظة متعاونين: الخديو، والجيش، والشعب. وفى اليوم التالى لمظاهرة عابدين تلقت مصر بفرح خبر أن عهد الحكم المطلق والجهل قد انتهى، وأن الأمة ستحصل على حقوقها، وأنها منذ ذلك الحين ستمسك بزمام الأمور كباقى دول العالم المُحررة.

يا للحسرة، لم يكن من الممكن التنبؤ بالقوى التى جلبها العالم لتدهس كل هذا، ولا بالخيانة والدموع والدم الذى ألقيت فيه هذه الحقوق.

چون نينيه

وثائق وملاحظات

١ - نشأة شركة جرينفيلد

ملخص الوقائع التى كشفها نينيه فى كتابه السيد نوبار فى الصفحات ٢٣ - ٢٩

منذ عام ١٨٦٣ ، قدم المهندس الفرنسى دولالى مقايسة تقدر بخمسة وعشرين مليون فرنك لمشروع يهدف إلى تحسين وتوسيع ميناء الإسكندرية. وأسرعت جماعة يمولها ديرفيو بتقديم مقايسة بثلاثين مليون فرنك. وفى عام ١٨٦٧ - ١٨٦٨ ، طالب السيد جرينفيلد صهر وارد كينار - مهندس مشهور بلندن - الخديو بتقديم تنازل من أجل إتمام الأعمال بميناء الإسكندرية. وللتعديل بقرار الخديو، دفعت الرابطة التجارية الإنجليزية إلى فرانسوا برافى، أحد مقربى الخديو، مليون فرنك، وذلك لموافقة القنصل البريطانى الجنرال ستناتون. وكانت هذه الرابطة تضم المهندسين أبيرنيثى وماكلين ومدير شركة ايسترن تلجراف وعضو البرلمان السير جورج إليوت.. إلخ.

لكن نوبار باشا، الغيور، قام بطرد برافى وباع تدخله من أجل تفادى احتمال معارضة الباب العالى ولتهدئة المنافسين "لم نكن لنجد شيئًا نقوله إذا لم تكن الخزانة المصرية قد أصبحت فى نهاية المطاف ضحية هذه الأعمال: قبضت الرابطة مقابل منشآتها وماكيناتها.. إلخ حوالى ٢٥٠٠٠ دولار شهريًا منذ الخامس عشر من مايو ١٨٧١، تاريخ وضع أول تكتل حتى ١٨٧٣ أى ٤٥٠٠٠٠ دولار، أكثر قليلاً من ١١ مليون فرنك فى ١٨ شهرًا! وهو مبلغ سيرتفع فى مايو ١٨٧٨ إلى ٦٥٣٥٠٠٠٠ فرنك من أجل الأعمال التى لم تستكمل بعد".

١٨٨٠ صفحات ٧٤ ، و ٧٥ ، و ٢٣٥ ، و ٢٣٦ ، و ٢٦١ .

٢ - المقابلة

المقابلة (أو التعويض) التى وضعها قانون ٣ أغسطس ١٨٧١ تعنى استرداد الضريبة العقارية وفقًا للمادة الثالثة، فإن كل دافع للضريبة يسدد إلى الخزانة مبلغ يساوى ٦ سنوات من ضرائبه العقارية سيتم تخفيضه دومًا من نصف ضرائبه، ويصبح وفقًا للمادة السادسة مالكًا بلا جدال للأرض. وقد لجأ الخديو إسماعيل الذى منعه السلطان من الحصول على أى قرض جديد من الخارج إلى هذا الأسلوب بحجة القضاء على خطر الديون الخارجية. ولكن ناتج هذه العملية لم يسمح إلا بسداد فائدة الدين المتداول.

أنهى مرسوم السابع من مايو ١٨٧٦ الاكتتاب. أما مرسوم الثامن عشر من نوفمبر ١٨٧٦ فقد أعلن عن مراوغات الحكومة تجاه الملاك الذين دفعوا: لن يتم تطبيق التخفيضات السنوية الناتجة عن قانون المقابلة وفقًا للمادة الثانية إلا منذ عام ١٨٨٦ . وقد ألغى قانون سداد الدين "يوليو ١٨٨٠" المقابلة، من الآن فصاعداً أصبح جميع الملاك مضطرين إلى سداد كل الضريبة. ستقل تعويضات هؤلاء الذين سددوا ديونهم إلى مبلغ ثانوى يقدر بـ ١٥٠٠٠٠ جنيه مصرى خلال خمسين عاماً.

وقد أثر استياء ملاك الأراضى من استبداد المقابلة فى الحركة الوطنية. واستغل الخديو إسماعيل هذا الاستياء مع الاعتماد على غرفة النواب. وشجع الأعيان المثقلين بالضرائب عرابى على قلب وزارة رياض باشا (١٨٨١) والمطالبة بتطبيق الدستور.

مرجع: مذكرات عرابى باشا ومحاميه (١٨٨٢). وكتاب فان بيملان.

٣ - مراب قبطى

قام عبد الشهيد أفندى بمعارضة حل غرفة النواب. وقد نقل قنصل عام فرنسا بالقاهرة هذه المعارضة فى الأول من أبريل ١٨٧٩ .

تم استدعاء غرفة الأعيان فى شهر ديسمبر الماضى كى يتم الاتفاق على مختلف الإجراءات التى تهم الدولة. منذ اجتماعها من ثلاثة أشهر لم يكن للوزارة أية علاقة بها.

وأخيراً قامت الوزارة بإغلاقها عن طريق مرسوم ينص على إغلاق الجلسة. كان هذا المرسوم يعتمد على انتهاء ولاية الأعيان المحددة بثلاث سنوات. ولما كانت وزارة الداخلية قد تم تكليفها بنقل هذا المرسوم إلى غرفة النواب وبشكرها على خدماتها، أساء النواب معاملة رياض باشا. أحد النواب أبلغه برفض الغرفة للشكر الموجه لها لأنه بلا جدوى. وتم عرض شئون الدولة وخاصة المالية على الغرفة. وعلى الرغم من مرور ثلاثة أشهر منذ ذلك الحين فإن الغرفة كانت تنتظر اتصالات الحكومة. ولم تقم الغرفة إذاً باستيفاء الغرض الذى اجتمعت من أجله. فاستمرت فى الانعقاد سواء بموافقة أو برفض الوزارة. وبما أن الغرفة قد نفذت تلك الكلمات، فقد انسحب رياض باشا وصرح بأنه سيلجأ إلى نائب الملك وإلى مجلس الوزراء. (مراسلة القناصل السياسيين، مصر).

٤ - السياسة الإنجليزية فى مصر والدول الخاضعة للاحتلال

مكتب الأجانب ١٦ أكتوبر ١٨٧٩

سيدى :

ستكون قريبًا متجهًا لمصر لتحمل رسالة جلالة الملكة والقنصل العام فى هذا البلد. فكان من الضرورى تعريف سيادتكم ببعض الملحوظات التى يجب أن تضعها فى اعتبارك.

فهدفنا الأساسى لسياستنا فى مصر هو إصلاح طبيعة هذا البلد وهذا ما نقوله وأنه لا توجد قوة أعظم ولا أقوى من السلطة الإنجليزية.

هذا الهدف سيأمن بالتأكيد بالوجود الإنجليزى وتطبيق سلطة الملكة فى هذا البلد. فالظروف فى بعض الأحيان تصور كيفية تحقيق هذا الهدف ولكنها ليست هى الطريقة الأفضل. وفى هذا الوقت الحالى لا يوجد شىء أهم من إتاحة الفرص للعاملين الإنجليز وزيادة رأس المال الإنجليزى وأنها أكثر المسئوليات اهتمامًا وكذلك الجيش ومسألة التمويل. ولكى نحقق سياسة دولتنا وتأمين مصالحنا لابد من تأمين طبيعة مصر تجاهنا.

هذا الهدف واضح تمامًا وأنه لا توجد أية غيرة فى هذا الهدف وتطبيقه فى حد ذاته، ولكن على العكس تواجهنا المشاكل ولكنها مشاكل سهلة يمكن حلها.

إن هذا الموضوع لا يؤدى إلى انهيار ثم إلى ثورة. فمصر ينظر إليها العالم ويجعلها مطمعًا للآخرين ويجعل أوروبا تتدخل فى هذه الحالة مما يؤدى إلى الاحتلال، وإن إنجلترا لن تكون راضية تمامًا إذا تدخلت سلطة أخرى، فالعلاقة الحالية بين مصر والقناة قيمة فى حد ذاتها. وفى حالة حدوث نزاع على تغير من الحاكم وخرق الاتفاق السياسى سيجعلنا نتولى زمام الأمور بدون تدخل حكومى. لا توجد لنا أطماع فى الوقت الحالى لتغيير أى منصب فى المؤسسات المصرية ولكن الشىء الوحيد الذى لابد من أن يتغير هو جعل هذه المؤسسات تعمل بشكل مقبول بأمانة مع اقتصاد جيد ومراع لحقوق الإنسان.

إن التمثيل الإنجليزى فى مصر يفعل كل ما فى وسعه وسلطته لكى يؤمن حكم مصر جيداً، وهذا فى الوقت الحاضر هدف أساسى لا نسمح لأحد بالتدخل فيه. فمصر دولة مستقلة ولا يسمح لغير أهلها بحكمها وإذا لم يحكموها فلا نجد أحداً يحكمها بدون تدخل من الجيش الإنجليزى. فالمعروف دائمًا أن المسلمين لا يطيعون أية حكومة وخاصة الحكومات الأوروبية أو حتى قبول بعض من العناصر الأوروبية، فردعهم لا يأتى إلا بالقوة، مما يجعل الوجود الأوروبى موجوداً بدون الاحتلال عن طريق الجيش.

ولكى نجعل هدفنا هذا يتحقق لابد من أن نهتم بمصالحنا وتعيين أكبر عدد من الأوروبيين ليدافعوا عن أهدافنا مع الحفاظ عليهم بدون إظهارهم على قدر المستطاع مما لا يجعلنا نظهر بمن يجىء لتدمير سلطة البلد وأهله. لكى لا نثير الأحقاد والضغائن تجاه الأوروبيين.

ومن أهم واجبات القناصل لدى الحكومة المصرية وخاصة ممثلى جلالة الملكة الذين يتمتعون بسلطة قوية وكبيرة منها، فواجبهم الأساسى والمهم هو حماية ورعاية حقوق الجالية الإنجليزية فى هذا البلد بدون نسيان المهتمين بالاستثمار مع الإنجليز، فهناك جالية إنجليزية كبيرة تهتم باستثمار أموالها فى مصر ولابد من أن نحافظ عليها ونحميها؛ سواء من خلال التعامل مع المصريين والحفاظ على جعلهم يسددون مستحقات الإنجليز، أو الحفاظ أيضًا على تسديد المستحقات المودعة مع الجنسيات الأخرى وذلك بالدعم الدبلوماسى لهذه الجنسيات فى حالة حدوث أى نزاع قانونى. هذا هدف ثان يجب أن نحافظ عليه بدون نسيان هدفنا السياسى الأول الذى يجعل الهدف الثانى يتحقق ويؤمن.

ومن الأشياء المهمة فى مصر التى تطرح دائمًا وتناقش هى كيفية تسديد الديون المصرية التى ظهرت أخيراً فى الأفق. الوكالة الإنجليزية مسئولة عن التدخل فى حال تعرض أى إنجليزى لشىء غير عادل مما يجعله غير مرغوب وجوده فى مصر مما لا يؤثر على المصالح الإنجليزية. والوكالة الإنجليزية سوف تأخذ أيضًا بنصائحه لتحقيق أهدافها لحماية المستثمرين.

فعلى الوكالة دائمًا الحفاظ على العلاقة بين المستثمرين وأقرانهم من المصريين الذين يتعاملون معهم والعمل على تقسيم الأرباح والحفاظ على الأسهم والعمل على دفع الرسوم للحكومة. ومن مصلحة المستثمرين إظهار خسارتهم وهذا واضح من خلال سلوك حكومات النمسا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا ودعمهم وحمايتهم الدائمة مع مستثمريها ليقفوا بجانبهم وليس بجانب حكومتهم.

فعلى حكومة جلالة الملكة عدم اتباع مثل هذه السياسات، لأن لإنجلترا الأولوية فى الحكم فى مصر وعدم الرضوخ دائمًا لآراء المستثمرين، فممثل جلالة الملكة لابد من أن يبعد نفسه تمامًا عن زملائه الآخرين إذا سلكوا السياسة التى أوضحناها سابقًا. ولابد من أن تظهر دائمًا أنك مع مصلحة الخديو لتحقيق أهدافه وتحقيق العدالة والعمل دائمًا على مصلحة العمالة الموجودة فى هذا البلد.

كل ما ذكرت لك بالترتيب يخدم مصالح إنجلترا دون غيرها ويعزز من مكانة وسلطة وكالة جلالتها والحفاظ دائمًا على استمراريتها ووجودها. فى حالة حدوث أى فشل فى أهدافنا فالخديو الحالى يعطينا الأمل ولكنه محاط بحاشيته ورجال فى وزارته التى اختارها يمكنها تعطيل المستقبل الذى نسعى إليه. ويجعل جميع الدول المحمدية أى التى تتبع دين محمد تعرف ما نسعى إليه تجاه مصر ويجعلهم يتدخلون فى سلطته، وأن هذه الفكرة تكاد تكون بعيدة ولكن تجميدها من قبلنا شىء غير جيد حيث إن هذه الفكرة تدور دائمًا فى عقول هذه الدول. وإذا حدث هذا الشىء فلابد من أن يجدوا إنجلترا قوية لها سلطان لا يوجد لأحد.

وإذا ظهرت أية حركة تعمل على تدمير الأهداف الأوروبية أو تهدد الجاليات الأوروبية فنحن وضعنا بعض الحالات والأهداف لمنع الحد من انهيار مصر مما يعرض

الأهداف الإنجليزية، فالوكالة الإنجليزية لابد من أن تهتم بهذه الأشياء والعمل على عدم حدوث شيء من هذا القبيل واحترام الحكومة الإنجليزية. فمعظم الدول الشرقية التى تحكمها إمبراطوريات يوجد بها دائمًا متنافسون على الحصول على السلطة والوقوف دائمًا فى صف سلطة واحدة هى بالطبع الأقوى أمام الأخرى، فالصداقة مع نبل هذه الشخصيات غير مرغوب فيها ولكن لابد من الاستفادة من مثل هذه الشخصيات التى تكون لها دائمًا سلطات داخل هذه القصور. الممثلون الأجانب يدخلون دائمًا فى سباقات لتحقيق أهداف سياسية دبلوماسية صغيرة يظنونها انتصاراً لهم. أما بالنسبة لنا ومصالحنا فى مصر فهى أن تستمر الحكومة المصرية وتعمل جيداً فى مصلحة أهدافنا أهم من وجود رجل داخل القصر يكون تابعًا لإنجلترا ويعزز من مركزنا فى القصر كما تفعل بعض الوكالات الأجنبية الأخرى فى مصر.

ومن المهم جداً أن نضع فى الأذهان أن الإمبراطورية العثمانية وشيكة على الانهيار، وأن مصر أصبحت منفصلة عنها، وأن الجزء المهم جداً من أرض مصر هو منطقة ساحل البحر بما فيها من سكك حديدية وشبكات اتصال تؤدى إلى هذه السواحل. وفى حالة تقسيم مصر بين سلطات مختلفة لابد من أن يكون الساحل وجميع الطرق المؤدية له تحت سلطة إنجلترا؛ حتى لا يعرض هذا إلى ضياع المصالح الإنجليزية وتخريبها. وإلا لن يكون هناك هدف يسعد إنجلترا بالبقاء فى مصر.

ومن الضرورى جداً بدون الإتاحة لأحد من الدول الأوروبية الأخرى تولى السلطة على الموانى والضرائب والفنارات ووسائل الاتصال بين الأرض والماء من البحر إلى البحر إلا تحت الأيدى الإنجليزية، وهذا بالطبع قد يثير بعض الغيرة من السلطات الأخرى. ولكن هذا الهدف يعزز سلطة ونفوذ إنجلترا ولابد من العمل دائمًا على الحفاظ عليه الآن أو فى المستقبل ووضعه دائمًا أمام أعيننا، وتحقيقه يمكن أن يكون سريعًا أو بطيئًا وهذا يعتمد على الظروف الحالية.

مع خالص تقديرى واحترامى لك يا سيدى

خادمك الدائم المطيع

سالسبيرى

٥ - جريدة ناطقة بلسان حال وزارة رياض باشا

"مصر" بواسطة لافون وفوكلان

الإسكندرية فى ٢٢ سبتمبر ١٨٨٠

حقًا توجد صحيفة "لومينيتور إيجيبسيان" جريدة رسمية تصدر باللغة الفرنسية تستقى المعلومات المباشرة الصادرة عن الوزارة المكلفة بنشر القرارات ووثائق أخرى من المصلحة، ولكن هذه الصحيفة الاستثنائية تكتفى بأن تقتطع من الصحف الأوروبية أخباراً منوعة ومقالات زراعية أو تاريخية متخلفة من أجل رأب الفرا غ بين الإعلانات الحكومية وقوائم المسافرين متجنبة أن تمس فى أعمدتها أية مناقشة مهما كانت عن مواد سياسية أو إدارية.

من بين المطبوعات الدورية المحررة باللغة الفرنسية والتى تتعرض لمناقشة حادة ومتضاربة لأعمال الحكومة نذكر صحيفة "الجازيت دى تريبينو" و "الكروبى إيجيبسيان". أول هذه المطبوعات تطبع فى الإسكندرية ويعمل بها محرران فرنسيان "ف. كوستو" و "ج.لافون" والثانية مطبوعة فى القاهرة ويحررها السيد فوكلان رئيس تحرير سابق فى "بيتى ليونيه" و "البروجرى دى ليون" ومعروف جيداً فى هذه المدينة ليون.

بعد الحركة التقدمية والمجددة التى قام بها رياض باشا رئيس المجلس المصرى لن ينسى أن يسأل الصحافة المؤازرة التى يقدرها كل تقدير، ذلك ما فعله محاولاً أن يحيط نفسه بضمانات ونجاح يسمحان له، على ما أعتقد، بالحصول على النتيجة التى يرنو إليها، بمعنى أنه يريد أن يجمع بين يديه بقوة ومهارة اتجاه الرأى العام فى مصر.

ووفقًا إلى المشاورات وكذلك إلى ما هو مؤكد، بمساعدة أول مبلغ من المال يدفع وهو ٢٠٠٠ جنيه إسترلينى مقدم من رياض باشا، السيد لافون اشترى جريدة الجازيت وجريدة لو كوريه بما فيها من مواد طباعة، وأصدرت صحيفة جديدة هى

"مصر" التى ستكون الناطقة الرسمية وتعترف بها الحكومة أو بالأحرى وزارة رياض باشا.

وكانت المبالغ التى ساعدت على إصدار الصحيفة الجديدة قد تم الحصول عليها عن طريق اكتتاب أسهم طرحها السيد لافون وتكون رأس مال قدره ١٠٠٠٠ جنيه إسترلينى تمت تغطيتها فى الحال، والأسهم تخطفها الباشوات وكبار موظفى الحكومة. فوائد هذه الأسهم قابلة للاستهلاك فى مدة معينة من الزمن (من ١٠ : ٢٠ سنة) بضمان من البنك العثمانى الذى يملك الإعلانات القانونية للصحيفة الجديدة. وهما الدعامة المالية من السلطة المحلية.

ومع ذلك فإن الجازيت والكوريه سوف يستمران فى الظهور. سوف تصبح الجازيت صحيفة مذهبية وصحيفة الكوريه صحيفة المناقشة والمعركة. أما صحيفة مصر فمكلفة بالدفاع عن أعمال الحكومة أمام محمة الرأى العام وسوف تشمل مجال السياسة الداخلية والخارجية بتوسع. وسيكون حجمها كحجم صحيفة المرافعات أو المناقشات.

أخلاقية لافون المدير الجديد لم تكن كاملة. فقد تركت أمور كثيرة حسب الرغبة ولا يمكن أن ينكر عليه ذكاء حقيقى للموقف وموهبة واضحة فى التحريك. أعتقد أنه نشر فى جريدة الإيكولوميست العديد من المقالات تتعلق بمالية مصر التى كانت محل نظر.

وقع السيد فوكلان اتفاقًا مع الصحيفة الجديدة لمدة ثلاث سنوات بمرتب شهرى ١٠٠٠ فرنك ومكافأة سنة عند نهاية العقد. أعيان تجاريون ومصارف بنكية معروفة سوف يساهمون فى تحرير النشرات المالية والزراعية.

تلك هى، سيدى الوزير، الأخبار التى استطعت أن أحصل عليها.

٦ - باريس تستدعى البارون دى رانج

- ١ -

رسالة من الخديو توفيق إلى جيل جريفى نسخة أرسلها ماليت من وزارة الخارجية.

القاهرة فى ١٤ فبراير ١٨٨١

سيدى الرئيس

إن عودة البارون دى رانج إلى القاهرة أتاحت لى الفرصة لملاحظة أن علاقته مع حكومته شابها بعض التغير فى الموقف الذى وضح باختلاق بعض الصعوبات التى لا مجال لها، وباختصار لم أولها أى اهتمام.

ولكن هناك أحداثًا مهمة جدت ورأيت من الضرورى أن أتخاطب مع سعادتكم اليوم.

تعلمون سيدى الرئيس أنه فى الأول من فبراير كان لزامًا على أن أقوم بإصدار عفو حفاظًا على النظام العام وبعده استتب النظام والهدوء.

وبعد خمسة أيام، راجت شائعات جديدة تعلن عن تغيير وزارى. من يخطر على باله، كذبت هذه الشائعات التى تسببت فى بث القلق العام، خاصةً فى القاهرة والإسكندرية. ولكنى تأثرت جدًا عندما علمت بعد ذلك أنه فى اليوم السابق، استقبل البارون دى رانج الذى وقع فى الأول من شهر فبراير واستمع إلى هدفهم السياسى.

ولست أدرى، سيدى الرئيس، ما إذا كان وكيل مؤتمن من جانبى، يستطيع بصفة عادية أن يستقبل زائرين من طرف ضباط متمردين، ويتبادل الحديث معهم عن أمور داخلية تمامًا. على كل حال، أعتقد أن من واجبه، أن يشركنى، بدون إضاعة للوقت فى أمر كهذا، خاصة وأنه فى مثل هذه الحالة الحاضرة المتفاقمة بسبب الانتقادات المكدرة والتى تبعث الاضطراب والقلق فى نفوس المواطنين. ولم يتخذ البارون "دى رانج" أى إجراء فى هذا الصدد. بل على العكس، استقبل منذ ثلاثة أيام، زيارة جديدة للضباط أنفسهم،

وربما شجعهم على ذلك استقباله لهم فى زيارتهم الأولى، وبالشائعات التى انتشرت عن أن المعتمد الفرنسى كان مؤيداً لأهدافهم.

جاء السيد "دى رانج"، هذا حقًا، وأبلغنى بهذه الزيارة الثانية، ولكن كان ذلك بعد الحدث بأربع وعشرين ساعة، ورفض أن يطلعنى على أسماء الضباط، قائلاً إنه تعهد بعدم الإعلان عنها.

وقد عبرت له عن أسفى لرؤية وسماع أن الحفاوة والاستقبال الطيب الذى أولاه للضباط عند زيارتهم الأولى كان من نتيجتها، ليس فقط استمرارهم فى طريق الانحراف الذى سلكوه، بل أيضًا شجعهم على أن يقوموا بزيارته زيارة أخرى، وأن ينشر فى فكر الشعب أن المندوب الفرنسى مؤيد لمشروعاتهم.

وبدلاً من أن يتوقف، السيد "دى رانج" ذهب بسلوكه المنفرد إلى أبعد من ذلك. وفى ذروة التمرد العام الذى تمخضت عنه هذه الأحداث توجه إلى أحد الأمراء من العائلة: عثمان باشا ابن عمى، الابن البكرى للمرحوم مصطفى فاضل باشا، وسأله عما إذا، فى حالة التغيير الوزارى، يقبل منصب وزير بدون وزارة. مع أنه كان يعرف أننى ووزارتى على اتفاق تام وأنها تتمتع بثقتى كاملة.

الأمير عثمان جاءنى فى الحال وأخبرنى بهذا التصرف الغريب الذى صدر عن مندوب فرنسا.

ومن الصعب علىَّ، سيدى الرئيس، أن أصف تصرف البارون دى رانج بأنه تصرف ليس له تفسير بالنسبة لى، لا سيما أن فرنسا تتوقف عن أن تقوم به معى ومع حكومتى على قدم المساواة، وتبرهن فى جميع الظروف على مؤازرتها الشهمة فى إجراء التجديد الذى التزمت بالاطلاع به مع وزرائى.

أضع أمامكم الأحداث بكامل بساطتها البليغة ولحكمة عظمتكم، وأرجو أن تتقبل أسمى تقديرى واحترامى.

توقيع

محمد توفيق

- ٢ -

بارتيلمي سان - هلير، وزير الخارجية إلى البارون دى رانج مندوب وقنصل عام فرنسا فى القاهرة.

باريس فى ٢٢ فبراير ١٨٨١

الحالة فى مصر تسيطر بشدة على اهتمام الحكومة التى تريد أن تحصل على إيضاح حاسم فى هذا الصدد. أرجو أن تتخذ ترتيباتك للتوجه إلى فرنسا فى أقرب وقت، وأن تأخذ أقرب عبارة حتى توضح لى ما خفى علىَّ، حتى يتسنى لى تقييم الأحداث الأخيرة بالقاهرة ومعرفة السبب برمته.

- ٣ -

الوكالة المصرية - مراسلات سياسية بالقناصل - مصر ١٨٨١، الإسكندرية، بورسعيد، السويس.

الإسكندرية فى ٧ مارس ١٨٨١

الثامن والعشرون من شهر فبراير بالاتفاق مع نواب الأمة عقد المواطنون الفرنسيون اجتماعًا فيما بينهم، فى مكان خاص جدًا بهم؛ ليقرروا إرسال عريضتين إلى السيد رئيس الجمهورية وإلى المجالس.

مرفقًا بهذه الرسالة هاتين الوثيقتين: التوقيعات كان لابد من الاعتراف بها وأجزتها حسب طلب أحد أعضاء اللجنة المحركة لهذا الاجتماع.. الغضب العسكرى فى القاهرة ليس قضية بسيطة بدون نتيجة تعرضها الصحف دفاعًا عن الحكومة المصرية لآراء أوروبا وكذلك رأى القسطنطينية. إنها حركة وطنية حقيقية يجب أن نواجه جميع نتائجها.

باريس فى ٢٢ مارس ١٨٨٢

... وإذا دأب مواطنون على الاستمرار فى الطريق حيث دخل فى تشكيل اللجنة الموقعة على الرسالة الموجهة إلى رئيس الجمهورية، فسوف يصلون إلى نوع من السلطة غير المنتظمة فى دائرة اختصاصهم، وقد يتسبب تصرفها فى إثارة بعض الاضطرابات.

من جهة أخرى لا يمكن التسليم أساسًا بأن مجموعة من الوطنيين المقيمين فى بلد أجنبى يناقشون مع حكومة جمهورية الإجراءات التى يكون موضوعها مندوبيها الدبلوماسيين والقنصليين. وتتظاهرون بأنكم شخصيًا على علم بذلك. إذًا، بوسعى أن أطمئن إلى أنه إذا اتجهت مستعمرة الإسكندرية الفرنسية إلى بعيد فى مظاهراتها المعرضة للخطر، فسوف يمكنكم أن تتفهموا خطأها.

- ٤ -

بيد أن رياض كان قد تلقى صدمة كبيرة عند نشر أول قرار للحزب الوطنى المصرى مطبوع منه ٢٠٠٠٠ نسخة (٤ نوفمبر ١٨٧٩) وكلها منسوبة إلى القنصل العام والمندوب الفرنسى البارون دى رانج.

٧ - نينيه والأمير حليم

- ١ -

"بأمانة، لم يتغير شعورى بالتعاطف، فهو اليوم كما كان بالأمس من أجل مصر للمصريين، مع نائب ملك شرعى ودستورى. ذلك ما كان يرغبه آخر أبناء محمد على شخصيا، وفى هذه الظروف الحزب الوطنى برمته قد قبل صاحب السمو حليم.

أغلبية ساحقة من بين أفراد الشعب النيلى تطالب بعودة حليم باشا الحاكم الشرعى للدستور الذى أعده الحزب الوطنى - شرط لازم يقبله الأمير".

- ٢ -

"فى الأسبوع الأول اقترح الثنائى الفرنسى استبدال توفيق باشا بحليم باشا ولكن منذ ذلك الوقت لم يناقش الموضوع.

حالياً لا يريد السلطان أن يرى توفيق باشا يستبدل بحليم باشا بل يعتمد على أنه فى الوقت المناسب سوف يحدث التغيير المرغوب".

- ٣ -

"ما يتعلق بالأمير حليم (شقيق الخديو السابق إسماعيل) من المؤكد أنه كان، ذات مرة، على وشك أن يعتلى عرش مصر بدلاً من إسماعيل باشا. السيد فورنيه مندوب فرنسا فى القسطنطينية واليوم سيناتور، قد استقبل منذ أربع سنوات الأمير حليم وقال له: أتعشم أن أستطيع قريباً أن أحيى فى سموك خديو مصر. وبعد مرور ساعتين تكرر هذا الحديث فى سفارة إنجلترا التى أذاعته فى لندن.

من اليوم التالى أطلقت الصحافة الإنجليزية مدائح حليم باشا وأشادت به وأعلنت أنه من الممكن أن يكون المرشح الوحيد للعرش. هذا الحماس المفاجئ بدا مشبوهاً فى مجلس الوزراء الفرنسى وكان يقال فى باريس إن أحد الأمراء محل إطراء من إنجلترا، قد لا يكون هو المرشح الفرنسى. واعتباراً من هذه اللحظة اتخذت الحكومة الفرنسية موقفاً عدائياً تجاه الأمير حليم، وهو المستمر حتى اليوم.

هذه الحكاية الصحيحة يمكن أن تعنون: عرش مفقود من أجل إفشاء سر. ولكنها لم تصحح من الدبلوماسيين الذين يميلون إلى الثرثرة بطبيعتهم".

برن فى ١٢ يناير ١٨٨٥

سيدى المحرر

أرجو السماح لى بتصحيح فقرة من رسالة مراسلكم بالقسطنطينية مؤرخة فى ٣ يناير.

لأهمية الأولى، الأمير حليم آخر أبناء محمد على لم يكن شقيق الخديو السابق إسماعيل بل هو عمه، وبناء على ذلك يكون الوريث المنتظر للحاكم المصرى.

حقوق هذا الشخص لا تقبل الاعتراض بعيداً عن الفرمان المتعثر الذى صدر مقابل مبلغ كبير من المال والذى اقتضب مؤقتًا نظام الوراثة فى الحكم الذى أقامه شريف من أول شهر يونيو ١٨٤١ . من المسلم به فى مصر قاطبةً أن إبراهيم باشا والد إسماعيل لم يكن ابن محمد على وذلك يلغى ادعاءات هذا الأمير.

وفى المرتبة الثانية، حكاية حقيقية نخطئ فى تفاصيلها الجوهرية.

إن أول من نقل الحديث الذى أعلنه السيد فورنيه هو أنا، فقد بعثت به فى إحدى رسائلى إلى صحيفة لوسييكل، قبل أن يعرفه أحد. والتملق المقصود لم يصل أبداً بالثرثرة إلى المفوضية الإنجليزية لأن سفير الملكة له علاقات حميمة ويومية مع حليم باشا. ولا جدوى من إضافة أن السيد فورنيه كان موجوداً فى جميع الاجتماعات.

فى هذا الوقت، لم يكن الأمير حليم مرشحًا من قبل أية قوة أوروبية، وليس من حق أية قوة من هذه القوى أن تتدخل فى المسألة. وكان قبل أى شىء مرشح المسلمين والسلطان، بمعنى أن القانون المدنى والدينى هما المرشحان له.

لم تتناول الصحافة الإنجليزية فى أى وقت ما يخص الأمير حليم؛ نكاية فى الرأى العام الفرنسى ، أو لأى سبب آخر. أما بالنسبة للصحافة الباريسية فأعرف صحيفة كبيرة من بين صحف أخرى تناولت الحديث وفقًا لأحد أصدقاء حليم المقربين جداً: أعطنى ٥٠٠٠٠٠ فرنك نقداً، وقبل نهاية السنة سوف يعتلى عرش أبيه آخر أبناء محمد على.

وسوف نرى فى "عرابى باشا" ما حدث عند عزل الخديو المسرف بين السلطان عبد العزيز وبين سفراء إنجلترا وفرنسا.

أصبح السيد "وادينجتون" من أجل أن يجامل اللورد بيكونسفيلد معارضاً لتعيين الأمير حليم، أصر على انتخاب توفيق بالرغم من عدم جدارة هذا الشاب. فرضته فرنسا على الإرادة الإمبريالية بالرغم من التعاطف العام ورأى الجهاز الدبلوماسى الموالى.

فرمان التنصيب الذى أصبح بين يدى حليم تم سحبه وتمزيقه. "مهما يكن قال السيد فورنيه ذلك إلى الوريث الشرعى للعرش: إذا لم أهنئك هنا اليوم بمناسبة تعيينك فيشرفنى أن أهنئك فيما بعد فى القاهرة فى قصر والدك الشهير الذى أنت وريثه الوحيد".

چون نينيه

- ٤ -

"إنه من الخطأ القول إننى لا أهتم بالعودة إلى مصر، لابد من أن أهتم، وأنا على يقين بأن هذا مصيرى ولكنى أتمنى ألا أخفق. يقولون إنى لابد من أن أتوجه إليها قبل الحرب. لقد سألت مرتين ولكنى لا أستطيع أنْ أعتمد على وساطة أى أحد. ذات مرة كان عن طريق السيد نينيه. ويبدو لى أنه رجل يثير الإعجاب ولكنى أسألك هل هو جدير بأن يمثل مصر فى هذه الأحداث المهمة؟ وقد بذلت قصارى جهدى لكى أكون على اتصال مباشر بعرابى ولكنى لم أنجح فى ذلك أبداً. وسوف أحضر إذا سألنى المصريون ذلك أو السلطان.

سألته، كيف يرى ماهية وشكل الحكومة المناسبة لمصر. قال: لا دستور حتى الآن. مصر الآن فى حاجة إلى حكومة قوية يجب أن يحكمها مستبد ليبرالى، مجلس إذا أردت، ولكن سلطة مطلقة فى يد الحاكم. الأمم الشرقية تدرك ذلك وليس شيئًا آخر".

VIII جواز سفر مزيف منح لچون نينيه

خلال طرده من مصر

نسخة

مكتب الجوازات

تصريح سفر

أوصاف

ممنوح لچون نينيه

السن : ٦٤ سنة — المولود فى روميلى

الطول : طويل — مواطن عثمانى

الشعر : رمادى

العينان : زرق — يغادر هذه المدينة متوجهًا إلى سميرنا

الأنف : عادى

الذقن : مستدير

علامات خاصة — الإسكندرية فى ٤ أكتوبر ١٨٨٢

المدير

صالح لمدة عام

فهرس أسماء الأعلام

بونو	بولو	بول ، جون
بوناروتى	باتلر	كيبار
كيرولى	كلفين	كاميرون
كاندول ، ألفونس دى	كارترايت	كاستلا ، سى دى
كاف	شاهين باشا	شير
شارم ، جبريل	شريف أفندى	شريف باشا
كلاريندون ، لورد	كلوت بك	كولبير
كولفين	كونراد ، أميرال	كوكش
كولون	كروشليه	كرومر ، لورد (إيفلين بارنج)
كوستوت	دهان ، ألكسندر	داود باشا
ديلالى	دى لا موت	ديمارتس
درويش باشا	درفيو	ديساى ، إدوارد
ديلك ، شارل	ديزرائيلى، انظر بيكونسفيلد	دوينى
دور	برانيت باشا	كليرك
دوفو ، جنرال	دولسنيو	دوتاك
إيستون	أفلاطون باشا	الشو ، لورد
إيليوت ، جورج	إيستر هازى	فهمى ، على
فهمى باشا ، محمود	فهمى باشا ، مصطفى	فكرى باشا
فاروق	فازيل ، الأمير	مصطفى فريد باشا
فيجارى بك	فيتزجيرالد	فورجيمول دى بوسكونار ، جنرال

ليتورنوف	ليكس دى	ليشنينشتاين ، الأمير
ليناندت دى بلفوندز	لويس التاسع	لطفى باشا عمر
ليونز ، لورد	ماكارثى	ماسيو ، ليكورجو
ماكومب ماسون	ماكلين	مهدى
ماليت ، إدوارد	منصور باشا	ماربيت
ماروبيا كونتى	ماريوت جيرال	مارتين دى
ماسبيرو	مازينى	محمد على
ماتيرنج	مدحت باشا	محمد أفندى
مونج	مونتسيكو	موريس بك
مبارك باشا ، على	مويلحى ، عبد السلام	موجيل بك ، ديدونيه
مصطفى باشا	نديم ، عبد الله الـ	نانا صاحب
نابليون الأول	نابليون الثالث	ناصر
نازلى ، الأميرة	نظامى باشا	نورى باشا ، عثمان
نوريسون بك	نوبار باشا	والد على
أوبنهايم	واصف بك	أوترى
بليميرستون	باولوسى	بندر ، جون
بيكارد	بيير لوجراند	بلوتز باشا
بابولانى	باردى ، جنرال	رشيد باشا
راغب باشا ، إسماعيل	رانجاب	رؤوف باشا
راتب باشا	ريبنينون ، لويس	ريسبينى

رياض باشا
رانج ، بارون دى
رشفور ، هنرى
روسى
روسو ، جان جاك
صديق ، إسماعيل المفتش
سلمونى بك ، تونينو
سانوا
سكوت ، جون
سيمور ، أميرال
ستافورد نوثكوت
ستيفنسون
سلطان باشا
طلعت باشا
توستيزا
تروشو جنرال
فيكتوريا ، الملكة
فيفيان
وادنجتون
ويلسون ، كولونيل
وود ، إيفلين
زغيب ، جوزيف

رفقى باشا ، عثمان
رضا بك
رودولف ، أرشيدوك
روتشيلد
روستان ، نيودور
سعيد باشا
ساليبورى
سانتى
سكريفنيور
سيكيفتش
ستانلى
ستون جنرال
سوثر لاند
تقلا
طلبة
تورجو
فيوليت
چورچ دى
فيلبير فورس ، ويليام
ويلسون ، سير ريفرز
ياعوم بك
ذو الفقار باشا

ريجو
روبيز ، جنرال
روجير بك
روبى ، على الـ
رشدى باشا ، يوسف
سان – هيلير
سالا باشا
سنوسى ، محمد الـ
سرفر باشا
سليمان باشا (سيف)
ستانتون ، جنرال
ستورارى
طهطاوى ، رفاعة الـ
توفيق باشا
تريكو
فوكلين
فيتو
ويتناى
فاليد
ويلسلى ، جنرال
زيزنيا

فهرس أسماء الأماكن

مصر . إنجلترا . القاهرة . لندن . باريس . أسمـــاء أماكن مذكورة بشكل مكثف . وبالتالى لا داعى لذكرها فى هذا الفهرس

بروكسيل بورما كالكتا

كامبوديا قنال السويس كاب

سيلان الشرقية الصين

شبرا شونى قبرص

سيركاس كولومبيا الكونغو

القسطنطينية كيريت كريما

سيرينا بيك دمشق دمنهور

دلهى الدلتا جدة

دنجولا ابير إسبانيا

الولايات المتحدة الفرات أوروبا

الأزبكية الفيوم النهر الأبيض

فرانكفورت جانج جنيف

جورجيا الخليج الفارسى اليونان

الجيزة هاجيار النوتى مصر العليا

هاواى هليوبوليس حلوان

هولندا هونج كونج المقطم

مصر الوسطى الشرق الأوسط مول هاوس

نانكين نابولى نيو كاسيل

نيو أورليانز نيويورك النيل

نيوزيلاند المحيط الهندى بنما

بكين بينانج فارس

الفلبين	بليفينا	بورسعيد
البرتغال	الشرق الأدنى	بروسيا
قنا	الرملة	رأس التين
رأس القادى	رافنس	وورث
روديسيا	روما	رشيد
روسيا	سعيد	سايجون
سان جيرفيه	سان ستيفانو	سافانا
سواكن	سيبو	نهر السين
سينار	صفاقس	سيام
سنغافورة	سترا	سميرنا
السلمانية	جزء السوند	السودان
سبريه	إسطنبول	سواكن
السويس	سويسرا	سوماتره
سرسكس	سوريا	تايمز
طنجة	طنطا	التل الكبير
تى سين	تى سالى	التبت
تفلس	تمبوكتو	طره
ترانزفال	ترييَاست	طرابلس
تريبوليتان	تونس العاصمة	تونس
تركيا	فينيسيا	فيرساى
فيينا	الوادى	واشنطن
الزقازيق	زنزبار	زفتى

فهرس الأعلام

الفاسى ، علال	نازى ، جيمس	فيشر ، بييات دى
كانيماج ، جان	كارديه ، لويس	جيلا ، فليت
جيل	جليدون	جوليفترز ، هانيز
جريجورى	جيمار	جيلون
جور	حداد ، جورج	الحريرى ، على
هندرسون	هوج	هولت
هولنكسى	هوروفيتش	حورانى ، ألبير
هاسلر	عيسى ، صلاح	جيرولد
جوليان ، شارل أندريه	جوليانى	كيدى
كيرنان	قدسى زادة	لافونتين
لاندو	لاند ، ديفيد	لى
لوسج ، شارل	لويس برنار	لينانت دى بلفوندس
ليتمان	لوقا ، أنور	لطفى السيد ، عفاف
ماك دى	ميتر	ماليت
مارجو ليوس	مارلو ، جون	مورو
مراد ، على	ميرو ، بول	محسن ، محمود
مونييه ، فيليب	مورتون	موتى دى لا
يلحى	مولمان فيلهيلم	مصطفى ، عبد الرحيم
النديم ، عبد الله	ناحوم ، حاييم	نينيه ، چون
نوزيبيه	باكدامان	بيريس ، هنرى

بيرو ، دومينيك

بلات

بوليتس

بونتيل ، فيليكس

بريزويرك

الرافعي ، عبد الرحمن

رابار ، ويليام

رشاد

م راسمان ، لوثر

رينوفان ، بيير

ريفلين

رودنسون ، مكسيم

روشتاين

رشدي ، سيف الله

روشون ، فرانسوا

صبري ، م

ساش ، إنياس

ساموركو ، أنجلو

ساركي

سارتر . ج . ب

شولش ، ألكسندر

سيفان

سوبنار ، فرنر

سوريوم ، كريستيان

ستون

تاغر ، جاك

تاغر ، جانيت

تيمبرلي

تيستا

تورنتون

ثارنيسان

تنجور ، روبير

تراز ، روبير

توميده

فوالبرز

فييوميبه ، مارك

فالدز ، أنطونيو

فارنز

فيلبرنورس

زيادة . م

زلونديك

المؤلف فى سطور

چون نينيه (١٨١٥ - ١٨٩٥)

نشأ نينيه فى مدينة جنيف التى عرفها غداة الثورة الصناعية عندما بدأ فى اقتفاء أثر "ملك القطن" من ميناء هافر وحتى جورجيا. وهناك تعلم نينيه كيفية إنتاج أفضل أنواع هذا المحصول الثمين. وعند عودته إلى العالم القديم استقر نينيه فى دلتا النيل كمزارع ومصدر وصحفى فى الوقت الذى كانت فيه قناة السويس - التى تم حفرها على حدود مزرعته - تعيد تشكيل العلاقة بين الشرق والغرب.

المترجم فى سطور

فتحى العشرى

- عضو مجلس اتحاد الكتاب لعدد من الدورات .
- عضو نقابات الصحفيين والسينمائيين والممثلين .
- عضو مجلس جمعية كتاب ونقاد السينما .
- نائب رئيس مهرجان الإسكندرية السينمائى .
- شارك فى لجان تحكيم عدد من المهرجانات .
- اشتراك فى عدد من المهرجانات الدولية .
- أصدر ثلاثين كتاباً فى النقد الأدبى والمسرحى والسينمائى .
- ترجم عدداً من المسرحيات والروايات عن الفرنسية .
- ألف عدداً من الدراسات الفكرية والثقافية .
- أعد مقالات نجيب محفوظ للنشر .
- يشرف على سلسلة روايات جائزة نوبل .
- ساهم فى إنجازات مسرح الأقاليم ومؤتمراته .

المُعد فى سطور

د. أتور لوقا

- عمل أستاذاً للأدب الفرنسى بكلية الآداب جامعة القاهرة قسم اللغة الفرنسية وآدابها .
- هاجر إلى فرنسا وعمل بها أستاذاً للأدب الفرنسى فى عدد من جامعاتها كأستاذ زائر .
- إنتقل إلى سويسرا وأقام فى چنيف بعد أن تزوج من مواطنة سويسرية من أصل فرنسى .
- عمل أستاذاً للأدب الفرنسى بجامعة جنيف ورأس قسم اللغة الفرنسية وأدابها كأستاذ متفرغ .
- له عدد من الدراسات وخاصة فى الأدب المقارن وخاصة العلاقة بين الأدب الفرنسى والأدب العربى .

المشروع القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة مشروع تنمية ثقافية بالدرجة الأولى ، ينطلق من الإيجابيات التى حققتها مشروعات الترجمة التى سبقته فى مصر والعالم العربى ويسعى إلى الإضافة بما يفتح الأفق على وعود المستقبل، معتمداً المبادئ التالية :

١- الخروج من أسر المركزية الأوروبية وهيمنة اللغتين الإنجليزية والفرنسية .

٢- التوازن بين المعارف الإنسانية فى المجالات العلمية والفنية والفكرية والإبداعية .

٣- الانحياز إلى كل ما يؤسس لأفكار التقدم وحضور العلم وإشاعة العقلانية والتشجيع على التجريب .

٤- ترجمة الأصول المعرفية التى أصبحت أقرب إلى الإطار المرجعى فى الثقافة الإنسانية المعاصرة، جنباً إلى جنب المنجزات الجديدة التى تضع القارئ فى القلب من حركة الإبداع والفكر العالميين .

٥- العمل على إعداد جيل جديد من المترجمين المتخصصين عن طريق ورش العمل بالتنسيق مع لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة .

٦- الاستعانة بكل الخبرات العربية وتنسيق الجهود مع المؤسسات المعنية بالترجمة .

المشروع القومى للترجمة

١-	اللغة العليا	جون كوين	أحمد درويش
٢-	الوثنية والإسلام (ط١)	ك. مادهو بانيكار	أحمد فؤاد بلبع
٣-	التراث المسروق	جورج جيمس	شوقى جلال
٤-	كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كاريتنكوفا	أحمد الحضرى
٥-	ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	محمد علاء الدين منصور
٦-	اتجاهات البحث اللسانى	ميلكا إفيتش	سعد مصلوح ووفاء كامل فايد
٧-	العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	يوسف الأنطكى
٨-	مشعلو الحرائق	ماكس فريش	مصطفى ماهر
٩-	التغيرات البيئية	أندرو. س. جودى	محمود محمد عاشور
١٠-	خطاب الحكاية	جيرار جينيت	محمد معتصم وعبد الجليل الأزدى وعمر حلى
١١-	مختارات	فيسوافا شيمبوريسكا	هناء عبد الفتاح
١٢-	طريق الحرير	ديفيد براونيستون وايرين فرانك	أحمد محمود
١٣-	ديانة الساميين	روبرتسن سميث	عبد الوهاب علوب
١٤-	التحليل النفسى للأدب	جان بيلمان نويل	حسن المودن
١٥-	الحركات الفنية	إدوارد لويس سميث	أشرف رفيق عفيفى
١٦-	أثينة السوداء (جـ١)	مارتن برنال	بإشراف: أحمد عتمان
١٧-	مختارات	فيليب لاركين	محمد مصطفى بدوى
١٨-	الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	طلعت شاهين
١٩-	الأعمال الشعرية الكاملة	چورج سفيريس	نعيم عطية
٢٠-	قصة العلم	ج. ج. كراوثر	يمنى طريف الخولى و بدوى عبد الفتاح
٢١-	خوخة وألف خوخة	صمد بهرنجى	ماجدة العنانى
٢٢-	مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	سيد أحمد على الناصرى
٢٣-	تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	سعيد توفيق
٢٤-	ظلال المستقبل	باتريك بارندر	بكر عباس
٢٥-	مثنوى	مولانا جلال الدين الرومى	إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦-	دين مصر العام	محمد حسين هيكل	أحمد محمد حسين هيكل
٢٧-	التنوع البشرى الخلاق	مقالات	نخبة
٢٨-	رسالة فى التسامح	جون لوك	منى أبو سنة
٢٩-	الموت والوجود	جيمس ب. كارس	بدر الديب
٣٠-	الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	أحمد فؤاد بلبع
٣١-	مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سوفاجيه - كلود كاين	عبد الستار الحلوجى وعبد الوهاب علوب
٣٢-	الانقراض	ديفيد روس	مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣-	التاريخ الاقتصادى لأفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	أحمد فؤاد بلبع
٣٤-	الرواية العربية	روجر آلن	حصة إبراهيم المنيف
٣٥-	الأسطورة والحداثة	پول . ب . ديكسون	خليل كلفت
٣٦-	نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	حياة جاسم محمد
٣٧-	واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	جمال عبد الرحيم

٣٨-	نقد الحداثة	آلن تورين	أنور مغيث
٣٩-	الإغريق والحسد	بيتر والكوت	منيرة كروان
٤٠-	قصائد حب	آن سكستون	محمد عيد إبراهيم
٤١-	ما بعد المركزية الأوروبية	بيتر جران	عاطف أحمد وإبراهيم فتحى ومحمود ماجد
٤٢-	عالم ماك	بنجامين باربر	أحمد محمود
٤٣-	اللهب المزدوج	أوكتافيو باث	المهدى أخريف
٤٤-	بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلى	مارلين تادرس
٤٥-	التراث المغدور	روبرت ج دنيا - جون ف أ فاين	أحمد محمود
٤٦-	عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	محمود السيد على
٤٧-	تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ١)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤٨-	حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ماهر جويجاتى
٤٩-	الإسلام فى البلقان	هـ . ت . نوريس	عبد الوهاب علوب
٥٠-	ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	محمد برادة وعثمانى الميلود ويوسف الأنطكى
٥١-	مسار الرواية الإسبانو أمريكية	داريو بيانويبا وخ. م بينياليستى	محمد أبو العطا
٥٢-	العلاج النفسى التدعيمى	ب. نوفاليس وس . روجسيفيتز وروجر بيل	لطفى فطيم وعادل دمرداش
٥٣-	الدراما والتعليم	أ . ف . ألنجتون	مرسى سعد الدين
٥٤-	المفهوم الإغريقى للمسرح	ج . مايكل والتون	محسن مصيلحى
٥٥-	ما وراء العلم	چون بولكنجهوم	على يوسف على
٥٦-	الأعمال الشعرية الكاملة (جـ١)	فديريكو غرسية لوركا	محمود على مكى
٥٧-	الأعمال الشعرية الكاملة (جـ٢)	فديريكو غرسية لوركا	محمود السيد و ماهر البطوطى
٥٨-	مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	محمد أبو العطا
٥٩-	المحبرة (مسرحية)	كارلوس مونييث	السيد السيد سهيم
٦٠-	التصميم والشكل	جوهانز إيتين	صبرى محمد عبد الغنى
٦١-	موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور - سميث	مراجعة وإشراف : محمد الجوهرى
٦٢-	لذّة النّص	رولان بارت	محمد خير البقاعى .
٦٣-	تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ٢)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٦٤-	برتراند راسل (سيرة حياة)	ألان وود	رمسيس عوض .
٦٥-	فى مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	رمسيس عوض .
٦٦-	خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	عبد اللطيف عبد الحليم
٦٧-	مختارات	فرناندو بيسوا	المهدى أخريف
٦٨-	نتاشا العجوز وقصص أخرى	فالنتين راسبوتين	أشرف الصباغ
٦٩-	العالم الإسلامى فى أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى
٧٠-	ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجث	عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
٧١-	السيدة لا تصلح إلا للرمى	داريو فو	حسين محمود
٧٢-	السياسى العجوز	ت . س . إليوت	فؤاد مجلى
٧٣-	نقد استجابة القارئ	چين . ب . تومبكنز	حسن ناظم وعلى حاكم
٧٤-	صلاح الدين والمماليك فى مصر	ل . ا . سيمينوڤا	حسن بيومى
٧٥-	فن التراجم والسير الذاتية	أندريه موروا	أحمد درويش
٧٦-	چاك لاكان وإغواء التحليل النفسى	مجموعة من الكتاب	عبد المقصود عبد الكريم

٧٧-	تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ٣)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٧٨-	العولمة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد روبرتسون	أحمد محمود ونورا أمين
٧٩-	شعرية التأليف	بوريس أوسبنسكى	سعيد الغانمى وناصر حلاوى
٨٠-	بوشكين عند «نافورة الدموع»	ألكسندر بوشكين	مكارم الغمرى
٨١-	الجماعات المتخيلة	بندكت أندرسن	محمد طارق الشرقاوى
٨٢-	مسرح ميجيل	ميجيل دى أونامونو	محمود السيد على
٨٣-	مختارات	غوتفريد بن	خالد المعالى
٨٤-	موسوعة الأدب والنقد	مجموعة من الكتاب	عبد الحميد شيحة
٨٥-	منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكى أقطاى	عبد الرازق بركات
٨٦-	طول الليل	جمال مير صادقى	أحمد فتحى يوسف شتا
٨٧-	نون والقلم	جلال آل أحمد	ماجدة العنانى
٨٨-	الابتلاء بالتغرب	جلال آل أحمد	إبراهيم الدسوقى شتا
٨٩-	الطريق الثالث	أنتونى جيدنز	أحمد زايد ومحمد محيى الدين
٩٠-	وسم السيف	ميجل دى ثرباتس	محمد إبراهيم مبروك
٩١-	المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق	باربر الاسوستكا	محمد هناء عبد الفتاح
٩٢-	أساليب ومضامين المسرح الإسبانوأمريكى المعاصر	كارلوس ميجيل	نادية جمال الدين
٩٣-	محدثات العولمة	مايك فيذرستون وسكوت لاش	عبد الوهاب علوب
٩٤-	الحب الأول والصحبة	صمويل بيكيت	فوزية العشماوى
٩٥-	مختارات من المسرح الإسبانى	أنطونيو بويرو باييخو	سرى محمد عبد اللطيف
٩٦-	ثلاث زنبقات ووردة	قصص مختارة	إدوار الخراط
٩٧-	هوية فرنسا (مج١)	فرنان برودل	بشير السباعى
٩٨-	الهم الإنسانى والابتزاز الصهيونى	نخبة	أشرف الصباغ
٩٩-	تاريخ السينما العالمية	ديفيد روبنسون	إبراهيم قنديل
١٠٠-	مساءلة العولمة	بول هيرست وجراهام تومبسون	إبراهيم فتحى
١٠١-	النص الروائى (تقنيات ومناهج)	بيرنار فاليط	رشيد بنحدو
١٠٢-	السياسة والتسامح	عبد الكريم الخطيبى	عز الدين الكتانى الإدريسى
١٠٣-	قبر ابن عربى يليه آياء	عبد الوهاب المؤدب	محمد بنيس
١٠٤-	أوبرا ماهوجنى	برتولت بريشت	عبد الغفار مكاوى
١٠٥-	مدخل إلى النص الجامع	چيرارچينيت	عبد العزيز شبيل
١٠٦-	الأدب الأندلسى	ماريا خيسوس روبييرامتى	أشرف على دعدور
١٠٧-	صورة الفدائى فى الشعر الأمريكى المعاصر	نخبـة	محمد عبد الله الجعيدى
١٠٨-	ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسى	مجموعة من النقاد	محمود على مكى
١٠٩-	حروب المياه	چون بولوك وعادل درويش	هاشم أحمد محمد
١١٠-	النساء فى العالم النامى	حسنة بيجوم	منى قطان
١١١-	المرأة والجريمة	فرانسيس هيندسون	ريهام حسين إبراهيم
١١٢-	الاحتجاج الهادئ	أرلين علوى ماكليود	إكرام يوسف
١١٣-	راية التمرد	سادى پلانت	أحمد حسان
١١٤-	مسرحيتا حصاد كونجى وسكان المستنقع	وول شوينكا	نسيم مجلى
١١٥-	غرفة تخص المرء وحده	فرچينيا وولف	سمية رمضان

١١٦-	امرأة مختلفة (درية شفيق)	سينثيا نلسون	نهاد أحمد سالم
١١٧-	المرأة والجنوسة فى الإسلام	ليلى أحمد	منى إبراهيم وهالة كمال
١١٨-	النهضة النسائية فى مصر	بث بارون	لميس النقاش
١١٩-	النساء والأسرة وقوانين الطلاق	أميرة الأزهرى سنبل	بإشراف: رءوف عباس
١٢٠-	الحركة النسائية والتطور فى الشرق الأوسط	ليلى أبو لغد	نخبة من المترجمين
١٢١-	الدليل الصغير عن الكاتبات العربيات	فاطمة موسى	محمد الجندى وإيزابيل كمال
١٢٢-	نظام العبودية القديم ونموذج الإنسان	جوزيف فوجت	منيرة كروان
١٢٣-	الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية	نينل ألكسندر وفنادولينا	أنور محمد إبراهيم
١٢٤-	الفجر الكاذب	چون جراى	أحمد فؤاد بلبع
١٢٥-	التحليل الموسيقى	سيدريك ثورپ ديڤى	سمحة الخولى
١٢٦-	فعل القراءة	ڤولڤانج إيسر	عبد الوهاب علوب
١٢٧-	إرهاب	صفاء فتحى	بشير السباعى
١٢٨-	الأدب المقارن	سوزان باسنيت	أميرة حسن نويرة
١٢٩-	الرواية الإسبانية المعاصرة	ماريا دولورس أسيس جاروته	محمد أبو العطا وآخرون
١٣٠-	الشرق يصعد ثانية	أندريه جوندر فرانك	شوقى جلال
١٣١-	مصر القديمة (التاريخ الاجتماعى)	مجموعة من المؤلفين	لويس بقطر
١٣٢-	ثقافة العولمة	مايك فيذرستون	عبد الوهاب علوب
١٣٣-	الخوف من المرايا	طارق على	طلعت الشايب
١٣٤-	تشريح حضارة	بارى ج. كيمب	أحمد محمود
١٣٥-	المختار من نقد ت. س. إليوت	ت. س. إليوت	ماهر شفيق فريد
١٣٦-	فلاحو الباشا	كينيث كونو	سحر توفيق
١٣٧-	مذكرات ضابط فى الحملة الفرنسية	چوزيف مارى مواريه	كاميليا صبحى
١٣٨-	عالم التليفزيون بين الجمال والعنف	إيڤلينا تارونى	وجيه سمعان عبد المسيح
١٣٩-	پارسيڤال	ريشارد ڤاچنر	مصطفى ماهر
١٤٠-	حيث تلتقى الأنهار	هربرت ميسن	أمل الجبورى
١٤١-	اثنتا عشرة مسرحية يونانية	مجموعة من المؤلفين	نعيم عطية
١٤٢-	الإسكندرية : تاريخ ودليل	أ. م. فورستر	حسن بيومى
١٤٣-	قضايا التنظير فى البحث الاجتماعى	ديريك لايدار	عدلى السمرى
١٤٤-	صاحبة اللوكاندة	كارلو جولدونى	سلامة محمد سليمان
١٤٥-	موت أرتيميو كروث	كارلوس فوينتس	أحمد حسان
١٤٦-	الورقة الحمراء	ميجيل دى ليبس	على عبدالرءوف البمبى
١٤٧-	خطبة الإدانة الطويلة	تانكريد دورست	عبدالغفار مكاوى
١٤٨-	القصة القصيرة (النظرية والتقنية)	إنريكى أندرسون إمبرت	على إبراهيم منوفى
١٤٩-	النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس	عاطف فضول	أسامة إسبر
١٥٠-	التجربة الإغريقية	روبرت ج. ليتمان	منيرة كروان
١٥١-	هوية فرنسا (مج ٢ ، جـ١)	فرنان برودل	بشير السباعى
١٥٢-	عدالة الهنود وقصص أخرى	نخبة من الكتاب	محمد محمد الخطابى
١٥٣-	غرام الفراعنة	فيولين فانويك	فاطمة عبدالله محمود
١٥٤-	مدرسة فرانكفورت	فيل سليتر	خليل كلفت

١٥٥-	الشعر الأمريكي المعاصر	نخبة من الشعراء	أحمد مرسى
١٥٦-	المدارس الجمالية الكبرى	جى أنبال وآلان وأوديت ڤيرمو	مى التلمسانى
١٥٧-	خسرو وشيرين	النظامى الكنوجى	عبدالعزيز بقوش
١٥٨-	هوية فرنسا (مج ٢ ، جـ٢)	فرنان برودل	بشير السباعى
١٥٩-	الإيديولوچية	ديڤيد هوكس	إبراهيم فتحى
١٦٠-	آلة الطبيعة	بول إيرليش	حسين بيومى
١٦١-	من المسرح الإسبانى	اليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا	زيدان عبدالحليم زيدان
١٦٢-	تاريخ الكنيسة	يوحنا الآسيوى	صلاح عبدالعزيز محجوب
١٦٣-	موسوعة علم الاجتماع	جوردن مارشال	بإشراف: محمد الجوهرى
١٦٤-	شامبوليون (حياة من نور)	چان لاكوتير	نبيل سعد
١٦٥-	حكايات الثعلب	أ. ن أفانا سيفا	سهير المصادفة
١٦٦-	العلاقات بين المتدينين والعلمانيين فى إسرائيل	يشعياهو ليڤمان	محمد محمود أبو غدير
١٦٧-	فى عالم طاغور	رابندرانات طاغور	شكرى محمد عياد
١٦٨-	دراسات فى الأدب والثقافة	مجموعة من المؤلفين	شكرى محمد عياد
١٦٩-	إبداعات أدبية	مجموعة من المبدعين	شكرى محمد عياد
١٧٠-	الطريق	ميغيل دليبيس	بسام ياسين رشيد
١٧١-	وضع حد	فرانك بيجو	هدى حسين
١٧٢-	حجر الشمس	مختارات	محمد محمد الخطابى
١٧٣-	معنى الجمال	ولتر ت. ستيس	إمام عبد الفتاح إمام
١٧٤-	صناعة الثقافة السوداء	ايليس كاشمور	أحمد محمود
١٧٥-	التليفزيون فى الحياة اليومية	لورينزو فيلشس	وجيه سمعان عبد المسيح
١٧٦-	نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية	توم تيتنبرج	جلال البنا
١٧٧-	أنطون تشيخوف	هنرى ترويا	حصة إبراهيم المنيف
١٧٨-	مختارات من الشعر اليونانى الحديث	نخبة من الشعراء	محمد حمدى إبراهيم
١٧٩-	حكايات أيسوب	أيسوب	إمام عبد الفتاح إمام
١٨٠-	قصة جاويد	إسماعيل فصيح	سليم عبد الأمير حمدان
١٨١-	النقد الأدبى الأمريكى	فنسنت ب. ليتش	محمد يحيى
١٨٢-	العنف والنبوءة	و.ب. ييتس	ياسين طه حافظ
١٨٣-	چان كوكتو على شاشة السينما	رينيه چيلسون	فتحى العشرى
١٨٤-	القاهرة... حالمة لا تنام	هانز إبندورفر	دسوقى سعيد
١٨٥-	أسفار العهد القديم	توماس تومسن	عبد الوهاب علوب
١٨٦-	معجم مصطلحات هيجل	ميخائيل إنوود	إمام عبد الفتاح إمام
١٨٧-	الأرضة	بُزرج علوى	محمد علاء الدين منصور
١٨٨-	موت الأدب	الفين كرنان	بدر الديب
١٨٩-	العمى والبصيرة	پول دى مان	سعيد الغانمى
١٩٠-	محاورات كونفوشيوس	كونفوشيوس	محسن سيد فرجانى
١٩١-	الكلام رأسمال	الحاج أبو بكر إمام	مصطفى حجازى السيد
١٩٢-	سياحت نامه إبراهيم بك (جـ١)	زين العابدين المراغى	محمود سلامة علاوى
١٩٣-	عامل المنجم	بيتر أبراهامز	محمد عبد الواحد محمد

١٩٤-	مختارات من النقد الأنجلو-أمريكى	مجموعة من النقاد	ماهر شفيق فريد
١٩٥-	شتاء ٨٤	إسماعيل فصيح	محمد علاء الدين منصور
١٩٦-	المهلة الأخيرة	فالتين راسبوتين	أشرف الصباغ
١٩٧-	الفاروق	شمس العلماء شبلى النعمانى	جلال السعيد الحفناوى
١٩٨-	الاتصال الجماهيرى	ادوين إمرى وآخرون	إبراهيم سلامة إبراهيم
١٩٩-	تاريخ يهود مصر فى الفترة العثمانية	يعقوب لانداوى	جمال أحمد الرفاعى وأحمد عبد اللطيف حماد
٢٠٠-	ضحايا التنمية	جيرمى سيبروك	فخزى لبيب
٢٠١-	الجانب الدينى للفلسفة	جوزايا رويس	أحمد الأنصارى
٢٠٢-	تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ٤)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٢٠٣-	الشعر والشاعرية	ألطاف حسين حالى	جلال السعيد الحفناوى
٢٠٤-	تاريخ نقد العهد القديم	زالمان شازار	أحمد محمود هويدى
٢٠٥-	الجينات والشعوب واللغات	لويجى لوقا كافاللى- سفورزا	أحمد مستجير
٢٠٦-	الهيولية تصنع علمًا جديدًا	جيمس جلايك	على يوسف على
٢٠٧-	ليل أفريقى	رامون خوتاسندير	محمد أبو العطا
٢٠٨-	شخصية العربى فى المسرح الإسرائيلى	دان أوريان	محمد أحمد صالح
٢٠٩-	السرد والمسرح	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٢١٠-	مثنويات حكيم سنائى	سنائى الغزنوى	يوسف عبد الفتاح فرج
٢١١-	فردينان دوسوسير	جوناثان كللر	محمود حمدى عبد الغنى
٢١٢-	قصص الأمير مرزبان	مرزبان بن رستم بن شروين	يوسف عبدالفتاح فرج
٢١٣-	مصر منذ قدوم نابليون حتى رحيل عبدالناصر	ريمون فلاور	سيد أحمد على الناصرى
٢١٤-	قواعد جديدة للمنهج فى علم الاجتماع	أنتونى جيدنز	محمد محمود محى الدين
٢١٥-	سياحت نامه إبراهيم بك (جـ٢)	زين العابدين المراغى	محمود سلامة علاوى
٢١٦-	جوانب أخرى من حياتهم	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٢١٧-	مسرحيتان طليعيتان	ص. بيكيت	نادية البنهاوى
٢١٨-	لعبة الحجلة (رايولا)	خوليو كورتازان	على إبراهيم منوفى
٢١٩-	بقايا اليوم	كازو ايشجورو	طلعت الشايب
٢٢٠-	الهيولية فى الكون	بارى باركر	على يوسف على
٢٢١-	شعرية كفافى	جريجورى جوزدانيس	رفعت سلام
٢٢٢-	فرانز كافكا	رونالد جراى	نسيم مجلى
٢٢٣-	العلم فى مجتمع حر	بول فيرابنر	السيد محمد نفادى
٢٢٤-	دمار يوغسلافيا	برانكا ماجاس	منى عبدالظاهر إبراهيم
٢٢٥-	حكاية غريق	جابرييل جارثيا ماركث	السيد عبدالظاهر السيد
٢٢٦-	أرض المساء وقصائد أخرى	ديفيد هربت لورانس	طاهر محمد على البربرى
٢٢٧-	المسرح الإسبانى فى القرن السابع عشر	موسى مارديا ديف بوركى	السيد عبدالظاهر عبدالله
٢٢٨-	علم الجمالية وعلم اجتماع الفن	جانيت وولف	مارى تيريز عبدالمسيح وخالد حسن
٢٢٩-	مأزق البطل الوحيد	نورمان كيجان	أمير إبراهيم العمرى
٢٣٠-	عن الذباب والفئران والبشر	فرانسواز جاكوب	مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣١-	الدرافيل	خايمى سالوم بيدال	جمال عبدالرحمن
٢٣٢-	ما بعد المعلومات	توم ستينر	مصطفى إبراهيم فهمى

٢٣٣-	فكرة الاضمحلال	آرثر هومان	طلعت الشايب
٢٣٤-	الإسلام فى السودان	ج. سبنسر تريمنجهام	فؤاد محمد عكود
٢٣٥-	ديوان شمس تبريزى (جـ١)	مولانا جلال الدين الرومى	إبراهيم الدسوقى شتا
٢٣٦-	الولاية	ميشيل تود	أحمد الطيب
٢٣٧-	مصر أرض الوادى	روبين فيرين	عنايات حسين طلعت
٢٣٨-	العولمة والتحرير	الانكتاد	ياسر محمد جادالله وعربى مدبولى أحمد
٢٣٩-	العربى فى الأدب الإسرائيلى	جيلارافر - رايوخ	نادية سليمان حافظ وإيهاب صلاح فايق
٢٤٠-	الإسلام والغرب وإمكانية الحوار	كامى حافظ	صلاح عبدالعزيز محجوب
٢٤١-	فى انتظار البرابرة	ج . م كويتز	ابتسام عبدالله سعيد
٢٤٢-	سبعة أنماط من الغموض	وليام إمبسون	صبرى محمد حسن عبدالنبى
٢٤٣-	تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج١)	ليفى بروفنسال	على عبدالرءوف اليمبى
٢٤٤-	الغليان	لاورا إسكيبيل	نادية جمال الدين محمد
٢٤٥-	نساء مقاتلات	إليزابيتا أديس	توفيق على منصور
٢٤٦-	مختارات قصصية	جابرييل جارثيا ماركث	على إبراهيم منوفى
٢٤٧-	الثقافة الجماهيرية والحداثة فى مصر	والتر إرمبريست	محمد طارق الشرقاوى
٢٤٨-	حقول عدن الخضراء	أنطونيو جالا	عبداللطيف عبدالحليم
٢٤٩-	لغة التمزق	دراجو شتامبوك	رفعت سلام
٢٥٠-	علم اجتماع العلوم	دومنيك فينيك	ماجدة محسن أباظة
٢٥١-	موسوعة علم الاجتماع (جـ٢)	جوردن مارشال	بإشراف: محمد الجوهرى
٢٥٢-	رائدات الحركة النسوية المصرية	مارجو بدران	على بدران
٢٥٣-	تاريخ مصر الفاطمية	ل. أ. سيمينوفا	حسن بيومى
٢٥٤-	الفلسفة	ديف روبنسون وجودى جروفز	إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٥-	أفلاطون	ديف روبنسون وجودى جروفز	إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٦-	ديكارت	ديف روبنسون وكريس جرات	إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٧-	تاريخ الفلسفة الحديثة	وليم كلى رايت	محمود سيد أحمد
٢٥٨-	الفجر	سير أنجوس فريزر	عُبادة كُحيلة
٢٥٩-	مختارات من الشعر الأرمنى عبر العصور	اقلام مختلفة	فاروجان كازانجيان
٢٦٠-	موسوعة علم الاجتماع (جـ٣)	جوردن مارشال	بإشراف: محمد الجوهرى
٢٦١-	رحلة فى فكر زكى نجيب محمود	زكى نجيب محمود	إمام عبد الفتاح إمام
٢٦٢-	مدينة المعجزات	إدوارد مندوثا	محمد أبو العطا
٢٦٣-	الكشف عن حافة الزمن	چون جريبن	على يوسف على
٢٦٤-	إبداعات شعرية مترجمة	هوراس وشلى	لويس عوض
٢٦٥-	روايات مترجمة	أوسكار وايلد وصموئيل جونسون	لويس عوض
٢٦٦-	مدير المدرسة	جلال آل أحمد	عادل عبدالمنعم سويلم
٢٦٧-	فن الرواية	ميلان كونديرا	بدر الدين عرودكى
٢٦٨-	ديوان شمس تبريزى (جـ٢)	مولانا جلال الدين الرومى	إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦٩-	وسط الجزيرة العربية وشرقها (جـ١)	وليم چيفور بالجريف	صبرى محمد حسن
٢٧٠-	وسط الجزير العربية وشرقها (جـ٢)	وليم چيفور بالجريف	صبرى محمد حسن
٢٧١-	الحضارة الغربية	توماس سى. باترسون	شوقى جلال

٢٧٢-	الأديرة الأثرية فى مصر	س. س والترز	إبراهيم سلامة
٢٧٣-	الاستعمار والثورة فى الشرق الأوسط	جوان أر. لوك	عنان الشهاوى
٢٧٤-	السيدة باربارا	رومولو جلاجوس	محمود على مكى
٢٧٥-	ت. س إليوت شاعراً وناقداً وكاتباً مسرحياً	أقلام مختلفة	ماهر شفيق فريد
٢٧٦-	فنون السينما	فرانك جوتيران	عبد القادر التلمسانى
٢٧٧-	الجينات: الصراع من أجل الحياة	بريان فورد	أحمد فوزى
٢٧٨-	البدايات	إسحق عظيموف	ظريف عبدالله
٢٧٩-	الحرب الباردة الثقافية	ف.س. سوندرز	طلعت الشايب
٢٨٠-	من الأدب الهندى الحديث والمعاصر	بريم شند وآخرون	سمير عبدالحميد
٢٨١-	الفردوس الأعلى	مولانا عبد الحليم شرر الكهنوى	جلال الحفناوى
٢٨٢-	طبيعة العلم غير الطبيعية	لويس ولبيرت	سمير حنا صادق
٢٨٣-	السهل يحترق	خوان رولفو	على البمبى
٢٨٤-	هرقل مجنوناً	يوريبيدس	أحمد عتمان
٢٨٥-	رحلة الخواجة حسن نظامى	حسن نظامى	سمير عبد الحميد
٢٨٦-	سياحت نامه إبراهيم بك (جـ٢)	زين العابدين المراغى	محمود سلامة علاوى
٢٨٧-	الثقافة والعولمة والنظام العالمى	انتونى كنج	محمد يحيى وآخرون
٢٨٨-	الفن الروائى	ديفيد لودج	ماهر البطوطى
٢٨٩-	ديوان منجوهرى الدامغانى	أبو نجم أحمد بن قوص	محمد نور الدين عبدالمنعم
٢٩٠-	علم اللغة والترجمة	جورج مونان	أحمد زكريا إبراهيم
٢٩١-	المسرح الإسبانى فى القرن العشرين (جـ١)	فرانشسكو رويس رامون	السيد عبد الظاهر
٢٩٢-	المسرح الإسبانى فى القرن العشرين (جـ٢)	فرانشسكو رويس رامون	السيد عبد الظاهر
٢٩٣-	مقدمة للأدب العربى	روجر آلن	نخبة من المترجمين
٢٩٤-	فن الشعر	بوالو	رجاء ياقوت صالح
٢٩٥-	سلطان الأسطورة	جوزيف كامبل	بدر الدين حب الله الديب
٢٩٦-	مكبث	وليم شكسبير	محمد مصطفى بدوى
٢٩٧-	فن النحو بين اليونانية والسريانية	ديونيسيوس ثراكس ويوسف الأهوانى	ماجدة محمد أنور
٢٩٨-	مأساة العبيد	أبو بكر تفاوابليوه	مصطفى حجازى السيد
٢٩٩-	ثورة فى التكنولوجيا الحيوية	جين ل. ماركس	هاشم أحمد فؤاد
٣٠٠-	أسطورة بروميثيوس فى الأدبين الإنجليزى والفرنسى (مج١)	لويس عوض	جمال الجزيرى وبهاء چاهين وإيزابيل كمال
٣٠١-	أسطورة بروميثيوس فى الأدبين الإنجليزى والفرنسى (مج٢)	لويس عوض	جمال الجزيرى و محمد الجندى
٣٠٢-	فنجنشتين	جون هيتون وجودى جروفز	إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٣-	بوذا	جين هوب وبورن فان لون	إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٤-	ماركس	ريوس	إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٥-	الجلد	كروزيو مالابارته	صلاح عبد الصبور
٣٠٦-	الحماسة: النقد الكانطى للتاريخ	چان فرانسوا ليوتار	نبيل سعد
٣٠٧-	الشعور	ديفيد بابينو	محمود محمد أحمد
٣٠٨-	علم الوراثة	ستيف جونز	ممدوح عبد المنعم أحمد
٣٠٩-	الذهن والمخ	أنجوس چيلاتى	جمال الجزيرى
٣١٠-	يونج	ناجى هيد	محيى الدين محمد حسن

٣١١-	مقال فى المنهج الفلسفى	كولنجوود	فاطمة إسماعيل
٣١٢-	روح الشعب الأسود	وليم دى بويز	أسعد حليم
٣١٣-	أمثال فلسطينية	خايير بيان	عبدالله الجعيدى
٣١٤-	الفن كعدم	جينس مينيك	هويدا السباعى
٣١٥-	جرامشى فى العالم العربى	ميشيل بروندينو	كاميليا صبحى
٣١٦-	محاكمة سقراط	أ.ف. ستون	نسيم مجلى
٣١٧-	بلا غد	شير لايموفا- زنيكين	أشرف الصباغ
٣١٨-	الأدب الروسى فى السنوات العشر الأخيرة	نخبة	أشرف الصباغ
٣١٩-	صور دريدا	جايتر ياسبيفاك وكرستوفر نوريس	حسام نايل
٣٢٠-	لمعة السراج فى حضرة التاج	مؤلف مجهول	محمد علاء الدين منصور
٣٢١-	تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج٢، جـ١)	ليفى برو فنسال	نخبة من المترجمين
٣٢٢-	وجهات غربية حديثة فى تاريخ الفن	دبليو يوجين كلينباور	خالد مفلح حمزة
٣٢٣-	فن الساتورا	تراث يونانى قديم	هانم سليمان
٣٢٤-	اللعب بالنار	أشرف أسدى	محمود سلامة علاوى
٣٢٥-	عالم الآثار	فيليب بوسان	كرستين يوسف
٣٢٦-	المعرفة والمصلحة	جورجين هابرماس	حسن صقر
٣٢٧-	مختارات شعرية مترجمة (جـ١)	نخبة	توفيق على منصور
٣٢٨-	يوسف وزليخا	نور الدين عبد الرحمن بن أحمد	عبد العزيز بقوش
٣٢٩-	رسائل عيد الميلاد	تد هيوز	محمد عيد إبراهيم
٣٣٠-	كل شىء عن التمثيل الصامت	مارفن شبرد	سامى صلاح
٣٣١-	عندما جاء السردين	ستيفن جراى	سامية دياب
٣٣٢-	القصة القصيرة فى إسبانيا	نخبة	على إبراهيم منوفى
٣٣٣-	الإسلام فى بريطانيا	نبيل مطر	بكر عباس
٣٣٤-	لقطات من المستقبل	آرثر.س كلارك	مصطفى فهمى
٣٣٥-	عصر الشك	ناتالى ساروت	فتحى العشرى
٣٣٦-	متون الأهرام	نصوص قديمة	حسن صابر
٣٣٧-	فلسفة الولاء	جوزايا رويس	أحمد الأنصارى
٣٣٨-	نظرات حائرة (وقصص أخرى من الهند)	نخبة	جلال السعيد الحفناوى
٣٣٩-	تاريخ الأدب فى إيران (جـ٣)	على أصغر حكمت	محمد علاء الدين منصور
٣٤٠-	اضطراب فى الشرق الأوسط	بيرش بيربيروجلو	فخرى لبيب
٣٤١-	قصائد من رلكه	راينر ماريا رلكه	حسن حلمى
٣٤٢-	سلامان وأبسال	نور الدين عبدالرحمن بن أحمد	عبد العزيز بقوش
٣٤٣-	العالم البرجوازى الزائل	نادين جورديمر	سمير عبد ربه
٣٤٤-	الموت فى الشمس	بيتر بلانجوه	سمير عبد ربه
٣٤٥-	الركض خلف الزمن	بونه ندائى	يوسف عبد الفتاح فرج
٣٤٦-	سحر مصر	رشاد رشدى	جمال الجزيرى
٣٤٧-	الصبية الطائشون	جان كوكتو	بكر الحلو
٣٤٨-	المتصوفة الأولون فى الأدب التركى (جـ١)	محمد فؤاد كوبريلى	عبدالله أحمد إبراهيم
٣٤٩-	دليل القارئ إلى الثقافة الجادة	أرثر والدرون وآخرون	أحمد عمر شاهين

٣٥٠-	بانوراما الحياة السياحية	أقلام مختلفة	عطية شحاتة
٣٥١-	مبادئ المنطق	جوزايا رويس	أحمد الانصارى
٣٥٢-	قصائد من كفافيس	قسطنطين كفافيس	نعيم عطية
٣٥٣-	الفن الإسلامى فى الأندلس (الزخرفة الهندسية)	باسيليو بابون مالدوناند	على إبراهيم منوفى
٣٥٤-	الفن الإسلامى فى الأندلس (الزخرفة النباتية)	باسيليو بابون مالدوناند	على إبراهيم منوفى
٣٥٥-	التيارات السياسية فى إيران	حجت مرتضى	محمود سلامة علاوى
٣٥٦-	الميراث المر	بول سالم	بدر الرفاعى
٣٥٧-	متون هيرميس	نصوص قديمة	عمر الفاروق عمر
٣٥٨-	أمثال الهوسا العامية	نخبة	مصطفى حجازى السيد
٣٥٩-	محاورات بارمنيدس	أفلاطون	حبيب الشارونى
٣٦٠-	أنثروبولوجيا اللغة	أندريه جاكوب ونويلا باركان	ليلى الشربينى
٣٦١-	التصحر: التهديد والمجابهة	آلان جرينجر	عاطف معتمد وآمال شاور
٣٦٢-	تلميذ بابنيبرج	هاينرش شبورال	سيد أحمد فتح الله
٣٦٣-	حركات التحرير الأفريقية	ريتشارد جيبسون	صبرى محمد حسن
٣٦٤-	حداثة شكسبير	إسماعيل سراج الدين	نجلاء أبو عجاج
٣٦٥-	سأم باريس	شارل بودلير	محمد أحمد حمد
٣٦٦-	نساء يركضن مع الذئاب	كلاريسا بنكولا	مصطفى محمود محمد
٣٦٧-	القلم الجرىء	نخبة	البرّاق عبدالهادى رضا
٣٦٨-	المصطلح السردى	جيرالد برنس	عابد خزندار
٣٦٩-	المرأة فى أدب نجيب محفوظ	فوزية العشماوى	فوزية العشماوى
٣٧٠-	الفن والحياة فى مصر الفرعونية	كليرلا لويت	فاطمة عبدالله محمود
٣٧١-	المتصوفة الأولون فى الأدب التركى (جـ٢)	محمد فؤاد كوبريلى	عبدالله أحمد إبراهيم
٣٧٢-	عاش الشباب	وانغ مينغ	وحيد السعيد عبدالحميد
٣٧٣-	كيف تعد رسالة دكتوراه	أمبرتو إيكو	على إبراهيم منوفى
٣٧٤-	اليوم السادس	أندريه شديد	حمادة إبراهيم
٣٧٥-	الخلود	ميلان كونديرا	خالد أبو اليزيد
٣٧٦-	الغضب وأحلام السنين	نخبة	إدوار الخراط
٣٧٧-	تاريخ الأدب فى إيران (جـ٤)	على أصغر حكمت	محمد علاء الدين منصور
٣٧٨-	المسافر	محمد إقبال	يوسف عبدالفتاح فرج
٣٧٩-	ملك فى الحديقة	سنيل باث	جمال عبدالرحمن
٣٨٠-	حديث عن الخسارة	جونتر جراس	شيرين عبدالسلام
٣٨١-	أساسيات اللغة	ر. ل. تراسك	رانيا إبراهيم يوسف
٣٨٢-	تاريخ طبرستان	بهاء الدين محمد إسفنديار	أحمد محمد نادى
٣٨٣-	هدية الحجاز	محمد إقبال	سمير عبدالحميد إبراهيم
٣٨٤-	القصص التى يحكيها الأطفال	سوزان إنجيل	إيزابيل كمال
٣٨٥-	مشترى العشق	محمد على بهزادراد	يوسف عبدالفتاح فرج
٣٨٦-	دفاعًا عن التاريخ الأدبى النسوى	جانيت تود	ريهام حسين إبراهيم
٣٨٧-	أغنيات وسوناتات	چون دن	بهاء چاهين
٣٨٨-	مواعظ سعدى الشيرازى	سعدى الشيرازى	محمد علاء الدين منصور

٣٨٩- من الأدب الباكستانى المعاصر	نخبة	سمير عبدالحميد إبراهيم
٣٩٠- الأرشيفات والمدن الكبرى	نخبة	عثمان مصطفى عثمان
٣٩١- الحافلة الليلكية	مايف بينشى	منى الدروبى
٣٩٢- مقامات ورسائل أندلسية	نخبة	عبداللطيف عبدالحليم
٣٩٣- فى قلب الشرق	ندوة لويس ماسينيون	زينب محمود الخضيرى
٣٩٤- القوى الأربع الأساسية فى الكون	بول ديفيز	هاشم أحمد محمد
٣٩٥- آلام سياوش	إسماعيل فصيح	سليم حمدان
٣٩٦- السافاك	تقى نجارى راد	محمود سلامة علاوى
٣٩٧- نيتشه	لورانس جين	إمام عبدالفتاح إمام
٣٩٨- سارتر	فيليب تودى	إمام عبدالفتاح إمام
٣٩٩- كامى	ديفيد ميروفتس	إمام عبدالفتاح إمام
٤٠٠- مومو	مشيائيل إنده	باهر الجوهرى
٤٠١- الرياضيات	زيادون ساردر	ممدوح عبد المنعم
٤٠٢- هوكنج	ج. ب. ماك ايفوى	ممدوح عبدالمنعم
٤٠٣- ربة المطر والملابس تصنع الناس	تودور شتورم	عماد حسن بكر
٤٠٤- تعويذة الحسى	ديفيد إبرام	ظبية خميس
٤٠٥- إيزابيل	أندريه جيد	حمادة إبراهيم
٤٠٦- المستعربون الإسبان فى القرن ١٩	مانويلا مانتاناريس	جمال عبد الرحمن
٤٠٧- الأدب الإسبانى المعاصر بأقلام كتابه	أقلام مختلفة	طلعت شاهين
٤٠٨- معجم تاريخ مصر	جوان فوتشركنج	عنان الشهاوى
٤٠٩- انتصار السعادة	برتراند راسل	إلهامى عمارة
٤١٠- خلاصة القرن	كارل بوبر	الزواوى بغورة
٤١١- همس من الماضى	جينيفر أكرمان	أحمد مستجير
٤١٢- تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج٢، جـ٢)	ليفى بروفنسال	نخبة
٤١٣- أغنيات المنفى	ناظم حكمت	محمد البخارى
٤١٤- الجمهورية العالمية للآداب	باسكال كازانوفا	أمل الصبان
٤١٥- صورة كوكب	فريدريش دورنيمات	أحمد كامل عبدالرحيم
٤١٦- مبادئ النقد الأدبى والعلم والشعر	أ. أ. رتشاردز	مصطفى بدوى
٤١٧- تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ٥)	رينيه ويليك	مجاهد عبدالمنعم مجاهد
٤١٨- سياسات الزمر الحاكمة فى مصر العثمانية	جين هاثواى	عبد الرحمن الشيخ
٤١٩- العصر الذهبى للإسكندرية	جون مايو	نسيم مجلى
٤٢٠- مكرو ميجاس	فولتير	الطيب بن رجب
٤٢١- الولاء والقيادة	روى متحدة	أشرف محمد كيلانى
٤٢٢- رحلة لاستكشاف أفريقيا (جـ١)	نخبة	عبدالله عبدالرازق إبراهيم
٤٢٣- إسراءات الرجل الطيف	نخبة	وحيد النقاش
٤٢٤- لوائح الحق ولوامع العشق	نور الدين عبدالرحمن الجامى	محمد علاء الدين منصور
٤٢٥- من طاووس إلى فرح	محمود طلوعى	محمودد سلامة علاوى
٤٢٦- الخفافيش وقصص أخرى	نخبة	محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٢٧- باندراس الطاغية	باى إنكلان	ثريا شلبى

٤٢٨-	الخزانة الخفية	محمد هوتك	محمد أمان صافى
٤٢٩-	هيجل	ليود سبنسر وأندرزجى كروز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٠-	كانط	كرستوفر وانت وأندزجى كليموفسكى	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣١-	فوكو	كريس هوروكس وزوران جفتيك	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٢-	ماكياڤللى	باتريك كيرى وأوسكار زاريت	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٣-	جويس	ديفيد نوريس وكارل فلنت	حمدى الجابرى
٤٣٤-	الرومانسية	دونكان هيث وجودن بورهام	عصام حجازى
٤٣٥-	توجهات ما بعد الحداثة	نيكولاس زربرج	ناجى رشوان
٤٣٦-	تاريخ الفلسفة (مج١)	فردريك كوبلستون	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٧-	رحالة هندى فى بلاد الشرق	شبلى النعمانى	جلال السعيد الحفناوى
٤٣٨-	بطلات وضحايا	إيمان ضياء الدين بيبرس	عايدة سيف الدولة
٤٣٩-	موت المرابى	صدر الدين عينى	محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٤٠-	قواعد اللهجات العربية	كرستن بروستاد	محمد طارق الشرقاوى
٤٤١-	رب الأشياء الصغيرة	أرونداتى روى	فخرى لبيب
٤٤٢-	حتشبسوت (المرأة الفرعونية)	فوزية أسعد	ماهر جويجاتى
٤٤٣-	اللغة العربية	كيس فرستيغ	محمد طارق الشرقاوى
٤٤٤-	أمريكا اللاتينية: الثقافات القديمة	لاوريت سيجورنه	صالح علمانى
٤٤٥-	حول وزن الشعر	پرويز ناتل خانلرى	محمد محمد يونس
٤٤٦-	التحالف الأسود	ألكسندر كوكبرن وجيفرى سانت كلير	أحمد محمود
٤٤٧-	نظرية الكم	ج. پ. ماك إيڤوى	ممدوح عبدالمنعم
٤٤٨-	علم نفس التطور	ديلان إيڤانز وأوسكار زاريت	ممدوح عبدالمنعم
٤٤٩-	الحركة النسائية	نخبة	جمال الجزيرى
٤٥٠-	ما بعد الحركة النسائية	صوفيا فوكا وريبيكا رايت	جمال الجزيرى
٤٥١-	الفلسفة الشرقية	ريتشارد أوزبورن وبورن ڤان لون	إمام عبد الفتاح إمام
٤٥٢-	لينين والثورة الروسية	ريتشارد إيجناترى وأوسكار زاريت	محيى الدين مزيد
٤٥٣-	القاهرة: إقامة مدينة حديثة	جان لوك أرنو	حليم طوسون وفؤاد الدهان
٤٥٤-	خمسون عامًا من السينما الفرنسية	رينيه بريدال	سوزان خليل
٤٥٥-	تاريخ الفلسفة الحديثة (مج٥)	فردريك كوبلستون	محمود سيد أحمد
٤٥٦-	لا تنسنى	مريم جعفرى	هويدا عزت محمد
٤٥٧-	النساء فى الفكر السياسى الغربى	سوزان مولر أوكين	إمام عبدالفتاح إمام
٤٥٨-	الموريسكيون الأندلسيون	مرثيدس غارثيا أرينال	جمال عبد الرحمن
٤٥٩-	نحو مفهوم لاقتصاديات الموارد الطبيعية	توم تيتنبرج	جلال البنا
٤٦٠-	الفاشية والنازية	ستوارت هود وليتزا جانستز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٦١-	لكاَن	داريان ليدر وجودى جروفز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٦٢-	طه حسين من الأزهر إلى السوربون	عبدالرشيد الصادق محمودى	عبدالرشيد الصادق محمودى
٤٦٣-	الدولة المارقة	ويليام بلوم	كمال السيد
٤٦٤-	ديمقراطية للقلة	مايكل بارنتى	حصة إبراهيم المنيف
٤٦٥-	قصص اليهود	لويس جنزبرج	جمال الرفاعى
٤٦٦-	حكايات حب وبطولات فرعونية	فيولين فانويك	فاطمة محمود

الرقم	العنوان	المؤلف	المترجم
٤٦٧-	التفكير السياسى	ستيفين ديلو	ربيع وهبة
٤٦٨-	روح الفلسفة الحديثة	جوزايا رويس	أحمد الأنصارى
٤٦٩-	جلال الملوك	نصوص حبشية قديمة	مجدى عبدالرازق
٤٧٠-	الأراضى والجودة البيئية	نخبة	محمد السيد النة
٤٧١-	رحلة لاستكشاف أفريقيا (جـ٢)	نخبة	عبد الله عبد الرازق إبراهيم
٤٧٢-	دون كيخوتى (القسم الأول)	ميجيل دى ثربانتس سابيدرا	سليمان العطار
٤٧٣-	دون كيخوتى (القسم الثانى)	ميجيل دى ثربانتس سابيدرا	سليمان العطار
٤٧٤-	الأدب والنسوية	بام موريس	سهام عبدالسلام
٤٧٥-	صوت مصر: أم كلثوم	فرجينيا دانيلسون	عادل هلال عنانى
٤٧٦-	أرض الحبايب بعيدة: بيرم التونسى	ماريلين بوث	سحر توفيق
٤٧٧-	تاريخ الصين	هيلدا هوخام	أشرف كيلانى
٤٧٨-	الصين والولايات المتحدة	ليوشيه شنج و لى شى دونج	عبد العزيز حمدى
٤٧٩-	المقهـــى (مسرحية صينية)	لاوشه	عبد العزيز حمدى
٤٨٠-	تساى ون جى (مسرحية صينية)	كو مو روا	عبد العزيز حمدى
٤٨١-	عباءة النبى	روى متحدة	رضوان السيد
٤٨٢-	موسوعة الأساطير والرموز الفرعونية	روبير جاك تيبو	فاطمة محمود
٤٨٣-	النسوية وما بعد النسوية	سارة جامبل	أحمد الشامى
٤٨٤-	جمالية التلقى	هانسن روبيرت ياوس	رشيد بنحدو
٤٨٥-	التوبة (رواية)	نذير أحمد الدهلوى	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٦-	الذاكرة الحضارية	يان أسمن	عبدالحليم عبدالغنى رجب
٤٨٧-	الرحلة الهندية إلى الجزيرة العربية	رفيع الدين المراد أبادى	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٨-	الحب الذى كان وقصائد أخرى	نخبة	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٩-	هُسِّرل: الفلسفة علمًا دقيقًا	هُسِّرل	محمود رجب
٤٩٠-	أسمار الببغاء	محمد قادرى	عبد الوهاب علوب
٤٩١-	نصوص قصصية من روائع الأدب الأفريقى	نخبة	سمير عبد ربه
٤٩٢-	محمد على مؤسس مصر الحديثة	جى فارجيت	محمد رفعت عواد
٤٩٣-	خطابات إلى طالب الصوتيات	هارولد بالمر	محمد صالح الضالع
٤٩٤-	كتاب الموتى (الخروج فى النهار)	نصوص مصرية قديمة	شريف الصيفى
٤٩٥-	اللوبى	إدوارد تيفان	حسن عبد ربه المصرى
٤٩٦-	الحكم والسياسة فى أفريقيا (جـ١)	إكوادو بانولى	نخبة
٤٩٧-	العلمانية والنوع والدولة فى الشرق الأوسط	نادية العلىّ	مصطفى رياض
٤٩٨-	النساء والنوع فى الشرق الأوسط الحديث	جوديث تاكر ومارجريت مريودز	أحمد على بدوى
٤٩٩-	تقاطعات: الأمة والمجتمع والجنس	نخبة	فيصل بن خضراء
٥٠٠-	فى طفولتى (دراسة فى السيرة الذاتية العربية)	تيتز رووكى	طلعت الشايب
٥٠١-	تاريخ النساء فى الغرب (جـ١)	أرثر جولد هامر	سحر فراج
٥٠٢-	أصوات بديلة	هدى الصدّة	هالة كمال
٥٠٣-	مختارات من الشعر الفارسى الحديث	نخبة	محمد نور الدين عبدالمنعم
٥٠٤-	كتابات أساسية (جـ١)	مارتن هايدجر	إسماعيل المصدق
٥٠٥-	كتابات أساسية (جـ٢)	مارتن هايدجر	إسماعيل المصدق

٥٠٦- ربما كان قديسًا	آن تيلر	عبدالحميد فهمي الجمال
٥٠٧- سيدة الماضي الجميل	بيتر شيفر	شوقي فهيم
٥٠٨- المولوية بعد جلال الدين الرومي	عبدالباقي جلبنارلي	عبدالله أحمد إبراهيم
٥٠٩- الفقر والإحسان في عهد سلاطين المماليك	آدم صبرة	قاسم عبده قاسم
٥١٠- الأرملة الماكرة	كارلو جولدوني	عبدالرازق عيد
٥١١- كوكب مرقّع	آن تيلر	عبدالحميد فهمي الجمال
٥١٢- كتابة النقد السينمائي	تيموثي كوريجان	جمال عبد الناصر
٥١٣- العلم الجسور	تيد أنتون	مصطفى إبراهيم فهمي
٥١٤- مدخل إلى النظرية الأدبية	جونثان كولر	مصطفى بيومي عبد السلام
٥١٥- من التقليد إلى ما بعد الحداثة	فدوى مالطي دوجلاس	فدوى مالطي دوجلاس
٥١٦- إرادة الإنسان في شفاء الإدمان	أرنولد واشنطون ودونا باوندي	صبري محمد حسن
٥١٧- نقش على الماء وقصص أخرى	نخبة	سمير عبد الحميد إبراهيم
٥١٨- استكشاف الأرض والكون	إسحق عظيموف	هاشم أحمد محمد
٥١٩- محاضرات في المثالية الحديثة	جوزايا رويس	أحمد الأنصاري
٥٢٠- الولع بمصر من الحلم إلى المشروع	أحمد يوسف	أمل الصبان
٥٢١- قاموس تراجم مصر الحديثة	آرثر جولد سميث	عبدالوهاب بكر
٥٢٢- إسبانيا في تاريخها	أميركو كاسترو	علي إبراهيم منوفي
٥٢٣- الفن الطليطلي الإسلامي والمدجن	باسيليو بابون مالدونادو	علي إبراهيم منوفي
٥٢٤- الملك لير	وليم شكسبير	محمد مصطفى بدوي
٥٢٥- موسم صيد في بيروت وقصص أخرى	دنيس جونسون رزيفز	نادية رفعت
٥٢٦- علم السياسة البيئية	ستيفن كرول ووليم رانكين	محيي الدين مزيد
٥٢٧- كافكا	ديفيد زين ميروفتس وروبرت كرمب	جمال الجزيري
٥٢٨- تروتسكي والماركسية	طارق علي وفِلْ إيفانز	جمال الجزيري
٥٢٩- بدائع العلامة إقبال في شعره الأردي	محمد إقبال	حازم محفوظ وحسين نجيب المصري
٥٣٠- مدخل عام إلى فهم النظريات التراثية	رينيه جينو	عمر الفاروق عمر
٥٣١- ما الذي حَدَثَ في «حَدَث» ١١ سبتمبر؟	چاك دريدا	صفاء فتحي
٥٣٢- المغامرُ والمستشرق	هنري لورنس	بشير السباعي
٥٣٣- تعلُّم اللغة الثانية	سوزان جاس	محمد الشرقاوي
٥٣٤- الإسلاميون الجزائريون	سيڤرين لابا	حمادة إبراهيم
٥٣٥- مخزن الأسرار	نظامي الكنجوي	عبدالعزيز بقوش
٥٣٦- الثقافات وقيم التقدم	صموبل هنتنجتون	شوقي جلال
٥٣٧- للحب والحرية	نخبة	عبدالغفار مكاوي
٥٣٨- النفس والآخر في قصص يوسف الشاروني	كيت دانيلر	محمد الحديدي
٥٣٩- خمس مسرحيات قصيرة	كاريل تشرشل	محسن مصيلحي
٥٤٠- توجهات بريطانية - شرقية	السير رونالد ستورس	رءوف عباس
٥٤١- هي تتخيل وهلاوس أخرى	خوان خوسيه مياس	مروة رزق
٥٤٢- قصص مختارة من الأدب اليوناني الحديث	نخبة	نعيم عطية
٥٤٣- السياسة الأمريكية	باتريك بروجان وكريس جرات	وفاء عبدالقادر
٥٤٤- ميلاني كلاين	نخبة	حمدي الجابري

٥٤٥-	يا له من سباق محموم	فرانسيس كريك	عزت عامر
٥٤٦-	ريموس	ت. ب. وايزمان	توفيق على منصور
٥٤٧-	بارت	فيليب ثودى وآن كورس	جمال الجزيرى
٥٤٨-	علم الاجتماع	ريتشارد أوزبرن وبورن فان لون	حمدى الجابرى
٥٤٩-	علم العلامات	بول كوبلى وليتاجانز	جمال الجزيرى
٥٥٠-	شكسبير	نيك جروم ويبرو	حمدى الجابرى
٥٥١-	الموسيقى والعولمة	سايمون ماندى	سمحة الخولى
٥٥٢-	قصص مثالية	ميجيل دى ثربانتس	على عبد الروف البمبى
٥٥٣-	مدخل للشعر الفرنسى الحديث والمعاصر	دانيال لوفرس	رجاء ياقوت
٥٥٤-	مصر فى عهد محمد على	عفاف لطفى السيد مارسوه	عبدالسميع عمر زين الدين
٥٥٥-	الإستراتيجية الأمريكية للقرن الحادى والعشرين	أناتولى أوتكين	أنور محمد إبراهيم ومحمد نصرالدين الجبالى
٥٥٦-	چان بودريار	كريس هورروكس وزوران جيفتك	حمدى الجابرى
٥٥٧-	الماركيز دى ساد	ستوارت هود وجراهام كرولى	إمام عبدالفتاح إمام
٥٥٨-	الدراسات الثقافية	زيودين سارداروبورين ڤان لون	إمام عبدالفتاح إمام
٥٥٩-	الماس الزائف	تشا تشاجى	عبدالحى أحمد سالم
٥٦٠-	صلصلة الجرس	نخبة	جلال السعيد الحفناوى
٥٦١-	جناح جبريل	محمد إقبال	جلال السعيد الحفناوى
٥٦٢-	بلايين وبلايين	كارل ساجان	عزت عامر
٥٦٣-	ورود الخريف	خاثينتو بينابينتى	صبرى محمدى التهامى
٥٦٤-	عُش الغريب	خاثينتو بينابينتى	صبرى محمدى التهامى
٥٦٥-	الشرق الأوسط المعاصر	ديبورا. ج. جيرنر	أحمد عبدالحميد أحمد
٥٦٦-	تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى	موريس بيشوب	على السيد على
٥٦٧-	الوطن المغتصب	مايكل رايس	إبراهيم سلامة إبراهيم
٥٦٨-	الأصولى فى الرواية	عبد السلام حيدر	عبد السلام حيدر
٥٦٩-	موقع الثقافة	هومى. ك. بابا	ثائر ديب
٥٧٠-	دول الخليج الفارسى	سير روبرت هاى	يوسف الشارونى
٥٧١-	تاريخ النقد الإسبانى المعاصر	إيميليا دى ثوليتا	السيد عبد الظاهر
٥٧٢-	الطب فى زمن الفراعنة	برونو أليوا	كمال السيد
٥٧٣-	فرويد	ريتشارد ابيجنانس وأسكار زارتى	جمال الجزيرى
٥٧٤-	مصر القديمة فى عيون الإيرانيين	حسن بيرنيا	علاء الدين عبد العزيز السباعى
٥٧٥-	الاقتصاد السياسى للعولمة	نجير وودز	أحمد محمود
٥٧٦-	فكر ثربانتس	أمريكو كاسترو	ناهد العشرى محمد
٥٧٧-	مغامرات بينوكيو	كارلو كولودى	محمد قدرى عمارة
٥٧٨-	الجماليات عند كيتس وهنت	أيومى ميزوكوشى	محمد إبراهيم وعصام عبد الروف
٥٧٩-	تشومسكى	چون ماهر وچودى جروبنز	محيى الدين مزيد
٥٨٠-	دائرة المعارف الدولية (جـ١)	جون فيزر وبول سيترجز	محمد فتحى عبدالهادى
٥٨١-	الحمقى يموتون	ماريو بوزو	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٢-	مرايا الذات	هوشنك كلشيرى	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٣-	الجيران	أحمد محمود	سليم عبد الأمير حمدان

٥٨٤-	سفر	محمود دولت آبادى	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٥-	الأمير احتجاب	هوشنك كلشيرى	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٦-	السينما العربية والأفريقية	ليزبيث مالكموس وروى أرمز	سهام عبد السلام
٥٨٧-	تاريخ تطور الفكر الصينى	نخبة	عبدالعزيز حمدى
٥٨٨-	أمنحوتب الثالث	أنييس كابرول	ماهر جويجاتى
٥٨٩-	تمبكت العجيبة	فيلكس ديبواه	عبدالله عبدالرازق إبراهيم
٥٩٠-	أساطير من الموروثات الشعبية الفنلندية	نخبة	محمود مهدى عبدالله
٥٩١-	الشاعر والمفكر	هوراتيوس	على عبدالتواب على وصلاح رمضان السيد
٥٩٢-	الثورة المصرية	محمد صبرى السوربونى	مجدى عبدالحافظ وعلى كورخان
٥٩٣-	قصائد ساحرة	بول فاليرى	بكر الحلو
٥٩٤-	القلب السمين	سوزانا تامارو	أمانى فوزى
٥٩٥-	الحكم والسياسة فى أفريقيا (جـ٢)	إكوادو بانولى	نخبة
٥٩٦-	الصحة العقلية فى العالم	روبرت ديجارليه وآخرون	إيهاب عبدالرحيم محمد
٥٩٧-	مسلمو غرناطة	خوليو كاروباروخا	جمال عبدالرحمن
٥٩٨-	مصر وكنعان وإسرائيل	دونالد ريدفورد	بيومى على قنديل
٥٩٩-	فلسفة الشرق	هرداد مهرين	محمود سلامة علاوى
٦٠٠-	الإسلام فى التاريخ	برنارد لويس	مدحت طه
٦٠١-	النسوية والمواطنة	ريان ڤوت	أيمن بكر وسمر الشيشكلى
٦٠٢-	ليوتار:نحو فلسفة ما بعد حداثية	چيمس وليامز	إيمان عبدالعزيز
٦٠٣-	النقد الثقافى	آرثر أيزابرجر	وفاء إبراهيم ورمضان بسطاويسى
٦٠٤-	الكوارث الطبيعية (جـ١)	باتريك ل. أبوت	توفيق على منصور
٦٠٥-	مخاطر كوكبنا المضطرب	إرنست زيبروسكى الصغير	مصطفى إبراهيم فهمى
٦٠٦-	قصة البردى اليونانى فى مصر	ريتشارد هاريس	محمود إبراهيم السعدنى
٦٠٧-	قلب الجزيرة العربية (جـ١)	هارى سينت فيلبى	صبرى محمد حسن
٦٠٨-	قلب الجزيرة العربية (جـ٢)	هارى سينت فيلبى	صبرى محمد حسن
٦٠٩-	الانتخاب الثقافى	أجنر فوج	شوقى جلال
٦١٠-	العمارة المدجنة	رفائيل لويث جوثمان	على إبراهيم منوفى
٦١١-	النقد والأيديولوجية	تيرى إيجلتون	فخرى صالح
٦١٢-	رسالة النفسية	فضل الله بن حامد الحسينى	محمد محمد يونس
٦١٣-	السياحة والسياسة	كولن مايكل هول	محمد فريد حجاب
٦١٤-	بيت الأقصر الكبير	فوزية أسعد	منى قطان
٦١٥-	عرض الأحداث التى وقعت فى بغداد	أليس بسيرينى	محمد رفعت عواد
٦١٦-	أساطير بيضاء	روبرت يانج	أحمد محمود
٦١٧-	الفولكلور والبحر	هوراس بيك	أحمد محمود
٦١٨-	نحو مفهوم لاقتصاديات الصحة	تشارلز فيلبس	جلال البنا
٦١٩-	مفاتيح أورشليم القدس	ريمون استانبولى	عايدة الباجورى
٦٢٠-	السلام الصليبى	توماش ماستناك	بشير السباعى
٦٢١-	النوبة المعبر الحضارى	وليم. ى. آدمز	فؤاد عكود
٦٢٢-	أشعار من عالم اسمه الصين	آى تشينغ	أمير نبيه وعبدالرحمن حجازى

٦٢٣-	نوادر جحا الإيرانى	سعيد قانعى	يوسف عبدالفتاح
٦٢٤-	أزمة العالم الحديث	رينيه جينو	عمر الفاروق
٦٢٥-	الجرح السرى	جان جينيه	محمد برادة
٦٢٦-	مختارات شعرية مترجمة (جـ٢)	نخبة	توفيق على منصور
٦٢٧-	حكايات إيرانية	نخبة	عبدالوهاب علوب
٦٢٨-	أصل الأنواع	تشارلس داروين	مجدى محمود المليجى
٦٢٩-	قرن آخر من الهيمنة الأمريكية	نيقولاس جويات	عزة الخميسى
٦٣٠-	سيرتى الذاتية	أحمد بللو	صبرى محمد حسن
٦٣١-	مختارات من الشعر الأفريقى المعاصر	نخبة	بإشراف: حسن طلب
٦٣٢-	المسلمون واليهود فى مملكة فالنسيا	دولورس برامون	رانيا محمد
٦٣٣-	الحب وفنونه	نخبة	حمادة إبراهيم
٦٣٤-	مكتبة الإسكندرية	روى ماكلويد وإسماعيل سراج الدين	مصطفى البهنساوى
٦٣٥-	التثبيت والتكيف فى مصر	جودة عبد الخالق	سمير كريم
٦٣٦-	حج يولندة	جناب شهاب الدين	سامية محمد جلال
٦٣٧-	مصر الخديوية	ف. روبرت هنتر	بدر الرفاعى
٦٣٨-	الديمقراطية والشعر	روبرت بن ورين	فؤاد عبد المطلب
٦٣٩-	فندق الأرق	تشارلز سيميك	أحمد شافعى
٦٤٠-	ألكسياد	الأميرة أنّاكومنينا	حسن حبشى
٦٤١-	برتراندرسل (مختارات)	برتراند رسل	محمد قدرى عمارة
٦٤٢-	داروين والتطور	جوناثان ميلر وبورين فان لون	ممدوح عبد المنعم
٦٤٣-	سفرنامه حجاز	عبد الماجد الدريابادى	سمير عبدالحميد إبراهيم
٦٤٤-	العلوم عند المسلمين	هوارد د.تيرنر	فتح الله الشيخ
٦٤٥-	السياسة الخارجية الأمريكية ومصادرها الداخلية	تشارلز كجلى ويوجين ويتكوف	عبد الوهاب علوب
٦٤٦-	قصة الثورة الإيرانية	سپهر ذبيح	عبد الوهاب علوب
٦٤٧-	رسائل من مصر	جون نينيه	فتحى العشرى

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ٣٠٢١ / ٢٠٠٤